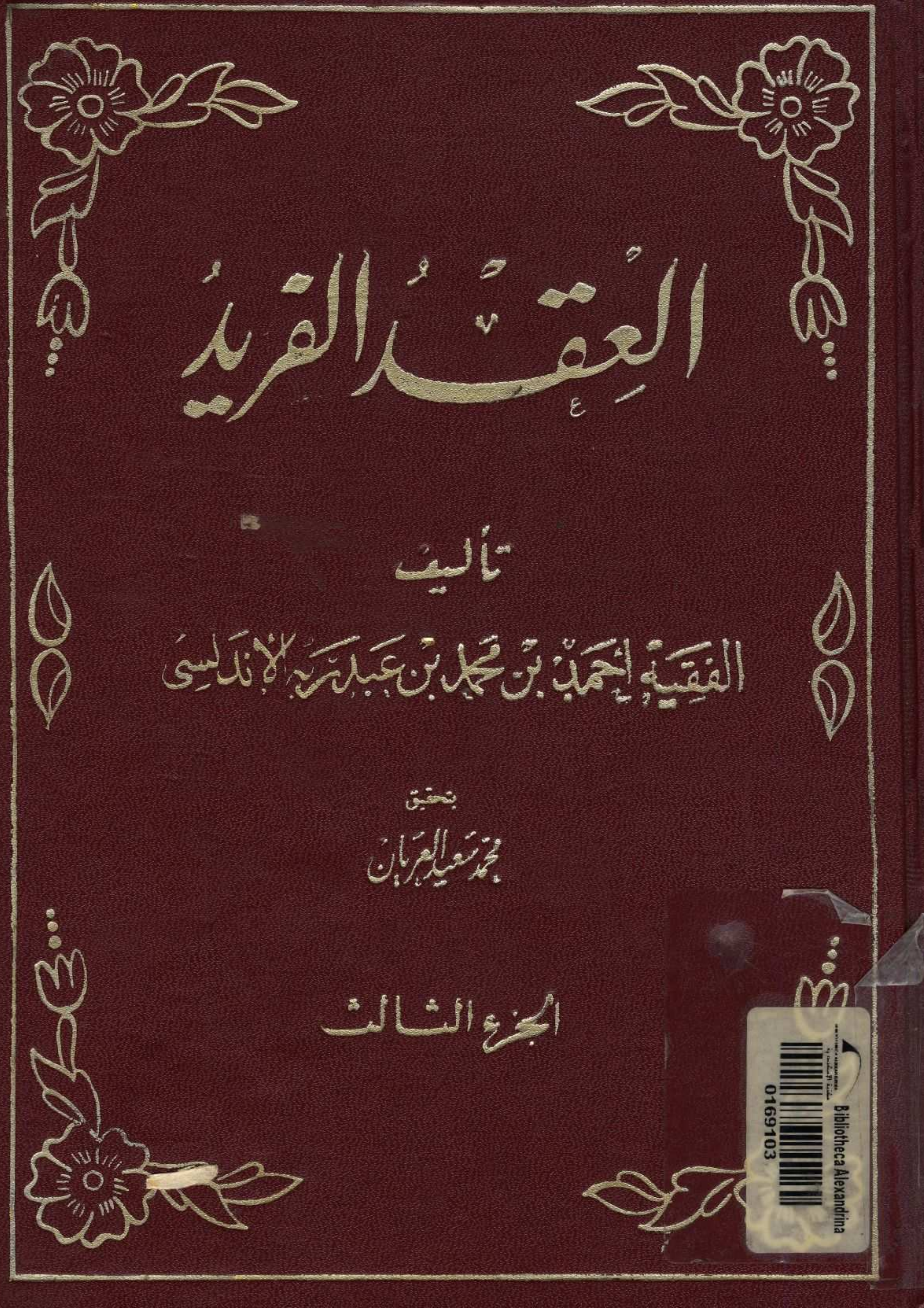

العقد الفريد
تأليف
الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي
بتحقيق
محمد سعيد العريان
الجزء الثالث
Bibliotheca Alexandrina
0169103

العقد الفريد

تأليف

الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي

المتوفى سنة ٣٢٨ هـ

بتحقيق

محمد سعيد العريان

الجزء الخامس

يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى

١٣٧٢ — ١٩٥٣

كتاب العسجدة الثانية

فى الخلفاء وتواريخهم وأيامهم

قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه رحمه الله : قد مضى قولنا فى التوقيعات والفصول والصدور والكتابة ؛ وهذا كتاب ألفناه فى أخبار الخلفاء وتواريخهم وأيامهم وأسماء كُتّابهم وحُجّابهم . ٥

نسب المصطفى صلى الله عليه وسلم

روى أبو الحسن على بن محمد بن عبد الله بن أبى سيف عن أشياخه : هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قُصىّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مُدركة بن الياس بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان . ١٠

وأمّه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب .

مولد النبى صلى الله عليه وسلم

قالوا : وُلِدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ؛ وقال بعضهم : لليلتين خلتا منه ؛ وقال بعضهم : بعد الفيل بثلاثين يوما ؛ فهذا جمع ما اختلفوا فى مولده . ١٥

وأوحى الله إليه وهو ابن أربعين عاما ، وأقام بمكة عشراً وبالمدينة عشرا ؛ وقال ابن عباس : أقام بمكة خمس عشرة ، وبالمدينة عشرا ؛ والمجمع عليه أنه قام بمكة ثلاث عشرة وبالمدينة عشرا .

اليوم والشهر الذى هاجر فيه صلى الله عليه وسلم

هاجر إلى المدينة يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول .

مات يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول ، اليوم والشهر الذى هاجر فيه ، صلى الله عليه وسلم ، وجعلنا ممن يرد حوضه ، وينال مرافقته فى أعلى ٥ عليين من درجات الفردوس ، وأسأل الله الذى جعلنا من أمته ولم نره أن يتوفانا على ملته ، ولا يحرمنا رؤيته فى الدنيا والآخرة .

صفة النبى صلى الله عليه وسلم

ربيعة بن أبى عبد الرحمن عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبيض مشرباً حُمرة ، ضخم الرأس ، أزج الحاجبين ، عظيم العينين ، ١٠ أدعج ، أهْدَب ، شَثْن الكفين والقدمين ، إذا مشى تكفأ كأنما ينحطّ فى صَبَبٍ ويمشى فى صَعَد كأنما يتقلّع من صخر ، إذا التفت التفت جميعا ، ليس بالجعْد القَطط ولا السَّبْط ؛ ذا وفْرة إلى شحمة أذنيه ، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتطامن ، عَرْفُه أطيب من ريح المسك الأذفر ، لم تلد النساء قبله ولا بعده مثله ، بين كتفيه خاتم النُّبوّة كبيض الحمام ، لا يضحك إلا تبسُّما ، فى عنفقته شعَرات ١٥ بيضٌ لا تكاد تَبِين .

وقال أنس بن مالك : لم يبلغ الشيب الذى كان برسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين شعرة ؛ وقيل له : يارسول الله ، عَجِل عليك الشيب ! قال : شيبتنى هودٌ وأخواتها .

هيئة النبى وقعدته صلى الله عليه وسلم

٢٠ كان صلى الله عليه وسلم يأكل على الأرض ، ويجلس على الأرض ، ويمشى فى الأسواق ، ويلبس العباءة ، ويجالس المساكين ، ويقعد القُرفصاء ويتوسَّد يده ، ويَلْعق أصابعه ويقضى من نفسه ، ولا يأكل متكئا ، ولم يُر قط ضاحكا ملء فيه

وكان يقول : « إنما أنا عبدٌ ، آكلُ كما يأكل العبد ، وأشربُ كما يشرب العبد ، ولو دعيتُ إلى ذراعٍ لأجبت ، ولو أُهدِيَ إلىّ كراعٌ لقبِلْت »

شرف بيت النبي صلى الله عليه وسلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم : أنا سيِّدُ البشر ولا فخر ، وأنا أفصحُ العرب ، وأنا أوّلُ من يقْرَعُ بابَ الجنة ، وأنا أوّلُ من ينْشَقُّ عنه التراب ؛ دعا لى إبراهيم ، وبشّرَ بى عيسى ، ورأت أمّى حين وضعَتْنى نوراً أضاء لها ما بين المشرق والمغرب .

وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله خَلَقَ الخَلْقَ فجعلنى فى خيرِ خلقه ، وجعلهم أفراقا فجعلنى فى خيرِهِمْ فِرْقة ، وجعلهم قبائل فجعلنى فى خيْرِ قبيلة ، وجعلهم بُيوتاً فجعلنى فى خيرِ بيتٍ ؛ فأنا خيرُكم بيتاً وخيرُكم نسباً .

وقال صلى الله عليه وسلم : أنا ابنُ الفواطمِ والعواتِك من سُلَيم ، واسْتُرضِعْت فى بنى سعد بن بكر .

وقال : نزل القرآنُ بأعربِ اللغات ، فلكل العربِ فيه لغة ولبنى سعد بن بكر سبعُ لغات .

وبنو سعد بن بكر بن هوازن أفصح العرب ، فهم من الأعجاز : وهى قبائل من مضر متفرّقة ، وكانت ظِئْرُ النبى صلى الله عليه وسلم التى أرضعته حليمة بنت أبى ذؤيب من بنى ناصرة بن سعد بن بكر بن هوازن .

وإخوته من الرضاعة : عبد الله بن الحارث ، وأُنيسة بنت الحارث ، وخِذامة بنت الحارث ، وهى التى أُتِىَ بها النبىُّ صلى الله عليه وسلم فى أسرى حُنين فبَسط لها رداءه ووهب لها أسرَى قومِها .

والعواتك من سُليم ثلاث : عاتكة بنت مرة بن هلال ولدت هاشما وعبد شمس ونوفلا ؛ وعاتكة بنت الأوقص بن هلال ، ولدت وهب بن عبد مناف بن زهرة ؛ وعاتكة بنت هلال بن فالج .

وقال عليّ للأشعث إذ خطب إليه : أغرك ابنُ أبي قحافة إذ زوّجك أمّ فروة ؟ وإنها لم تكن من الفواطم من قريش ولا العواتك من سليم .

أبو النبي صلى الله عليه وسلم

عبد الله بن عبد المطلب ، ولم يكن له ولد غيره صلى الله عليه وسلم ، وتوفى وهو فى بطن أمه ، فلما وُلِدَ كفَلَهُ جدّه عبد المطلب إلى أن توفى فكفله عمُّه أبو طالب ، وكان أخا عبد الله لأمه وأبيه ، فمن ذلك كان أشفقَ أعمامِ النبيّ صلى الله عليه وسلم وأولاهم به . ٥

أعمامه وعماته

وأما أعمام النبي صلى الله عليه وسلم وعماته ، فإن عبد المطلب بن هاشم كان له من الولد لصلبه عشرة من الذكور وستّ من الإناث ، وأسماء بنيه : عبد الله، ١٠ والد النبي عليه الصلاة والسلام ؛ والزبير ؛ وأبو طالب ، واسمه عبد مناف ؛ والعباس ؛ وضِرار ؛ وحمزة ؛ والمقوّم ؛ وأبو لهب ، واسمه عبد العُزى ؛ والحارث والغَيداق ، واسمه حَجْل ، ويقال نوفل .

أسماء بناته عماتِ النبي صلى الله عليه وسلم : عاتكة ؛ والبيضاء ، وهى أم حكيم وبَرّة ؛ وأُميمة ؛ وأروَى ؛ وصفية . ١٥

ولدُ النبي صلى الله عليه وسلم

وُلد له من خديجة : القاسم ، والطيب ، وفاطمة ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم .

وولد له من مارية القبطية : إبراهيم ، فجميع ولده من خديجة ، غير إبراهيم .

أزواجه صلى الله عليه وسلم ٢٠

وأزواجه صلى الله عليه وسلم : أولهن خديجة بنت خويلد بن أسد بن

عبد العزى ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت ؛ ثم تزوج سَودة بنت زَمْعة ، وكانت تحت السكران بن عمرو ، وهو من مهاجرة الحبشة ، فمات ولم يُعقب فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بعده، ثم تزوج عائشة بنت أبي بكر بِكْرا ، ولم يتزوج بكرا غيرها ، وهي ابنة ست ، وابتنى عليها وهي ابنةُ تسع ، وتوفى عنها وهي ابنة ثمان عشرة سنة ، وعاشت بعده إلى أيام معاوية ، وماتت سنة ثمان وخمسين وقد ٥ قاربت السبعين ، ودفنت ليلا بالبقيع وأوصت إلى عبد الله بن الزبير ، وتزوج حفصةَ بنت عمر بن الخطاب ، وكانت تحت خُنيس بن حُذافة السهمى وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسله إلى كسرى ، ولا عقب له ، ثم تزوج زينب بنت خُزيمة ، من بنى عامر بن صعصعة ، وكانت تحت عبيدة بن الحارث ابن عبد المطلب ، أول شهيد كان ببدر ، ، ثم تزوج زينب بنت جحش الأسدية ، ١٠ وهي بنت عمة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي أول من مات من أزواجه في خلافة عمر ، ثم تزوج أم حبيبة — واسمها رملة — ابنة أبي سفيان ، وهي أخت معاوية وكانت تحت عُبيد الله بن جحش الأسدى ، فتنصر ومات بأرض الحبشة ، وتزوج أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومى ، وكانت تحت أبي سلمة ، فتوفى عنها وله منها أولاد ، وبقيت إلى سنة تسع وخمسين وتزوج ميمونة بنت الحارث من ١٥ بنى عامر بن صعصعة ، وكانت تحت أبي سبرة بن أبي رُهم العامرى ، وتزوج صفيّة بنت حُيَيّ بن أخطب النَّضْرية ، وكانت تحت رجل من يهود خيبر ، يقال له كنانة فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنقه وسبى أهله ، وتزوج جُويرية بنت الحارث ، وكانت من سبى بنى المصطلق ، وتزوج خولة بنت حكيم ، وهي التى وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم ، وتزوج امرأة يقال لها عمرة ، فطلقها ولم ٢٠ يَبْنِ بها ، وذلك أن أباها قال له : وأزيدك أنها لم تَمْرَض قط ! فقال : ما لهذه عند الله من خير ! فطلقها ، وتزوج امرأة يقال لها : أميمة بنت النعمان ، فطلقها قبل أن يطأها ، وخطب امرأة من بنى مرة بن عوف ، فرده أبوها وقال : إنّ بها برصا ! فلما رجع إليها وجدها برصاء !

كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وخدّامه

كُتّاب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم : زيد بن ثابت ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وحنظلة بن ربيعة الأسدى ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، ارتد ولحق بمكة مشركا .

٥ وحاجبه : أبو أنَسَة مولاه .

وخادمه : أنس بن مالك الأنصارى ، ويكنى أبا حمزة .

وخازنه على خاتمه : معيقيب ابن أبي فاطمة .

ومؤذّناه : بلال ، وابن أم مكتوم .

وحراسه : سعد بن زيد الأنصارى ، والزبير بن العوام ، وسعد بن ١٠ أبي وقاص .

وخاتمه فضة ، وفصه حبشى ، مكتوب عليه : محمدٌ رسول الله ، فى ثلاثة أسطر : محمدٌ ، سطر ؛ ورسولُ ، سطر ؛ والله ، سطر .

وفى حديث أنس بن مالك خادمِ النبى صلى الله عليه وسلم : وبه تختّم أبو بكر وعمرُ ، وتختم به عثمان ستة أشهر ، ثم سقط منه فى بئر ذى أرْوان ، ١٥ فطُلِبَ فلم يُوجدْ .

وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وسنه

توفى صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ، وحُفِرَ له تحت فراشه فى بيت عائشة ، وصلى عليه المسلمون جميعا بلا إمام الرجال ثم النساء ثم الصبيانُ ، ودُفِنَ ليلة الأربعاء فى جوف الليل ، ودخل القبر ٢٠ علىٌّ ، والفضلُ وقُثَم ابنا العباس ، وشُقران مولاه ، ويقال : أسامة بن زيد ؛ وهم تولوا غسلَه وتكفينه وأمرَه كلَّه ، وكُفِّن فى ثلاثة أثواب بيض سَحُولية ليس فيها قميصٌ ولا عمامة ؛ واختُلِف فى سِنِّه . فقال عبد الله بن عباس

وعائشة ، وجرير بن عبد الله ، ومعاوية : توفى وهو ابن ستين سنة . وقال عروة ابن الزبير وقتادة : اثنتين وستين سنة .

نسب أبى بكر الصدّيق وصفته

رضى الله عنه

هو عبد الله بن أبى قحافة ، واسم أبى قحافة : عثمان بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تيم بن مرة . ٥

وأمّه أمّ الخير ابنة صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة .

وكاتبه عثمان بن عفان ؛ وحاجبه : رشيد مولاه ، وقيل كتب له زيد بن ثابت أيضا ؛ وعلى أمره كله وعلى القضاء عمر بن الخطاب ، وعلى بيت المال أبو عبيدة ابن الجراح ثم وجهه إلى الشام ؛ ومؤذنه سعد القَرَظ مولى عمار بن ياسر . ١٠

قيل لعائشة : صفى لنا أباك . قالت : كان أبيض ، نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، أَجْنأ ، لايستمسك إزاره ، معروق الوجه ، غائر العينين ؛ ناتئ الجبهة ، عارى الأشاجع ، أفرع .

وكان عمر بن الخطاب أصلع ، وكان أبو بكر يَخْضِبُ بالحناء والكتم .

وقال أبو جعفر الأنصارى : رأيت أبا بكر كأن لحيته ورأسه جمر الغضى . ١٥

وقال أنس بن مالك : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وليس فى أصحابه أشمط غير أبى بكر ، فغلفها بالحناء والكتم .

وتوفى مساء ليلة الثلاثاء لثمان ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من التاريخ ، فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال ، وكان نقش خاتم أبى بكر : نِعْم القادرُ اللهُ . ٢٠

خلافة أبي بكر رضي الله عنه

شعبة عن سعد بن إبراهيم عن عروة عن عائشة ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في مرضه : « مروا أبا بكر فليصل بالناس فقلت : يارسول الله ، إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء ، فمر عمر فليصل بالناس . قال : مروا أبا بكر فليصل بالناس ، قالت عائشة : فقلت لحفصة : قولي له إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء ، فمُرْ عمر . ففعلت حفصة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مه ! إنكن صواحب يوسف ، مروا أبا بكر فليصل بالناس .

أبو جعدة عن الزبير قال . قالت حفصة يارسول الله ، إنك مرضت فقدمت أبا بكر . قال : لست الذي قدّمه ، ولكن الله قدمه .

أبو سلمة عن إسماعيل بن مسلم عن أنس قال : صلى أبو بكر بالناس ورسول الله صلى الله عليه وسلم مريض ستة أيام .

النضر بن إسحاق عن الحسن قال : قيل لعلي : علام بايعت أبا بكر ؟ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت فجأة ، كان يأتيه بلال في كل يوم في مرضه يُؤْذنه بالصلاة ، فيأمر أبابكر فيصلي الناس ، وقد تركني وهو يرى مكاني ؛ فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم رضيَ المسلمون لدنياهم من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينهم ، فبايعوه وبايعته .

ومن حديث الشعبي قال : أول من قدم مكة بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافة أبي بكر : عبد ربّه بن قيس بن السائب المخزومي ؛ فقال له أبو قحافة : مَن وَلِيَ الأمرَ بعده ؟ قال : أبو بكر ابنُك . قال : فرضيَ بذلك بنو عبد مناف ؟ قال : نعم . قال : لا مانع لما أعطى الله ، ولا معطيَ لما منع الله !

جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار قال : توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو سفيان غائب في مسعاة أخرجه فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

فلما انصرف لقى رجلا فى بعض طريقه مقبلا من المدينة ، فقال له : مات محمد ؟ قال : نعم ، قال : فمن قام مقامه ؟ قال : أبو بكر . قال أبو سفيان : فما فعل المستضعفان : علىّ والعباس ؟ قال : جالسين . قال : أما والله لئن بقيتُ لهما لأرفعنّ من أعقابهما ؛ ثم قال إنى أرى غبرَة لا يطفئها إلا دم ! فلما قدم المدينة جعل يطوف فى أزقّتها ويقول : ٥

بنى هاشمٍ لا تَطمع الناسُ فيكمُ * ولا سيَّما تَيْم بن مُرَّة أو عدىّ

فما الأمرُ إلا فيكمُ وإليكمُ * وليس لها إلا أبو حسَنٍ علىّ

فقال عمر لأبى بكر : إن هذا قد قدِم ، وهو فاعلٌ شرا ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يتألّفه على الإسلام ، فدع له ما بيده من الصدقة ! ففعل ، فرضى أبو سفيان وبايعه . ١٠

سقيفة بنى ساعدة

أحمد بن الحارث عن أبى الحسن عن أبى معشر عن المقبرى . أن المهاجرين بينما هم فى حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قبضه الله إليه ، إذ جاء معن بن عدىّ وعويم بن ساعدة ، فقالا لأبى بكر : باب فتنةٍ إن يُغلِقْه الله بك ؛ هذا سعد بن عبادة والأنصار يريدون أن يبايعوه . فمضى أبو بكر وعمر ١٥ وأبو عبيدة ، حتى جاءوا سقيفة بنى ساعدة ، وسعد على طنفسة متكئاً على وسادة ، وبه الحُمَّى ، فقال له أبو بكر : ماذا ترى أبا ثابت ؟ قال : أنا رجلٌ منكم . فقال حباب بن المنذر : منا أميرٌ ومنكم أمير ، فإن عمِل المهاجرىُّ فى الأنصارى شيئاً ردّ عليه ، وإن عمِل الأنصارى فى المهاجرى شيئاً ردّ عليه ، وإن لم تفعلوا ، فأنا جُذيْلُها المحكَّك وعُذيْقُها المرجَّب ، لنُعيدَنّها جَذَعة ! قال ٢٠ عمر : فأردت أن أتكلم ، وكنتُ زوّرتُ كلاما فى نفسى ، فقال أبو بكر : على رِسْلِك يا عمر . فما ترك كلمة كنت زوّرتها فى نفسى إلا تكلم بها ، وقال :

نحن المهاجرون ؛ أوّل الناس إسلاما ، وأكرمهم أحسابا ، وأوسطهم دارا ،

وأحسنهم وجوها . وأمسّهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رحما ؛ وأنتم إخواننا في الإسلام ، وشركاؤنا في الدين ، نصرتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيرا ؛ فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تدين العرب إلا لهذا الحيّ من قريش ، فلا تنفّسوا على إخوانكم المهاجرين ما فضّلهم الله به ؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأئمّة من قريش . وقد رضيتُ لكم أحد هذين الرجلين . يعنى عمرَ ابن الخطاب ، وأبا عبيدة بن الجراح .

فقال عمر : يكون هذا وأنت حي ؟ ما كان أحدٌ ليؤخّرك عن مقامك الذي أقامك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم ضرب على يده فبايعه ، وبايعه الناس وازدحموا على أبي بكر ، فقالت الأنصار : قتلتم سعدا ! فقال عمر : اقتلوه قتله الله فإنه صاحب فتنة !

فبايع الناس أبا بكر ، وأتوْا به المسجد يبايعونه ، فسمع العباس وعلى التكبير في المسجد ولم يفرغوا من غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال على : ما هذا ؟ قال العباس : ما رؤى مثل هذا قط ما قلت لك .

ومن حديث النعمان بن بشير الأنصارى : لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلم الناس فيمن يقوم بالأمر بعده ، فقال قوم : أبو بكر ، وقال قوم : أبي بن كعب . قال النعمان بن بشير : فأتيت أبيا فقلت : يا أبيّ ، الناس قد ذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخلف أبا بكر أو إياك ، فانطلق حتى تنظر في هذا الأمر ، فقال : إن عندى في هذا أمرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ما أنا بذاكره حتى يقبضه الله إليه . ثم انطلق وخرجت معه حتى دخلنا على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الصبح ، وهو يحسو حسواً في قطعة مشعوبة ، فلما فرغ أقبل على أبيّ فقال : هذا ما قلت لك قال : فأوص بنا . فخرج يخط برجليه حتى صار على المنبر ثم قال :

يامعشر المهاجرين إنكم أصبحتم تزيدون ، وأصبحت الأنصار كما هي لا تزيد ، ألا وإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام فمن ولى

من أمرهم شيئا ، فليقبل من محسنهم ويعف عن مسيئهم .

ثم دخل ، فلما توفى ، قيل لى : هاتيك الأنصار مع سعد بن عبادة يقولون : نحن أولى بالأمر . والمهاجرون يقولون : لنا الأمر دونكم ! فأتيت أُبيا فقرعت بابه ، فخرج إلى ملتحفا ، فقلت : ألا أراك قاعداً ببيتك مُغلِقاً عليك بابك ، وهؤلاء قومُك فى بنى ساعدة ينازِعون المهاجرين ، فأخرج إلى قومك ٥ فخرج ، فقال :

إنكم والله ما أنتم من هذا الأمر فى شىء ، وإنه لهم دونكم ؛ يليها من المهاجرين رجلان ، ثم يقتل الثالث ، وينزع الأمر فيكون ههنا — وأشار إلى الشام — وإن هذا الكلام لمبلول بريق رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أغلق بابه ودخل . ١٠

ومن حديث حذيفة قال : كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « إنى لا أدرى ما بقائى فيكم ؛ فاقتدوا باللذَين من بعدى — وأشار إلى أبى بكر وعمر — واهتدُوا بهدى عمّار ، وما حدثكم ابنُ مسعود فصدّقوه » .

الذين تخلفوا عن بيعة أبى بكر

علىٌّ ، والعباس ، والزبير ، وسعد بن عبادة ، فأما على والعباس والزبير ١٥ فقعدوا فى بيت فاطمة حتى بعث إليهم أبو بكر عمرَ بن الخطاب ليخرجوا من بيت فاطمة ، وقال له : إنْ أبوْا فقاتلهم . فأقبل بقبَس من نار على أن يضرم عليهم الدار ، فلقيتْه فاطمة فقالت : يا ابن الخطاب ، أجئت لتُحرق دارَنا ؟ قال : نعم ، أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأمة ! فخرج على حتى دخل على أبى بكر فبايعه ، فقال له أبو بكر : أكرهت إمارتى ؟ فقال : لا ، ولكننى آليت أن لا أرتدى ٢٠ بعد موت رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حتى أحفظ القرآن ، فعليه حبست نفسى .

ومن حديث الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : لم يبايع علىٌّ أبا بكر حتى ماتت فاطمة ، وذلك لستة أشهر من موت أبيها صلى الله عليه وسلم ، فأرسل

على إلى أبى بكر ، فأتاه فى منزله فبايعه ، وقال : والله ما نفسْنا عليك ما ساق الله إليك من فضل وخير ، ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر شيئاً فاستبددت به دوننا ، وما نُنكر فضلك .

وأما سعد بن عبادة فإنه رحل إلى الشام .

٥ أبو المنذر هشام بن محمد الكلبي قال : « بعث عمر رجلا إلى الشام ، فقال : أدعه إلى البيعة واحمل له بكل ما قدرت عليه ، فإن أبى فاستعن الله عليه ، فقدم الرجل الشام ، فلقيه بحوران فى حائط ، فدعاه إلى البيعة ، فقال : لا أبايع قرشيا أبدا ! قال فإنى أقاتلك ! قال وإن قاتلتنى ! قال : أفخارج أنت مما دخلت فيه الأمة ؟ قال : أما من البيعة فأنا خارج . فرماه بسهم فقتله

١٥ ميمون بن مهران عن أبيه قال : رُمى سعد بن عبادة فى حَمَّام بالشام فقتل .

سعيد بن أبى عروبة عن ابن سيرين قال : رمى سعد بن عبادة بسهم فوجد دفينا فى جسده فمات ، فبكته الجن ، فقالت :

وقتلنا سيِّدَ الخزْ ... رجِ سعدَ بن عُبادَهْ
ورميْنــاهُ بسهمَيـ ... ـنِ فلم نُخْطِئْ فؤادَهْ

١٠ فضائل أبى بكر رضى الله عنه

محمد بن المنكدر قال : نازع عمر أبا بكر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل أنتم تاركو لى صاحبى ؟ إن الله بعثنى بالهدى ودينِ الحقِّ إلى الناس كافة فقالوا : جميعاً كذبت . وقال أبو بكر صدقتَ ! »

وهو صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجليسُه فى الغار ، وأول من ٢٠ صلى معه وآمن به واتَّبعه .

وقال عمر بن الخطاب : أبو بكر سيدُنا . وأعتقَ سيدنا ، يريد بلالا ، وكان بلال عبداً لأمية بن خلف ، فاشتراه أبو بكر وأعتقه ، وكان من مولدى مكة ، أبوه رباح ، وأمه حمامة .

وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم . من أول من قام معك فى هذا الأمر ؟ قال : حُرٌّ وعبد ؛ يريد بالحرّ أبا بكر ، وبالعبد بلالا . وقال بعضهم : علىٌّ وخبّاب :

أبو الحسن المدائنى قال : دخل هارون الرشيد مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث إلى مالك بن أنس فقيه المدينة ، فأتاه وهو واقف بين قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمنبر ؛ فلما قام بين يديه وسلم عليه بالخلافة ، قال : ٥ يا مالك ، صف لى مكان أبى بكر وعمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحياة الدنيا . فقال : مكانُهما منه يا أمير المؤمنين كمكان قبريهما من قبره . فقال : شفيتَنى يا مالك .

الشعبى عن محمد أبى سلمة ، أن عليا سُئل عن أبى بكر وعمر ، فقال : على الخبير سقَطْتَ : كانا والله إمامين صالحَيْن مصلحين ، خرجا من الدنيا خميصين . ١٠

وقال على بن أبى طالب : سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثنّى أبو بكر وثلّث عمر ؛ ثم خبطتنا فتنة عمياء [يعفو الله فيها] عمن يشاء .

وقالت عائشة . تُوُفّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سَحرى ونحرى ، فلو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بأبى لهدّها ، اشرأبَّ النفاق ، وارتدت العرب ؛ فوالله ما طاروا فى نقطة إلا طار أبى بحظها وغَنائها فى الإسلام . ١٥

عمرو بن عثمان عن أبيه عن عائشة أنه بلغها أن أناساً ينالون من أبيها . فأرسلت إليهم ، فلما حضروا قالت :

إن أبى والله لا تَعْطُوه الأيدى ، ذاكَ طود منيف وظل ممدود ، أنجحَ إذ أكْدَيتم ، وسبق إذ ونيتم ، سبْق الجوادِ إذا استولى على الأمدِ ، فتى قريش ناشئا ، وكهفها كهلا ، يفك عانيها ، ويريش مُملقها ، ويرأب صَدْعَها ويلُمّ شعثها ، ٢٠ فما برحت شكيمته فى ذات الله تشتد ، حتى اتخذ بفنائه مسجداً يحيى فيه ما أمات المبطلون ، وكان وقيذ الجوانح غزير الدمعة ، شجىَّ النشيج ، وأصْفقَتْ إليه نسوان مكة والوِلدانُ يسخرون منه ويستهزءون به ، والله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ،

فأكبرت ذلك رجالاتُ قريش فما فلوا له صفاة، ولا قصفوا قناة؛ حتى ضَرب الحقُّ بجرانه، وألقى بَرْكه، ورست أوتادُه. فلما قبض الله نبيَّه ضرب الشيطان رواقه، ومدّ طُنبه؛ ونصب حبائله، وأجلب بخيله ورجله؛ فقام الصِّديق حاسراً مشمِّرا، فردّ نشر الإسلام على غرّه وأقام أودَه بثقافه، فابذعرّ النفاق بوطئه، ٥ وانتاش الناسَ بعدله، حتى أراح الحقَّ على أهله، وحقن الدماء فى أُهُبِها؛ ثم أتته منيته؛ فسدّ ثلمته نظيره فى المرحمة، وشقيقه فى المَعْدَلة؛ ذلك ابن الخطاب، لله درُّ أم حَفَلت له ودرّت عليه! ففتح الفتوح، وشرّد الشرك، وبعج الأرض فقاءت أكلها، ولفظت جناها، ترأمه ويأباها، وتريده ويصدِف عنها، ثم تركها كما صحبها؛ فأرونى ما ترتابون؟ وأى يومَىْ أبى تنقمون؟ أيومَ إقامته إذ عدل ١٠ فيكم، أم يوم ظَعْنِهِ إذ نظر لكم، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

وفاة أبى بكر الصديق رضى الله عنه

الليث بن سعد عن الزهرى قال: أُهْدِىَ لأبى بكر طعام وعنده الحرث ابن كلدة، فأكلا منه؛ فقال الحرث: أكلنا سمَّ سنة، وإنى وإياك لميتان عند رأس الحول! فماتا جميعاً فى يوم واحد عند انقضاء السنة، وإنما سمَّته يهود كما سمت ١٥ النبى صلى الله عليه وسلم بخيبر فى ذراع الشاة؛ فلما حضرت النبى صلى الله عليه وسلم الوفاةُ قال: «ما زالت أكلة خيبر تعاودنى حتى قطعت أبهرى»! وهذا مثل ما قال الله تعالى ﴿... ثم لقطعْنا منْه الوتينَ﴾ والأبهر والوتين: عرقان فى القلب إذا انقطع أحدهما مات صاحبه.

الزهرى عن عروة عن عائشة قالت: اغتسل أبو بكر يوم الاثنين لسبع خلون ٢٠ من جمادى الآخرة، وكان يوما بارداً، فحُمَّ خمسة عشر يوما لايخرج إلى صلاة، وكان يأمر عمر أن يصلى بالناس؛ وتوفى ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من التاريخ؛ وغسلته امرأته أسماء بنت عميس وصلى عليه عمر بن الخطاب بين القبر والمنبر، وكبَّر أربعا».

الزهرى عن سعيد بن المسيب قال: لما توفى أبو بكر أقامت عليه عائشة النوح فبلغ ذلك عمر فنهاهن، فأبين فقال لهشام بن الوليد: أخرج إلىّ بنت أبى قحافة. فأخرج إليه أم فروة؛ فعلاها بالدِّرَّة ضربا، فتفرق النوائح.

وقالت عائشة وأبوها يغمض، رضى الله عنه:

وأبيض يُستسقَى الغمام بوجهه * ربيعُ اليتامَى عِصمةٌ للأرامل ٥

قالت عائشة: فنظر إلىّ وقال: ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم أُغمى عليه، فقالت:

لعَمْرُك ما يُغنِى الثراء عن الفتَى * إذا حَشْرَجت يوماً وضاق بها الصَّدْرُ

فنظر إلىّ كالغضبان وقال: قولى: ﴿وجاءتْ سكْرةُ الموْتِ بالحقِّ ذلك ما كنت منه تَحِيدُ﴾. ثم قال: انظروا مُلاءتين خلَقين فاغسلوهما وكفّنونى فيهما؛ فإن ١٠ الحى أحوج إلى الجديد من الميت.

عروة بن الزبير والقاسم بن محمد، قالا: أوصى أبو بكر عائشة أن يدفن إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلما توفى حُفِر له وجُعل رأسه بين كتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورأس عمر عند حِقوَىْ أبى بكر: وبقى فى البيت موضع قبر؛ فلما حضرت الوفاة الحسن بن على، أوصى بأن يدفن مع جده فى ١٥ ذلك الموضع؛ فلما أراد بنو هاشم أن يحفروا له منعهم مروان - وهو والى المدينة فى أيام معاوية - فقال أبو هريرة: علاَم تمنعه أن يُدفن مع جده؟ فأشهد لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة» قال له مروان: لقد ضيَّع الله حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا لم يروه غيرك. قال: أنا والله لقد قلت ذلك؛ لقد صحبته حتى عرفت من أحبّ ومن ٢٠ أبغض، ومن نفى ومن أقرّ، ومن دعا له ومن دعا عليه.

قال: وسطح قبر أبى بكر كما سُطِّح قبر النبى صلى الله عليه وسلم، ورُشّ بالماء.

هشام بن عروة عن أبيه: أن أبا بكر صُلِّىَ عليه ليلا ودفن ليلا.

ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة ، ولها مات النبي صلى الله عليه وسلم .

وعاش أبو قحافة بعد أبي بكر أشهراً وأياما ، ووهب نصيبه فى ميراثه لولد أبي بكر .

وكان نقش خاتم أبي بكر : نِعم القادر الله .

٥ ولما قُبض أبو بكر سُجِّيَ بثوب ، فارتجّت المدينة من البكاء ، ودَهِش القوم كيوم قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم . وجاء على بن أبي طالب باكياً مسرعا مسترجعاً حتى وقف بالباب وهو يقول :

« رحمك الله أبا بكر ! كنت والله أول القوم إسلاما ، وأصدقهم إيمانا ، وأشدهم يقينا وأعظمهم غنى ، وأحفظهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ١٠ وأحدبَهم على الإسلام ، وأحماهم عن أهله ، وأنسبهم برسول الله خُلُقاً وفضلا وهَدْياً وسمتا ؛ فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيرا ؛ صدقت رسول الله حين كذّبه الناس وواسيته حين بخلوا ، وقمت معه حين قعدوا وسمّاك الله فى كتابه صدّيقا فقال : ﴿ والذى جاء بالصّدق وصدّق به ﴾ ، يريد محمداً ويريدك : كنت والله للإسلام حصنا ، وللكافرين ناكيا ، لم تَفْلُلْ حجتُك ، ١٥ ولم تضعف بصيرتُك ، ولم تجبُنْ نفسُك ؛ كنت كالجبل لا تحرّكه العواصف ، ولا تُزيله القواصف ؛ كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ضعيفا فى بدنك ؛ قويّا فى دينك ، متواضعا فى نفسك ، عظيما عند الله ، جليلا فى الأرض ، كبيراً عند المؤمنين ؛ لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى ، فالضعيف عندك قوى ، والقوىُّ عندك ضعيف ، حتى تأخذ الحق من القوى وترده للضعيف ، فلا حَرَمك ٢٠ الله أجرك ، ولا أضلّنا بعدك .

القاسم بن محمد عن عائشة أم المؤمنين أنها دخلت على أبيها فى مرضه الذى تُوُفى فيه ، فقالت :

يا أبت ، اَعهد إلى خاصّتك ، وأنفذ رأيك فى عامتك ، وانقل من دار جهازك إلى دار مُقامك ؛ إنك محضورٌ ومتصلٌ بى لوعتك ، وأرى تخاذُل أطرافك ،

وانتقاع لونك ؛ فإلى الله تعزيتى عنك ، ولديه ثواب حزنى عليك ؛ أرقأ فلا أرقأ وأشكو فلا أشكى .

قال : فرفع رأسه وقال :

يا أمه ، هذا يوم يُجلّى لى عن غطائى ، وأشاهد جزائى ، إنْ فرحا فدائم ، وإن ترحا فمقيم ، إنى اضطلعت بإمامة هؤلاء القوم ، حين كان النكوص إضاعة ، والخزَل تفريطا ؛ فشهيدى الله ماكان بقلبى إلا إياه ؛ فتعلقت بصحفتهم وتعللت بدرّة لقحتهم ، وأقمت صلاتىَ معهم ، لا مختالا أشِرا ، ولا مكاثراً بطِرا ، لم أعْدُ سدّ الجوعة ، ووَرْىَ العورة ، وقواتة القوام ؛ من طَوًى مُمِضٍ تهفو منه الأحشاء، وتجف له الأمعاء، واضطررت إلى ذلك اضطرار الجَرِضِ إلى الماء المعيف الآجن ؛ فإذا أنا مِتُّ فردّى إليهم صحفتهم وعبدهم ولقحتهم ورحاهم ، ودثارة ما فوقى اتقيت بها البرد ، ودثارة ماتحتى اتقيت بها أذى الأرض ، كان حشوها قطع السعف .

قال : ودخل عليه عمر فقال : ياخليفة رسول الله لقد كلفت القوم بعدك تعبا ، ووليتهم نصَبا ، فهيهات من شق غبارك فكيف اللحاق بك .

استخلاف أبى بكر لعمر

عبد الله بن محمد التيمى عن محمد بن العزيز ، أن أبا بكر الصديق حين حضرته الوفاة كتب عهده وبعث به مع عثمان بن عفان ورجل من الأنصار ليقرآه على الناس فلما اجتمع الناس قاما فقالا : « هـذا عهد أبى بكر فإن تُقِرّوا به نقرأه ، وإن تنكروه نرجعه » فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم : هـذا عهد أبى بكر بن أبى قحافة عند آخر عهده بالدنيا خارجا منها ، وأول عهده بالآخرة داخلا فيها ، حيث يؤمن الكافر ، ويتقى الفاجر ، ويصدق الكاذب ، أمّرت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن عَدَل واتقى فذاك ظنى به ورجائى فيه ، وإن بدّل وغيّر ، فالخير أردت ، ولا يعلم الغيب إلا الله .

قال أبو صالح : أخبر محمد بن وضاح ، قال : حدثنى محمد بن رُمْح بن مهاجر التُّجيبى ، قال : حدثنى الليث بن سعد عن علوان عن صالح بن كيسان عن حميد ابن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه ، أنه دخل على أبى بكر رضى الله عنه فى مرضه الذى توفى فيه ، فأصابه مفيقا ، فقال : أصبحت بحمد الله بارئا .

٥ قال أبو بكر : أتراه ؟

قال : نعم .

قال : أما إنى على ذلك لشديد الوجع ، ولمَا لقيت منكم يامعشر المهاجرين أشدُّ علىّ من وجعى ؛ إنى ولَّيت أمركم خيرَكم فى نفسى ، فكلُّكم ورِم من ذلك أنفُه ، يريد أن يكون له الأمر من دونه ، ورأيتم الدنيا مقبلة ولن تُقبل ، وهى

١٠ مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج ، وتألمنّ الاضطجاع على الصوف الأذرَبِىّ ، كما يألم أحدكم الاضطجاع على شوك السعدان ، والله لأنْ يقدَّم أحدكم فيُضرب عنقُه فى غير حدّ ، خير له من أن يخوض فى غمرة الدنيا ، ألا وإنكم أول ضال بالناس غدا فتصدونهم عن الطريق يمينا وشمالا ، يا هادى الطريق جُرْت ، إنما هو الفجر أو البحْر .

١٥ قال : فقلت له : خفِّض عليك يرحمك الله ، فإن هذا يهيضك على ما بك ؛ إنما الناس فى أمرك بين رجلين : إما رجل رأى مارأيت فهو معك ، وإما رجل خالفك فهو يُشير عليك برأيه ، وصاحبُك كما تحب ، ولا نعلمك أردت إلا الخير ، ولم تزل صالحا مصلحا ، مع أنك لاتأسى على شىء من الدنيا .

فقال : أجل ، إنى لا آسى على شىء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتهن ، ووددت

٢٠ أنى تركتهن ، وثلاث تركتهن ووددت أنى فعلتهن ، وثلاث وددت أنى سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهن :

فأما الثلاث التى فعلتهن ووددت أنى تركتهن : فوددت أنى لم أكشف بيت فاطمة عن شىء ؛ وإن كانوا أغلقوه على الحرب ، ووددت أنى لم أكن حَرَقت

الفُجاءةَ السلمى ، وأنى قتلته سَرِيحاً أو خليته نجيحا ؛ ووددت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة قذفتُ الأمر فى عنق أحدِ الرجلين ، فكان أحدهما أميرا وكنتُ له وزيرا . يعنى بالرجلين : عمر بن الخطاب ، وأبا عبيدة بن الجراح .

وأما الثلاثُ التى تركتهن ووددت أنى فعلتهن : فوددت أنى يوم أُتيت بالأشعث بن قيس أسيرا ضربت عنقه ، فإنه يخيل إلىّ أنه لايرى شرا إلا أعان عليه ؛ ووددتُ أنى يوم سَيَّرْتُ خالد بن الوليد إلى أهل الردة أقمتُ بذى القَصّة ، فإن ظفِرَ المسلمون ظَفِروا ، وإن انهزموا كنت بصدد لقاء أو مدد ؛ ووددت أنى وجهت خالدَ بن الوليد إلى الشام ، ووجّهت عمر بن الخطاب إلى العراق ، فأكون قد بسطت يدىّ كلتيهما فى سبيل الله .

وأما الثلاث التى وددت أنى سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهن : فإنى وددت أنى سألتُه : لمن هذا الأمرُ من بعده ؟ فلا ينازعه أحد ؛ وأنى سألتُه : هل للأنصار فى هذا الأمر نصيب ؟ فلا يُظْلَموا نصيبَهم منه ؛ ووددت أنى سألته عن بنت الأخ والعمة ، فإن فى نفسى منهما شيئا .

نسب عمر بن الخطاب وصفته

أبو الحسن على بن محمد قال : هو عمرُ بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى ابن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك ، وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وهاشم هو ذو الرمحين .

قال أبو الحسن : كان عمر رجلا آدمَ مشربا حمرة طويلا أصلع ، له حِفافان حسَنَ الخدين والأنف والعينين ، غليظ القدمين والكفين ، مجدول اللحم ، حسَنَ الخَلْق ، ضخم الكراديس ، أعسر يَسَر ، إذا مشى كأنه راكب .

ولى الخلافة يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من التاريخ .

وطعن لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين من التاريخ ، فعاش ثلاثة أيام ، ويقال سبعةَ أيام .

معدان بن أبى حفصة ، قال : قُتِل عمرُ يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين ، وهو ابن ثلاث وستين سنة فى رواية الشعبى ؛ ٥ ولها مات أبو بكر ، ولها مات النبي صلى الله عليه وسلم .

فضائل عمر بن الخطاب

أبو الأشهب عن الحسن ، قال : عاتب عيينة عثمان ، فقال له : كان عمر خيراً لنا منك ، أعطانا فأغنانا وأخشانا فأتقانا .

وقيل لعثمان : مالك لا تكون مثل عمر ؟ قال : لا أستطيع أن أكون مثل ١٠ لقمان الحكيم .

القاسم بن عمر قال : كان إسلام عمر فتحا ، وهجرته نصرا ، وإمارته رحمة

وقيل إن عمر خطب امرأة من ثقيف ، وخطبها المغيرة ؛ فزوجوها المغيرة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ألا زوَّجتُمْ عُمرَ ، فإنه خيرُ قريش أوّلِها وآخِرَها ، إلا ماجعل الله لرسوله ؟ » .

١٥ الحسن بن دينار عن الحسن ، قال : مافضلَ عمرُ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان أطولَهم صلاة وأكثرَهم صياما ، ولكنه كان أزهدَهُمْ فى الدنيا وأشدَّهم فى أمرِ الله .

وتظلم رجل من بعض عمال عمر وادعى أنه ضربه وتعدّى عليه ، فقال : اللهم إنى لا أُحل لهم أشعارهم ولا أبشارهم ؛ كل من ظلمه أميرُه فلا أمير عليه ٢٠ دونى . ثم أقاده منه .

عَوانة عن الشعبى قال : كان عمر يطوف فى الأسواق ، ويقرأ القرآن ، ويقضى بين الناس حيث أدركه الخصوم .

وقال المغيرة بن شعبة وذكر عمر ، فقال : كان والله له فضلٌ يمنعه من أن

يَخْدَع ، وعقلٌ يمنعه من أن ينخدع .

وقال عمر : لست بِخَبٍّ ولا الخب يخدعنى .

عكرمة عن ابن عباس ، قال : بينما أنا أمشى مع عمر بن الخطاب فى خلافته وهو عامد لحاجة له وفى يده الدِّرّة وأنا أمشى خلفه وهو يحدث نفسه ويضرب وحشى قدميه بدرّته ، إذ التفت إلىّ فقال : يا ابن عباس ، أتدرى ما حملنى على مقالتى التى قلتُ يوم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت : لا . قال : الذى حملنى على ذلك أنى كنت أقرأ هذه الآية : ﴿ وكَذٰلِكَ جعَلْنَاكم أُمَّةً وسَطًا لِتكونوا شُهداء على الناسِ ويَكونَ الرَّسُولُ عليْكُمْ شهيدًا ﴾ ؛ فوالله إن كنت لأظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيبقى فى أمته حتى يشهد علينا بأحسن أعمالنا ؛ فهو الذى دعانى إلى ما قلت .

ابن دأب قال : قال ابن عباس : خرجت أريد عمر فى خلافته ، فألفيته راكبا على حمار قد أرسنه بحبل أسود ، وفى رجليه نعلان مخصوفتان . وعليه إزار قصير ، وقميص قصير قد انكشفت منه ساقاه ؛ فمشيت إلى جنبه وجعلت أجبذ الإزار عليه ، فجعل يضحك ويقول : إنه لا يطيعك . حتى أتى العالية ، فصنع له قومٌ طعاما من خبز ولحم فدعوه إليه ، وكان عمر صائما ، فجعل ينبذ إلىّ الطعام ويقول : كُلْ لى ولك !

ومن حديث ابن وهب عن الليث بن سعد ، أن أبا بكر لم يكن يأخذ من بيت المال شيئا ولا يُجرِى عليه من الفىء درهما ، إلا أنه استلف منه مالا ، فلما حضرته الوفاة أمر عائشة بردّه . وأما عمر بن الخطاب فكان يُجرى على نفسه درهمين كل يوم . فلما ولى عمر بن عبد العزيز قيل له : لو أخذت ما كان يأخذ عمر ابن الخطاب ! قال : كان عمر لا مال له ، وأنا مالى يغنينى . فلم يأخذ منه شيئاً !

أبو حاتم عن الأصمعى قال : قال عمر وقام على الرَّدم : أين حقُّكَ يا أبا سفيان مما هنا ؟ قال : ما تحت قدميك إلىّ . قال : طالما كنتَ قديمَ الظلْمِ ! ليس لأحد فيما وراء قدمى حق ، وإنما هى منازل الحاج .

قال الأصمعى : وكان رجلٌ من قريش قد تقدم صدر من داره عن قدَمى عمر ، فهدمه وأراد أن يغوِّر البئر ، فقيل له : البئر للناس منفعة . فتركها .

قال الأصمعى : إذا ودع الحاج ثم بات خلف قدَمَىْ عمر ، لم أر عليه أن يرجع يقول : قد خرج من مكة .

مقتـــل عمر

٥

أبو الحسن : كان للمغيرة بن شعبة غلام نصرانى يقال له فيروز أبو لؤلؤة ، وكان نجارا لطيفا ، وكان خراجه ثقيلا ، فشكا إلى عمر ثقل الخراج وسأله أن يكلم مولاه أن يخفف عنه من خراجه ، فقال له : وكم خراجك ؟ قال : ثلاثة دراهم فى كل شهر . قال : وما صناعتك ؟ قال نجار . قال : ما أرى هذا ثقيلا فى مثل صناعتك . فخرج مغضبا فاستلّ خنجراً محدود الطرفين ، وكان عمر قد رأى فى المنام ديكا أحمر ينقره ثلاث نقرات ، فتأوّلَهُ رجلٌ من العجم يطعنه ثلاث طعنات ، فطعنه أبو لؤلؤة بخنجره ذلك فى صلاة الصبح ثلاث طعنات/ إحداها بين سرته وعانته ، فخرقت الصفاق ، وهى التى قتلته ؛ وطُعن فى المسجد معه ثلاثة عشر رجلا مات منهم سبعة ، فأقبل رجل من بنى تميم يقال له حطان ، فألقى كساء عليه ثم احتضنه فلما علم العلج أنه مأخوذ طعن نفسه وقدم عمر صهيبا يصلى بالناس ، فقرأ بهم فى صلاة الصبح : قل هو الله أحد ، فى الركعة الأولى ؛ وقل يا أيها الكافرون ، فى الركعة الثانية ؛ واحتُمِل عمر إلى بيته ، فعاش ثلاثة أيام ثم مات ، وقد كان استأذن عائشة أن يُدفن فى بيتها مع صاحبيه ، فأجابته وقالت : والله لقد كنتُ أردتُ ذلك المضجع لنفسى ، ولأوثرنَّ به اليوم على نفسى !

١٠

١٥

فكانت ولاية عمر عشرَ سنين .

٢٠

صلى عليه صهيب بين القبر والمنبر ، ودُفِنَ عند غروب الشمس .

كاتبُه : زيد بن ثابت وكتب له معيقيب أيضا .

وحاجبه : يرفأ مولاه .

وخازنه : يسار .

وعلى بيت ماله : عبد الله بن أرقم .

وقال الليث بن سعد : كان عمر أول من جنّد الأجناد ، ودوّن الدواوين ، وجعل الخلافة شورى بين ستة من المسلمين ، وهم : على ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ؛ ليختاروا منهم رجلا يولونه أمر المسلمين ، وأوصى أن يحضر عبد الله بن عمر معهم ، وليس له من أمر الشورى شىء .

أمر الشورى فى خلافة عثمان بن عفان

صالح بن كيسان قال : قال ابن عباس : دخلت على عمر فى أيام طعنته وهو مضطجع على وسادة من أدَم ، وعنده جماعة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له رجل : ليس عليك بأس ! قال :

لئن لم يكن علىَّ اليومَ ليكونن بعد اليوم . وإن للحياة لنصيبا من القلب ، وإن للموت لكُرْبة ، وقد كنتُ أُحبُّ أن أُنجّىَ نفسى وأنجو منكم ، وما كنتُ من أمركم إلا كالغريق يرى الحياة فيرجوها ويخشى أن يموت دونها ، فهو يركض بيديه ورجليه ، وأشدّ من الغريق الذى يرى الجنة والنار وهو مشغول . ولقد تركت زهرتكم كما هى ما لبستها وأخلقتها ، وثمرتكم يانعة فى أكمامها ما أكلتها ، وما جنيت ما جنيت إلا لكم ، وما تركت ورائى درهما ما عدا ثلاثين أو أربعين درهما .

ثم بكى وبكى الناس معه ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أبشر ، فوالله لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض ، ومات أبو بكر وهو عنك راض ، وإن المسلمين راضون عنك .

قال : المغرور والله من غررتموه ؛ أما والله لو أن لى ما بين المشرق والمغرب لافتديت به من هول المُطّلَع .

داود بن أبى هند عن قتادة قال : لما ثقُل عمر قال لولده عبد الله : ضع خدّى على الأرض . فكره أن يفعل ذلك ، فوضع عمر خدّه على الأرض وقال : ويل لعمر ، ولأم عمر ، إن لم يعف الله عنه !

أبو أمية بن يعلى عن نافع قال : قيل لعبد الله بن عمر : تغسّل الشهداء ؟ قال : كان عمر أفضل الشهداء ، فغسّل وكفن وصُلِّىَ عليه . ٥

يونس عن الحسن وهشام بن عروة عن أبيه قالا : لما طُعِن عمر بن الخطاب قيل له : يا أمير المؤمنين ، لو استخلفت ! قال :

إن تركتكم فقد تركتكم مَن هو خير منى ، وإن استخلفت فقد استخلف عليكم من هو خير منى ؛ ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا لاستخلفته ، فإن سألنى ربى قلت : سمعت نبيك يقول : إنه أمين هذه الأمة . ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيًا لاَستخلفته ، فإن سألنى ربى قلت : سمعت نبيّك يقول : إن سالما ليحبُّ الله حبًا لو لم يخَفْه ما عصاه . ١٠

قيل له : فلو أنك عهدتَ إلى عبد الله ، فإنه لها أهلٌ فى دينه وفضله وقديم إسلامه ؟

قال : بحسْب آل الخطاب أن يحاسَب منهم رجل واحد عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولودِدْت أنى نجوت من هذا الأمر كَفافا لا لىَ ولا علىّ . ١٥

ثم راحوا فقالوا : يا أمير المؤمنين ، لو عَهِدْتَ !

فقال : قد كنتُ أجمعت بعد مقالتى لكم أن أُوَلِّىَ رجلا أمركم أرجو أن يحملكم على الحق - وأشار إلى علىّ - ثم رأيت أن لا أتحمَّلَها حيّا وميّتا ؛ فعليكم بهؤلاء الرهط الذين قال فيهم النبى صلى الله عليه وسلم : إنهم من أهل الجنة . منهم : سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، ولست مدخِله فيهم ؛ ولكن الستة : على ، وعثمان ابنا عبد مناف ؛ وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف خال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ والزبير حوارىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ، وطلحة الخير ؛ فليختاروا منهم رجلا ، فإذا ولوكم والياً فأحسنوا مؤازرته . ٢٠

فقال العباس لعليّ : لا تدخل معهم . قال : أكره الخلاف . قال : إذن ترى ما تكره !

فلما أصبح عمر دعا عليا وعثمان وسعداً والزبير وعبد الرحمن ، ثم قال : إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وإنى لا أخاف الناس عليكم ، ولكنى أخافكم على الناس ؛ وقد قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنكم راض ، فاجتمعوا إلى حجرة عائشة بإذنها ، فتشاوروا واختاروا منكم رجلا ، وليصلّ بالناس صهيب ثلاثة أيام ، ولا يأتِ اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ، ويحضركم عبد الله مشيراً ولا شيء له من الأمر ، وطلحة شريككم فى الأمر فإن قدم فى الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم ، وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فأمضوا أمركم . ومن لى بطلحة ؟ فقال سعد : أنا لك به إن شاء الله .

ثم قال لأبى طلحة الأنصارى : يا أبا طلحة ، إن الله قد أعزّ بكم الإسلام ، فاختر خمسين رجلا من الأنصار وكونوا مع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم .

وقال للمقداد بن الأسود الكندى : إذا وضعتمونى فى حفرتى فاجمع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم .

وقال لصهيب : صلّ بالناس ثلاثة أيام ، وأدخل عليّا وعثمان والزبير وسعدا وعبد الرحمن وطلحة إن حضر ، بيتَ عائشة ، وأحضِرْ عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء ، وقم على رءوسهم ؛ فإن اجتمع خمسة على رأى واحد وأبى واحدٌ فاشدخ رأسه بالسيف ، وإن اجتمع أربعة فرضوا وأبى اثنان فاضرب رأسيهما ، فإن رضى ثلاثة رجلا وثلاثةٌ رجلا فحكّموا عبد الله بن عمر ؛ فإن لم يرضَوْا بعبد الله فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ، إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس . وخرجوا .

فقال علىّ لقومٍ معه من بنى هاشم : إن أُطيعَ فيكم قومُكم فلن يؤمِّركم أبدا . وتلقاه العباس فقال له : عدلت عنا ؟ قال له وما أعلمك ؟ قال : قرن بى عثمان

ثم قال ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا إن رضى فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن ابن عوف؛ فسعد لايخالف ابن عمه عبد الرحمن وعبد الرحمن صهر عثمان، لايختلفون فلو كان الآخران معى مانفعانى .

فقال العباس : لم أدفعك فى شىء إلا رجعت إلى مستاخراً بما أكره : أشرت عليك عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسأله : فيمن هذا الأمر ؟ فأبيت ؛ وأشرت عليك بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تعاجل الأمر، فأبيت ؛ وأشرت عليك حين سماك عمر فى الشورى أن لاتدخل معهم ، فأبيت ؛ فاحفظ عنى واحدة : كل ماعرض عليك القوم فأمسك ، إلى أن يولوك ؛ واحذر هذا الرهط ؛ فإنهم لا يبرحون يدفعوننا عن الأمر حتى يقوم لنا به غيرنا .

فلما مات عمر واخرجت جنازته ، تصدى على وعثمان ، أيهما يصلى عليه ؛ فقال عبد الرحمن : كلا كما يحب الإمرة ! ، لستما من هذا فى شىء ؛ هذا صهيب استخلفه عمر يصلى بالناس ثلاثا حتى يجتمع الناس على إمام . فصلى عليه صهيب

فلما دفن عمر جمع المقداد بن الأسود أهل الشورى فى بيت عائشة بإذنها ، وهم خمسة معهم ابن عمر، وطلحة غائب ، وأمروا أبا طلحة فحجبهم ؛ وجاء عمرو ابن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب ، فحصبهما سعد وأقامهما ، وقال : تريدان أن تقولا : حضرنا وكنا فى أهل الشورى !

فتنافس القوم فى الأمر ، وكثر بينهم الكلام ، كل يرى أنه أحق بالأمر ؛ فقال أبو طلحة : أنا كنتُ لأن تدفعوها أخوف منى لأن تنافسوها ! لا والذى ذهب بنفس عمر ، لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التى أمر بها عمر أو أجلس فى بيتى .

فقال عبد الرحمن : أيكم يخرج منها نفسه ، ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم فلم يجبه أحد ؛ فقال . فأنا أنخلع منها . قال عثمان . أنا أول من رضى ؟ فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . عبد الرحمن أمين فى الأرض ،

أمين فى السماء. فقال القوم : رضينا. وعلىٌّ ساكت ، فقال : ما تقول يا أبا الحسن: قال . أعطِنى موثقاً لتؤثرنّ الحق ، ولا تتبع الهوى ، ولا تخص ذا رحم ، ولا تألو الأمة نُصْحا . قال : أعطونى مواثيقكم على أن تكونوا معى على من نكل ، وأن ترضوا بما أخذتُ لكم فتوثق بعضهم من بعض وجعلوها إلى عبد الرحمن، فخلا بعلى فقال : إنك أحقُّ بالأمر لقرابتك وسابقتك وحُسْنِ أثرك ، ولم تَبعد ؛ فمن أحق بها بعدك من هؤلاء ؟ قال : عثمان . ثم خلا بعثمان فسأله عن مثل ذلك ؛ فقال : على . ثم خلا بسعد فقال : عثمان . ثم خلا بالزبير فقال : عثمان ؛ فقال عمار بن ياسر لعبد الرحمن : إن أردتَ .

أبو الحسن قال : لما خاف علىٌّ بن أبى طالب عبد الرحمن بن عوف والزبير وسعداً أن يكونوا مع عثمان ، لقى سعداً ومعه الحسن والحسين ، فقال له : أسألك برحم ابنىَّ هذين من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وبرحم عمى حمزة منك ألّا تكون مع عبد الرحمن ظهيراً علىَّ لعثمان ؛ فإنى أُولى إليك بما لا يُدلى به عثمان .

ثم دار عبد الرحمن لياليَه تلك على مشايخ قريش يُشاورهم ، فكلهم يشير بعثمان ؛ حتى إذا كان فى الليلة التى استكمل فى صبيحتها الأجل ، أتى منزل المِسْوَرِ ابن مخرمة بعد هجعة من الليل ، فأيقظه فقال : ألا أراك إلا نائما ولم أذق فى هذه الليالى نوما ! فانطلق فادع لى الزبير وسعداً . فدعا بهما ؛ فبدأ بالزبير فى مؤخر المسجد ، فقال له : خلِّ ابنَى عبد مناف لهذا الأمر . فقال : نصيبى لعلىّ . فقال لسعد : أنا وأنت كلالة ، فاجعل نصيبك لى فأختار . قال : أما إن اخترت نفسك فنعم ، وأما إن اخترت عثمان فعلىٌّ أحبُّ إلىَّ منه . قال : يا أبا إسحق ، إنى قد خلعت نفسى منها على أن أختار ، ولو لم أفعل وجعل إلىّ الخيار ما أردتها ؛ إنى رأيت كأنى فى روضة خضراء كثيرة العُشْب ؛ فدخل فحل لم أرَ فحلا أكرم منه ، فمرّ كأنه سهم لا يلتفت إلى شىء مما فى الروضة حتى قطعها ؛ ودخل بعير يتلوه فاتبع أثره حتى خرج من الروضة ؛ ثم دخل فحل عبقرى يجر خطامه يلتفت يمينا وشمالا

ويمضى قصد الأولين ، حتى خرج من الروضة ؛ ثم دخل بعير رابع فرتع فى الروضة ؛ ولا والله لا أكون البعير الرابع ؛ ولا يقوم بعد أبى بكر وعمر أحد فيرضى الناس عنه !

ثم أرسل المسورَ إلى علىّ فناجاه طويلا ، وهو لا يشك أنه صاحب الأمر ؛ ثم أرسل المسور إلى عثمان فناجاه طويلا حتى فرق بينهما أذان الصبح .

فلما صلوا الصبح جمع إليه الرهط وبعث إلى من حضره من المهاجرين والأنصار ، وإلى أمراء الأجناد ، حتى ارتج المسجد بأهله ؛ فقال : أيها الناس إن الناس قد أحبوا أن تلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا مَن أميرهم . فقال عمار بن ياسر : إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع عليا . فقال المقداد بن الأسود : صدق عمار ، إن بايعت عليا ، قلنا : سمعنا وأطعنا ! قال ابن أبى سرح إن أردت أن لا تختلف قريشٌ فبايع عثمان . فقال عبد الله بن أبى ربيعة صدق ؛ إن بايعت عثمان سمعنا وأطعنا ! فشتم عمارٌ ابن أبى سرح ، وقال : متى كنت تنصح المسلمين ! فتكلم بنو هاشم وبنو أمية .

فقال عمار : أيها الناس ، إن الله أكرمنا بنبيه ، وأعزنا بدينه فأنّى تصرفون هذا الأمر عن بيت نبيكم ؟

فقال له رجل من بنى مخزوم : لقد عدوتَ طورك يابن سمية ، وما أنت وتأميرَ قريش لأنفسها !

فقال سعد بن أبى وقاص : ياعبد الرحمن ، أفرُغْ قبل أن يفتتن الناس .

فقال عبد الرحمن : إنى قد نظرت وشاورت ؛ فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا .

ودعا عليا فقال : عليك عهدُ الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخليفتين من بعده ؟ قال أعمل بمبلغ علمى وطاقتى .

ثم دعا عثمان فقال : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة نبيه ،

وسيرة الخليفتين من بعده ؟ فقال : نعم ! فبايعه ؛ فقال على : حبوته محاباة ؛ ليس ذا بأول يوم تظاهرتم فيه علينا ؛ أما والله ماولّيتَ عثمان إلا ليرد الأمر إليك ، واللهُ كلَّ يوم هو فى شأن .

فقال عبد الرحمن : ياعليّ لا تجعل على نفسك سبيلا ، فإنى قد نظرت وشاورت الناس ، فإذا هم لا يعدلون بعثمان أحدا . فخرج على وهو يقول : سيَبْلُغُ الكتابُ أجَلَه .

فقال المقداد : أما والله لقد تركته من الذين يقضون بالحق وبه يَعدِلون ! فقال : يا مقداد ، والله لقد اجتهدت للمسلمين . قال : لئن كنت أردت بذلك الله فأثابك الله ثواب المحسنين .

ثم قال المقداد : مارأيت مثل ما أوتى أهلُ هذا البيت بعد نبيهم ؛ إنى لأعجب من قريش أنهم تركوا رجلا ما أقول إن أحداً أعلمُ منه ، ولا أقضى بالعدل ، ولا أعْرَفَ بالحق ؛ أما والله لو أجد أعوانا ! فقال له عبد الرحمن : يا مقداد ، اتق الله فإنى أخشى عليك الفتنة !

قال : وقدم طلحة فى اليوم الذى بويع فيه عثمان ، فقيل له : إن الناس قد بايعوا عثمان . فقال : أكل قريش رضوا به ؟ قالوا : نعم . فأتى عثمانَ فقال له عثمان : أنت عن رأس أمرك . قال طلحة : فإن أبيتُ أتردُّها ؟ قال : نعم : قال : أكل الناس بايعوك ؟ قال : نعم . قال : قد رضيت ؛ لاأرغب عما اجتمعت الناس عليه . وبايَعه .

وقال المغيرة بن شعبة لعبد الرحمن : ياأبا محمد ، قد أصبت إذ بايعتَ عثمان ، ولو بايعت غيره مارضيناه . قال : كذبت يا أعور ! لو بايعتُ غيره لبايعتَه وقلتَ هذه المقالة .

وقال عبد الله بن عباس : ماشَيت عمر بنَ الخطاب يوما ، فقال لى : يابن عباس ، مايمنع قومَكم منكم وأنتم أهل البيت خاصة ؟ قلت : لاأدرى ! قال :

لكني أدري ؛ إنكم فضّلتموهم بالنبوة ، فقالوا : إن فضلوا بالخلافة مع النبوة لم يُبقوا لنا شيئا ، وإنّ أفضل النصيبين بأيديكم ، بل ما إخالها إلا مجتمعة لكم وإن نزلت على رغم قريش .

فلما أحدث عثمان ما أحدث من تأمير الأحداث من أهل بيته على الجلة من أصحاب محمد ، قيل لعبد الرحمن : هذا عملك ! قال : ما ظننت هذا ! ثم مضى ، ودخل عليه وعاتبه ، وقال : إنما قدّمتك على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر ، فخالفتهما وحابيت أهل بيتك وأوطأتهم رقابَ المسلمين . فقال : إن عمر كان يَقطع قرابته في الله ، وأنا أصل قرابتي في الله . قال عبد الرحمن : لله عليّ ألا أكلّمك أبداً ! فلم يكلمه أبداً حتى مات . ودخل عليه عثمان عائداً له في مرضه ، فتحوّل عنه إلى الحائط ولم يكلمه .

ذكروا أن زياداً أوفد ابن حُصين على معاوية ، فأقام عنده ما أقام ، ثم إن معاوية بعث إليه ليلا فخلا به ، فقال له : يا ابن حصين ، قد بلغني أن عندك ذهناً وعقلا ؛ فأخبرني عن شيء أسألك عنه قال : سلني عما بدا لك . أخبرني ما الذي شتّتَ أمرَ المسلمين وفرّق أهواءهم وخالف بينهم ؟ قال : نعم ، قتْلُ النّاس عثمان قال : ما صنعتَ شيئاً . قال : فسَيرُ عليّ إليك وقتاله إياك . قال : ما صنعت شيئاً قال : فسيرُ طلحة والزبير وعائشة وقتالُ عليّ إياهم قال ما صنعت : شيئاً . قال : ما عندي غير هذا يا أمير المؤمنين . قال : فأنا أخبرك ، إنه لم يشتت بين المسلمين ولا فرّق أهواءهم ولا خالف بينهم إلا الشورى التي جعلها عمر إلى ستة نفر ؛ وذلك أن الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، فعمل بما أمره الله به ثم قبضه الله إليه ، وقدّم أبا بكر للصلاة فرضوه لأمر دنياهم إذ رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر دينهم ، فعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسار بسيره حتى قبضه الله ، واستخلف عمر فعَمل بمثل سيرته ، ثم جعلها شورى بين ستة نفر ، فلم يكن رجلٌ منهم إلا رجاها لنفسه ، ورجاها له قومه ، وتطلعتْ إلى ذلك نفسه ؛ ولو أن عمرَ استخلف عليهم كما استخلف

أبو بكر ما كان فى ذلك اختلاف . وقال المغيرة بن شعبة : إنى لعند عمر بن الخطاب ليس عنده أحد غيرى ، إذ أتاه آت فقال : هل لك يا أمير المؤمنين فى نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزعمون أن الذى فعل أبو بكر فى نفسه وفيك لم يكن له ، وأنه كان بغير مشورة ولا مؤامرة ؟ وقالوا تعالوا نتعاهد ألا نعود إلى مثلها . قال عمر : وأين هم ؟ قال : فى دار طلحة . فخرج نحوهم ٥ وخرجت معه وما أعلمه يبصرنى من شدّة الغضب ؛ فلما رأوه كرهوه وظنوا الذى جاء له ، فوقف عليهم وقال : أنتم القائلون ما قلتم ؟ والله لنْ تتحابوا حتى يتحابَّ الأربعة : الإنسان والشيطان ، يُغْويه وهو يلعنه ؛ والنار والماء يُطفئها وهى تحرِقه ؛ ولم يأن لكم بعد وقد آن ميعادكم ميعاد المسيخ متى هو خارج . قال : فتفرقوا فسلك كل واحد منهم طريقا ؛ قال المغيرة : ثم قال لى : أدرك ابن أبى طالب ١٠ فاحبِسْه علىّ . فقلت : لا يفعل أمير المؤمنين وهو مُغِدّ ، فقال : أدركه وإلا قلت لك يابن الدباغة . قال : فأدركته فقلت له : قف مكانك لإمامك وآحلم ، فإنه سلطان وسيندم وتندم . قال : فأقبل عمر فقال : والله ماخرج هذا الأمر إلا من تحت يدك . قال علىّ : اتق أن لا تكون الذى نُعطيك فنفتنك . قال : وتحب أن تكون هو ؟ قال : لا ، ولكننا نذكرك الذى نسيت . فالتفت إلىّ عمر فقال : ١٥ انصرف فقد سمعت منا عند الغضب ماكفاك . فتنحيت قريبا ، وما وقفت إلا خشية أن يكون بينهما شىء فأكون قريبا ، فتكلما كلاماً غير غضبانين ولا راضين ثم رأيتهما يضحكان وتفرقا ؛ وجاءنى عمر ، فمشيت معه وقلت : يغفر الله لك ، أغضِبْتَ ؟ قال : فأشار إلى علىّ وقال أما والله لولا دُعابة فيه ماشككت فى ولايته وإن نزلت على رغم أنف قريش . ٢٠

العتبى عن أبيه : أن عتبة بن أبى سفيان قال : كنت مع معاوية فى دار كندة ، إذ أقبل الحسن والحسين ومحمد ، بنو على بن أبى طالب ، فقلت : يا أمير المؤمنين إن لهؤلاء القوم أشعاراً وأبشارا ، وليس مثلهم كذب ، وهم يزعمون أن أباهم كان يعلم . فقال : إليك من صوتك فقد قرب القوم ، فإذا قاموا فذكرنى بالحديث ،

فلما قاموا قلت : ياأمير المؤمنين ماسألتك عنه من الحديث ؟ قال : كل القوم كان يعلم وكان أبوهم من أعلمهم . ثم قال : قدمت على عمر بن الخطاب ، فإنى عنده إذ جاءه علىٌّ وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف فاستأذنوا ، فأذن لهم ، فدخلوا وهم يتدافعون ويضحكون ، فلما رآهم عمر نكس ، فعلموا أنه على حاجة ، فقاموا كما دخلوا ؛ فلما قاموا أتبعهم بصره فقال : فتنة أعوذ بالله من شرّهم ، وقد كفانى الله شرهم ! قال : ولم يكن عمر بالرجل يُسأل عما لا يفسّر ؛ فلما خرجت جعلت طريقى على عثمان ؛ فحدثته الحديث وسألته الستر ، قال : نعم ، على شريطة . قلت : هى لك . قال : تسمع ماأُخبرك به وتسكت إذا سكتُّ . قلت : نعم . قال : ستة يُقدح بينهم زناد الفتنة ، يجرى الدم منهم على أربعة . قال : ثم سكت ، وخرجت إلى الشام ؛ فلما قدمت على عمر فحدث من أمره ما حدث ـ فلما مضت الشورى ـ ذكرت الحديث ؛ فأتيت بيت عثمان وهو جالس وبيده قضيب فقلت : ياأبا عبد الله ، تذكر الحديث الذى حدثتنى ؟ قال : فأَزَمَ على القضيب عضًّا ؛ ثم أقلع عنه وقد أثر فيه ، فقال : ويحك يامعاوية ! أى شىء ذكرتنى ! لولا أن يقول الناس : خاف أن يؤخذ عليه ، لخرجت إلى الناس منها ! قال : فأبى قضاء الله إلا ما ترى .

ومما نقم الناس على عثمان : أنه آوى طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم . الحكم بن أبى العاص ـ ولم يُؤوِه أبو بكر ولا عمر ـ وأعطاه مائة ألف ؛ وسيّر أبا ذرّ إلى الرَّبَذة ؛ وسيّر عامر بن عبد قيس من البصرة إلى الشام ؛ وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد صلة فأعطاه أربعمائة ألف ؛ وتصدّق رسول الله صلى الله عليه وسلم بمهزون ـ موضع سوق المدينة ـ على المسلمين ، فأقطعها الحرث بن الحكم أخا مروان ؛ وأقطع فَدَك مروان ، وهى صدقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وافتتح أفريقية ؛ فأخذ خُمس الفىء فوهبه لمروان ؛ فقال عبد الرحمن بن حسل الجُمَحِى :

فأحلف بالله ربّ الأنا م ماترك الله شيئاً سُدَى

ولكن خُلقت لنا فتنةً ٭ لكى نُبتلى بك أو تُبتلى
فإنْ الأمينين قد بيّنا ٭ مَناراً لحقٍّ عليه الهدى
فما أخذا درهماً غِيلةً ٭ وما ترَكا درهماً فى هوى
وأعطيتَ مَرْوان خُمس العبا ٭ د هيهات شأوكَ ممّنْ شأى

نسب عثمان وصفته

٥

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس : وأمها [أمّ حكيم] البيضاء ابنة عبد المطلب بن هاشم عمة النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان عثمان أبيض مشربا صفرة ، كأنه فضة وذهب ؛ حسن القامة ، حسن الساعدين ، سبط الشعر ، أصلع الرأس ، أجمل الناس إذا اعتمّ ، مشرف الأنف ، ١٠ عظيم الأرنبة ، كثير شعر الساقين والذراعين ، ضخم الكراديس ، بعيد ما بين المنكبين . ولما أسن شد أسنانه بالذهب ، وسلس بوله فكان يتوضأ لكل صلاة .

ولى الخلافة منسلخ ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين .

وقتل يوم الجمعة صبيحة عيد الأضحى سنة خمس وثلاثين . ١٥

وفى ذلك يقول حسان :

ضَحَّوْا بأشمط عُنْوانُ السُّجود به ٭ يُقطِّع الليل تسبيحاً وقُرْآنا
لَتُسمَعنّ وشيكا فى ديارهم ٭ الله أكبر ياثارات عثمانا

فكانت ولايته اثنتى عشرة سنة وستة عشر يوما ، [ومات] وهو ابن أربع وثمانين سنة . ٢٠

وكان على شرطته — وهو أول من اتخذ صاحب شرطة — عبيد الله بن قُنفذ ، وعلى بيت المال ، عبد الله بن أرقم ، ثم استعفاه ؛ وكاتبه مروان ، وحاجبه حمران مولاه .

فضائل عثمان

سالم بن عبد الله بن عبد الله بن عمر قال : أصاب الناس مجاعةٌ فى غزوة تبوك ، فاشترى عثمان طعاما على ما يصلح العسكر ، وجهز به عِيرا ؛ فنظر النبى صلى الله عليه وسلم إلى سواد مقبل . فقال : هـذا جمل أشقر قد جاءكم بعِيرة . فأنيخت الركائب ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه إلى السماء وقال : اللهم إنى قد رضيت عن عثمان فآرض عنه !

وكان عثمان حليما سخيا محبَّبا إلى قريش ، حتى كان يقال :

أحبُّك والرحمن ٭ حبَّ قريش لعثمان .

وزوّجه النبى صلى الله عليه وسلم رقية آبنته ، فماتت عنده ؛ فزوّجه أم كلثوم آبنته أيضاً .

الزهرى عن سعيد بن المسيَّب ، قال : لما ماتت رقية جزع عثمان عليها ، وقال : يارسول الله ، أنقطع صهرى منك ! قال : إن صهركِ منى لا ينقطع ، وقد أمرنى جبريل أن أزوّجك أختها بأمر الله .

عبد الله بن عباس قال : سمعت عثمان بن عفان يقول : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا البيت ، فرآنى ضجيعاً لأم كلثوم ، فاستعبر ، فقلت : والذى بعثك بالحق ما أضجعت عليه أنثى بعدها ! فقال : ليس لهذا استعبرت ؛ فإن الثياب للحى والبيت الحجر ؛ ولو كن يا عثمان عشرا لزوّجتكهن واحدة بعد واحدة .

وعرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على عثمان ، فأبى منها ؛ فشكاه عمر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : « سيزوّج الله ابنتك خيرا من عثمان ، ويزوّج عثمان خيراً من ابنتك » ! فتزوج رسول الله صلى عليه وسلم حفصة ، وزوج ابنته عثمان بن عفان .

ومن حديث الشعبى أن النبى عليه السلام دخل عليه عثمان فسوى ثوبه عليه ، وقال : كيف لا أستحيى ممن تستحيى منه الملائكة » .

مقتل عثمان بن عفان

الرياشي عن الأصمعي قال : كان القواد الذين ساروا إلى المدينة في أمر عثمان أربعة : عبد الرحمن بن عديس البلَوِيّ ، وحكيم بن جبلة العبدى ، والأشتر النخعى ، وعبد الله بن بديل الخزاعى ؛ فقدموا المدينة فحاصروه ، وحاصره معهم قوم من المهاجرين والأنصار حتى دخلوا عليه فقتلوه والمصحف بين يديه ، ٥
وهو يقرأ يوم الجمعة صبيحة النحر ؛ وأرادوا أن يقطعوا رأسه ويذهبوا به ، فرمت نفسها عليه امرأتاه : نائلةُ بنت الفرافصة ، و[رملةُ] ابنة شيبة بن ربيعة ، فتركوه وخرجوا .

فلما كان ليلة السبت انتدب لدفنه رجال ، منهم جبير بن مطعم ، وحكيم بن حزام ، وأبو الجهم بن حُذيفة ، وعبد الله بن الزبير ، فوضعوه على باب صغير ، ١٠
وخرجوا به إلى البقيع ، ومعهم نائلة بنت الفرافصة بيدها السراج ، فلما بلغوا به البقيع منعهم من دفنه فيه رجال من بنى ساعدة ، فردّوه إلى حشّ كوكب ، فدفنوه فيه . وصلى عليه جبير بن مطعم ؛ ويقال : حكيم بن حزام ؛ ودخلت القبر نائلة بنت الفرافصة ، وأم البنين بنت عُيينة ، زوجتاه ، وهما دلّتاهُ في القبر .

والحش : البستان . وكان حش كوكب اشتراه عثمان ، فجعله أولاده ١٥
مقبرة للسلمين .

يعقوب بن عبد الرحمن ، عن محمد بن عيسى الدمشقى ، عن محمد بن عبد الرحمن ابن أبي ذئب ، عن محمد بن شهاب الزهرى ، قال : قلتُ لسعيد بن المسيب : هل أنت مُخبِرى كيف قُتِل عثمان : ما كان شأن الناس وشأنه . ولِمَ خذلَه أصحابُ محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ٢٠

فقال : قُتِل عثمان مظلوما ، ومن قتله كان ظالما ، ومن خذلَه كان معذورا .

قلت : وكيف ذاك ؟

قال : إن عثمان لما ولِىَ كره ولايتَه نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن عثمان كان يحب قومه ، فوَلِىَ الناس اثنتى عشرة سنة ، وكان كثيراً ما يولِّى بنى أمية ، ممن لم يكن له من رسول الله صلى الله عليه وسلم صحبة ، وكان يجىء من أمرائه ما ينكره أصحابُ محمد ، فكان يُستَعْتَبُ فيهم فلا يَعْزِلُهم ؛
٥ فلما كان فى الحِجج الآخرة استأثر بنى عمه فخرجوا ، فولاهم وأمرهم بتقوى الله وولى عبد الله بن أبى سرح مصر ، فمكث عليها سنين ، فجاء أهل مصر يشكونه ويتظلمون منه . ومن قِبَلِ ذلك كانت من عثمان هناة إلى عبد الله بن مسعود ، وأبى ذر ، وعمار بن ياسر ؛ فكانت هذيل وبنو زهرة فى قلوبهم ما فيها لابن مسعود ، وكانت بنو غفار وأحلافها ومَنْ غَضِب لأبى ذر فى قلوبهم ما فيها ،
١٠ وكانت بنو مخزوم قد حنقت على عثمان بما نال عمار بن ياسر ؛ وجاء أهل مصر يشكون من ابن سرح ، فكتب إليه عثمان كتاباً يتهدده ، فأبى ابن سرح أن يقبل ما نهاه عثمان عنه ، وضرب رجلا ممن أتى عثمانَ فقتله ، فخرج من أهل مصر سبعمائة رجل إلى المدينة ، فنزلوا المسجد ، وشكوا إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مواقيت الصلاة ما صنع ابن أبى سرح ؛ فقام طلحة بن عبيد الله
١٥ فكلم عثمان بكلام شديد ، وأرسلت إليه عائشة : قد تقدم إليك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوك عزل هذا الرجل فأبيت أن تعزله ، فهذا قد قَتل منهم رجلا ؛ فأنصِفْهم من عاملك . ودخل عليه على وكان متكلِّمَ القوم . فقال : إنما سألوك رجلا مكان رجل ، وقد ادَّعَوْا قِبَلَه دما ؛ فاعزله عنهم ، واقض بينهم ، وإن وجب عليه حق فأنصفهم منه . فقال لهم : اختاروا رجلا أُوَلِّه عليكم
٢٠ مكانه . فأشار الناس عليه بمحمد بن أبى بكر فقالوا : استعمِل علينا محمد بن أبى بكر . فكتب عهده وولّاه ، وأخرج معهم عدة من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين أهل مصر وابن أبى سرح ، فخرج محمد ومن معه ؛ فلما كان على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة ، إذا هم بغلام أسود على بعير يخبط الأرض خبطا كأنه رجل يطلُب أو يُطلب ، فقال له أصحاب محمد : ما قصتك وما شأنك ؟ كأنك هارب

أو طالب ! فقال : أنا غلام أمير المؤمنين ، وجّهنى إلى عامل مصر . فقالوا : هذا عامل مصر معنا . قال : ليس هذا أريد . وأُخْبِرَ بأمره محمدُ بن أبى بكر ، فبعث فى طلبه فأُتىَ به ؛ فقال له : غُلامُ مَن أنت ؟ قال : فأقبل مرة يقول : غلام أمير المؤمنين ؛ ومرة : غلام مروان ؛ حتى عرفه رجل منهم أنه لعثمان ، فقال له محمد : إلى مَنْ أُرْسِلتَ ؟ قال : إلى عامل مصر . قال : بماذا ؟ قال : ٥ برسالة . قال : معك كتاب ؟ قال : لا . ففتشوه فلم يوجد معه شىء ، إلا إداوة قد يبست فيها شىء يتقلقل ، فحركوه ليخرج فلم يخرج ، فشقُّوا الإداوة ، فإذا فيها كتاب من عثمان إلى ابن أبى سرح ، فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار وغيرهم ، ثم فك الكتاب بمحضر منهم ، فإذا فيه :

١٠ إذا جاءك محمد وفلان وفلان فاحْتَل لقتلهم ، وأبْطِلْ كتابهم ، وقرّ على عملك حتى يأتيَك رأيى ، واحتبِس من جاء يتظلم منك ، ليأتيَك فى ذلك رأيى إن شاء الله .

فلما قرءوا الكتاب فزعوا وعزموا على الرجوع إلى المدينة ، وختم محمد الكتاب بخواتم القوم الذين أرسلوا معه ، ودفعوا الكتاب إلى رجل منهم ، ١٥ وقدموا المدينة ، فجمعوا عليا وطلحة والزبير وسعدا ومَن كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ثم فكوا الكتاب بمحضر منهم وأخبروهم بقصة الغلام ، وأقرءوهم الكتاب فلم يبق أحدٌ فى المدينة إلا حنِق على عثمان ، وازداد من كان منهم غاضبا لابن مسعود وأبى ذر وعمار بن ياسر ، غضبا وحنقاً ؛ وقام أصحابُ النبى صلى الله عليه وسلم فلحقوا منازلهم ، ما منهم أحد إلا وهو مغتمّ بما قرءوا ٢٠ فى الكتاب ، وحاصر الناسُ عثمان ، وأجلب عليه محمد بن أبى بكر بنى تيم وغيرَهم وأعانه طلحة بن عبيد الله على ذلك ، وكانت عائشة تحرّضه كثيراً ، فلما رأى ذلك علىّ بعث إلى طلحة والزبير وسعد وعمار ، ونفرٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كُلُّهم بَدْرِىّ ؛ ثم دخل على عثمان ومعه الكتاب والغلام والبعير ، وقال له علىّ : هذا الغلام غلامك؟ قال : نعم . والبعير بعيرك ؟ قال : نعم . والخاتم

خاتمك ؟ قال : نعم . قال : فأنت كتبت الكتاب ؟ قال : لا ! وحلف بالله : ما كتبتُ الكتاب ، ولا أمَرْتُ به ، ولا وجهت الغلام إلى مِصْرَ قَطُّ . وأما الخط فعرفوا أنه خط مروان ، فشكُّوا فى أمر عثمان ، وسألوه أن يدفع إليهم مروان ؛ فأبى ؛ وكان مروان عنده فى الدار ؛ فخرج أصحاب محمد من عنده غضابا ، وشكوا فى أمر عثمان وعلموا أنه لا يحلف باطلا ، إلا أن قوما قالوا : لا نبرئ عثمان ، إلا أن يدفع إلينا مروان ، حتى نمتحنه ونعرف أمر هذا الكتاب ، وكيف يأمر بقتل رجال من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بغير حق ! فإن يك عثمان كتبه عزلناه ، وإن يك مروان كتبه على لسانه نظرنا فى أمره . ولزموا بيوتهم ، وأبَى عثمان أن يُخرج إليهم مروان وخشى عليه القتل ، وحاصر الناس عثمان ومنعوه الماء ؛ فأشرف عليهم ؛ فقال : أفيكم علىّ ؟ قالوا : لا . قال : فيكم سعد ؟ قالوا : لا . فسكت ثم قال : ألا أحد يُبْلغ عليا فيسقينا ماء ؟ فبلغ ذلك عليًا ، فبعث إليه ثلاث قرب مملوءة ماء ، فما كادت تصل إليه ، وجرح من سببها عدة من موالى بنى هاشم وبنى أمية حتى وصل إليه الماء ؛ فبلغ عليا أن عثمان يراد قتله ، فقال : إنما أردنا منه مروان ، فأما قتلُ عثمان فلا . وقال للحسن والحسين : اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان ، فلا تدعا أحداً يصل إليه بمكروه . وبعث الزبيرُ ولده ، وبعث طلحة ولده على كُرْه منه ، وبعث عدةً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبناءهم ليمنعوا الناس أن يدخلوا على عثمان ، وسألوه إخراج مروان . ورمى الناس عثمان بالسهام حتى خُضب الحسن بن على بالدماء على بابه ، وأصاب مروان سهمٌ فى الدار ، وخُضب محمد بن طلحة ، وشُجَّ قنبر مولى علىّ ، وخشى محمد بن أبى بكر أن تغضب بنو هاشم لحال الحسن والحسين فيثيرونها فأخذ بِيَدَىْ رجلين فقال لهما : إذا جاءت بنو هاشم فرأوا الدماء على وجه الحسن والحسين كشف الناس عن عثمان وبطل ما نريد ، ولكن مروا بنا حتى نتسور عليه الدار فنقتله من غير أن يعلم أحد . فتسوّر محمد بن أبى بكر وصاحباه من دار رجل من الأنصار . ويقال : من دار عمرو بن حزم الأنصارى ، ومما يدل على ذلك

قول الأحوص :

لا تَرْثِيَنَّ لِحَزْمِيٍّ ظَفِرتَ به • طرًا ولو طُرِح الحزْمى فى النارِ

الناخِسِينَ بمرْوانٍ بذى خُشُبٍ • والمدْخِلين على عثمانَ فى الدار

فدخلوا عليه وليس معه إلا امرأته نائلة بنت الفرافصة ، والمصحف فى حجره ، ولا يعلم أحد ممن كان معه ، لأنهم كانوا على البيوت ، فتقدّم إليه محمد [ابن أبى بكر] وأخذ بلحيته . فقال له عثمان : أرسل لحيتى يابن أخى ، فلو رآك أبوك لساءه مكانك ! فتراخت يده عن لحيته ، وغمز الرجلين فوجآه بمشاقص معهما حتى قتلاه ، وخرجوا هاربين من حيث دخلوا ؛ وخرجت امرأته فقالت : إن أمير المؤمنين قد قُتل ! فدخل الحسن والحسين ومن كان معهما فوجدوا عثمان مذبوحا ؛ فأكبُّوا عليه يبكون . وبلغ الخبرُ عليا وطلحة والزبير وسعداً ومن كان بالمدينة : فخرجوا وقد ذهبت عقولهم حتى دخلوا على عثمان فوجدوه مقتولا ؛ فاسترجعوا ؛ وقال على لابنَيه : كيف قُتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب ؟ ورفع يده فلطم الحسين وضرب صدر الحسن ، وشتم محمدَ ابن طلحة ، ولعن عبدَ الله بن الزبير ؛ ثم خرج علىّ وهو غضبان ، يرى أن طلحة أعان عليه ، فلقيه طلحة فقال : مالك يا أبا الحسن ضربتَ الحسن والحسين ؟ فقال عليك وعليهما لعنة الله ! يُقتل أمير المؤمنين ورجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بَدْرِىٌّ ولم تُقم بينة ولا حجة ؟ فقال طلحة : لو دَفع مروان لم يُقتل . فقال : لو دَفع مروان قتل قبل أن تثبت عليه حجة ! وخرج علىّ فأتى منزله ؛ وجاءه القوم كلهم يُهرَعون إليه : أصحاب محمد وغيرهم ، يقولون : أمير المؤمنين على بن أبى طالب . فقال : ليس ذلك إلا لأهل بدر ، فمن رضى به أهل بدر فهو خليفة . فلم يبق أحد من أهل بدر إلا أتى عليا ، فقالوا : ما نرى أحداً أولى بها منك ، فمُدّ يدك نبايعك . فقال : أين طلحة والزبير ؟ فكانا أول من بايعه ، طلحة بلسانه ، وسعد بيده .

فلما رأى ذلك علىّ خرج إلى المسجد فصعد المنبر ؛ فكان أول من صعد

طلحة فبايعه بيده ، وكانت أصبعه شلّاء ، فتطير منها علىّ ، وقال : ما أخلَقه أن ينكث ! ثم بايعه الزبير وسعد وأصحاب النبي جميعا ؛ ثم نزل ، ودعا الناس ، وطلب مروان فهرب منه .

وخرجت عائشة باكية تقول : قتل عثمان مظلوما ! فقال لها عمار : أنت بالأمس تُحَرِّضين عليه ، واليوم تبكين عليه ! وجاء علىّ إلى امرأة عثمان فقال لها : مَن قتل عثمان ؟ قالت : لا أدرى ، دخل رجلان لا أعرفهما إلا أن أرى وجوههما ، وكان معهما محمد بن أبي بكر . وأخبرتْه بما صنع محمد بن أبي بكر ؛ فدعا علىٌّ بمحمد ، فسأله عما ذكرت امرأة عثمان ، فقال محمد : لم تكذبْ ؛ وقد والله دخلتُ عليه وأنا أريد قتله ، فذكر لى أبى ، فقمت وأنا تائب ، والله ما قتلتُه ولا أمسكته ! فقالت امرأة عثمان : صدق ، ولكنه أدخلهما .

المعتمر عن أبيه عن الحسن ، أن محمد بن أبي بكر أخذ بلحية عثمان ، فقال له : يابن أخى ؛ لقد قعدتَ منى مقعداً ما كان أبوك ليقعده !

وفى حديث آخر أنه قال : يابن أخى ، لو رآك أبوك لساءه مكانك ! فاسترخت يده . وخرج محمد فدخل عليه رجل والمصحف فى حجره ، فقال له : بنى وبينك كتاب الله ! فخرج وتركه ، ثم دخل عليه آخر ، فقال : بينى وبينك كتاب الله ! فأهوى إليه بالسيف ، فاتقاه بيده ، فقطعها ؛ فقال : أما إنها أولُ يدٍ خطّت المفصَّل .

القوّاد الذين أقبلوا إلى عثمان

الأصمعى عن أبي عوانة قال : كان القواد الذين أقبلوا إلى عثمان : علقمة بن عثمان ، وكنانة بن بشر ، وحكيم بن جبلة ، والأشتر النخعى ، وعبد الله بن بديل .

وقال أبو الحسن : لما قدم القواد قالوا لعلىّ : قم معنا إلى هذا الرجل . قال : لا والله لا أقوم معكم . قالوا : فلِمَ كتبتَ إلينا ؟ قال : والله ما كتبتُ إليكم

كتابا قطُّ . قال : فنظر القوم بعضُهم إلى بعض ، وخرج عليٌّ من المدينة .

الأعمش عن عيينة عن مسروق قال : قالت عائشة : مُصْتُمُوه مَوْصَ الإناء حتى تركتموه كالثوب الرخيص ، نقيًّا من الدنس ؛ ثم عدوتم فقتلتموه ! قال مروان : فقلت لها : هذا عملك ، كتبتِ إلى الناس تأمرينهم بالخروج عليه ! فقالت : والذى آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ، ما كتبتُ إليهم بسوادٍ في بياض ، حتى جلستُ فى مجلسى هذا . ٥

فكانوا يرون أنه كُتب على لسان علىّ ، وعلى لسانها ، كما كُتب أيضا على لسان عثمان مع الأسود إلى عامل مصر ؛ فكان اختلاق هذه الكتب كلها سبباً للفتنة .

وقال أبو الحسن : أقبل أهل مصر عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوى ، ١٠ وأهل البصرة عليهم حكيم بن جبلة العبدى ، وأهل الكوفة عليهم الأشتر ـ واسمه مالك بن الحارث النخعى ـ فى أمر عثمان ، حتى قدموا المدينة .

قال أبو الحسن : لما قدم وفد أهل مصر ، دخلوا على عثمان فقالوا : كتبت فينا بكذا وكذا ؟ قال : إنما هما اثنتان : أن تقيموا رجلين من المسلمين ، أو يمينى بالله الذى لا إله إلا هو ما كتبتُ ولا أمليتُ ولا علمتُ ؛ وقد يُكتب ١٥ الكتاب على لسان الرجل ، ويُنقش الخاتم على الخاتم . قالوا : قد أحل الله دمك ! وحصروه فى الدار ، فأرسل عثمان إلى الأشتر فقال : ما يريد الناس منى ؟ قال : واحدة من ثلاث ليس عنها بُدٌّ . قال : ما هى ؟ قال : يخيّرونك بين أن تخلع لهم أمرهم ، فتقول : هذا أمركم فقلّدوه من شئتم ؛ وإما أن تقتص من نفسك ؛ فإن أبيت [هاتين] فالقوم قاتلوك . قال : أما أن أخلع لهم أمرهم فما ٢٠ كنت لأخلع سربالا سربلنيه الله فتكون سنة من بعدى ، كلما كره القوم إمامهم خلعوه ؛ وأما أن أقتص من نفسى فوالله لقد علمت أن صاحبىّ بين يدىّ قد كانا يعاقبان ، وما يقوى بدنى على القصاص ؛ وأما أن تقتلونى ، فلئن قتلتمونى لا تتحابون بعدى أبدا ، ولا تصلون بعدى جميعا أبدا .

وقال أبو الحسن : فوالله لن يزالوا على النوى جميعا وإن قلوبهم مختلفة .

وقال أبو الحسن : أشرف عليهم عثمان وقال : إنه لا يحل سفك دم امرئ مسلم إلا فى إحدى ثلاث : كفرٌ بعد إيمان ، أو زنا بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير نفس ؛ فهل أنا فى واحدة منهن ؟ فما وجد القوم له جوابا . ثم قال : أنشدكم الله ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على أُحد ومعه تسعة من أصحابه أنا أحدهم فتزلزل الجبل حتى همت أحجاره أن تتساقط ، فقال : اسكن أحد فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد؟ قالوا : اللهمّ نعم . قال : شهدوا لى ورب الكعبة

قال أبو الحسن : أشرف عليهم عثمان فقال : السلام عليكم . فما ردّ أحد عليه السلام ، فقال : أيها الناس ، إن وجدتم فى الحق أن تضعوا رجلى فى القبر فضعوها فما وجد القوم له جوابا ؛ ثم قال : أستغفر الله إن كنت ظَلمتُ وقد غفرتُ إن كنتُ ظلمت !

يحيى بن سعيد عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : كنت مع عثمان فى الدار ، فقال : أعزم على كل من رأى أن لى عليه سمعا وطاعة أن يكفَّ يده ويُلقِى سلاحه . فألقى القوم أسلحتهم .

ابن أبى عروبة عن قتادة ، أن زيد بن ثابت دخل على عثمان يوم الدار ، فقال : إن هذه الأنصار بالباب وتقول : إن شئت كنا أنصارَ الله مرتين ! قال : لا حاجة لى فى ذلك ؛ كفوا .

ابن أبى عروبة عن يعلى بن حكيم عن نافع ، أن عبد الله بن عمر لبس درعه وتقلد سيفه يوم الدار ، فعزم عليه عثمان أن يخرج ويضع سلاحه ويكف يده ، ففعل .

محمد بن سيرين قال : قال سليط : نهانا عثمان عنهم ، ولو أذن لنا عثمان فيهم لضربناهم حتى نخرجهم من أقطارنا .

ماقالوا فى قتلة عثمان

العتبى : قال رجل من بنى ليث : لقيت الزبير قادما ، فقلت : أبا عبد الله ، ما بالك ؟ قال : مطلوب مغلوب ، يغلبنى ابنى ويطلبنى ذنبى ! قال : فقدمت المدينة فلقيت سعد بن أبى وقاص ، فقلت : أبا إسحق ، من قتل عثمان ؟ قال : قتله سيفٌ سلَّته عائشة ، وشحذه طلحة ، وسمَّه على ! قلت : فما حال الزبير ؟ قال : أشار بيده ، وصمت بلسانه .

وقالت عائشة : قتل الله مُذَمَّماً بسعيه على عثمان ـ تريد محمدا أخاها ـ وأهرق دم ابن بديل على ضلالته ، وساق إلى أعْيَن بنى تميم هوانا فى بيته ، ورمى الأشتر بسهم من سهامه لا يشوى : قال : فما منهم أحد إلا أدركتْه دعوة عائشة .

سفيان الثورى قال : لقى الأشتر مسروقا فقال له : أباعائشة ، مالى أراك عضبانَ على ربك من يوم قتل عثمان بن عفان ؟ لو رأيتَنا يوم الدار ونحن كأصحاب عجل بنى إسرائيل .

وقال سعد بن أبى وقاص لعمار بن ياسر : لقد كنتَ عندنا من أفاضل أصحاب محمد ، حتى [إذا] لم يبق من عمرك إلا ظِمْء الحمار فعلت وفعلت ! يعرض له بقتل عثمان ، قال عمار : أى شىء أحب إليك : مودة على دَخَل أو هَجْرٌ جميل قال : هجرٌ جميل ! قال : فلله علىَّ أن لا أكلّمك أبدا !

دخل المغيرة بن شعبة على عائشة فقالت : ياأبا عبد الله لو رأيتنى يوم الجمل قد نفذت النصال هَوْدَجى حتى وصل بعضها إلى جلدى ! قال لها المغيرة : وددت والله أن بعضها كان قتلك ! قالت يرحمك الله ! ولم تقول هذا ؟ قال : لعلها تكون كفَّارة فى سعيك على عثمان ! قالت : أما والله لئن قلت ذلك لما علم الله أنى أردت قتله ، ولكن علم الله أنى أردت أن يقاتل فقوتلت ، وأردت أن يُرمى فرميت ، وأردت أن يُعصى فعصيت ؛ ولو علم منى أنى أردت قتله لقُتلت .

وقال حسان بن ثابت لعلى : إنك تقول : ما قتلتُ عثمان ولكن خذلته ، ولم

آمر به ولكن لم أنْهَ عنه . فالخاذل شريكُ القاتل ، ، والساكت شريكُ القائل .

أخذ هــذا المعنى كعب بن جُعيل التغلبي وكان مع معاوية يوم صِفين ، فقال في علي بن أبي طالب :

وما في عليٍّ لِمُستحدثٍ * مقالٌ سوى عِصْمةِ المحدِثينا

وإيثارِه لأهالي الذنوبِ * ورفعِ القِصاصِ عن القاتلينا ٥

إذا سِيل عنه زَوَى وجهه * وعَمَّى الجوابَ على السائلينا

فليس براضٍ ولا ساخِطٍ * ولا في النهاةِ ولا الآمرينا

ولا هُوَ ســـاه ولا سَرَّه * ولا آمن بعضَ ذا أن يكونا

وقال رجل من أهل الشام في قتلة عثمان رضي الله تعالى عنه :

خذلَتْهُ الأنصارُ إذ حضر المو * تُ وكانت ثِقاتَه الأنصارُ ١٠

ضربوا بالبلاء فيـه مع النّا * سِ وفي ذاكَ للبريةِ عار

حُرْمَةً بالبلاء من حرمةِ اللهِ ووالٍ من الْوُلاةِ وجار

أين أهلُ الحياء إذ منِع الما * ء فدتهُ الأسمـــاعُ والأبصار

من عذيري من الزُبيرِ ومنْ طَلْ * حةَ هاجا أمراً له إعصار

تركوا الناس دونَهم عبْرَةُ العجـ * ـلِ فشبت وسْط المدينةِ نار ١٥

هكذا زاغتِ اليَهودُ عنِ الحــقّ بما زَخرفت لهـا الأحبار

ثم وافى محمدُ بن أبي بكـ * ـرٍ جِهاراً وخلفهُ عمّـــار

وعليٌّ في بيتــهِ يسألُ النا * سَ ابتداءً وعنْدَه الأخبار !

باســطاً للتي يريدُ يديهِ * وعليـه سكـينةٌ ووقار

يرقُبُ الأمرَ أن يزفَّ إليه * بالذي سبِّبت له الأقدار ٢٠

قد أرى كثرةَ الكلامِ قبيحاً * كل قولٍ يَشينُه إكثار

وقال حسان يرثي عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه :

من سره الموتُ صِرفاً لا مِزاج له * فليأتِ مأسدةً في دار عثمانا

صبراً فِدًى لكُمُ أُمّى وما ولدت * قد ينفعُ الصبرُ فى المكروهِ أحيانا
لعلكم أن تَرَوْا يوماً بِمَغِيظة * خليفةَ اللهِ فيكم كالذى كانا
إنى لِمِنهم وإن غابوا وإن شَهِدُوا * مادُمتُ حيًّا وما سُمِّيت حَسّانا
ياليت شِعرى وليت الطَّير تخبِرُنى * ماكان شأنُ علىٍّ وابنِ عفّانا
لتُسمَعَنّ وشيكا فى ديارِهِمُ * الله أكبر ياثاراتِ عُثمانا
ضحَّوْا بأشمطَ عُنْوانُ السُّجودِ به * يُقطِّع الليلَ تسبيحاً وقُرآنا

فى مقتل عثمان بن عفان

أبو الحسن عن مسلمة عن ابن عون قال : كان ممن نَصر عثمان سبعمائة ، فيهم الحسن بن على ، وعبد الله بن الزبير ؛ ولو تركهم عثمان لضربوهم حتى يخرجوهم من أقطارها .

أبو الحسن عن جبير بن سيرين قال : دخل ابن بديل على عثمان وبيده سيف ، وكانت بينهما شحناء ، فضربه بالسيف ، فاتقاه بيده ، فقطعها ، فقال : أما إنها أول كف خطّت المفصّل .

أبو الحسن قال : يوم قتل عثمان يقال له يوم الدار . وأغلق على ثلاث من القتلى : غلام أسود كان لعثمان ، وكنانة بن بشر ، وعثمان .

أبو الحسن قال : قال سلامة بن روح الخزاعى لعمرو بن العاص : كان بينكم وبين الفتنة باب فكسرتموه ، فما حملكم على ذلك ؟ قال : أردنا أن نخرج الحق من حَفيرة الباطل ، وأن يكون الناس فى الحق سواء .

مجالد عن الشعبي قال : كتب عثمان إلى معاوية : أن امددنى . فأمده بأربعة آلاف مع يزيد بن أسد بن كرز البجلى . فتلقاه الناس بقتل عثمان ، فانصرف ، فقال : لو دخلت المدينة وعثمان حى ما تركت بها مخلفا إلا قتلته ؛ لأن الخاذل والقاتل سواء .

قيس بن رافع قال : قال زيد بن ثابت : رأيت عليًا مضطجعاً فى المسجد ، فقلت . أبا الحسن ، إن الناس يرون أنك لو شئت رددت الناس عن عثمان . فجلس ثم قال : والله ما أمرتهم بشيء ولا دخلت فى شيء من شأنهم . قال : فأتيت عثمان فأخبرته ، فقال :

٥ وحرق قيْسٌ علىّ البِلا * دَحتى إذا آضطَرمت أجْذَما

الفضل عن كثير عن سعيد المقبرى قال . لما حصروا عثمان ومنعوه الماء ، قال الزبير : ﴿ وحيلَ بينَهم وبينَ ما يشتهونَ كما فُعِلَ بأشْياعِهِمْ من قبْلُ ﴾ !

ومن حديث الزهرى قال : لما قتل مسلم بن عقبة أهل المدينة يوم الحرّة ،

١٠ قال عبد الله بن عمر : بفعلهم فى عثمان وربِّ الكعبة !

ابن سيرين عن ابن عباس قال : لو أمطرت السماء دماً لِقَتْلِ عثمان لكان قليلا له !

أبو سعيد مولى أبى حُذيفة قال : بعث عثمان إلى أهل الكوفة : من كان يطالبنى بدينار أو درهم أو لطمة فيأت يأخذ حقه أو يتصدق ، فإن الله يجزى

١٠ المتصدقين . قال : فبكى بعض القوم ، وقالوا : تصدقنا !

ابن عون عن ابن سيرين قال: لم يكن أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أشدّ على عثمان من طلحة !

أبو الحسن قال : كان عبد الله بن عباس يقول : ليَغلبنّ معاويةُ وأصحابُه عليا وأصحابَه ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ ومَنْ قُتِلَ مَظلومًا فقَدْ جَعلْنا

٢٠ لِوليِّه سُلْطَانًا ﴾ .

أبو الحسن قال : كان ثمامة الأنصارى عاملا لعثمان ، فلما أتاه قتلُه بكى وقال : اليوم انتزعت خلافةُ النُّبوَّةِ من أمّة محمد ، وصار الملك بالسيف ، فمن غلَب على شيء أكله .

أبو الحسن : عن أبي مخنف عن نمير بن وعلة عن الشعبي ، أن نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان بن عفان كتبت إلى معاوية كتاباً مع النعمان بن بشير ، وبعثت إليه بقميص عثمان مخضوبا بالدماء ، وكان فى كتابها :

« من نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية بن أبي سفيان ؛ أما بعد ، فإنى أدعوكم إلى الله الذى أنعم عليكم ، وعلمكم الإسلام ، وهداكم من الضلالة ، وأنقذكم من الكفر ونصركم على العدو ، وأسبغ عليكم نِعَمه ظاهرةً وباطنة ؛ وأنشدكم الله ، وأذكّركم حقَّه وحق خليفته أنْ تنصروه بعزم الله عليكم ؛ فإنه قال : ﴿ وإنْ طائفتانِ من المؤمنينَ اقتتَلوا فأَصْلِحوا بينهما فإنْ بغَتْ إحداهُما على الأُخرى فقاتِلوا التى تَبْغِى حتى تفىء إلى أمرِ الله ﴾ . وإن أمير المؤمنين بُغِىَ عليه ، ولو لم يكن لعثمان عليكم إلا حقُّ الولاة ، [ثم أَتَى إليه ما أَتَى] لحقَّ على كل مسلم يرجو إمامته أن ينصره فكيف وقد علمتم قدَمه فى الإسلام ، وحُسْن بلائه ، وأنه أجاب [داعىَ] الله وصدّق كتابه واتَّبع رسوله ، والله علم به إذ انتخبه فأعطاه شرف الدنيا وشرف الآخرة .

وإنى أقص عليكم خبره ؛ إنى شاهدةٌ أمرَه كلَّه . إن أهل المدينة حصروه فى داره ، ويحرسونه ليلهم ونهارهم قياماً على أبوابه بالسلاح ، يمنعونه كل شىء قدروا عليه ، حتى منعوه الماء ؛ فمكث هو ومن معه خمسين ليلة ، وأهل مصر قد أسندوا أمرهم إلى على ، ومحمد بن أبي بكر ، وعمار بن ياسر ، وطلحة والزبير ، فأمروهم بقتله ؛ وكان معهم من القبائل : خزاعة ، وسعد بن بكر ، وهذيل ، وطوائف من جهينة ومزينة وأنباط يثرب ؛ فهؤلاء كانوا أشد الناس عليه .

ثم إنه حُصِر فرُشِق بالنَّبل والحجارة ، فجرح ممن كان فى الدار ثلاثة نفر معه ، فأتاه الناس يصرخون إليه ليأذن لهم فى القتال ، فنهاهم وأمرهم أن يردوا إليهم نبلهم ، فردوها عليهم ، فما زادهم ذلك فى القتل إلا جرأة ، وفى الأمر إلا إغراقا ؛ فحرّقوا باب الدار ؛ ثم جاء [ثلاثة] نفر من أصحابه فقالوا : إن [فى المسجد] ناساً يريدون أن يأخذوا أمر الناس بالعدل ، فاخرج إلى المسجد يأتوك . فانطلق فجلس فيه ساعة وأسلحة القوم مظلة عليه من كل ناحية ، فقال :

ما أرى اليوم أحداً يعدل ! فدخل الدار ، وكان معه نفر ليس على عامتهم سلاح فلبس درعه وقال لأصحابه : لولا أنتم ما لبست اليوم درعى . فوثب عليه القوم فكلمهم آبن الزبير ، وأخذ عليهم ميثاقا فى صحيفة وبعث بهما إلى عثمان : عليكم عهد الله وميثاقه أن لا تقربوه بسوء حتى تكلموه وتخرجوا . فوضع السلاح ، ولم يكن إلا وضعُه ودخل عليه القوم يقدُمهم محمد بن أبى بكر ، فأخذوا بلحيته ودعوه باللقب ؛ فقال : أنا عبد الله وخليفته عثمان . فضربوه على رأسه ثلاث ضربات ، وطعنوه فى صدره ثلاث طعنات ، وضربوه على مقدم الجبين فوق الأنف ضربة أسرعت فى العظم ؛ فسقطتُ عليه وقد أثخنوه وبه حياة ، وهم يريدون أن يقطعوا رأسه فيذهبوا به ، فأتتنى ابنة شيبة بن ربيعة فألقت بنفسها معى [عليه] ، فوُطئنا وطأ شديدا ، وعُرِّينا من حلينا ، وحرمة أمير المؤمنين أعظم : فقتلوا أمير المؤمنين فى بيته مقهوراً على فراشه ، وقد أرسلتُ إليكم بثوبه عليه دمُه ، وإنه والله إن كان أثِمَ مَن قتله لمَا سلم مَن خذله ، فانظروا أين أنتم من الله ، وأنا أشتكى كل ما مسنا إلى الله عز وجل ، وأستصرخ بصالحى عباده ؛ فرحم الله عثمان ولعن قتلته وصرعهم فى الدنيا مصارع الخزى والمذلة ، وشفى منهم الصدور » .

فحلف رجال من أهل الشام ألا يمسوا غسلا حتى يقتلوا عليا أو تفنى أرواحهم

وقال الفرزدق فى قتل عثمان :

إنّ الخلافةَ لمَا أُظعِنتْ ظَعَنتْ ۝ عن أهل يثْرب إذ غيْرَ الهدى سلكوا

صارت إلى أهلِها منهم ووارثِها ۝ لمَا رأى الله فى عُثمان ما آنتهكوا

السّافكِى دمَـــهُ ظلماً ومعصـــيةً ۝ أىَّ دمٍ لاهُدُوا من غيّهم سفكوا

وقال حسان :

إنْ تُمْسِ دارُ بنى عُثمانَ خاويةً ۝ بابٌ صريعٌ وبيتٌ مُحرَّق خَربُ

فقد يُصادف باغى الخيْرِ حاجتَه ۝ فيها ويأوِى إليها المجدُ والحسبُ

يا معشرَ الناس أبدوا ذات أنفُسِكم ۝ لا يستوى الحقُّ عند الله والكذب

تبرؤ علىّ من دم عثمان

قال على بن أبى طالب على المنبر : والله لئن لم يدخل الجنة إلا مَن قتل عثمان لادخلتُها أبداً ، ولئن لم يدخل النار إلا من قتل عثمان لادخلتها أبداً .

وأشرف علىٌّ من قصر له بالكوفة ، فنظر إلى سفينة فى دجلة فقال : والذى أرسلها فى بحره مسخرةً بأمره ، ما بدأت فى أمر عثمان بشىء ، ولئن شاءت بنو أمية لأباهلنَّهم عند الكعبة خمسين يميناً مابدأت فى حق عثمان بشىء . فبلغ هذا الحديث عبد الملك بن مروان ، فقال : إنى لأحسبه صادقا .

وقال معبد الخزاعى : لقيت عليّا بعد الجمل ، فقلت له إنى سائلك عن مسألة كانت منك ومن عثمان ، فإن نجوت اليوم نجوت غداً إن شاء الله . قال : سل عما بدا لك . قلت : أخبرنى ، أى منزلة وسعتك إذ قُتل عثمان ولم تنصره ؟ قال : إنّ عثمان كان إماما ، وإنه نهى عن القتال وقال : من سلّ سيفه فليس منى ! فلو قاتلْنا دونه عصَيْنا . قال : فأى منزلة وسعت عثمان إذ آستسلم حتى قُتل ؟ قال : المنزلة التى وسعت ابن آدم ، إذ قال لأخيه ﴿ لئنْ بسَطْتَ إلىّ يدَكَ لِتقتُلنى ما أنا بِباسطٍ يَدِىَ إليك لأقْتُلَكَ إنى أخاف الله ربّ العالمين ﴾ . قلت : فهلا وسعتْك هذه المنزلة يوم الجمل ؟ قال : إنا قاتلنا يوم الجمل من ظَلَمنا ، قال الله : ﴿ ولَمَنِ آنتصرَ بعد ظُلْمِهِ فأُولئك ما عَليهم مِن سبيلٍ ، إنمـا السبيلُ على الذين يَظلِمونَ الناس ويَبْغون فى الأرض بغيْرِ الحقّ أُولئك لهم عذابٌ أليم . ولَمَنْ صَبَر وغَفَر إنّ ذلك لمِنْ عزم الأُمور ﴾ . فقاتلْنا نحن من ظلَمنا ، وصبر عثمان ؛ وذلك من عزم الأمور .

ومن حديث بكر بن حماد : أنّ عبد الله بن الكواء سأل علىّ بن أبى طالب يوم صفين ، فقال له : أخبرْنى عن مخرجك هذا تضرْب الناس بعضهم ببعض ، أعَهْدٌ عهده إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم رأىٌ ارتأيته ؟

قال علىّ : اللهم إنى كنت أول من آمن به ، فلا أكون أول من كذب عليه ؛

لم يكن عندى فيه عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كان عندى فيه عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تركت أخا تَيْمٍ وعدىّ على منابرها، ولكن نبينا صلى الله عليه وسلم كان نبىَّ رحمة ، مرض أياما وليالىَ ، فقدم أبا بكر على الصلاة ، وهو يرانى ويرى مكانى ، فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رضيناه لأمر دنيانا إذ رضيه رسول الله لأمر ديننا ، فسلمتُ له وبايعت ، وسمعت وأطعت ؛ فكنت آخذ إذا أعطانى ، وأغزو إذا أغزانى ، وأقيم الحدود بين يديه : ثم أتته منيته ، فرأى أن عمر أطوق لهذا الأمر من غيره ، ووالله ماأراد به المحاباة ولو أرادها لجعلها فى أحد ولديه ، فسلمت له وبايعت ، وأطعت وسمعت ؛ فكنت آخذ إذا أعطانى ، وأغزو إذا أغزانى ، وأقيم الحدود بين يديه ؛ ثم أتته منيّته ، فرأى أنه من استخلف رجلا فعمل بغير طاعة الله عذبه الله به فى قبره ، فجعلها شورى بين ستة نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكنت أحدَهم ، فأخذ عبد الرحمن مواثيقَنا وعهودنا على أن يخلع نفسه وينظر لعامة المسلمين ؛ فبسط يده إلى عثمان فبايعه : اللهم إن قلت إنى لم أجدْ فى نفسى فقد كذبت ، ولكننى نظرت فى أمرى فوجدت طاعتى قد تقدمتْ معصيتى ، ووجدت الأمر الذى كان بيدى قد صار بيد غيرى ، فسلمتُ وبايعت ، وأطعت وسمعت : فكنت آخذ إذا أعطانى ، وأغزو إذا أغزانى ، وأقيم الحدود بين يديه ، ثم نقم الناس عليه أموراً فقتلوه ، ثم بقيت اليوم أنا ومعاوية ، فأرى نفسى أحقّ بها من معاوية : لأنى مهاجرى وهو أعرابى ، وأنا ابن عمّ رسول الله وصهرُه ، وهو طليق ابن طليق .

قال له عبد الله بن الكواء : صدقت ، ولكن طلحة والزبير ، أما كان لهما فى هذا الأمر مثل الذى لك ؟

قال : إن طلحة والزبير بايعانى فى المدينة ، ونكثا بيعتى بالعراق ؛ فقاتلتهما على نكثهما ولو نكثا بيعة أبى بكر وعمر لقاتلاهما على نكثهما كما قاتلتُهما . قال : صدقت . ورجع إليه .

واستعمل عبد الملك بن مروان نافع بن علقمة بن صفوان على مكة ، فخطب

ذات يوم وأبانُ بن عثمان قاعد عند أصل المنبر ، فنال من طلحة والزبير ، فلما نزل قال لأبان : أرضيتك من المُذهِبين فى أمر أمير المؤمنين ؟ قال : لا ، ولكنك سؤتنى ؛ حسبى أن يكونا بريئين من أمره .

وعلى هذا المعنى قال إسحاق بن عيسى : أعيذ عليًا بالله أن يكون قَتل عثمان وأعيذ عثمانَ أن يكون قتله علىّ !

وهذا الكلام على مذهب قول النبى صلى الله عليه وسلم : إن أشد الناسِ عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبيًا أو قتله نبىٌّ .

سعيد بن جُبير عن أبى الصهباء ، أن رجالا ذكروا عثمان ، فقال رجل من القوم : إنى أعرفُ لكم رأىَ علىّ فيه فدخل الرجل على علىّ فنال من عثمان ، فقال على : دع عنك عثمان ، فوالله ما كان بأشرِّنا ، ولكنه ولى فاستأثر ، فحرمنا فأساء الحرمان .

وقال عثمان بن حُنيف : إنى شهدت مشهداً اجتمع فيه على وعمار ومالك الأشتر وصعصعة ، فذكروا عثمان ، فوقع فيه عمار ، ثم أخذ مالك لحذا حذوه ، ووجهُ علىّ يتمعّر ، ثم تكلم صعصعة . فقال : ما علَى رجل يقول : كان والله أول من ولىَ فاستأثر ، وأول من تفرقت عنه هذه الأمة ! فقال على : إلىّ أبا اليقظان . لقد سبقتْ لعثمان سوابق لا يعذّبه الله بها أبدا .

محمد بن حاطب قال : قال لى علىّ يوم الجمل ، انطلق إلى قومك فأبلغهم كتبى وقولى . فقلت إن قومى إذا أتيتُهم يقولون : ما قولُ صاحبك فى عثمان ؟ فقال : أخبرهم أن قولى فى عثمان أحسنُ القول ؛ إن عثمان كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتّقَوْا وآمنوا ، ثم اتّقَوْا وأحسنوا ، والله يُحِبُّ المحسنين .

جرير بن حازم عن محمد بن سيرين قال : ما علمتُ أنّ عليا اتُّهِم فى دم عثمان حتى بويع ، فلما بويع اتهمه الناس .

محمد بن الحنفية قال : إنى عن يمين على يوم الجمل ، وابنُ عباس عن يساره ،

إذ سمع صوتاً ، فقال : ماهذا ؟ قالوا : عائشة تلعن قتلة عثمان . فقال علىٌّ : لعن الله قتلةَ عثمان فى السهل والجبل والبحر والبر .

ما نقم الناس على عثمان

ابن دأب قال : لما أنكر الناس على عثمان ما أنكروا ، من تأمير الأحداث من أهل بيته على الجِلّة الأكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، قالوا لعبد الرحمن بن عوف : هذا عملُك واختيارك لأمة محمد ! قال : لم أظن هذا به ! ودخل على عثمان فقال له : إنى إنما قدّمْتُك على أن تسير فينا بسيرة أبى بكر وعمر ، وقد خالفتهما . فقال : عمر كان يقطع قرابته فى الله ، وأنا أصل قرابتى فى الله . فقال له : لله عَلَىَّ أن لا أُكَلّمَك أبداً ! فمات عبد الرحمن وهو لا يكلّم عثمان .

ولما رد عثمانُ الحكم بن أبى العاص طريد النبى صلى الله عليه وسلم وطريدَ أبى بكر وعمر إلى المدينة ، تكلم الناس فى ذلك ، فقال عثمان : ما ينقم الناس منى ؟ إنى وصلت رحما وقربتُ قرابة .

حُصين بن زيد بن وَهب قال : مَررنا بأبى ذرّ بالرَّبذة ، فسألناه عن منزله ، فقال : كنت بالشام ، فقرأت هذه الآية ﴿ والذين يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنفِقونها فى سبيلِ اللهِ فبشِّرْهُمْ بعذابٍ أليمٍ ﴾ فقال معاوية : إنما هى فى أهل الكتاب . فقلت : إنها لَفينا وفيهم فكتب إلىّ عثمان : أقبِل . فلما قدمت ركبتنى الناس كأنهم لم يرونى قط ، فشكوت ذلك إلى عثمان ، فقال : لو اعتزلتَ فكنتَ قريباً ! فنزلتُ هذا المنزل ، فلا أدع قولى ، ولو أمَّروا علىّ عبداً حبشيا لأطعت .

الحسن بن أبى الحسن عن الزبير بن العوام فى هذه الآية : ﴿ واتَّقوا فِتْنَةً لا تصيبَنَّ الذينَ ظلمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً ﴾ . قال : لقد نزلتْ وما ندرى من يختلف لها . فقال بعضهم : يا أبا عبد الله ، فلم جئتَ إلى البصرة ؟ قال : ويحك

إننا ننظر ولا نبصر !

أبو نضرة عن أبي سعيد الخدرى قال : إن ناسا كانوا عند فسطاط عائشة وأنا معهم بمكة ، فمرّ بنا عثمان ، فما بقى أحد من القوم إلا لعنه غيرى ؛ فكان فيهم رجلٌ من أهل الكوفة ، فكان عثمان على الكوفى أجرأ منه على غيره ، فقال : يا كوفى ، أتشتمنى ؟ فلما قدم المدينة كان يتهدده ؛ قال : فقيل له : عليك بطلحة . قال : فانطلق معه حتى دخل على عثمان ، فقال عثمان : والله لأجلدنه مائة سوط ! قال طلحة : والله لا تجلده مائة إلا أن يكون زانيا . قال : والله لأحرِمَنَّه عطاءه ! قال : اللهُ يرزقه .

ومن حديث ابن أبي قُتيبة عن الأعمش عن عبد الله بن سنان قال : خرج علينا ابنُ مسعود ونحن فى المسجد وكان على بيت مال الكوفه ، و[أمير] الكوفة الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، فقال : يا أهل الكوفة ، فقدت من بيت مالكم الليلة مائة ألف لم يأتنى بها كتاب من أمير المؤمنين ولم يكتب لى بها براءة . قال : فكتب الوليد بن عقبة إلى عثمان فى ذلك ، فنزعه عن بيت المال .

ومن حديث الأعمش يرويه أبو بكر بن أبي شيبة قال : كتب أصحاب عثمان عيبَه وما ينقم الناس عليه فى صحيفة ، فقالوا : من يذهب بها إليه ؟ قال عمار : أنا . فذهب بها إليه ، فلما قرأها قال : أرغم الله أنفك ، قال : وبأنف أبي بكر وعمر . قال : فقام إليه فوطئه حتى غشى عليه ، ثم ندم عثمان ، وبعث إليه طلحة والزبير يقولان له : اختر إحدى ثلاث : إما أن تعفو ، وإما أن تأخذ الأرْش ، وإما أن تقتص . فقال . والله لا قبلت واحدة منها حتى ألقى الله ! قال أبو بكر : فذكرت هذا الحديث للحسن بن صالح ، فقال : ما كان على عثمان أكثرُ مما صنع .

ومن حديث الليث بن سعد قال : مرّ عبدُ الله بن عمر بحذيفة ، فقال : لقد اختلف الناس بعد نبيهم ، فما منهم أحد إلا أعطى من دينه ، ما عدا هذا الرجل .

وسئل سعد بن أبي وقاص عن عثمان ، فقال : أما والله لقد كان أحسنَنا وضوءاً

وأطولَنا صلاة، وأتلانا لكتاب الله ، وأعظَمَنا نفقةً فى سبيل الله ثم ولِىَ فأنكروا عليه شيئاً ، فأتوا إليه أعظم مما أنكروا .

وكتب عثمان إلى أهل الكوفة حين ولاهم سعيد بن العاص : أما بعد ، فإنى كنتُ وليتكم الوليد بن عقبة غلاما حين ذهب شرهه وثاب حلمه ، وأوصيتُه بكم ولم أوصكم به ، فلما أعيتكم علانيتُه طعنتم فى سريرته ؛ وقد وليتكم سعيد بن العاص وهو خير عشيرته ، وأوصيكم به خيرا ، فاستوصوا به خيرا .

وكان الوليد بن عقبة أخا عثمان لأمه ، وكان عامله على الكوفة ، فصلى بهم الصبح ثلاث ركعات وهو سكران ، ثم التفت إليهم فقال : وإن شئتم زدتكم ! فقامت عليه البينة بذلك عند عثمان ، فقال لطلحة : قم فاجلده . قال لم أكن من الجالدين . فقام إليه علىّ فجلده .

وفيه يقول الحطيئة :

شهِدَ الحطيئةُ يومَ يلْقى ربَّهُ ✽ أنَّ الوليدَ أحقُّ بالعُذْرِ

ليَزيدهُمْ خيْرا ولو قبِلُوا ✽ لَجَمَعْتَ بينَ الشَّفْعِ والوِتْرِ

مَسكوا عِنانك إذ جَرَيْت ولو ✽ تَرَكوا عِنانك لم تزَلْ تجْرى

ابن دأب قال : لما أنكر الناس على عثمان ما أنكروا ، اجتمعوا إلى علىّ وسألوه أن يلقى لهم عثمان ، فأقبل حتى دخل عليه فقال : إن الناس ورائى قد كلمونى أن أكلمك ؛ والله ما أدرى ما أقول لك ؛ ما أعرفُ شيئا تنكره ، ولا أُعلِمُك شيئا تجهله ، وما ابنُ أبى قحافة بأولَى بعمل الحق منك ، ولا ابن الخطاب بأولى بشىء من الخير منك ؛ وما نُبَصِّرُك من عَمًى ، وما نُعلِّمُك من جَهْل ، وإن الطريقَ لبيِّنٌ واضح ، تعلم يا عثمان أن أفضل الناس عند الله إمام عدل هُدِىَ وهَدَى ، فأحيا سُنة معلومة ، وأمات بدعة مجهولة ؛ وأن شر الناس عند الله إمامُ ضلالة ضلَّ وأَضَلَّ ، فأحيا بدعة مجهولة ، وأمات سُنة معلومة ؛ وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يؤتى بالإمام الجائر يوم القيامة ليس معه ناصرٌ ولا له عاذر ، فيلقى فى جهنم فيدور دوَرَ الرحى ،

يرتطم فى غمرة النار إلى آخر الأبد . وأنا أحذرك أن تكون إمامَ هذه الأمة المقتولَ ، [فإنه يقال : يُقتَل فى هذه الأمة إمام] يُفتَح به باب القتل والقتال إلى يوم القيامة يمرج بهم أمرهم ويمرجون . فخرج عثمان ، ثم خطب خطبته التى أظهر فيها التوبة .

وكان علىّ كلما اشتكى الناسُ إليه أمرَ عثمان ، أرسل ابنَه الحسن إليه ، فلما أكثَر عليه قال له : إن أباك يرى أن أحداً لا يَعلم ما يَعلم ، ونحن أعلم بما نفعل ، فكُف عنا ! فلم يبعث علىّ ابنَه فى شىء بعد ذلك .

وذكروا أن عثمان صلى العصر ثم خرج إلى علىّ يعوده فى مرضه ومروان معه ، فرآه ثقيلا ؛ فقال : أما والله لولا ما أرى منك ما كنت أتكلم بما أريد أن أتكلم به ، والله ما أدرى أى يوميك أحبّ إلىّ أو أبغض ، أيوم حياتك أو يوم موتك ! أما والله لئن بقيت لا أعدم شامتاً يعدُّك كنَفا ، ويتخذك عضدا ؛ ولئن مت لأفجعن بك ؛ فحظى منك حظ الوالد المشفق من الولد العاق : إن عاش عقه ، وإن مات فجعه ! فليتك جعلت لنا من أمرك علما نقف عليه ونعرفه ، إمّا صديق مسالم ، وإمّا عدوّ معانٍ ، ولم تجعلنى كالمختنق بين السماء والأرض ، لا يرقى بيد ، ولا يهبط برجل ! أما والله لئن قتلتك لا أصيب منك خلفا ، ولئن قتلتنى لا تصيب منى خلفا ؛ وما أحب أن أبقى بعدك ! . قال مروان : إى والله ، وأخرى ، إنه لا ينال ما وراء ظهورنا حتى تكسر رماحنا وتقطع سيوفنا ؛ فما خير العيش بعد هذا ؟ فضرب عثمان فى صدره وقال : ما يُدخلك فى كلامنا ؟ فقال علىّ : إنى والله فى شغل عن جوابكما ، ولكنى أقول كما قال أبو يوسف ﴿فصبرٌ جميل واللهُ المُستعانُ على ما تصِفونَ﴾ .

وقال عبد الله بن العباس : أرسل إلىّ عثمان فقال لى : اكفِنى ابنَ عمك ! فقلت : إن ابن عمى ليس بالرجل يُرَى له ولكنه يَرى لنفسه ، فأرسلنى إليه بما أحببت . قال : قل له فليخرج إلى ماله بينبُع ، فلا أغتم به ولا يغتم بى فأتيت عليا فأخبرته ، فقال : ما اتخذنى عثمان إلا ناصحا . ثم أنشد يقول :

فكيف به أنّى أداوى جِراحه ٭ فيدْوَى فلا ملّ الدواء ولا الداء

أما والله إنه ليختبر القوم ، فأتيت عثمان ، فحدّثته الحديث كله إلا البيت الذى أنشده وقوله إنه ليختبر القوم ؛ فأنشد عثمان :

فكيف به أنّى أداوى جِراحه ٭ فيدْوَى فلا ملّ الدواء ولا الداء

٥ وجعل يقول : يارحيم انصرنى ! يارحيم انصرنى ! يارحيم انصرنى ! قال : فخرج علىّ إلى ينبع ، فكتب إليه عثمان حين اشتدّ الأمر :

أمّا بعد ، فقد بلغ السيل الزُّبَى وجاوز الحزام الطُّبيين ، وطَمِع فىَّ من كان يضعف عن نفسه :

وإنكَ لم يفخَر عليكَ كفاخِرٍ ٭ ضعيفٍ ولم يَغلبْك مثلُ مُغلَّبِ

١٠ فأقبِل إلىّ على أىّ أمريك أحببتَ ، وكن لى أو علىّ ، صديقاً كنتَ أو عدوّا .

فإنْ كنتُ مأكولاً فكنْ خيرَ آكِلٍ ٭ وإلا فأدركْنى ولمّا أُمزّق

خلافة على بن أبى طالب

رضى الله عنه

قال : لما قُتل عثمان بن عفان ، أقبل الناس يهرعون إلى على بن ١٥ أبى طالب ، فتراكمت عليه الجماعة فى البيعة ، فقال : ليس ذلك إليكم ، إنما ذلك لأهل بدر ليبايعوا . فقال : أين طلحة والزبير وسعد ؟ فأقبلوا فبايعوا ، ثم بايعه المهاجرون والأنصار ، ثم بايعه الناس ، وذلك يومَ الجمعة لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين ، وكان أوّل من بايعه طلحة ، وكانت أصبعه شلّاء ، فتطير منها علىّ وقال : ما أخلقَه أن ينكث ! فكان كما قال ٢٠ علىّ رضى الله عنه .

نسب على بن أبى طالب

هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ؛ وأمه فاطمة بنت أسد ابن هاشم بن عبد مناف .

صـــفته

كان أصلع بطينا حَمْش الساقين .

صاحب شرطته : معقل بن قيس الرياحى ، ومالك بن حبيب اليربوعى .

وكاتبه سعيد بن نِمْران ، وحاجبه : قنبر مولاه .

وقتل يوم الجمعة بالكوفة ، وهو خارج إلى المسجد لصلاة الصبح ، لسبع بقين من شهر رمضان ، فكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر ، وصلى عليه ولده الحسن ، ودفن برحبة الكوفة ، ويقال : فى لحف الحيرة ، وعمى قبره .

واختلف فى سنه ، وقال الشعبى : قتل علىّ رحمه الله وهو ابن ثمان وخمسين سنة . وولد علىّ بمكة فى شعب بنى هاشم .

فضائل على بن أبى طالب

كرّم الله وجهه

أبو الحسن قال : أسلم علىّ وهو ابن خمس عشرة سنة ، وهو أول من شهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله .

وقال النبى عليه الصلاة والسلام : من كنتُ مولاه فعلىٌّ مولاه ، اللهم والِ من والاه ، وعادِ من عاداه . وقال له النبى صلى الله عليه وسلم : أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ غير أنه لا نبىّ بعدى .

وبهذا الحديث سمت الشيعة على بن أبى طالب الوصىّ ؛ وتأولوا فيه أنه استخلفه على أمته ؛ إذ جعله منه بمنزلة هارون من موسى ؛ لأنّ هارون كان خليفة موسى على قومه إذا غاب عنهم .

وقال السيد الحميرى رحمه الله تعالى :

إنى أدين بما دانَ الوصىُّ به ٭ وشاركتْ كفّه كفّى بصِفّينا

وجمع النبى صلى الله عليه وسلم فاطمة وعليا والحسن والحسين ، فألقى عليهم

كساءه وضمهم إلى نفسه ؛ ثم تلا هذه الآية ﴿إنما يُريدُ الله ليُذهبَ عنكم الرِّجسَ أهلَ البيت ويُطهِّرَكم تطهيراً﴾ . فتأولت الشيعة الرجس هنا بالخوض فى غمرة الدنيا وكدورتها .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم يوم خيبر : لأُعطيَنَّ الراية غداً رجلا يحبُّ اللهَ ورسولَه ؛ ويحبه اللهُ ورسولُه ، لا يمسى حتى يفتحَ الله له . فدعا عليا ، وكان أرمدَ ، فتفل فى عينيه وقال : اللهم قِهِ داء الحرّ والبرد . فكان يلبس كُسوةَ الصيف فى الشتاء ، وكسوةَ الشتاء فى الصيف ، ولا يضرُّه .

أبو الحسن قال : ذُكِر علىٌّ عند عائشة فقالت : ما رأيت رجلا أحبَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه ، ولا رأيتُ امرأة كانت أحبَّ إليه من امرأته .

وقال علىٌّ بن أبى طالب : أنا أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمّه ، لا يقولها بعدى إلا كذاب .

الشعبي قال : كان علىٌّ بن أبى طالب فى هذه الأمة مثل المسيح بن مريم فى بنى إسرائيل : أحبَّه قومٌ فكفروا فى حبه ، وأبغضه قوم فكفروا فى بغضه !

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : الحسنُ والحسين سيِّدا شباب أهل الجنة ، وأبوهما خيرٌ منهما .

أبو الحسن قال : كان على بن أبى طالب رضى الله عنه يَقْسِم بيتَ المال فى كل جمعة حتى لا يُبقى منه شيئا ؛ ثم يُفرَش له ويقيل فيه ، ويتمثل بهذا البيت :

هذا جَناىَ وخِيارُه فِيهْ ٭ إذ كلُّ جانٍ يَدُه إلى فِيهْ

كان على بن أبى طالب إذا دخل بيت المال ونظر إلى ما فيه من الذهب والفضة قال :

ٱبيضّى وٱصفرّى وغُرّى غيْرى ٭ إنى من الله بكلِّ خيرِ

ودخل رجل على الحسن بن أبى الحسن البصرى فقال : يا أبا سعيد ، إنهم يزعمون أنك تُبغض عليّا ؟ قال : فبكى الحسن حتى ٱخضلَّت لحيتُه ، ثم قال :

كان علي بن أبي طالب سهماً صائباً من مرامى الله على عدوه ، وربانىّ هذه الأمة وذا فضلها وسابقتها ، وذا قرابة قريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يكن بالنُّوَمَةِ عن رسول الله ، ولا الملولة فى ذات الله ، ولا السَّروقة لمال الله ؛ أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مونقة ، وأعلام بينة ، ذلك علىُّ بن أبى طالب يا لُكع .

يوم الجمل

أبو اليقظان قال : قدم طلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وعائشة أم المؤمنين البصرة ؛ فتلقاهم الناس بأعلى المِربد ، حتى لو رموا بحجر ما وقع إلا على رأس إنسان ؛ فتكلم طلحة ، وتكلمت عائشة ، وكثر اللغط ؛ فجعل طلحة يقول : أيها الناس ، أنصتوا ! وجعلوا يُرهِجُون ولا ينصتون ، فقال : أف ! أف ! فراشُ نار وذُبابُ طمع !

وكان عثمان بن حنيف الأنصارى عامل علىّ بن أبى طالب على البصرة ، فخرج إليهم فى رجاله ومن معه ؛ فتواقفوا حتى زالت الشمس ، ثم اصطلحوا وكتبوا بينهم كتاباً : أن يكفوا عن القتال حتى يقدم علىُّ بن أبى طالب ، ولعثمان بن حنيف دار الإمارة ، والمسجد الجامع ، وبيت المال ؛ فكفُّوا .

ووجه على بن أبى طالب الحسن ابنَه ، وعمار بن ياسر ، إلى أهل الكوفة يستنفرانهم ، فنفر معهما سبعة آلاف من أهل الكوفة ؛ فقال عمار : أما والله إنى لأعلم أنها زوجتُه فى الدنيا والآخرة ؛ ولكن الله ابتلاكم بها لتتبعوه أو تتبعوها .

وخرج على فى أربعة آلاف من أهل المدينة ، فيهم ثمانمائة من الأنصار ، وأربعمائة ممن شهد بيعة الرضوان مع النبي صلى الله عليه وسلم . وراية على مع ابنه محمد بن الحنفية ، وعلى ميمنته الحسن ، وعلى ميسرته الحسين ، وعلى الخيل عمار بن ياسر ، وعلى الرَّجالة محمد بن أبى بكر ، وعلى المقدمة عبد الله بن عباس ؛

ولواء طلحة والزبير مع عبد الله بن حكيم بن حزام ، وعلى الخيل طلحة بن عبيد الله وعلى الرجالة عبد الله بن الزبير ؛ فالتقوا بموضع قصر عبيد الله بن زياد فى النصف من جمادى الآخرة يوم الخميس ، وكانت الوقعة يوم الجمعة .

وقالوا : لما قدم على بن أبى طالب البصرة ، قال لابن عباس : ائت الزبير ٥ ولا تأت طلحة ؛ فإن الزبير ألين ، وأنت تجد طلحة كالثور عاقصا بقرنه يركب الصعوبة ويقول هى أسهل ؛ فأقرئه السلام وقل له : يقول لك ابن خالك : عرفتنى بالحجاز ، وأنكرتنى بالعراق ! فما عدا مما بدا ؟ .

قال ابن عباس : فأتيته فأبلغته ، فقال : قل له : بيننا وبينك عهد خليفة ودمُ خليفة ، واجتماع ثلاثة وانفراد واحد ، وأُمٌّ مبرورة ، ومشاورة العشيرة ، ونشر ١٠ المصاحف ، نُحِلُّ ما أَحَلَّتْ ، ونُحرِّمَ ما حَرَّمَتْ .

وقال على بن أبى طالب : ما زال الزبيرُ رجلا منا أهلَ البيت حتى أدركه ابنُه عبد الله فلفته عنا .

وقال طلحة لأهل البصرة وسألوه عن بيعة على ، فقال : أدخلونى فى حَشّ ثم وضعوا اللجَّ على قَفَىَّ فقالوا بايع وإلا قتلناك . قوله اللج : يريد السيف ، وقوله ١٥ قفى : لغة طى ، وكانت أمه طائية .

وخطبت عائشة أهل البصرة يوم الجمل فقالت : أيها الناس ، صه صه !

فكأنما قُطعت الألسُن فى الأفواه . ثم قالت : إن لى عليكم حرمةَ الأمومة ، وحقَّ الموعظة ؛ لا يتّهمنى إلا من عصى ربَّه ؛ ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سَحْرِى ونحرِى ؛ فأنا إحدى نسائه فى الجنة ، [له] ادخرنى ربى وسلّمنى من ٢٠ كل بُضع ، وبى ميز بين منافقكم ومؤمنكم ، وبى أرخص لكم فى صعيد الأبواء ؛ ثم أبى ثالثُ ثلاثة من المؤمنين ، وثانى اثنين فى الغار ، وأول من سُمّى صِدّيقا ؛ مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم راضياً عنه ، وطوقه طوْقَ الإمامة ؛ ثم اضطرب حبل الدين فمسك أبى بطرفيه ، ورَتَق لكم أثناءه ، فوقم النفاق ، وأغاض نبعَ الردة ،

وأطفأ ماحشّت يهود ؛ وأنتم يومئذ جحَظُ العيون ، تنظرون ، وتسمعون الصيحة ، فرأب الثأى ، وأوذَم العطِلة ، وانتاش من الهوّة ، واجتحى دفينَ الداء ، حتى أعطن الوارد ، وأورد الصادر ، وعلّ الناهل ، فقبضه الله واطئاً على هامات النفاق مذكياً نار الحرب للمشركين ، فانتظمت طاعتكم بحبله ؛ ثم ولّى أمركم رجلا مُرعيا إذا رُكن إليه ، بعيد ما بين اللابتين ، عُرَكة للأذاة بجنبه ، يقظان الليل فى نصرة الإسلام ؛ فسلك مسلك السابقة ، ففرق شمل الفتنة وجمع أعضاد ماجمع القرآن ، وأنا نُصْب المسئلة عن مسيرى هذا ، لم ألتمس إثمـا ، ولم أُوَرِّث فتنة أوطئكموها . أقول قولى هذا صدقا وعدلا وإعذاراً وإنذارا ، وأسأل الله أن يُصلى على محمد ، وأن يخلفه فيكم بأفضل خلافة المرسلين .

وكتبت أُمُّ سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم إلى عائشة أم المؤمنين إذ عزمتْ على الخروج إلى الجمل :

من أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، إلى عائشة أم المؤمنين : فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو : أما بعد ، إنك سُدّةٌ بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته ، وحجاب مضروب على حرمته ، قد جمع القرآن ذَيْلك فلا تندَحيه وسكّرى خفارتك فلا تبتذليها . فالله من وراء هذه الأمة ، ولو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النساء يحتملن الجهاد عهد إليك ، أمَا علمت أنه قد نهاك عن الفَراطة فى البلاد فإن عمود الدين لايثبتُ بالنساء إن مال ، ولا يُرأب بهن إن انصدع ؟ جهاد النساء : غض الأطراف ، وضم الذيول ، وقِصر الوَهازة . ما كنتِ قائلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو عارضك ببعض هذه الفلوات ناصّة قعوداً من منهل إلى منهل ؟ وغداً تَرِدين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وأقسم لو قيل لى : ياأُمّ سلمة ادخلى الجنة لاستحييت أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتكةً حجابا ضربه علىّ فاجعليه سِترك ، ووِقاعةَ البيت حِصنَك ؛ فإنك أنصحُ ما تكونين لهذه الأمة ماقعدتِ عن نصرتهم ؛ ولو أنى حدثتك

بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لنهشتنى نهش الرقشاء المطرقة . والسلام .

فأجابتها عائشة :

من عائشة أم المؤمنين إلى أم سلمة ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ؛ أما بعد ، فما أقبلَنى لوعْظِك ، وأعْرَفنى لحق نصيحتك ، وما أنا بمعتمرة بعد تعريج ، ولنعم المطلعُ مطلعٌ فرقت فيه بين فئتين متشاجرتين من المسلمين ، فإن أقْعُدْ فنى غير حرج ، وإن أمض فإلى ما لا غنى بى عن الازدياد منه ، والسلام .

وكتبت عائشة إلى زيد بن صُوحان إذ قدمت البصرة :

من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان : سلام عليك ؛ أما بعد ، فإن أباك كان رأسا فى الجاهلية ، وسيدا فى الإسلام وإنك من أبيك بمنزلة المصلِّى من السابق ، يقال : كاد أو لحق ؛ وقد بلغك الذى كان فى الإسلام من مصاب عثمان بن عفان ؛ ونحن قادمون عليك ، والعيان أشفى لك من الخبر . فإذا أتاك كتابى هذا فثبِّط الناس عن على بن أبى طالب ، وكن مكانك حتى يأتيك أمرى ، والسلام .

فكتب إليها :

من زيد بن صوحان إلى عائشة أم المؤمنين ؛ سلام عليك ؛ أما بعد ، فإنك أُمرتِ بأمر وأُمرْنا بغيره : أُمرت أن تقرّى فى بيتك ، وأُمرنا أن نقاتل الناس حتى لا تكونَ فتنة ؛ فتركت ما أُمرتِ به ؛ وكتبت تنهيننا عما أُمرنا به ، والسلام .

وخطب على رضى الله عنه بأهل الكوفة يوم الجمل إذا أقبلوا إليه مع الحسن ابن على ، فقام فيهم خطيباً فقال :

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين وآخر المرسلين ؛ أما بعد ؛ فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الثقلين كافة ، والناسُ فى اختلاف ، والعرب بشرِّ المنازل ، مستضعَفون لما بهم ، فرأب الله به الثأى ،

ولَأَم به الصدع ، ورتق به الفتق ، وأمن به السبيل ، وحقن به الدماء ، وقطع به العداوة المُوغِرة للقلوب ، والضغائن المُشحنة للصدور ؛ ثم قبضه الله تعالى مشكوراً سعيُه ، مرضيا عمله ، مغفوراً ذنبُه ، كريماً عند الله نُزُله ؛ فيالها مصيبة عمت المسلمين ، وخصت الأقربين ؛ ووليَ أبو بكر ، فسار فينا بسيرة رضا ، رضيَ بها المسلمون ؛ ثم وليَ عمر ، فسار بسيرة أبي بكر رضى الله عنهما ؛ ثم ولى عثمان ، ٥ فنال منكم ونلتم منه ؛ ثم كان من أمره ما كان ، فأتيتموه فقتلتموه ، ثم أتيتمونى فقلتم : لو بايعتَنا ! فقلت : لا أفعل ، وقبضت يدى فبسطتموها ، ونازعتكم كفى فجذبتموها ، وقلتم : لانرضى إلا بك ، ولانجتمع إلا عليك ، وتداككتم علىّ تداكُك الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها ، حتى ظننت أنكم قاتلىّ وأن بعضكم قاتلٌ بعضا فبايعتمونى ، وبايعنى طلحة والزبير ، ثم ما لبثا أن استأذنانى إلى العمرة ، فسارا إلى ١٠ البصرة فقاتلا بها المسلمين ، وفعلا بها الأفاعيل وهما يعلمان والله أنى لست بدون مَن مضى ، ولو أشاء أن أقول لقلت ؛ اللهم إنهما قطعا قرابتى ، ونكثا بيعتى وألّبا علىّ عدوّى ؛ اللهم فلا تُحْكِم لهما ما أبرما ، وأرِهما المساءة فيما عملا وأمّلا !

وأملى على بن محمد عن مَسلمة بن محارب ، عن داود بن أبى هند ، عن أبى حرب ، عن أبى الأسود عن أبيه ، قال : خرجت مع عمران بن حصين وعثمان ١٥ ابن حنيف إلى عائشة فقلنا : يا أمّ المؤمنين ، أخبرينا عن مسيرك هذا : عهدٌ عَهِدَه إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم رأى رأيتِه ؟ قالت : بل رأىٌ رأيتُه حين قُتل عثمان بن عفان ، إنا نقمنا عليه ضربه بالسوط ، ومواضع من الحِمى حماها ، وإمرة سعيد والوليد ، فعدوتم عليه فاستحللتم منه الثلاث الحُرَم : حرمة البلد ، وحرمة الخلافة ، وحرمة الشهر الحرام ؛ بعد أن مُصتموه كما يُماص الإناء ٢٠ فغضبنا لكم من سوط عثمان ؛ ولا نغضب لعثمان من سيفكم ؟ ! قلنا : ما أنت وسيفنا وسوط عثمان ، وأنت حبيسُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أمرك أن تَقَرّى فى بيتك ، فجئت تضربين الناس بعضهم ببعض ! قالت : وهل أحد يقاتلنى أو يقول غير هذا ؟ قلنا : نعم . قالت : ومن يفعل ذلك ؟ هل أنت مبلغ عنى

يا عمران ؟ قال : لست مبلغا عنك حرفا واحدا . قلت : لكنني مُبلِّغ عنك ، فهات ما شئت قالت : اللهم اقتل مذمّما قِصاصا بعثمان ، وارم الأشتر بسهم من سهامك لا يشوى ، وأدرك عمارا بِخَفَره بعثمان .

أبو بكر بن أبي شيبة قال : حدثنا عبد الله بن إدريس عن حصين عن الأحنف بن قيس ، قال : قدمنا المدينة ونحن نريد الحج ، فانطلقت فأتيت طلحة والزبير ، فقلت : إني لا أرى هذا إلا مقتولا ، فمن تأمراني به كما ترضيانه لي ؟ قالا : نأمرك بعليّ . قلت : فتأمراني به وترضيانه لي ؟ قالا : نعم . قال : ثم انطلقت حتى أتيت مكة ، فبينما نحن بها إذ أتانا قتل عثمان ، وبها عائشة أم المؤمنين فانطلقت إليها فقلت : من تأمريني أن أبايع ؟ قالت : علي بن أبي طالب . قلت : أتأمريني به وترضَيْنه لي ؟ قالت : نعم . قال : فمررت على عليّ بالمدينة فبايعته ، ثم رجعت إلى البصرة وأنا أرى أن الأمر قد استقام ، فما راعنا إلا قدوم عائشة أمّ المؤمنين ، وطلحة والزبير ، قد نزلوا جانب الخريبة ، قال : فقلت : ماجاء بهم ؟ [قالوا] : قد أرسلوا إليك يستنصرونك على دم عثمان ؛ إنه قتل مظلوما . قال : فأتاني أفظع أمر لم يأتني قط ؛ قلت : إن خذلان هؤلاء ومعهم أم المؤمنين وحواريّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لشديد ! وإن قتال ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن أمروني ببيعته لشديد ، قال : فلما أتيتهم قالوا : جئناك نستصرخك على دم عثمان ، قتل مظلوما ! قال : فقلت : يا أم المؤمنين ، أنشُدُكِ الله أقلت لك : من تأمريني به وترضَيْنه لي ؟ فقلت : عليّ ! قالت بلى ، ولكنه بدل . قلت : يا زبير ، يا حواريّ رسول الله ، ويا طلحة ، نشدْتكما بالله ، أقلت لكما من تأمراني به وترَضيانه لي ؟ فقلتما : عليّ ! قالا : بلى ، ولكنه بدّل . قال : والله لا أقاتلكم ومعكم أمُّ المؤمنين ، ولا أقاتل عليًّا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن اختاروا مني إحدى ثلاث خصال : إما أن تفتحوا لي باب الجسر فألحق بأرض الأعاجم حتى يقضيَ الله من أمره مايقضى ، وإما أن ألحق بمكة فأكون بها ، أو أعتزل فأكون قريبا . قالوا : نأتمر ثم نرسل إليك قال : فائتمَروا . وقالوا :

تفتح له باب الجسر فيلحق به المفارق والخاذل ! أو يلحق بمكة فيفحشكم فى قريش ويخبرهم بأخباركم ! اجعلوه ههنا قريبا حيث تنظرون إليه . فاعتزل بالجلحاء من البصرة على فرسخين ، واعتزل معه زهاء ستة آلاف من بنى تميم .

مقتل طلحة

أبو الحسن قال : كانت وقعة الجمل يوم الجمعة فى النصف من جمادى الآخرة ، التقوا فكان أول مصروع فينا طلحة بن عبيد الله ، أتاه سهم غَرْب فأصاب ركبته فكان إذا أمسكوه فتر الدم ، وإذا تركوه انفجر ؛ فقال لهم : اتركوه ، فإنما هو سهم أرسله الله !

حماد بن زيد عن يحيى بن سعيد قال : قال طلحة يوم الجمل :

نَدِمْتُ ندامَةَ الكُسَعِىِّ لمَّا ٭ طلبت رضا بنى حَزْمٍ برغمِى

اللهم خذ منى لعثمان حتى يرضى !

ومن حديث أبى بكر بن أبى شيبة قال : لما رأى مروان بن الحكم يوم الجمل طلحة بن عبيد الله ، قال : لا أنتظر بعد اليوم بثأرى فى عثمان ! فانتزع له سهما فقتله .

ومن حديث سفيان الثورى قال : لما انقضى يوم الجمل خرج علىٌّ بن أبى طالب فى ليلة ذلك اليوم ومعه مولاه وبيده شمعة يتصفح وجوه القتلى ، حتى وقف على طلحة بن عبيد الله فى بطن واد متعفرا ، فجعل يمسح الغبار عن وجهه ويقول : أعْزِزْ علىَّ يا أبا محمد أن أراك متعفراً تحت نجوم السماء وفى بطون الأودية ، إنا لله وإنا إليه راجعون ! أشقيت نفسى ، وقتلت معشرى ! إلى الله أشكو عُجَرى وبُجَرى ! ثم قال : والله إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم : ﴿ ونَزَعْنا ما فى صُدورِهِمْ مِن غِلٍّ إخواناً على سُرُرٍ مُتقابلينَ ﴾ . وإذا لم نكن نحن فمن هم ؟

أبو إدريس عن ليث بن طلحة عن مطرف أن على بن أبى طالب أجلس طلحة يوم الجمل ومسح الغبار عن وجهه وبكى عليه !

ومن حديث سفيان ، أن عائشة ابنة طلحة كانت ترى فى نومها طلحة ، وذلك بعد موته بعشرين يوما ؛ فكان يقول لها : يابنية ، أخرجينى من هذا الماء الذى يؤذينى ! فلما أنتبهت من نومها جمعت أعوانها ثم نهضت فنبشته ، فوجدته صحيحاً كما دفن لم تنحسر له شعرة ، وقد اخضر جنبه كالسلق من الماء الذى كان يسيل ٥ عليه ، فلفته فى الملاحف واشترت له عرصة بالبصرة فدفنته فيها وبنت حوله مسجدا . قال : فلقد رأيت المرأة من أهل البصرة تُقبِل بالقارورة من البان فتصبها على قبره حتى تفرغها ، فلم يزلن يفعلن ذلك حتى صار تراب قبره مسكا أذفر .

ومن حديث الخُشنى قال : لما قتل طلحة بن عبيد الله يوم الجمل ، وجدوا فى تركته ثلثمائة بهار من ذهب وفضة — والبهار مزود من جلد عجل .

١٠ وقع قوم فى طلحة عند علىّ بن أبى طالب ، فقال : أما والله لئن قلتم فيه إنه لكما قال الشاعر :

فتًى كان يُدْنيه الغنى مِن صديقه ۞ إذا ما هو آستغنى ، ويُبعِدُهُ الفقْرُ
كأنّ الثُّريّا عُلّقتْ فى يَمينِه ۞ وفى خدّه الشِّعْرَى وفى الآخرِ البدرُ

مقتل الزبير بن العوّام

١٥ شريك عن الأسود بن قيس قال : حدثنى من رأى الزبير يوم الجمل يقعص الخيل بالرمح قعصا ، فنوّه به علىّ : أبا عبد الله ، أتذكر يوماً أتانا النبى صلى الله عليه وسلم وأنا أناجيك فقال : أتناجيه ، والله ليقاتلنّك وهو ظالم لك ! قال : فصرف الزبير وجه دابته وانصرف .

قال أبو الحسين : لما انحاز الزبير يوم الجمل ، مرّ بماء لبنى تميم ؛ فقيل للأحنف ٢٠ ابن قيس : هذا الزبير قد أقبل . قال : وما أصنع به أن جَمَع بين هذين الغَزِيّيْن وترك الناس وأقبل ؟ — يريد بالغزيّين : المعسكرين — ، وفى مجلسه عمرو بن جُرْموز المجاشعى ؛ فلما سمع كلامه قام من مجلسه واتبعه حتى وجده بوادى السباع نائماً فقتله ، وأقبل برأسه إلى على بن طالب ، فقال علىّ : أبشِرْ بالنار ! سمعت رسول الله

صلى الله عليه وسلم يقول : بشروا قاتل الزبير بالنار ! فخرج عمرو بن جرموز وهو يقول :

أتيتُ عليًا برأسِ الزُّبيْرِ ۞ وكنتُ أحسِبُها زُلفهْ
فبشَّرَ بالنَّارِ قبلَ العِيانِ ۞ فبِئْسَ بِشارَةُ ذى التحْفَهْ

ومن حديث ابن أبي شيبة قال : أقبل رجل بسيف الزبير إلى الحسن بن على فقال : لاحاجة لى به ، أدخله إلى أمير المؤمنين . فدخل به إلى علىّ فناوله إياه وقال : هذا سيف الزبير . فأخذه علىّ ، فنظر إليه مليا ، ثم قال : رحم الله الزبير ! لطالما فرّجَ الله به الكَرْبَ عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقالت امرأة الزبير ترثيه :

غدرَ ابنُ جُرْموزٍ بفارسِ بُهْمَةٍ ۞ يومَ الهِياجِ وكان غيْرَ مُعَرِّدِ
يا عمرُو لو نبَّهْتَهُ لوجدْتَهُ ۞ لا طائشًا رعِشَ الجَنانِ ولا اليَدِ
ثكِلَتْكَ أُمُّك إن قتلْتَ لمُسْلِمًا ۞ حلَّتْ عليك عقوبةُ المُتعمِّدِ

وقال جرير ينعى على ابن مُجاشع قتل الزبير رضى الله تعالى عنه :

إنى تُذَكِّرُنى الزبيرَ حمامةٌ ۞ تدْعُو بِبَطْنِ الوادِيَيْنِ هديلَا
قالت قريشٌ ما أذلَّ مُجاشِعاً ۞ جاراً وأكرَم ذا القتيلَ قتيلَا
لوكنت حُرًا يا ابنَ قَيْنِ مُجاشِعٍ ۞ شيَّعْتَ ضيْفَكَ فرْسخًا أو ميلَا
أفبعْدَ قتْلِكم خليلَ مُحَمَّدٍ ۞ تَرْجو القُيونُ مَعَ الرسولِ سبيلَا

هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال : دعانى أبى يوم الجمل فقمت عن يمينه ، فقال : إنه لايقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم ، وما أرانى إلا سأُقتل مظلوما ، وإن أكبر همى دَيْنى ، فبِعْ مالى ثم اقضِ دينى ؛ فإن فضل شىء فثلثه لولدك ، وإن عجزتَ عن شىء يا بُنى فاستعن مولاى . قلت : ومن مولاك يا أبت ؟ قال : الله !

قال عبدُ الله بن الزبير : فوالله ما بقيتُ بعد ذلك فى كربة من دينه أو عسرة

إلا قلت : يامولى الزبير ، أقض عنه دينه ! فيقضيه ، قال : فقتل الزبير ونظرت في دَيْنه ، فإذا هو ألفِ ألف ومائة ألف ، قال : فبعت ضيعة له بالغابة بألف ألف وستمائة ألف ، ثم ناديت : من كان له قِبَلَ الزبير شيء فليأتنا نقضه . فلما قضيت دينه أتاني إخوتي فقالوا : اقسِمْ بيننا ميراثنا . قلت : والله لا أقسم حتى أناديَ أربع سنين بالمواسم : من كان له على الزبير شيء فليأتنا نقْضِه . فلما مضت الأربعُ سنين أخذت الثلث لولدي ؛ ثم قسمت الباقي . فصار لكل امرأة من نسائه — وكان له أربع نسوة — في ربع الثمن ألف ألف ومائة ألف ، فجميع ماترك مائة ألف ألف وسبعمائة ألف ألف .

ومن حديث ابن أبي شيبة قال : كان عليٌّ يخرج مناديه يوم الجمل يقول : لا يُسْلَبَنَّ قتيل ، ولا يُتَّبعُ مُدْبر ، ولا يُجهَزُ على جريح .

قال : وخرج كعب بن ثور من البصرة قد تقلد المصحف في عنقه ؛ فجعل ينشره بين الصفين ويناشد الناس في دمائهم ، إذ أتاه سهمٌ فقتله وهو في تلك الحال ، لا يدرَى من قتله .

وقال علي بن أبي طالب يوم الجمل للأشتر — وهو مالك بن الحرث — وكان على الميمنة : احمل . فحمل فكشف مَن بإزائه ، وقال لهاشم بن عقبة أحد بني زهرة بن كلاب ، وكان على الميسرة ، احمِل . فحمل فكشف من بإزائه ؛ فقال علي لأصحابه : كيف رأيتم ميسرتي وميمنتي .

ومن حديث الجمل

الخشني عن أبي حاتم السجستاني قال : أنشدني الأصمعي عن رجل شهد الجمل يقول :

شهِدتُ الحرُوبَ وشيّبْنَنِي ۞ فلم ترَ عيْني كيَوْمِ الجَمَلْ
أضرّ على مُؤْمِنٍ فِتْنة ۞ وأفْتك منهُ لخرْقٍ بطلْ
فليْت الظّعينةَ في بيْتِها ۞ وليْتَك عسْكَرُ لم ترْحِلْ

وكان جملها يُدْعَى عسكرا ، حملها عليه يَعْلَى بن مُنْية ، وهبه لعائشة وجعل له هودجا من حديد ، وجهز من ماله خمسمائة فارس بأسلحتهم وأزودتهم وكان أكثر أهل البصرة مالا . وكان بن أبى طالب يقول : بُليت بأنضّ الناس ، وأنطق الناس وأطوع الناس فى الناس ، يريد بأنضّ الناس : يعلى بن مُنية ، وكان أكثر الناس ناضًّا ، ويريد بأنطق الناس : طلحة بن عبيد الله ، وأطوع الناس فى الناس : عائشة أم المؤمنين . ٥

أبو بكر بن أبى شيبة عن مخلد بن عبيد عن التيمى قال : كانت راية علىّ يومَ الجمل سوداء ، وراية أهل البصرة كالجمل .

الأعمش عن رجل سماه قال : كنت أرى عليا يوم الجمل يحمل فيضرب بسيفه حتى ينثنى ، ثم يرجع فيقول : لاتلومونى ولوموا هذا ! ثم يعود ويقوّمه . ١٠

ومن حديث أبى بكر بن أبى شيبة قال : قال عبد الله بن الزبير : التقيتُ مع الأشتر يوم الجمل ، فما ضربته ضربة حتى ضربنى خمسة أو ستة ، ثم جر برجلى فألقانى فى الخندق ، وقال : والله لولا قُرْبُك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اجتمع فيك عضوٌ إلى آخر .

أبو بكر بن أبى شيبة قال : أعطت عائشة الذى بشّرها بحياة ابن الزبير إذ التقى مع الأشتر يوم الجمل ، أربعة آلاف . ١٥

سعيد عن قتادة قال : قتل يوم الجمل مع عائشة عشرون ألفا ، منهم ثمانمائة من بنى ضبة .

وقالت عائشة : ما أنكرت رأس جملى حتى فقدت أصوات بنى عدىّ .

وقتل من أصحاب علىّ خمسمائة رجل ، لم يعرف منهم إلا عِلْباء بن الهيثم وهند الجملى ، قتلهما ابن اليثربى ، وأنشأ يقول : ٢٠

إنى لِمَنْ يَجْهلُنى ابنُ اليَـثْرِبِىّ ٭ قتلتُ علباء وهِنـدَ الجَمَلى

عبد الله بن عون عن أبى رجاء قال : لقد رأيت الجمل حينئذ وهو كظهر

القنفذ من النبل ، ورجل من بنى ضبة آخذ بخُطامه وهو يقول :

نَحْنُ بَنُو ضَبَّةَ أصحابُ الجَمَلْ * الموْتُ أحْلَى عِندنا مِنَ العَسَلْ

نَنْعى آبن عفّان بأطرافِ الأَسَلْ

غُنْدَر قال : حدثنا شعبة بن عمرو بن مرة قال : سمعت عبد الله بن سلمة — وكان مع على بن أبى طالب يوم الجمل — والحارث بن سويد — وكان مع طلحة والزبير — وتذاكرا وقعة الجمل ؛ فقال الحارث بن سويد : والله ما رأيت مثل يوم الجمل لقد أشرعوا رماحهم فى صدورنا ، وأشرعنا رماحنا فى صدورهم ، ولو شاءت الرجال أن تمشى عليها لمشت ؛ يقول هؤلاء : لا إله إلا الله والله أكبر ويقول هؤلاء : لا إله إلا الله والله أكبر ، فوالله لوددت أنى لم أشهد ذلك اليوم وأنى أعمى مقطوعُ اليدين والرجلين .

وقال عبد الله بن سلمة : والله مايسرنى أنى غبت عن ذلك اليوم ، ولا عن مشهدٍ شهده علىُّ بن أبى طالب ، بحُمْر النَّعم .

على بن عاصم عن حصين قال : حدثنى أبو جُميلة البكاء قال : إنى لفى الصف مع على بن أبى طالب ، إذ عُقر بأم المؤمنين جملُها ، فرأيت محمد بن أبى بكر وعمار ابن ياسر يشتدان بين الصفين أيهما يسبقُ إليها ، فقطعا عارضة الرحل واحتملاها فى هودجها .

ومن حديث الشعبى قال : من زعم أنه شهد الجمل من أهل بدر إلا أربعةً فكذِّبْه : كان علىٌّ وعمار فى ناحية ، وطلحة والزبير فى ناحية .

أبو بكر بن أبى شيبة قال : حدثنى خالد بن مخلد عن يعقوب عن جعفر بن أبى المغيرة عن ابن أبْزَى قال : انتهى عبد الله بن بديل إلى عائشة وهى فى الهودج ، فقال : يا أم المؤمنين ، أنشدك بالله ، أتعلمين أنى أتيتك يوم قتل عثمان ، فقلت لك : إن عثمان قد قتل فما تأمرينى ؟ فقلتِ لى آلزَمْ عليا ! فوالله ماغير ولا بدل ، فسكتت ، ثم أعاد عليها فسكتت ، ثلاث مرات ؛ فقال : اعقروا الجمل !

فعقروه ، فنزلتُ أنا وأخوها محمد بن أبى بكر فاحتملنا الهودج حتى وضعناه بين يدى علىّ فسُرّ به ، فأُدخل فى منزل عبد الله بن بديل .

وقالوا : لما كان يومَ الجمل ما كان وظفر على بن أبى طالب حتى دنا من هودج عائشة ، كلمها بكلام ، فأجابته : مَلَكْتَ فأَسْجِحْ ! فجهزها علىّ بأحسن الجهاز ، وبعث معها أربعين امرأة ؛ وقال بعضهم : سبعين امرأة ، حتى قدمت المدينة .

عكرمة عن ابن عباس قال : لما انقضى أمرُ الجمل ، دعا على بن أبى طالب بآجُرّتين فعلاهما ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

يا أنصار المرأة ، وأصحاب البهيمة ، رغا فجئتم ، وعُقِر فهربتم ، نزلتم شرّ بلاد ، [أقربها من الماء] وأبعدَها من السماء ، بها مغيض كل ماء ، ولها شر أسماء ، هى البصرة ، والبصيرة ، والمؤتفكة ، وتدمر . أين ابنُ عباس ؟ قال : فدعيتُ له من كل ناحية ، فأقبلتُ إليه ، فقال : إيتِ هذه المرأة فلترجع إلى بيتها التى أمرها الله أن تقرّ فيه . قال : فجئت فاستأذنت عليها ، فلم تأذن لى ، فدخلت بلا إذن ، ومددتُ يدى إلى وسادة فى البيت فجلست عليها ، فقالت : تالله يابن عباس ما رأيتُ مثلك ، تدخل بيتنا بلا إذننا ، وتجلس على وسادتنا بغير أمرنا ! فقلتُ : والله ما هو بيتُكِ ، وما بيتُكِ إلا الذى أمَرك الله أن تقرّى فيه فلم تفعلى ! إنّ أمير المؤمنين يأمُرك أن ترجعى إلى بلدك الذى خرجتِ منه . قالت : رحم الله أمير المؤمنين ذاك : عمرَ بن الخطاب ! قلت : نعم ، وهذا أمير المؤمنين على بن أبى طالب . قالت : أبيتُ أبيت ! قلت : ما كان إباؤك إلا فواقَ ناقة بكيئة ، ثم صرتِ ما تُحلين ولا تُمرّين ، ولا تأمرين ولو تنهين ! قال : فبكت حتى علا نشيجها ، ثم قالت : نعم أرجع ، فإنّ أبغض البلدان إلىّ بلدٌ أنتم فيه ! فقلت : أما والله ما كان ذلك جزاؤنا منك إذ جعلناك للمؤمنين أمًّا ، وجعلنا أباك لهم صدّيقا . قالت : أتمنّ على برسول الله يابن عباس ؟ قلت : نعم نمنّ عليك بمن لو كان منك بمنزلته منا لمننتِ به علينا !

قال ابن عباس : فأتيت عليا فأخبرته ، فقبّل بين عينى وقال : بأبى ذُرّيّة بعضُها من بعض والله سميع عليم .

ومن حديث ابن أبى شيبة عن ابن فُضيل عن عطاء بن السائب : أنّ قاضيا من قضاة أهل الشام أتى عمرَ بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ، رأيت رؤيا أفظعتْنى . قال : وما رأيت ؟ قال : رأيت الشمس والقمر يقتتلان والنجوم معهما نصفين . قال : فمَعَ أيهما كنت ؟ قال : مع القمر على الشمس . قال عمر بن الخطاب ﴿ وجعلْنا الليلَ والنّهارَ آيتيْن فمحَوْنا آيةَ الليلِ وجعلْنا آيةَ النهارَ مُبْصِرةً ﴾ . فانطلِق ، فوالله لا تعمل لى عملا أبدا . قال : فبلغنى أنه قُتِل مع معاوية بصِفّين .

أبو بكر بن أبى شيبة قال : أقبل سليمان بن صُرَد ، وكانت له صحبة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، إلى علىّ بن أبى طالب بعد وقْعة الجمل ؛ فقال له : تنأنأتَ وتزحزحت وتربصت ، فكيف رأيت الله صنع ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إنّ الشّوْط بَطِين ، وقد بقى من الأمور ما تعرف به عدوّك من صديقك .

وكتب علىٌّ بن أبى طالب إلى الأشعث بن قيس بعد الجمل ، وكان والياً لعثمان على أذربيجان :

سلام عليك ؛ أما بعد ، فلولا هنات كنّ منك لكنت أنت المقدّم فى هذا الأمر قبْل الناس ، ولعل أمرك يحمل بعضُه بعضا إن اتقيت الله ، وقد كان من بيعة الناس إياى ما قد بلغك ، وقد كان طلحة والزبير أول من بايعنى ثم نكثا بيعتى من غير حدث ولا سبب ، وأخرجا أمّ المؤمنين فساروا إلى البصرة وسرْتُ إليهم فيمن بايعنى من المهاجرين والأنصار ، فالتقينا فدعوتهم إلى أن يرجعوا إلى ما خرجوا منه فأبوا ، فأبلغت فى الدعاء وأحسنت فى البُقْيا ، وأمرت أن لا يُذَفّ على جريح ، ولا يُتّبَع منهزم ، ولا يُسلَب قتيل ، ومن ألقى سلاحه وأغلق بابه فهو آمن ، واعلم أنّ عملك ليس لك بطعْمة ، إنما هو أمانة فى عنقك ، وهو مال من مال الله وأنت من خُزّانى عليه حتى

تؤدّيه إليّ إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله .

فلما بلغ الأشعث كتاب علىّ قام فقال :

أيها الناس ؛ إنّ عثمان بنَ عفان ولّانى أذربيجان ، فهلك وقد بقيَتْ فى يدى ؛ وقد بايع الناسُ عليّا ، وطاعتُنا له واجبة ، وقد كان من أمره وأمر عدوه ما كان ، وهو المأمون على ما غاب عن ذلك المجلس ، ثم جلس . ٥

قولهم فى أصحاب الجمل

أبو بكر بن أبى شيبة قال : سئل علىّ عن أصحاب الجمل : أمشركون هم ؟ قال : مِن الشرك فرّوا . قال : فمنافقون هم ؟ قال : إنّ المنافقين لا يذكرون اللهَ إلا قليلا . قال : فما هم ؟ قال : إخوانُنا بغَوْا علينا !

ومرّ على بقتلى الجمل فقال : اللهم اغفر لنا ولهم . ومعه محمد بن أبى بكر وعمار ابن ياسر ؛ فقال أحدهما لصاحبه : أما تسمع ما يقول ؟ قال : اسكت لا يزيدك . ١٠

وكيع عن مِسْعد عن عبد الله بن رباح عن عمار قال : لا تقولوا : كفَر أهلُ الشام ؛ ولكن قولوا : فسَقوا وظلَموا .

وسئل عمار بن ياسر عن عائشة يوم الجمل ، فقال : أما والله إنا لنعلم أنها زوجته فى الدنيا والآخرة ، ولكن الله ابتلاكم بها ليعلم أتتبعونه أم تتّبعونها ! ١٥

وقال علىّ بن أبى طالب يوم الجمل : إن قوما زعموا أن البغى كان منا عليهم ، وزعمنا أنه منهم علينا ؛ وإنما اقتتلنا على البغى ولم نقتتل على التكفير .

أبو بكر بن أبى شيبة قال : أول ما تكلمتْ به الخوارج يوم الجمل قالوا : ما أحلّ لنا دماءهم وحرّم علينا أموالهم ! فقال علىّ : هى السُّنة فى أهل القبلة . قالوا : ما ندرى ما هذا ؟ قال : فهذه عائشة رأسُ القوم ، أتتساهمون عليها ؟ ٢٠ قالوا : سبحان الله ! أمنا . قال : فهى حرام ؟ قالوا : نعم . قال : فإنه يحرم من أبنائها ما يحرم منها .

قال : ودخلت أم أوفى العبدية على عائشة بعد وقعة الجمل فقالت لها :

يا أمّ المؤمنين ، ما تقولين فى امرأة قتلتْ ابناً لها صغيرا ؟ قالت : وجبتْ لها النار ! قالت : فما تقولين فى امرأة قتلت من أولادها الأكابر عشرين ألفاً فى صعيد واحد ؟ قالت : خذوا بيد عدوّة الله !

وماتت عائشة فى أيام معاوية وقد قاربت السبعين ؛ وقيل لها : تُدْفَنين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : لا ، إنى أحدثت بعده حدثا ، فادفنونى مع إخوتى بالبقيع .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم قال لها : يا حُميراء ، كأنى بك ينبحك كلابُ الحوأب ، تقاتلين عليا وأنت له ظالمة .

والحوأب : قرية فى طريق المدينة إلى البصرة ، وبعض الناس يسمونها الحُوَّب ، بضم الحاء وتثقيل الواو ؛ وقد زعموا أنّ الحوأب : ماء فى طريق البصرة ، قال فى ذلك بعض الشيعة :

إنى أدينُ بحبِّ آلِ محمدٍ ... وبنِى الوصىِّ شهودِهمْ والغُيَّبِ
وأنا البَرِىء من الزبيْر وطلْحةٍ ... ومِن التى نَبَحتْ كلابِ الحوْأب

أخبار علىّ ومعاوية

كتب على بن أبى طالب إلى جرير بن عبد الله ، وكان وجّهه إلى معاوية فى أخذ بيْعته ؛ فأقام عنده ثلاثة أشهر يماطله بالبيعة ، فكتب إليه علىّ :

سلامٌ عليك ؛ فإذا أتاك كتابى هذا فاحمل معاوية على الفصل ، وخيِّره بين حرب مُجْلِية أو سلم مُخزية ، فإن اختار الحرب فانبذ إليهم على سواء إنّ اللهَ لا يُحبُّ الخائنين ، وإن اختار السِّلْمَ فخذ بيْعته وأقبِل إلىّ .

وكتب علىّ إلى معاوية بعد وقعة الجمل :

سلامٌ عليك ؛ أمّا بعد ، فإنّ بيْعتى بالمدينة لزِمتْك وأنت بالشام ؛ لأنه بايعنى [القومُ] الذين بايعوا أبابكر ، وعمر ، وعثمان ، على ما بويعوا عليه ؛ فلم يكن للشاهد أن يختارَ ولا للغائب أن يَرُدّ ، وإنما الشورى للمهاجرين

والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجُلٍ وسمّوه إماماً كان ذلك لله رضا ، وإن خرج عن أمرهم خارجٌ ردّوهُ إلى ماخرج عنه ، فإنْ أَبَى قاتلوه على اتّباعه غيرَ سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولَّى ، وأصلاهُ جهنّمَ وساءتْ مَصيرا .

وإن طلحة والزبير بايَعانى ثم نقَضَا بيعتهما ، وكان نقضهما كردّتهما لجاهدتهما بعد ما أعذَرْت إليهما ، حتى جاء الحقُّ وظهر أمرُ الله وهم كارهون : فادْخُل فيما ٥ دخل فيه المسلمون ؛ فإن أحب الأمور إلىّ قبولُك العافية . وقد أكثرت فى قتَلة عثمان ، فإن أنت رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكمت القومَ إلىّ ، حملتُك وإياهم على كتاب الله ؛ وأما تلك التى تريدها فهى خِدْعةُ الصبى عن اللبن . ولعمرى لئن نظرتَ بعقلك دون هواك ، لتجدنّى أبرأَ قريشٍ من دم عثمان . واعلم أنك من الطلقاء الذين لاتحل لهم الخلافه ، ١٠ ولا يدخلون فى الشورى ؛ وقد بعثت إليك وإلى من قِبَلك جرير بن عبد الله ، وهو من أهل الإيمان والهجرة ؛ فبايعه ، ولا قوة إلا بالله .

فكتب إليه معاوية :

سلام عليك : أما بعد ، فلعمرى لو بايعك الذين ذكرتَ وأنت برىءٌ من دم عثمان ، لكنت كأبى بكر وعمر وعثمان ، ولكنك أغريتَ بدم عثمان ١٥ [المهاجرين] وخذّلت [عنه] الأنصار ، فأطاعك الجاهلُ وقوِىَ بك الضعيف ، وقد أبى أهلُ الشام إلا قتالَك حتى تدفعَ إليهم قتلةَ عثمان ، فإن فعلتَ كانت شورى بين المسلمين ، وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحقُّ فيهم ، فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام ، ولعمرى ماحجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة ، [لأن أهل البصرة أطاعوك ولم يطعْك أهلُ الشام] ؛ ولا حجتك ٢٠ علىّ كحجتك على طلحة والزبير ، لأنهما بايعاك ولم أبايعك أنا ، وأما فضلُك فى الإسلام ، وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلستُ أدفعه !

فكتب إليه علىّ :

أما بعد ، فقد أتانا كتابُك ، كتاب امرئٍ ليس له بصرٌ يهديه ، ولا قائد

يُرشده ، دعاه الهوى فأجابه ، وقاده فاتبعه ؛ زعمت أنك إنما أفسد عليك بيعتى خُفُورى لعثمان ولعمرى ما كنتُ إلا رجلا من المهاجرين ، أوردتُ كما أوردوا وأصدرتُ كما أصدروا ؛ وما كان الله ليجمعهم على ضلالة ، ولا ليضربهم بالعمى وما أمرت فلزمتنى خطيئة الآمر ، ولا قتلت فأخاف على نفسى قصاص القاتل .

٥ وأما قولك إن أهل الشام هم حكامُ أهل الحجاز ، فهات رجلا من أهل الشام يُقبل فى الشورى أو تحل له الخلافة ، فإن سمَّيت كذَّبك المهاجرون والأنصار ، ونحن نأتيك به من قريش الحجاز .

وأما قولك ادفع إلىَّ قتلة عثمان ، فما أنت وذاك ؟ وههنا بنو عثمان ، وهم أولى بذلك منك ، فإن زعمت أنك أقوى على طلب دم عثمان منهم فارجع إلى

١٠ البيعة التى لزمتْك وحاكم القومَ إلىَّ .

وأما تمييزك بين أهل الشام والبصرة ، وبينك وبين طلحة والزبير ، فلعمرى فما الأمر هناك إلا واحد ، لأنها بيعة عامة ، لا يتأنى فيها النظر ، ولا يُستأنف فيها الخيار . وأما قرابتى من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وقِدَمى فى الإسلام ؛ فلو استطعت دفعه لدفعتَهُ !

١٥ وكتب معاوية إلى على :

أما بعد : فإنك قتلت ناصرَك ، واستنصرتَ واترِك ، وايم الله لأرمينَّك بشهاب تذكيه الريح ولا يطفئه الماء ؛ فإذا وقع وقَب ، وإذا مَسَّ ثقب ، فلا تحسبَنِّى كسحيم ، أو عبد القيس ، أو حلوان الكاهن .

فأجابه على :

٢٠ أما بعد ، فوالله ما قتل ابنَ عمك غيرُك ، وإنى أرجو أن أُلحقَك به على مثل ذنبه وأعظمَ من خطيئته : وإن السيف الذى ضربتُ به أهلَكَ لمَعِى دائم ؛ والله ما استحدثتُ دِينا ، ولا استبدلت نبيًّا ، وإنى على المنهاج الذى تركتموه طائعين ، وأُدخِلتمْ فيه كارهين .

وكتب معاوية [مع أبى مسلم الخولانى] إلى على بن أبى طالب [قبل مسيره إلى صفين] .

أما بعد ، فإن الله اصطفى محمداً وجعله الأمين على وحيه ، والرسول إلى خلقه ، واختار له من المسلمين أعوانا أيده بهم وكانوا فى منازلهم عنده على قدر فضائلهم فى الإسلام ، فكان أفضلهم فى الإسلام وأنصحهم لله ولرسوله ، الخليفة ، وخليفة الخليفة ، والخليفة الثالث ؛ فكلَّهم حسدت ، وعلى كلهم بغَيْتَ ؛ عرفنا ذلك فى نظرك الشَّزْر ، وتنفسك الصعداء ، وإبطائك عن الخلفاء ؛ وأنت فى كل ذلك تقاد كما يقاد البعير المَخْشوش حتى تبايع وأنت كاره ؛ ولم تكن لأحد منهم أشدّ حسداً منك لابن عمك عثمان ، وكان أحقهم أن لا تفعل ذلك به ، فى قرابته ؛ وصِهْره فقطعتَ رحمه وقبّحْت محاسنه ، وألْبتَ عليه الناس ، حتى ضُرِبَت إليه آباط الإبل ، وشهِرَ عليه السلاح فى حرم الرسول ، فقُتل معك فى المحلة وأنت تسمع فى داره الهائعة ؛ لا تؤدّى عن نفسك فى أمره بقول ، ولا فِعْل برّ ، وأقسم قسما صادقا : لو قمت فى أمره مقاما واحداً تنهنه الناس عنه ، ما عَدل بك من قبلنا من الناس أحدا ، ولمحا ذلك عنك ماكانوا يعرفونك به ، من المجانبة لعثمان والبغى عليه ؛ وأخرى أنت بها عند أولياء ابن عفان ظنين : إيواؤك قتلة عثمان ، فهم بطانتك وعضدك وأنصارك ؛ وقد بلغنى أنك تنتفى من دمه ، فإن كنت صادقا فادفع إلينا قتلته نقتُلْهم به ، ثم نحن أسرعُ الناس إليك ، وإلا فليس لك ولا لأصحابك عندنا إلا السيف ، والذى نفس معاوية بيده ، لأطلُبَنّ قتلة عثمان فى الجبال والرمال والبر والبحر ، حتى نقتلهم أو تلحق أرواحُنا بالله !

فأجابه على :

أما بعد ، فإن أخا خَولان قدم علىّ بكتاب منك تذكر فيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، وما أنعم الله به عليه من الهدى والوحى ؛ فالحمد لله الذى صدقه الوعد وتمم له النصر ، ومكنه فى البلاد ، وأظهره على الأعادى من قومه الذين أظهروا

له التكذيب ، ونابذوه بالعداوة ، وظاهروا على إخراجه وإخراج أصحابه ، وألّبوا عليه العرب ، وحزّبوا الأحزاب ، حتى جاء الحق وظهر أمرُ الله وهم كارهون .

وذكرتَ أن الله اختار [له] من المسلمين أعوانا أيده بهم ، فكانوا فى منازلهم عنده على قدر فضائلهم فى الإسلام ، فكان أفضلهم فى الإسلام ، وأنصحهم لله ولرسوله ، الخليفة ، وخليفة الخليفة من بعده . ٥

ولعمرى إن كان مكانُهما فى الإسلام لعظيما ، وإن كان المصاب بهما لجرحاً فى الإسلام شديداً ، فرحمهما الله وغفر لهما . وذكرت أن عثمان كان فى الفضل تاليا ؛ فإن كان محسنا فسيلقى ربًّا شكوراً يضاعف له الحسنات ، ويجزيه الثواب العظيم ؛ وإن يك مسيئا فسيلقى ربا غفوراً لا يتعاظمه ذنب [أن] يغفره .

١٠ ولعمرى إنى لأرجو إذا الله أعطى [الناس على قدر فضائلهم فى] الإسلام [ونصيحتهم لله ولرسوله] أن يكون سهمُنا أهل البيت أوفرَ نصيب : وايم الله ما رأيت ولا سمعتُ بأحد كان أنصح لله فى طاعة الله ورسوله ، ولا أنصح لرسول الله فى طاعة الله ، ولا أصبر على البلاء والأذى فى مواطن الخوف ـ من هؤلاء النفر من أهل بيته ؛ الذين قتلوا فى طاعة الله : عبيدة بن الحرث يوم بدر ، ١٥ وحمزة بن عبد المطلب يوم أُحد ، وجعفر وزيد يوم مؤتة ؛ وفى المهاجرين خير كثير ، جزاهم الله بأحسن أعمالهم .

وذكرت إبطائى عن الخلفاء وحسدى إياهم والبغْى عليهم ؛ فأما البغى فمعاذ الله أن يكون ، وأما الكراهة لهم فوالله ما أعتذر للناس من ذلك ؛ وذكرتَ بَغْيى على عثمان وقطْعى رحِمَه ، فقد عمل عثمان بما قد علمتَ وعمل به الناسُ ما قد بلَغك ؛ ٢٠ وقد علمت أنى كنتُ من أمره فى عُزْلةٍ إلا أن تجَنَّى فتجَنَّ ما شئت ؛ وأما ذكرُك قتلة عثمان وما سألت من دفعهم إليك ، فإنى نظرتُ فى هذا الأمر وضربتُ أنفه وعينه ، فلم يسعْنى دفعهم إليك ولا إلى غيرك .

وإن لم تنزِعْ عن غيّك لتعرفنَّهم عما قليل يطلبونك ولا يكلّفونك أن تطلُبَهُمْ فى سهل ولا جبل ، ولا برّ ولا بحر ؛ وقد كان أبوك أبو سفيان أتانى

حين قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : آبسُط يدك أبايعْك ، فأنت أحقُّ الناس بهذا الأمر . فكنت أنا الذى أبيْتُ عليه ، مخافة الفُرقة بين المسلمين لقرب عهد الناس بالكفر ؛ فأبوك كان أعلم بحقّى منك ؛ فإن تعرفْ من حقّى ماكان أبوك يعرفه تُصِبْ رُشدَك وإلا فنستعينُ اللهَ عليك .

وكتب عبد الرحمن بن الحكم إلى معاوية :

ألا أبلغْ مُعاويةَ بنَ حرْبٍ • كِتاباً مِن أخى ثقة يلومُ

فإنك والكِتاب إلى علىّ • كدابِغةٍ وقد حلِم الأديمُ

يوم صفين

أبو بكر بن أبى شيبة قال : خرج علىٌّ بن أبى طالب من الكوفة إلى معاوية فى خمسة وتسعين ألفا ، وخرج معاوية من الشام فى بضعة وثمانين ألفا ، فالتقوا بصِفين ؛ وكان عسكر على يسمى الزحزحة ، لشدة حركته ؛ وعسكر معاوية يسمى الخضرية ، لاسوداده بالسلاح والدروع .

أبو الحسن قال : كانت أيام صفين كلها مواقفة ولم تكن هزيمة بين الفريقين إلا على حامية ثم يكرّون .

أبو الحسن قال : كان منادى علىّ يخرج كل يوم وينادى : أيها الناس ، لا تُجهِزُنّ على جريح ، ولا تَتَّبِعُنّ مُوَلّيا ، ولا تَسْلُبُنّ قتيلا ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن .

أبو الحسن قال : خرج معاوية إلى علىّ يوم صفين ، ولم يبايعه أهل الشام بالخلافة ، وإنما بايعوه على نصرة عثمان والطلب بدمه ؛ فلما كان من أمر الحكَمَيْن ما كان ، بايعوه بالخلافة ؛ فكتب معاوية إلى سعد بن أبى وقاص يدعوه إلى القيام معه فى دم عثمان :

سلام عليك ؛ أما بعد ، فإن أحق الناس بنصرة عثمان أهلُ الشورى من قريش الذين أثبتوا حقه ، واختاروه على غيره ؛ و [قد] نصره طلحة والزبير ،

وهما شريكاك فى الأمر [والشورى] ، ونظيراك فى الإسلام ؛ وخفّت لذلك أمُّ المؤمنين ، فلا تكره مارضوا ، ولا تَرُدّ ما قَبِلوا ، وإنما نريد أن نردها شورى بين المسلمين والسلام .

فأجابه سعد :

٥ أما بعد ، فإن عمر رضى الله عنه لم يُدخل فى الشورى إلا من تحل له الخلافة ، فلم يكن أحد أولى بها من صاحبه إلا باجتماعنا عليه ، غير أن عليا كان فيه ما فينا ، ولم يكن فينا ما فيه ، ولو لم يطلبها ولزم بيته لطلبَتْه العرب ولو بأقصى اليمن ؛ وهذا الأمر قد كرهنا أوله ، وكرهنا آخره ؛ وأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما لكان خيراً لهما ، والله يغفر ١٠ لأم المؤمنين ما أتت .

وكتب معاوية إلى قيس بن سعد بن عبادة :

أما بعد ، فإنما أنت يهودى بن يهودى ، إن ظفر أحبُّ الفريقين إليك عزَلك واستبدل بك ؛ وإن ظفر أبغض الفريقين إليك قَتَلك ونكّل بك ؛ وقد كان أبوك أوتر قوْسَه ورمى غرضه ، فأكثر الحز وأخطأ المفصل ، فخذله قومه ، وأدركه ١٥ يومه ، ثم مات طريداً بحَوْران .

فأجابه قيس :

أما بعد ، فأنت وثنى ، ابن وثنى دخلت فى الإسلام كرها ، وخرجت منه طوعا ، لم يقدم إيمانك ، ولم يحدث نفاقك ؛ ونحن أنصار الدين الذى خرجتَ منه وأعداء الدين الذى دخلت فيه ! والسلام .

٢٠ وخطب علىٌّ بن أبى طالب أصحابه يوم صفين ، فقال :

أيها الناس ، إن الموت طالبٌ لا يُعجزه هارب ، ولا يفوته مقيم ؛ أقدموا ولا تنكلوا ، فليس عن الموت محيص ، والذى نفس ابن أبى طالب بيده : إن ضربة سيف أهون من موت الفراش :

أيها الناس ، اتقوا السيوف بوجوهكم ، والرماح بصدوركم ، وموعدى وإياكم الراية الحمراء .

فقال رجل من أهل العراق : ما رأيت كاليوم خطيباً يخطبنا ، يأمرنا أن نتقى السيوف بوجوهنا ، والرماح بصدورنا ، ويعدنا راية بيننا وبينها مائة ألف سيف .

قال أبو عُبيدة فى التاج : جمع على بن أبى طالب رياسة بكر كلها يوم صفين لحضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة ، وجعل ألويتها تحت لوائه ، وكانت له راية سوداء يخفق ظلُّها إذا أقبل ، فلم يُغْن أحد فى صفين غناءه ؛ فقال فيه على بن أبى طالب رضى الله عنه : ٥

لِمَنْ رايةٌ سوْداء يَخفِقُ ظلُّها ، إذا قيل قدِّمها حُضينُ تقدّما

يُقدِّمُها فى الصفِّ حتى يُزيرها ، حِياضَ المَنايا تَقطُرُ السُّمَّ والدَّما ١٠

جزى اللّه عنى والجزاء بكفه ، ربيعةَ خيرًا ، ما أعَفَّ وأكرما

وكان من همدان فى صِفين [بلاءٌ] حسَنٌ ، فقال فيهم على بن أبى طالب رضى الله عنه :

لِهَمْدانَ أخلاقٌ ودينٌ يَزِينُهُم ، وبأْسٌ إذا لاقوْا وحُسْنُ كلامِ

فلو كنت بوّاباً على باب جَنّةٍ ، لقلت لهَمْدانَ ادْخلوا بسلامِ ١٥

أبو الحسن قال : كان علىٌّ بن أبى طالب يخرج كل غداة لصفين فى سَرَعانِ الخيل ، فيقف بين الصفين ثم ينادى : يامعاوية ، علام يقتتل الناس ؟ ابْرُزْ إلىَّ أو أبرز إليك ، فيكون الأمر لمن غلب . فقال له عمرو بن العاص : أنصَفَك الرجل ! فقال له معاوية : أردْتَها يا عمرو ! والله لارضيت عنك حتى تبارز عليًّا . فبرز إليه متنكّراً ؛ فلما غشيه علىٌّ بالسيف رمى بنفسه إلى الأرض وأبدى له سوءته فضرب علىٌّ وجه فرسه وانصرف عنه ؛ فجلس معه معاوية يوماً فنظر إليه يضحك ؛ فقال عمرو : أضحك الله سنك ؛ ما الذى أضحكك ؟ قال : من حضور ذهنك يوم بارزت عليًّا إذ اتّقيته بعورتك ؛ أما والله لقد صادفت منّاناً كريماً ؛ ٢٠

ولولا ذلك لخرم رَقَفيك بالرمح . قال عمرو بن العاص : أما والله إنى عن يمينك إذ دعاك إلى البراز ، فاحْوَلَّت عيناك ، وربا تحَرُّكَ وبدا منك ما أكره ذكره لك .

وذكر عمرو بن العاص عند على بن أبى طالب ؛ فقال فيه على : عجباً لابن النابغة يزعم أنى بلقائه أعافِس وأمارس ، أما وشرُّ القول أكذبه ، إنه يَسأل فيلحف ويُسأل فيبخل ؛ فإذا احمر البأس وحمى الوطيس وأخذت السيوف مأخذها من هام الرجال ، لم يكن له هم إلا نَزْعَه ثيابه ويمنح الناس آستَه أغَصّه الله وترّحه .

مقتل عمار بن ياسر

العتبي قال : لما التقى الناس بصفين ، نظر معاوية إلى هاشم بن عُتبة ، الذى يقال له المرقال لقول النبي صلى الله عليه وسلم أرقل ليمون ، وكان أعور ، والراية بيده وهو يقول :

أعْورُ يَبغى نفسَه محلَّا * قد عالج الحياة حتى مَلاَّ

لا بُدَّ أنْ يَفُلَّ أو يُفَلّا

فقال معاوية لعمرو بن العاص : يا عمرو ، هـذا المرقال ؛ والله لئن زحف بالراية زحفاً إنه ليوم أهل الشام الأطول ، ولكنى أرى ابن السوداء إلى جنبه ـ يعنى عمّارا ـ وفيه عجلة فى الحرب ، وأرجو أن تقدمه إلى الهلكة .

وجعل عمار يقول : أبا عتبة تقدّم ، فيقول : يا أبا اليقظان ، أنا أعلم بالحرب منك ، دعنى أزحف بالراية زحفاً . فلما أضجره وتقدم ، أرسل معاوية خيلا فاختطفوا عماراً ، فكان يسمى أهل الشام قتل عمار فتح الفتوح .

أبو بكر بن أبى شيبة عن يزيد بن هارون عن العوّام بن حوشب عن أسود ابن مسعود عن حنظلة بن خويلد قال : إنى لجالس عند معاوية إذ أتاه رجلان يختصمان فى رأس عمار ، كل واحد منهما يقول : أنا قتلتُه ! فقال لهما عبد الله بن عمرو بن العاص : لِيَطِبْ به أحدُكما نفساً لصاحبه ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : « تَقتُلُك الفئة الباغيَة » !

أبو بكر بن أبي شيبة عن ابن علية عن ابن عون عن الحسن عن أم سلمة قالت : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « تقتُلُ عمّارًا الفئةُ الباغية » .

أبو بكر قال : حدثنا علي بن حَفص عن أبي معشر عن محمد بن عُمارة قال : مازال : جدّي خزيمةُ بن ثابت كافًّا سلاحه يوم صفين ، حتى قتِل عمار ، فلما قُتِل سلَّ سيفَه وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « تقتُلُ عمّارًا الفئةُ الباغية » . فمازال يقاتل حتى قتل .

أبو بكر عن غُندر عن شعبة عن عمرو بن مُرة عن عبد الله بن سلمة قال : رأيت عماراً يوم صفين شيخاً آدم طوالا ، أخذ الحربة بيده ويده ترعد ، وهو يقول : والذي نفسي بيده ، لقد قاتلت بهذه الحربة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، وهذه الرابعة ؛ والذي نفسي بيده لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر ، لعرفتُ أنّا على حق وأنهم على باطل . ثم جعل يقول : صبراً عبادَ الله ، الجنةُ تحت ظِلال السيوف .

أبو بكر بن أبي شيبة عن وكيع عن سفيان عن حبيب عن أبي البختريّ قال : لما كان يوم صفين واشتدت الحرب ، دعا عمار بشربة لبن وشربها ، وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي : إن آخرَ شربة تشربُها من الدنيا شربة لبن .

أبو ذرّ عن محمد بن يحيي عن محمد بن عبد الرحمن عن أبيه عن جدته أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : لما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده بالمدينة أمر باللبن يُضرب وما يُحتاج إليه ؛ ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوضع رداءه ؛ فلما رأى ذلك المهاجرون والأنصار وضعوا أردِيَتهم وأكسِيَتهم يعملون ويرتجزون ويقولون :

لئِن قعدْنا والنّبيُّ يعْمَلُ * ذاك إذاً لعمَلٌ مُضَلَّلُ

قالت : وكان عثمان بن عفان رجلا نظيفاً متنظفاً ، فكان يحمل اللبنة

ويجافى بها عن ثوبه ، فإذا وضعها نفض كفيه ونظر إلى ثوبه ، فإذا أصابه شىء من التراب نفضه ؛ فنظر إليه علىّ رضى الله عنه فأنشده :

لا يستوى مَن يعْمُرُ المساجِدا ۝ يَدأبُ فيها راكِعاً وساجِدا

وقائماً طوْرًا وطوْرًا قاعِدًا ۝ ومن يُرى عنِ الترابِ حائِدا

٥ فسمعها عمار بن ياسر ، فجعل يرتجزها وهو لا يدرى من يعنى ؛ فسمعه عثمان فقال : يا ابن سمية ، ما أعرفنى بمن تعرِّض . ومعه جريدة ، فقال : لتَكُفَّنَّ أو لأعترِضَنَّ بها وجهك ! فسمعه النبى صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى ظل حائط ، فقال : عمّارُ جلدةُ ما بين عينىّ وأنفى ، فمن بلغ ذلك منه ؟ وأشار بيده فوضعها بين عينيه ، فكف الناس عن ذلك ، وقالوا لعمار : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم

١٠ قد غضب فيك ، ونخاف أن ينزل فينا قرآن . فقال أنا أُرْضيهِ كما غضِب . فأقبل عليه فقال يا رسول الله ، مالى ولأصحابك ؟ قال : ومالك ولهم ؟ قال : يريدون قتلى ، . يحملون لبنة [لبنةً] ويحملون علىّ لبنتين . فأخذ به وطاف به فى المسجد وجعل يمسح وجهه من التراب ويقول : يا ابن سمية ، لا يقتلك أصحابى ، ولكن تقتلك الفئةُ الباغية .

١٥ فلما قُتل بصفين وروى هذا الحديث عبدُ الله بن عمرو بن العاص ، قال معاوية : هم قتلوه ؛ لأنهم أخرجوه إلى القتل ! فلما بلغ ذلك عليا قال : ونحن قتلنا أيضا حمزة ، لأنّا أخرجناه .

من حرب صفين

أبو الحسن قال : كانت أيام صفين كلها موافقة ، ولم تكن هزيمة فى أحد

٢٠ الفريقين إلا على حامية ثم يكرُّون .

أبو بكر بن أبى شيبة قال : انقضت وقعة صفين عن سبعين ألف قتيل : خمسين ألفاً من أهل الشام ، وعشرين ألفا من أهل العراق .

ولما انصرف الناس من صفين قال عمرو بن العاص :

شبّتِ الحربُ فأَعْددتُ لها ٭ مُشرِفَ الحاركِ محبوكَ الثَّبَجْ

يصِلُ الشرَّ بشرٍّ فإذا ٭ وثبَ الخيْلُ مِنَ الشرِّ معَجْ

جُرْشُع أعظُمُهُ جُفْرته ٭ فإذا ابتلَّ مِنَ الماء خرَجْ

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : ٥

فإن شهدت جُمْلُ مقامى ومشهَدى ٭ بصِفِّين يوماً شابَ منها الذَّوائبُ

عشيَّة جا أهلُ العِراقِ كأنهُمْ ٭ سحابُ خريف صفَّقتْه الجنائبُ

وجئناهُمُ تثْرَى كأنّ صُفوفنا ٭ مِنَ البحرِ مدٌّ موْجُهُ مُتراكِب

إذا قلتُ قد ولَّوْا سِراعًا بدتْ لنا ٭ كتائبُ منهم فارْجَحَنَّتْ كتائِبُ

فدارت رحانا واستدارَتْ رحاهُمُ ٭ سَراةَ النهارِ ماتُوَلَّى المناكب ١٠

وقالوا لنا : إنَّا نرى أن تُبايعوا ٭ عليًّا فقلنا : بل نَرى أن نُضارِبُ

وقال السيد الحميرى وهو رأس الشيعة ، وكانت الشيعة من تعظيمها له تلقى له وساداً بمسجد الكوفة :

إنى أدينُ بما دانَ الوصِىُّ بهِ ٭ وشاركتْ كفُّهُ كفِّى بصِفِّينا

فى سَفْكِ ماسفَكَتْ منها إذ احْتُضِروا ٭ وأبْرَزَ الله للقِسْطِ الموازينا ١٥

تلك الدِّماء معاً يا ربِّ فى عُنقى ٭ ثم اسقِنى مِثلها آمين آمينا

آمينَ ! مَن مثلُهم فى مِثْلِ حالِهِم ٭ فى فِتْيةٍ هاجَروا فى اللهِ شارينا

ليْسوا يُريدونَ غيرَ اللهِ ربِّهِمُ ٭ نِعْمَ المُرادُ توخّاه المُريدونا

وقال النجاشى يوم صفين ، وكتب بها إلى معاوية :

يأيها الملِكُ المُبدِى عداوتَه ٭ انظُر لنفسِكَ أىَّ الأمرِ تأتَمِرُ ٢٠

فإن نفِستَ على الأقوامِ مجدَهُمُ ٭ فابْسُطْ يديْك فإنّ الخيْرَ مُبتَدرُ

واعلَمْ بأَنّ علِيَّ الخيْرِ من نفرٍ ٭ شُمِّ العرانينِ لا يعلُوهُمُ بشَرُ

نِعْمَ الفتَى أنت إلَّا أن بينكُما ٭ كما تفاضَل ضوْءُ الشمْسِ والقمرُ

وما إخالكَ إلّا لستَ مُنتهيًا ٭ حتى ينالَك من أظفارِه ظفُرُ

خبر عمرو بن العاص

سفيان بن عيينة قال : أخبرنى أبو موسى الأشعرى قال : أخبرنى الحسن قال : علم معاوية والله ، إن لم يبايعه عمرٌو لم يتم له أمر ، فقال له يا عمرو ، اتبعني . قال لماذا ؟ للآخرة ؟ فوالله ما معك آخرة ؛ أم للدنيا ؟ فوالله لا كان حتى أكون شريكَكَ فيها ! قال : فأنت شريكى فيها . قال : فاكتب لى مصرَ وكورها . فكتب له مصر وكورها وكتب فى آخر الكتاب : وعلى عمرٍو السمعُ والطاعة . قال عمرو : واكتب : إن السمعَ والطاعة لا ينقُصان من شرْطه شيئاً . قال معاوية : لا ينظرُ الناس إلى هذا . قال عمرو : حتى تكتب . قال : فكتب ، والله ما يجد بدًا من كتابتها !

ودخل عتبة بن أبى سفيان على معاوية وهو يكلم عَمْرًا فى مصر ، وعمرو يقول له : إنما أُبايعك بها دينى ! فقال عتبة : ائتمنِ الرُجلَ بدينه ، فإنه صاحب من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

وكتب عمرو إلى معاوية :

مُعاويَ لا أُعطيك دينِي ولم أنلْ ٭ بهمنكَ دُنيا ، فانْظرن كيف تصنعُ ؟
وما الدينُ والدُّنيا سواءٌ وإنّنى ٭ لآخُذ ما تُعطى ورأسى مُقنّعُ
فإن تعطنى مِصْرًا فأربحُ صفْقَةٍ ٭ أخذتَ بها شيْخاً يضُرُّ وينفعُ

وقالوا : لما قدم عمرو بن العاص على معاوية وقام معه فى شأن على بعد أن جعل له مصر طعمة ، قال له : إن بأرضك رجلا له شرف واسم ، والله إن قام معك استهويت به قلوبَ الرجال ؛ وهو عبادة بن الصامت . فأرسل إليه معاوية ، فلما أتاه وسَّع له بينه وبين عمرو بن العاص ، فجلس بينهما ، فحمد الله معاوية وأثنى عليه ، وذكر فضل عبادة وسابقته ، وذكر فضل عثمان وما ناله ، وحضّه على القيام معه ؛ فقال عبادة : قد سمعتُ ما قلتَ ، أتدريان لم جلست

بينكما فى مكانكما ؟ قالا : نعم ، لفضلك وسابقتك وشرفك . قال : لا والله ، ما جلست بينكما لذلك ، وما كنت لأجلس بينكما فى مكانكما ؛ ولكن بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة تبوك ، إذ نظر إليكما تسيران وأنتما تتحدثان ، فالتفت إلينا فقال : إذا رأيتموهما اجتمعا ففرقوا بينهما ؛ فإنهما لا يجتمعان على خير أبدا ! وأنا أنهاكما عن اجتماعكما ؛ فأما ما دعوتمانى إليه من القيام معكما ، فإن لكما عدوا هو أغلظ أعدائكما عليكما ، وأنا كامنٌ من ورائكم فى ذلك العدو ، إن اجتمعتم على شىء دخلتُ فيه .

أمر الحكمين

أبو الحسن قال : لما كان يوم الهرير ، وهو أعظم يوم بصفين ، زحف أهل العراق على أهل الشام فأزالوهم عن مراكزهم ، حتى انتهوا إلى سرادق معاوية ، فدعا بالفَرَس وهمَّ بالهزيمة ، ثم التفت إلى عمرو بن العاص وقال له : ما عندك ؟ قال : تأمر بالمصاحف فترفع فى أطراف الرّماح ، ويقال : هذا كتاب الله يحكم بيننا وبينكم . . .

فلما نظر أهل العراق إلى المصاحف ، ارتدعوا واختلفوا : قال بعضهم : نُحاكمهم إلى كتاب الله ، وقال بعضهم : لا نحاكمهم ، لأنا على يقين من أمرنا ولسنا على شك .

ثم أجمع رأيهم على التحكيم ، فهمَّ علىٌّ أن يقدّم أبا الأسود الدؤلى ، فأبى الناس عليه ؛ فقال له ابن عباس : اجعلنى أحد الحكمين ، فوالله لأفتلنّ لك حبلا لا ينقطع وسطه ، ولا ينشر طرفاه ، فقال على : لستُ من كيدك ولا من كيد معاوية فى شىء ؛ لا أعطيه إلا السيف حتى يغلبه الحق . قال : وهو والله لا يعطيك إلا السيف حتى يغلبك الباطل . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك تطاع اليوم وتعصى غدا ، وإنه يطاع ولا يعصَى !

فلما انتشر عن علي أصحابه قال : لله بلاء ابن عباس ، إنه لينظر إلى الغيب بستر رقيق .

قال : ثم اجتمع أصحاب البرانس ـ وهم وجوه أصحاب عليّ ـ على أن يقدّموا أباموسى الأشعرى ـ وكان مبرنَسا ـ وقالوا : لا نرضى بغيره . فقدّمه عليّ ، وقدّم معاوية عمرو بن العاص ، فقال معاوية لعمرو : إنك قد رُميت برجل طويل اللسان قصير الرأى ، فلا ترْمِه بعقلك كله .

فأخلىَ لهما مكان يجتمعان فيه ، فأمهله عمرو بن العاص ثلاثة أيام ، ثم أقبل إليه بأنواع من الطعام يُشهِّيه بها ، حتى إذا استبطن أبو موسى ناجاه عمرو فقال له : ياأباموسى ، إنك شيخ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وذو فضلها وذو سابقتها ؛ وقد ترى ما وقعت فيه هذه الأمّة من الفتنة العمياء التى لا بقاء معها ؛ فهل لك أن تكون ميمونَ هذه الأمّة فيحقن الله بك دماءها ، فإنه يقول فى نفْس واحدة ﴿ ومَن أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعا ﴾ . فكيف بمن أحيا أنفُس هذا الخلق كله ؟

قال له : وكيف ذلك ؟

قال : تخلع أنت عليَّ بن أبى طالب ، وأخلع أنا معاوية بن أبى سفيان ؛ ونختار لهذه الأمّة رجلا لم يحضر فى شىء من الفتنة ولم يغمس يده فيها .

قال له : ومن يكون ذلك ؟

وكان عمرو بن العاص قد فهم رأى أبى موسى فى عبد الله بن عمر ؛ فقال له : عبد الله بن عمر .

فقال : إنه لكما ذكرتَ ، ولكن كيف لى بالوثيقة منك ؟

فقال له : ياأباموسى ، ﴿ ألا بذكرِ اللهِ تطْمئنُّ القلوبُ ﴾ ؛ خذ من العهود والمواثيق حتى ترضى .

ثم لم يُبْق عمرُو بن العاص عهداً ولا موثقاً ولا يميناً مؤكدة حتى حلف بها ،

حتى بقي الشيخ مبهوتا، وقال له: قد أجبْتُ!

فنودى فى الناس بالاجتماع إليهما فاجتمعوا.

فقال له عمرو: قم فاخطُب الناس يا أبا موسى. فقال: قم أنت اخطبهم. فقال: سبحان الله! أنا أتقدمك وأنت شيخ أصحاب محمد! والله لا فعلتُ أبدا. قال: أو عسى فى نفسك أمر! ـ فزاده أيمانا وتوكيدا، حتى قام الشيخ فخطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أيها الناس، إنى قد اجتمعت أنا وصاحبي على أن أخلع أنا عليّ بن أبي طالب، ويعزل هو معاويةَ بن أبي سفيان؛ ونجعل هذا الأمر لعبد الله ابن عمر؛ فإنه لم يحضر فى فتنة، ولم يغمس يده فى دم امرئ مسلم. ألا وإنى قد خلعتُ عليّ بن أبي طالب كما أختلع سيفى هذا!

ثم خلع سيفه من عاتقه وجلس، وقال لعمرو: قم. فقام عمرو بن العاص، فحمد الله وأثنى عليه، وقال:

أيها الناس، إنه قد كان من رأى صاحبي ما قد سمعتم، وإنه قد أشهدكم أنه خلع عليّ بن أبي طالب كما يخلع سيفه؛ وأنا أُشهِدُكم أنى قد أثبتُّ معاويةَ بن أبي سفيان كما أثبت سيفى هذا!

وكان قد خلع سيفه قبل أن يقومَ إلى الخطبة، فأعاده على نفسه؛ فاضطرب الناس وخرجت الخوارج.

وقال أبو موسى لعمرو: لعنك الله! فإنّ مثَلَك كمَثَل الكلب: إن تحمل عليه يلهثْ وإن تتركْه يلهث! فقال عمرو: لعنك الله! فإن مثَلك كمثل الحمار يحمل أسفارا.

وخرج أبو موسى من فوره ذلك إلى مكة مستعيذاً بها من عليّ، وحلف أن لا يكلمه أبدا؛ فأقام بمكة حينا حتى كتب إليه معاوية:

سلام عليك؛ أما بعد، فلو كانت النية تدفع الخطأ، لنجا المجتهد وأعذر الطالب؛ والحق لمن قَصَب له فأصابه، وليس لمن عرض له فأخطأه؛ وقد كان

الحكمان إذا حكما على عليّ لم يكن له الخيارُ عليهما ، وقد اختاره القوم عليك ، فاكره منهم ما كرهوا منك ، وأقبل إلى الشأم ، فإنى خير لك من عليّ ؛ ولا قوة إلا بالله .

فكتب إليه أبو موسى :

٥ سلام عليك ؛ أما بعد ، فإنى لم يكن منى فى على إلا ما كان من عمرو فيك ، غير أنى أردت بما صنعت ما عند الله ، وأراد به عمرو ما عندك ؛ وقد كان بينى وبينه شروط وشورى عن تراض ، فلما رجع عمرو رجعت ؛ أما قولك إن الحكمين إذا حكما على رجل لم يكن له الخيار عليهما ؛ فإنما ذلك فى الشاة والبعير والدينار والدرهم ، فأما أمر هذه الأمة فليس لأحد فيما تكره حُكم ، ولن
١٠ يُذهِب الحقَّ عجز عاجز ولا خدعة فاجر ، وأما دعاؤك إياى إلى الشام فليس لى رغبة عن حَرَم إبراهيم .

فبلغ عليا كتاب معاوية إلى أبى موسى الأشعرى ، فكتب إليه :

سلام عليك ؛ أما بعد ، فإنك امرؤ ضلَّلك الهوى ، واستدرجك الغرور ، [فإنه من استقال اللهَ أقاله] ، حقق بك حسنَ الظنّ لزومُك بيتَ الله الحرام غير
١٥ حاج ولا قاطن ، فاستقِل اللهُ يُقلْك [عثرتَك] فإن الله يغفِر ولا يغفُل ، وأحب عباده إليه التوابون . وكتبه سماك بن حرب .

فكتب إليه أبو موسى :

سلام عليك ؛ فإنه والله لولا أنى خشيت أن يرفعك منى منع الجواب إلى أعظم مما فى نفسك ، لم أجبك ؛ لأنه ليس لى عندك عذر ينفعنى ولا قوة تمنعنى ،
٢٠ وأما قولك ولزومى بيت الله الحرام غير حاج ولا قاطن ، فإنى اعتزلت أهل الشام وانقطعت عن أهل العراق ، وأصبت أقواما صغَّروا من ذنبى ما عظَّمتم ، وعظَّموا من حق ما صغَّرتم ؛ إذ لم يكن لى منكم ولىّ ولا نصير .

وكان علىّ بن أبى طالب إذ وجه الحكمين قال لهما : إنما حكَّمْناكما بكتاب الله فتُحييا ما أحيا القرآن ، وتميتا ما أمات . فلما كاد عمرو بن العاص

على أبى موسى ، اضطرب الناس على علىّ واختلفوا ، وخرجت الخوارج ، وقالوا لا حُكْمَ إلا لله ! فجعل على يتمثل بهذه الأبيات :

لى زَلة إليكُمُ فأعتَــذِر * سوفَ أكيسُ بعدَها وأنْشَمِرْ
وأجمَعُ الأمرَ الشَّتيتَ المنتَشِرْ

أبو الحسن قال : لما قدم أبو الأسود الدؤلى على معاوية عام الجماعة ، قال له معاوية : بلغنى يا أبا الأسود أن على بن أبى طالب أراد أن يجعلك أحد الحكمين ؛ فما كنت تحكم به ؟ قال : لو جعلنى أحدَهما لجمعت ألفا من المهاجرين وأبناء المهاجرين وألفا من الأنصار وأبناء الأنصار ثم ناشدتهم الله : آلمهاجرون وأبناء المهاجرين أولى بهذا الأمر أم الطلقاء ؟ قال له معاوية : لله أبوك ! أىّ حكمٍ كنت تكونُ لو حُكِّمت !

احتجاج على وأهل بيته فى الحكمين

أبو الحسن قال : لما انقضى أمر الحكمين واختلف أصحاب على ، قال بعض الناس : مامنع أميرَ المؤمنين أن يأمر بعض أهل بيته فيتكلم ؟ فإنه لم يبق أحد من رؤساء العرب إلا وقد تكلم . قال : فبينا علىٌّ يوما على المنبر إذ التفت إلى الحسنِ ابنِه فقال : قم يا حسنُ فقل فى هذين الرجلين : عبد الله بن قيس وعمرو ابن العاص . فقام الحسن ، فقال :

« أيها الناس ، إنكم قد أكثرتم فى هذين الرجلين ، وإنما بُعثا ليَحكما بالكتاب دون الهوى ، [illegible] بالهوى دون الكتاب ؛ ومن كان هكذا لم يُسم حكَماً ، ولكنه محكوم عليه ؛ وقد أخطأ عبد الله بن قيس إذ جعلها لعبد الله بن عمر ، فأخطأ فى ثلاث خصال : واحدة ، أنه خالف أباه ، إذ لم يرضه لها ولا جعله من أهل الشورى ؛ وأخرى ، أنه لم يستأمره فى نفسه ؛ وثالثة ، أنه لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار الذين يعقدون الإمارة ويحكمون بها على الناس . وأما الحكومة فقد حكَّم النبي عليه الصلاة والسلام سعد بن معاذ فى بنى قريظة ، فحكم بما يرضى الله به ولا شك ، ولو خالف لم يرضه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم جلس ، فقال لعبد الله بن عباس : قم . فقام عبد الله بن عباس ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أيها الناس ، إن للحق أهلا أصابوه بالتوفيق ، والناس بين راض به وراغب عنه ، فإنه بُعث عبد الله بن قيس يهدى إلى ضلالة ، وبعث عمرو بضلالة إلى هدى

٥ فلما التقيا رجع عبد اللهُ بن قيس عن هداه ، وثبت عمرو على ضلاله ؛ وآيم الله لئن كانا حكما بما سارا به لقد سار عبد الله وعلى إمامه ، وسار عمرو ومعاوية إمامه ، فما بعد هذا من غيب ينتظر .

فقال عليّ لعبد الله بن جعفر بن أبى طالب : قم . فقام فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

١٠ أيها الناس ، إن هذا الأمر كان النظر فيه إلى على والرضا إلى غيره ، لجئتم إلى عبد الله بن قيس مبرنساً فقلتم ، لانرضى إلا به . وآيم الله ماآستفدنا به علماً ، ولا انتظرنا منه غائبا ، وما نعرفه صاحبا ، وما أفسدا بما فعلا أهل العراق ، وما أصلحا أهلَ الشام ، ولا رفعا حقَّ على ، ولا وضعا باطلَ معاوية ، ولا يُذهِب الحقَّ رُقْيَةُ راق ، ولا نفخَةُ شيْطان ، ونحن اليوم على ما كنا عليه أمس .

١٥ احتجاج على على أهل النهروان

قالوا : إن عليا لما اختلف عليه أهل النهروان والقرى وأصحاب البرانس ، ونزلوا قرية يقال لها حروراء ، وذلك بعد وقعة الجمل ، فرجع إليهم على بن أبى طالب فقال لهم : ياهؤلاء ، من زعيمُكم ؟ قالوا : ابن الكواء . قال : فليبرز إلى . فخرج إليه ابن الكواء ، فقال له عليّ : يا بن الكواء ، ما أخرجكم علينا بعد رضاكم

٢٠ بالحكمين ، ومقامِكم بالكوفة ؟ قال : قاتلتَ بنا عدُوًّا لا نشك فى جهاده ، فزعمتَ أن قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ، فبينما نحن كذلك ، إذ أرسلت منافقا ، وحكّمتَ كافراً ، وكان مما شككَ فى أمر الله أن قلتَ للقوم حين دعوتَهم : كتابُ الله بينى وبينكم ، فإن قضى علىّ بايعتكم ، وإن قضى عليكمْ بايعتمونى . فلولا شكُّكَ لم تفعل هـذا والحقُّ فى يدك . فقال على : يابن الكواء ، إنما الجواب بعد الفراغ ؛

أفرغتَ فأجيبَك ؟ قال : نعم . قال على : أما قتالك معى عدوّا لا تشُك فى جهاده فصدقت ، ولو شككتُ فيهم لم أقاتلهم ؛ وأما قتلانا وقتلاهم ، فقد قال الله فى ذلك ما يُستغنى به عن قولى ؛ وأما إرسالى المنافق وتحكيمى الكافرَ ، فأنت أرسلت أبا موسى مبرنسا ، ومعاوية حكَّم عمرا ، أتيت بأبى موسى مبرنسا ، فقلت : لا نرضى إلا أبا موسى ! فهلا قام إلى رجلٌ منكم فقال : يا على ، لا تعط هذه الدنية فإنها ضلالة ؟ وأما قولى لمعاوية : إن جرّنى إليك كتاب الله تبعتُك ، وإن جرك إلىّ تبعتَنى ؛ زعمتَ أنى لم أُعْطِ ذلك إلا من شك ، فقد علمت أن أوثق مافى يديك هذا الأمر ، فحدّثنى ويحك عن اليهودى والنصرانى ومشركى العرب ، أهم أقرب إلى كتاب الله أم معاوية وأهل الشام ؟

قال : بل معاوية وأهل الشام أقرب .

قال على : أفرسول الله صلى الله عليه وسلم كان أوثقَ بما فى يديه من كتاب الله أو أنا ؟

قال : بل رسول الله .

قال : أفرأيت الله تبارك وتعالى حين يقول : ﴿ قلْ فأْتوا بِكتابٍ من عِنْدِ اللهِ هُو أهْدَى منهُما أتَّبِعْهُ إن كنْتمْ صادقين ﴾ ؛ أما كان رسول الله يعلم أنه لا يؤتَى بكتاب هو أهدى مما فى يديه ؟ قال : بلى . قال : فلم أعطى رسول الله القومَ ما أعطاهم ؟ قال : إنصافا وحجة . قال : فإنى أعطيت القومَ ما أعطاهم رسول الله . قال ابن الكواء : فإنى أخطأت ، هذه واحدة ، زدنى .

قال على : فما أعظم ما نقمتم علىّ ؟ قال تحكيمُ الحكمين ؛ نظرنا فى أمرنا فوجدنا تحكيمَهما شكا وتبذيراً .

قال على : فتى سُمِّىَ أبو موسى حَكما : حين أُرْسل ، أو حين حَكم ؟ قال : حين أرسل قال : أليس قد سار وهو مسلم ، وأنت ترجو أن يحكم بما أنزل الله ؟ قال : نعم .

قال علىّ : فلا أرى الضلالَ فى إرساله . فقال ابن الكواء : سُمِّى حكما حين حَكم قال : نعم ، إذاً فإرساله كان عدْلا ، أرأيت يابن الكواء لو أن رسولَ الله

بعث مؤمنا إلى قوم مشركين يدعوهم إلى كتاب الله فارتد على عقبه كافرا ، كان يضرُّ نبيَّ اللهِ شيئا ؟ قال: لا . قال على : فما كان ذنبي إن كان أبو موسى ضلَّ ، هل رضيت حكومته حين حكم ، أو قوله إذ قال ؟

قال ابن الكواء : لا ، ولكنك جعلت مسلما وكافراً يحكمان فى كتاب الله .

٥ قال عليّ : ويلك يا ابن الكواء ! هل بعث عمْراً غيرُ معاوية ؟ وكيف أحكِّمه وحكمُه على ضرب عنقى ؟ إنما رضى به صاحبُه كما رضيت أنت بصاحبك ، وقد يجتمع المؤمنُ والكافرُ يحكمان فى أمر الله ؛ أرأيت لو أن رجلا مؤمنا تزوج يهودية أو نصرانية فخافا شقاقَ بينهما ، ففزع الناس إلى كتاب الله وفى كتابه : ﴿ فابعَثُوا حَكَما مِنْ أَهْلِه وحَكَما مِنْ أَهْلِها ﴾ ، فجاء رجل من اليهود ورجل من ١٠ النصارى ورجل من المسلمين الذين يجوز لهما أن يحكما فى كتاب الله ، فحكما .

قال ابن الكواء : وهذه أيضا ، أمهلنا حتى ننظر . فانصرف عنهم على . فقال له صعصعة بن صوحان : يا أمير المؤمنين ، ائذن لى فى كلام القوم . قال : نعم مالم تبسط يداً . قال : فنادى صعصعةُ ابنَ الكواء ؛ فخرج إليه فقال : أنشدكم بالله يامعشر الخارجين ، أن لا تكونوا عاراً على من يغزو لغيره ، وأن لا تخرجوا ١٥ بأرض تُسَمَّوْا بها بعد اليوم ، ولا تستعجلوا ضلال العامِ خشية ضلال عام قابل . فقال ابن الكواء : إن صاحبك لقِيَنَا بأمرٍ قولك فيه صغير ، فأمسك .

قالوا : إن عليا خرج بعد ذلك إليهم فخرج إليه ابن الكواء ، فقال له على : يا ابن الكواء إنه من أذنب فى هذا الدين ذنبا يكون فى الإسلام حدثاً استتبناه من ذلك الذنب بعينه ، وإن توبتك أن تعرف هدى ما خرجت منه ، وضلالَ ٢٠ مادخلت فيه . قال ابن الكواء : إننا لا ننكر أنا قد فتِنَّا . فقال له عبد الله بن عمرو بن جرموز : أدركنا والله هذه الآية ﴿ الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وهُمْ لا يُفْتَنون ﴾ . وكان عبد الله من قراء أهل حروراء ، فرجعوا فصلوا خلف عليّ الظهر ، وانصرفوا معه إلى الكوفة ، ثم اختلفوا بعد

ذلك في رجعتهم ولام بعضهم بعضاً ، فقال زيد بن عبد الله الراسبي ، وكان من أهل حروراء ، يشككهم :

شككتم ومَن أرسى ثَبيراً مكانه ٭ ولو لم تَشُكُّوا ما آنثنيتم عن الحرب
وتحكيمكُمْ عَمْراً على غــــير توْبة ٭ وكان لعبد الله خَطْبٌ من الخطْبِ
فأنكَصه للعَقْب لمّا خــــلا به ٭ فأصبح يهوِى من ذُرَى حالق صَعْب

وقال الرياحي :

ألم تر أنّ الله أنزل حُكمَه ٭ وعمرٌو وعبد الله مُختلفانِ

وقال مسلم بن يزيد الثقفي ، وكان من عُبّاد حروراء :

وإنْ كان ما عِبْناه عيْباً فحَسْبُنا ٭ خَطايا بأخذ النُّصح من غيْرِ ناصح
وإنْ كان عيْباً فآعظِمَنْ بتركنا ٭ عليّا على أمرٍ من الحقّ واضح
ونحن أُناسٌ بَيْنَ بَيْنَ وعَلنا ٭ سُررنا بأمرٍ غِبُّــــهُ غيْرُ صالح

ثم خرجوا على عليّ فقتلهم بالنهروان .

خروج عبد الله بن عباس على عليّ

قال أبو بكر بن أبي شيبة : كان عبد الله بن عباس من أحبّ النــاس إلى عمر بن الخطاب ، وكان يقدّمه على الأكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يستعمله قط ، فقال له يوماً : كدت أستعملك ، ولكن أخشى أن تستحل الفىء على التأويل !

فلما صار الأمر إلى عليّ استعمله على البصرة ، فاستحل الفىء على تأويل قول الله تعالى : ﴿وآعلَموا أنما غنِمْتُم من شيء فأنّ لله خُمُسَه وللرسولِ ولذى القُرْبَىٰ﴾ واستحله من قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى أبو مخنف عن سليمان بن أبي راشد عن عبد الرحمن بن عبيد قال : مرّ ابن عباس على أبي الأسود الدؤلي ، فقال له : لو كنت من البهائم لكنت جملا ولو كنت راعياً ما بلغت المرعى فكتب أبو الأسود الدؤلي إلى عليّ :

أما بعد ، فإنّ الله جعلك والياً مؤتمنا ، وراعياً مسئولا ، وقد بلوناك رحمك الله فوجدناك عظيم الأمانة ، ناصحاً للأمة ؛ توفّر لهم فيئهم ، وتكف نفسك عن دنياهم فلا تأكل أموالهم ، ولا ترتشى بشيء فى أحكامهم . وابن عمك قد أكل ماتحت يديه من غير علمك ، فلم يسعنى كتمانك ذلك ، فانظر رحمك الله فيما هنالك ،
٥ واكتب إلىّ برأيك ، فما أحببت أتّبعه إن شاء الله ، والسلام .

فكتب إليه علىّ :

أما بعد ، فمثلك نصح الإمام والأمة ، [وأدّى الأمانة] ووالى على الحق ، وفارق الجوْر ؛ وقد كتبت لصاحبك بما كتبت إلىّ فيه [مِن أمره] ، ولم أُعْلِمه بكتابك إلىّ ، فلا تدَعْ إعلامى ما يكون بحضرتك ، مما النظر فيه للأمة صلاح ، فإنك
١٠ بذلك جدير ، وهو حق واجب لله عليك ، والسلام .

وكتب علىّ إلى ابن عباس :

أما بعد ، فإنه قد بلغنى عنك أمرٌ ، إن كنت فعلته فقد أسخطت الله ، وأخربت أمانتك ، وعصَيْت إمامك ، وخُنْت المسلمين . بلغنى أنك جَرَدْت الأرض وأكلت ماتحت يدك ، فارفع إلىّ حسابك ، واعلم أن حساب الله أعظم من حساب
١٥ الناس والسلام .

فكتب إليه ابن عباس : أما بعد ، فإن كل الذى بلغك باطل ، وأنا لما تحت يدى ضابط ، وعليه حافظ ، فلا تصدق علىّ الظّنين ، والسلام .

فكتب إليه علىّ : أما بعد ، فإنه لا يسعنى تركُك حتى تعلمنى ما أخذت من الجزية : من أين أخذته ؟ وما وضعت منها : أين وضعته ؟ فاتق الله فيما ائتمنتك
٢٠ عليه واسترعيتُك إياه ، فإن المتاع بما أنت رازِمُه قليل ، وتباعته وبيلة لا تبيد ، والسلام .

فلما رأى أن عليا غير مقلع عنه كتب إليه : أما بعد ، فإنه بلغنى تعظيمك علىّ مرزئة مال بلغك أنى رزأته أهل هذه البلاد ، وايم الله لأن ألقى الله بما فى بطن هذه الأرض من عقيانها ولجينها ، وبما على ظهرها من طِلاعها ذهبا ، أحبُّ إلىّ

من أن ألقى الله وقد سفكت دماء هذه الأمة لأنال بذلك المُلك والإمرة . ابعث إلى عملك من أحببت ، فإنى ظاعن ؛ والسلام .

فلما أراد عبد الله المسير من البصرة دعا أخواله بنى هلال بن عامر بن صعصعة ليمنعوه ، فجاء الضحاك بن عبد الله الهلالى فأجاره ، ومعه رجلٌ منهم يقال له عبد الله بن رزين ، وكان شجاعا بئيسا ؛ فقالت بنو هلال : لا غنى بنا عن هوازن فقالت هوازن : لا غنى بنا عن سُلَيم . ثم أتتهم قيس ، فلما رأى اجتماعهم له حمل ما كان فى بيت مال البصرة ، وكان فيما زعموا ستة آلاف ألف ، فجعله فى الغرائر .

قال : فحدثنى الأزرق اليشكرى ، قال : سمعت أشياخنا من أهل البصرة قالوا : لما وضع المال فى الغرائر ثم مضى به ، تبعته الأخماس كلها بالطفّ ، على أربعة فراسخ من البصرة ، فواقفوه ، فقالت لهم قيس : والله لا تصلون إليه ومنا عينٌ تطرف . فقال صبرة [بن شيمان] ، وكان رأس الأزد : والله إن قيسا لإخوتنا فى الإسلام ، وجيرانُنا فى الدار ، وأعواننا على العدو وإن الذى تذهبون به من المال لو رُدّ عليكم لكان نصيبُكم منه الأقلّ ، وهو [غداً] خيرٌ لكم من المال . قالوا : فما ترى ؟ قال : انصرفوا عنهم .

فقال بكر بن وائل وعبد القيس : نِعم الرأى رأى صبرة واعتزلوهم .

فقالت بنو تميم : والله لا نفارقهم حتى نقاتلهم عليه . فقال الأحنف بن قيس : أنتم والله أحق أن لا تقاتلوهم عليه ، وقد ترك قتالهم من هو أبعد منكم رحمًا ! قالوا : والله لنقاتلنهم ! فقال : والله لا أساعدكم على قتالهم . وانصرف عنهم .

فقدموا عليهم ابن مجاعة فقاتلهم ، فحمل عليه الضحاك بن عبد الله نطعنه فى كتفه فصرعه ، فسقط إلى الأرض بغير قتل . وحمل سلمة بن ذؤيب السعدى على الضحاك فصرعه أيضا ، وكثرت بينهم الجراح من غير قتل .

فقال الأخماس الذين اعتزلوا : والله ما صنعتم شيئا ، اعتزلتم قتالهم وتركتموهم يتشاجرون . فجاؤوا حتى صرفوا وجوه بعضهم عن بعض ، وقالوا لبنى تميم : والله

إن هـذا للؤمٌ قبيح ، لنحن أسخى أنفسا منكم حين تركنا أموالنا لبنى عمكم وأنتم تقاتلونهم عليها ، خلوا عنهم وأرواحهم ، فإن القوم فدحوا . فانصرفوا عنهم .

ومضى معه ناس من قيس ، فيهم الضحاك بن عبد الله ، وعبد الله بن رزين ، حتى قدموا الحجاز فنزل مكة ، فجعل راجز لعبد الله بن عباس يسوق له فى الطريق ويقول :

صبَّحت مِن كاظِمَة القصر الخرِبْ ٭ مع ابن عباسِ بن عبدِ المطلبْ

وجعل ابن عباس يرتجز ويقول :

آوِى إلى أهلِكِ يا رَبابُ ٭ آوِى فقد حان لكِ الإياب

وجعل أيضاً يرتجز ويقول :

وهُنَّ يَمْشِين بنا هَمِيسا ٭ إنْ يَصْدُق الطيْرُ نَنِكْ لميسا

فقال له : يا أبا العباس ، أمثلك يرفث فى هذا الموضع ؟ قال : إنما الرفث ما يقال عند النساء .

قال أبو محمد : فلما نزل مكة اشترى من عطاء بن جبير مولى بنى كعب من جواريه ثلاث مولدات حجازيات يقال لهن : شادن ، وحوراء ، وفتون ، بثلاثة آلاف دينار .

وقال سليمان بن أبى راشد عن عبد الله بن عبيد عن أبى الكنود ، قال : كنت من أعوان عبد الله بالبصرة ، فلما كان من أمره ما كان أتيت عليا فأخبرته فقال : ﴿ واتْلُ عليهم نبأَ الذى آتيناه آياتِنا فانسَلَخَ منها فأَتبعَه الشيْطانُ فكانَ من الغاوين ﴾ .

ثم كتب على إليه :

أما بعد ، فإنى كنت أشركتُك فى أمانتى ، [وجعلتُك شعارى وبطانتى] ، ولم يكن من أهل بيتى رجلٌ أوثقَ عندى منك ، لمواساتى وموازرتى ، وأداء الأمانة [إلىَّ] ؛ فلما رأيت الزمان قد كَلِبَ على ابن عمك ، والعدوَّ قد

حرب ، وأمانة الناس قد خزيت ، وهذه الأمة قد فنكت [وشغرت] ، قلبت لابن عمك ظهر المجن ، ففارقته مع القوم المفارقين ، وخذلته أسوأ خذلان وخنته مع من خان ، فلا ابن عمك آسيت ، ولا الأمانة إليه أديت ؛ كأنك لم تكن على بينة من ربك ، و [كأنك] إنما كنت [تكيد] أمة محمد عن دنياهم ، و [تنوى] غرتهم عن فيئهم ، فلما أمكنتك الفرصة فى خيانة الأمة ، أسرعت الغدرة ، وعاجلت الوثبة ، فاختطفت ما قدرت عليه من أموالهم ، وانقلبت بها إلى الحجاز ، كأنك إنما حزت على أهلك ميراثك من أبيك وأمك ؛ سبحان الله! أما تؤمن بالمعاد ؟ أما تخاف الحساب ؟ أما تعلم أنك تأكل حراما ، وتشرب حراما ، وتشترى الإماء وتنكحهم بأموال اليتامى والأرامل والمجاهدين فى سبيل الله التى أفاء الله عليهم ؟

فاتق الله وأد إلى القوم أموالهم ؛ فإنك والله لئن لم تفعل وأمكننى الله منك لأعذرن إلى الله فيك : فوالله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذى فعلت ، ما كانت لهما عندى هوادة ، ولما تركتهما حتى آخذ الحق منهما ، والسلام .

فكتب إليه ابن عباس :

أما بعد ، فقد بلغنى كتابك تعظم علىّ أمانة المال الذى أصبت من بيت مال البصرة ، ولعمرى إن حقى فى بيت مال الله أكثر من الذى أخذت ! والسلام .

فكتب إليه علىّ :

أما بعد ، فإن العجب كل العجب منك إذ ترى لنفسك فى بيت مال الله أكثر مما لرجل من المسلمين ؛ قد أفلحت إن كان تمنيك الباطل وادعاءك ما لا يكون ، ينجيك من الإثم ويحل لك ما حرم الله عليك ؛ عمرك الله ! إنك لأنت البعيد ، وقد بلغنى أنك اتخذت مكة وطنا ، وضربت بها عطنا ، تشترى المولدات من المدينة والطائف ، وتختارهن على عينك ، وتعطى بهن مال غيرك ؛

وإنى أقسم بالله ربى وربك ربِّ العزة ما أحب أن ما أخذت من أموالهم حلالٌ لى أدعه ميراثاً لعقبى ، فما بال اغتباطك به تأكله حراما . ضَحِّ رويدا ، فكأنك قد بلغت المدى ، وعُرِضَتْ عليك أعمالك بالمحل الذى ينادى فيه المغتر بالحسرة ، ويتمنى المضيِّع التوبة والظالم الرجعة !

٥ فكتب إليه ابن عبَّاس :

« والله لئن لم تدعنى من أساطيرك لأحملنَّه إلى معاوية يقاتلك به .

فكف عنه علىّ .

مقتل على بن أبى طالب

رضى الله عنه

١٠ سفيان بن عيينة قال : كان على بن أبى طالب رضى الله عنه يخرج بالليل إلى المسجد ، فقال أناس من أصحابه : نخشى أن يصيبه بعضُ عدوِّه ، ولكن تعالوا نحرسه . فخرج ذات ليلة فإذا هو بنا ، فقال : ما شأنكم ؟ فكتمناه ، فعزم علينا ، فأخبرناه ، فقال : تحرسونى من أهل السماء أو من أهل الأرض ؟ قلنا : من أهل الأرض . قال : إنه ليس يُقْضَى فى الأرض حتى يُقْضى فى السماء !

١٥ التيمى بإسناد له قال : لما تواعد ابن ملجم وصاحباه بقتل علىّ ومعاوية وعمرو بن العاص ، دخل ابن ملجم المسجد فى بزوغ الفجر الأول ، فدخل فى الصلاة تطوُّعا ، ثم افتتح فى القراءة وجعل يكرر هذه الآية : ﴿ ومِنَ الناسِ من يشْرِى نفسَه ابتغاء مَرْضاةِ اللهِ ﴾ فأقبل ابن أبى طالب بيده مِخفقة وهو يوقظ الناس للصلاة ويقول : أيها الناس ، الصلاةَ الصلاة . فمرّ بابن مُلْجِم وهو يردِّد ٢٠ هذه الآية ، فظن علىٌّ أنه ينسى فيها ، ففتح عليه فقال .. ﴿ واللهُ رؤفٌ بالعبادِ ﴾ ثم انصرف على وهو يريد أن يدخل الدار ، فاتبعه فضربه على قرنه ، ووقع السيف فى الجدار فأطار فِدرة من آخره ، فابتدره الناس فأخذوه ، ووقع السيف منه ، فجعل يقول : أيها النّاس ، احذروا السيف فإنه مسموم ! قال : فأُتى به على ،

فقال : احبسوه ثلاثاً وأطعموه واسقوه ، فإن أعش أر فيه رأيي ، وإن أمُت فاقتلوه ولا تمثّلوا به ، فمات من تلك الضربة ، فأخذه عبد الله بن جعفر فقطع يديه ورجليه ، فلم يفزع ، ثم أراد قطع لسانه ففزع ؛ فقيل له : لِمَ لم تفزع لقطع يديك ورجليك وفزعت لقطع لسانك؟ قال : إنى أكره أن تمرّ بى ساعة لا أذكر الله فيها ! ثم قطعوا لسانه وضربوا عنقه . ٥

وتوجه الخارجى الآخر إلى معاوية فلم يجد إليه سبيلا .

وتوجه الثالث إلى عمرو فوجده قد أغفل تلك الليلة فلم يخرج إلى الصلاة ، وقدم مكانه رجلا يقال له خارجة فضربه الخارجى بالسيف وهو يظنه عمرو بن العاص ، فقتله ؛ فأخذه الناس فقالوا . قتلتَ خارجة ! قال : أو ليس عَمْرًا ؟ قالوا له : لا ! قال : أردتُ عمْرًا وأراد الله خارجة ! ١٠

وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى : ألا أخبرك بأشد الناس عذاباً يوم القيامة ؟ قال : أخبرنى يارسول الله . قال : فإن أشد الناس عذاباً يوم القيامة : عاقرُ ناقة ثمود ، وخاضب لحيتك بدم رأسك !

وقال كُثيِّر عزة .

ألا أنّ الأئمةَ من قريشٍ * وُلاة العهدِ أربعـةٌ سواء ١٥
علىٌّ والثلاثة من بنيهِ * هُمُ الأسباطُ ليس بهم خفاء
فسِبْطٌ سِبْطُ إيمـانٍ وبرٍّ * وسبطٌ غيَّبتْه كربلاء
وسِبط لايَذوق الموتَ حتى * يقودَ الخيل يَقْدُمُها اللواء
تَغيَّب لا يُرى عنهم زماناً * بِرضْوَى عنده عسلٌ وماء

قال الحسن بن على صبيحة الليلة التى قتل فيها على بن أبى طالب رضى الله عنه : حدثنى أبى البارحة فى هذا المسجد ، فقال : يا بنى ، إنى صليت البارحة مارزق الله ، ثم نمت نومة فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشكوت إليه ما أنا فيه من مخالفة أصحابى وقلة رغبتهم فى الجهاد ، فقال لى : ادع الله أن يريحك منهم . فدعوت الله ! ٢٠

قال الحسن صبيحة تلك الليلة : أيها الناس ، إنه قُتِل فيكم الليلة رجلٌ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثه فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، فلا ينثنى حتى يفتحَ الله له ، ما ترك إلا ثلثمائة درهم .

خلافة الحسن بن على

٥ ثم بويع للحسن بن على — أمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم — فى شهر رمضان سنة أربعين من التاريخ ، فكتب إليه ابن عباس :

إن الناس قد ولَّوْك أمرهم بعد على ؛ فاشدد عن يمينك وجاهد عدوك ، واستر من الظَّنين ذنبه بما لا يثلم دينك ، واستعمل أهل البيوتات ، تستصلح بهم عشائرهم ...

١٠ ثم اجتمع الحسن بن على ومعاوية بمسكن من أرض السواد من ناحية الأنبار ، واصطلحا ، وسلم الحسن الأمر إلى معاوية ، وذلك فى شهر جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين ، ويسمى عامَ الجماعة .

فكانت ولاية الحسن سبعة أشهر وسبعة أيام .

ومات الحسن فى المدينة سنة تسع وأربعين ، وهو ابن ست وأربعين سنة ؛

١٥ وصلى عليه سعيد بن العاص وهو والى المدينة ، وأوصى أن يدفن مع جده فى بيت عائشة ، فمنعه مروان بن الحكم ، فردوه إلى البقيع .

وقال هريرة لمروان : علام تمنع أن يُدفن مع جده ؟ فلقد أشهد أنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الحَسَنُ والحُسَيْنُ سيِّدَا شبابِ أهلِ الجنة فقال له مروان . لقد ضيَّعَ حديث نبيه إذ لم يروه غيرُك . قال : أما إنك إذ

٢٠ قلت ذلك : لقد صحبتُه حتى عرفت من أحبَّ ومن أبغض ، ومن نفى ومن أقر ، ومن دعا له ومن دعا عليه !

ولما بلغ معاوية موتُ الحسن بن علىّ خرّ ساجداً لله ، ثم أرسل إلى ابن عباس وكان معه فى الشام ، فعزاه وهو مستبشر ، وقال له . ابنُ كم سنة مات أبو محمد ؟

فقال له : سنه كان يُسمع فى قريش ، فالعجب من أن يجهله مثلُك .

قال : بلغنى أنه ترك أطفالا صغارا .

قال : كل ما كان صغيراً يكبر ، وإن طفلنا لكهل ، وإنّ صغيرنا لكبير !
ثم قال : مالى أراك يا معاوية مستبشراً بموت الحسن بن على ؟ فوالله لا يَنْسأ فى أجلك ، ولا يسُدُّ حفرتك ؛ وما أقلّ بقاءك وبقاءنا بعده ! ٥

ثم خرج ابن عباس ؛ فبعث إليه معاوية ابنه يزيد ، فقعد بين يديه فعزّاه واستعبر لموت الحسن ، فلما ذهب أتبعه ابنُ عباس بصرَه وقال : إذا ذهب آل حرب ذهب الحلمُ من الناس .

خلافة معاوية

ثم اجتمع الناس على معاوية سنة إحدى وأربعين ، وهو عام الجماعة ؛ ١٠
فبايعه أهل الأمصار كلها ، وكتب بينه وبين الحسن كتابا وشروطا ، ووصله بأربعين ألفا .

وفى رواية أبى بكر بن أبى شيبة ، أنه قال له : والله لأجيزنّك بجائزة ما أجزتُ بها أحداً قبلك ، ولا أجيز بها أحداً بعدَك ! فأمر له بأربعمائة ألف .

هو : معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف . ١٥
وكنيته أبو عبد الرحمن .

وأمه هند ابنة عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف .

ومات معاوية بدمشق يوم الخميس لثمان بقين من رجب سنة ستين ـ وصلى عليه الضحاك بن قيس ـ وهو ابن ثلاث وسبعين سنة ، ويقال : ابن ثمانين سنة .

كانت ولايته تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وسبعة وعشرين يوما . ٢٠

صاحب شرطته : يزيد بن الحارث العبسى ، وعلى حرسه ـ وهو أول من اتخذ حرسا ـ رجلٌ من الموالى يقال له المختار ، وحاجبه سعد مولاه ، وعلى

القضاء أبو إدريس الخولانى .

ووُلد له عبد الرحمن وعبد الله ، من فاختة بنت قرظة ؛ أما عبد الرحمن فمات صغيرا ، وأما عبد الله فمات كبيرا ، وكان ضعيفا ، ولا عقب له من الذكور ؛ وكان له بنت يقال لها عاتكة ، تزوجها يزيد بن عبد الملك[1] ، وفيها يقول الشاعر :

٥ يا بيتَ عاتِكةَ الذى أتعزَّلُ ◦ حذَرَ العِدا وبه الفؤادُ مُوَكَّلُ

ويزيد بن معاوية ، وأمه ابنة بحدل ، كلبية .

فضائل معاوية

ذكر عمرُو بن العاص معاويةَ ، فقال : أحذروا قَرْم قريش وابن كريمها من يضحك عند الغضب ، ولا ينام إلا على الرضا ، ويتناول ما فوقه من تحته .

١٠ سئل عبد الله بن عباس عن معاوية ، فقال : سَمَا بشىءٍ أَسَرَّه ، واستظهرَ بشىء أعلَنَه ، فحاول ما أسر بما أعلن فناله ، وكان حلمه قاهراً لغضبه ، وجودُه غالباً على منعه ، يصلُ ولا يَقْطع ، ويَجمع ولا يُفرِّق ، فاستقام له أمره وجرى إلى مدته .

قيل : فأخبرنا عن ابنه . قال : كان فى خير سبيله ، وكان أبوه قد أحكمه ؛

١٥ وأمَره ونهاه ، فتعلق بذلك وسلك طريقاً مذلَّلا له .

وقال معاوية : لم يكن فى الشباب شىء إلا كان منى فيه مستمتع ، غير أنى لم أكن صُرَعَةً ولا نُكَحَةً ولا سِبًّا .

قال الأصمعى : السِّب : كثير السباب .

ميمون بن مِهْران قال : كان أول من جلس بين الخطبتين معاوية ، وأول

٢٠ من وضع شرف العطاء ألفين معاوية .

(١) كذا بالأصل ، وإنما هى عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، ولم تكن زوجاً ليزيد بن عبد الملك ، وإنما هى أمه ، وانظر نسب يزيد وولده فى هذا الجزء .

وقال معاوية : لا زلت أطمع فى الخلافة منذ قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معاوية ، إذا ملَكْتَ فأحسِنْ .

العتبي عن أبيه قال : قال معاوية لقريش : ألا أخبركم عنى وعنكم ؟ قالوا : بلى . قال : فأنا أطير إذا وقعتم ، وأقع إذا طرتم ، ولو وافق طيرانى طيرانكم سقطنا جميعا .

وقال معاوية : لو أنّ بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت أبدا . قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : كنت إذا مدّوها أرخيتُها ، وإذا أرخَوها مددْتها .

وقال زياد : ما غلبنى أمير المؤمنين معاوية قطُّ إلا فى أمرٍ واحد : طلبتُ رجلا من عمالى كسر علىّ الخراج فلجأ إليه ، فكتبت إليه : إنّ هذا فساد عملى وعملك .

فكتب إلىّ :

إنه لا ينبغى لنا أن نسوس الناس سياسة واحدة : لا نلينُ جميعاً فيمرحَ الناس فى المعصية ، ولا نشتدُّ جميعاً فنحملَ الناس على المهالك . ولكن تكون أنت للشدّة والفظاظة والغلظة ، وأكون أنا للرأفة والرحمة .

أخبار معاوية

قدم معاوية المدينة بعد عام الجماعة ، فدخل دار عثمان بن عفان ، فصاحت عائشة ابنة عثمان وبكت ونادت أباها ؛ فقال معاوية : يا ابنة أخى ، إن الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أمانا ، وأظهر لهم حلما تحته غضب ، وأظهروا لنا ذُلًّا تحته حِقد ، ومع كل إنسان سيفه ويرى موضع أصحابه ، فإن نكثناهم نكثوا بنا ، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا ، ولأن تكونِى ابنةَ عمِّ أمير المؤمنين ، خيرٌ من أن تكونى امرأة من عرض الناس !

القَحذمي قال : لما قدم معاوية المدينة قال :

أيها الناس ، إنّ أبا بكر رضى الله عنه لم يُرِد الدنيا ولم تُرِده ، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يُرِدها ، وأما عثمان فنال منها ونالت منه ، وأما أنا فمالت بى ومِلْتُ بها ، وأنا ابنها فهى أمّى وأنا ابنُها ، فإن لم تجدونى خيرَكم فأنا خيرٌ لكم . ثم نزل .

٥ قال جويرية بن أسماء : نال بسرُ بن أرطاة من على بن أبى طالب عند معاوية ، وزيد بن عمر بن الخطاب جالس ، فعَلَا بسراً ضرب حتى شجه ؛ فقال معاوية : يازيد ، عمدت إلى شيخ [مِن] قريش سيدِ أهل الشام فضربته ! وأقبل على بسر وقال : تشتم عليا وهو جدُّه ، وأبوه الفاروق ، على رءوس الناس ! أفكنت تراه يصبر على شتم علىّ ؟

١٠ وكانت أم زيد : أم كلثوم بنت علىّ بن أبى طالب .

ولما قدم معاوية مكة ، وكان عمر قد استعمله عليها دخل على أمه هند ، فقالت له : يابنى إنه قلَّما ولَدَت حرّةٌ مثلَك ، وقد استعملك هذا الرجل فاعمل بما وافقه ، أحببت ذلك أم كَرِهْتَه ؟

ثم دخل على أبيه أبى سفيان ، فقال له : يابنى ، إن هؤلاء الرهط من ١٥ المهاجرين سبقونا وتأخّرْنا ، فرفعهم سَبْقُهم ، وقصّر بنا تأخرنا ، فصرنا أتباعا وصاروا قادة ؛ وقد قلدوك جسيما من أمرهم ، فلا تخالِفَنّ رأيَهم ، فإنك تجرى إلى أمدٍ لم تبلغه ، ولو قد بلغته لتنفست فيه !

قال معاوية : فعجبت من اتفاقهما فى المعنى على اختلافهما فى اللفظ .

العتبى عن أبيه ، أن عمر بن الخطاب قدم الشام على حمار ومعه عبد الرحمن ٢٠ ابن عوف على حمار ، فتلقاهما معاوية فى موكب نبيل ، فجاوز عمرَ حتى أُخبر ، فرجع إليه ، فلما قرب منه نزل [إليه] فأعرض عنه عمر ، فجعل يمشى إلى جنبه راجلا ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبتَ الرجل ! فأقبل عليه عمر ، فقال : يامعاوية ، أنت صاحبُ الموكب آنفا مع ما بلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك ؟ قال : نعم ياأمير المؤمنين . قال : ولم ذلك ؟

قال : لأنا فى بلاد لانمتنع فيها من جواسيس العدو ، فلا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان ، فإن أمرتنى بذلك أقمت عليه ، وإن نهيتنى عنه انتهيت .

قال : لئن كان الذى قلت حقا فإنه رأىُ أريب ، ولئن كان باطلا فإنها خدعة أديب ، وما آمرك به ولا أنهاك عنه .

فقال عبد الرحمن بن عوف : لحَسَنٌ ما صَدَرَ هذا الفتى عما أورَدْته فيه . ٥

قال : لِحُسْنِ مصادِرِه وموارِدِهِ جشَّمْناه ماجشمناه .

وقال معاوية لابن الكواء . يا ابن الكواء ، أنشدك الله ما علمُكَ فِىَّ ؟

قال : أنشدتنى الله ، ما أعلمك إلا واسعَ الدنيا ضيِّق الآخرة !

ولما مات الحسن بن على ، حج معاوية فدخل المدينة وأراد أن يلعن عليا على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : إن ههنا سعد بن أبى وقاص ١٠ ولا نراه يرضى بهذا ، فابعث إليه وخذ رأيه . فأرسل إليه وذكر له ذلك ، فقال : إن فعلت لأخرُجَنَّ من المسجد ثم لا أعودُ إليه ! فأمسك معاوية عن لعنه حتى مات سعد ، فلما مات لعنه على المنبر وكتب إلى عماله أن يلعنوه على المنابر ، ففعلوا . فكتبت أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم إلى معاوية :

إنكم تلعنون الله ورسولَه على منابركم ، وذلك أنكم تلعنون علىَّ بن أبى طالب ١٥ ومن أحبه ، وأنا أشهدُ أنَّ الله أحَبَّهُ ورسولَه .

فلم يلتفت إلى كلامها .

وقال بعض العلماء لولده : يابُنىَّ ، إن الدنيا لم تَبْنِ شيئا إلا هدمه الدين ، وإن الدين لم يبن شيئاً فهدمته الدنيا ، ألا ترى أن قوما لعنوا عليا ليخفضوا منه فكأنما أخذوا بناصيته جَرًّا إلى السماء ! ٢٠

ودخل صعصعة بن صوحان على معاوية ومعه عمرو بن العاص جالس على سريره ، فقال : وسِّعْ له على ترابيّة فيه ! فقال صعصعة : إنى والله لَتُرابى ، منه خُلِقت ، وإليه أعود ، ومنه أُبْعَث ؛ وإنك لمارجٌ من مارج من نار !

العتبى عن أبيه : قال معاوية يوما لعمرو بن العاص : ما أعجب الأشياء ؟

قال : غلبة من لاحَقّ له ذا الحق على حقه . قال معاوية : أعجب من ذلك أن يُعطَى من لاحقّ له ماليس له بحقّ من غير غَلَبة !

وقال معاوية : أُعِنْتُ عَلى عَلِيّ بأربعة ،كنتُ أَكتُمُ سِرِّى ، وكان رجلا يُظهره ؛ وكنتُ فى أصْلحِ جُنْدٍ وأطوَعِه ، وكان فى أخبث جنـدٍ وأعصاه ؛ وتركتُه وأصحابَ الجمل وقلت : إن ظفروا به كانوا أهونَ علىّ منه ، وإن ظَفِرَ بهم اغتر بهـا فى دينه ! وكنت أحبَّ إلى قريش منه ؛ فيالك من جامعٍ إلى ومُفَرِّقٍ عنه !

العتبى قال : أراد معاوية أن يقدم ابنه يزيد على الصائفة ، فكره ذلك يزيدُ ، فأبى معاوية إلا أن يفعل ، فكتب إليه يزيد يقول :

نجِيٌّ لا يَزَالُ يعد ذَنْبـاً ... لتَقْطَعَ وَصْلَ حبْلِكَ مِن حبالى

فيوشِكُ أن يريحك مِن أذاتى ... نُزُولِى فى المهالِكِ وآرتِحالى

وتجهز للخروج ، فلم يتخلف عنه أحد ، حتى كان فيمن خرج أبو أيوب الأنصارى صاحب النبى صلى الله عليه وسلم

قال العتبى : وحدثنى أبو إبراهيم قال : أرسل معاوية إلى ابنِ عباس ، قال : يا أبا العباس ، إن أحببت خرجت مع ابن أخيك فيأنس بك ويقرّبك ، وتشير عليه برأيك ؛ ولا يدخل الناس بينك وبينه فيشغلوا كل واحد منكما عن صاحبه ؛ وأقِلّ من ذكر حقك ، فإنه إن كان لك فقد تركته لمن هو أبعدُ منا حبا ، وإن لم يكن لك فلا حاجة بك إلى ذكره ، مع أنه صائر إليك ، وكل آت قريب ، ولتجِدَنّا إذا كان ذلك خيراً لكم منا .

فقال ابن عباس : والله لئن عظُمَتْ عليك النعمة فى نفسك لقد عظمت عليك فى يزيد ، وأما ماسألتنى من الكف عن ذكر حق ، فإنى لم أُغمد سيفى وأنا أريد أن أنتصر بلسانى . ولئن صار هذا الأمر إلينا ثم وليكم من قومى مثلى كما وَلِيَنا من قومك مثلك ، لايرى أهلك إلا مايحبون .

قال : فخرج يزيد ، فلما صار على الخليج ثقل أبو أيوب الأنصارى فأتاه

يزيد عائداً ، فقال : ماحاجتك أبا أيوب ؟ فقال : أما دنياكم فلا حاجة لى فيها ، ولكن قدِّمنى ما آستطعتَ فى بلاد العدو ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يُدْفَنُ عِنْدَ سُورِ القسطنطينية رجلٌ صالح ؛ أرجو أن أكونَ هُوَ ! . . .

٥ فلما مات أمر يزيد بتكفينه ، وحُمل على سريره ، ثم أخرج الكتائب ، فجعل قيصر يرى سريراً يُحمل والناس يقتتلون فأرسل إلى يزيد : ماهذا الذى أرى ؟

قال : صاحب نبينا ، وقد سألنا أن نقدمه فى بلادك ، ونحن منفذون وصيته أو تلحق أرواحُنا بالله .

فأرسل إليه : العجب كل العجب ! كيف يُدَهِّى الناسُ أباك وهو يرسلك فتعمد إلى صاحب نبيك فتدفنه فى بلادنا ، فإذا ولّيت أخرجناه إلى الكلاب ؟ ١٠

فقال يزيد : إنى والله ما أردت أن أودعه بلادكم حتى أودع كلامى آذانكم ، فإنك كافر بالذى أكرمتُ هذا له ، ولئن بلغنى أنه نُبش من قبره أو مُثِّل به لاتركتُ بأرض العرب نصرانيا إلا قتلتُه ، ولا كنيسةً إلا هدمتها !

فبعث إليه قيصرُ : أبوك كان أعلمَ بك ، فوحقِّ المسيح لأحفظنَّهُ بيدى سنة فلقد بلغنى أنه بُنى على قبره قُبَّةٌ يُسرَجُ فيها إلى اليوم . ١٥

طلب معاوية البيعة ليزيد

أبو الحسن المدائنى قال : لما مات زياد ، وذلك سنة ثلاث وخمسين ، أظهر معاوية عهداً مُفتعلا فقرأه على الناس فيه عقد الولاية ليزيد بعده ، وإنما أراد أن يسهل بذلك بيعة يزيد ، فلم يزل يروض الناس لبيعته سبع سنين ، ويشاور ، ويعطى الأقارب ويدانى الأباعد ، حتى استوثق له من أكثر الناس ٢٠ فقال ؛ لعبد الله بن الزبير : ما ترى فى بيعة يزيد ؟

قال : يا أمير المؤمنين إنى أناديك ولا أناجيك ، إن أخاك من صدقك ، فانظر قبل أن تتقدم ، وتفكَّر قبل أن تَنَدَّم ، فإن النظر قبل التقدُّم ، والتفكر قبل التندم .

فضحك معاوية وقال : ثعلبٌ رواغ ! تعلمت السجع عند الكِبَر ، فى دون ماسجعت به على ابن أخيك ما يكفيك .

ثم التفت إلى الأحنف فقال : ما ترى فى بيعة يزيد ؟

قال : نخافكم إن صدقناكم ، ونخاف الله إن كذبنا .

٥ فلما كانت سنة خمس وخمسين كتب معاوية إلى سائر الأمصار أن يَفِدُوا عليه ، فوفد عليه من كل مصر قوم ، وكان فيمن وَفَدَ عليه من المدينة محمد بن عمرو بن حزم ، فخلا به معاوية وقال له : ما ترى فى بيعة يزيد ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، ما أصبح اليوم على الأرض أحدٌ هو أحب إلىّ رشداً من نفسك سوى نفسى ، وإن يزيد أصبح غنيا فى المال ، وسطا فى الحسب ،
١٠ وإن الله سائل كلّ راع عن رعيته ، فاتق الله وانظر من تُوَلّى أمة محمد .

فأخذ معاوية بهرٌ حتى تنفس الصعداء وذلك فى يوم شاتٍ ، ثم قال : يامحمد ، إنك امرؤ ناصح قلت برأيك ، ولم يكن عليك إلا ذاك . قال معاوية : إنه لم يبق إلا ابنى وأبناؤهم ، فابنى أحبُّ إلىّ من أبنائهم ؛ اخرج عنى !

ثم جلس معاوية فى أصحابه وأذن للوفود فدخلوا عليه وقد تقدم إلى أصحابه أن
١٥ يقولوا فى يزيد ، فكان أول من تكلم الضحاك بن قيس فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه لابد للناس من وال بعدَك ، والأنفُس يُغْدَى عليها ويُراح ، وإن الله قال : ﴿ كل يوم هو فى شأن ﴾ ، ولا ندرى ما يختلف به العصران ؛ ويزيد ابن أمير المؤمنين فى حسن مَعْدِنِه وقصدِ سيرته ، من أفضلنا حلما وأحكَمِنا علما ، فولّه عهدك ، واجعله لنا عَلَماً بعدك ، فإنا قد بلَوْنا الجماعة والألفة ، فوجدناها أحقَنَ للدماء ،
٢٠ وآمنَ للسبل ، وخيراً فى العاقبة والآجلة .

ثم تكلم عمرو بن سعيد فقال :

أيها الناس ، إن يزيد أملٌ تأملونه ، وأجل تأمنونه ، طويل الباع ، رحب الذراع إذا صرتم إلى عدله وسِعَكم ، وإن طلبتم رفدَه أغناكم ؛ جذَع قارح ، سوبق فسبق ، وموجد فجد ، وقورع فقرع ، فهو خلف أمير المؤمنين ولا خلف منه .

فقال : اجلس أبا أمية ، فلقد أوسعت وأحسنت .

ثم قام يزيد بن المقنّع فقال :

أمير المؤمنين هذا ـ وأشار إلى معاوية ـ فإن هلك فهذا ـ وأشار إلى يزيد ـ فمن أبى فهذا ـ وأشار إلى سيفه :

فقال معاوية : اجلس فإنك سيد الخطباء . ٥

ثم تكلم الأحنف بن قيس فقال :

يا أمير المؤمنين ، أنت أعلم بيزيد فى ليله ونهاره ، وسرّه وعلانيته ، ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعلمه لله رضا ، ولهذه الأمة ، فلا تشاور الناس فيه ؛ وإن كنت تعلم منه غير ذلك فلا تُزَوِّدْه الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة .

قال : فتفرق الناس ولم يذكروا إلا كلام الأحنف . ١٠

قال : ثم بايع الناس ليزيد بن معاوية ، فقال رجل وقد دعى إلى البيعة : اللهم إنى أعوذ بك من شرّ معاوية .

فقال له معاوية : تعوّذْ من شرّ نفسِك ، فإنه أشدُّ عليك ، وبايعْ .

قال : إنى أبايع وأنا كاره للبيعة .

قال له معاوية : بايع أيها الرجل ، فإن الله يقول : ﴿ فعَسَى أنْ تَكْرَهوا شيئًا ويَجعَلَ اللهُ فيه خيْرًا كثيرا ﴾ . ١٥

ثم كتب إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة أن ادْعُ أهل المدينة إلى بيعة يزيد ؛ فإن أهل الشام والعراق قد بايعوا .

فخطبهم مروان فحضّهم على الطاعة وحذّرهم الفتنة ، ودعاهم إلى بيعة يزيد ، وقال : سنة أبى بكر الهادية المهدية . ٢٠

فقال له عبد الرحمن بن أبى بكر : كذبت ، إن أبا بكر ترك الأهل والعشيرة وبايع لرجلٍ من بنى عدى رضِىَ دينَه وأمانتَه ، واختاره لأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

فقال مروان : أيها الناس ، إن هذا المتكلم هو الذى أنزل الله فيه : ﴿ والذى قال لِوَالِدَيْه أُفٍّ لكما أتَعِدانِنِى أنْ أُخرَجَ وقد خَلَتِ القُرُونُ مِن قَبْلِى ﴾ .

فقال له عبد الرحمن : يابن الزرقاء ، أفينا تتأول القرآن ؟

وتكلم الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر وأنكروا بيعة يزيد ، وتفرق الناس .

فكتب مروان إلى معاوية بذلك ، فخرج معاوية إلى المدينة فى ألف ، فلما قرب منها تلقاه الناس ، فلما نظر إلى الحسين قال : مرحبا بسيد شباب المسلمين ، قَرِّبوا دابةً لأبى عبد الله .

وقال لعبد الرحمن بن أبى بكر : مرحباً بشيخ قريش وسيِّدها وابن الصدِّيق .

وقال لابن عمر : مرحبا بصاحب رسول الله وابن الفاروق .

وقال لابن الزبير : مرحبا بابن حوارِىِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ، ودعا لهم بدوابّ فحملهم عليها ، وخرج حتى أتى مكة فقضى حَجَّه .

ولما أراد الشخوص أمر بأثقاله فقُدِّمت ، وأمر بالمنبر فقرّب من الكعبة ، وأرسل إلى الحسين وعبد الرحمن بن أبى بكر وابن عمر وابن الزبير ، فاجتمعوا وقالوا لابن الزبير : اكفنا كلامه . فقال : على أن لا تخالفونى . قالوا : لك ذلك . ثم أتوا معاوية ، فرحب بهم وقال لهم قد علمتم نظرى لكم ، وتعطفى عليكم ، وصلتى أرحامكم ؛ ويزيد أخوكم وابن عمّكم ، وإنما أردت أنْ أقدّمه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تأمرون وتنهون : فسكتوا ، وتكلم ابن الزبير ، فقال :

نخيِّرك بين إحدى ثلاث ، أيّها أخذت فهى لك رغبة وفيها خيار : إن شئت فاصنع فينا ما صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبضه الله ولم يستخلف [أحدا ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر] ؛ فدع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم ؛ وإن شئت فما صنع أبو بكر ، عَهِد إلى رجل من قاصية قريش وترك مِن ولده ومِن رهطه الأدْنَيْنَ ، مَن كان لها أهلا ؛ وإن شئت

فما صنع عمر ، صيّرها إلى ستة نفر من قريش يختارون رجلا منهم ، وترك ولده وأهل بيته ، وفيهم من لو وليَها لكانَ لها أهلا .

قال معاوية : هل غير هذا ؟

قال : لا .

ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟

قالوا : نحن على ما قال ابن الزبير .

فقال معاوية : إنى أتقدم إليكم وقد أعذر من أنذر إنى قائل مقالة ، فأُقسم بالله لئن ردّ علىّ رجلٌ منكم كلمة فى مقامى هذا لاترجع إليه كلمته حتى يُضْرَبَ رأسُهُ ، فلا ينظر امرؤٌ منكم إلا إلى نفسه ، ولا يُبقِ إلا عليها .

وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفيهما ، فإن تكلم بكلمة يرد بها عليه قوله قتلاه ، وخرج وأخرجهم معه حتى رقى المنبر ، وحف به أهل الشام واجتمع الناس ، فقال بعد حمد الله والثناء عليه :

إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوارٍ ، قالوا : إن حُسينا وابن أبى بكر وابن عمر وابن الزبير لم يبايعوا ليزيد ، وهؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارُهم : لا نُبرم أمراً دونهم ، ولا نقضى أمراً إلا عن مشورتهم ؛ وإنى دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين ، فبايَعوا وسلَّموا وأطاعوا . فقال أهل الشام : وما يعظم من أمر هؤلاء؟ ائذن لنا فنضرب أعناقهم ، لانرضى حتى يبايعوا علانية : فقال معاوية : سبحان الله ما أسرع الناس إلى قريش بالشرّ ، وأحلى دماءهم عندهم ! أنصتوا ، فلا أسمع هذه المقالة من أحد . ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا ، ثم قُرِّبت رواحله فركب ومضى.

فقال الناس للحسين وأصحابه : قلتم لا نبايع ، فلما دُعيتم وأُرضيتُم بايعتم !

قالوا : لم نفعل .

قالوا : بلى ، قد فعلتم وبايعتم ، أفلا أنكرتم ؟

قالوا : خفنا القتل ، وكادكم بنا وكادنا بكم .

وفاة معاوية

عن الهيثم بن عدى قال : لما حضرت معاويةَ الوفاة ويزيد غائب ، دعا الضحاك بن قيس الفهرى ، ومسلم بن عقبة المرى ، فقال :

أبلغا عنى يزيد وقولا له : انظر إلى أهل الحجاز ، فهم أصلك وعترتك ؛ فمن أتاك منهم فأكرمْه ، ومن قعد عنك فتعاهَدْه ، وانظر أهل العراق ، فإن سألوك عزل عامل فى كل يوم فاعزله ، فإنّ عزْلَ عامل واحد أهونُ من سلّ مائة ألف سيف ، [ثم] لا تدرى على من تكون الدائرة ؛ ثم انظر إلى أهل الشام ، فاجعلهم الشعار دون الدثار ؛ فإن رابك من عدوّك ريْبٌ فارمه بهم ، ثم أردد أهل الشام إلى بلدهم ولا يقيموا فى غيره فيتأدبوا بغير أدبهم؛ لست أخاف عليك إلا ثلاثة : الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر . فأما الحسين ابن على فأرجو أن يكفيكه الله بمَنْ قتل أباه وخذل أخاه ؛ وأما ابن الزبير فإنه خِبٌّ ضب ، فإن ظفرت به فقطِّعْهُ إرْباً إرْباً ؛ وأما ابن عمر فإنه رجل قد وقذه الورع ، فخلّ بينه وبين آخرته يُخلّ بينك وبين دنياك .

ثم أخرج إلى يزيد بريداً بكتاب يستقدمه ويستحثه ، فخرج مسرعا ، فتلقاه يزيد فأخبره بموت معاوية ، فقال يزيد :

جاء البريدُ بقِرْطاسٍ يَخُبُّ به * فأوجسَ القلبُ من قِرطاسهِ فزعا
قلنا لك الويْلُ ماذا فى صحيفتِكُمْ * قالوا الخليفةُ أمسَى مُثْبتاً وجِعا
فمادتِ الأرضُ أو كادتْ تَميدُ بنا * كأنّ أغبرَ من أركانها انقلَعا
ثمّ انبعَثْنا إلى خوصٍ مُزَمَّمةٍ * نَرْمِى الفِجاجَ بها ما تأتلى سَرَعا
فما نُبالى إذا بلّغن أرحُلَنا * ما ماتَ مِنهُنّ بالموْماةِ أو ظَلَعا
أوْدَى ابن هندٍ وأودَى المَجْدُ يتبعُهُ * كذاك كنّا جميعاً قاطِنِين معا
أغرُّ أبلجُ يُستسقى الغمامُ به * لو قارَع الناسَ عن أحلامهم قرَعا
لا يرقعُ الناسُ ما أوْهَى ولو جَهَدوا * أن يرقعوهُ ، ولا يُوهونَ ما رقعا

قال محمد بن عبد الحكم : قال الشافعى : سرق هذين البيتين من الأعشى .

ابن دأب قال : لما هلك معاوية خرج الضحاك بن قيس الفهرى وعلى عاتقه ثياب حتى وقف إلى جانب المنبر ، ثم قال :

أيها الناس ، إن معاوية كان إلف العرب وملكها ؛ فأطفأ الله به الفتنة وأحيا به السنة ، وهذه أكفانه ، ونحن مُدْرِجُوه فيها ومُخلّون بينه وبين ربه ؛ فمن أراد حضوره صلاةَ الظهر فليحضره .

وصلى عليه الضحاك بن قيس الفهرى ، ثم قدم يزيد من يومه ذلك ، فلم يُقدم أحدٌ على تعزيته حتى دخل عليه عبد الله بن همام السلولى فقال :

اصْبِرْ يزيد فقد فارقتَ ذا مِقةٍ ۞ واشكُرْ حِباء الذى بالمُلْكِ حاباكا

لا رُزْء أعظمُ فى الأقوامِ قد علِموا ۞ مِمَّا رُزِئتَ ولا عُقْبَى كعُقباكا

أصبحتَ راعِىَ أهلِ الأرضِ كلِّهِمُ ۞ فأنت ترعاهُمُ والله يَرعاكا

وفى مُعاويةَ الباقى لنا خلفٌ ۞ إذا نُعيت ولا نسمَعْ بِمَنْعاكا

فافتتح الخطباء الكلام .

ثم دخل يزيد فأقام ثلاثة أيام لا يخرج للناس ، ثم خرج وعليه أثر الحزن ، فصعد المنبر ، وأقبل الضحاك فجلس إلى جانب المنبر ، وخاف عليه الحَصَر ، فقال له يزيد : يا ضحاك ، أجئت تُعلِّم بنى عبد شمس الكلام ؟ ثم قام خطيبا فقال :

الحمد لله الذى ما شاء صنع ، من شاء أعطى ومن شاء منع ، ومن شاء خفض ومن شاء رفع . إن معاوية بن أبى سفيان كان حبلا من حبال الله ، مدّه ما شاء أن يمُدّه ، ثم قطعه حين شاء أن يقطعه ، وكان دون مَن قَبْله ، وخيرا ممن يأتى بعده ، ولا أُزكِّيه وقد صار إلى ربه ، فإن يعفُ عنه فبرحمته ، وإن يعذبه فبذنبه ؛ وقد وليتُ بعده الأمر ، ولست أعتذر من جهل ، ولا أنِى عن طلب ؛ وعلى رِسْلِكم ، إذا كره الله شيئاً غيّره وإذا أراد شيئاً يسّره .

خلافة يزيد بن معاوية وسنه وصفته

هو يزيد بن معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ؛ وأمّه ميسون بنت بحدل بن أُنيف بن دلجة بن قُنافة أحد بنى حارثة ابن جناب ، وكنيته أبو خالد .

٥ وكان آدم جعداً مهضوما ، أحور العين ، بوجهه آثار جدرى ، حسن اللحية خفيفها . ولى الخلافة فى رجب سنة ستين . ومات فى النصف من شهر ربيع الأوّل سنة أربع وستين ، ودفن بحُوّارين خارجا من المدينة . وكانت ولايته أربع سنين وأياما .

وكان على شرطته : حميد بن حريث بن بحدل . وكاتبه وصاحب أمره :
١٠ سرجون بن منصور . وعلى القضاء : أبو إدريس الخولانى . وعلى الخراج : مسلمة بن حديدة الأزدى .

أولاد يزيد

معاوية ، وخالد ، وأبو سفيان ، أمّهم فاختة بنت أبى هاشم بن عتبة بن ربيعة ؛ وعبد الله ، وعمر ، وأمهما أم كلثوم ابنة عبد الله بن عباس .

١٥ وكان عبد الله ولدُه ناسكا ، وولده خالد عالما ، لم يكن فى بنى أمية أزهد من هذا ولا أعلم من هذا .

الأصمعى عن أبى عمرو قال : أعرقُ الناس فى الخلافة عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبى سفيان : أبوها خليفة ، وجدُّها معاوية خليفة ، وأخوها معاوية بن يزيد خليفة ، وزوجها عبد الملك بن مروان خليفة ، وأربّاؤها : الوليد وسليمان
٢٠ وهشام ، خلفاء .

مقتل الحسين بن على

علىّ بن عبد العزيز قال : قرأ علىّ أبو عبيد القاسم بن سلام وأنا أسمع ، فسألته : نروى عنك كما قرئ عليك ؟ قال : نعم ، قال أبو عبيد : لما مات معاوية بن أبى سفيان وجاءت وفاته إلى المدينة ، وعليها يومئذ الوليد بن عتبة ، فأرسل إلى الحسين بن على وعبد الله بن الزبير ، فدعاهما إلى البيعة ليزيد ، فقالا : ٥ بالغد إن شاء الله على رءوس الناس . وخرجا من عنده ، فدعا الحسين برواحله فركبها وتوجه نحو مكة على المنهج الأكبر ، وركب ابن الزبير بِرْذَوْنا له وأخذ طريق العَرْج حتى قدم مكة ؛ ومرّ حسين حتى أتى على عبد الله بن مطيع وهو على بئر له ، فنزل عليه ، فقال للحسين : يا أبا عبد الله ، لا سقانا اللهُ بعدك ماء طيبا ، أين تريد ؟ قال : العراق ! قال : سبحان الله ! لِمَ ؟ قال : مات معاوية ، ١٠ وجاءنى أكثرُ من حِمْل صحف . قال لا تفعل أبا عبد الله ، فوالله ما حفظوا أباك وكان خيراً منك ، فكيف يحفظونك ؟ ووالله لئن قُتلت لا بقيت حرمةٌ بعدك إلا استُحِلَّتْ ! فخرج حسينٌ حتى قدم مكة ، فأقام بها هو وابن الزبير .

قال : فقدم عمرو بن سعيد فى رمضان أميراً على المدينة والموسم ، وعزل الوليد بن عتبة ؛ فلما استوى على المنبر رُعِفَ ، فقال أعرابىٌّ : مه ! جاءنا والله ١٥ بالدم ! قال : فتلقاه رجل بعمامته ، فقال : مه ! عم الناسَ والله ! ثم قام فخطب ، فناولوه عصا لها شعبتان ، فقال : تشعب الناسُ والله ! ثم خرج إلى مكة ، فقدمها قبل التروية بيوم .

ووفدت الناس للحسين يقولون : يا أبا عبد الله ، لو تقدمت فصليت بالناس فأنزلتهم بدارك ! إذ جاء المؤذن فأقام الصلاة ، فتقدم عمرو بن سعيد فكبر ، ٢٠ فقيل للحسين : اخرج أبا عبد الله إذ أبيت أن تتقدم . فقال : الصلاة فى الجماعة أفضل . قال : فصلى ، ثم خرج ، فلما انصرف عمرو بن سعيد بلغه أن حسيناً قد خرج ، فقال : اطلبوه ، اركبوا كل بعير بين السماء والأرض فاطلبوه !

قال : فعجب الناس من قوله هذا ، فطلبوه ، فلم يدركوه .

وأرسل عبدالله بن جعفر ابنيه عونًا ومحمداً ليردّا حسينا ، فأبى حسين أن يرجع وخرج بابنَى عبد الله بن جعفر معه .

ورجع عمرو بن سعيد إلى المدينة ، وأرسل إلى ابن الزبير ليأتيه ، فأبى أن يأتيه ، وامتنع ابن الزبير برجال من قريش وغيرهم من أهل مكة ، قال : فأرسل عمرو بن سعيد لهم جيشاً من المدينة ، وأمّر عليهم عمرو بن الزبير أخا عبد الله بن الزبير ، وضرب على أهل الديوان البعث إلى أهل مكة وهم كارهون للخروج ، فقال : إما أن تأتونى بأدلّاء وإما أن تخرجوا . قال : فبعثهم إلى مكة ، فقاتلوا ابن الزبير ، فانهزم عمرو بن الزبير وأسره أخوه عبد الله فحبسه فى السجن .

وقد كان بعَثَ الحسينُ بن على مُسْلِمَ بنَ عقيل بن أبى طالب إلى أهل الكوفة ليأخذ بيعتهم ، وكان على الكوفة حين مات معاوية ، فقال :

يأهل الكوفة ، ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبُّ إلينا من ابن بنت بحدل .

قال : فبلغ ذلك يزيد ؛ فقال : يأهل الشام ، أشيروا علىّ ، مَن أستعمِلُ على الكوفة ؟ فقالوا : ترضى من رضى به معاوية ؟ قال : نعم . قيل له : فإنّ الصك بإمارة عبيد الله بن زياد على العراقين قد كتب فى الديوان . فاستعمله على الكوفة ، فقدمها قبل أن يقدَمَ حسين .

وبايع مسلمَ بن عقيل أكثرُ من ثلاثين ألفاً من أهل الكوفة ، وخرجوا معه يريدون عبيد الله بن زياد ، فجعلوا كلما انتهوا إلى زقاق انسل منهم ناس ، حتى بَقِىَ فى شرذمة قليلة . قال : فجعل الناس يرمونه بالآجر من فوق البيوت ؛ فلما رأى ذلك دخل دار هانئ بن عروة المرادى ، وكان له شرف ورأى ؛ فقال له هانئ : إن لى من ابن زياد مكانا ، وإنى سوف أتمارض ، فإذا جاء يعودنى فاضرب عنقه . قال : فبلغ ابنَ زياد أنّ هانئ بن عروة مريض يقيء الدم ، وكان شرب

المَغْرَة فجعل يقيئها ، فجاء ابن زياد يعوده وقال هانئ : إذا قلت لكم اسقونى ، فاخرج إليه فاضرب عنقه — يقولها لمسلم بن عقيل — فلما دخل ابن زياد وجلس ، قال هانئ : اسقونى ! فتثبّطوا عليه ، فقال : ويحكم ! اسقونى ولو كان فيه نفسى ! قال : فخرج ابن زياد ولم يصنع الآخر شيئا . قال : وكان أشجعَ الناس ولكن أُخذ بقلبه . ٥

وقيل لابن زياد ما أراده هانئ ، فأرسل إليه ، فقال : إنى شاكٍ لا أستطيع . فقال : ائتونى به وإن كان شاكيا . فأسرجت له دابة فركب ومعه عصا ، وكان أعرجْ ، فجعل يسير قليلا قليلا ، ثم يقف ويقول : ما أذهب إلى ابن زياد . حتى دخل على ابن زياد فقال له : يا هانئ ، أما كانت يد زياد عندك بيضاء ؟ قال بلى . قال : ويدى ؟ قال : بلى . ثم قالُ له هانئ : قد كانت لك عندى ولأبيك وقد آمنتك ١٠ فى نفسك ومالك . قال : اخرج ، فخرج ، فتناول العصا من يده وضرب بها وجهه حتى كسرها ، ثم قدّمه فضرب عنقه .

وأرسل إلى مسلم بن عقيل ، فخرج إليهم بسيفه ، فما زال يقاتلهم حتى أثخنوه بالجراح ، فأسروه .

وأُتى به ابن زياد فقدمه ليضرب عنقه . فقال له : دعنى حتى أُوصِىَ . فقال ١٥ له : أوصِ . فنظر فى وجوه الناس ، فقال لعُمر بن سعد : ما أرى قرشيا هنا غيرك فادنُ منى حتى أُكلمك . فدنا منه ، فقال له هل لك أن تكون سيدَ قريش ما كانت قريش ؟ إن حسينا ومن معه ـ وهم تسعون إنسانا ما بين رجل وامرأة ـ فى الطريق ؛ فارددهم واكتب لهم بما أصابنى . ثم ضُرب عنقه ، فقال عمر لابن زياد : أتدرى ما قال لى ؟ قال اكتم على ابن عمك ! قال : هو أعظمُ من ذلك ٢٠ قال : وما هو ؟ قال : قال لى : إن حسينا أقبل [ومن معه] وهم تسعون إنسانا ما بين رجل وامرأة ؛ فارددهم واكتب إليه بما أصابنى .

فقال له ابن زياد : أما والله ـ إذ دللت عليه ـ لا يقاتله أحدٌ غيرك !

قال : فبعث معه جيشا وقد جاء حسينا الخبرُ وهم بشراف ، فهمّ بأن يرجع

ومعه خمسة من بنى عقيل ، فقالوا : ترجع وقد قُتل أخونا وقد جاءك من الكتب ما نثق به ؟ فقال الحسين لبعض أصحابه : والله مالى على هؤلاء من صبر .

قال : فلقيه الجيش على خيولهم وقد نزلوا بكربلاء ؛ فقال حسين : أى أرض هذه ؟ قالوا : كربلاء . قال : أرض كرب وبلاء !

٥ وأحاطت بهم الخيل ، فقال الحسين لعمر بن سعد : يا عمر ، اختر منى إحدى ثلاث خصال : إما أن تتركنى أرجع كما جئت ، وإما أن تسيِّرنى إلى يزيد فأضع يدى فى يده ، وإما أن تسيِّرنى إلى الترك أقاتلهم حتى أموت !

فأرسل إلى ابن زياد بذلك ، فهمّ أن يسيِّره إلى يزيد ، فقال له شمر بن ذى الجوشن : أمكنك الله من عدوك فتُسيِّره ! لا ، إلا أن ينزل على حكمك فأرسل ١٠ إليه بذلك ؛ فقال الحسين : أنا أنزل على حكم ابن مرجانة ؟ والله لا أفعل ذلك أبدا !

قال : وأبطأ عمر عن قتاله ، فأرسل ابن زياد إلى شمر بن ذى الجوشن ، وقال له : إن تقدم عمرُ وقاتلَ ، وإلا فاتركه وكن مكانه .

قال : وكان مع عمر بن سعد ثلاثون رجلا من أهل الكوفة ؛ فقالوا : يَعرض ١٥ عليكم ابنُ بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث خصال ، فلا تقبلوا منها شيئا؟ فتحولوا مع الحسين فقاتلوا [معه] .

ورأى رجلٌ من أهل الشام عبد الله بن حسن بن على وكان من أجمل الناس فقال : لأقتلن هذا الفتى ! فقال له رجل : ويحك ! ما تصنع به ؟ دعه . فأبى ، وحمل عليه فضربه بالسيف فقتله ، فلما أصابته الضربة قال : ياعماه ! قال : لبيك ٢٠ صوتاً قل ناصرُه ، وكثُرَ واتره ! وحمل الحسين على قاتله فقطع يده ، ثم ضربه ضربة أخرى فقتله ، ثم اقتتلوا .

على بن عبد العزيز قال : حدثنى الزبير قال : حدثنى محمد بن الحسن قال : لما نزل عمر بن سعد بالحسين وأيقن أنهم قاتلوه ، قام فى أصحابه خطيباً فحمد الله

وأثنى عليه ، ثم قال : قد نزل بى ما ترون من الأمر ، وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها واشمعلّت ، فلم يبق منها إلا صُبابة كصُبابة الإناء الأخنس عيش كالمرعى الوبيل ؛ ألا ترون الحق لا يُعمل به ، والباطل لا يُنهى عنه ؟ ليرغب المؤمنُ فى لقاء الله فإنى لا أرى الموت إلا سعادة ، و [لا] الحياة مع الظالمين إلا ذلا وبَرَما ! ٥

وقُتل الحسين رضى الله عنه يوم الجمعة يوم عاشوراء سنة إحدى وستين بالطف من شاطئ الفرات بموضع يدعى كربلاء .

ووُلد لخمس ليال من شعبان سنة أربع من الهجرة .

وقتل وهو ابن ست وخمسين سنة ، وهو صابغ بالسواد ، قتله سنان بن أبى أنس ، وأجهز عليه خولة بن يزيد الأصبحى من حمير ، وحزّ رأسه وأتى به ١٠ عبيدَ الله وهو يقول :

أوْقِر رِكابى فِضَّةً وذَهَبا * أنا قتلتُ المَلِكَ المحَجَّبا

خيرَ عبادِ ٱلله أُمّا وأبا

فقال له عبيد الله بن زياد : إذا كان خيرَ الناس أُمّا وأباً وخيرَ عباد الله ، فلم قتلته ؟ قدموه فاضربوا عنقَه ! فضربت عنقه . ١٥

روح بن زنباع عن أبيه عن الغاز بن ربيعة الجرشى قال : إنى لعند يزيد بن معاوية إذ أقبل زحر بن قيس الجعفى حتى وقف بين يدى يزيد ، فقال : ما وراءك يا زحر ؟ فقال :

أبشرك يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره ، قدم علينا الحسين فى سبعة عشر رجلا من أهل بيته ، وستين رجلا من شيعته ، فبرزنا إليهم وسألناهم أن يستسلموا ٢٠ وينزلوا على حكم الأمير أو القتال ، فأبوا إلا القتال ، فغدونا عليهم مع شروق الشمس ، فأحطنا بهم من كل ناحية ، حتى أخذت السيوف مأخذها من هام الرجال فجعلوا يلوذون منا بالآكام والحفر كما يلوذ الحمام من الصقر ، فلم يكن إلا نحر

جزور أو قومٌ قائم ، حتى أتينا على آخرهم : فهاتيك أجسامهم مجرّدة ، وهامُهم مُرمَّلة ، وخدودهم معفّرة ، تصهرهم الشمس ، وتسفى عليهم الريح بِقيّ سبسب ، زوّارهم العقبان والرخم !

قال : فدمعت عينا يزيد ، وقال : لقد كنت أقنع من طاعتكم بدون قتل

٥ الحسين ؛ لعن الله ابن سُمَيّة ! أما والله لو كنتُ صاحبَه لتركتُه ، رحم الله أبا عبد الله وغَفَر له .

على بن عبد العزيز عن محمد بن الضحاك بن عثمان الخزاعى عن أبيه ، قال : خرج الحسين إلى الكوفة ساخطا لولاية يزيد بن معاوية ، فكتب يزيد إلى عبيد الله ابن زياد وهو واليه بالعراق :

١٠ إنه بلغنى أن حسينا سار إلى الكوفة ، وقد ابتُلى به زمانُك بين الأزمان ، وبلدك بين البلدان ، وابتُليت به من بين العمال ، وعنده تعتق أو تعود عبدا

فقتله عبيد الله وبعث برأسه وثَقَله إلى يزيد ، فلما وضع الرأس بين يديه تمثل بقول حصين بن الحمام المرى :

يُفلِّقْنَ هاماً من رجالٍ أعِزّةٍ ... علينا وهم كانوا أعَقَّ وأظلَما

١٥ فقال له على بن الحسين ، وكان فى السبى : كتابُ الله أولى بك من الشعر ، يقول الله : ﴿ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فى الأَرْضِ ولا فى أَنْفُسِكُمْ إلا فى كِتَابٍ من قبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إنَّ ذلِكَ على اَللهِ يَسِيرٌ ، لِكَيْ لا تأْسَوْا على ما فاتَكمْ ولا تَفرَحُوا بما آتاكمْ واللهُ لا يُحِبُّ كلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ .

فغضب يزيد وجعل يعبث بلحيته ، ثم قال : غير هذا من كتاب الله أولى بك

٢٠ وبأبيك ، قال الله : ﴿وما أَصابَكُمْ من مُصيبَةٍ فبِما كسَبَتْ أَيْديكمْ ويَعْفُو عنْ كثِيرٍ﴾ ماترون ياأهل الشام فى هؤلاء .

فقال له رجل : لاتتخذ من كلب سوء جروا .

قال النعمان بن بشير الأنصارى : انظر ماكان يصنعه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم

بهم لو رآهم فى هذه الحالة فاصنعْه بهم .

قال : صدقت ، خلوا عنهم واضربوا عليهم القباب وأمال عليهم المطبخ وكساهم وأخرج إليهم جوائز كثيرة ، وقال : لو كان بين ابن مرجانة وبينهم نسبٌ ما قتلهم ؛ ثم ردّهم إلى المدينة .

٥ الرياشى قال : أخبرنى محمد بن أبى رجاء قال : أخبرنى أبو معشر عن يزيد بن زياد عن محمد بن الحسين بن على بن أبى طالب ، قال : أُتى بنا يزيد بن معاوية بعد ماقتل الحسين ونحن اثنا عشر غلاما ، وكان أكبرنا يومئذ على بن الحسين ، فأدخلنا عليه ، وكان كل واحد منا مغلولةً يدُه إلى عنقه ، فقال لنا : أحرزتْ أنفسكم عبيد أهل العراق ، وما علمتُ بخروج أبى عبد الله ولا بقتله .

١٠ أبو الحسن المدائنى عن إسحاق عن إسماعيل بن سفيان عن أبى موسى عن الحسن البصرى ، قال : قتل مع الحسين ستة عشر من أهل بيته ، والله ما كان على الأرض يومئذ أهل بيت يشبَّهون بهم . وحَمل أهل الشام بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا على أحقاب الإبل ، فلما أُدخلن على يزيد ، قالت فاطمة ابنة الحسين : يا يزيد ، أبنات رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا ؟ قال : بل حرائر كرام ، ادخلى على بنات عمك تجديهن قد فعلن ما فعلن ، قالت فاطمة : فدخلت إليهن ، ١٥ فما وجدت فيهن سفيانية إلا متلدِّمة تبكى ، وقالت بنت عقيل بن أبى طالب ترثى الحسين ومن أُصيب معه :

عيْنَىَ ابكى بعَبْرةٍ وعويلِ * واندُبى إنْ ندبْتِ آلَ الرسولِ

ستةٌ كلهُم لصُلْب علىّ * قد أُصيبوا وخمسةٌ لعقيلِ

٢٠ ومن حديث أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، قالت : كان عندى النبى صلى الله عليه وسلم ومعى الحسين ، فدنا من النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخذته ، فبكى فتركته ، فدنا منه ، فأخذته ، فبكى فتركته ؛ فقال له جبريل : أتحبه يا محمد ؟ قال : نعم ! قال : أما إن أمتَك ستقتله ، وإن شئت أريتُك من تربة الأرض التى يقتل بها ! فبسط جناحه ، فأراه منها ، فبكى النبى صلى الله عليه وسلم .

محمد بن خالد قال : قال إبراهيم النخعى : لو كنت فيمن قتل الحسين ودخلت الجنة لاستحييت أن أنظر إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ابن لهيعة عن أبى الأسود قال : لقيت رأس الجالوت ، فقال : إن بينى وبين داود سبعين أبا ، وإن اليهود إذا رأونى عظمونى وعرفوا حقى وأوجبوا حفظى ؛ وإنه ليس بينكم وبين نبيكم إلا أب واحد قتلتم ابنه !

ابن عبد الوهاب عن يسار بن عبد الحكم قال : انتُهب عسكر الحسين فوجد فيه طيب ، فما تطيبت به امرأة إلا برصت .

جعفر بن محمد عن أبيه قال : بايع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الحسنُ والحسين وعبد الله بن جعفر وهم صغار ، ولم يبايعْ قطُّ صغيرٌ إلا هم .

علىّ بن عبد العزيز عن الزبير عن مصعب بن عبد الله قال : حج الحسين خمسة وعشرين حجة ملبيا ماشيا .

وقيل لعلىّ بن الحسين : ما كان أقلَّ ولد أبيك ، قال : العجب كيف وُلِدْتُ له ! كان يصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة ، فتى كان يتفرغ للنساء ؟

يحى بن إسماعيل عن الشعبى أن سالما قال : قيل لأبى عبد الله بن عمر : إن الحسين توجه إلى العراق . فلحقه على ثلاث مراحل من المدينة — وكان غائباً عند خروجه — فقال : أين تريد ؟ فقال : أريد العراق . وأخرج إليه كُتُب القوم ، ثم قال : هذه بيعتُهم وكتُبُهم . فناشده الله أن يرجع ، فأبى ، فقال : أحدّثك بحديث ما حَدّثت به أحداً قبلك : إن جبريل أتى النبى صلى الله عليه وسلم يخيره بين الدنيا والآخرة ، فاختار الآخرة ، وإنكم بضعة منه ، فوالله لا يليها أحد من أهل بيته أبدا ؛ وما صرفها الله عنكم إلا لما هو خير لكم ؛ فارجع ، فأنت تعرف غَدْر أهل العراق وما كان يلقى أبوك منهم . فأبى ، فاعتنقه وقال : استودعتُك الله من قتيل .

وقال الفرزدق : خرجت أريد مكة ، فإذا بقباب مضروبة وفساطيط ، فقلت : لمن هذه ؟ قالوا : للحسين . فعدلت إليه فسلمت عليه ، فقال : من أين أقبلت ؟

قلت : من العراق . قال كيف تركت الناس ؟ قلت : القلوب معك ، والسيوف عليك ، والنصر من السماء !

تسمية من قتل مع الحسين بن على

رضى الله عنهما من أهل بيته ومن أسر منهم

قال أبو عبيد : حدثنا حجاج عن أبى معشر قال : قتل الحسين بن على ، وقتل معه عثمان بن على ، وأبو بكر بن على ، وجعفر بن على ، والعباس بن على . وكانت أمهم أم البنين بنت حَرام الكلابية ، وإبراهيم بن على ، لأم ولد له ، وعبد الله بن حسن ، وخمسة من بنى عقيل بن أبى طالب ، وعون ومحمد ابنا عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب ، وثلاثة من بنى هاشم ؛ فجميعهم سبعة عشر رجلا .

وأسِر اثنا عشر غلاما من بنى هاشم : فيهم محمد بن الحسين ، وعلى بن الحسين وفاطمة بنت الحسين ؛ فلم تقم لبنى حرب قائمة حتى سلبهم الله ملكهم .

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف : جنِّبنى دماء أهل هذا البيت ، فإنى رأيت بنى حرب سُلبوا ملكَهم لما قَتلوا الحسين .

حديث الزهرى فى قتل الحسين

رضى الله عنه

حدثنا أبو محمد عبد الله بن ميسرة قال : حدثنا محمد بن موسى الحرشى قال : حدثنا حماد بن عيسى الجهنى عن عمر بن قيس ، قال : سمعت ابن شهاب الزهرى يحدث عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم . . .

قال حماد بن عيسى : وحدثنى به عباد بن بشر عن عقيل عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « لا يُلْدَغ المؤمنُ مِن جُحْر مرتين » .

وقالا : قال الزهرى : خرجت مع قتيبة أريد المصيصة ، فقدمنا على أمير المؤمنين

عبد الملك بن مروان ، وإذا هو قاعد فى إيوان له ، وإذا سماطان من الناس على باب الإيوان فإذا أراد حاجة قالها للذى يليه ، حتى تبلغ المسألة باب الإيوان ، ولا يمشى أحد بين السماطين ؛ قال الزهرى : فجئنا فقمنا على باب الإيوان ؛ فقال عبد الملك للذى عن يمينه : هل بلغكم أى شىء أصبح فى بيت المقدس ليلةَ

٥ قتل الحسين ابن على ؟ قال : فسأل كلٌّ واحد منهما صاحبه حتى بلغت المسألة الباب ، فلم يرد أحدٌ فيها شيئا . قال الزهرى : فقلت : عندى فى هذا علم . قال : فرجعت المسألة رجلا عن رجل حتى انتهت إلى عبد الملك . قال : فدعيت ، فمشيت بين السماطين ، فلما انتهيت إلى عبد الملك سلمتُ عليه : فقال لى : من أنت ؟ قلت : أنا محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهرى ، قال : فعرفنى بالنسب ،

١٠ وكان عبد الملك طَلَّابة للحديث ، فعرفته ، فقال : ما أصبح ببيت المقدس يوم قتل الحسين بن على بن أبى طالب ؟ — وفى رواية على بن عبد العزيز عن إبراهيم بن عبد الله عن أبى معشر عن محمد بن عبد الله بن سعيد بن العاص عن الزهرى ، أنه قال : الليلة التى قتل فى صبيحتها الحسينُ بن على ؟ — قال الزهرى : نعم ، حدثنى فلان — لم يسمّه لنا — أنه لم يُرفع تلك الليلة التى صبيحتَها قُتِل الحسين بن على بن

١٥ أبى طالب ، حجرٌ فى بيت المقدس إلا وُجد تحته دم عبيط .

قال عبد الملك : صدقت ، حدثنى الذى حدثك ، وإنى وإياك فى هذا الحديث لغريبان . ثم قال لى : ما جاء بك ؟ قلت : جئت مرابطا . قال : الزم الباب . فأقمت عنده ، فأعطانى مالا كثيراً . قال : فاستأذنته فى الخروج إلى المدينة ، فأذن لى ومعى غلام لى ، ومعى مال كثير فى عيبة ، ففقدت العيبة ، فاتهمت الغلام ،

٢٠ فوعدته وتوعّدته ، فلم يقرّ لى بشىء . قال : فصرعته وقعدت على صدره ، ووضعت مرفقى على صدره ، وغمزته غمزة وأنا لا أريد قتله ، فمات تحتى .

وسُقط فى يدى ، فقدمت المدينة فسألت سعيد بن المسيب ، وأبا عبد الرحمن ، وعروة بن الزبير ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله ، فكلهم قال: لا نعلم لك توبة ! فبلغ ذلك علىّ بن الحسين ، فقال : علىّ به . فأتيته فقصصتُ

عليه القصة ، فقال : إنّ لذنبك توبة : صم شهرين متتابعين ، وأعتق رقبة مؤمنة ، وأطعم ستين مسكينا . ففعلت .

ثم خرجت أريد عبد الملك وقد بلغه أنى أتلفت المال ، فأقمت ببابه أياما لا يؤذَن لى بالدخول ، فجلست إلى معلم لولده ، وقد حذَق ابنٌ لعبد الملك عنده ، وهو يعلّمه ما يتكلم به بين يدى أمير المؤمنين إذا دخل عليه ، فقلت لمؤدّبه : ما تأمل من أمير المؤمنين أن يصلك به ؛ فلَك عندى ذلك على أن تُكلِّمَ الصبىّ إذا دخل على أمير المؤمنين ، فإذا قال له : سل حاجتك ، يقول له : حاجتى أن ترضى عن الزهرى . ففعل ، فضحك عبد الملك وقال : أين هو ؟ قال : بالباب . فأذن لى فدخلت ، حتى إذا صرتُ بين يديه ، قلت : يا أمير المؤمنين ، حدّثنى سعيدُ بن المسيب عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِن جُحرٍ مَرَّتَيْنِ »

وقعة الحَرّة

أبو اليقظان قال : لما حضرت معاوية الوفاةُ دعا يزيد ، فقال : إن لك من أهل المدينة يوماً ، فإذا فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة ، فإنه رجل قد عرّفْنا نصيحته .

فلما كان سنة ثلاث وستين ، قدم عثمان بن محمد بن أبى سفيان المدينة عاملا عليها ليزيد بن معاوية ، وأوفد على يزيد وفدا من رجال المدينة ، فيهم عبد الله بنُ حنظلة غسيل الملائكة ، معه ثمانية بنين ، فأعطاه مائة ألف ، وأعطى بنيه كلَّ رجل منهم عشرة آلاف ، سوى كسوتهم وحُملانهم ؛ فلما قدم عبد الله بن حنظلة المدينة ، أتاه الناس فقالوا : ما وراءك ؟

قال : أتيتكم من عند رجلٍ والله لو لم أجد إلا بَنِىّ هؤلاء لجاهدته بهم !

قالوا : فإنه قد بلغنا أنه أكرمك وأجازك وأعطاك !

قال : قد فعل ، وما قبلت ذلك منه إلا أن أتقوى به عليه . أى على قتال يزيد.

وحضّ الناس على يزيد ، فأجابوه ، فكتب عثمان بن محمد إلى يزيد بما أجمع عليه أهل المدينة من الخلاف ، فكتب إليهم يزيد بن معاوية :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فـ﴿ إنّ الله لا يُغيِّرُ ما بقوْمٍ حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم ، وإذا أرادَ الله بقوْمٍ سوءًا فلا مَرَدّ له وما لهُمْ من دونِه من والٍ ﴾

٥ وإنى قد لبستكم فأخلقتكم ورفعتكم على رأسى ، ثم على عينى ، ثم على فمى ، ثم على بطنى ؛ والله لئن وضعتكم تحت قدمى لأطأنّكم وطأةً أُقِلُّ بها عددَكم ، وأتركُكم بها أحاديث ؛ تُنْتَسخُ أخبارُكم مع أخبار عاد وثمود !

فلما أتاهم كتابه حَمِيَ القوم ، فقدمت الأنصارُ عبد الله بن حنظلة على أنفسهم وقدمت قريشٌ عبدَ الله بن مطيع ؛ ثم أخرجوا عثمان بن محمد بن أبى سفيان من

١٠ المدينة ، ومروان بنَ الحكم ، وكلَّ من كان بها من بنى أمية ؛ وكان عبد الله بن عباس بالطائف ، فسأل عنهم فقيل له : استعمَلوا عبد الله بن مطيع على قريش ، وعبد الله بن حنظلة على الأنصار . فقال : أميران ! هلك القوم !

ولما بلغ يزيدَ مافعلوا ، أمر بقبة فضُربت له خارجا عن قصره ، وقطع البعث على أهل الشام ، فلم تمض ثالثة حتى توافت الحشود ، فقدم عليهم مسلمَ

١٥ ابن عقبة المرى ، فتوجه إليهم ـ وقد عمد أهل المدينة فأخرجوا إلى كل ماء لهم بينهم وبين الشام فصبُّوا فيه زقًّا من قطران وعوّروه ؛ فأرسل الله عليهم المطر ، فلم يستقوا شيئاً حتى وردوا المدينة .

قال أبو اليقظان وغيره : إن يزيد بن معاوية ولى مسلم بن عقبة وهو قد اشتكى ، فقال له : إن حدث بك حدث فاستعمل حصين بن نمير .

٢٠ فخرج حتى قدم المدينة ، فخرج إليه أهلها فى عدة وهيئة وجموع كثيرة لم يُر مثلها ؛ فلما رآهم أهل الشام هابوهم وكرهوا قتالهم ؛ فأمر مسلم بن عقبة بسريره فوضع بين الصفين وهو عليه مريض وأمر مناديا ينادى : قاتلوا عن أميركم أو دعوا لجد الناس فى القتال ، فسمعوا التكبير من خلفهم فى جوف المدينة ، فإذا قد اقتحم عليهم بنو حارثة أهلَ الشام وهم على الجدّ ، فانهزم الناس ، وعبد الله

ابن حنظلة متساند إلى بعض بنيه يغط نوما ، فلما فتح عينيه فرأى ما صنعوا أمَرَ أكبَر بنيه ! فتقدم حتى قُتِل ، فلم يزل يقدم واحداً واحداً حتى أتى على آخرهم ، ثم كسر غمد سيفه ، وقاتل حتى قتل !

ودخل مسلم بن عقبة المدينة ، وتغلب على أهلها ، ثم دعاهم إلى البيعة على أنهم خوَلٌ ليزيد بن معاوية يحكم فى دمائهم وأموالهم وأهليهم ؛ فبايعوا حتى أتى ٥ بعبد الله بن زمعة ، فقال له : بايع على أنك خوَل لأمير المؤمنين يحكم فى مالك ودمك وأهلك ! قال : لن أبايع على أنى يزعم أمير المؤمنين يحكم فى دمى ومالى وأهلى . فقال مسلم بن عقبة : اضربوا عنقه . فوثب مروان بن الحكم فضمه إليه وقال : تبايعك على ما أحببت . فقال : لا والله لا أقيلها إياه أبدا ؛ إن تنحّى وإلا فاقتلوهما جميعاً ، فتركه مروان ، وضرب عنقه . ١٠

وهرب عبد الله بن مطيع حتى لحق بمكة ، فكان بها حتى قتل مع عبد الله بن الزبير فى أيام عبد الملك بن مروان ، وجعل يقاتل أهل الشام وهو يقول :

أنا الذى فررْتُ يومَ الحرّهْ * والشّيْخ لا يفرُّ إلّا مَرّهْ

فاليومَ أجزى كرّةً بِفرّهْ * لا بأس بالكرّةِ بعد الفرّهْ

أبو عقيل الدَّوْرقى قال : سمعت أبا نضرة يحدث ، قال : دخل أبو سعيد ١٥ الخدرى يوم الحرّة فى غار ، فدخل عليه رجل من أهل الشام ، وفى عنق أبى سعيد السيف ، فوضع أبو سعيد السيف وقال : بُؤْ بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين ! فقال : أبو سعيد الخدرىّ أنت ؟ قال : نعم . قال : فاستغفر لى ! قال : غفر الله لك .

وأمر مسلم بن عقبة بقتل معقل بن سنان الأشجعى صبراً ، ومحمد بن أبى ٢٠ الجهم العدوىّ صبراً .

وكان جميع من قتل يوم الحرة من قريش والأنصار ثلثمائة رجل وستة رجال ، ومن الموالى وغيرهم أضعاف هؤلاء .

وبعث مسلم بن عقبة برءوس أهل المدينة إلى يزيد ، فلما أُلقيت بين يديه جعل

يتمثل بقول ابن الزبعرى يوم أحد :

لَيتَ أَشياخِى ببدْرٍ شَهِدُوا ۞ جَزَعَ الخزرَجِ مِنْ وقْعِ الأَسَلْ

لأَهَلُّوا وَاستَهَلُّوا فَرَحًا ۞ وَلَقَالوا لِيَزيد لا فشل

فقال له رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارتددت عن الإسلام يا أمير المؤمنين ! قال : بلى نستغفر الله . قال : والله لا ساكنتك أرضاً أبدا . وخرج عنه .

ولما انقضى أمرُ الحرة توجه مسلم بن عقبة بمن معه من أهل الشام إلى مكة يريد ابن الزبير وهو ثقيل ، فلما كان بالأبواء حضره أجله ، فدعا حصين بن نمير ، فقال له : إنى أرسلت إليك ، فلا أدرى أقدّمك على هذا الجيش ، أو أقدّمك فأضرب عنقك ! قال : أصلحك الله ، أنا سهمك ، فارم بى حيث شئت . قال : إنك أعرابى جلف جاف ، وإنّ هذا الحى من قريش لم يمكّنهم أحدٌ قط من أذنه إلا غلبوه على رأيه ، فسر بهذا الجيش ، فإذا لقيت القوم ، فإياك أن تمكنهم من أذنك ، لا يكن إلا على الوقاف ، ثم الثقاف ، ثم الانصراف .

ومات مسلم بن عقبة لا رحمه الله ، ومضى حصين بن نمير بجيشه ذلك ، فلم يزل محاصراً لأهل مكة حتى مات يزيد ، لا رحمه الله ؛ وذلك خمسون يوما ونصب المجانيق على الكعبة وأحرقها يوم الثلاثاء لخمس خلون من ربيع الأول سنة أربع وستين ، وفيها مات يزيد بن معاوية بحوارين .

وفاة يزيد بن معاوية

مات يزيد بن معاوية بحوارين من بلاد حمص ، وصلى عليه ابنه معاوية بن يزيد بن معاوية ليلة البدر فى شهر ربيع الأول . وأم يزيد : ميسون بنت بحدل الكلبي . ومات وهو ابن ثمان وثلاثين سنة . وكانت ولايته ثلاث سنين وتسعة أشهر واثنين وعشرين يوما .

خلافة معاوية بن يزيد بن معاوية

واستخلف معاوية بن يزيد بن معاوية فى شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ، وهو ابن إحدى وعشرين سنة ، ومات بعد أبيه بأربعين يوما ، ولم يزل مريضاً طول ولايته ، لا يخرج من بيته ، فلما حضرته الوفاة قيل له : لو عهدتَ إلى رجل من أهل بيتك واستخلفت خليفة ! قال : لم أنتفع بها حيًا فلا أقلدها ميتا ؛ لا يذهب بنو أمية بحلاوتها وأتجرّع مرارتها ؛ ولكن إذا مِتُّ فليصلّ علىّ الوليد ابن عتبة ، وليصل بالناس الضحاك بن قيس ، حتى يختار الناس لأنفسهم . فلما مات صلى عليه الوليد بن عتبة ، وصلى بالناس الضحاك بن قيس بدمشق ، حتى قامت دولة بنى مروان .

فتنة ابن الزبير

قال علىّ بن عبد العزيز : حدثنا أبو عبيد عن حجاج عن أبى معشر ، قال : لما مات مسلم بن عقبة سار حصين بن نمير ، حتى أتى مكة وابن الزبير بها ، فدعاهم إلى الطاعة فلم يجيبوه ، فقاتلهم ، وقاتله ابن الزبير ؛ فقُتل المنذر بن الزبير يومئذ ورجلان من إخوته ، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف ، والمسور بن مخرمة ؛ وكان حصين بن نمير قد نصب المجانيق على أبى قُبيس وعلى قعيقعان ، فلم يكن أحد يقدر أن يطوف بالبيت ؛ فأسند ابن الزبير ألواحا من ساج على البيت ، وألقى عليها الفرش والقطائف ، فكان إذا وقع عليها الحجر نبا عن البيت ، فكانوا يطوفون تحت تلك الألواح ، فإذا سمعوا أصوات الحجر حين يقع على الفرش والقطائف كبّروا ؛ وكان ابن الزبير قد ضرب فسطاطا فى ناحية ، فكلما جرح رجل من أصحابه أدخله ذلك الفسطاط ، فجاء رجل من أهل الشام بنار فى طرف سنانه ، فأشعلها فى الفسطاط ، وكان يوما شديد الحرّ ، فتمزق الفسطاط ، فوقعت النار على الكعبة فاحترق الخشب والسقف ، وانصدع الركن واحترقت الأستار وتساقطت إلى الأرض . قال : ثم اقتتلوا مع أهل الشام

أياما بعد حريق الكعبة .

قال أبو عبيد : احترقت الكعبة يوم السبت لستٍّ خلون من ربيع الأول سنة أربع وستين ، فجلس أهل مكة فى جانب الحِجْر ومعهم ابن الزبير ، وأهل الشام يرمونهم بالنبل والحجارة ، فوقعت نبلة بين يدى ابن الزبير ، فقال : فى هذه خبر ! فأخذها فوجد فيها مكتوبا : مات يزيد بن معاوية يوم الخميس لأربع عشرة خلت من ربيع الأول . فلما قرأ ذلك قال : يا أهل الشام ، يا أعداء الله ، ومحرقى بيت الله ، علام تقاتلون وقد مات طاغيتكم !

فقال حصين بن نمير : موعدك البطحاء الليلة أبا بكر .

فلما كان الليل ، خرج ابن الزبير بأصحابه ، وخرج حصين بأصحابه إلى البطحاء ، ثم ترك كلٌّ واحد منهما أصحابه ، وانفردا فنزلا ؛ فقال حصين : يا أبا بكر ، أنا سيد أهل الشام لا أدافَع ، وأرى أهل الحجاز قد رضوا بك ؛ فتعال أبايعك الساعة ويُهدر كل شيء أصبناه يوم الحرة ، وتخرج معى إلى الشام ، فإنى لا أحب أن يكون المُلك بالحجاز . فقال : لا والله لا أفعل ، ولا آمن مَن أخافَ الناسَ وأحرق بيت الله وانتهك حرمته ! قال : بل فافعل على أن لا يختلف عليك اثنان . فأبى ابن الزبير ؛ فقال له حصين : لعنك الله ولعن من زعم أنك سيد ، والله لا تفلح أبدا ! اركبوا يا أهل الشام . فركبوا وانصرفوا .

أبو عبيد عن الحجّاج عن أبى معشر قال : حدثنا بعض المشيخة الذين حضروا قتال ابن الزبير ، قال : غلب حصين بن نمير على مكة كلها إلا الحِجر ، قال : فوالله إنى لجالس عنده ومعه نفر من القرشيين : عبد الله بن مطيع ، والمختار بن أبى عبيد ، والمسور بن مخرمة ، والمنذر بن الزبير ، إذ هَبَّتْ رويحة ؛ فقال المختار : والله إنى لأرى فى هذه الرويحة النصر ، فاحملوا عليهم . فحملوا عليهم حتى أخرجوهم من مكة ، وقتل المختار رجلا ، وقتل ابن مطيع رجلا . ثم جاءنا على أثر ذلك موت يزيد بعد حريق الكعبة بإحدى عشرة ليلة .

وانصرف حصين بن نمير وأصحابه إلى الشام ، فوجدوا معاوية بن يزيد

قد مات ولم يستخلف ، وقال : لا أتحملها حيا وميتا .

فلما مات معاوية بن يزيد ، بايع أهل الشام كلهم ابنَ الزبير ، إلا أهل الأُردن ؛ وبايع أهلُ مصر أيضاً ابنَ الزبير ، واستخلف ابن الزبير الضحاك بن قيس الفهرى على أهل الشام . فلما رأى ذلك رجالُ بنى أمية وناس من أشراف أهل الشام ووجوههم، منهم روح بن زنباع وغيره ، قال بعضهم لبعض : إنّ المُلك كان فينا أهلَ الشام ، فانتقل عنا إلى الحجاز ؛ لا نرضى بذلك ؛ هل لكم أن تأخذوا رجلا منا فينظر فى هذا الأمر . فقال [روح بن زنباع] : استخيروا الله . قال : فرأى القوم أنه غلام حدث السنّ فخرجوا من عنده وقالوا : هذا حَدَثٌ . فأتوا عمرو بن سعيد بن العاص ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر . فرأوه حَدَثا ، فجاءوا إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر . فرأوه حدثا حريصاً على هذا الأمر ؛ فلما خرجوا من عنده قالوا : هذا حدثٌ . فأتوا مروان بن الحكم ، فإذا عنده مصباح ، وإذا هم يسمعون صوته بالقرآن ، فاستأذنوا ودخلوا عليه ، فقالوا : يا أبا عبد الملك ، ارفع رأسك لهذا الأمر . فقال : استخيروا اللهَ ، واسألوا أن يختار لأمة محمد صلى الله عليه وسلم خيرَها وأعْدَلَها . فقال له روح بن زنباع : إن معى أربعمائة من جُذام ، فأنا آمرهم أن يتقدموا فى المسجد غدا ، ومر أنت ابنك عبد العزيز أن يخطب الناس ويدعوهم إليه ؛ فإذا فعل ذلك تنادوا من جانب المسجد : صدقت ، صدقت ! فيظنّ الناس أنّ أمْرَهم واحد . . .

فلما اجتمع الناس ، قام عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ما أحدٌ أولى بهذا الأمر من مروان كبير قريش وسيدها ، والذى نفسى بيده ، لقد شابت ذراعاه من الكبر . فقال الجذاميون : صدقت صدقت ! فقال خالد بن يزيد : أمر دُبِّرَ بليل .

فبايعوا مروان بن الحكم ، ثم كان من أمره مع الضحاك بن قيس بمرج راهط ما سيأتى ذكره بعد هذا فى دولة بنى مروان .

دولة بنى مروان

ووقعة مرج راهط

أبو الحسن قال : لما مات معاوية بن يزيد ، اختلف الناس بالشام ، فكان أول من خالف من أمراء الأجناد النعمان بن بشير الأنصارى ، وكان على حمص فدعا لابن الزبير ، فبلغ خبره زفر بن الحرث الكلابى وهو بقنّسرين ، فدعا إلى ابن الزبير أيضا بدمشق سرا ، ولم يُظهر ذلك لمن بها من بنى أمية وكلب ؛ وبلغ ذلك حسان بن مالك بن بحدل الكلبي وهو بفلسطين ؛ فقال لروح بن زنباع : إنى أرى أمراء الأجناد يبايعون لابن الزبير ، وأبناء قيس بالأردن كثير ، وهم قومى ؛ فأنا خارج إليها وأقم أنت بفلسطين ، فإنّ جل أهلها قومك من لخم وجذام ، فإن خالفك أحد فقاتله بهم .

فأقام روح بفلسطين ، وخرج حسان إلى الأردن ، فقام ناتل بن قيس الجُذامى فدعا إلى ابن الزبير ، وأخرج روح بن زنباع من فلسطين ، ولحق بحسان بالأردن فقال حسان : يا أهل الأردن ، قد علمتم أن ابن الزبير فى شقاق ونفاق وعصيان لخلفاء الله ، ومفارقةٍ لجماعة المسلمين ؛ فانظروا رجلا من بنى حرب فبايعوه فقالوا : اختر لنا من شئت من بنى حرب ، وجنِّبنا هذين الرجلين الغلامين : عبد الله وخالداً ابنى يزيد بن معاوية ؛ فإنا نكره أن يدعو الناس إلى شيخ ، ونحن ندعو إلى صبىّ . وكان هوى حسان فى خالد بن يزيد ، وكان ابنَ أخته ؛ فلما رموه بهذا الكلام أمسك ، وكتب إلى الضحاك بن قيس كتابا يعظم فيه بنى أمية وبلاءهم عنده ، ويذم ابن الزبير ويذكر خلافه للجماعة ، وقال لرسوله : اقرأ الكتاب على الضحاك بمحضر بنى أمية وجماعة الناس . فلما قرأ كتاب حسان ، تكلم الناس فصاروا فرقتين ، فصارت اليمانية مع بنى أمية ، والقيسية زبيرية ، ثم اجتلدوا بالنعال ، ومشى بعضهم إلى بعض بالسيوف ، حتى حجز بينهم خالد بن يزيد ، ودخل الضحاك دار الإمارة فلم يخرج ثلاثة أيام .

وقدم عبيد الله بن زياد فكان مع بنى أمية بدمشق ، فخرج الضحاك بن قيس إلى المرج ـ مرج راهط ـ فعسكر فيه ، وأرسل إلى أمراء الأجناد فأتوه ، إلا ما كان من كلب ؛ ودعا مروان إلى نفسه ، فبايعته بنو أمية ، وكلب ، وغسان ، والسكاسك وطيّ ؛ فعسكر فى خمسة آلاف ، وأقبل عباد بن يزيد من حوران فى ألفين من مواليه وغيرهم من بنى كلب ، فلحق بمروان وغلب يزيد بن أبى نمس على دمشق فأخرج منها عامل الضحاك ، وأمد مروان برجال وسلاح كثير .

وكتب الضحاك إلى أمراء الأجناد ، فقدم عليه زفر بن الحرث من قنسرين وأمده النعمان بن بشير بشرحبيل بن ذى الكلاع فى أهل حمص ، فتوافوا عند الضحاك بمرج راهط ، فكان الضحاك فى ستين ألفا ، ومروان فى ثلاثة عشر ألفا ، أكثرهم رجالة ، وأكثر أصحاب الضحاك ركبان ؛ فاقتتلوا بالمرج عشرين يوما ، وصبر الفريقان ، وكان على ميمنة الضحاك زياد بن عمرو بن معاوية العقيلى ، وعلى ميسرته بكر بن أبى بشير الهلالى ؛ فقال عبيد الله بن زياد لمروان : إنك على حق ، وابن الزبير ومن دعا إليه على الباطل ، وهم أكثر منا عَدداً وعُددا ، ومع الضحاك فرسان قيس ؛ واعلم أنك لا تنال منهم ماتريد إلا بمكيدة ، وإنما الحرب خدعة ، فادعهم إلى الموادعة ، فإذا أمنوا وكفّوا عن القتال فكُرَّ عليهم . فأرسل مروان السُّفراء إلى الضحاك يدعوه إلى الموادعة ووضع الحرب حتى تنظر . فأصبح الضحاك والقيسية قد أمسكوا عن القتال ، وهم يطمعون أن يبايع مروان لابن الزبير ، وقد أعد مروان أصحابه ، فلم يشعر الضحاك وأصحابه إلا والخيل قد شدت عليهم ، ففزع الناس إلى راياتهم من غير استعداد وقد غشيتهم الخيل ، فنادى الناس : أبا أنيس ، أعَجْز بعد كَيْس ، وكنية الضحاك : أبو أنيس ، فاقتتل الناس ، ولزم الناس راياتهم ، فترجّل مروان وقال : قبح الله من ولاهم اليومَ ظهرَه حتى يكونَ الأمرُ لإحدى الطائفتين . فقُتل الضحاك بن قيس ، وصبرت قيس عند راياتها يقاتلون ، فنظر رجل من بنى عقيل إلى ماتلقى قيس عند راياتها من القتل ، فقال : اللهم العنها من رايات ! واعْتَرضَها بسيفه ، فجعل يقطعها ،

فإذا سقطت الراية تفرق أهلها ، ثم انهزم الناس فنادى منادى مروان : لا تتبعوا من ولّاكم اليوم ظهره .

فزعموا أن رجالا من قيس لم يضحكوا بعد يوم المرج ، حتى ماتوا جزعا على من أصيب من فرسان قيس يومئذ ، فقتل من قيس يومئذ ممن كان يأخذ شرف العطاء ، ثمانون رجلا ، وقتل من بنى سليم ستمائة ، وقتل لمروان ابنٌ يقال له عبد العزيز ، وشهد مع الضحاك يوم مرج راهط عبد الله بن معاوية بن أبى سفيان ، فلما انهزم الناس ، قال له عبيد الله بن زياد : ارتدف خلفى . فارتدف ، فأراد عمرو بن سعيد أن يقتله ، فقال له عبيد الله بن زياد : ألا تكفي بالطيم الشيطان ؟

وقال زفر بن الحارث وقد قُتل ابناه يوم المرج :

لعَمْرى لقدْ أبقتْ وقيعَةُ راهطٍ * لِمرْوانَ صدْعًا بيِّنا مُتنائيا

فــلمْ تَرَ مِنى زَلة قبْلَ هٰذِهِ * فِرارِى وترْكِى صاحِبَىَّ ورَائِيا

أيذهَبُ يومٌ واحِدٌ إن أسأْتُهُ * بِصالِحِ أيامِى وحُسْنِ بلائِيا

أنتْرُكُ كلباً لم تَنلْها رماحُنا * وتَذْهبُ قتْلَى راهِطٍ وهْىَ ماهِيا

وقدْ تَنْبُتُ الخضْراءُ فى دِمَنِ الثَّرى * وتبْقى حَزازَتُ النُّفوسِ كما هِيا

فلا صُلحَ حتى تُدْعَسَ الخيْلُ بالقَنا * وتثْأرَ من أبناءِ كلبٍ نِسائيا

فلما قتل الضحاك وانهزم الناس : نادى مروان أن لا يُتَّبَع أحد ، ثم أقبل إلى دمشق فدخلها ، ونزل دارَ معاوية بن أبى سفيان دار الإمارة ؛ ثم جاءته بيعة الأجناد فقال له أصحابه : إنا لا نتخوف عليك إلا خالدَ بن يزيد ، فتزوج أُمّه ؛ فإنك تكسره بذلك - وأمه ابنة أبى هاشم بن عتبة بن ربيعة - فتزوجها مروان ، فلما أراد الخروج إلى مصر قال لخالد : أعِرْنى سلاحا إن كان عندك . فأعاره سلاحا .

وخرج إلى مصر ، فقاتل أهلها وسبى بها ناساً كثيرا ، فافْتَدَوْا ؛ منه ثم قدم الشام ، فقال له خالد بن يزيد : ردّ علىّ سلاحى . فأبى عليه ، فألح عليه خالد ،

فقال له مروان ، وكان فحاشا : يابن رَطبة الاست ! قال : فدخل إلى أمه فبكى عندها وشكا إليها ما قاله مروان على رءوس أهل الشام ، فقالت له : لا عليك ، فإنه لا يعود إليك بمثلها .

فلبث مروان بعد ما قال لخالد ما قال أياما ، ثم جاء إلى أم خالد فرقد عندها فأمرت جواريها فطرحن عليه الشوادك ثم غطته حتى قتلته ، ثم خرجن فصحن وشققن ثيابهن : يا أمير المؤمنين ! يا أمير المؤمنين !

ثم قام عبد الملك بالأمر بعده ، فقال لفاختة أم خالد : والله لولا أن يقول الناس إنى قتلت بأبى امرأة لقتلتك بأمير المؤمنين .

ووُلد مروان بن الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بمكة .

ومات بالشام لثلاث خلون من رمضان سنة خمس وستين ، وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وصلى عليه ابنه عبد الملك بن مروان . وكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية عشر يوما . وكان على شرطته يحيى بن قيس الشيبانى . وكاتبه سرجون ابن منصور الرومى . وحاجبه أبو سهل الأسود مولاه .

ولاية عبد الملك بن مروان

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن العاص بن أمية ، ويكنى : أبا الوليد ويقال له أبو الأملاك ؛ وذلك أنه ولى الخلافة أربع من ولده : الوليد ، وسليمان ، ويزيد ، وهشام . وكان تدمى لثته فيقع عليها الذباب ، فكان يلقب : أبا الذباب .

أمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية .

وله يقول ابن قيس الرقيات :

أنت ابن عائشة التى * فضَلَتْ أرُومَ نسائها
لمْ تَلْتفِت لِلدَاتِها * ومضت على غلوائها
ولَدتْ أغرّ مُباركا * كالشمس وسْط سمائها

وبويع عبد الملك بدمشق لثلاث خلون من رمضان سنة خمس وستين .

ومات بدمشق للنصف من شوال سنة ست وثمانين ؛ وهو ابن ثلاث وستين سنة ، فصلى عليه الوليد بن عبد الملك .

وولد عبد الملك بالمدينة سنة ثلاث وعشرين ، ويقال سنة ست وعشرين ، ويقال ولد لسبعة أشهر .

٥ وكان على شرطته : ابن أبي كبيشة السكسكى ، ثم أبو نائل بن رباح بن عبيدة الغسانى ثم عبد يزيد الحكمى ، وعلى حرسه : الريان .

وكاتبه على الخراج والجند : سرجون بن منصور الرومى ، وكاتبه على الرسائل : أبو زرعة مولاه ، وعلى الخاتم : قبيصة بن ذؤيب ، وعلى بيوت الأموال والخزائن : رجاء بن حيوة .

١٠ وحاجبه أبو يوسف مولاه .

ومات عبد الملك سنة ست وثمانين ، وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وصلى عليه الوليد ابنه .

وكانت ولايته منذ اجتُمع عليه ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر .

ودفن خارج باب المدينة .

١٥ وفى أيام عبد الملك حُوّلت الدواوين إلى العربية عن الرومية والفارسية حوّلها من الرومية سليمان بن سعد مولى خُشين ، وحوّلها عن الفارسية صالح بن عبد الرحمن مولى عتبة ، امرأة من بنى مرة ، ويقال حُوّلت فى زمن الوليد .

ابن وهب عن ابن لهيعة قال : كان معاوية فرض للموالى خمسة عشر ، فبلغهم عبد الملك عشرين ، ثم بلغهم سليمان خمسة وعشرين ، ثم قام هشام فأتم للأبناء

٢٠ منهم ثلاثين . . .

وكتب عبد الله بن عمر إلى عبد الملك بن مروان ببيعته لما قتل ابن الزبير ، وكان كتابه إليه يقول :

لعبد الملك بن مروان من عبد الله بن عمر ، سلام عليك ؛ فانى أقررت لك

بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وبيعة نافع مولاى على مثل ما بايعتك عليه .

وكتب محمد بن الحنفية ببيعته لما قتل ابن الزبير ، وكان فى كتابه :

إنى اعتزلت الأمة عند اختلافها ، فقعدت فى البلد الحرام الذى من دخله كان آمنا ، لأحْرِز دينى ، وأمنع دمى ، وتركت الناس ﴿ قُل كُلٌّ يَعْمَل على شاكِلَتِه فربُّكُمْ أعلَمُ بِمَنْ هو أهْدَى سَبيلًا ﴾ . وقد رأيت الناس قد اجتمعوا عليك ، ونحن عصابة من أمتنا لا نفارق الجماعة ؛ وقد بعثت إليك منا رسولا ليأخذ لنا منك ميثاقا ، ونحن أحق بذلك منك ، فإن أبيت فأرض الله واسعة ، والعاقبة للمتقين .

فكتب إليه عبد الملك : قد بلغنى كتابك بما سألته من الميثاق لك وللعصابة التى معك ، فلك عهد الله وميثاقه أن لا تُهاج فى سلطاننا ، غائباً ولا شاهداً ولا أحد من أصحابك ما وَفَوْا ببيعتهم ، فإن أحببت المقام بالحجاز فأقم ، فلن نَدع صلتك وبرّك ؛ وإن أحببت المقام عندنا فاشْخَص إلينا ، فلن نَدَع مواساتك ؛ ولعمرى لئن ألجأناك إلى الذهاب فى الأرض خائفاً لقد ظلمناك وقطعنا رحِمَك ؛ فاخرج إلى الحجاج فبايع ، فإنك أنت المحمود عندنا ديناً ورأيا ، وخير من ابن الزبير وأرضى وأتقى .

وكتب إلى الحجاج بن يوسف :

لا تعْرِض لمحمد ولا لأحدٍ من أصحابه .

وكان فى كتابه :

جنِّبْنى دماء بنى عبد المطلب ؛ فليس فيها شفاء من الحرب ؛ وإنى رأيت بنى حرب سُلِبوا مُلكَهم لما قتلوا الحسين بن على .

فلم يتعرض الحجاج لأحد من الطالبيين فى أيامه .

أبو الحسن المدائنى قال : كان يقال : معاوية أحلم ، وعبد الملك أحزم .

وخطب الناسَ عبد الملك فقال : أيها الناس إنى والله ما أنا بالخليفة

المستَضْعَف — يريد عثمان بن عفان — ولا بالخليفة المداهن — يريد معاوية بن أبى سفيان — ولا بالخليفة المأفون — يريد يزيد بن معاوية — فمن قال برأسه كذا ، قلنا بسيفنا كذا ! ثم نزل .

وخطب عبد الملك على المنبر فقال : أيها الناس ، إن الله حَدّ حُدوداً ، وفرَض فروضا ؛ فما زلتم تزدادون فى الذنب ونزداد فى العقوبة ، حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف !

أبو الحسن المدائنى قال : قدم عمر بن على بن أبى طالب على عبد الملك ، فسأله أن يُصَيِّر إليه صدقة على ، فقال عبد الملك متمثلا بأبياتِ ابن أبى الحُقيق :

إنى إذا مالتْ دَواعِى الهوى ٭ وأنْصَت السّـامِعُ للقائلِ
واعتَلَج النـاس بآرائهم ٭ نَقْضِى بحكْمٍ عادلٍ فاصلِ
لا نَجعلُ الباطلَ حقًّا ولا ٭ نَرْضى بدونِ الحقّ للباطل

لا ، لعمرى لا نخرجها من ولد الحسين إليك . وأمر له بصلة ، ورجع .

وقال عبد الملك بن مروان لأيمن بن خُريم : إن أباك وعمك كانت لهما صحبة ؛ فخذ هـذا المـال فقاتل ابن الزبير . فأبى ، فشتمه عبد الملك ، فخرج وهو يقول :

فلستُ بقاتلٍ رجُلًا يُصلِّى ٭ علَى سُلطانِ آخر من قريْشِ
له سـلطانُهُ وعلىّ إثمى ٭ مَعاذ الله عن سَفَهٍ وطَيْش

وقال أيمن بن خريم أيضاً :

إنّ للفِتْنة مَيْطاً بيِّنا ٭ فرُوَيْدَ المَيْلَ منها يَعتدلْ
فإذا كان عطاءٌ فانتهزْ ٭ وإذا كان قتالٌ فاعتزلْ
إنمـا يوقدُهـا فُرسانُهـا ٭ حَطَب النار فدَعْها تَشْتعِل

وقال زفر بن الحـارث لعبد الملك بن مروان : الحمد لله الذى نصرك على كُرْهٍ من المؤمنين . فقال أبو زعيزعة : ما كَرِهَ ذلك إلا كافر . فقال زفر :

كذب ، قال الله لنبيه : ﴿ كما أخرجك ربُّك من بيتِك بالحقِّ وإنَّ فريقاً منَ المُؤْمنين لكارهونَ ﴾ .

وبعث عبد الملك بن مروان إلى المدينة حبيش بن دلجة القينى فى سبعة آلاف فدخل المدينة وجلس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا بخبز ولحم فأكل ، ثم دعا بماء فتوضأ على المنبر ، ثم دعا جابر بن عبد الله صاحب النبى ٥ صلى الله عليه وسلم ، فقال : تبايع لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين بعهد الله عليك وميثاقه ، وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه فى الوفاء ، فإن خنتَنا فهَرَاق الله دمَك على ضلاله . قال : أنت أطْوَقُ لذلك منى ، ولكن أبايعه على ما بايعت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ، على السمع والطاعة .

ثم خرج ابن دُلجة من يومه ذلك إلى الربذة ، وقدم على أثره من الشام ١٠ رجلان مع كل واحد منهما جيش ، ثم اجتمعوا جميعاً فى الرَّبذة ، وذلك فى رمضان سنة خمس وستين وأميرهم ابن دلجة .

وكتب ابن الزبير إلى العباس بن سهل الساعدى بالمدينة أن يَسير إلى حبيش ابن دلجة ، فسار حتى لقيه بالربذة

وبعث الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة ، وهو عامل ابن الزبير على البصرة ، ١٥ مدداً إلى العباس بن سهل : حُنيفَ بن السّجف فى تسعمائة من أهل البصرة ، فساروا حتى انتهوا إلى الربذة .

فبات أهل البصرة وأهل المدينة يقرءون القرآن ويصلُّون ، وبات أهل الشام فى المعازف والخمور ؛ فلما أصبحوا غدَوْا على القتال ، فقُتل حبيش بن دلجة ومن معه ، فتحصن منهم خمسمائة رجل من أهل الشام على عمود الربذة ، وهو الجبل ٢٠ الذى عليها ، وفيهم يوسف أبو الحجاج ، فأحاط بهم عياش بن سهل ، فطلبوا الأمان ، فقال [لهم عياش] انزلوا على حكمى . فنزلوا على حكمه ، فضرب أعناقهم أجمعين . ثم رجع عياش بن سهل إلى المدينة

وبعث عبد الله بن الزبير ابنه حمزة عاملا على البصرة ، فاستضعفه القوم ؛ فبعث أخاه مصعبَ بن الزبير ؛ فقدم عليهم فقال : يا أهل البصرة ، بلغنى أنه لا يقدم عليكم أمير إلا لقّبتموه ، وإنى ألقب لكم نفسى : أنا القصاب .

خبر المختار بن أبى عبيد

٥ ثم أرسل عبد الله بن الزبير إبراهيم بن محمد بن طلحة أميراً على الكوفة ؛ ثم عزله وأرسل المختار بن أبى عبيد ؛ وأرسل عبد الملك عبيد الله بن زياد إلى الكوفة ؛ فبلغ المختارَ إقبال عبيد الله بن زياد ، فوجه إليهم إبراهيم بن الأشتر فى جيش ، فالتقوا بالجازر ، وقُتِل عبيد الله بن زياد ، وحصين بن نمير ، وذو الكلاع ، وعامة من كان معهم ، وبُعِث برءوسهم إلى عبد الله بن الزبير .

١٠ أبو بكر بن أبى شيبة قال حدثنا شريك بن عبد الله عن أبى الجويرية الحرمى قال : كنت فيمن سار إلى أهل الشام يوم الجازر مع إبراهيم بن الأشتر فلقيناهم بالزاب ، فهبت الريح لنا عليهم فأدبروا ، فقتلناهم عشيتنا وليلتنا حتى أصبحوا ؛ فقال إبراهيم إنى قتلت البارحة رجلا فوجدت عليه ريح طيب ، فالتمسوه ، فما أراه إلا ابن مرجانة . فانطلقنا ، فإذا هو والله معكوس فى بطن الوادى .

١٥ ولما التقى عبيد الله بن زياد وإبراهيم بن الأشتر بالزاب ، قال : من هذا الذى يقاتلنى ؟ قيل له : إبراهيم بن الأشتر . قال : لقد تركته أمس صبيا يلعب بالحمام !

قال : ولما قتل ابن زياد بعث المختار برأسه إلى على بن الحسين بالمدينة ، قال الرسول : فقدمت به عليه انتصاف النهار وهو يتغدى ، قال : فلما رآه قال :
٢٠ سبحان الله ! ما اغتر بالدنيا إلا مَن ليس لله فى عنقه نعمة ؛ لقد أُدخل رأس أبى عبد الله على ابن زياد وهو يتغدى ، وقال يزيد بن مفرّغ :

إنّ الذى عاش ختّاراً بذِمّتِه * ومات عبداً : قتيلُ اللهِ بالزّابِ

ثم إن المختار كتب كتاباً إلى ابن الزبير ، وقال لرسوله : إذا جئت مكة

فدفعت كتابى إلى ابن الزبير ، فأت المهدى — يعنى محمد بن الحنفية — فاقرأ عليه السلام ، وقل له : يقول لك أبو إسحق : إنى أحبك وأحب أهل بيتك ! قال : فأتاه ، فقال له ذلك ، فقال : كذبتَ وكذب أبو إسحق، وكيف يحبنى ويحب أهل بيتى ، وهو يُجلِس عمرَ بن سعد على وسائده وقد قَتل الحسين ؟ فلما قدم عليه رسوله وأخبره ، قال المختار لأبى عمرو صاحب حرسه : استأجرلى نوائح ٥ يبكين الحسين على باب عمر بن سعد . ففعل ، فلما بكين قال عمر لابنه حفص : يا بنى ، ائت الأمير فقل له: ما بال النوائح يبكين الحسين على بابى ؟ فأتاه فقال له ذلك ، فقال : إنه أهل أن يبكى عليه ! فقال : أصلحك الله ، أنههن عن ذلك ! قال : نعم . ثم دعا أبا عمرو صاحب حرسه ، فقال له : اذهب إلى عمر بن سعد فأتنى برأسه ! فأتاه فقال له : قم إلىّ أباحفص . فقام إليه وهو ملتحف بملحفة ، ١٠ فجلله بالسيف فقتله ، وجاء برأسه إلى المختار ثم قال : ائتونى بابن عمر . فلما حضره قال : أتعرف هذا ؟ قال : نعم ، رحمه الله ! قال : أتحب أن نُلحقك به ؟ قال : لا خَيرَ فى العيش بعدَه ! فأمر به فضُرب عنقه .

ثم إن المختار لما قتل ابن مرجانة وعمر بن سعد ، جعل يتبع قتلة الحسين ابن على ومن خذله فقتلهم أجمعين ، وأمر الحسينية وهم الشيعة أن يطوفوا فى ١٥ أزقة المدينة بالليل ويقولوا : ياثارات الحسين ! فلما أفناهم ودانت له العراق — ولم يكن صادق النية ولا صحيح المذهب ، وإنما أراد أن يستأصل الناس — فلما أدرك بُغيَته أظهر للناس قبح نيته ، فادّعى أن جبريل ينزل عليه ويأتيه بالوحى من الله ؛ وكتب إلى أهل البصرة :

بلغنى أنكم تكذبونى وتكذبون رسلى ، وقد كُذبت الأنبياء من قبلى ولست ٢٠ بخير من كثير منهم !

فلما انتشر ذلك عنه ، كتب أهل الكوفة إلى ابن الزبير وهو بالبصرة فخرج إليه ، وبرز إليه المختار ، فأسلمه إبراهيم بن الأشتر ووجوهُ أهل الكوفة ، فقتله مصعبٌ وقتل أصحابَه .

أبو بكر بن أبى شيبة قال : قيل لعبد الله بن عمر : إن المختار ليزعم أنه يوحَى إليه ! قال : صدق ، الشياطينُ يوحون إلى أوليائهم !

وقَتل مصعب من أصحاب المختار ثلاثة آلاف، ثم حج فى سنة إحدى وسبعين فقدم على أخيه عبد الله بن الزبير ومعه وجوه أهل العراق ، فقال : يا أمير المؤمنين قد جئتك بوجوه أهل العراق ، ولم أَدَعْ لهم نظيرا ؛ فأعطِهم من المال . قال : جئتَنى بعبيد أهل العراق لأعطيَهم من مال الله ! وددت أن لى بكل عشرة منهم رجلا من أهل الشام صرْفَ الدينار بالدرهم ! فلما انصرف مصعب ومعه الوفد من أهل العراق ، وقد حرمهم عبدُ الله بن الزبير ماعنده ، فسَدَتْ قلوبُهم ؛ فراسلوا عبد الملك بن مروان حتى خرج إلى مصعب فقتله .

على بن عبد العزيز عن حجّاج عن أبى معشر ، قال : لما بعث مصعب رأس المختار إلى عبد الله بن الزبير فوُضع بين يديه ، قال : ما من شىء حدّثنيه كعبُ الأحبار إلا قد رأيته ، غير هذا ؛ فإنه قال لى : يقتلك شابٌّ من ثقيف . فأرانى قد قتلتُه !

وقال محمد بن سيرين لما بلغه هذا الحديث : لم يعلم ابنُ الزبير أن أبا محمد قد خُبِئَ له .

ولما قَتل مصعب المختار بن أبى عبيد ودانت له العراق كلها ، والكوفةُ والبصرة ، قال فيه عبد الله بن قيس الرقيات :

كيف نومى على الفراشِ ولمَّا * تشمَلِ الشامَ غارةٌ شعْواء

تُذهِلُ الشيخَ عن بنيه وتُبدى * عن خِدام العقيلَةِ العذراء

إنما مُصعبٌ شِهابٌ مِنَ اللهِ * تجلَّت عنْ وجهِه الظَّلْماء

وتزوّج مصعب لما ملك العراق ، عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين ؛ ولم يكن لهما نظير فى زمانهما .

وقَتل مصعب امرأةَ المختار ، وهى ابنةُ النعمان بن بشير الأنصارى ، فقال

فيها عمر بن أبى ربيعة المخزومى :

إنّ مِن أعظمِ المصائبِ عندى * قَتْلَ حوْراءَ غادةٍ عَيْطبول

قُتِلت باطِلا على غيْرِ ذنبٍ * إنّ لله درّها من قتيلِ

كُتِب القتلُ والقِتالُ علينا * وعلى الغانياتِ جرُّ الذُّيولِ

مقتل عمرو بن سعيد الأشدق

٥

أبو عبيد عن حجاج عن أبى معشر ، قال : لما قدم مصعب بوجوه أهل العراق على أخيه عبد الله بن الزبير فلم يُعطهم شيئا ، أبغضوا ابنَ الزبير ، وكاتبوا عبد الملك بن مروان ، فخرج يريد مصعب بن الزبير فلما أخذ فى جهازه وأراد الخروج ، أقبلت عاتكة ابنة يزيد بن معاوية فى جواريها وقد تزينت بالحلى ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، لو قعدت فى ظلال مُلكك ووجهت إليه كلبا من كلابك لكفاك أمره ! فقال : هيهات ، أما سمعت قول الأول :

١٠

قومٌ إذا ما غزَوْا شدُّوا مآزِرَهم * دونَ النساء ولو باتتْ بأطهارِ

فلما أبى عليها وعزم بكت وبكى معها جواريها ، فقال عبد الملك : قاتلَ الله ابن أبى ربيعة ، كأنه ينظر إلينا حيث يقول :

إذا ما أرادَ الغزْوَ لم يثْنِ هَمّهُ * حَصانٌ عليها نظمُ درّ يَزِينُها

نَهتْهُ فلما لم ترَ النّهْىَ عاقهُ * بكتْ فبكَى مِما دهاها قطِينُها

١٥

ثم خرج يريد مصعب ، فلما كان من دمشق على ثلاث مراحل أغلق عمرو ابن سعيد دمشق وخالف عليه ، قيل له : ما تصنع ؟ أتريد العراق وتدع دمشق؟ أهلُ الشام أشدُّ عليك من أهل العراق ! فرجع مكانه فحاصر أهلَ دمشق حتى صالح عمرو بن سعيد على أنه الخليفة بعده وأن له مع كل عامل عاملا ، ففتح له دمشق ، وكان بيت المال بيد عمرو بن سعيد ، فأرسل إليه عبد الملك أن أخرِج للحرس أرزاقهم فقال : إذا كان لك حرسٌ فإن لنا حرساً أيضا ! فقال عبد الملك : أخرج لحرسك أيضا أرزاقهم ! فلما كان يوم من الأيام أرسل عبد الملك إلى عمرو بن سعيد نصف النهار

٢٠

أن ائتني أبا أمية حتى أُدَبِّر معك أمورا . فقالت له امرأته . يا أبا أمية ، لا تذهب إليه ؛ فإني أتخوف عليك منه ! فقال : أبو الذباب ! والله لو كنت نائما ما أيقظني ! قالت : والله ما آمَنُه عليك ، وإني لأجد ريحَ دمٍ مسفوح . فما زالت به حتى ضربها بقائم سيفه فشجها ، فخرج وخرج معه أربعة آلاف من أبطال أهل الشام الذين لا يُقْدَر على مثلهم مسلَّحين ، فأحدقوا بخضراء دمشق وفيها عبد الملك ، فقالوا : يا أبا أمية ، إن رابك ريب فأسمِعنا صوتك ، قال : فدخل فجعلوا يصيحون : أبا أمية أسمِعْنا صوتك ، وكان معه غلام أسحم شجاع ، فقال له : اذهب إلى الناس فقل لهم : ليس عليه بأس . فقال له عبد الملك : أمكراً عند الموت أبا أمية ؟ خذوه . فأخذوه ، فقال له عبد الملك : إنى أقسمت إن أمكنتْني منك يدٌ أن أجعل فى عنقك جامعة ، وهذه جامعة من فضة أريد أن أُبِرَّ بها قسمى ! قال : فطرح فى رقبته الجامعة ، ثم طرحه إلى الأرض بيده فانكسرت ثنيته ؛ فجعل عبد الملك ينظر إليه ، فقال عمرو : لا عليك يا أمير المؤمنين ، عظمٌ انكسر ! قال : وجاء المؤذنون فقالوا : الصلاة يا أمير المؤمنين . لصلاة الظهر ، فقال لعبد العزيز بن مروان : اقتله حتى أرجع إليك من الصلاة . فلما أراد عبد العزيز أن يضرب عنقه ، قال له عمرو : أنشدتك بالرحم يا عبد العزيز أن لا تقتلنى من بينهم ! فجاء عبد الملك فرآه جالسا ، فقال : مالك لم تقتله ؟ لعنك الله ولعن أُمًّا ولدتْك ! ثم قال : قدِّموه إلىّ . فأخذ الحربة بيده فقال : فعلتَها يا بنَ الزرقاء ، فقال له عبد الملك : إنى لو علمت أنك تبقى ويصلُح لى ملكى لفديتك بدم الناظر ، ولكن قلّما اجتمع فحلان فى ذَوْدٍ إلا عَدَا أحدُهما على الآخر . ثم رفع إليه الحربة فقتله ، وقعد عبد الملك يُرعَد ، ثم أمر به فأُدرج فى بساط وأدخل تحت السرير . وأرسل إلى قبيصة بن ذؤيب الخزاعى فدخل عليه ، فقال : كيف رأيك فى عمرو بن سعيد الأشدق ؟ قال ـ وأبصر قبيصة رِجلَ عمرو تحت السرير ، فقال : اضرب عنقه يا أمير المؤمنين ! قال : جزاك الله خيرا ، ما علمتُ إنك لَمُوَفَّقٌ ، قال

قبيصة : اطرح رأسه وآنثر على الناس الدنانير يتشاغلون بها . ففعل .

وآفترق الناس ، وهرب يحيى بن سعيد بن العاص حتى لحق بعبد الله بن الزبير بمكة فكان معه .

وأرسل عبد الملك بن مروان بعد قتل عمرو بن سعيد إلى رجل كان يستشيره ويُصْدِر عن رأيه إذا ضاق عليه الأمر ، فقال له : ما ترى ما كان من فعلي بعمرو بن سعيد ؟ قال : أمرٌ قد فات دَرْكه . قال : لتقولَنّ . قال : حزمٌ لو قتلتَه وحييتَ أنت ! قال : أوَلستُ بحيّ ؟ قال : هيهات ، ليس بحيّ من أوقف نفسه موقفاً لا يوثق منه بعهد ولا عقد . قال : كلام لو تقدم سماعُه فعلي لأمسكت !

ولما بلغ عبدَ الله بن الزبير قتلُ عمرو بن سعيد ، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أيها الناس ، إنّ عبد الملك بن مروان قتل لطيم الشيطان ﴿كذلك نُوَلّي بعضَ الظالمينَ بعضاً بما كانوا يكسِبونَ ﴾

مقتل مصعب بن الزبير

فلما استقرت البيعة لعبد الملك بن مروان أراد الخروج إلى مصعب بن الزبير ، فجعل يستنفر أهل الشام فيبطئون عليه ، فقال له الحجاج بن يوسف : سلّطني عليهم ، فوالله لأخرجنّهم معك ! قال له : قد سلطتُك عليهم . فكان الحجاج لا يمر على باب رجل من أهل الشام قد تخلف عن الخروج إلا أحرق عليه داره . فلما رأى ذلك أهلُ الشام خرجوا .

وسار عبد الملك حتى دنا من العراق ، وخرج مصعب بأهل البصرة والكوفة ، فالتقوا بين الشام والعراق ؛ وقد كان عبد الملك كتب كتباً إلى رجال من وجوه أهل العراق يدعوهم فيها إلى نفسه ويجعل لهم الأموال ، وكتب إلى إبراهيم بن الأشتر بمثل ذلك ، على أن يخذلوا مصعباً إذا التقوا ؛ فقال إبراهيم

ابن الأشتر لمصعب : إنّ عبد الملك قد كتب إلىّ هذا الكتاب ، وقد كتب إلى أصحابى بمثل ذلك ، فادعُهم الساعة فاضرب أعناقهم . قال : ما كنت لأفعل ذلك حتى يستبين لى أمرُهم . قال : فأُخرى ... قال : ما هى ؟ قال : احبسهم حتى يستبين لك ذلك . قال : ما كنتُ لأفعل . قال : فعليك السلام ، والله لا ترانى ٥ بعدُ فى مجلسك هذا أبدا . وقد كان قال له : دعنى أدعو أهلَ الكوفة بما شرطه الله . فقال : لا والله ، قتلتُهم أمس وأستنصر بهم اليومَ . قال : فما هو إلا أن التقوا فحوّلوا وجوههم وصاروا إلى عبد الملك ؛ وبقى مصعب فى شرذمة قليلة ، فجاءه عبيدُ الله بن زياد بن ظبيان ـ وكان مع مصعب ـ فقال : أين الناسُ أيها الأمير ؟ فقال : قد غدرتم يأهل العراق . فرفع عبيد الله السيف ليضرب ١٠ مصعبا ، فبدره مصعب فضربه بالسيف على البيضة ، فنشب السيف فى البيضة ؛ فجاء غلام لعبيد الله بن ظبيان فضرب مصعباً بالسيف فقتله ، ثم جاء عبيد الله برأسه إلى عبد الملك بن مروان وهو يقول :

نُطِيعُ ملوكَ الأرضِ ما أقسَطوا لنا ٭ وليس علينا قتلُهم بمُحرَّمِ

قال : فلما نظر عبد الملك إلى رأس مصعب خرّ ساجدا ، فقال عبد الله ١٥ ابن ظبيان ، وكان من فُتَّاكِ العرب : ما ندمتُ على شىء قطُّ ندمى على عبد الملك ابن مروان إذ أتيته برأس مصعب فخرّ ساجداً أن لا أكون ضربتُ عنقَه ، فأكون قد قتلت ملِكَي العرب فى يوم واحد !

وقال فى ذلك عبيد الله بن زياد بن ظبيان .

هَمَمْتُ ولم أفعلْ وكِدْتُ وليتَنى ٭ فعلتُ فأَدمَنْتُ البُكا لأقاربِهْ

٢٠ فأوردْتُها فى النار بكْرَ بنَ وائلٍ ٭ وألحقْتُ مَن قد خرّ شكرًا بصاحبِهْ

الرياشى عن الأصمعى قال : لما أتى عبدُ الملك برأس مصعب بن الزبير ، نظر إليه مليا . ثم قال : متى تلد قريش مثلك ! وقال : هذا سيد شباب قريش .

وقيل لعبد الملك : أكان مصعب يشرب الطِّلاء ؟ فقال : لو علم مصعب أنّ الماء يفسد مروءته لما شربه !

ولما قُتل مصعب دخل الناسُ على عبد الملك يهنئونه ، ودخل معهم شاعرٌ فأنشده :

اللهُ أعطاكَ التى لا فوْقها ٭ وقد أرادَ الملحِدونَ عوْقَها

عنكَ ، ويأبَى اللهُ إلا سوْقَها ٭ إليكَ ، حتى قلّدُوكَ طوْقَها

فأمر له بعشرة آلاف درهم . ٥

وقالوا : كان مصعب أجلَّ الناس ، وأسخَى الناس ، وأشجع الناس ؛ وكان تحته عَقيلتا قريش : عائشة بنت طلحة ، وسُكَيْنة بنت الحسين .

ولما قتل مصعب خرجت سُكَيْنة بنتُ الحسين تريد المدينة ، فأطاف بها أهل العراق ، وقالوا : أحسن الله صحابتَكِ يا ابنةَ رسول الله ! فقالت : لا جزاكم الله عنى خيرا ، ولا أخلف عليكم بخير من أهل بلد ! قتلتم أبى وجدّى ١٠ وعمى وزوجى ! أيتمتمونى صغيرة ، وأرملتمونى كبيرة !

ولما بلغ عبدَ الله بن الزبير قتل مصعب ، صعد المنبر فجلس عليه ، ثم سكت فجعل لونه يحمرّ مرة ويصفرّ مرة ؛ فقال رجل من قريش لرجل إلى جنبه : ماله لا يتكلم ، فوالله إنه لَلخطيب اللبيب . فقال له الرجل : لعله يريد أن يذكر مقتل سيِّد العرب فيشتدّ ذلك عليه ، وغيرُ ملوم ! ثم تكلم فقال : ١٥

الحمد لله الذى له الخلق والأمر ، و[مُلْكُ] الدنيا والآخرة ﴿يُؤتِى الملكَ من يشاء ، ويَنزِعُ الملكَ ممن يشاء ، ويُعِزُّ من يشاء ، ويُذِلُّ من يشاء﴾

أما بعد : فإنه لم يَعِزَّ من كان الباطل معه ولو كان معه الأنامُ طُرًّا ، ولم يَذِلَّ من كان الحقُّ معه ولو كان فردا ؛ ألا وإنّ خبراً من العراق أتانا فأحزننا وأفرحنا ؛ فأما الذى أحزننا ؛ فإن لفراق الحميم لوعةً يجدُها حميمُه ، ثم يرعوى ٢٠ ذوو الألباب إلى الصبر وكريم الأجر ؛ وأما الذى أفرحنا فإن قتل مصعب له شهادة ولنا ذخيرة .

أسلمه الطَّغام ، الصم الآذان ، أهل العراق ، وباعوه بأقل من الثمن الذى كانوا يأخذون منه ، فإن يقتل فقد قُتل أخوه وأبوه وابن عمه ، وكانوا الخيارَ

الصالحين ؛ إنّا والله لا نموت حَتْفَ أنوفنا كما يموت بنو مروان ، ولكن قَعْصاً بالرماح وموتا تحت ظلال السيوف ، فإن تُقبِل الدنيا علىّ لم آخذها مأخذ الأشِرِ البَطِر ، وإن تدبر عنى لم أبكِ عليها بكاء الخَرِف الزائل العقل .

ولما توطد لابن الزبير أمرُه وملَكَ الحرمين والعراقين ، أظهر بعضُ بنى هاشم الطعن عليه ؛ وذلك بعد موت الحسن والحسين ؛ فدعا عبد الله بن عباس ومحمد ابن الحنفية وجماعةً من بنى هاشم إلى بيعته ، فأبوا عليه ، فجعل يشتمهم ويتناولهم على المنبر ، وأسقط ذِكرَ النبي صلى الله عليه وسلم من خطبته ، فعوتب فى ذلك ، فقال : والله ما يمنعنى من ذِكره علانية أنى لأذكره سرا وأصلى عليه ، ولكن رأيت هذا الحى من بنى هاشم إذا سمعوا ذكرَه اشرأبّت أعناقهم ، وأبغضُ الأشياء إلىّ ما يسرُّهم ، ثم قال لتُبايِعُنّ أو لأُحرِقَنّكُمْ بالنار ! فأبوا عليه ، فحبس محمد ابن الحنيفة فى خمسة عشر من بنى هاشم فى السجن ، وكان السجن الذى حبسهم فيه يقال له سجن عارم ؛ فقال فى ذلك كُثَيِّر عزة ـ وكان ابن الزبير يدعى العائذ ، لأنه عاذ بالبيت ـ :

تُخَبِّرُ من لاقيتَ أنكَ عائذٌ ... بل العائذُ المظلومُ فى سجنِ عارِمِ
سَمِىُّ النَّبِىِّ المُصطَفى وابنُ عَمِّهِ ... وفكَّاكُ أغلالٍ وقاضِى مَغارِمِ

وكان أيضا يدعى المُحِل ، لإحلاله القتال فى الحرم ، وفى ذلك يقول رجل من الشعراء فى رملة بنت الزبير :

ألا مَنْ لِقَلبٍ مُعنًى غَزِلْ ... بِذِكْرِ المُحِلةِ أختِ المُحِلّ

ثم إن المختار بنَ أبى عبيد وجّه رجالا يثق بهم من الشيعة يكمنون النهار ويسيرون الليل ، حتى كسروا سجن عارم واستخرجوا منه بنى هاشم ؛ ثم ساروا بهم إلى مأمنهم .

وخطب عبد الله بن الزبير بعد موت الحسن والحسين ، فقال : .

أيها الناس ، إن فيكم رجلا قد أعمى الله قلبه كما أعمى بصره ، قاتل أمّ المؤمنين

وحواريّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأفتى بتزويج المتعة .

وعبدُ الله بن عباس فى المسجد ؛ فقام وقال لعكرمة : أقم وجهى نحوه ياعكرمة .
ثم قال هذا البيت :

إنْ يأخذِ اللهُ من عَيْنَىّ نورَهُما ٭ فَفِى فؤادى وعقْلى مِنهما نُورُ

وأما قولك يا ابن الزبير : إنى قاتلت أم المؤمنين ، فأنت أخرجْتَها وأبوك ٥
وخالك ، وبِنا سُمِّيتْ أمَّ المؤمنين ، فكنا لها خيرَ بنين ، فتجاوز الله عنها ،
وقاتلتَ أنتَ وأبوك عليا ؛ فإن كان علىٌّ مؤمنا فقد ضللتم بقتالكم المؤمنين ،
وإن كان كافراً فقد بؤتم بسخط من الله بفراركم من الزحف ؛ وأما المتعة فإنى
سمعت علىّ بنَ أبى طالب يقول : سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم رخّص
فيها فأفتيتُ بها ، ثم سمعتُه ينهى عنها [فنهيتُ عنها] وأول مِجْمَر سطع فى المتعة ١٠
مجمرُ آل الزبير .

مقتل عبد الله بن الزبير

أبو عبيدة عن حجاج عن أبى معشر قال : لما بايع الناس عبدَ الملك بن مروان
بعد قتل مصعب بن الزبير ودخل الكوفة ، قال له الحجاج : إنى رأيت فى المنام
كأنى أسلخ ابن الزبير من رأسه إلى قدميه . فقال له عبد الملك : أنت له فاخرج ١٥
إليه . فخرج إليه الحجاج فى ألف وخمسمائة حتى نزل الطائف ، وجعل عبد الملك
يرسل إليه الجيوش رَسَلاً بعد رَسَل ، حتى توافى إليه الناس قدْرَ ما يظن أنه يقوى
على قتال ابن الزبير ، وكان ذلك فى ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين ؛ فسار الحجاج
من الطائف حتى نزل منى ، فحج بالناس وابنُ الزبير محصور ، ثم نصب الحجاج
المجانيق على أبى قبيس وعلى قعيقعان ونواحى مكة كلها يرمى أهل مكة بالحجارة . ٢٠
فلما كانت الليلة التى قتل فى صبيحتها ابن الزبير ، جمع ابن الزبير من كان معه من
القرشيين ، فقال : ماترون ؟ فقال رجل من بنى مخزوم من آل بنى ربيعة :
والله لقد قاتلنا معك حتى لا نجد مقيلا ، ولئن صبرنا معك مانزيد على أن نموت

وإنما هى إحدى خصلتين: إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا، وإما أن تأذن لنا فنخرج. فقال ابن الزبير: لقد كنتُ عاهدتُ الله أن لا يبايعنى أحدٌ فأقيله بيعته إلا ابن صفوان، فقال له ابن صفوان: أمّا أنا فإنى أقاتل معك حتى أموت بموتك، وإنها لتأخذنى الحفيظة أن أُسْلمك فى مثل هذه الحالة! قال له رجل آخر: اكتب إلى عبد الملك ٥ ابن مروان. فقال له: كيف أكتب: من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الملك ابن مروان؟ فوالله لا يقبل هذا أبدا؛ أم أكتب: لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير؟ فوالله لأنْ تقع الخضراء على الغبراء أحبّ إلىّ من ذلك! فقال عروة بن الزبير وهو جالس معه على السرير: يا أمير المؤمنين قد جعل الله لك أسوة. قال: من هو؟ قال: حسن بن علىّ، خلع نفسه وبايع ١٠ معاوية. فرفع ابن الزبير رجله فضرب بها عروة حتى ألقاه عن السرير، وقال: يا عروة، قلبى إذاً مثلُ قلبك، والله لو قبلتُ ما يقولون ما عشتُ إلا قليلا وقد أخذتُ الدنيّة، وإن ضربةً بسيف فى عزّ خيرٌ من لطمةٍ فى ذُل.

فلما أصبح دخل عليه بعض نسائه ـ وهى أم هاشم بنت منصور بن زياد الفزارية ـ فقال لها: اصنعى لنا طعاما. فصنعت له كبداً وسناما، فأخذ منهما ١٥ لقمة فلاكها ثم لفظها؛ ثم قال: اسقونى لبنا. فأتى بلبن، فشرب منه، ثم قال: هيئوا لى غُسْلا! فاغتسل ثم تحنط وتطيّب، ثم نام نومة وخرج.

ودخل على أمه أسماء ابنة أبى بكر ذات النطاقين، وهى عمياء وقد بلغت مائة سنة، فقال: يا أُماه، ما ترَيْن؟ قد خذلنى الناس وخذلنى أهلُ بيتى! فقالت: لا يلعبنّ بك صبيانُ بنى أمية: عش كريماً ومُت كريما!

٢٠ فخرج فأسند ظهره إلى الكعبة ومعه نفر يسير فجعل يقاتلهم ويهزمهم وهو يقول: وَيْلُمّه! ياله فتحا لو كان له رجال! فناداه الحجاج: قد كان لك رجال فضيّعتهم!

وجعل ينظر إلى أبواب المسجد والناس يهجمون عليه، فيقول: من هؤلاء؟ فيقال له: أهل مصر. قال: قتلة عثمان! فحمل عليهم، وكان فيهم رجل من أهل

الشام ، يقال له خُلبوب ، فقال لأهل الشام . أما تستطيعون إذا ولّى ابن الزبير أن تأخذوه بأيديكم ؟ قالوا : ويمكنك أنت أن تأخذه بيدك ؟ قال : نعم . قالوا : فشأنَك . فأقبل وهو يريد أن يحتضنه ، وابنُ الزبير يرتجز ويقول :

لو كان قِرْنِي واحِدًا كفيْتُه

فضربه ابن الزبير بالسيف فقطع يده ، فقال خلبوب : حس ! قال ابن الزبير : اصبر خلبوب .

قال : وجاءه حجر من حجارة المنجنيق ، فأصاب قفاه ، فسقط ؛ فاقتحم أهل الشام عليه ، فما فهموا قتله حتى سمعوا جارية تبكى وتقول : وا أمير المؤمنيناه ! فحزّوا رأسه وذهبوا به إلى الحجاج .

وقُتل معه : عبد الله بن صفوان ، وعمارة بن حزم ، وعبد الله بن مطيع .

قال أبو معشر : وبعث الحجاج برءوسهم إلى المدينة ، فنصبوها للناس ، فجعلوا يقرّبون رأسَ ابن صفوان إلى رأس ابن الزبير كأنه يسارِرُه ويلعبون بذلك ؛ ثم بعث برؤسهم إلى عبد الملك بن مروان .

فخرجت أسماء إلى الحجاج فقالت له : أتأذن لى أن أدفنه ، فقد قضيت أرَبَك منه ؟ قال : لا ! ثم قال لها : ماظنُّك برجل قتل عبد الله بنَ الزبير ؟ قالت : حسيبه الله ! فلما منعها أن تدفنه قالت . أما إنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يخرج من ثقيف رجلان : الكذاب والمبير ! فأما الكذاب فالمختار ، وأما المبير فأنت . فقال الحجاج : اللهم مبير لا كذاب .

ومن غير رواية أبى عبيد قال : لما نصب الحجاج المجانيق لقتال عبد الله ابن الزبير ، أظلتهم سحابة فأرعدت وأبرقت وأرسلت الصواعق ؛ ففزع الناس وأمسكوا عن القتال ، فقام فيهم الحجاج فقال : أيها الناس ، لايهُولنَّكُمْ هذا ؛ فإنى أنا الحجاج بن يوسف وقد أصحرْتُ لربى ، فلو ركبْنا عظيما لحال بيننا وبينه ولكنها جبال تهامة لم تزل الصواعق تنزل بها . ثم أمر بكرسى فطرح له ، ثم قال :

يا أهل الشام ، قاتلوا على أعطيات أمير المؤمنين . فكان أهل الشام إذا رموا الكعبة يرتجزون ويقولون هذا :

خَطَّارةٌ مثلُ الفَنيق المُزْبِد * يُرْمى بها عُواذُ أهلِ المسجدِ

ويقولون أيضاً : درِّى عُقاب ، بلبن وأشخُب . فلما رأى ذلك ابن الزبير خرج إليهم بسيفه فقاتلهم حيناً ، فناداه الحجاج : ويلك يابن ذات النطاقين ! اقبل الأمان وادخل فى طاعة أمير المؤمنين ، فدخل على أمه أسماء ، فقال لها : سمعت رحمك الله مايقول القوم ، ومايدعوننى إليه من الأمان ؟ قالت : سمعتهم لعنهم الله ، فما أجهلهم وأعجبْ منهم إذ يعيِّرونك بذات النطاقين ! ولو علموا ذلك لكان ذلك أعظم فخرك عندهم . قال : وماذاك يا أُماه ؟

قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره مع أبى بكر فهيأت لهما سفرة ، فطلبا شيئاً يربطانها بها فما وجداه ، فقطعت من مئزرى لذلك ما احتاجا إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إن لك به نطاقين فى الجنة !

فقال عبد الله : الحمد لله حمداً كثيرا ، فما تأمرينى به ، فإنهم قد أعطونى الأمان ؟

قالت : أرى أن تموت كريما ولا تتبع فاسقاً لئيما ، وأن يكون آخر نهارك أكرم من أوّله .

فقبّل رأسها وودعها ، وضمته إلى نفسها ، ثم خرج من عندها فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس ، إن الموت قد تغشّاكم سحابُه ، وأحدق بكم رَبابُه ، واجتمع بعد تفرّق ، وارْجَحَنَّ بعد تَمشّقٍ ، ورجَس نحوكم رعده ، وهو مُفْرِغٌ عليكم ودقَه ، وقائد إليكم البلايا تتبعها المنايا ، فاجعلوا السيوف لها غرضا ، واستعينوا عليها بالصبر . وتمثل بأبيات ، ثم اقتحم يقاتل وهو يقول :

قد جَدّ أصحابُك ضربَ الأعناقْ * وقامت الحربُ لها على ساقْ

ثم جعل يقاتل وحده ولا يهدّه شيء ، كلما اجتمع عليه القوم فرّقهم وذادهم ، حتى أُثخِن بالجراحات ولم يستطع النهوض ، فدخل عليه الحجاج فدعا بالنطع فحز رأسه هو بنفسه فى داخل مسجد الكعبة ، لا رحم الله الحجاج ! ثم بعث برأسه إلى عبد الملك بن مروان ، وقتل من أصحابه مَن ظفِر به : ثم أقبل فاستأذن على أمه أسماء بنت أبى بكر ليعزيها ، فأذنت له ، فقالت له : يا حجاج ، قتلت عبد الله ؟ ٥
قال : يابنة أبى بكر ، إنى قاتل الملحدين قالت : بل قاتل المؤمنين الموحدين .
قال لها : كيف رأيت ما صنعت بابنك ؟ قالت : رأيتك أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك ، ولا ضير أن أكرمه الله على يديك ، فقد أهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغىّ من بغايا بنى إسرائيل !

هشام بن عروة عن أبيه قال : كان عثمان استخلف عبد الله بن الزبير على الدار ١٠ يوم الدار ، فبذلك ادّعى ابن الزبير الخلافة .

محمد بن سعيد قال : لما نصب الحجاج راية الأمان وتصرّم الناس عن ابن الزبير ، قال لعبد الله بن صفوان : قد أقلتُك بيعتى وجعلتك فى سعة ، فخذ لنفسك أمانا . فقال : مه ! والله ما أعطيتك إياها حتى رأيتك أهلا لها ، وما رأيت أحداً أولى بها منك ، فلا تضرب هذه الصلعة فتيان بنى أمية أبدا . وأشار إلى رأسه . ١٥
قال : فحدثت سليمان بن عبد الملك حديثه فقال : إن كنت لأراه أعرج جبانا !

فلما كانت الليلة التى قُتل فى صباحها ابن الزبير ، أقبل عبد الله بن صفوان وقد دنا أهل الشام من المسجد فاستأذن ، فقالت الجارية : هو نائم ! فقال أو ليلة نوم هذه ؟ أيقظيه ! فلم تفعل ، فأقام ثم استأذن ، فقالت : هو نائم ! فانصرف ، ثم رجع آخر الليل وقد هجم القوم على المسجد ؛ فخرج إليه فقال : والله ما نمت منذ عَقَلت الصلاة نومى هذه الليله وليلة الجمل ! ثم دعا بالسواك فاستاك متمكنا ، ثم توضأ متمكنا ، ولبس ثيابه ؛ ثم قال : أنظِرنى حتى أودع أمّ عبد الله فلم يبق شىء ! وكان يكره أن يأتيها فتعزم عليه أن يأخذ الأمان ؛ فدخل عليها وقد كُفّ بصرها فسلم ، فقالت : من هذا ؟ فقال : عبد الله ! فتشمّمته ثم قالت : يا بنىّ ،

مُتْ كريما! فقال لها: إن هذا قد أمّننى. يعنى الحجاج. قالت: يا بنىّ لا ترض الدنية، فإن الموت لابدّ منه! قال: إنى أخاف أن يمثّل بى. قالت: إن الكبش إذا ذبح لم يأ[لم] من السلخ!

قال: فخرج فقاتل قتالا شديدا، فجعل يهزمهم ثم يرجع ويقول: ياله فتحاً ٥ لو كان له رجال. لو كان المصعب أخى حيا.

فلما حضرت الصلاة صلى صلاته، ثم قال: أين باب أهل مصر؟ حنقا لعثمان فقاتل حتى قتل، وقُتل معه عبد الله بن صفوان.

وأُتى برأسه الحجاج وهو فاتح عينيه وفاه، فقال: هذا رجل لم يكن يعرف القتل ولا ما يصير إليه؛ فلذلك فتح عينيه وفاه.

١٠ هشام بن عروة عن أبيه، أن عبد الله بن الزبير كان أول مولود وُلد فى الإسلام، فلما ولد كبّر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ولما قُتل كبّر الحجاج بن يوسف وأهل الشام معه؛ فقال ابن عمر: ما هذا؟ قالوا: كبّر أهل الشام لقتل عبد الله بن الزبير! قال: الذين كبّروا لمولده خيرٌ من الذين كبروا لقتله.

١٥ أيوب عن أبى قلابة قال: شهدت ابنة أبى بكر غسّلت ابنها ابن الزبير بعد شهر، وقد تقطعت أوصاله وذُهب برأسه، وكفّنته، وصلت عليه.

هشام بن عروة قال: قال عبد الله بن عباس للجائز به: جنّبنى خشبة ابن الزبير. فلم يشعر ليلة حتى عثر فيها، فقال: ما هذا؟ فقال: خشبة ابن الزبير. فوقف ودعا له، وقال: لئن علتك رجلاك لطالما وقفت عليهما فى صلاتك! ثم قال ٢٠ لأصحابه: أما والله ما عرفته إلا صوّاما قوّاما، ولكنى ما زلت أخاف عليه منذ رأيته أن تعجبه بغلات معاوية الشُّهب. قال: وكان معاوية قد حج فدخل المدينة وخلفه خمس عشرة بغلة شهباء عليها رحائل الأرجوان فيها الجوارى عليهن الجلابيب والمعصفرات، ففتن الناس.

أولاد عبد الملك بن مروان

الوليد، وسليمان بن العبسية، ويزيد، وهشام، وأبو بكر، ومسلمة، وسعد الخير وعبد الله، وعنبسة، والحجاج، والمنذر، ومروان الأكبر، ومروان الأصغر — ولم يعقب مروان الأكبر — ويزيد، ومعاوية، ودَرَج .

وفاة عبد الملك بن مروان

٥

توفى عبد الملك بن مروان بدمشق للنصف من شوال سنة ست وثمانين وهو ابن ثلاث وستين، وصلى عليه الوليد بن عبد الملك؛ ووُلد عبد الملك فى المدينة فى دار مروان سنة ثلاث وعشرين .

وكتب عبد الملك إلى هشام بن إسماعيل المخزومى، وكان عامله على المدينة أن يدعو النـاس إلى البيعة لابنيه الوليد وسليمان؛ فبايع الناس غير سعيد بن ١٠ المسيب، فإنه أبى وقال: لا أبايع وعبد الملك حىٌّ، فضربه هشام ضربا مبرِّحا وألبسه المَسُوح، وأرسله إلى ثنية بالمدينة يقتلونه عندها ويصلبونه؛ فلمـا انتهوا به إلى الموضع ردوه، فقال سعيد: لو علمت أنهم لا يصلبوننى ما لبست لهم التُّبَّان . وبلغ عبد الملك خبره فقال: قبح الله هشاما؛ مثل سعيد بن المسيب يُضرب بالسياط! إنمـا كان ينبغى له أن يدعوَه إلى البيعة، فإن أبى ١٥ يضرب عنقه .

وقال للوليد: إذا أنا متُّ فضعنى فى قبرى ولا تعصر علىّ عينيك عصر الأَمَة، ولكن شمِّر واتزر، والبس للناس جلد النمر؛ فمن قال برأسه كذا، فقل بسيفك كذا!

ولاية الوليد بن عبد الملك

٢٠

ثم بويع للوليد بن عبد الملك فى النصف من شوال سنة ست وثمـانين . وأم الوليد ولادة بنت العباس بن جَزء بن الحارث بن زهير بن جذيمة العبسى .

وكان على شرطته كعب بن حماد ، ثم عزله وولى أبا نائل بن رباح بن عبدة الغسانى .

ومات الوليد يوم السبت فى النصف من شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين وهو ابن أربع وأربعين ، وصلى عليه سليمان . وكانت ولايته عشر سنين
٥ غير شهور .

ولد الوليد

عبد العزيز ، ومحمد ، وعنبسة ، ولم يعقبوا ؛ وأمهم أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ؛ والعباس ، وبه كان يكنى ، ويقال إنه كان أكبرهم ؛ وعمر ، وبشر ، وروح ، وتمام ، ومبشر ، وحَزْم ، وخالد ، ويزيد ، ويحيى ، وإبراهيم ، وأبو
١٠ عبيدة ، ومسرور ، ومنصور ، ومروان ، ومحمد ، وصدقة ، لأمهات أولاد . وأم أبى عبيدة فزارية ، وكان أبو عبيدة ضعيفاً .

وولى الخلافة من ولد الوليد : إبراهيم ، شهرين ثم خلع ووليَ يزيد الكاملُ شهراً ثم مات . وكان تمام ضعيفا ، فهجاه رجلٌ فقال .

بَنُو الوليد كِرامٌ فى أرُومَتِهِم * نالوا المَكارِمَ طُرًّا غيرَ تمّامِ

١٥ ومسرور بن الوليد كان ناسكا ، وكانت عنده بنت الحجاج . وكان بشر من فتيانهم ، وروْح من غلمانهم ، والعباس من فرسانهم ؛ وفيه يقول الفرزدق :

إنّ أبا الحارثِ العبّاسَ نائلُهُ * مِثْلُ السِّماكِ الذى لا يُخْلِفُ المطَرَا

وكان تحته بنت قَطَرِيّ بن الفجاءة ، سباها وتزوجها ، وله منها المؤمل ، والحارث ؛ وكان عمرو من رجالهم ، كان له تسعون ولداً ، ستون منهم كانوا
٢٠ يركبون معه إذا ركب .

وقال رجل من أهل الشام : ليس من ولد الوليد أحدٌ إلا ومن رآه يحسب أنه من أفضل أهل بيته .

ولو وُزن بهم أجمعين عبد العزيز لرجحهم ، وفيه يقول جرير :

وبنو الوليد مِنَ الوليد بمنزلٍ * كالبدرِ حُفّ بواضحاتِ الأنجُم

وعبد العزيز بن الوليد ، أراد أبوه أن يبايع له سليمان ، فأبى عليه سليمان .

وحدث الهيثم بن عدى عن ابن عباس ، قال : لما أراد الوليد أن يبايع لابنه عبد العزيز بعد سليمان ، أبى ذلك سليمان وشنع عليه ؛ وقيل للوليد : لو أمرتَ الشعراء أن يقولوا فى ذلك ، لعله كان يسكت فيُشْهَد عليه بذلك . فدعا الأُقيبل القينى فقال له : ارتجز بذلك وهو يسمع . فدعا سليمان فسايره ، والأقيبلُ خلفه ، فرفع صوته وقال :

إنّ ولىّ العهدِ لابنُ أمّهْ * ثم ابنُهُ ولىُّ عهدِ عمّهْ

قد رضِىَ الناسُ به فسمّه * فهو يضُمُّ المُلْكَ فى مِضَمّهْ

يا ليتَها قد خرجَتْ من فمّهْ

فالتفت إليه سليمان ، وقال : ابنَ الخبيثة ! من رضى بهذا ؟

أخبار الوليد

أبو الحسن المدائنى قال : كان الوليد أسنّ ولدِ عبد الملك ، وكان يحبه ، فتراخى فى تأديبه لشدة حبه إياه فكان لحّاناً .

وقال عبد الملك : أضرنا فى الوليد حبُّنا له فلم نُوجّهْه إلى البادية .

وقال الوليد يوما وعنده عمر بن عبد العزيز : يا غلام ، ادع لى صالح . فقال الغلام : يا صالحا ! فقال له الوليد : انقص ألفا . فقال له عمر بن عبد العزيز : وأنت يا أمير المؤمنين فزِدْ ألِفا !

وكان الوليد عند أهل الشام أفضلَ خلفائهم وأكثرهم فتوحا وأعظمَهم نفقة فى سبيل الله ، بنى مسجد دمشق ، ومسجد المدينة ، ووَضَع المنابر وأعطى المجذومين حتى أغناهم عن سؤال الناس ، وأعطى كل مُقْعَد خادما وكلّ ضرير

قائداً ، وكان يمر بالبقال فيتناول قبضة فيقول : بِكَمْ هذه ؟ فيقول : بفلس . فيقول : زد فيها فإنك تربح .

ومرّ الوليد بمعلم كُتّاب فوجد عنده صَبيّة ، فقال : ما تصنع هذه عندك ؟ فقال أُعَلِّمها الكتابة والقرآن . قال : فاجعل الذى يعلمها أصغرَ منها سنًّا .

وشكا رجل من بنى مخزوم دَيْناً لزمه ، فقال : نقْضِيه عنكَ إن كنت لذلك مستحقا . قال : يا أمير المؤمنين ، وكيف لا أكون مستحقا فى منزلتى وقرابتى ؟ قال : قرأتَ القرآن ؟ قال : لا ! قال : آدن منى . فدنا منه ، فنزع العمامة عن رأسه بقضيب فى يده ، ثم قرعه به قرْعة ، وقال لرجل من جلسائه : ضمّ إليك هذا العلج ولا تفارقه حتى يقرأ القرآن . فقام إليه آخر فقال يا أمير المؤمنين ، آقض دينى ! فقال له : أتقرأ القرآن ؟ قال : نعم . فاستقرأه عشراً من الأنفال ، وعشراً من براءة ؛ فقرأ ، فقال : نعم ، نقضى دينك وأنت أهلٌ لذلك .

وركب الوليدُ بعيراً وحادٍ يحدو بين يديه ، والوليد يقول :

يأيها البكْرُ الذى أراكا ٭ ويْحَكَ تعلمُ الذى علَاكا
خليفةُ اللهِ الذى آمتطاكا ٭ لم يُحْبَ بكرٌ مِثل ما حَباكا

ولاية سليمان بن عبد الملك

أبو الحسن المدائنى قال : ثم بويع سليمان بن عبد الملك فى ربيع الأول سنة ست وتسعين .

ومات سنة تسع وتسعين بدابق يوم الجمعة لعشر خلون من صفر ، وهو ابن ثلاث وأربعين ، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز . وكانت ولايته سنتين وعشرة أشهر ونصفاً .

وله سليمان بن عبد الملك بالمدينة فى بنى جُديلة ، ومات بدابق من أرض قنسرين وكان سليمان فصيحاً جميلا وسيما ، نشأ بالبادية عند أخواله بنى عبس .

وكانت ولايته يمنا وبركة ، افتتحها بخير وختمها بخير : فأما افتتاحه فيها بخير فردّ المظالم وأخرج المسجونين ، وبغزاة مسلمة بن عبد الملك الصائفة حتى بلغ القسطنطينية ؛ أما ختمها بخير فاستخلافه عمر بن عبد العزيز .

ولبس يوما واعتمّ بعمامة ، وكانت عنده جارية حجازية ، فقال لها : كيف ترين الهيئة ؟ فقالت : أنت أجمل العرب لولا . . . قال : علىّ ذلك لتقولنّ . قالت :

أنت نِعمَ المتاعُ لو كنتَ تبقَى ٭ غيْرَ أن لا بقاء للإنسانِ

أنت خلْوٌ من العيوبِ ومِمّا ٭ يكْرَهُ الناسُ غير أنك فانِ !

قال : فتنغص عليه ما كان فيه ، فما لبث بعدها إلا أياما حتى توفى رحمه الله !

وتفاخر ولد لعمر بن عبد العزيز وولد لسليمان بن عبد الملك ، فذكر ولد عمر فضل أبيه وخاله ، فقال له ولد سليمان : إن شئت أقِلّ وإن شئت أكثر ؛ فما كان أبوك إلا حسنةً من حسنات أبى .

محمد بن سليمان قال : فعل سليمان فى يوم واحد مالم يفعله عمر بن عبد العزيز فى طول عمره : أعتق سبعين ألفاً مابين مملوك ومملوكة وبتّتهم — أى كساهم — والبتُّ : الكسوة .

ولد لسليمان : أيوب ، وأمه أم أبان بنت الحكم بن العاص ، وهو أكبر ولد سليمان وولى عهده ، فمات فى حياة سليمان ، وله يقول جرير :

إنّ الإمامَ الذى تُرجَى فواضِلُهُ ٭ بعدَ الإمامِ ولىُّ العهدِ أيُّوبُ

وعبد الواحد ، وعبد العزيز ، أمهما أم عامر بنت عبد الله بن خالد بن أسيد وفى عبد الواحد يقول القطامى :

أهلُ المدينةِ لايَحْزُنك حالُهم ٭ إذا تخطّأ عبدَ الواحدِ الأجلُ

قد يُدركُ المُتأنى بعض حاجتِه ٭ وقد يكونُ مع المُستعجِلِ الزّلَلُ

ولما مات أيوب وليُّ عهد سليمان بن عبد الملك ، قال ابن عبد الأعلى يرثيه ، وكان من خواصه :

ولقد أقولُ لذى الشَّماتةِ إذ رأى * جزَعى ومَن يَذُقِ الحوادِثَ يَجزَعِ
أبشِرْ فقد قَرَعَ الحوادثُ مَرْوَتى * وافرحْ بمَرْوتِكَ التى لم تُقـرَعِ
٥ إنْ عِشتَ تُفجَعْ بالأحبّةِ كلِّهمْ * أو يُفجَعوا بكَ إنْ بِهِم لم تُفجَعِ
أيُّوبُ مَن يَشمَت بموتِك لم يُطِقْ * عن نفسه دفْعًا وهل مِن مَدْفَعِ

أخبار سليمان بن عبد الملك

أبو الحسن المدائنى قال : لما بلغ قتيبةَ بن مسلم أنّ سليمان بن عبد الملك عزله عن خراسان واستعمل يزيد بن المهلب ، كتب إليه ثلاث صحف ، وقال ١٠ للرسول : ادفع إليه هذه ، فإن دفعها إلى يزيد فادفع إليه هذه ، فإن شتمنى فادفع هذه . فلما سار الرسول إليه دفع الكتاب إليه ، وفيه : يا أمير المؤمنين ، إنّ من بلائى فى طاعة أبيك وأخيك كيت وكيت . فدفع كتابه إلى يزيد ، فأعطاه الرسول الكتاب الثانى ، وفيه : يا أمير المؤمنين ، كيف تأمن ابن رحمةَ على أسرارك وأبوه لم يأمنه على أمّهات أولاده ؟ فلما قرأ الكتاب شتمه ١٥ وناوله ليزيد ، فأعطاه الثالث ، وفيه : من قتيبة بن مسلم إلى سليمان بن عبد الملك ، سلام على من اتبع الهدى ، أمّا بعد : فوالله لأوثّقن له آخِيّة لا ينزعها المُهر الأرن ! فلما قرأها قال سليمان : عجِلنا على قُتيبة ! يا غلام ، جدّد له عهداً على خراسان .

ودخل يزيد بن أبى مسلم كاتب الحجاج على سليمان ، فقال له سليمان : أترى ٢٠ الحجاج استقرّ فى قعر جهنم ، أم هو يهوى فيها ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ الحجاج يأتى يوم القيامة بين أبيك وأخيك ، فضعه من النار حيث شئت ! قال : فأمر به إلى الحبس ، فكان فيه طولَ ولايته

قال محمد بن يزيد الأنصارى : فلما ولى عمر بن عبد العزيز ، بعثنى فأخرجتُ

من السجن مَن حَبَسَ سليمانُ ما خلا يزيد بن أبى مسلم فقد ردّ . . .

فلما مات عمر بن عبدالعزيز ولاه يزيد بن عبدالملك أفريقية وأنا فيها ، فأُخذتُ فأُتى بى إليه فى شهر رمضان عند الليل ، فقال : محمد بن يزيد ؟ قلت : نعم . قال : الحمد لله الذى مكننى منك بلا عهد ولا عقد ، فطالما سألت الله أن يمكننى منك ! قلت : وأنا والله طالما استعذت بالله منك ! قال : فوالله ما أعاذك الله منى ، ولو أنّ مَلَكَ الموت سابقنى إليك لسبقتُه ! قال : فأُقيمت صلاة المغرب ، فصلى ركعة فثارت عليه الجند فقتلوه ، وقالوا لى : خذ إلى الطريق أىّ طريق شئت .

وأراد سليمان بن عبدالملك أن يحجر على يزيد بن عبدالملك ، وذلك أنه تزوج سعدى بنت عبدالله بن عمرو بن عثمان فأصدقها عشرين ألف دينار ، واشترى جارية بأربعة آلاف دينار ؛ فقال سليمان : لقد هممتُ أن أضرب على يدِ هذا السفيه ، ولكن كيف أصنع بوصية أمير المؤمنين بأبْنَىْ عاتكة : يزيد ومروان ؟

وحَبَس سليمانُ بن عبد الملك ، موسى بنَ نصير ، وأوحَى إليه : اغرم ديتَك خمسين مرة ! فقال موسى : ما عندى ما أغرمه . فقال : والله لتغرمنَّها مائة مرة فحملها عنه يزيد بن المهلب ، وشكر ما كان من موسى إلى أبيه المهلب أيام بشر ابن مروان ؛ وذلك أن بشراً همّ بالمهلب : فكتب إليه موسى يحذّره ، فتمارض المهلب ولم يأته حين أرسل إليه .

وكان خالد بن عبد الله القسرى والياً على المدينة للوليد ثم أقرّه سليمان ؛ وكان قاضى مكة طلحة بن هرم ؛ فاختصم إليه رجل من بنى شيبة الذين إليهم مفتاح الكعبة يقال له الأعجم ، مع ابن أخ له فى أرض لهما ، فقضى للشيخ على ابن أخيه ، وكان متصلا بخالد بن عبد الله ، فأقبل إلى خالد فأخبره ؛ فحال خالد بين الشيخ وبين ما قضى له القاضى ؛ فكتب القاضى كتابا إلى سليمان يشكو له خالدا . ووجّه الكتاب إليه مع محمد بن طلحة ؛ فكتب سليمان إلى خالد :

لاسبيل لك على الأعجم ولا ولده . فقدم محمد بن طلحة بالكتاب على خالد وقال
لاسبيل لك علينا : هذا كتاب أمير المؤمنين . فأمر به خالد فضرب مائة سوط
قبل أن يقرأ كتاب سليمان ؛ فبعث القاضى ابنه المضروب إلى سليمان ؛ وبعث
ثيابه التي ضرب فيها بدمائها ؛ فأمر سليمان بقطع يد خالد فكلمه يزيد بن المهلب
٥ وقال : إن كان ضربه يا أمير المؤمنين بعد ماقرأ الكتاب تقطع يده ، وإن كان
ضربه قبل ذلك فعفو أمير المؤمنين أولى بذلك . فكتب سليمان إلى داود بن
طلحة بن هرم : إن كان ضَرب الشيخَ بعد ما قرأ الكتاب الذى أرسلته فاقطع
يده ، وإن كان ضربه قبل أن يقرأ كتابى فاضربه مائة سوط . فأخذ داود بن
طلحة ـ لما قرأ الكتاب ـ خالداً فضربه مائة سوط ؛ فجزع خالد من الضرب
١٠ فجعل يرفع يديه ؛ فقال له الفرزدق : ضم إليك يديك يابن النصرانية ! فقال
خالد : ليهنأ الفرزدق ، وضمّ يديه . وقال الفرزدق :

لَعَمرى لقد صُبّتْ على مَتْن خالدٍ ٭ شآبيبُ لم يُصبَبْنَ مِن صيِّب القَطْرِ
فلولا يَزيدُ بنُ المُهلَّب حَلّقتْ ٭ بكفّكَ فتْخاءُ الجَناح إلى الوَكْر

فردّت أم خالد عليه تقول :

١٥ لعمْرى لقد باعَ الفَرزْدَقُ عِرْضَه ٭ بخَسْفٍ وصلى وجهه حامِيَ الجَمْر
فكيف يُساوى خالداً أو يَشِينُه ٭ خَميصٌ من التّقْوى بَطينٌ من الخَمْر

وقال الفرزدق أيضا فى خالد القسرى :

سَلوا خالدا ، لا قدّسَ اللهُ خالداً ٭ متى ملَكَتْ قَسْرٌ قريشا تَدِينُها ؟
أقبْل رسولِ الله أو بعدَ عهْدِه ؟ ٭ فتلكَ قريشٌ قد أغثَّ سَمِينُها
٢٠ رجوْنا هُداه ؛ لا هَدَى اللهُ قلبَه ٭ وما أُمّه بالأمّ يُهـدَى جَنينها

فلم يزل خالد محبوساً بمكة حتى حج سليمان وكلمه فيه المفضّل بن المهلب ؛
فقال سليمان : لاطات بك الرحم أبا عثمان ؛ إن خالداً جَرّعنى غيظا ! قال :
يا أمير المؤمنين ، هبنى ما كان من ذنبه . قال : قد فعلتُ ، ولا بد أن يمشى إلى

الشام راجلا ! فمشى خالد إلى الشام راجلا .

وقال الفرزدق يمدح سليمان بن عبد الملك :

سليمانُ غيثُ المُمْحلِين ومَن به ٭ عن البائِس المسكينِ حُلّت سلاسِلُهْ

وما قامَ من بعدِ النبيِّ محمدٍ ٭ وعثمانَ فوقَ الأرض راعٍ يُماثله

جعَلتَ مكانَ الجوْر فى الأرض مثله ٭ من العدْلِ إذ صارت إليكَ مَحامِله ٥

وقد علِموا أنْ لن يَميلَ بك الهوى ٭ وما قلتَ من شيء فإنك فاعله

زياد عن مالك ، أن سليمان بن عبد الملك قال يوما لعمر بن عبد العزيز : كذبتَ ! قال : والله ما كذبتُ منذ شددتُ علىَّ إزارى ، وإن فى غير هذا المجلس لَسَعة ! وقام مغضباً فتجهز يريد مصر ! فأرسل إليه سليمان فدخل عليه ؛ فقال له : يابن عمى ، إن المعاتبة تشُقُّ علىَّ ، ولكن والله ما أهمنى أمر قط من دينى ودنياى ١٠ إلا كنتَ أوّل من أذكرُه لك .

وفاة سليمان بن عبد الملك

قال رجاء بن حَيْوة : قال لى سليمان : إلى من ترى أن أعهد ؟ فقلت : إلى عمر بن عبدالعزيز ! قال : كيف نصنع بوصية أمير المؤمنين بابنى عاتكة مَن كان منهما حيا ؟ قلت : تجعل الأمر بعده ليزيد . قال : صدقت . قال : فكتب ١٥ عهده لعمر ثم ليزيد بعده .

ولما ثقل سليمان قال : ائتونى بقُمْص بنِىَّ أنظر إليها ! فأُتى بها فنشرها فرآها قصارا ، فقال :

إن بَنِىَّ صِبْيةٌ صِغارُ ٭ أفْلح مَن كان له كِبارُ

فقال له عمر ﴿ أفْلحَ مَن تَزكّى وذَكَر اسمَ ربِّه فصلّى ﴾ . ٢٠

وكان سبب موت سليمان بن عبد الملك ، أن نصرانيا أتاه وهو بدابق بزنبيل مملوء بيضاً وآخر مملوء تيناً ، فقال : قشِّروا . فقشروا ، فجعل يأكل

بيضة وتينة ، حتى أتى على الزنبيلين ، ثم أتوه بقصعة مملوءة مخا بسكر ، فأكله ، فأتخم فمرض فمات .

ولما حج سليمان تأذى بحرّ مكة ، فقال له عمر بن عبد العزيز : لو أتيتَ الطائف ! فأتاها ، فلما كان بسَحْق لقيه ابن أبى الزهير ، فقال : يا أمير المؤمنين ،

٥ اجعل منزلك علىّ . قال : كلٌّ منزلى . فرمى بنفسه على الرمل ، فقيل له : يساق إليك الوطاء . فقال : الرمل أحبُّ إلىّ . وأعجبه بردُه ، فالزق بالرمل بطنه ، قال : فأتى إليه بخمس رمانات فأكلها ، فقال : أعندكم غير هذه ؟ فجعلوا يأتونه بخمس بعد خمس ، حتى أكل سبعين رمانة ؛ ثم أتوه بجدْى وست دجاجات ، فأكلهن ؛ وأتوه بزبيب من زبيب الطائف فنُثر بين يديه ، فأكل عامته ؛ ونعس ، فلما انتبه أتوه

١٠ بالغداء ، فأكل كما أكل الناس ، فأقام يومه : ومن غد قال لعمر : أرانا قد أضررنا بالقوم . وقال لابن أبى الزهير : اتبعنى إلى مكة . فلم يفعل ، فقالوا له : لو أتيته ! فقال : أقول ماذا ؟ أعطنى ثمن قِراى الذى قريتُه ! ؟

العتبى عن أبيه عن الشمردل وكيل آل عمرو بن العاص ، قال . لما قدم سليمان بن عبد الملك الطائف ، دخل هو وعمر بن عبد العزيز وأيوب ابنه بستانا

١٥ لعمرو ، قال : فجال فى البستان ساعة ، ثم قال : ناهيك بمالِكم هذا مالا ! ثم ألقى صدره على غصن وقال : ويلك يا شمردل ! ما عندك شىء تطعمنى ؟ قلت : بلى والله ، عندى جَدْىٌ كانت تغدو عليه بقرة وتروح أخرى . قال : عجل به ويحك ! فأتيته به كأنه عُكّة سمن ، فأكله وما دعا عُمر ولا ابنَه ، حتى إذا بقى الفخذ قال : هلم أبا حفص . قال : أنا صائم . فأتى عليه ، ثم قال : ويلك يا شمردل !

٢٠ ما عندك شىء تطعمنى ؟ قلت : بلى والله ، دجاجتان هنديتان كأنهما رألا النعام . فأتيته بهما ، فكان يأخذ برجل الدجاجة فيُلقى عظامَها نقية ، حتى أتى عليهما ؛ ثم رفع رأسه فقال : ويلك يا شمردل ! ما عندك شىء تطعمنى ؟ قلت : بلى ، عندى حَريرة كأنها قراضة ذهب . قال : عجل بها ويلك ! فأتيته بعُسّ يغيب فيه الرأس ، فجعل يتلقّمها بيده ويشرب ، فلما فرغ تجشأ ، فكأنما صاح فى جب ؛ ثم قال :

يا غلام ، أفرغت من غدائى ؟ قال : نعم . قال : وما هو ؟ قال : ثمانون قدرا .
قال : ائتنى بها قدرا قدرا . قال : فأكثرُ ما أكل من كل قدر ثلاثُ لقم ، وأقلُّ
ما أكل لقمة ؛ ثم مسح يده واستلقى على فراشه ، ثم أذن للناس ؛ ووُضعت
الخِوانات ، وقعد يأكل فما أنكرت شيئا من أكله .

خلافة عمر بن عبد العزيز

٥

المدائنى قال : هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم . وكنيته أبو حفص .
وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر الخطاب . وولى الخلافة يوم الجمعة لعشر خلون
من صفر سنة تسع وتسعين . ومات يوم الجمعة لست بقين من رجب ، بدير
سمْعان من أرض دمشق ، سنة إحدى ومائة . وصلى عليه يزيد بن عبد الملك .

علي بن زيد قال . سمعت عمر بن عبد العزيز يقول : تمت حُجة الله على ابن
الأربعين . ومات لها . ١٠

وكان على شرطته يزيد بن بشير الكنانى ، وعلى حرسه عمرو بن المهاجر ، ويقال
أبو العباس الهلالى ؛ وكان كاتبه على الرسائل ابن أبى رقية ، وكاتبه أيضا إسماعيل
ابن أبى حكيم ، وعلى خاتم الخلافة نعيم ابن أبى سلامة ، وعلى الخراج والجند
صالح بن أبى جبير ، وعلى إذنه أبو عبيدة الأسود مولاه . ١٥

يعقوب بن داود الثقفى عن أشياخ من ثقيف قال : قرئ عهد عمر بالخلافة
وعمرُ فى ناحية ، فقام رجل من ثقيف يقال له سالم من أخوال عمر ، فأخذ
بضبْعيه فأقامه ؛ فقال عمر : أما والله ما اللهَ أردتَ بهذا ، ولن تصيبن بها منى دنيا .

أبو بشر الخراسانى قال : خطب عمر بن عبد العزيز الناس حين
استخلف ، فقال : ٢٠

أيها الناس ، والله ما سألت الله هذا الأمر قط فى سرٍّ ولا علانية ، فمن كان
كارها لشىء مما وليتُه فالآن .

فقال سعيد بن عبد الملك : ذلك أسرع فيما نكره أتريد أن نختلف ويضرب

بعضنا بعضا ؟ قال رجل : سبحان الله ! وليها أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، ولم يقولوا هذا ؛ ويقوله عمر .

أخبار عمر بن عبد العزيز

بشر بن عبد الله بن عمر قال : كان عمر يخلو بنفسه ويبكى فنسمع نحيبه بالبكاء وهو يقول : أبَعْدَ الثلاثة الذين واريتهم بيدى : عبد الملك ، والوليد ، وسليمان .

وقدم رجل من خراسان على عمر بن عبد العزيز حين استخلف ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى رأيت فى منامى قائلا يقول : إذا وَلِىَ الأشجُّ من بنى أمية يملأ الأرض عدلا كما مُلئت جورا ؛ فولىَ الوليد ، فسألت عنه فقيل لى : ليس بأشج ؛ ثم ولى سليمان ، فسألت عنه فقيل : ليس بأشج ؛ ووليت أنتَ فكنت الأشج . فقال عمر : تقرأ كتابَ الله ؟ قال : نعم . قال : فبالذى أنعم عليك به ، أحق ما أخبرتنى ؟ قال : نعم . فأمره أن يقيم فى دار الضيافة ، فمكث نحواً من شهرين ، ثم أرسل إليه عمر فقال : هل تدرى لِمَ احتبسناك ؟ قال : لا . قال : أرسلنا إلى بلدك لنسأل عنك فإذا ثناء صديقك وعدوك عليك سواء ؛ فانصرِف راشدا .

وكان عمر بن عبد العزيز لا يأخذ من بيت المال شيئا ، ولا يُجرى على نفسه من الفىء درهما ؛ وكان عمر بن الخطاب يجرى على نفسه من ذلك درهمين فى كل يوم ؛ فقيل لعمر بن عبد العزيز : لو أخذتَ ما كان يأخذ عمر بن الخطاب ؟ فقال : إن عمر بن الخطاب لم يكن له مال ، وأنا مالى يغنينى !

ولما ولى عمر بن العزيز قام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين أعْدِنى على هذا وأشار إلى رجل ، قال : فيم ؟ قال : أخذ مالى وضرب ظهرى . فدعا به عمر فقال ما يقول هذا ؟ قال : صدق ، إنه كتب إلى الوليد بن عبد الملك : « وطاعتكم

فريضة ، قال : كذبتَ ! لا طاعة لنا عليكم إلا فى طاعة الله . وأمر بالأرض فرُدّت إلى صاحبها .

عبد الله بن المبارك عن رجل أخبره ، قال : كنت مع خالد بن يزيد بن معاوية فى صحن بيت المقدس ، فلقينا عمر بن عبد العزيز ولا أعرفه ، فأخذ بيد خالد وقال : يا خالد ، أعلَينا عَين ؟ قلت : عليكما من الله عينٌ بصيرة وأذنٌ سميعة ! ٥
قال : فاستلّ يده من يد خالد وأُرعد ودمعت عيناه ومضى ، فقلت لخالد : من هذا ؟ قال : هذا عمرُ بنُ عبد العزيز ، وإن عاش فيوشك أن يكون إماما عدْلا .

وقال رياح بن عبيدة : اشتريتُ لعمر قبل الخلافة مِطْرفا بخمسمائة ، فاستخشنه وقال : لقد اشتريتَه خَشِنا جدًّا ! واشتريت له بعد الخلافة كساء بثمانية دراهم ، ١٠
فاستلانه وقال : لقد اشتريتَه ليّنا جدا !.

ودخل مسلمة بن عبد الملك على عمر وعليه رَيطة من رياط مصر ؛ فقال : بكم أخذت هذا يا أبا سعيد ؟ قال : بكذا وكذا . قال : فلو نقصتَ من ثمنها ما كان ناقصا من شرفك . قال مسلمة : إن أفضلَ الاقتصاد ما كان بعد الجِدَة ، وأفضل العفو ما كان بعد القدرة ، وأفضل اللّين ما كان بعد الولاية . ١٥

وكان لعمر غلامٌ يقال له درهم يحتطب له ، فقال له يوما : ما يقول الناس يادرهم ؟ قال : وما يقولون ؟ الناسُ كلهم بخير ، وأنا وأنت بشرٍ ! قال : وكيف ذلك ؟ قال : إنى عهدتك قبل الخلافة عطِراً ، لبّاساً ، فارِه المركب ، طيّبَ الطعام ؛ فلما وليتَ رجوتُ أن أستريحَ وأتخلص ، فزاد عملى شدة ، وصرتَ أنت فى بلاء ! قال : فأنت حرٌّ ، فاذهب عنى ودعنى وما أنا فيه حتى يجعل الله لى ٢٠
منه مخرجا !

ميمون بن مِهْران قال : كنت عند عمر ، فكثر بكاؤه ومسألتُه ربَّه الموتَ، فقلت : لِم تسأل الموت وقد صنع الله على يديك خيرا كثيرا : أحيا بك سُنَنا ،

وأمات بك بدعا قال : أفلا أكون مثل العبد الصالح أقر الله عينه وجمع له أمره قال : ﴿ ربِّ قد آتيتَنِي منَ المُلكِ وعلَّمتَني منْ تأويلِ الأحاديثِ فاطِرَ السَّمواتِ والأرضِ أنت وليِّي في الدُّنيا والآخرةِ توَفَّني مُسْلِماً وألحِقْني بالصَّالحينَ ﴾ !

ولما ولى عمر بن عبد العزيز قال : إن فَدَك كانت مما أفاء الله على رسوله فسألتْها فاطمة رسول الله ، فقال لها : مالك أن تسأليني ، ولا لي أن أعطيك ! فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع فيها حيث أمره الله ، ثم أبو بكر وعمر وعثمان ، كانوا يضعونها المواضع التي وضعها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ثم ولي معاوية فأقطعها مروان ، ووهبها مروان لعبد الملك وعبد العزيز ، فقسمناها بيننا أثلاثا : أنا والوليد وسليمان ؛ فلما ولي الوليد سألتُه نصيبَه فوهبه لي ، وما كان لي مال أحبُّ إلي منها ؛ وأنا أُشهدكم أني قد رددتها إلى ما كانت عليه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال عمر : الأمور ثلاثة : أمرٌ استبان رشدُه فاتَّبعْه ؛ وأمر استبان ضرُّه فاجتنِبْه ؛ وأمرٌ أشكل أمرُه عليك فرُدَّه إلى الله .

وكتب عمر إلى بعض عماله : الموالي ثلاثة : مولى رحِم ، ومولى عَتاقة ، ومولى عَقد ؛ فمولى الرحم يرث ويُورَث ، ومولى العتاقة يُورَث ولا يرث ، ومولى العقد لا يَرث ولا يُورث وميراثه لعصَبته .

وكتب عمر إلى عماله : مُرُوا من كان على غير الإسلام أن يضعوا العمائم ويلبسوا الأكسية ولا يتشبَّهوا بشيء من الإسلام ، ولا تتركوا أحداً من الكفار يستخدم أحداً من المسلمين .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة عامله على العراق : إذا أمكنتك القدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق القادر عليك ، واعلم أن مالك عند الله أكثر مما لك عند الناس .

وكتب عمرو بن عبد العزيز إلى عماله :

مُرُوا من كان قبلكم فلا يبقى أحد من أحرارهم ولا مماليكهم صغيراً

ولا كبيراً ، ذكراً ولا أنثى ، إلا أخرج عنه صدقة فطر رمضان : مُدَّين من قمح ، أو صاعاً من تمر ، أو قيمة ذلك نصف درهم ؛ فأما أهل العطاء فيؤخذ ذلك من أعطياتهم عن أنفسهم وعيالاتهم ، واستعملوا على ذلك رجلين من أهل الأمانة يقبضان ما اجتمع من ذلك ثم يقسمانه فى مساكين أهل الحاضرة ، ولا يُقسَم على أهل البادية .

وكتب عبد الحميد بن عبد الرحمن إلى عمر : إنّ رجلا شتمك فأردت أن أقتله .

فكتب إليه : لو قتلتَه لأقدْتُك به ، فإنه لا يُقْتَل أحدٌ بشَتْم أحدٍ إلا رجل شَتَم نبيا .

وكتب رجل من عمال عمر إلى عمر : إنا أُتينا بساحرة ، فألقيناها فى الماء ، فطفت على الماء ؛ فما ترى فيها ؟

فكتب إليه : لسنا من الماء فى شىء ، إن قامت عليها بينة وإلا خلّ سبيلها .

وكان عمر بن عبد العزيز يكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن عامله على المدينة فى المظالم فيرادُّه فيها ، فكتب إليه :

إنه يخيَّل لى أنى لو كتبت لك أن تعطىَ رجلا شاةً لكتبت إلىَّ : أذكر أم أنثى ؟ ولو كتبت إليك بأحدهما لكتبت إلىَّ : أصغيرة أم كبيرة ؟ ولو كتبتُ بأحدهما لكتبتَ : ضائنة أم معزى ؟ فإذا كتبت إليك فنفِّذْ ولا تردّ علىَّ ، والسلام .

وخطب عمر فقال :

أيها الناس ، لا تستصغروا الذنوب ، والتمسوا تمحيص ما سلف منها بالتوبة منها ؛ ﴿ إن الحسناتِ يُذهبن السيآت ، ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ ، وقال عز وجل : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحِشَةً أو ظلَموا أنفسَهُم ذكروا الله فاستغفروا لِذُنوبِهم ومَنْ يغفر الذنوب إلا اللهُ ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يَعْلمونَ ﴾ .

وقال عمر لبنى مروان : أدُّوا ما فى أيديكم من حقوق الناس ولا تُلْجئونى إلى ما أكره فأحملكم على ما تكرهون ! فلم يجبه أحد منهم ، فقال : أجيبونى . فقال رجل منهم : والله لانخرج من أموالنا التى صارت إلينا من آبائنا ، فنُفْقِر أبناءنا ، ونكفر آباءنا ، حتى تزايل رءوسنا . فقال عمر : أما والله لولا أن تستعينوا علىّ ٥ بمن أطلب هذا الحق له لأضرعت خدودكم عاجلا ، ولكننى أخاف الفتنة ؛ ولئن أبقانى الله لأرُدَّنَّ إلى كل ذى حق حقه إن شاء الله !

وكان عمر إذا نظر إلى بعض بنى أمية قال : إنى أرى رقابا سترد إلى أربابها .

ولما مات عمر بن عبد العزيز قعد مَسْلمة على قبره فقال : أما والله ما آمَنْتُ الرِّقَّ حتى رأيت هذا القبر .

١٠ العتبى قال : لما انصرف عمر بن عبد العزيز من دفن سليمان بن الملك تبعه الأمويون ، فلما دخل إلى منزله قال له الحاجب : الأمويون بالباب . قال : وما يريدون ؟ قال : ما عوّدتهم الخلفاء قبلك . قال ابنه عبد الملك وهو إذ ذاك ابن أربع عشرة سنة : ائذن لى فى إبلاغهم عنك . قال : وما تبلغهم ؟ قال : أقول : أبى يُقرئكم السلام ويقول لكم ﴿ إنى أخاف إن عصَيت ربى عذاب يوم عظيم ﴾ .

١٥ زياد عن مالك قال : قال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه : يا أبت ، مالك لا تُنفذ الأمور ؟ فوالله ماأبالى لو أن القدور غلت بى وبك فى الحق ! قال له عمر : لا تعجل يا بنىّ ؛ فإنّ الله ذمّ الخمر فى القرآن مرتين وحرّمها فى الثالثة ، وأنا أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدفعونه جملة ويكون من ذلك فتنة .

ولما نزل بعبد الملك بن عمر بن عبد العزيز الموت قال له عمر : كيف تجدك ٢٠ يا بنىّ ؟ قال أجدنى فى الموت ، فاحتسبْنى ، فثواب الله خير لك منى ، فقال : يا بنى ، والله لأنْ تكون فى ميزانى أحبُّ إلىّ من أن أكون فى ميزانك . قال : أما والله لأن يكون ما تحب ، أحبُّ إلىّ من أن يكون ما أحب ! ثم مات ، فلما فرغ من دفنه وقف على قبره وقال : يرحمك الله يا بنىّ فلقد كنت سارّا مولودا ، وبارّا ناشئا ، وما أحب أنى دعوتك فأجبتنى ؛ فرحم الله كل عبد ، من حر أو عبد ، ذكر أو أنثى

دعا لك برحمة ! فكان الناس يترحمون على عبد الملك ليدخلوا فى دعوة عمر ؛ ثم انصرف ، فدخل الناس يعزونه ، فقال : إن الذى نزل بعبد الملك أمر لم نزل نعرفه ، فلما وقع لم ننكره !

وتوفيت أخت لعمر بن عبد العزيز ، فلما فرغ من دفنها دنا إليه رجل فعزاه ، فلم يرد عليه ، ثم آخر فلم يرد عليه ؛ فلما رأى الناس ذلك أمسكوا ، ومشوا معه ٥ فلما دخل الباب أقبل على الناس بوجهه ، فقال : أدركت الناس وهم لا يُعزّون فى المرأة إلا أن تكون أمًّا .

وفاة عمر بن عبد العزيز

مرض عمر بن عبد العزيز بأرض حمص ، ومات بدير سِمْعان . فيرى الناس أن يزيد بن عبد الملك سمه ، دسّ إلى خادم كان يخدمه ، فوضع السم على ١٠ ظفر إبهامه فلما استسقى عمر غمس إبهامه فى الماء ثم سقاه ؛ فمرض مرضه الذى مات فيه ، فدخل عليه مسلمة بن عبد الملك فوقف عند رأسه فقال : جزاك الله يا أمير المؤمنين عنا خيراً ؛ فلقد عطفت علينا قلوبا كانت عنا نافرة ، وجعلت لنا فى الصالحين ذِكرا .

زياد عن مالك قال : دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز ١٥ فى المَرْضة التى مات فيها ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال ، وتركتهم عالة . ولا بد لهم من شىء يصلحهم ، فلو أوصيت بهم إلىّ أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مئونتهم إن شاء الله . فقال عمر أجلسونى . فأجلسوه ، فقال : الحمد لله ، أبالفقر تخوّفنى يامسلمة ؟ أما ماذكرت أنى فطمت أفواه ولدى عن هذا المال وتركتهم عالة ، فإنى لم أمنعهم حقًّا ٢٠ هو لهم ، ولم أعطهم حقا هو لغيرهم ؛ وأما ماسألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتى ، فإن وصيتى بهم إلى الله الذى نزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين ؛ وإنما بنو عمر أحد رجلين : رجلٌ اتقى الله فجعل الله له من أمره يسراً

ورزقه من حيث لا يحتسب ، ورجل غيَّر وفجَرَ فلا يكون عمرُ أول من أعانه على ارتكابه . ادعوا لى بَنِيَّ — فدعوْهم ، وهم يومئذ اثنا عشر غلاما ، فجعل يُصعِّدُ بصَره فيهم ويصوِّبه حتى اغرَوْرقَتْ عيناه بالدمع — ثم قال : بنفسى فتية تركتهم ولا مالَ لهم ! يا بَنِى ، إنى قد تركتكم من الله بخير ، إنكم لا تمرُّون على مسلم ولا معاهَد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله ، يا بَنِيَّ ، ميَّلت رأيى بين أن تفتقروا فى الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار ، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيرا من دخول أبيكم يوما واحداً فى النار ؛ قوموا يا بَنِيَّ عصمكم الله ورزقكم !

قال : فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر .

واشترى عمر بن عبد العزيز من صاحب دير سِمْعان موضعَ قبره بأربعين درهما ومرض تسعة أيام ومات رضى الله عنه يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة ، وصلى عليه يزيد بن عبد الملك .

وقال جرير بن الخطفى يرثى عمر بن عبد العزيز :

يَنعَى النعاةُ أميرَ المؤمنين لنا ٭ يا خيرَ مَن حجَّ بيتَ الله واعتمَرا

حُمِّلت أمراً عظيما فاصطَبَرتَ له ٭ وسِرْت فينا بحكمِ الله يا عُمرَا

فالشمسُ طالعةً ليسَت بكاسفةٍ ٭ تبكى عليكَ نجومَ الليلِ والقَمَرا

أنشد أبو عبيد الأعرابى فى عمر بن عبد العزيز :

مُقابَل الأعراقِ فى الطِّيبِ الطابْ ٭ بين أبى العاصِ وآلِ الخطَّابْ

قال أبو عبيدة : يقال : طيِّبٌ وطابٌ ، كما يقال : ذَيم وذامٌ .

خلافة يزيد بن عبد الملك

ثم ولى يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة .

ومات ببلاد البلقاء يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة ، وهو

ابن أربع وثلاثين سنة ، صلى عليه أخوه هشام بن عبد الملك ؛ وكانت ولايته أربع سنين وشهرا . وفيه يقول جرير :

سُرْبِلْتَ سِرْبَالَ مُلْكٍ غَيْرِ مُغْتصبٍ ﴿ قَبْلَ الثلاثينَ إنَّ المُلْكَ مُؤتشبِ

وكان على شرطته كعب بن مالك العبسى ؛ وعلى الحرس غيلان أبو سعيد مولاه ؛ وعلى خاتم الخلافة مطر مولاه ، وكان فاسقا ؛ وعلى الخاتم الصغير بكير ٥ أبو الحجاج ؛ وعلى الرسائل والجند والخراج صالح بن جبير الهمدانى ، ثم عزله واستعمل أسامة بن زيد مولى كلب ؛ وعلى الخزائن وبيوت الأموال هشام بن مصاد ؛ وحاجبه خالد مولاه .

وكان يزيد بن عبد الملك صاحب لهو ولذات ، وهو صاحب حَبابة وسلّامة ؛ وفى ولايته خرج يزيد بن المهلب . ١٠

أسماء ولد يزيد

الوليد ، ويحيى ، وعبد الله ، والغَمر ، وعبد الجبار ، وسليمان ، وأبو سفيان ، وهاشم ، وداود ولا عقب له ، والعوّام ولا عقب له .

وكتب يزيد بن عبد الملك إلى عمال عمر بن عبد العزيز :

أما بعد ، فإن عمر كان مغروراً ، غررتموه أنتم وأصحابكم وقد رأيت كتبكم ١٥ إليه فى انكسار الخراج والضريبة ؛ فإذا أتاكم كتابى هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده ، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى ، أخصبوا أم أجدبوا ، أحبُّوا أم كرهوا ، حَيُوا أم ماتوا ! والسلام .

أبو الحسن المدائنى قال : لما ولى يزيد بن عبد الملك ، وجه الجيوش إلى يزيد بن المهلب ، فعقد لمسلمة بن عبد الملك على الجيش وللعباس بن الوليد على ٢٠ أهل دمشق خاصة : فقال له العباس : يا أمير المؤمنين ، إن العراق قومُ إرجاف، وقد خرجنا إليهم محاربين ، والأحداث تحدث ؛ فلو عهدتَ إلى عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك ، قال : غداً إن شاء الله .

وبلغ مسلمةَ الخبر ، فأتاه فقال له : يا أمير المؤمنين ، أولاد عبد الملك أحب إليك أم أولاد الوليد ؟ قال : ولد عبد الملك ، قال : فأخوك أحق بالخلافة أم ابنُ أخيك؟ قال : بل أخي ، إذا لم يكن ولدي ، أحقّ بها من ابن أخي . قال : يا أمير المؤمنين ، فإن ابنك لم يبلغ ؛ فبايع لهشام بن عبد الملك ولابنك الوليد من بعده ، قال : ٥ غداً إن شاء الله . فلما كان من الغد بايع لهشام ولابنه الوليد من بعده . والوليد يومئذ ابن إحدى عشرة سنة ، فلما انقضى أمرُ يزيد بن المهلب وأدرك الوليدُ ندم يزيد على استخلاف هشام ، فكان إذا نظر إلى ابنه الوليد قال : اللهُ بيني وبين من جعل هشاماً بيني وبينك !

قال : ولما قُتل يزيد بن المهلب ، جمع يزيدُ بن عبد الملك العراقَ لأخيه ١٠ مسلمة بن عبد الملك ؛ فبعث هلال بن أحوز المازنى إلى قِندابيل فى طلب آل المهلب ، فالتقوا ، فقتل المفضل بن المهلب وانهزم الناس ، وقتل هلال بن أحوز خمسة من ولد المهلب ولم يُفتش النساء ولم يعرض لهن ، وبعث العيالَ والأسرى إلى يزيد بن عبد الملك .

قال : حدثنى جابر بن مسلم قال : لما دخلوا عليه قام كُثيِّر بن أبى جُمعة الذى ١٥ يقال له كُثيِّر عزة ، فقال :

حليمٌ إذا ما نالَ عاقبَ مُجمِلاً ✽ أشدّ عِقاب أو عفا لم يُثرِّبِ
فعفوًا أميرَ المؤمنين وحِسبةً ✽ فما تكتسبْ من صالحٍ لك يُكتبِ
أساءوا فإن تغفرْ فإنك قادرٌ ✽ وأعظمُ حِلم حِسبةً حلمُ مُغضبِ
نفَتْهم قريشٌ عن أباطِح مكةٍ ✽ وذو يمَنٍ بالمشْرَفىّ المُشطّبِ

٢٠ فقال يزيد : لاطت بك الرّحم ، لا سبيل إلى ذلك ؛ من كان له قِبل آل المهلب دمٌ فليقم ! فدفعهم إليهم حتى قتل نحو ثمانين .

قال : وبلغ يزيد بن عبد الملك أن هشاما ينتقصه ، فكتب إليه :

إن مثَلى ومثلك كما قال الأول :

تمنّى رجالٌ أن أموتَ وإن أمُتْ * فتِلك سبيلٌ لستُ فيها بأوْحَدِ
لعلّ الذى يبغى ردَاىَ ويرتجى * به قبلَ موتى أن يكونَ هو الرّدى

فكتب إليه هشام : إن مثَلى ومثَلك كما قال الأول :

ومن لم يُغمّضْ عينَهُ عن صديقِه * وعن بعضِ ما فيه يَمُت وهو عاتِبُ ٥
ومَن يتتبّع جاهِداً كلّ عَثرةٍ * يجدها، ولا يبقَى له الدهرَ صاحِبُ

فكتب إليه يزيد : نحن مغتفرون ما كان منك ، ومكذّبون ما بلغنا عنك ، مع حفظ وصية أبينا عبد الملك ، وما حضّ عليه من صلاح ذات البين ، وإنى لأعلم أنك كما قال معن بن أوس :

لعَمْرُك ما أدرى وإنى لأوْجَلُ * على أيّنا تعـــدُو المنِيّة أوّلُ ١٠
وإنى على أشياء مِنك تَريبُنى * قديماً ولا صُلْحٌ على ذاك يَحْمِلُ
ستُقْطَعُ فى الدُّنيا إذا ما قطَعْتَنى * يمينُكَ فانظر أىّ كفّ تبدّلُ
إذا سُؤْتنى يوماً صفحتُ إلى غدٍ * ليُعقِبَ يوماً منكَ آخرُ مُقْبلُ
إذا أنت لم تُنصِف أخاك وجدتَهُ * على طرَف الهجران إن كان يعقِلُ
ويركبُ حدّ السيفِ مَن أن تَضيمه * إذا لم يكن عن شفرَةِ السيفِ مَزْحَل ١٥
وفى الناسِ إن رثّت حِبالُك واصِلٌ * وفى الأرض عن دارِ القِلى مُتحوَّل

فلما جاء الكتاب رحل هشام إليه ، فلم يزل فى جواره إلى أن مات يزيد وهو معه فى عسكره مخافة أهل البغى .

محمد بن الغاز قال : حدثنا أبو سعيد عبد الله بن شبيب قال : حدثنى الزبير ابن بكار قال : كان يزيد بن عبد الملك كلِفاً بحبابة كلفاً شديداً ، فلما توفيت أكبّ ٢٠ عليها يتشمّمها أياما حتى أنتنت ، فأخذها فى جهازها ، وخرج بين يدى نعشها ، حتى إذا بلغ القبر نزل فيه فلما فرغ من دفنها لصق به مسلمة أخوه يعزيه ويؤنسه ، فقال : قاتل الله ابن أبى جمة ، كأنه كان يرى ما نحن فيه حيث يقول :

فإن تسْلُ عنك النّفْسُ أو تَدَعِ الهوَى * فباليأسِ تسْلو عنكِ لا بالتجلُّدِ

وكلُّ خليـــل زارني فهو قائلٌ ۞ منَ اَجلكِ هذا ميّتُ اليومِ أو غدِ !

قال : وطعِن فى جنازتها فدفناه إلى سبعة عشر يوما .

خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان

ثم بويع هشام بن عبد الملك بن مروان ، ويكنى أبا الوليد : وأمّه أمّ هشام
٥ بنت إسماعيل بن هشام المخزومى ، يوم الجمعة لخمس ليال بقين من شعبان سنة
خمس ومائة .

ومات بالرصافة يوم الأربعاء لثلاث خلون من ربيع الأوّل سنة خمس
وعشرين ومائة ، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة ، وصلى عليه الوليد بن يزيد ،
وكانت خلافته عشرين سنة .

١٠ أسماء ولد هشام بن عبد الملك

معاوية ، وخلف ، ومسلمة ، ومحمد ، وسليمان ، وسعيد ، وعبد الله ، ويزيد ،
وهو الأبكم ؛ ومروان ، وإبراهيم ، ويحيى ، ومنذر ، وعبد الملك ، والوليد ،
وقريش ، وعبد الرحمن .

وكان على شرطته : كعب بن عامر العبسى ، وعلى الرسائل : سالم مولاه ،
١٥ وعلى خاتم الخلافة : الربيع ، مولى لبنى الحريش ، وهو الربيع بن سابور ؛ وعلى
الخاتم الصغير : أبو الزبير مولاه ، وعلى ديوان الخراج والجند : أسامة بن زيد ،
ثم عزله وولّى الحُبْحاب ؛ وعلى إذنه غالبُ بن مسعود مولاه .

أخبار هشام بن عبد الملك

أبو الحسن المدائنى قال : كان عبد الملك بن مروان رأى فى منامه أنّ عائشة
٢٠ بنت هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومى فلقت رأسه
فقطعته عشرين قطعة ، فغمّه ذلك ، فأرسل إلى سعيد بن المسيب فقصها عليه ،
فقال سعيد : تلد غلاما يملك عشرين سنة .

وكانت عائشة أمّ هشام حَمقاء ، فطلقها عبد الملك لحمقها ، وولدت هشاما وهى طالق ، ولم يكن فى ولد عبد الملك أكملُ من هشام .

قال خالد بن صفوان : دخلت على هشام بن عبد الملك بعد أن سخط على خالد بن عبد الله القسرى وسلط عليه يوسف بن عمر عامله على العراق ، فلما دخلت عليه استدنانى حتى كنت أقرب الناس إليه فتنفس الصعداء ، ثم قال : يا خالد ، رب خالدٍ قعد مقعدك هذا أشهى إلىّ حديثاً منك ! فعلمت أنه يريد خالد ابن عبد الله القسرى ، قلت : يا أمير المؤمنين ، أفلا تعيده ؟ قال : هيهات ، إنّ خالداً أدلّ فأملّ ، وأوجف فأعجف ، ولم يَدَعْ لمُراجع مرجعا ؛ على أنه ما سألنى حاجة قط ! فقلت : يا أمير المؤمنين ، فلو أدنيته فتفضلتَ عليه ! قال : هيهات ، وأنشد :

إذا انصرفتْ نفسى عن الشىء لم تكن ٭ عليه بوجهٍ آخِرَ الدَّهر تُقْبِلُ

قال أصبغ بن الفرج : لم يكن فى بنى مروان من ملوكها أعطر ولا ألبس من هشام ؛ خرج حاجّا فحمل ثياب طُهره على ستمائة جمل .

ودخل المدينة ، فقال لرجل : انظر من فى المسجد . فقال : رجل طويلٌ آدمُ أدلم . قال : هذا سالم بن عبد الله ، ادعه . فأتاه فقال : أجب أمير المؤمنين ، وإن شئت أرسِلْ فتؤتى بثيابك . فقال : ويحك ! أتيتُ الله زائراً فى رداء وقميص ولا أدخل بهما على هشام ! فدخل عليه ، فوصله بعشرة آلاف ، ثم قدم مكة فقضى حجه ، فلما رجع إلى المدينة قيل له : إن سالما شديدُ الوجع . فدخل عليه وسأله عن حاله . ومات سالم فصلى عليه هشام وقال : ما أدرى بأى الأمرين أنا أسرُّ : بحجتى أم بصلاتى على سالم .

قال : ووقف هشام يوما قريباً من حائط فيه زيتون له ، فسمع نفض الزيتون ، فقال لرجل : انطلق إليهم فقل لهم : التقطوه ولا تنفضوه ، فتفقئوا عيونه ، وتكسروا غصونه .

وخرج هشام هارباً من الطاعون ، فانتهى إلى دير فيه راهب ، فأدخله الراهب بستانه ، فجعل ينتقى له أطايب الفاكهة والبالغ منها ، فقال هشام :

يا راهب ، هبنى بستانك هذا ! فلم يُجبْه ، فقال : مالك لا تتكلم ؟ فقال : وددت أنّ الناسَ كلّهم ماتوا غيرك ! قال : ولم ؟ قال : لعلك أن تشبع ! فالتفت هشام إلى الأبرش فقال ، أتسمع ما يقول ؟ قال الأبرش : بلى ، والله مالقيك حرٌّ غير .

٥ العتبي قال : إنى لقاعد عند قاضى هشام بن عبد الملك إذ أقبل إبراهيم بن محمد بن طلحة ، وصاحبُ حرس هشام ، حتى قعدا بين يديه ، فقال الحَرسىُّ : إن أمير المؤمنين جرّانى فى خُصومة بينه وبين إبراهيم . قال القاضى : شاهدَيك على الجراية . فقال : أترانى قلت على أمير المؤمنين مالم يقل وليس بينى وبينه إلا هذه السترة ؟ قال : لا ، ولكنه لا يثبت الحق لك ولا عليك إلا ببينة .

١٠ قال : فقام ، فلم يلبث حتى قعقعت الأبواب وخرج الحرسى فقال : هذا أمير المؤمنين . قال : فقام القاضى ، فأشار إليه فقعد ، وبُسط له مصلى فقعد عليه هو وإبراهيم ؛ وكنا حيث نسمع بعض كلامهما ويخفى علينا البعض ، قال : فتكلما وأحضرت البينة ، فقضى القاضى على هشام ، فتكلم إبراهيم بكلمة فيها بعض الخُرْق ، فقال : الحمد لله الذى أبان للناس ظلمك ! فقال هشام : لقد

١٥ هممتُ أن أضربَك ضربة ينتثر منها لحمُك عن عظمك ! قال : أما والله لئن فعلتَ لتفعلنّه بشيخ كبير السنّ ، قريب القرابة ، واجب الحق . قال له : استرها علىّ يا إبراهيم ! قال : لا ستر الله علىّ ذنبى إذاً يوم القيامة . قال : إنى معطيك عليها مائةَ ألف ... قال إبراهيم : فسترتها عليه طول حياته ثمناً لما أخذتُ منه ، وأذعتُها عنه بعد موته تزييناً له .

٢٠ وذكروا عن الهيثم بن عدى قال : كان سعيدُ بنُ هشام بن عبد الملك عاملا لأبيه على حمص ، وكان يُرمَى بالنساء والشراب ، فقدم حِمْصىٌّ لهشام ، فلقيه أبو جعد الطائى فى طريق ، فقال له : هل ترى أن أُعطيَك هذه الفرس ـ فإنى لا أعلم بمكانٍ مثلها ـ على أن تبلغ هذا الكتاب أمير المؤمنين ، ليس فيه حاجة بمسألة دينار ولا درهم ؟ فأخذها وأخذ الكتاب ، فلما قدم على هشام سأله :

ما قصة هذا الفرس ؟ فأخبره ؛ فقال : هات الكتاب ، فإذا فيه :

أبلِغْ إليكَ أميرَ المؤمنين فقدْ ... أمْدَدْتَنا بأميرٍ ليس عِنِّينـــا

طوْراً يُخالِفُ عَمْراً فى حَليلته ... وعند ساحَته يُسقى الطِّلا دِينا

فلما قرأ الكتاب بعث إلى سعيد فأشخصه ؛ فلمـا قدم عليه علاه بالخيزرانة وقال : يابن الخبيثة ، تزنى وأنت ابن أمير المؤمنين ! ويلك ! أعجزتَ أن تفجر بفجورَ قريش ؟ أو تدرى ما فجور قريش لا أمَّ لك ؟ قتل هذا ، وأخذ مالِ هذا ؛ والله لا تلى لى عملا حتى تموت ! قال : قال : فما وَلِىَ له عملا حتى مات .

أحمد بن عبيد قال : أخبرنى هشام الكلبى عن أبى محمد بن سُفيان القرشىّ عن أبيه قال : كنا عند هشام بن عبد الملك وقد وفد عليه وفد أهل الحجاز ، وكان شباب الكتاب إذا قدم الوفد حضروا لاستماع بلاغة خطبائهم ، فحضرت كلامهم ، حتى قام محمد بن أبى الجهم بن حُذيفة العدوىّ ، وكان أعظمَ القوم قدرا ، وأكبرَهم سنا ؛ فقال :

أصلح الله أمير المؤمنين ، إن خطباء قريش قد قالت فيك ما قالت ؛ وأكثرت وأطنبت ؛ والله ما بلغ قائلهم قدرَك ، ولا أحصى خطيبُهم فضلك ، وإن أذنت فى القول قلت . قال : قل وأوجز . قال : تولاك الله يا أمير المؤمنين بالحسنى ؛ وزيّنك بالتقوى ؛ وجمعَ لك خيرَ الآخرة والأولى ؛ إن لى حوائج ، أفأذكرها ؟ . قال : هاتها . قال : كَبِرتْ سنّى ، ونال الدهرُ منى ؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يَجْبُرَ كسرى ، وينفىَ فقرى ، فعل . قال : وما الذى ينفى فقرك ويجبر كسرك ؟ قال : ألفُ دينار ، وألفُ دينار ، وألف دينار . قال : فأطرق هشام طويلا ثم قال : يابنَ أبى الجهم ، بيتُ المـال لايحتمل ماذكرتَ . ثم قال له : هيه ! قال : ماهيه ؟ أما والله إن الأمر لواحد ، ولكنَّ الله آثرك لمجلسك ؛ فإن تعطنا فحقَّنا أديت ، وإن تمنعنا نسأل الله الذى بيده ما حويت ؛ يا أمير المؤمنين ، إن الله جعل العطاء محبة والمنع مَبْغَضة . والله لأن أُحِبَّك أحبُّ إلىّ من أن أُبغضك ؛ قال : فألف دينار لماذا ؟ قال : أقضى بها دَيْناً قد حُمّ قضاؤُه !

وعنانى حمله ، وأضرَّ بى أهله . قال : فلا بأس ، تنفس كربة ، وتؤدى أمانة .
وألف دينار لماذا ؟ قال : أزوّج بها من بلغ من ولدى . قال : نعم المسلك
سلكت ، أغضضتَ بصرا ، وأعففتَ ذَكراً ، وأمّرت نسلا . وألف دينار
لماذا ؟ قال : أشترى بها أرضا يعيش بها ولدى ، وأستعين بفضلها على نوائب
٥ دهرى ، وتكون ذُخراً لمن بعدى . قال : فإنا قد أمرنا لك بما سألت . قال :
فالمحمود الله على ذلك ، وخرج .

فأتبعه هشام بصره ، وقال : إذا كان القرشى فليكن مثلَ هذا ، ما رأيتُ رجلا
أوجزَ فى مقال ولا أبلغَ فى بيان منه ، ثم قال : أما والله إنا لنعرف الحق إذا نزل ،
ونكره الإسراف والبَخَل ، وما نعطى تبذيراً ، ولا نمنع تقتيراً ، وما نحن إلا خُزّانُ
١٠ الله فى بلاده ، وأمناؤُه على عباده ، فإذا أذن أعطينا ، وإذا منع أبينا ، ولو كان
كل قائل يصدُق ، وكل سائل يستحق ، ما جبهْنا قائلا ، ولا رددنا سائلا ؛ ونسأل
الذى بيده ما استحفظَنا أن يُجرِيَه على أيدينا ، فإنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ،
إنه بعباده خبيرٌ بصير .

فقالوا يا أمير المؤمنين ، لقد تكلمت فأبلغت ، وما بلغ كلامُه ما قصصت .

١٥ قال : إنه مبتدئ ، وليس المبتدئ كالمُقتدى .

وذكروا أن العباس بن الوليد وجماعة من بنى مروان اجتمعوا عند هشام ،
فذكروا الوليد بن يزيد وعابوه وذموه ، وكان هشام يبغضه ، ودخل الوليد ،
فقال له العباس : ياوليد ، كيف حبُّك للروميات ، فإن أباك كان مشغوفا بهن ؟
قال : كيف لا يكون وهن يلدن مثلك ! قال . ألا تسكت يا ابن البظراء ؟ قال :
٢٠ حسبك أيها المفتخر علينا بختان أمّك !

وقال له هشام : ما شرابك ياوليد ؟ قال : شرابك يا أمير المؤمنين ... وقام
يخرج ، فقال لهم هشام : هذا الذى زعمتوه أحمق .

وقرّب الوليد بن يزيد فرسه فجمع جراميزه ووثب على سرجه ، ثم التفت

إلى ولد هشام ، وقال له : هل يقدر أبوك أن يصنع مثل هذا ؟ قال : لأبى مائة عبد يصنعون مثل هذا . فقال الناس : لم ينصفه فى الجواب .

العتبي عن أبيه ، قال : سمعت معاوية بن عمرو بن عُتبة يحدث قال : إنى لقاعد بباب هشام بن عبد الملك ، وكان الناس يتقربون إليه بعيب الوليد بن يزيد ، قال فسمعت قوما يعيبونه ، فقلت : دعونا من عَيْبِ من يلزمنا مدْحه ، ووضع من يجب علينا رفعُه . وكانت للوليد بن يزيد عيون لا يبرحون بباب هشام ، فنقلوا إليه كلامى وكلامَ القوم ، فلم ألبث إلا يسيرا حتى راح إلىّ مولى للوليد قد التحف على ألف دينار ، فقال لى : يقول لك مولاى : أنفق هذه فى يومك وغدا أمامك قال : فلئت رُعْباً من هشام وخشيت سطوته ، ورماه الله بالعلة ، فدفنّاه لثمانية عشر يوما بعد ذلك اليوم .

فلما قام الوليد بعده دخلت عليه ، فقال لى : يا ابن عتبة ، أتُرانى ناسيا قعودَك بباب الأحول ، يَهْدِمُنى وتَبْنِيني ، ويضعُنى وترفعُنى ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، شاركتَ قومك فى الإحسان ، وتفردت دونهم بإحسانك إلى ، فلست أحمد لك نفسى فى اجتهاد ، ولا أعذرها فى تقصير ، وتشهد بذلك ألسنة الجائزين بنا ، ويصدقُ قولَهم الفعالُ منا . قال : كذلك أنتم لنا آل أبى سفيان ، وقد أقطعتك مالى بالبَثَنِيّة وما أعلم لقرشى مثله .

وقال عبد الله بن عبد الحكم فقيه مصر : سمعت الأشياخ يقولون : سنة خمس وعشرين ومائة ، أُديل من الشرف ، وذهبت المروءة . وذلك عند موت هشام ابن عبد الملك .

قال أبو الحسن المدائنى : مات هشام بن عبد الملك بالذُّبحة يوم الأربعاء بالرصافة فى ربيع الآخر لِستٍّ خلَوْن منه سنة خمس وعشرين ومائة ، وصلى عليه مَسلمة بن هشام أو بعض ولده ، وآشترىَ له كفن من السوق .

خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك

بويع للوليد بن يزيد بن عبد الملك يوم الأربعاء لستٍّ خلون من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة ؛ وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف ، أخي الحجاج ابن يوسف .

٥ وقُتل بالبَخراء من تدمر على ثلاثة أميال ، يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة ، وهو ابن خمس وثلاثين أوست وثلاثين . قال حاتم بن مسلم : ابن خمس وأربعين وأشهر .

وكانت ولايته سنة وشهرين واثنين وعشرين يوما .

فأول شيء نظر فيه الوليد أن كتَبَ إلى العباس بن الوليد بن عبد الملك أن ١٠ يأتي الرصافة يحصى ما فيها من أموال هشام وولده ، ويأخذ عماله وحشمه ، إلا مسلمة بن هشام ، فإنه كتب إليه أن لا يعرض له ولا يدخل منزله ؛ وكان مسلمة كثيراً ما يكلم أباه في الرفق بالوليد . ففعل العباس ما أمره به .

وكتب الوليد بن يزيد إلى يوسف بن عمر ، فقدم عليه من العراق ، فدفع إليه خالد بن عبد الله القسري ، محمدا وإبراهيم ابني هشام بن إسمعيل المخزومي ، ١٥ وأمر بقتلهم . فحدث أبو بشر بن السري قال : رأيتهم حين قدم بهم يوسف ابن عمر الحيرة ، وخالد في عباءة في شق محمل ، فعذبهم حتى قتلهم .

ثم عكف الوليد على البطالة وحب القيان والملاهي والشراب ومعاشقة النساء ، فتعشّق سُعدى بنت سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان فتزوجها ؛ ثم تعشق أختها سلمى فطلق أختها سعدى وتزوج سلمى ، فرجعت سعدى إلى ٢٠ المدينة فتزوجت بشر بن الوليد بن عبد الملك ، ثم ندم الوليد على فراقها وكلف بحبها ، فدخل عليه أشعبُ المضحك ، فقال له الوليد : هل لك أن تبلغ سعدى عني رسالة ولك عشرون ألف درهم ؟ قال : هاتها . فدفعها إليه ، فقبضها وقال : ما رسالتك ؟ قال : إذا قدمت المدينة فاستأذن عليها وقل لها :

يقول لك الوليد :

أَسُعْدَى ما إليكِ لنا سَبيلُ * ولا حَتى القِيامةِ من تلاقِ

بَلى ولعَلَّ دَهْرًا أن يُوَاتِى * بموتٍ من حَليلِكِ أو فِرَاق

فأتاها أشعب فاستأذن عليها ، وكان نساء المدينة لا يحتجبن عنه ؛ فقالت له : ما بدا لك فى زيارتنا يا أشعب ؟ قال : يا سيدتى ، أرسلنى إليك الوليد برسالة . قالت : هاتها . فأنشدها البيتين ، فقالت لجواريها : خذن هذا الخبيث ... وقالت : ما جرّأك على مثل هذه الرسالة ؟ قال : إنها بعشرين ألفا معجلة مقبوضة ! قالت والله لأجلدنك أو لتبلغنّه عنى كما أبلغتنى عنه . قال : فاجعلى لى جُعلا . قالت : بساطى هذا . قال : فقومى عنه . فقامت عنه ، وطوى البساط وضمه ، ثم قال : هاتى رسالتك . فقالت له : قل له :

أتبكى على سُعْدَى وأنتَ تَرَكْتَها * فقد ذَهَبتْ سُعْدَى ، فما أنتَ صانعُ

فلما بلّغه الرسالة كظم الغيظ على أشعب ، وقال : اختر إحدى ثلاث خصال ، ولا بد لك من إحداها : إما أن أقتلك ، وإما أن أطرحك للسباع فتأكلك ، وإما أن ألقيك من هذا القصر ! فقال أشعب : يا سيدى ، ما كنت لتعذب عينين نظرتا إلى سعدى ! فضحك وخلى سبيله .

وأقامت عنده سلمى حتى قُتل عنها ، وهو القائل فى سلمى :

شاع شِعْرى فى سُلَيمَى وظَهَرْ * ورَوَاهُ كلُّ بَدْو وحَضَرْ

وتَهَادَتْهُ الغَوانِى بينَهـا * وتَغَنَّيْنَ به حتى انتشَرْ

لو رَأَيْنا من سُلَيمَى أثراً * لسجَدْنا ألفَ ألفٍ للأثر

واتخذناها إماماً مُرْتضًى * ولكانَت حجَّنا والمعْتَمر

إنما بِنتُ سُعَيْدٍ قمرٌ * هل حَرِجْنا أن سَجَدْنا لِلقَمَر

وفيها يقول قبل تزوجه لها :

حَدَّثوا أنَّ سُلَيْمَى * خرجت يومَ المُصَلَّى

فإذا طــيرٌ مَليحٌ * فوقَ غُصْنٍ يَتَفَلَّى
قلتُ يا طَيرُ آدْنُ منِّى * فــدَنا ثم تَدَلَّى
قلتُ هل تَعرفُ سَلْمى * قال لا ثمّ تَوَلَّى
فنَكا فى القلبِ كَلْماً * باطِناً ثمَّ تخــلَّى

٥ وقال فى سلمى قبل تزوجه لها :

لعَـلَّ الله يَجْمَعنِى بِسلْمى * أليْسَ اللهُ يَفعلُ مايشاء
ويأتى بى ويَطْرحُنى عليهـا * فيوقظنى وقد قُضىَ القضاء
ويُرسِلُ دِيمةً من بعد هـذا * فتَغْسِلنا وليس بنـا عنـاء

وقال فيها بعد تزوّجه لهـا :

١٠ أنا فى يُمنَى يَديْها * وهْىَ فى يُسْرى يَديّهْ
إنَّ هذا لقضاءٌ * غيرُ عدْلٍ يا أُخَيّهْ
ليْت من لامَ مُحِبّا * فى الهوى لاقى مَنِيّهْ
فاستراح الناس منه * مِيتَةً غيرَ سَوِيّهْ

قال : ولهج الوليد بالنساء والشراب والصيد ، فأرسل إلى المدينة فحملوا له
١٥ المغنين ، فلما قربوا إليه أمر أن يدخلوا العسكر ليلا ، وكره أن يراهم الناس ،
فأقاموا حتى أمسوا غير محمد بن عائشة فإنه دخل نهاراً ، فأمر الوليد بحبسه ، فلم
يزل محبوساً حتى شرب الوليد يوماً فطرب فكلمه معبد ، فأمر الوليد بإخراجه ،
ودعاه فغناه فقال :

أنت ابن مُسْلَنْطِحِ البِطاحِ ولم * تعطِف عليك الحُنِىُّ والوُلُجُ

٢٠ فرضى عنه ؛ وكان سعيد الأحوص ومعبد ، قدما على الوليد ونزلا فى الطريق
على غدير وجارية تستقى ، فزاغت ، فانكسرت الجرّة ، فجلست تغنى :

يا بيْت عاتِكةَ الّذى أتعَزّلُ * حَذَر العِدا وبه الفؤاد مُوَكلُ

فقال : ياجارية ، لمن أنت ؟ فقالت : كنت لآل الوليد بن عقبة بالمدينة ،

فاشترانى مولاى ، وهو من بنى عامر بن صعصعة أحد بنى الوحيد من بنى كلاب ، وعنده بنت عم له ، فوهبنى لها ، فأمرتنى أن أستق لها . فقال لها : فلمن الشعر ؟ قالت سمعت بالمدينة أن الشعر للأحوص والغناء لمعبد . فقال معبد للأحوص : قل شيئاً أغنى عليه . فقال :

إنّ زَيْن الغدير منْ كسَرَ الجـرّ وغَنّى غناء فحـلٍ مُجيدِ ٥

قلت : من أنت يامليحَةُ ؟ قالت : ٭ كنت فيما مضى لآلِ الوليدِ

ثم قد صِرْت بعد عِزّ قريشٍ ٭ فى بنى عامرٍ لآلِ الوحيـد

وغنائِى لمعْبـدٍ ونشـيدى ٭ لفتى الناس الأَحوَصِ الصِّنْديد

فتضاحكْتُ ثم قلت أنا الأحـوصُ والشيْخُ معبدٌ فأعيدِى

فأعادتْ وأحْسَنتْ ثم ولّتْ ٭ تتهادى فقلت أمّ سـعيد ١٠

يَقْصُرُ المالُ عن شِرَاك ولـكن ٭ أنتِ فى ذمّة الإمام الوليـد

وأم سعيد كانت للأحوص بالمدينة .

فغنى معبد على الشعر ، فقال : ما هذا ؟ فأخبراه ، فاشتراها الوليد .

قال أبو الحسن : وقال ابن أبى الزناد : إنى كنت عند هشام وعنده الزهرى ، فذكرا الوليد فتنقّصاه وعاباه عيباً شديدا ، ولم أعرض لشىء مما كان فيه ، فاستأذن ١٥ فأُذن له ، فدخل وأنا أعرف الغضب فى وجهه ، فجلس قليلا ثم قام ؛ فلما مات هشام كتب فى ، فحُملت إليه ، فرحب بى وقال : كيف حالك يابن ذكوان ؟ وألطف المسألة ، ثم قال : أتذكر هشاما الأحول وعنده الفاسق الزهرى وهما يعيبانى ؟ فقلت : أذكر ذلك ، ولم أعرض لشىء مما كانا فيه . قال : صدقت ، أرأيت الغلام الذى كان على رأس هشام قائما ؟ قلت : نعم . قال : فإنه نمَّ إلىّ ٢٠ بما قالاه ، وآيم الله لو بقى الفاسق الزهرى لقتلتُه . قلت : قد عرفت الغضب فى وجهك حين دخلت . قال : يابن ذكوان ، ذهب الأحول ! قلت : يطيل الله عمرك ، ويمتع الأمة ببقائك . ودعا بالعشاء فتعشينا ، وجاءت المغرب فصلينا ،

وجلس فقال : اسقني . فجاءوا بإناء مغطى ، وجيء بثلاث جوار ، فصُففن بيني وبينه حتى شرب ، وذَهَبْن فتحدثنا ، واستسق ، فصنعوا مثل ذلك ، فما زال كذلك : يستسق ويتحدث ويصنعون مثل ذلك ، حتى طلع الفجر ؛ فأحصيت له سبعين قدحا .

٥ علي بن عياش قال : إني عند الوليد بن يزيد في خلافته إذ أُتِيَ بشُراعة من الكوفة ؛ فوالله ماسأله عن نفسه ولاعن مسيره حتى قال له : ياشراعة . أنا والله ما بعثت إليك لأسألك عن كتاب الله وسنة رسوله . قال : والله لو سألتني عنهما لوجدتني فيهما حمارا . قال : إنما أرسلت إليك لأسألك عن القهوة ! قال : دهقانها الخبير ، ولقمانها الحكيم ، وطبيبها العليم ! قال : فأخبرني عن الشراب .
١٠ قال : يسأل أمير المؤمنين عما بدا له . قال : ما تقول في الماء ؟ قال : لابد لي منه ، والحمار شريكي فيه ! قال : ماتقول في اللبن ؟ قال : مارأيته قط إلا استحييت من أمي لطول ما أرضعتني به ! قال : ما تقول في السويق ؟ قال : شراب الحزين والمستعجل والمريض . قال : فنبيذ التمر ؟ قال : سريع المَلْء ، سريع الانفشاش . قال : فنبيذ الزبيب ؟ قال : تلَهَّوا به عن الشراب . قال : ما تقول في الخمر ؟
١٥ قال : أوه ! تلك صديقة روحي . قال : وأنت والله صديق روحي ، فأي المجالس أحب ؟ قال : ما شُرب الكأس قط على وجه أحسن من السماء .

قال أبو الحسن : كان أبو كامل مضحكا غَزِلا مغنيا ، فغنى الوليد يوما فطرب فأعطاه قلنسوة بَرُودا كانت عليه ؛ فكان أبو كامل لايلبسها إلا في عيد ، ويقول : كسانيها أمير المؤمنين ، فأنا أصونها ؛ وقد أمرت أهلي إذا متُّ أن توضع في
٢٠ أكفاني ، وله يقول الوليد :

مَن مُبْلغٌ عني أبا كامل ٭ أني إذا ما غابَ كالهـــابِلِ
وزادني شـــوْقا إلى قُرْبه ٭ ما قد مضى مِن دهرنا الحائلِ
إني إذا عاطيْتُـــه مُزّة ٭ ظلْتُ بيومِ الفرَحِ الجاذِلِ

قال : وجلس الوليد يوما وجارية تغنيه ؛ فأنشدت الوليد :

* قَيْنَةٌ فى يَمينِها إبريقُ *

فأنشده حماد الراوية :

ثم نادى ألاَ اْصْبَحونى فقامت * قَيْنَــةٌ فى يَمينِهـا إبريق

قدَّمَته على عُقارٍ كعيْنِ الدِّيــك صَفَّى سُلافه الرَّاوُوق ٥

مُزَّةٌ قبل مَزْجِها ، فإذا ما * مُزِجَت لذَّ طعْمُها من يَذوقُ

وكتب الوليد إلى المدينة فحُمِل إليـه أشعب ، فألبسه سراويل جلد قرد له ذنب ؛ وقال له : ارقص وغنِّ صوتا يعجبنى ؛ فإن فعلت أعطيتُك ألف درهم . فرقص وغنى فأعجبه ؛ فأعطاه ألف درهم :

وأنشد الوليد هذا : ١٠

علِّلانِى واْســقِيانى * من شَرابِ أصفِهانى

من شَرابِ الشيْخ كسرى * أو شرابِ الهُرْمُزانِ

إنّ بالــكأس لمسْكاً * أو بكفَّىْ مَن سَقانى

إنمـا الــكأس ربيعٌ * يُتعاطى بالبنانِ

وقال أيضا : ١٥

وصَفراءَ فى الكأس كالزعفران * سَباها الدَّهاقين من عَسْقَلانِ

لهـا حَبَبٌ كلمـا صُفِّقتْ * تَراهـا كلمْعَة بَرقٍ يَمـانى

وقال أيضا :

ليت حظِّى اليوم من كــلِّ معـاشٍ لى وزادِ

قهوةٌ أبذُلُ فيهـــا * طارِفِى بعد تِلادى ٢٠

فيظلُّ القلبُ منهـــا * هائمـا فى كلِّ وادى

إنّ فى ذاك فلاَحى * وصلاحى ورشادى !

وقال :

أمدح الكأس ومن أعملها * واهجُ قوماً قتلونا بالعطش
إنما الكأس ربيعٌ باكرٌ * فإذا ما لم نذُقها لم نعِشْ

وبلغ الوليد أن الناس يعيبونه وينتقصونه بالشراب وطلب اللذات ؛ فقال

٥ في ذلك :

ولقد قضيتُ ولم يُجلّل لِمَتى * شيْبٌ على رغم العِدا لذّاتى
مِن كاعِباتٍ كالدُّمى ومَناصِفٍ * ومراكبٍ للصيْد والنّشواتِ
فى فِتْيةٍ تأبى الهوانَ وجوهُهُم * شُمّ الأنوفِ جَحاجحٍ سادات
إنْ يَطلبوا بِتِراتِهم يُعطوْا بها * أو يُطلَبوا لا يُدْركوا بتِراتِ

١٠ وقال معاوية بن عمرو بن عتبة للوليد بن يزيد حين تغير له الناس وطعنوا عليه : يا أمير المؤمنين ، إنه ينطقنى الأنس بك ، وتُسكتنى إليك الهيبة لك ، وأراك تأمن أشياء أخافها عليك ؛ أفأسكت مطيعاً أم أقول مشفقاً ؟ قال كل مقبول منك ولله فينا علم غيب نحن صائرون إليه . فقتل بعد ذلك ، بأيام .

وقال إذ كثر القول فيه :

١٥ خذوا مُلْكَكم لا ثبَّتَ اللهُ مُلْكَكم * ثباتاً يُساوى ما حَييتُ عِقالا
دعوا لى سُليْمى مَعْ طلاءٍ وقيْنةٍ * وكأسٍ ، ألا حَسْبى بذلك مالا
أبالمُلْكِ أرجو أنْ أُخلَّدَ فيكم * ألا رُبَّ مُلْكٍ قد أُزيل فزالا
ألا رُبَّ دارٍ قد تحمّل أهلها * فأضحَتْ قِفاراً والقفار حِلالا

قال إسحاق بن محمد الأزرق : دخلت على منصور بن جُمهور الكلبى بعد قتل

٢٠ الوليد بن يزيد ، وعنده جاريتان من جوارى الوليد ، فقال لى : اسمع من هاتين الجاريتين ما يقولان . قالتا : قد حدثناك . قال : بل حدّثاه كما حدثتمانى . قالت إحداهما : كنا أعزّ جواريه عنده ، فنكح هذه وجاء المؤذنون يؤذنونه بالصلاة ، فأخرجها وهى سكرى جنبة متلثّمة ، فصلّت بالناس .

مقتل الوليد بن يزيد

إسماعيل بن إبراهيم قال : حدثني عبد الله بن واقد الجرمي وكان شهد قتل الوليد ، قال : لما أجمعوا على قتله ، قلدوا أمرَهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، فخرج يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، فأتى أخاه العباس ليلا فشاوره في قتل الوليد ، فنهاه عن ذلك ، فأقبل يزيد ليلا حتى دخل دمشق في أربعين رجلا ، فكسروا باب المقصورة ، ودخلوا على واليها فأوثقوه ، وحمل يزيد الأموال على العجل إلى باب المضمار ، وعقد لعبد العزيز بن الحجاج ، ونادى مناديه : من انتدَب إلى الوليد فله ألفان ، فانتدب معه ألفا رجل وضم مع عبد العزيز بن الحجاج يعقوب بن عبد الرحمن ، ومنصور بن جُمهور ، وبلغ الوليد بن يزيد ذلك فتوجه من البلقاء إلى حمص ، وكتب إلى العباس بن الوليد أن يأتيه في جند من أهل حمص ، وهو منها قريب ؛ وخرج الوليد حتى انتهى إلى قصر في برية ورمل من تدمر على أميال ، وصبّحت الخيل الوليدَ بالبخراء ؛ وقدم العباس بن الوليد بغير خيل ، فحبسه عبد العزيز بن الحجاج خلفه ، ونادى منادي عبد العزيز : من أتى العباس بن الوليد فهو آمن وهو بيننا وبينكم ، وظن الناس أن العباس مع عبد العزيز ، فتفرقوا عن الوليد ، وهجم عليه الناس . فكان أول من هجم عليه السرى ابن زياد بن أبي كبشة السكسكي ، وعبد السلام اللخمي : فأهوى إليه السرى بالسيف ، وضربه عبد السلام على قرنه ، فقُتل .

قال إسماعيل : وحدثني عبد الله بن واقد قال : حدثني يزيد بن أبي فروة مولى بني أمية قال : لما أُتي يزيدُ برأس الوليد بن يزيد ، قال لي : انصبه للناس . قلت لا أفعل ؛ إنما ينصب رأس الخارج . فحلف ليُنْصبن ولا ينصبه غيري ؛ فوُضع على رمح ونصب على درج مسجد دمشق ؛ ثم قال : اذهب فطُف به في مدينة دمشق .

خليفة بن خياط قال : حدثني الوليد بن هشام عن أبيه قال : لما أحاطوا بالوليد أخذ المصحف وقال : أُقتل كما قتل ابن عمي عثمان .

أبو الحسن المدائنى قال: كان الوليد صاحب لهو وصيد وشراب ولذات، فلما وليَ الأمر جعل يكره المواضع التى يراه الناس فيها؛ فلم يدخل مدينة من مدائن الشام حتى قُتل، ولم يزل يتنقل ويتصيد حتى ثقل على الناس وعلى جنده، واشتد على بنى هشام وأضرّ بهم، وضرب سليمان بن هشام مائة سوط وحلق رأسه ٥ ولحيته وغرّبه إلى عمان، فلم يزل محبوساً حتى قُتِل الوليد؛ وحبس يزيد بن هشام وهو الأفقم؛ فرماه بنو هشام وبنو الوليد، وكان أشدّهم قولا فيه يزيد بن الوليد وكان الناس إلى قوله أمْيَل؛ لأنه كان يظهر النسك.

ولما دفع الوليدُ خالدَ بن عبد الله القسرى إلى يوسف بن عمر فقتله، غضب له اليمانية وغيرهم؛ فأتت يزيد بن الوليد بن عبد الملك، فأرادوه على البيعة ١٠ وخلْع الوليد، فامتنع عليهم وخاف أن لا تبايعه الناس؛ ثم لم يزل الناس به حتى بايعوه سرا.

ولما قُتل الوليد بن يزيد قام يزيد بن الوليد خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنى والله ما خرجت أشَرًا ولا بطرًا، ولا حِرْصاً على الدنيا ولا رغبةً فى الملك؛ وما بى إطراء نفسى، ولا تزكيةُ عملى، وإنى لظلوم لنفسى ١٥ إن لم يرحمنى ربى؛ ولكننى خرجت غضباً لله ودينه، وداعياً إلى كتاب الله وسنة نبيه، حين درستْ معالمُ الهدى، وطفِئَ نور أهل التقوى؛ وظهر الجبار العنيد، المستحل للحرمة، والراكب للبدعة، والمغيِّر للسنة؛ فلما رأيتُ ذلك أشفقتُ إن غشيتكم ظلمة لا تقلع عنكم، على كثرة من ذنوبكم، وقسوة من قلوبكم؛ وأشفقت أن يدعوَ كثيرا من الناس إلى ما هو عليه، فيجيبه من أجابه منكم؛ ٢٠ فاستخرت الله فى أمرى، وسألته أن لا يكلنى إلى نفسى، ودعوت إلى ذلك من أجابنى من أهلى وأهل ولايتى — وهو ابن عمى فى نسبى، وكفئى فى حسبى — فأراح الله منه العباد، وطهّر منه البلاد، ولايةً من الله وعوناً، بلا حول [منا] ولا قوة، ولكن بحول الله وقوته وولايته وعونه.

أيها الناس، إن لكم علىّ إن وليتُ أموركم، أن لا أضع لبنة على لبنة؛

ولا حجراً على حجر ، ولا أنقل مالا من بلد إلى بلد حتى أسدَّ ثغره ، وأقسم بين أهله مايقوون به ؛ فإن فضل رددته إلى أهل البلد الذى يليه ومَن هو أحوج إليه ؛ حتى تستقيم المعيشة بين المسلمين وتكونوا فيه سواء ؛ ولا أجَمِّركم فى بعوثكم فتُفتنوا ويُفتَن أهاليكم ؛ فإن أردتم بيعتى على الذى بذلت لكم فأنا لكم به ، وإن ملت فلا بيعة لى عليكم ؛ وإن رأيتم أحدا هو أقوى عليها منى فأردتم بيعته فأنا أول من بايع ودخل فى طاعته ؛ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . ٥

وقال خلف بن خليفة فى قتل الوليد بن يزيد ؛ لقتل خالد بن عبد الله :

لقد سكّنت كلبٌ وأسياف مِذْحجٍ * صدًى كان يَزقو ليلَهُ غير راقد

تركنا أمير المؤمنين بخالدٍ * مُكِبّا على خيشومِه غير ساجدِ

فإن تقطعوا منا مَناط قلادَةٍ * قطعْنا بها منكم مناطَ قلائِدِ ١٠

وإن تَشغلونا عن أذانٍ فإننَّا * شغلْنا الوليدَ عن غِناء الولائد

ولاية يزيد الناقص

ثم بويع يزيد بن الوليد بن عبد الملك فى أول رجب سنة ست وعشرين ومائة ؛ وأمه ابنة يزدجرد بن كسرى ، سباها قتيبة بن مسلم بخراسان وبعث بها إلى الحجاج ابن يوسف ، فبعث بها الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك ، فاتخذها ، فولدت له يزيدَ الناقص ولم تلد غيره . ١٥

ومات يزيد بن الوليد بدمشق لعشر بقين من ذى الحجة سنة ست وعشرين ومائة ، وهو ابن خمس وثلاثين سنة ، وصلى عليه أخوه إبراهيم بن الوليد ابن عبد الملك .

قال عبد العزيز : بويع وهو ابن تسع وثلاثين سنة ، ومات ولم يبلغ الأربعين . ٢٠

وعلى شرطته بكير بن الشماخ اللّخمى ، وكاتب الرسائل ثابت بن سليمان بن سعد ؛ وعلى الخراج والجند والخاتم الصغير والحرس النصر بن عمرو من أهل اليمن ، وعلى خاتم الخلافة عبد الرحمن بن حميد الكلبى ، ويقال : قطن مولاه .

وكتب يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد بالجزيرة وبلغه عنه تلكُّؤٌ في بيعته .

أما بعد : فإني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت ، والسلام .

٥ ثم قطع إليه البعوث وأمر لهم بالعطاء : فلمْ ينقص عطاؤه حتى مات يزيد .

ولما بلغ مروان أن يزيد قطع البعوث إليه كتب ببيعته ، وبعث وفداً عليهم سليمان بن علاثة العقيلي ، فخرج ، فلما قطعوا الفرات لقيهم بريد بموت يزيد ، فانصرفوا إلى مروان . والله أعلم .

ولاية إبراهيم بن الوليد المخلوع

١٠ العلاء بن يزيد بن سنان قال : حدثني أبي قال : حضرت يزيد بن الوليد حين حضرته الوفاة ، فأتاه قطن فقال : أنا رسول مَن وراء بابك ، يسألونك بحق الله لو وليت أمرهم أخاك إبراهيم بن الوليد ! فغضب وضرب بيده على جبهته وقال : أنا أُولِّي إبراهيم ؟ ثم قال لي : يا أبا العلاء ، إلى من ترى أن أعهد؟ قلت أمْرٌ نهيتك عن الدخول في أوله ، فلا أشير عليك في الدخول في آخِره .

١٥ قال : فأصابته إغماءة حتى ظننت أنه قد مات ، ففعل ذلك غير مرة ، ثم خرجت من عنده .

فقعد قطن وافتعل عهداً على لسان يزيد بن الوليد لإبراهيم بن الوليد ، ودعا ناسا فأشهدهم عليه . قال : والله ماعهد إليه يزيد ولا إلى أحد من الناس .

وقال يزيد في مرضه لو كان سعيد بن عبد الملك قريبا مني لرأيتُ

٢٠ فيه رأيي .

وفي رواية أبي الحسن المدائني ، قال : لما مرض يزيد قيل له : لو بايعت لأخيك إبراهيم ولعبد العزيز بن الحجاج بعده ! فقال له قيس بن هانئ العبسي : اتق الله يا أمير المؤمنين وانظر نفسك وأرْضِ الله في عباده ، فاجعل وليّ عهدك

عبد الملك بن عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك . فقال يزيد : لا يسألنى الله عن ذلك ، ولو كان سعيد بن عبد الملك منى قريباً لرأيتُ فيه رأيى ! ... وكان يزيد يرى رأىَ القَدَرية ويقول بقول غيلان ، فألحت القدرية عليه وقالوا : لا يحل لك إهمالُ أمر الأمة ، فبايع لأخيك إبراهيم بن الوليد ولعبد العزيز من بعده . فلم يزالوا به حتى بايع لإبراهيم بن الوليد ولعبد العزيز من بعده . ٥

ومات يزيد لعشر بقين من ذى الحجة سنة ست وعشرين ومائة ، وكانت ولايته خمسة أشهر واثنى عشر يوما .

فلما قدم مروان نبش يزيدَ من قبره وصلبه . وكان يُقرأ فى الكتب القديمة يا مبذر الكنوز ، يا سجادُ فى الأسحار ، كانت ولايتك لهم رحمة ، وعليهم حجة ، نبشوك فصلبوك ! ١٠

وبويع إبراهيم بن الوليد ، وأمه بربرية ، فلم يتم له الأمر ، وكان يدخل عليه قوم فيسلمون بالخلافة ، وقوم يسلمون بالإمرة ، وقوم لا يسلمون بخلافة ولا بإمرة ، وجماعة تبايع ، وجماعة يأبون أن يبايعوا ، فمكث أربعة أشهر حتى قدم مروان بن محمد فخلع إبراهيم وقتل عبد العزيز بن الحجاج ، ووَلِىَ الأمر بنفسه . ١٥

وفى رواية خليفة بن خياط قال : لما أتى مروانَ بن محمد وفاةُ يزيد بن الوليد ، دعا قيساً وربيعة ، ففرض لستة وعشرين ألفاً من قيس ، وسبعةِ آلاف من ربيعة ، وأعطاهم أعطياتهم ، وولى على قيس إسحاقَ بن مسلم العقيلى ، وعلى ربيعة المساورَ بن عقبة ؛ ثم خرج يريد الشام ، واستخلف على الجزيرة أخاه عبد العزيز بن محمد بن مروان ، فتلقاه وجوه قيس : الوثيق بن الهذيل بن زفر ، ٢٠ ويزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى ، وأبو الورد بن الهذيل بن زفر ، وعاصم ابن عبد الله بن يزيد الهلالى ، فى خمسة آلاف من قيس ، فساروا معه حتى قدم حلب ، وبها بشر ومسرور ابنا الوليد بن عبد الملك ، أرسلهما إبراهيم ابن الوليد حين بلغه مسير مروان بن محمد ، فالتقوا ، فانهزم بشر ومسرور

من ابن محمد من غير قتال ، فأخذهما مروان فحبسهما عنده ، ثم سار مروان
حتى أتى حمص ، فدعاهم للمسير معه والبيعة وولىّ العهدَ الحكمَ وعثمانَ ابنى الوليد
ابن يزيد ، وهما محبوسان عند إبراهيم بن الوليد بدمشق ؛ فبايعوه ، وخرجوا
معه حتى أتى عسكرَ سليمان بن هشام بن عبد الملك [فانهزم جندُ سليمان وفرّ
٥ إلى دمشق] بعد قتال شديد ؛ وبلغ عبدَ العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ما لقى
سليمان ، وهو معسكر فى ناحية عين الجَرّ ؛ فأقبل إلى دمشق ، وخرج إبراهيم
ابن الوليد من دمشق ونزل بباب الجابية ، وتهيأ للقتال ومعه الأموال على
العجل ، ودعا الناس فخذلوه ؛ وأقبل عبد العزيز بن الحجاج وسليمان بن الوليد ،
فدخلا مدينة دمشق يريدان قتل الحكم وعثمان بن الوليد وهما فى السجن ؛ وجاء
١٠ يزيد بن خالد بن عبد الله القسرى فدخل السجن فقتل يوسف بن عمر ، والحكم
وعثمان ابنى الوليد بن يزيد ، وهما الحَمَلان ؛ وأتاهم رسول إبراهيم ؛ فتوجه
عبد العزيز بن الحجاج إلى داره ليخرج عياله ، فثار به أهل دمشق فقتلوه ،
واحتزوا رأسه فأتوا به أبا محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية ، وكان محبوساً
مع يوسف بن عمر وأصحابه ، فأخرجوه ووضعوه على المنبر فى قيوده ، ورأس
١٥ عبد العزيز بين يديه ، وحلُّوا قيوده وهو على المنبر ، فخطبهم وبايع لمروان ،
وشتم يزيدَ وإبراهيم ابنى الوليد ، وأمر بجثة عبد العزيز فصُلبت على باب الجابية
منكوساً ، وبعث برأسه إلى مروان بن محمد ؛ واستأمن أبو محمد لأهل دمشق ،
فأمّنهم مروانُ ورضى عنهم ؛ وبلغ [ذلك] إبراهيمَ فخرج هارباً حتى أتى
مروان ، فبايعه وخلع نفسه ، فقبل منه وأمنه ، فسار إبراهيم فنزل الرّقة على
٢٠ شاطئ الفرات ؛ ثم أتاه كتاب سليمان بن هشام يستأمنه فأمّنه ، فأتاه فبايعه .
واستقامت لمروان بن محمد .

وكانت ولاية إبراهيم بن الوليد المخلوع أشهراً . قال أبو الحسن : شهرين ونصفا .

ولاية مروان بن محمد بن مروان

ثم بويع مروان بن محمد بن مروان بن الحكم . أمه بنت إبراهيم بن الأشتر .
قال بعضهم : بل كانت أمه لخبازٍ لمصعب بن الزبير ، أو لابن الأشتر ، واسم
الخباز : رزبا ؛ وقال بعضهم : كان رزبا عبداً لمسلم بن عمرو الباهلى .

وقال أبو العباس الهلالى حين دخل على أبى العباس السفاح : الحمد لله ٥
الذى أبدلنا بحمار الجزيرة وابن أمة النخع ، ابنَ عم رسول الله صلى الله عليه
وسلم وابن عبد المطلب .

وكان مروان بن محمد أحزم بنى مروان وأنجدهم وأبلغهم ، ولكنه ولي
الخلافةَ والأمرُ مدبر عنهم ،

ودُفع إلى مروان أبياتٌ قالها الحكم بن الوليد وهو محبوس ، وهى : ١٠

ألا فِتيانَ من مُضَرٍ فيَحْموا * أسارَى فى الحديدِ مُكبَّلينا
أتذهَبُ عامرٌ بدَمى ومُلكِى * فلا غثًّا أصبتُ ولا سمينا
فإنْ أهلِكْ أنا ووليُّ عهدى * فمَرْوانُ أميرُ المؤمنينا
فأذبْ لاعدِمتُكَ حربَ قيسٍ * فتُخرِجَ منهمُ الداء الدَّفينا
ألا مَن مُبْلِغٌ مرْوانَ عنى * وعمِّى الغمْرَ طال بذا حَنينا ١٥
بأنى قد ظُلمتُ وطال حبْسى * لَدى البخراء فى لِخْفٍ مَهينا

وقتل مروانُ ببوصير من أرض مصر فى ذى الحجة سنة اثنتين
وثلاثين ومائة .

الوليد بن هشام عن أبيه ، وعبد الله بن المغيرة عن أبيه ، وأبو اليقظان ،
قالوا : وُلد مروان بالجزيرة سنة اثنتين وسبعين ، وقتل بقرية من قرى مصر ٢٠
يقال لها بوصير يوم الخميس لخمس بقين من ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين
ومائة . وكانت ولايته خمس سنين وستة أشهر وعشرة أيام . وأم مروان أمَة

لمصعب بن الزبير ، وقتل وهو ابن ستين سنة .

ولد مروان

عبد الملك ، ومحمد ، وعبد العزيز ، وعبيد الله ، وعبد الله ، وأبان ، ويزيد ، ومحمد الأصغر ، وأبو عثمان .

٥ وكاتبه عبد الحميد بن يحيي بن سعيد مولى بنى عامر بن لؤى ، وكان معلما .

وكان على القضاء سليمان بن عبد الله بن علاثة .

وعلى شرطته الكوثر بن عتبة وأبو الأسود الغنوى .

وكان للحرس نُوب ، فى كل ثلاثة أيام نوبة ، يلى ذلك صاحب النوبة .

وعلى حجابته صقلا ومقلاص .

١٠ وعلى الخاتم الصغير عبد الأعلى بن ميمون بن مهران[1] .

وعلى ديوان الجند عمران بن صالح مولى بنى هذيل .

مقتل مروان بن محمد بن مروان

قال : والتقى مروان وعامر بن إسماعيل ببوصير من أرض مصر ، فقاتلوهم ليلا ، وعبد الله وعبيد الله ابنا مروان واقفان فى ناحية فى جمع من أهل الشام ،

١٥ فحمل عليهم أهل خراسان فأزالوهم عن مراكزهم ، ثم كرّوا عليهم فهزموهم حتى ردّوهم إلى عسكرهم ، ورجعوا إلى موقفهم ؛ ثم إنّ أهل الشام بدءوهم فحملوا على أهل خراسان فكشفوا كشفاً قبيحا ، ثم رجعوا إلى أماكنهم وقد مضى عبيد الله وعبد الله ، فلم يروا أحداً من أصحابهم ، فمضوا على وجوههم وذلك فى السحر .

٢٠ وقتل مروان وانهزم الناس ، وأخذوا عسكر مروان وما كان فيه ، وأصبحوا فاتبعوا الفلّ ، وتفرّق الناس ؛ فجعلوا يقتلون من قدروا عليه ، ورجع أهل خراسان عنهم .

فلما كان الغد لحق الناس بعبد الله وعبيد الله ابنى مروان ، وجعلوا يأتونهما متقطعين العشرة والعشرين وأكثر وأقل ؛ فيقولان : كيف أمير المؤمنين ؟ فيقول بعضهم : تركناه يقاتلهم . ويقول بعضهم : انحاز وثاب إليه قوم ولا يتبعونه . حتى أتوا الحرون ، فقال ، كنت معه أنا ومولى له ، فصُرع فجررت برجله ، فقال : أوجعتَنى ! فقاتلت أنا ومولاه عنه ؛ وعلموا أنه مروان فألحوا عليه ، فتركتُه ولحقتُ بكم . فبكى عبد الله ، فقال له أخوه عبيد الله : يا ألأم الناس ! فررتَ عنه وتبكى عليه ؟ ومضوا ، فقال بعضهم : كانوا أربعة آلاف . وقال بعضهم : كانوا ألفين . فأتوا بلادَ النوبة ، فأجرى عليهم ملكُ النوبة ما يصلحهم ، ومعهم أم خالد بنت يزيد ، وأم الحكم بنت عبيد الله ـ صَبيّة جاء بها رجل من عسكر مروان حين انهزموا ـ فدفعها إلى أبيها .

ثم أجمع ابنا مروان على أن يأتيا اليمن ، وقالا : نأتيها قبل أن يأتيها المسوِّدة فنتحصّن فى حصونها وندعو الناس . فقال لهم صاحب النوبة لا تفعلوا إنكم فى بلاد السودان وهم فى عدد كثير ، ولا آمن عليكم ؛ فأقيموا . فأبوا ، قال : فاكتبوا لى كتابا ، فكتبوا له : إنا قدمنا بلادك فأحسنت مثوانا ، وأشرتَ علينا أن لا نخرج من بلادك ، فأبينا ، وخرجنا من عندك وافرين راضين شاكرين لك بطيب أنفسنا .

وخرجوا فأخذوا فى بلاد العدو ، فكانوا ربما عرضوا لهم ولا يأخذون منهم إلا السلاح ، وأكثر من ذلك لا يعرضون له ؛ حتى أتوا بعض بلادهم فتلقاهم عظيمهم فاحتبسهم ، فطلبوا الماء فنعهم ، ولم يقاتلهم ولم يخلِّهم وعطشهم ، وكان يبيعهم القربة بخمسين درهما ، حتى أخذ منهم مالا عظيما .

ثم خرجوا فساروا حتى عرض لهم جبل عظيم بين طريقين فسلك عبد الله أحدهما فى طائفة ، وسلك عبيد الله الآخر فى طائفة أخرى ، وظنوا أن للجبل غاية يقطعونها ثم يجتمعون عند آخرها ، فلم يلتقوا .

وعرض قوم من العدو لعبيد الله وأصحابه فقاتلوهم ، فقُتل عبيد الله ، وأخذت أم الحكم بنته وهى صبية ، وقُتل رجل من أصحابه ، وكفوا عن الباقين وأخذوا سلاحهم .

وتقطع الجيش ، فجعلوا يتنكبون العمران ، فيأتون الماء فيقيمون عليه الأيام ، فتمضى طائفة وتقيم الأخرى ، حتى بلغ العطش منهم ؛ فكانوا ينحرون ٥ الدابة فيقطعون أكراشها فيشربونه ، حتى وصلوا إلى البحر بحيال المَنْدَب ؛ ووافاهم عبد الله وعليه مِقْرَمةٌ قد جاء بها ، فكانوا جميعاً خمسين أو أربعين رجلا ، فيهم الحجاج بن قتيبة بن مسلم الحرون ، وعفان مولى بنى هاشم ، فعبروا إليهم البحر فى السفن ، فمشوا إلى المندب ، فأقاموا بها شهراً فلم تحملهم ، فخرجوا إلى مكة .

١٠ وقال بعضهم : أُعلِمَ بهم العاملُ ، فخرجوا مع الحجاج عليهم ثياب غلاظ وجباب الأكرياء ، حتى وافوا جدة وقد تقطعت أرجلهم من المشى ، فمرُّوا بقوم فرَّقوا لهم فحملوهم ، وفارق عبد الله الحجاج بجدة ، ثم حجوا وخرجوا من مكة إلى تبالة .

وكان على عبد الله نصٌّ أحمر كان قد غيَّبه حين عبر إلى المندب ، فلما أمن استخرجه ، وكانت قيمته ألف دينار ، وكان يقول وهو يمشى : ليت به دابة ! ١٥ حتى صار فى مِقْرمة تكون عليه بالنهار فيلبسها بالليل ؛ فقالوا : ما رأينا مثل عبد الله ، قاتل فكان أشد الناس ، ومشوا فكان أقواهم ؛ وجاعوا فكان أصبرهم وعَرُوا فكان أحسنهم عُريا ! وبعث وهو بالمندب إلى العدو الذين أخذوا أم الحكم بنت أخيه عبيد الله ، ففداها وردّها إليه ؛ فكانت معه .

ثم أُخذ عبد الله فقُدِمَ به على المهدى ، فجاءت امرأته بنت يزيد بن محمد بن ٢٠ مروان بن الحكم ، فكلمت العباس بن يعقوب كاتب عيسى بن على وأعطته لؤلؤا ، ليكلم فيه عيسى ؛ فكلمه وأعلمه بما أعطته ؛ فلم يكلم فيه عيسى بن على المهدىَّ ؛ وأراد المهدى أن يقتله ؛ فقال له عيسى : إن له فى أعناقنا بيعة ؛ وقد أعطى كاتبى قيمة ثلاثين ألف درهم . فحبسه المهدى .

وكان عبد الله بن مروان تزوج أم يزيد ابنة يزيد بن محمد بن مروان ؛ وكانت

فى الحبس ، فلما أخرجهم العباس خرجت إلى مكة فأقامت بها ، وقدم عبد الله بن مروان سرا فتزوجها .

وقال مولى مروان : كنت مع مروان وهو هارب ؛ فقال لى يوما : أين عزبت عنا حلومنا فى نسائنا ؟ ألا زوّجناهم من أكفائهن من قريش فكُفينا مؤونتهن اليوم .

٥

وقال بعض آل مروان : ما كان شىء أنفعَ لنا فى هربنا من الجوهر الخفيف الثمن الذى يساوى خمسة دنانير فما دونها ؛ كان يخرجه الصبى والخادم فيبيعه ، وكنا لا نستطيع أن نظهر الجوهر الثمين الذى له قيمة كثيرة .

وقال مصعب بن الربيع الخثعمى كاتب مروان بن محمد : لما انهزم مروان وظهر عبد الله بن على على أهل الشام ، طلبت الإذن ؛ فأنا عنده جالس وهو متكئ ، إذ ذكر مروان وانهزامه فقال : أشهدتَ القتال ؟ قلت : نعم أصلح الله الأمير . قال لى مروان : احزُر القوم . فقلت : إنما أنا صاحبُ قلم ولستُ بصاحبِ حرب . فأخذ يمنة ويسرة فقال لى : هم اثنا عشر ألف رجل .

١٠

وقال مصعب : قيل لمروان : قد انتُهب بيت المال الصغير ! فانصرف يريد بيت المال ، فقيل له : قد انتُهب بيت المال الأكبر ، انتهبه أهل الشام .

١٥

وقال أبو الجارود السلمى : حدثنى رجل من أهل خراسان قال : لقينا مروان على الزاب ، فحمل علينا أهل الشام كأنهم جبال حديد ، فجثونا على الرُّكب وأشرعنا الرماح ، فزالوا عنا كأنهم سحابة ، ومنحَنا الله أكتافَهم وانقطع الجسر مما يليهم حين عبروا ، فبقى عليه رجل من أهل الشام ، فخرج إليه رجل منا ، فقتله الشامى ؛ ثم خرج إليه آخر ، فقتله ؛ حتى والى بين ثلاثة ؛ فقال رجل منا : اطلبوا لى سيفا قاطعا وترسا صلبا . فأعطيناه ومشى إليه ، فضربه الشامى فاتّقاه بالترس وضرب رجله فقطعها ، وقتله ورجع ، فحملناه وكبرنا ، فإذا هو عبيد الله الكابلى .

٢٠

سمر المنصور ذات ليلة ، فذكر خلفاء بنى أمية وسيرهم ، وأنهم لم يزالوا على استقامة حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين ، وكانت همتهم مع عظم شأن الملك وجلالة قدره ، قصد الشهوات وإيثار اللذات والدخول فى معاصى الله ومساخطه جَهْلا باستدراج الله وأمْنا لمكره ؛ فسلبهم الله العز ونقل عنهم النعمة . فقال له صالح بن على : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن مروان لما دخل النوبة هاربا فيمن تبعه ، سأل ملكُ النوبة عنهم فأُخبر ، فركب إلى عبد الله فكلمه بكلام عجيب فى هذا النحو لا أحفظه ، وأزعجه عن بلده ؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعو به من الحبس بحضرتنا فى هذه الليلة ويسأله عن ذلك ! فأمر المنصور بإحضاره وسأله عن القصة ، فقال :

يا أمير المؤمنين ، قدمنا أرض النوبة وقد خُبِّرَ الملك بأمرنا ، فدخل علىّ رجلٌ أقنى الأنف طُوالٌ حسنُ الوجه فقعد على الأرض ولم يقرب الثياب ، فقلت : ما يمنعك أن تقعد على ثيابنا ؟

قال : لأنى ملك ، ويحق على الملك أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه الله ! ثم قال لأى شىء تشربون الخمر وهى محرمة عليكم ؟

قلت : اجترأ على ذلك عبيدنا وغلماننا وأتباعنا ، لأن المُلْك قد زال عنا .

قال : فلِمَ تطئون الزروع بدوابكم والفسادُ محرم عليكم فى كتابكم ؟

قلت : يفعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم .

قال : فلِمَ تلبسون الديباج والحرير وتستعملون الذهب والفضة وذلك محرّمٌ عليكم ؟

قلت : ذهب الملك عنا وقل أنصارنا فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا فى ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا .

قال : فأطرق مليا وجعل يقلب يده وينكت الأرض ويقول عبيدنا وأتباعنا ، وقوم دخلوا فى ديننا ، وزال الملكُ عنا !! يردده مرارا ، ثم قال : ليس ذلك كذلك ؛ بل أنتم قوم قد استحللتم ما حرم الله ، وركبتم ما نهاكم عنه وظلمتم من

ملكتم ، فسلبكم الله العز ، وألبسكم الذل بذنوبكم ، ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها ؛ وأخاف أن يحل بكم العذاب وأنتم يبلدى فيصيبنى معكم ، وإنما الضيافة ثلاثة أيام ، فتزودوا ما احتجتم وارتحلوا عن بلدى .

أخبار الدولة العباسية

الهيثم بن عدى قال : حدثنى عيّاش قال : حدثنى بكير أبو هاشم مولى مسلمة قال : لم يزل لبنى هاشم بيعة سِرٍّ ودعوةٌ باطنة منذ قُتل الحسين بن على بن أبى طالب ، ولم نزل نسمع بخروج الرايات السود من خراسان وزوال ملك بنى أمية ، حتى صار ذلك . ٥

وقيل لبعض بنى أمية : ماكان سبب زوال ملككم ؟ قال : اختلاف فيما بيننا واجتماع المختلفين علينا ! ١٠

الهيثم بن عدى قال : حدثنى غير واحد ممن أدركت من المشايخ أن على بن أبى طالب أصار الأمر إلى الحسن ، فأصاره الحسن إلى معاوية ، وكره ذلك الحسين ومحمد بن الحنفية . فلما قتل الحسين بن علىّ صار أمر الشيعة إلى محمد بن الحنفية . وقال بعضهم : إلى علىّ بن الحسين ، ثم إلى محمد بن على ثم إلى جعفر بن محمد . والذى عليه الأكثر أن محمد بن الحنفية أوصى إلى أبى هاشم ابنه : عبد الله بن محمد ابن الحنفية ، ولم يزل قائماً بأمر الشيعة يأتونه ويقوم بأمرهم ويؤدون إليه الخراج حتى استخلف سليمان بن عبد الملك ، فأتاه وافداً ومعه عدة من الشيعة ، فلما كلمه سليمان قال : ماكلمت قط قرشيا يشبه هذا ؛ ومانظن الذى كنا نحدّث عنه إلا حقا ! فأجازه وقضى حوائجه وحوائج من معه . ثم شخص وهو يريد فلسطين ، فلما كان ببلاد لخم وجذام ، ضربوا له أبنية فى الطريق ومعهم اللبن المسموم ، فكلما مر بقوم قالوا : هل لكم فى الشراب ؟ قالوا : جُزيتم خيراً ! ثم بآخرين فعرضوا عليه فقال : هاتوا . فلما شرب واستقر بجوفه ، قال لأصحابه : إنى ميت ، فانظروا من القوم ! فنظروا فإذا هم قد قوضوا أبنيتهم وذهبوا ، فقال : ميلوا بى إلى ابن عمى ١٥ ٢٠

وما أحسبنى أدركه ! فأسرعوا حتى أتوا الحُمَيْمَة من أرض الشراة ، وبها محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، فنزل بها ، فقال : يابن عمى ، إنى ميت ؛ وقد صرت إليك ؛ وأنت صاحب هذا الأمر ، وولدك القائم به ، ثم أخوه من بعده ، والله ليُتِمّنّ الله هذا الأمر حتى تخرج الرايات السود من قعر خراسان ، ثم ليغلِبنّ على ما بين حضرموت وأقصى أفريقية ، وما بين الهند وأقصى فَرغانة ، فعليك بهؤلاء الشيعة واستوص بهم خيرا ، فهم دعاتك وأنصارك ، ولتكن دعوتك خراسان لا تعدوها ، لا سيما مرو ، واستبطن هذا الحىّ من اليمن فإن كل مُلك لا يقوم به فصيره إلى انتقاض ، وانظر هذا الحى من ربيعة فألحقهم بهم ، فإنهم معهم فى كل أمر ؛ وانظر هذا الحىّ من قيس وتميم فأقصهم إلا من عصم الله منهم ، وذلك قليل ثم مُرْهم أن يرجعوا فليجعلوا اثنى عشر نقيبا ، وبعدهم سبعين نقيبا ؛ فإن الله لم يصلح أمر بنى إسرائيل إلا بهم ، وقد فعل ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا مضت سَنَة الحمار فوجه رسلك فى خراسان ، منهم مَن يُقتل ومنهم من ينجو ، حتى يُظهر الله دعوتكم . قال محمد بن علي : ياأبا هاشم ، وما سنة الحمار ؟ قال : إنه لم تمض مائة سنة من نبوّة قط إلا انتقض أمرها ، لقول الله عز وجل : ﴿ أَوْ كالذى مَرَّ على قَرْيَةٍ وهى خاوِيَةٌ على عُروشِها قال أَنَّى يُحْيِي هذه اللهُ بعد موتِها فأَماتهُ اللهُ مائةَ عامٍ ثمَّ بَعَثه قال كَمْ لبِثْتَ قال لبِثْتُ يوماً أَوْ بعضَ يومٍ قال بل لبِثْتَ مائةَ عامٍ فانظر إلى طعامِك وشرابِك لم يَتَسَنَّهْ وانظر إلى حِمارِك ولِنَجْعَلَك آيةً للناس ﴾ .

واعلم أن صاحب هذا الأمر من ولدك عبد الله بن الحارثية ، ثم عبد الله أخوه .

ولم يكن لمحمد بن علي فى ذلك الحين ولدٌ يسمى عبد الله ، فولد له من الحارثية ولدان ، سمى كل واحد منهما عبد الله ، وكنى الأكبر أبا العباس ، والأصغر أبا جعفر ، فوليا جميعاً للخلافة .

ثم مات أبو هاشم وقام محمد بن علي بالأمر بعد ، واختلفت الشيعة إليه ؛ فلما وُلد أبو العباس أخرجه إليهم فى خرقة ، وقال لهم : هذا صاحبكم . فجلسوا يلحسون أطرافه .

ووُلد أبو العباس فى أيام عمر بن عبد العزيز .

ثم قدم الشيعة على محمد بن على فأخبروه أنهم حُبسوا بخراسان فى السجن ، وكان يخدمهم فيه غلام من السرّاجين مارأوا قط مثل عقله وظرفه ومحبته فى أهل بيت رسول الله ، يقال له أبا مسلم . قال : أحُرٌّ أم عبد؟ قالوا : أما عيسى فيزعم أنه عبد ، وأما هو فيزعم أنه حُر . قال : فاشتروه وأعتِقوه واجعَلوه بينكم إذا رضيتموه . وأعطوا محمد بن على مائتى ألف كانت معهم .

فلما انقضت المائة سنة بعث محمد بن على رسله إلى خراسان فغرسوا بها غرساً ، وأبو مسلم المقدم عليهم ؛ وثارت الفتنة فى خراسان بين المضرية واليمانية فتمكن أبو مسلم وفرق رسله فى كور خراسان يدعو الناس إلى آل الرسول ، فأجابوه ؛ ونصر بن سيار عامل خُراسان لهشام بن عبد الملك ، فكان يكتب لهشام بخبرهم ، وتمضى كتبه إلى ابن هبيرة صاحب العراق ليُنفِذها إلى أمير المؤمنين ، فكان يحبسها ولا يُنفذها ، لئلا يقوم لنصر بن سيار قائمة عند الخليفة ـ وكان فى ابن هبيرة حسد شديد ـ فلما طال بنصر بن سيار ذلك ولم يأته جوابٌ من عند هشام ، كتب كتاباً وأمضاه إلى هشام على غير طريق ابن هبيرة ، وفى جوف الكتاب هذه الأبيات مُدرجة يقول فيها :

أرى خَلَل الرّماد ومِيض جَمْرٍ * فيُوشِك أنْ يكون لها ضِرامُ

فإنّ النار بالعُودين تُذكَى * وإنّ الحربَ أولها الكلامُ

فإنْ لم تُطفِئوها تَجْنِ حرباً * مُشَمِّرةً يَشِيبُ لها الغلام

فقلت مِنَ التَّعجُّب : ليت شِعْرى * أأيْقاظ أُميّة أم نيام ؟

فإنْ كانوا لِحِينِهِم نياماً * فقل قوموا فقد حان القيامُ

ففِرّى عن رحالِكِ ثم قولى * على الإسلام والعرَب السَّلام

فكتب إليه هشام أن احسِم ذلك الثُّؤلول الذى نجم عندكم . قال نصر : وكيف لنا بِحَسْمه .

وقال نصر بن سيار يخاطب المضرية واليمانية ويحذّرهم هذا العدو الداخل عليهم، بقوله:

أبلغْ ربيعةَ فى مَرْوٍ وإخوتَهم * فليغضَبوا قبل أنْ لا ينفعَ الغضَبُ

ولينصِبوا الحربَ إنّ القومَ قد نَصَبوا * حرباً يُحرّق فى حافاتِها الحطَبُ

٥ ما بالُكمْ تلقحون الحرْبَ بينكم * كأنّ أهلَ الحِجَا عن رأيِهم عَزَبوا[1]

وتتركون عدوًّا قد أظلّكمُ * ممّا تأشّبَ لا دينٌ ولا حسبُ

قِدْماً يَدينون دِيناً ما سَمِعتْ به * عن الرّسول ولم تَنزِل به الكتُبُ

فمن يكنْ سائلا عنْ أصلِ دينِهم * فإنّ دِينَهم أنْ تُقتَل العربُ

ومات محمد بن على فى أيام الوليد بن يزيد، وأوصى إلى ولده إبراهيم بن ١٠ محمد؛ فقام بأمر الشيعة، وقدّم عليهم أبو مسلم السراج وسليمان بن كثيّر؛ وقال لأبى مسلم: إن استطعت أن لا تدع بخراسان لسانا عربيًّا فافعل، ومن شككت فى أمره فاقتله.

فلما استعلى أمر أبى مسلم بخراسان وأجابته الكوَر كلها، كتب نصر بن سيار إلى مروان بن محمد بخبر أبى مسلم وكثرة من تبعه، وأنه قد خاف أن يستولى على ١٥ خراسان وأن يدعو إلى إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس. فأتى الكتاب مروان وقد أتاه رسول أبى مسلم بجواب إبراهيم إلى أبى مسلم؛ فكتب مروان إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك بن مروان وهو عامله على دمشق، أن اكتب إلى عاملك بالبلقاء ليسير إلى الحُميمة فيأخذ إبراهيم بن محمد فيشده وثاقا ثم يبعث به إليك، ثم وجّهه إلىّ. فحُمل إلى مروان، وتبعه من أهله عبد الله ٢٠ ابن على، وعيسى بن موسى؛ فأُدخل على مروان، فأمر به إلى الحبس.

قال الهيثم: حدثنى أبو عُبيدة قال: كنت آتيه فى السجن، ومعه فيه سعيد ابن [هشام بن] عبد الملك، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز؛ فوالله إنى ذات ليلة

(١) فى بعض الأصول: «عن فعلكم غيب».

فى سقيفة السجن بين النائم واليقظان ، إذا بمولى لمروان قد استفتح الباب ومعه عشرون رجلا من موالى مروان الأعاجم ، ومعهم صاحب السجن ، فأصبحنا وسعيد وعبد الله وإبراهيم قد ماتوا .

قال الهيثم : حدّثنى أبو عبيدة قال : حدّثنى وصيف عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الذى كان يخدمه فى الحبس ، أنه غمّ عبدَ الله مولاه بِمِرْفقه ، وإبراهيم ابن محمد بجراب نُورة ، وسعيدُ بن عبد الملك أخرجه صاحب السجن ، فلقيه بعض حرس مروان فى ظلمة الليل ، فوطئته الخيل وهم لا يعرفون من هو ، فمات .

ثم استولى أبو مسلم على خراسان كلها ، فأرسل إلى نصر بن سيار ، فهرب هو وولده وكاتبه داود ، حتى انتهوا إلى الرى ، فمات نصر بن سيار بساوة وتفرّق أصحابه ، ولحق داود بالكوفة وولده جميعاً .

واستعمل أبو مسلم عماله على خراسان ومرو وسمرقند وأحوازها ؛ ثم أخرج الرايات السود ، وقطع البعوث ، وجهز الخيل والرجال ، عليهم قحطبة ابن شبيب ، وعامر بن إسماعيل ، ومحرز بن إبراهيم فى عدّة من القواد ، فلقوا مَنْ بِطوس ، فانهزموا ؛ ومن مات فى الزحام أكثر ممن قتل ، فبلغ القتلى بضعة عشر ألفا .

ثم مضى قحطبة إلى العراق ، فبدأ بجرجان وعليها نباتة بن حنظلة الكلابى ، وكان قحطبة يقول لأصحابه : والله ليُقتلن عامرُ بن ضُبارة ، وينهزمنّ ابن هبيرة ، ولكنى أخاف أن أموت قبل أن أبلغ ثأرى ، وأخاف أن أكون الذى يغرق فى الفرات ، فإن الإمام محمد بن على قال لى ذلك .

قال الهيثم : فقدم قحطبة جرجان فقَتل ابن نُباتة ودخل جرجان فانتهبها ، وقسم ما أصاب بين أصحابه ؛ ثم سار إلى عامر بن ضبارة بأصبهان فلقيه ، فقُتل ابن ضبارة وقَتل أصحابه ، ولم ينجُ منهم إلا الشريد ، ولحق فلُّهم بابن هبيرة .

وقال قحطبة لما قتل ابن ضبارة : ما شىء رأيتُه ولا عدوٌّ قتلتُه إلا وقد حدّثنى به الإمامُ صلوات الله عليه ، إلا أنه حدّثنى أنى لا أعبر الفرات .

وسار قحطبة حتى نزل بحلوان ووجه أبا عون فى نحو من ثلاثين ألفاً إلى مروان بن محمد ، فأخذ على شهرزور حتى أتى الزّاب ، وذلك برأى أبى مُسلم .

فحدث أبو عون عبد الملك بن يزيد : قال لى أبو هاشم بكير بن ماهان : أنت والله الذى تسير إلى مروان ، ولتَبعثنّ إليه غلاماً من مذحج يقال له عامر فليقتلنّه فأمضيتُ والله عامر بن إسماعيل على مقدمتى ، فلقى مروان فقتله .

ثم سار قحطبة من حلوان إلى ابن هبيرة بالعراق ، فالتقوا بالفرات ، فاقتتلوا حتى اختلط الظلام ، وقُتل قحطبة فى المعركة وهو لا يُعرف ، فقال بعضهم : غرق فى الفرات .

ثم انهزم ابن هبيرة حتى لحق بواسط ، وأصبح المسوّدةُ وقد فقدوا أميرهم ، فقدّموا الحسن بن قحطبة . ولما بلغ مروانَ قتلُ قحطبة وهزيمة ابن هبيرة قال : هذا والله الإدبار ، وإلا فتى رأيتم ميتاً هَزم حيًّا !

وأقام ابن هبيرة بواسط وغَلبت المسوّدة على العراق ، وبايعوا لأبى العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة . ووجه عمّه عبد الله بن على لقتال مروان وأهل الشام ، وقدمه على أبى عون وأصحابه : ووجه أخاه أبا جعفر إلى واسط لقتال ابن هُبيرة ، وأقام أبو العباس بالكوفة حتى جاءته هزيمة مروان بالزاب . وأمضى عبدُ الله بن على أبا عون فى طلبه ، وأقام على دمشق ومدائن الشام يأخذ بيعتها لأبى العباس .

وكان أبو سلمة الخلال . واسمه حفص بن سليمان . يُدْعَى وزيرَ آل محمد ، وكان أبو مسلم يدعى أمينَ آل محمد ؛ فقتل أبو العباس أبا سلمة الخلال ، واتهمه بحب بنى فاطمة وأنه كان يحطِب فى حبالهم ؛ وقَتل أبو جعفر أبا مسلم .

وكان أبو مسلم يقول لقواده إذا أخرجهم : لا تكلموا الناس إلا رمْزاً ، ولا تلحظوهم إلا شزْراً : لتمتلئ صدورُهم من هيبتكم .

مقتل زيد بن على أيام هشام بن عبد الملك

كتب يوسف بن عمر إلى هشام بن عبد الملك : إن خالد بن عبد الله أودع زيد بن حسين بن على بن أبى طالب مالا كثيرا . فبعث هشام إلى زيد فقدم عليه فسأله عن ذلك فأنكر ، فاستحلفه فحلف ؛ فخلّى سبيله . وأقام عند هشام بعد ذلك سنة ، ثم دخل عليه فى بعض الأيام ، فقال له هشام : بلغنى أنك تحدّث نفسك بالخلافة ولا تصلح لها لأنك ابن أمَة ! قال : أما قولك إنى أحدث نفسى بالخلافة ، فلا يعلم الغيب إلا الله ؛ وأما قولك إنى ابن أمة فهذا إسماعيل صلى الله عليه وسلم ابن أمة ، أخرج الله من صلبه خيرَ البشر محمدا صلى الله عليه وسلم ، وإسحاق ابنُ حرة ، أخرج الله من صلبه القِردة والخنازير وعبدة الطاغوت . وخرج زيد مغضباً ، فقال زيد : ما أحبَّ أحدٌ الحياة إلا ذلَّ ! قال له الحاجب : لا يسمعْ هذا الكلام منك أحد . وخرج زيد حتى قدم الكوفة ، فقال :

شرَّدهُ الخوفُ وأزْرَى به ٭ كذاكَ مَن يكرَهُ حرّ الجِلادْ

مُنْخرقُ الخُفّيْنِ[1] يشكو الوَجى ٭ تنكُبُهُ أطرافُ مَرْوٍ حدادْ

قد كان فى الموتِ له راحةٌ ٭ والموتُ حتْمٌ فى رقابِ العبادْ

ثم خرج بخراسان ، فوجه يوسفُ بن عمر إليه الخيلَ وخرج فى أثرهم حتى لقيه ، فقاتله ، فرُمى زيد فى آخر النهار بنشابة فى نحره فمات ، فدفنه أصحابه فى حمأة كانت قريبة منهم ، وتتبّع أصحاب زيد ، فانهزم من انهزم وقُتل من قتل ، ثم أتى يوسف فقيل له : إن زيداً دُفن فى حمأة . فاستخرجه وبعث برأسه إلى هشام ، ثم صلبه فى سوق الكناسة ، فقال فى ذلك أعورُ كلب ، وكان مع يوسف فى جيش أهل الشام :

نصبنا لكم زيْدًا على جِذعِ نخلةٍ ٭ وما كانَ مهدِيٌّ على الجذْعِ يُنصب

الشيبانى قال : لما نزل عبد الله بن على نهر أبى فُطْرُس ، حضر الناس بابَه

(١) فى بعض الأصول : « محتفى الرجلين ».

للإذن ، وحضر اثنان وثمانون رجلا من بنى أمية ، فخرج الآذن فقال : يا أهل خراسان ، قوموا . فقاموا سماطين فى مجلسه ، ثم أذن لبنى أمية فأخذتْ سيوفهم ودخلوا عليه . قال أبو محمد العبدى الشاعر : وخرج الحاجب فأدخلنى فسلمت عليه فرد علىَّ السلام ، ثم قال : أنشدنى قولك :

٥ * وقفَ المُتَيَّمُ فى رسومِ دِيارِ *

فأنشدته حتى انتهيت إلى قولى :

أمّا الدُّعاةُ إلى الجِنان فهاشِمٌ * وبنو أُميّةَ من دُعاةِ النّارِ

مَن كان يفخرُ بالمكارِمِ والعُلا * فلهـا بِهِمْ المجدُ غير فَخارِ

والغَمر بن يزيدَ بن عبد الملك جالس معه على المصلى ، وبنو أمية على الكراسى

١٠ فألقى إلىّ صرة حرير خضراء فيها خمسمائة دينار ، وقال : لك عندنا عشرة آلاف درهم وجارية وبرذون وغـلام وتخت ثياب ، قال : فوَفَى والله بذلك كله ثم أنشأ عبد الله بن على يقول :

حسِبتْ أُميّةُ أن سيَرْضَى هاشِم * عنها ويذهَب زَيْدُها وحُسينُها

كلا وربِّ مُحَمّدٍ وإلهـــهِ * حتى تُباحَ سُهولها وحزونها [1]

١٥ ثم أخذ قلنسوته من رأسه فضرب بها الأرض ، فأقبل أولئك الجند على بنى أمية فخبطوهم بالسيوف والعَمد ، وقال الكلبى الذى كان بينهم وكان من أتباعهم : أيها الأمير ، إنى والله ما أنا منهم ! فقال عبد الله بن على :

ومُدخِلٍ رأسهُ لم يَدْعُهُ أحدٌ * بين الفريقَيْنِ حتى لزَّهُ القرَن

اضربوا عنقـه ! ثم أقبل على الغمر فقال : ما أحسب لك فى الحياة بعد

٢٠ هؤلاء خيراً ! فقال : أجـل . قال : يا غلام ، اضرب عنقه ، فأقيم من المصلى فضُرب عنقه ، ثم أمر ببساط فطرح عليهم ، ودعا بالطعام فجعـل يأكل وأنين بعضهم تحت البساط .

---

(١) فى بعض الأصول : « حتى يفادوا زيدها وحسينها » .

وفى رواية أخرى ، قال : لما قدم الغَمر بن يزيد بن عبد الملك على أبى العباس السفاح فى ثمانين رجلا من بنى أمية ، وُضعت لهم الكراسى ، ووضعت لهم نمارقُ وأُجلسوا عليها ، وأجلس الغمرَ مع نفسه فى المصلى ، ثم أذن لشيعته فدخلوا ، ودخل فيهم سُديف بن ميمون ، وكان متوشحاً سيفا ، متنكباً قوسا ، وكان طويلا آدم ، فقام خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ٥ قال : أيزعم الضُّلّالُ بما حبطت أعمالهم أنّ غير آلِ محمد أولى بالخلافة ؟ فلِمَ وبِمَ أيها الناس ؟ لكم الفضل بالصحابة ، دون حق ذوى القرابة ، الشركاء فى النسب ، الأكفاء فى الحسب ، الخاصة فى الحياة ، الوُفاة عند الوَفاة ، مع ضربهم على الأمر جاهلَكم ، وإطعامهم فى اللأواء جائعَكم ، فكم قصم الله بهم من جبار باغ ، وفاسق ظالم ، لم يُسمَع بمثل العباس ، لم تخضع له أمّة ١٠ بواجب حق ، أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أبيه ، وجلدة ما بين عينيه ، أمينُه ليلة العقَبة ، ورسوله إلى أهل مكة ، وحاميه يوم حُنين ، لا يُرَدُّ له رأيا ، ولا يخالِفُ له قسَما ؛ إنكم والله معاشرَ قريش ما اخترتم لأنفسكم من حيث ما اختاره الله لكم ، تيْمىٌّ مرة ، وعدَوىَّ مرة ، وكنتم بين ظهرانَىْ قوم قد آثروا العاجل على الآجل ، والفانىَ على الباقى ، وجعلوا ١٥ الصدقاتِ فى الشهوات ، والفىء فى اللذات والغناء ، والمغانمَ فى المحارم ، إذا ذُكِّروا بالله لم يَذكروا ، وإذا قُدِّموا بالحق أدبروا ، فذلك زمانهم ، وبذلك كان يعمل سلطانهم .

فلما كان الغد أذن لهم فدخلوا ، ودخل فيهم شبل ، فلما جلسوا قام شبل فاستأذن فى الإنشاد ، فأذن له ، فأنشد : ٢٠

أصبح المُلكُ ثابتَ الآساسِ ٭ بالبَهاليل من بنى العبّاسِ
طلَبوا وِتْرَ هاشمٍ فشفَوها ٭ بعد ميْلٍ من الزمان وياس
لا تُقيلنّ عبدَ شمسٍ عِثاراً ٭ واقطَعنْ كلَّ نخلةٍ وغِراس
ولقد غاظَنى وغاظَ سوائى ٭ قربُهم من منابرٍ وكراسى

واذكروا مصرع الحسين وزيداً ◦ وقتيلا بجانب المهراس

وقتيلا بجوف حرّانَ أضحى ◦ تحجل الطّير حوله فى الكنّاس

نعم شِبْلُ الهراش مولاك شِبلٌ ◦ لو نجا من حبائل الإفلاس

ثم قام وقاموا ، ثم أذن لهم بعدُ ، فدخلوا ودخل الشيعة ، فلما جلسوا قام

٥ سديف بن ميمون ، فأنشد :

قد أتتكَ الوُفودُ من عبدِ شمسٍ ◦ مستعدّين يُوجِعون المَطِيّا

غفوة أيها الخليفة لا عن ◦ طاعةٍ بل تخوّفوا المَشْرَفيّا

لا يَغرّنْك ماترى من رجالٍ ◦ إنّ تحتَ الضلوع داء دَويّا

فضعِ السيفَ وارفعِ السوْط حتى ◦ لا ترى فوقَ ظهرِها أمويّا

١٠ ثم قام خلف بن خليفة الأقطع فأنشد :

إنْ تجاوزْ فقدْ قدرْتَ عليهمْ ◦ أو تُعاقِبْ فلمْ تعاقِبْ بَرِيّا

أو تعاتِبْهمُ على رقّةِ الدّيـ ◦ ـنِ فقدْ كان دِينُهم سامِريّا

فالتفت أبو العباس إلى الغمر فقال : كيف ترى هذا الشعر ؟ قال : والله إنّ هذا لشاعر ، ولقد قال شاعرنا ما هو أشعر من هذا . قال : وما قال ؟ فأنشده :

١٥ شُمْسُ العداوةِ حتى يُسْتقادَ لهمْ ◦ وأعظمُ الناسِ أحلامًا إذا قدَروا

فشرق وجه أبى العباس بالدم وقال : كذبتَ يابنَ اللخناء ! إنى لأرى الخيلاء فى رأسك بعد ! ثم قاموا ، وأمر بهم فدُفعوا إلى الشيعة فاقتسموهم فضربوا أعناقهم ، ثم جرّوا بأرجلهم حتى ألقوهم فى الصحراء بالأنبار وعليهم سراويلات الوشى ، فوقف عليهم سديف مع الشيعة ، وقال :

٢٠ طمِعتْ أُميّة أنْ سيرْضَى هاشمٌ ◦ عنها ويَذْهبَ زيدُها وحُسينُها

كلاّ وربِّ محمدٍ وإلٰههِ ◦ حتى يُباد كَفورُها وخَئونها

وكان أشدّ الناس على بنى أمية عبد الله بن على ، وأحنّهم عليهم سليمان بن على ،

وهو الذى كان يسميه أبو مسلم : كنفَ الأمان ؛ وكان يجير كلّ من استجار به .

وكتب إلى أبى العباس :

يا أمير المؤمنين ، إنا لم نحارب بنى أمية على أرحامهم ، وإنما حاربناهم على عقوقهم ، وقد دفت إلىّ منهم دافّة لم يشهروا سلاحا ولم يكثروا جمعا ، فأحب أن تكتب لهم منشورَ أمان . ٥

فكتب لهم منشورَ أمان وأنفذه إليهم ، فمات سليمان بن على وعنده بضع وثمانون حرمة لبنى أمية .

خلفاء بنى أمية بالأندلس

عبد الرحمن بن معاوية بن هشام

أوّل خلفاء الأندلس من بنى أمية : عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن ١٠ عبد الملك ولِىَ المُلك يوم الجمعة لعشر خلون من ذى الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة ، وهو ابن ثمان وعشرين سنة . وتوفى فى عشرة من جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين ومائة ، فكان ملكه اثنتين وثلاثين سنة وخمسة أشهر ، وكان يقال له صقر قريش ، وذلك أنّ أبا جعفر المنصور قال لأصحابه : أخبرونى عن صقر قريش من هو ؟ قالوا : أمير المؤمنين الذى راض المُلك ، وسكّن الزلازل ، ١٥ وحسم الأدواء ، وأباد الأعداء . قال : ما صنعتم شيئا . قالوا : فمعاوية . قال : ولا هذا . قالوا : فعبد الملك بن مروان . قال : ولا هذا . قالوا : فَمَنْ يا أمير المؤمنين ؟ قال : عبد الرحمن بن معاوية ، الذى عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجميا مفردا . فمصّر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودوّن الدواوين ، وأقام ملكا بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره ، وشدّة شكيمته ، إنّ معاوية نهض بمركب ٢٠ حمله عليه عُمر وعثمان وذللا له صعبه ، وعبد الملك ببيعة تقدّم له عقدها ، وأمير المؤمنين بطلب عشيرته واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه .

وقالوا لما توطد ملك عبد الرحمن بن معاوية عمل هذه الأبيات وأخرجها إلى وزرائه فاستغربت من قوله إذ صدقها فعله ، وهى :

ماحقُّ مَن قام ذا امتعاضٍ • مُنتضِىَ الشَّفرتَين نَصْلا

فبَزَّ مُلكا وساد عِزًّا • ومنبَرًا للخِطاب فصْلا

٥ فجازَ قفراً وشَقَّ بَحْراً • مُسامياً لُجّةً ومَحْلا

وجنَّد الجُنْدَ حين أوْدَى • ومصَّر المِصرَ حين أجلى

ثم دعا أهلَه جميعًا • حيثُ انتأَوْا أنْ هلمَّ أهلا

فجاء هذا طريدَ جوعٍ • شريدَ سيْفٍ أبيد قتْلا

فحَلَّ أمْناً ونال شِبْعاً • وحاز مالا وضمَّ شَملا

١٠ ألمْ يكنْ حقُّ ذا على ذا • أوْجَبَ مِن مُنعِمٍ ومولى ؟

وكتب أمية بن يزيد عنه كتابا إلى بعض عماله يستقصره فيما فرط فيه من عمله ، فأكثر وأطال الكتاب ، فلما لحظه عبد الرحمن أمر بقطعه ، وكتب :

أمّا بعد ، فإن يكن التقصير لك مقدما يعدّ الاكتفاء أن يكون لك مؤخرا ، وقد علمت بما تقدّمت ، فاعتمد على أيهما أحببت .

١٥ وكان ثار عليه ثائر بغربىّ بلْدة ، فغزاه فظفر به وأسره ، فبينما هو منصرف وقد حُمل الثائر على بغل مكبولا ، نظر إليه عبد الرحمن بن معاوية وتحته فرس له ، فقنّع رأسه بالقناة ، وقال : يا بغل ، ماذا تحمل من الشقاق والنفاق ! قال الثائر : يا فرس ، ماذا تحمل من العفو والرحمة ! فقال له عبد الرحمن : والله لا تذوق موتا على يدى أبدا .

٢٠ هشام بن عبد الرحمن

ثم ولى هشام بن عبد الرحمن لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة اثنتين وسبعين ومائة . ومات فى صفر سنة ثمانين ومائة . وكانت ولايته سبع سنين

وعشرة أشهر . ومات وهو ابن إحدى وثلاثين سنة .

وهو أحسن الناس وجها، وأشرفهم نفسا ، الكامل المروءة ، الحاكم بالكتاب والسنة ، الذى أخذ الزكاة على حِلها ، ووضعها فى حقها ، لم يُعرف منه هفوةٌ فى حداثته ، ولا زلة فى أيام صباه ، ورآه يوما أبوه وهو مقبل ممتلئٌ شبابا فأعجبه فقال : ياليت نساء بنى هاشم أبصرنه حتى يَعُدْنَ فوارك

وكان هشام يصر الصُّرر بالأموال فى ليالى المطر والظُّلمة ، ويبعث بها إلى المساجد فيُعطي مَن وُجد فيها ؛ يريد بذلك عمارة المساجد .

وأوصى رجل فى زمن هشام بمال فى فك سبيّة من أرض العدو ، فطُلبت فلم توجد ، احتراسا منه للثغر ؛ واستنقاذا لأهل السبي .

الحكم بن هشام

ثم ولى الخلافة الحكم بن هشام فى صفر سنة ثمانين ومائة ؛ وكانت ولايته ستا وعشرين سنة وإحدى عشر شهرا . ومات يوم الخميس لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ست ومائتين وهو ابن اثنتين وخمسين سنة .

وكانت فيه بطالة إلا أنه كان شجاع النفس ، باسط الكف ، عظيم العفة متخيراً لأهل عمله ولأحكام رعيته ، أورع من يقدر عليه وأفضلهم ، فيسلّطهم على نفسه ، فضلا عن ولده وسائر خاصته .

وكان له قاض قد كفاه أمور رعيته ، بفضله وعدله وورعه وزهده ، فمرض مرضا شديداً ، واغتم له الحكم غما شديداً ؛ فذكر يزيدُ فتاه : أنه أرِقَ يوما وليلة وبعُد عنه نومه وجعل يتململ على فراشه ، فقلت : أصلح الله الأمير ، إنى أراك متململا وقد زال النوم عنك ، فلم أدر ما عرض لك ! قال : ويحك ، إنى سمعت نائحة هذه الليلة ، وقاضينا مريض ، فما أراه إلا قد قضى نحبه ، وأين لنا بمثله ؟ ومن يقوم للرعية مقامه ؟ ثم إن القاضى مات ، واستقضى الحكمُ بعده سعيدَ

ابن بشير ؛ فكان أقصد الناس إلى الحق ، وآخَذهم بعدل ، وأبعدهم من هوى ، وأنفذهم لحكم :

رفع إليه رجل من أهل كورة جيان أن عاملا للحكم اغتصبه جارية وعمل فى تصييرها إلى الحكم ، فوقعت من قلبه كل موقع ، وأن الرجل أثبت أمره عند القاضى ، وأتاه ببينة يشهدون على معرفة ما تظلَّم منه ، وعلى عين الجارية ومعرفتهم بها ، وأوجب البينةُ أن تحضر الجارية ؛ فاستأذن القاضى على الحكم ، فأذن له فلما دخل عليه قال : إنه لا يتم عدل فى العامة دون إفاضته فى الخاصة . وحَكى له أمرَ الجارية ، وخيَّره فى إبرازها إليه ، أو عزله عن القضاء ! فقال له : ألا أدعوك إلى خير من ذلك ؟ تبتاع الجارية من صاحبها بأنفس ثمن وأبلغ ما يسأله فيها . فقال : إن الشهود قد شخصوا من كورة جيان يطلبون الحق فى مظانه ، فلما صاروا ببابك تصرفهم دون إنفاذ الحق لأهله ! ولعل قائلا أن يقول : باع ما يملك بيع مُقْتَسَر على أمره . فلما رأى عزمه أمر بإخراج الجارية من قصره ، وشهد الشهود على عينها ، وقضى بها لصاحبها .

وكان سعيد بن بشير القاضى إذا خرج إلى المسجد أو جلس فى مجلس الحكم ، جلس فى رداء معصفر وشعر مفرق إلى شحمة أذنيه ؛ فإذا طُلب ما عنده وُجد أورع الناس وأفضلَهم .

وكانت للحكم ألف فرس مربوطة بباب قصره على جانب النهر ، عليها عشرة عرفاء ، تحت يد كل عريف منها مائة فرس لا تندب ولا تبرح ، فإذا بلغه عن ثائر فى طرف من أطرافه عاجله قبل استحكام أمره ، فلا يشعر حتى يُحاط به .

وأتاه الخبر : أن جابر بن لبيد يحاصر جيان وهو يلعب بالصولجان فى الجسر ، فدعا بعريف من أولئك فأشار إليه أن يخرج من تحت يده إلى جابر بن لبيد ، ثم فعل مثل ذلك بأصحابه من العرفاء ، فلم يشعر ابن لبيد حتى تساقطوا عليه متساوين ، فلما رأى ذلك عدوُّه سُقِط فى أيديهم وظنوا أن الدنيا قد حشرت لديهم ، فولوا مدبرين .

وقال الحكم يوم الهيجاء بعد وقعة الرَّبض :

رأيتُ صُدُوعَ الأرضِ بالسّيفِ راقِعًا ٭ وقِدْما رأيتُ الشّعْبَ مُذ كنْتُ يافِعا

فسائِل ثغُورى هل بها اليوم ثغرَةٌ ٭ أُبادِرُها مُسْتَنْضِىَ السيفِ دارِعا

وشافِه على أرضِ الفضاء جماجماً ٭ كأقحاف شَرْيانِ الهبِيدِ لوامعا

تُنَبِّئْكَ أنى لم أكن عن قراعهم ٭ بِوانٍ وأنى كنت بالسيف قارعا ٥

ولما تساقيْنا سِجالَ حُروبِنا ٭ سقَيْتُهمُ سُمًّا منَ الموتِ ناقعا

وهل زِدْتُ أن وفّيتُهُمْ صاعَ قرْضِهِمْ ٭ فوافَوْا منايا قدِّرتْ ومَصارِعا

قال عثمان بن المثنى المؤدب : قدم علينا عباس بن ناصح من الجزيرة أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، فاستنشدنى شعر الحكم ، فأنشدته ، فلما انتهيت إلى قوله :

وهل زدتُ أن وفّيتُهُم صاعَ قرضِهِمْ ١٠

قال : لو جُوثِىَ الحَكم فى حكومة لأهل الربض لقام بعذره هذا البيت .

عبد الرحمن بن الحكم

ثم وَلِىَ بعده عبد الرحمن بن الحكم ، أندى الناس كفا ، وأكرمهم عطفاً ، وأوسعهم فضلا ، فى ذى الحجة سنة ست ومائتين : فملك إحدى وثلاثين سنة وخمسة أشهر ، ومات ليلة الخميس لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثمان ١٥ وثلاثين ومائتين ، وهو ابن اثنتين وستين سنة .

وكتب إليه بعض عماله ، يسأله عملا رفيعا لم يكن من شاكلته ؛ فوقّع فى أسفل كتابه :

من لم يُصِبْ وجْهَ مَطلبِهِ ، كان الحِرْمانُ أوْلى بِهِ .

محمد بن عبد الرحمن ٢٠

ثم ولى الملك محمد بن عبد الرحمن ، يوم الخميس لثلاث [خلون] من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين ومائتين ، فملك أربعا وثلاثين سنة ، وتوفى

يوم الجمعة مستهلَّ ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ومائتين ، وهو ابن سبع وستين سنة .

وكتب عبد الرحمن بن الشمر إلى الأمير محمد بن عبد الرحمن فى حياة أبيه عبد الرحمن ـ وكان يتجنب الوقوف ببابه مخافة نصرٍ الفتى ـ فلما مات نصر كتب ابن الشمر هذه الأبيات إلى محمد يقول فيها :

لئن غابَ وجهى عنكَ إنّ مودّتى * لشاهِدَةٌ فى كلّ يوم تسَلّمُ
وما عاقنى إلا عــدوٌّ مسلَّطٌ * يُذلُّ ويقصِى من يشاء ويُرغِم
ولم يستَطِل إلا بكم وبِعزّكم * ولا ينبَغى أن يُمنَحَ العِزَّ مجرِم
فـكنتُمُوه فاســتطالَ عليكمُ * وكادتْ بنا نِيرانُهُ تتضَرَّم
كذلكَ كلبُ السّوءِ إن يشْبعِ انبرى * لمُشبِعِه مُسْتشلِياً يتَرمْرَم
فجَمّع إخواناً لُصُوصاً أراذِلا * ومنّاهم أن يقْتُلونا ويغْنَمُوا
رأى بأَمِينِ اللهِ سُــقْماً فغرّهُ * ولم يكُ يدرى أنّه يتقدّم
فنحْمَدُ ربًّا سرّنا بهلاكِهِ * فما زال بالإحسانِ والطَّول ينْعِمُ
أرَادَ يكيدُ الله نصْرٌ فكادَهُ * ولله كيْدٌ يغْلِبُ الكيدَ ، مُبرَم
بكى الكُفرُ والشّيطانُ نصراً فأعْوَلا * كما ضحِكتْ شــوقاً إليه جهَنّم
وكانت له فى كلّ شهْرٍ جِبايةٌ * جِبايةُ آلافٍ تُعَدُّ وتُختَمُ
فهل حائِطُ الإسلامِ يوماً يسُومهم * بمَا اجْتَرَمُوا يوماً عليه وأقدَموا
ويُنهِبُنا أموالهم وهو فاعــلٌ * فإنى أرى الدُّنيا له تتبَسّم
ألا أيُّها النّاسُ اسْمعوا قولَ ناصِحٍ * حَريص عليكمْ مُشفِقٍ وتفهّموا
محمّدُ نورٌ يُستضاءُ بوجْهِهِ * وسيفٌ بكفّ اللهِ ماضٍ مُصَمّم
فكونوا له مِثلَ البنينَ يكن لكُمْ * أباً حَدِباً فى الرحْم بل هو أرْحَم
فيا بن أمين الله لا زِلتَ سالماً * مُعافًى فإنا ما سَلمتَ سنَسْلَم

ألستَ المُرَجّى من أُميّة والذى ＊ له المجدُ منها الأتلدُ المتقدّمُ
وأنت لأهل الخير روْحٌ ورحْمة ＊ نعم، ولأهل الشرّ صابٌ وعلْقمُ

وحدث بقى بن مخلد الفقيه قال : ما كلمت أحداً من الملوك أكمل عقلا ، ولا أبلغ لفظاً من الأمير محمد ؛ دخلت عليه يوما فى مجلس خلافته فافتتح الكلام بحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر الخلفاء خليفة خليفة ؛ فحكى كل واحد منهم بحليته ونعته ووصفه ، وذكر مآثره ومناقبه ، بأفصح لسان ، وأبين بيان ، حتى انتهى إلى نفسه فسكت .

وخرج الأمير محمد يوما متنزها إلى الرصافة ومعه هاشم بن عبد العزيز ، فكان بها صدر نهاره على لذّاته ، فلما أمسى واختلط الظلام رجع منصرفا إلى القصر وبه اختلاط ؛ فأخبرنى من سمعه وهاشم يقول له : ياسيدى يابن الخلائف ، ما أطيب الدنيا لولا ، قال له : لولا ماذا ؟ قال : لولا الموت ! قال له : يابن اللخناء لحنت فى كلامك ؛ وهل مَلكنا هذا الملك الذى نحن فيه إلا بالموت، ولولا الموت ما ملكناه أبدا .

وكان الأمير محمد غزّاء لأهل الشرك والخلاف ، وربما أوّغل فى بلاد العدو الستة الأشهر أو أكثر ، يحرق وينسف ، وله فى العدوّ وقيعة وادى سليط ، وهى من أمهات الوقائع ؛ لم يعرف مثلها فى الأندلس قبلها ، وفيها يقول عباس بن فرناس ، وشعره يكفينا من صفتها :

ومختلِفِ الأد اتِ مُؤتلِفِ الزّحْف ＊ لهُوم الفَلا عَبْل القبائل مُلْتفْ
إذا أومضَتْ فيه الصّوارمُ خِلْتَها ＊ بُروقاً تراءى فى الجَهام وتَسْتخفى
كأنّ ذُرَى الأعلام فى سَيَلانِه ＊ فراقِدُ يَمٍّ قد عجزْن عن القذْف
وإنْ طحَنت أركانُه كانَ قُطبُها ＊ حِجَى مَلِك نَجْد شمائله عفّ
سَمِىٌّ ختام الأنبياء محمد ＊ إذا وُصف الأملاكُ جلّ عن الوصف
فمن أجله يوم الثلاثاء غُدوةً ＊ وقد نَقَض الإصْباح عَقْد عُرَى السَّجْف

بكى جبلا وادى سليط فأعْولا * على النَّفر العُبْدان والعُصبة الغلف
دعاهم صريعُ الحيْن فاجتمَعوا له * كما اجتمَع الجُعْلان للبَعْر فى قف
فما كان إلّا أنْ رماهم ببعضها * فولّوْا على أعقاب مهزومة كُشف
كأنَّ مَساعير الموالى عليهم * شواهين جادتْ للغرانيق بالسَّيْف
٥ بنفسى تنانيرَ الوَغى حين صَمّمَتْ * إلى الجبل المشحون صفًّا على صفّ
يقول ابن بُلْيوس لموسَى وقدْ وَنَى * أرى الموتَ قُدامى وتحتى ومن خلفى
قتلناهمُ ألفاً وألفاً ومثلها * وألفاً وألفاً بعد ألفٍ إلى ألفِ
سِوى من طواهُ النهر فى مُستلَجّه * فأُغْرق فيه أو تدأدأ من جرْف

المنذر بن محمد

١٠ ثم ولى المنذر بن محمد، يوم الأحد لثلاث خلون من ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ومائتين. ومات يوم السبت فى غزاة له على بُبَشتر لثلاث عشرة بقيت من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين، وهو ابن ست وأربعين سنة.

وكان أشد الناس شكيمة، وأمضاهم عزيمة؛ ولما ولى الملك بعث إليه أهل طليطلة بجبايتهم كاملة، فردّها عليهم وقال: استعينوا بها فى حربكم، فأنا سائر ١٥ إليكم إن شاء الله.

ثم غزا إلى المارق الموتر عمرو بن حفصون، وهو بحصن قامرة فأحدق به بخيله ورجله، فلم يجد الفاسق منفذاً ولا متنفَّساً، فأعمل الحيلة، ولاذ بالمكر والخديعة، وأظهر الإنابة والإجابة، وأن يكون من مستوطنى قرطبة بأهله وولده، وسأل إلحاق أولاده فى الموالى؛ فأجابه الأمير إلى كل ما سأل، وكتب ٢٠ له الأمانات، وقطعت لأولاده الثياب، وخُرزت له الخِفاف؛ ثم سأل مائة بغل يحمل عليها ماله ومتاعه إلى قرطبة، فأمر الأمير بها، وطُلبت البغال ومضت إلى بُبَشتر وعليها عشرة من العرفاء، وانحل العسكر عن الحصن بعض الانحلال، وعكف القاضى وجماعة من الفقهاء على تمام الصلح فيما حسبوا فلما رأى

الفاسق الفرصة ، انتهزها ؛ ففسق ليلا وخرج ، فلقى العرفاء بالبغال ، فقتلهم وأخذ البغال ، وعاد إلى سيرته الأولى ؛ فعقد المنذر على نفسه عقداً أن لا أعطاه صلحاً ولا عهداً إلا أن يُلقى بيده ، وينزل على عهده وحكمه ، ثم غزاه الغزاة التى توفى فيها ، وأمر بالبنيان والسكنى عليه . وأن يرد سوق قرطبة عليه ؛ فعاجله أجله عن ذلك .

عبد الله بن محمد

ثم تولى عبد الله بن محمد التقى النقى العابد الزاهد ، التالى لكتاب الله ، والقائم بحدود الله ؛ يوم السبت لثلاث عشرة بقيت من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين فبنى الساباط ، وخرج إلى الجامع والتزم الصلاة إلى جانب المنبر حتى أتاه أجله رحمه الله يوم الثلاثاء لليلة بقيت من صفر سنة ثلثمائة .

وكانت له غزوات ، منها غزاة بلىّ ، التى أنست كل غزاة تقدمتها ؛ وذلك أن المرتد بن حفصون ألّب عليه كوَر الأندلس ، فنزل حصن بلى ، وخرج إليه الأمير عبد الله بن محمد فى أربعة عشر ألفاً من أهل قرطبة خاصة ، وأربعة آلاف من حشمه ومواليه ؛ فبرز إليه الفاسق وقد كردس كراديسه فى سفح الجبل ، وناهضه الأمير عبد الله بجمهور عسكره ، فلم يكن لهم فيه إلا صدمة صادقة ، أزالوهم بها عن عسكرهم ، فلم يقدروا أن يتراجعوا إليه ؛ ونظر الفاسق إلى معسكر عبد الله الأمير ، فإذا بمدد مقبل مثل الليل ، فى انحدار السيل ، لا ينقطع ؛ فخشعت نفسه ، وعطف إلى الحصن يظهر إخراج من بقى فيه ، فثلم ثلمة وخرج منها فى خمسة معه ، وقد طار بهم جناح الفرار ؛ فلما انتهى ذلك إلى أهل عسكره ، ولّوا مدبرين لا يلوى أحدٌ على أحد ، فعملت الرماح على أكتافهم ، والسيوف فى طُلَى أعناقهم ، حتى أفنوهم أو كادوا . وكان منهم جماعة قد افترقوا فى عسكر الأمير عبد الله ، فقعد الأمير فى المظلة وأمر بالتقاطهم ، وأن لا يمر أحد على أحد منهم إلا قتله . فقُتل منهم ألف رجل صبراً بين يدى الأمير .

عبد الرحمن بن محمد أمير المؤمنين

ثم ولى الملك القمر الأزهر ، الأسد الغضنفر ، الميمون النقيبة ، المحمود الضريبة ، سيد الخلفاء ، وأنجب النجباء ، عبد الرحمن بن محمد أمير المؤمنين ، صبيحة هلال ربيع الأول سنة ثلثمائة ، فقلت فيه :

بدَا الهلالُ جديداً ٭ والمُلْكُ غضٌّ جديد
يا نعمةَ اللهِ زيدى ٭ ما كان فيه مزيد

وهى عدة أبيات ؛ فتولى الملك وهى جمرة تحتدم ، ونار تضطرم ، وشقاق ونفاق ، فأخمد نيرانها ، وسكَّن زلزالها ، وافتتحها عَوْداً كما افتتحها بدءاً سميُّه عبد الرحمن بن معاوية رحمه الله .

وقد قلت وقيل فى غزواته كلها أشعار قد جالت فى الأمصار ، وشردت فى البلدان ، حتى أتهمت وأنجدت وأعرقت ، ولولا أن الناس متكتفون بما فى أيديهم منها لأعدنا ذكرَها أو ذكر بعضها ، ولكنا سنذكر ما سبق إلينا من مناقبه التى لم يتقدمه إليها متقدِّم ولا أخت لها ولا نظير . فمن ذلك أول غزاة غزاها ، وهى الغزاة المعروفة بغزاة المنتلون ، افتتح بها سبعين حصناً ، كلُّ حصن منها قد نكبت عنه الطوائف ، وأعيا على الخلائف ، وفيها أقول :

قد أوضح الله للإسلامِ منهاجا ٭ والناس قد دخلوا فى الدِّين أفواجا
وقد تَزَيَّنتِ الدُّنيا لساكنِها ٭ كأنما أُلبِسَتْ وشْياً وديباجا
يابن الخلائف إنّ المُزْنَ لو علِمتْ ٭ نَداك ما كان منها الماء ثَجَّاجا
والحربُ لو علِمتْ بأساً تصولُ به ٭ ما هيَّجَت من حُمَيَّاك الذى اهتاجا
مات النِّفاقُ وأعطَى الكفرُ ذِمَّتَه ٭ وذلّت الخيلُ إلجاماً وإسراجا
وأصبح النصرُ معقوداً بألويةٍ ٭ تطوِى المراحلَ تهجيراً وإدلاجا
أدخَلْت فى قبّةِ الإسلام مارقةً ٭ أخرَجْتَها من ديار الشِّرْك إخراجا
بِجَحفل تشرق الأرض الفضاء به ٭ كالبحر يَقْذِف بالأمواج أمواجا

يقودُه البدرُ يَسرِى فى كواكِبِهِ * عرَمْرَماً كسوادِ الليـلِ رَجّراجَا
تَروقُ فيه بُروقُ الموتِ لامِعةً * ويسمعونَ به لِلرَّعدِ أهزاجا
غادرْت فى عَقْوَتَىْ جيّان ملْحمةً * أبكَيْت منها بأرضِ الشِّرْكِ أعلاجا
فى نصفِ شهرٍ تركْتَ الأرضَ ساكِنةً * مِن بعدِ ما كان فيها الجوْر قد ماجا
وجدْت فى الخَبَرِ المأثورِ مُنصلِتا * مِنَ الخلائفِ خرّاجاً وولّاجا ٥
تُملا بِكَ الأرضُ عدْلا مِثلَ ما مُلِئتْ * جوْرًا وتوضِحُ لِلْمعروفِ مِنهاجا
يا بدرَ ظُلْمتها ، يا شمْسَ صُبْحتِها * يا لَيْثَ حوْمتِها إنْ هائجٌ هاجا
إنّ الخلافةَ لَنْ تَرضَى ولا رضِيَتْ * حتى عقَدْت لها فى رأسِك التّاجا

ولم يكن مثل هذه الغزاة لملك من الملوك فى الجاهلية والإسلام .

وله غزاة مارشن التى كانت أخت بدر وحنين ، وقد ذكرناها على وجهها فى ١٠ الأرجوزة التى نظمتها فى مغازيه كلها من سنة إحدى وثلثمائة إلى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة ، وأوقفناها .

ومن مناقبه أن الملوك لم تزل تبنى على أقدارها ، ويُقضى عليها بآثارها ، وأنه بنى فى المدة القليلة مالم تبنِ الخلفاء فى المدة الطويلة ، نعم : لم يبق فى القصر الذى فيه مصانع أجداده ومعالم أوليته بَنيّة إلا وله فيها أثر محدث ، ١٥ إما تزييد أو تجديد .

ومن مناقبه أنه أول من سُمى أمير المؤمنين من خلفاء بنى أمية بالأندلس .

ومن مناقبه التى لا أخت لها ولا نظير ، ما أعجز فيه من بعده ، وفات فيه من قبله ، من الجود الذى لم يُعرف لأحد من أجواد الجاهلية والإسلام إلا له ؛ وقد ذكرت ذلك فى شعرى الذى أقول فيه : ٢٠

يا بنَ الخلائِفِ والعُلا لِلمُعتَلِى * والجودُ يُعرفُ فضلُه لِلْمُفضِلِ
نَوَّهتَ بالخلفاءِ بل أخْمَلْتَهُمْ * حتى كأنّ نبيلَهُم لم يَنْبُلِ
أذكَرْت بل أنسَيْتَ ما ذكَرَ الأُلىٰ * منْ فِعلهم فكأنه لم يُفعلِ

وأتيتَ آخِرَهُمْ وشأْوُكَ فائتٌ ۞ للآخِـرين ومُدرِكٌ للأوّلِ
ألآنَ سُمّيتِ الخلافةُ باسْمِها ۞ كالبدرِ يُقرَنُ بالسِّماكِ الأعزلِ
تأبى فِعالُك أن تقِرّ لِآخِرٍ ۞ مِنهُمْ وَجودُك أن يكونَ لأوّلِ

* * *

٥ وهذه الأرجوزة التي ذكرت جميع مغازيه وما فتح الله عليه فيها في كل غزاة ، وهي :

سُبحان مَنْ لم تحوِهِ أقطارُ ۞ ولم تكن تُدرِكُهُ الأبصارُ
ومَنْ عنَتْ لوجهِهِ الْوُجوهُ ۞ فما لهُ نِدٌّ ولا شبيهُ
سُبحانهُ مِن خالِقٍ قديرِ ۞ وعالِمٍ بخلْقِـه بصيرِ
١٠ وأوّلٍ ليسَ له ابتِداءُ ۞ وآخِـرٍ ليس له انتِهاءُ
أوسَعَنا إحسانَه وفضْلَهُ ۞ وعزّ أن يكونَ شيءٌ مِثْلَه
وجلّ أن تُدرِكَه العيونُ ۞ أو يَحوِياهُ الوهْمُ والظُّنونُ
لكِنّهُ يُدرَكُ بالقريحَهْ ۞ والعقلِ والأبنيَةِ الصّحيحهْ
وهٰذه من أثبَتِ المعارِفِ ۞ في الأوجُهِ الغامضةِ اللّطائفِ
١٥ معرِفةُ العقلِ منَ الإنسانِ ۞ أثبتُ من معرِفةِ العِيانِ
فالحمـدُ للهِ على نعْمائهْ ۞ حَمْداً جزيلاً وعلى آلائهْ
وبعدَ حَمدِ اللهِ والتّمجيدِ ۞ وبعد شُكرِ المُبدِئِ المُعيدِ
أقولُ في أيامِ خيرِ الناسِ ۞ ومَن تحلّى بالنّدى والْباسِ
ومَن أبادَ الكُفْرَ والنِّفاقا ۞ وشرّدَ الفِتنةَ والشّقاقا
٢٠ ونحنُ في حنادِسٍ كالليلِ ۞ وفِتنةٍ مثلِ غُثاء السّيلِ
حتى تولّى عابدُ الرّحْمٰنِ ۞ ذاك الأعزُّ من بني مروانِ
مُؤيّدٌ حكّمَ في عُـداتِه ۞ سيفاً يسيلُ الموتُ من ظُباتِه
وصبّحَ المُلْكَ مع الهِلالِ ۞ فأصبحا نِدّين في الجمالِ

تأويل آخر من كتاب الله يدل على استخلافه إياه ، لا يقدر أحد أن يحتج فيه ، ولا أعلم أحداً احتج به وأرجو أن يكون توفيقا من الله . قلت : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : قوله عز وجل حين حكى عن موسى قوله : ﴿ وَٱجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَٰرُونَ أَخِي ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ «فأنت مني يا عليُّ بمنزلة هارون من موسى : وزيرى من أهلى ، وأخى ، شد الله به أزرى ، وأشرَكه فى أمرى ، كى نسبح الله كثيراً ، ونذكره كثيراً » فهل يقدر أحدٌ أن يُدخل فى هذا شيئا غير هذا ولم يكن ليبطل قولَ النبى صلى الله عليه وسلم وأن يكون لامعنى له ؟

قال : فطال المجلس وارتفع النهار ؛ فقال يحيى بن أكثم القاضى : يا أمير المؤمنين ، قد أوضحتَ الحق لمن أراد الله به الخير ، وأثبت ما يقدر أحد أن يدفعه . قال إسحق : فأقبل علينا وقال : ما تقولون ؟ فقلنا : كلنا نقول بقول أمير المؤمنين أعزه الله ، فقال : والله لولا أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال اقبلوا القولَ من الناس ، ما كنتُ لأقبلَ منكم القول ؛ اللهم قد نصحت لهم القول ، اللهم إنى قد أخرجت الأمر من عنق ، اللهم إنى أدينك بالتقرب إليك بحب علىٍّ وولايته !

المساحق والدعوة إلى المأمون

وكتب المأمون إلى عبد الجبار بن سعد المساحق عامله على المدينة ، أن اخطب الناس وادعهم إلى بيعة الرضا علىّ بن موسى ، فقام خطيباً فقال :

يا أيها الناس هذا الأمر الذى كنتم فيه ترغبون ، والعدلُ الذى كنتم تنتظرون ، والخيرُ الذى كنتم ترجون ؛ هذا علىُّ بن موسى بن جعفر بن محمد ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ستة آباؤهم ماهم ، من خيرِ مَن يشرب صَوب الغمام .

المأمون والرضى

وقال المأمون لعلى بن موسى : علام تدعون هذا الأمر ؟ قال : بقرابة

أول غزاة غزاها أمير المؤمنين

عبد الرحمن بن محمد

ثم آنتحى جَيّان فى غزاتِه * بعسكرٍ يسعرُ من حُماته
فاستنزلَ الوحشَ مِنَ الهضابِ * كأنما حطَّتْ مِنَ السَّحاب
٥ فأذعنَتْ مُرّاقُها سِراعا * وأقبلَتْ حُصونُها تَداعَى
لمَّا رماها بسيوفِ العزْمِ * مشحوذَةً على دروعِ الحزمِ
كادتْ لها أنفسُهم تجودُ * وكادت الأرضُ بهم تَميد
لولا الإلهُ زُلزِلت زلزالها * وأخرَجت من رهبةٍ أثقالها
فأنزل الناسَ إلى البسيطِ * وقطع البيْنَ منَ الخليطِ
١٠ وافتتحَ الحصونَ حِصناً حصنا * وأوسعَ الناسَ جميعاً أمْنا
ولم يَزلْ حتى آنتحى جيّانا * فلم يَدع بأرضِها شـيطانا
فأصبحَ الناسُ جميعاً أمّةْ * قد عقدَ الإلُّ لهم والذّمّةْ
ثم انتحى من فوْرِه إلبيرهْ * وهْىَ بكلِّ آفةٍ مشهورَهْ
فداسها بخيْـلِه ورجْلِه * حتى توطّا خدها بنعْلِه
١٥ ولم يَدع من جِنّها مَرِيدا * بها ولا من إنْسِها عنيدا
إلّا كساهُ الذُّلَ والصَّغارا * وعمّهُ وأهـلَهُ دمارا
فما رأيتُ مِثل ذاك العامِ * ومثلَ صُنعِ آللهِ للإسلامِ
فانصرفَ الأميرُ من غزاته * وقد شفاهُ الله من عُداتهْ
وقبلها ما خضعَتْ وأذعنَت * إستجّة وطالمَا قد صنعتْ
٢٠ وبعدها مدينةُ الشّنّيل * ما أذعنَتْ لِلصّارمِ الصّقيلِ
لمّا غزاها قائدُ الأميرِ * باليُمنِ فى لوائه المنصور
فأسلمت ولم تكُن بالمُسلِمَهْ * وزال عنها أحمدُ بن مَسلَمَهْ

وبعدَها فى آخر الشهورِ * من ذلك العام الزكىّ النُّورِ
أرْجفتِ القلاعُ والحصونُ * كأنما ساوَرها المَنونُ
وأقبلتْ رجالها وُفودا * تبغى لدى إمامها السُّعودا
وليس من ذى عزةٍ وشدّهْ * إلا تَوافوْا عند باب السُّدّهْ
قلوبُهم باخعـة بالطاعهْ * قد أجمعوا الدخولَ فى الجماعهْ ٥

سنة إحدى وثلثمائة

ثم غزا فى عقْب عام قابلِ * فجال فى شَذونةٍ والسّاحلِ
ولم يدعْ مَرِيّة الجزيرهْ * حتى كوَى أكُلَّها الهريرهْ
حتى أناخ بذرَى قرْمونَهْ * بكلْكلٍ كمُدرة الطاحونَهْ
على الذى خالف فيها وآنتزى * يُعزى إلى سوادةٍ إذا آعتزى ١٠
فسأل أن يُمهله شهورا * ثم يكون عبده المأمورا
فأسعَف الأميرُ منه ما سألْ * وعاد بالفضل عليه وقفَلْ

سنة اثنتين وثلثمائة

كان بها القُفول عند الجيئَهْ * من غزْو إحدى وثلثمائهْ
فلم يكن يُدرَك فى باقيها * غزوٌ ولا بعثٌ يكون فيها ١٥

سنة ثلاث وثلثمائة

ثُمّتْ أغزَى فى الثلاث عمّهْ * وقد كساه عزْمَه وحزمهْ
فسار فى جيشٍ شديد البأسِ * وقائدِ الجيش أبو العبّاسِ
حتى ترقّى بذُرَى بُبَشتَر * وجال فى ساحتها بالعسكر
فلم يدعْ زرْعا ولا ثِمارا * لهم ولا علْفاً ولا عَقارا ٢٠

وقطعَ الكرومَ منها والشجرْ * ولم يُبايع عِلْجُها ولا ظهرْ
ثم انثنَى من بعد ذاك قافلا * وقد أباد الزرعَ والمآكِلا
فأيقن الخنزيرُ عند ذاكا * أنْ لا بقاء يُرتَجى هناكا
فكاتَبَ الإمامَ بالإجابهْ * والسَّمْع والطاعة والإنابهْ
٥ فأخمدَ اللهُ شهابَ الفتنهْ * وأصبح الناسُ معًا فى هدنَهْ
وارتعتِ الشاةُ معًا والذِّيبُ * إذ وضَعتْ أوزارها الحروبُ

سنة أربع وثلثمائة

وبعدها كانت غَزاة أربعِ * فأىّ صُنْعٍ ربُّنا لم يصنعِ...
... فيها، يبسُط الملِكُ الأوّاهِ * كلتا يديْه فى سبيل اللهِ
١٠ وذاك أنْ قوّدَ قائدَيْنِ * بالنّصر والتأييد ظاهرَيْنِ
هـذا إلى الثَّغْر وما يليهِ * على عدوّ الشِّرْك أو ذَويهِ
وذا إلى شمّ الرُّبا من مُرسِيَهْ * وما مضى جرى إلى بَلَنْسِيهْ
فكان مَن وجّهه للساحلِ * القُرشىُّ القائدَ القنابلِ
وابنَ أبى عبدةَ نحو الشِّركِ * فى خيْر ما تعْبيةٍ وشِكّ
١٥ فأقبَلا بكلّ فتحٍ شاملِ * وكلّ ثُكْلٍ للعدوّ ثاكلِ
وبعد هٰذى الغزوةِ الغرّاء * كان افتتاحُ ليلةَ الحمراء
أغزَى بجندٍ نحوها مولاهُ * فى عقْبِ هذا العامِ لا سِواهُ
بَدْراً ، فضمّ جانبيْه ضمّهْ * وغمّها حتى أجابتْ حُكْمَهْ
وأسلمتْ صاحبَها مقهورا * حتى أتى بَدْرٌ به مأسورا

٢٠ سنة خمس وثلثمائة

وبعدها كانت غَزاة خمْسِ * إلى السّوادىّ عقيد النّحْسِ

لمَّا طغى وجاوز الحدودا * ونقَض الميثاق والعهودا
ونابَذ السُّلطان من شقايْه * ومن تعدِّيه وسوء رايْه
أغزى إليه القرشيَّ القايْدا * إذ صار عن قصْد السبيل حايْدا
ثُمَّتَ شدَّ أزره ببدْرِ * فكان كالشَّفْع لهذا الوِتْر
أخدقها بالخيل والرجالِ * مُشمِّراً وجدَّ فى القتالِ
فنازلَ الحصْنَ العظيمَ الشّانِ * بالرّجْل والرُّماة والفُرسانِ
فلم يزلْ بدرٌ بها مُحاصِرا * كذا على قتاله مُثابِرا
والكلب فى تهوُّرٍ قد انغمسْ * وضيَّق الخلْقَ عليه والنَّفَسْ
فافترق الأصحابُ عن لوائِه * وفتحوا الأبوابَ دون رائِه
واقتحمَ العسكرُ فى المدينهْ * وهو بها كهيئة الظَّعينهْ
مستسلِمًا للذلِّ والصَّغارِ * ومُلْقيا يديه للإسارِ
فنزع الحاجبُ تاجَ مُلْكهْ * وقاده مكتَّفاً لهُلْكهْ
وكان فى آخر هذا العامِ * نكْبُ أبى العبّاس بالإسلامِ
غزا فكان أنجدَ الأنجادِ * وقايْداً من أجل القوّادِ
فسار فى غير رجال الحربِ * الضاربين عند وقت الضرْبِ
مُحارباً فى غير ما مُحاربِ * والحشَم الجمهور عند الحاجبِ
واجتمعتْ إليه أخلاطُ الكُوَرْ * وغاب ذو التَّحصيل عنه والنظرْ
حتى إذا أوْغل فى العدوّ * فكان بين البُعد والدُّنوّ
أسلمه أهلُ القلوب القاسيهْ * وأفردوه للكلاب العاويَهْ
فاستشهدَ القائدُ فى أبرارِ * قد وهَبوا نفوسَهم للبارى
فى غير تأخيرٍ ولا فِرارِ * إلا شديدَ الضرْبِ للكفّارِ

سنة ست وثلثمائة

ثم أقاد اللهُ من أعدائِهِ * وأحكمَ النصرَ لأوليائِهِ
فى مبدإ العامِ الذى من قابلِ * أزْهقَ فيه الحقُّ نفْسَ الباطلِ
فكان من رأْى الإمام الماجدِ * وخيرِ مولودٍ وخيرِ والدِ
٥ أنِ احتمَى للواحد القهّارِ * وفاض من غيظٍ على الكفّارِ
فجمع الأجناد والحُشودا * ونفَّر السيِّدَ والمَسودا
وحشَر الأطْرافَ والثُّغورا * ورفَض اللَّذَّةَ والحُبُورا
حتى إذا ما وافَتِ الجنودُ * واجتمعَ الحُشّادُ والحُشودُ
قوَّدَ بَدْرًا أمْرَ تلك الطائفهْ * وكانت النفسُ عليه خائفهْ
١٠ فسار فى كتائبٍ كالسَّيْلِ * وعسكر مثْل سواد الليلِ
حتى إذا حلَّ على مُطنِيَّهْ * وكان فيها أخبثُ البَرِيَّهْ
ناصَبَهم حرباً لها شَرارُ * كانما أُضرِمَ فيها النارُ
وجَدَّ من بينِهِم القتالُ * وأحدقتْ حولهم الرجالُ
فحارَبوا يومَهـمُ وباتوا * وقد نفتْ نومَهم الرُّماةُ
١٥ فهمْ طَوالَ الليل كالطَّلائح * جراحُهم تنْغَلُ فى الجَوارح
ثم مضوْا فى حربِهمْ أيّاما * حتى بَدا الموتَ لهم زُؤاما
لمّا رأَوْا سَحائبَ المَنيَّهْ * تُمْطِرُهمْ صَواعِقَ البليّهْ
تغلْغلَ العُجمُ بأرض العَجمِ * واحتشَدوا من تحتِ كلِّ نجْم
فأَقبلَ العِلْجُ لهم مُغيثا * يومَ الخميس مُسرعا حثِيثا
٢٠ بين يديه الرَّجْل والفوارسُ * وحوْله الصُّلْبانُ والنَّواقِسُ
وكان يرجو أنْ يُزِيلَ العسكرا * عن جانب الحِصن الذى قد دُمِّرا
فاعتاقه بدرٌ بمن لديْهِ * مُسْتبْصراً فى زحْفِه إليهِ

حتى التقتْ ميمنة بميسرهْ ۞ وآعتلتِ الأرواحُ عند الحنجرهْ
فغازَ حزبُ اللهِ بالعلجانِ ۞ وانهزمَتْ بِطانةُ الشيطانِ
فقُتِلوا قتْلا ذريعاً فاشيا ۞ وأدْبَر العِلْجُ ذميماً خازيا
وانصرف الناس إلى القُليعة ۞ فصبّحوا العدو يومَ الجمعهْ
ثم التقى العلْجانِ فى الطريقِ ۞ البنْبلونىُّ مع الجلّيقى
فأعقدا على انتهابِ العسكرِ ۞ وأن يموتا قبل ذاكَ المحْضَرِ
وأقسما بالجِبْتِ والطاغُوتِ ۞ لا يُهزَما دونَ لِقاءِ الموت
فأقبلوا بأعظمِ الطُّغْيانِ ۞ قد جَلّلُوا الجبالَ بالفُرسانِ
حتى تداعَى الناسُ يومَ السّبتِ ۞ فكانَ وقتاً ياله من وقْتِ
فأُشرعتْ بينَهُمُ الرماحُ ۞ وقد علا التّكبيرُ والصّياحُ
وفارقَتْ أغمادَها السّيوفُ ۞ وفغرتْ أفواهها الحتُوف
والتقَتِ الرجالُ بالرجالِ ۞ وانغَمَسوا فى غمرةِ القتالِ
فى موقفٍ زاغت به الأبصارُ ۞ وقصرَتْ فى طولِه الأعمارُ
وهبّ أهلُ الصبرِ والبصائرِ ۞ فأوغلوا على العَدُوّ الكافرِ
حتى بدت هزيمةُ البَشْكنس ۞ كأنّه مُخْتَضِبٌ بالورْسِ
فانقضّتِ العِقْبانُ والسلالقَهْ ۞ زغْقاً على مُقدّمِ الجلالقَهْ
عِقْبانُ موتٍ تخطفُ الأرواحا ۞ وتُشْبعُ السّيوفَ والرماحا
فانهـزَمَ الخِنْزيرُ عندَ ذاكا ۞ وانكشفت عورَتُه هُناكَ
فقُتِلوا فى بطنِ كلّ وادِى ۞ وجاءتِ الرُّءوسُ فى الأعوادِ
وقدّم القائدُ ألفَ راسِ ۞ مِنَ الجلاليق ذوِى العَماسِ
فتمّ صُنْعُ اللهِ للإسلامِ ۞ وعمّنا سُرورُ ذاكَ العامِ
وخيرُ ما فيه من السُّرورِ ۞ موتُ ابن حفصُونَ به الخِنْزيرِ

فاتّصلَ الفتحُ بفتحٍ ثانِ * والنّصرُ بالنّصْرِ من الرّحْمٰن
وهٰذهِ الغَزاةُ تدعَى القاضِيهْ * وقد أتتْهُمْ بعد ذاكَ الداهيهْ

سنة سبع وثلثمائة

وبعدَها كانت غَزاةُ بلدهْ * وهىَ التى أوْدت بأهْل الرِّدّهْ
وبَدْؤها أنّ الإمامَ المُصْطفى * أصْدقَ أهلِ الأرضِ عدْلا ووفا ٥
لمّا أتته ميتةُ الخنزيرِ * وأنه صارَ إلى السّعيرِ
كاتبهُ أولادُه بالطاعهْ * وبالدُّخولِ مدخلَ الجماعهْ
وأن يُقرّهم على الوِلايه * على وُرودِ الخرْج والجبايه
فاختارَ ذلك الإمامُ المُفضِلُ * ولم يزل من رأيِه التّفضُّلُ
ثم لوى الشيطانُ رأسَ جعفرِ * وصار منه نافخاً فى المِنْخَر ١٠
فنقَضَ العُهُودَ والميثاقا * واستعْمَلَ التّشغيبَ والنّفاقا
وضمّ أهْل النّكْثِ والخلافِ * من غيرِ ما كافٍ وغيرِ وافى
فاغتاقه الخليفةُ المؤيّدُ * وهْو الذى يشقَى به ويسعَد
ومن عليْهِ من عُيون اللهِ * حوافظ من كلّ أمْرٍ داهِ
فجنّدَ الجنودَ والكتائبا * وقوّدَ القوّادَ والمقانبا ١٥
ثم غزا فى أكثرِ العديدِ * مُستصحباً بالنّصرِ والتأييدِ
حتى إذا مرّ بحصنِ بَلْدهْ * خلف فيه قائداً فى عدّهْ
يمنعُهُمْ من انتشارِ خيْلِهِمْ * وحارساً فى يومهمْ وليلهمْ
ثمّ مَضى يستنزِلُ الحصُونا * ويَبعثُ الطّلاعَ والعيونا
حتى أتاه باشرٌ من بلْدهْ * يعدو برأسِ رأسِها فى صَعْدَهْ ٢٠
فقدّمَ الخيلَ إليها مُسرِعا * واحتلّها من يومهِ تسرُّعا
فحفّها بالخيلِ والرّمْدِ * وجُملةِ الحُماةِ والكُماةِ

فأطلعَ الرجْلَ على أنقابِها * واقتحم الجنْدَ على أبوابها
فأذعنت ولم تكن بمُذْعِنه * وآستسلَمت كافرةٌ لمؤْمنَهْ
فقدِّمت كُفارُها للسيفِ * وقُتّلوا بالحقّ لا بالحيْفِ
وذاك من يُمنِ الإمامِ المرتضَى * وخيرِ مَن بقى وخيرِ من مضى
ثم انتحى من فوْره بُرْ بشترا * فلم يدَعْ بها قضيباً أخضرا ٥
وحطَّم النَّبات والزُّروعا * وهَتَّكَ الرباعَ والرُّبوعا
فإذْ رأى الكلْبُ الذى رآه * من عزْمهِ فى قطعِ مُنْتواهُ
ألقى إليه باليــدَيْن ضارعا * وسال أن يُبقى عليه وادعا
وأن يكون عاملا فى طاعتِهْ * على دُرُور الخرْج من جِبايتِه
فوثق الإمام من رِهانِه * كيلا يكون فى عمًى من شانه ١٠
وقبِل الإمامُ ذاكَ منــه * فضلا وإحساناً وسار عنــه

سنة ثمان وثلثمائة

ثم غزا الإمام دارَ الحرْبِ * فكان خطباً ياله من خطْبِ
فحُشِدت إليه أعلامُ الكُوَرْ * ومن له فى النار ذِكرٌ وخطر
إلى ذَوى الديوانِ والراياتِ * وكلٌّ مَنسوبٍ إلى الشاماتِ ١٥
وكلٌّ من أخلَصَ للرّحْمٰنِ * بطاعةٍ فى السر والإعلانِ
وكلٌّ من طاوع بالجهاد * أو ضمه سرجٌ على الجياد
فكان حشدا ياله من حشْدِ * من كلّ حُرّ عندنا وعبدِ
فتحسِبُ الناسَ جرَاداً منتشِر * كما يقولُ ربُّنا فيمن حُشِرْ
ثم مضى المُظفَّر المنصورُ * على جبينِه الهدى والنُّورُ ٢٠
أمامَه جُنْدٌ من الملائكه * آخــذةٌ لربِّها وتاركه

حتى إذا فوزَ فى العدوّ * جنَّبهُ الرحمٰنُ كل سَوّ
وأنزلَ الجزية والدواهِى * على الذين أشركوا بالله
فزلزلتْ أقدامُهم بالرُعبِ * واستنفروا من خوف نار الحربِ
واقتحموا الشّعابَ والمكامِنا * وأسْلَموا الحصون والمدائنا
٥ فما تبقّى من جنابِ دورِ * من بيعةٍ لراهبٍ أو ديرِ
إلا وقد صيّرها هباء * كالنارِ إذ وافقتِ الأباء
وزعزعَتْ كتائبُ السُلطانِ * بكلّ مافيها من البنيانِ
فكان من أول حصنٍ زعْزَعوا * ومن به من العدوّ أوقَعوا
مدينة معرُوفة بوخشمَهْ * فغادرُوها فَحْمَة مُسخّمهْ
١٠ ثم ارتقوْا منها إلى حَواضر * فغادروها مثل أمسِ الدابرِ
ثم مضوْا والعِلْجُ يحتَذيهمْ * بجيشِه يمشى ويقْتفيهمْ
حتى انتهوْا منه لوادِى دىّ * ففيه عنّ الرُشدُ سُبْلَ الغىّ
لمَّا التقوا بمَجْمَعِ الجوزَيْن * واجتمعت كتائبُ العِلْجين
من أهلِ اليُونَ وبَنْبَلُونَه * وأهل أرْنيط وبَرْشلونَهْ
١٥ تضافرَ الكفرُ مع الإلحادِ * واجتمعوا من سائِر البلادِ
فاضْطَربوا فى سفحِ طودٍ عالِ * وصففّوا تعبيةَ القتالِ
فبادرت إليهم المقدمَهْ * سامية فى خيلها المُسَوّمَه
ورِدْها متّصِل برِدْ * يَمُدُّهُ بحرٌ عظيم المدْ
فانهزمَ العلجانِ فى علاجِ * ولبسوا ثوباً من العجاجِ
٢٠ كلاهُما ينظُرُ حيناً خلْفَهُ * فهوَ يَرى فى كلّ وجْهٍ حتفَهُ
والبيضُ فى آثارهم والسُّمْرُ * والقتلُ ماضٍ فيهم والأَسرُ
فلم يكن للنّاسِ من بَراحِ * وجاءتِ الرؤوس فى الرّماحِ
فأمَرَ الأميرُ بالتّقْويضِ * وأسْرعَ العسْكرُ فى النُّهوضِ

فصادَفوا الجمهورَ لمّا هُزموا * وعاينوا قُوّادَهم تُخُرِّموا
فدَخلوا حـــديقةً للموتِ * إذ طمِعوا فى حِصْنِها بالفَوْتِ
فيالهـا حـــديقةً ويالَهـا * وافت بها نُفوسُهُم آجالَهـا
تحصّنوا إذ عاينوا الأهوالا * بمَعْقِل كان لهم عِقالا
وصَخْرةٍ كانت عليهم صَيْلَما * وانقلَبوا منهـــا إلى جَهنَّما ٥
تَساقطوا يَستطعِمون المـاء * فأُخرِجَتْ أرواحُهم ظِماء
فكم لسيفِ الله من جَزورِ * فى مأدب الغِرْبان والنُّسورِ
وكم به قَتْلى منَ القساوس * تندَب للصُّلبان والنَّواقِسِ
ثم ثنى عِنانَه الأمـــير * وحولَه التَّهْليل والتَّكبيرُ
مُصمِّماً بحرب دار الحربِ * قُدّامَه كَتائبٌ من عُرْبِ ١٠
فداسَهـا وسامَهـا بالخَسْف * والهتْك والسَّفْك لها والنَّسْف
فخرّقوا ومزّقوا الحصونا * وأسْخَنوا من أهلها العيونا
فانظُر عن اليمين واليسـار * فمـا ترى إلا لهيبَ النـار
وأصبحَتْ ديارُهم بَلاقِعا * فمـا ترى إلا دُخاناً ساطعَا
ونصِر الإمام فيها المصطفى * وقد شفَى من العدُوِّ واشتَفى ١٥

غزوة سنة تسع وثلثمائة

وبعدها كانت غَزاة طَرّش * سَمَت إليهـا جيشُه لم يُنْهش
وأحدَقتْ بحصْنِهـا الأفاعى * وكلُّ صِـــلٍّ أسودُ شُجاعِ
ثم بنى حصـناً عليهـا راتبا * يَعْتورِ القوّادَ فيـــه دائبا
حتى أنابت عَنْوةً جِنّانُها * وغاب عن يافوخِها شيطانُها ٢٠
فأذعنَتْ لســـيِّد السادات * وأكرمِ الأحياء والأموات
خليفةِ الله على عبـــادِهْ * وخير من يَحكُمُ فى بلادهْ

وكان موتُ بدْرِ ابن أحمـدِ ＊ بعـد قُفولِ المَلِكِ المؤيَّدِ
واستَحجَب الإمام خيرَ حاجبِ ＊ وخيرَ مصحوبٍ وخيرَ صاحبِ
موسى الأغَرَّ من بنى جُدَيْر ＊ عقيدَ كلِّ رأفةٍ وخيرِ

سنة عشر وثلثمائة

٥ وبعدها غَزاة عَشْرٍ غَزْوهْ ＊ بها افتتاحُ منتلون عَنْوهْ
غزَا الإمام فى ذوى السُّلطان ＊ يَؤمُّ أهل النَّكْث والطُّغيانِ
فاحتلَّ حصنَ منتلون قاطعا ＊ أسبابَ من أصبحَ فيه خالعا
سار إليه وبنى عليه ＊ حتى أتاه مُلقياً يديْه
ثم انثنى عنه إلى شَذونَهْ ＊ فعاضَها سهلا من الحُزونَهْ
١٠ وساقَها بالأهل والولدانِ ＊ إلى لزوم قُبَّةِ الإيمانِ
ولم يدعْ صعباً ولا منيعاً ＊ إلا وقد أذلهم جميعا
ثم انثنَى بأطيَب القفول ＊ كما مضى بأحسن الفصول

سنة إحدى عشر وثلثمائة

وبعدَها غَزاة إحدى عشرهْ ＊ كم نبّهتْ من نائمٍ فى سَكْرَهْ
١٥ غزا الإمام يَنتحى بُبَشْتَرا ＊ فى عسكرٍ أعظِمْ بذاك عسكَرا
فاحتلَّ من بُبشْترٍ ذُراها ＊ وجال فى شاطٍ وفى سواها
فخرّب العُمْران من بُبَشْتَر ＊ وأذعَنتْ شاطُ لربِّ العسكر
فأدخَلَ العُدَّة والعَديدا ＊ فيها ولم يَتركْ بها عنيدا
ثم انتحى بعدُ حُصونَ العُجم ＊ فداسها بالقَضْم بعدَ الخَضْم
٢٠ ماكان فى سواحلِ البُحور ＊ منها وفى الغابات والوُعور
وأدخَلَ الطَّاعةَ فى مكان ＊ لم يَدْرِ قطُّ طاعةَ السُّلطان

ثم رمى الثغر بخير قائد * وذادهم منها بخير ذائد
به قمع الله ذوى الإشراك * وأنقذ الثغر من الهلاك
وآنتاش من مهواتها تُطيله * وقد ثوت دماؤها مطلوله
وسهّل الثغر وما يليه * من شيعة الكفر ومن ذويه
ثم انثنى بالفتح والنجاح * قد غيّر الفساد بالصلاح ٥

سنة اثنتى عشر وثلثمائة

وبعدها غزاة ثِنْتَى عشرَهْ * وكم بها من حسرةٍ وعبرهْ
غزا الإمامُ حوله كتائبُهْ * كالبدر محفوفاً به كواكبُهْ
غزا وسيفُ النصر فى يمينه * وطالعُ السعدِ على جبينهْ
وصاحبُ العسكر والتدبير * موسى الأغرّ حاجب الأمير ١٠
فدمّر الحصونَ من تُدمير * وآستنزل الوحشَ من الصخور
فاجتمعتْ عليه كلُّ الأمهْ * وبايعته أمراء الفتنهْ
حتى إذا أوعب من حصونها * وحمّل الحقّ على متونها
مضى وسار فى ظلال العسكر * تحت لواء الأسد الغضنفر
رجالُ تُدميرٍ ومَن يليهم * من كلّ صنفٍ يعتزى إليهم ١٥
حتى إذا حلّ على تُطيله * بكت على دمائها المطلوله
وعُظْم ما لاقت من العدوّ * والحرب فى الرّواح والغدوّ
فهمّ أنْ يُديخَ دارَ الحرب * وأن يكونَ ردأةً فى الدرْب
ثم آستشار ذا النُهى والحِجر * من صحبه ومن رجال الثغر
فكلّهم أشار أنْ لا يُدْربا * ولا يجوز الجبلَ المؤشّبا ٢٠
لأنه فى عسكرٍ قد آنخرمْ * بنذب كلّ العُرفاء والحشمْ
وشنّعوا أنّ وراء الفجّ * خمسين ألفاً من رجال العِلْج

فقال لابُدّ من الدُّخول * وما إلى حاشاهُ من سبيلِ
وأنْ أُديخ أرضَ بَلْبَلونَه * وساحةَ المدينةِ الملعونَهْ
وكان رأياً لم يكن من صاحبِ * ساعَدَه عليه غير الحاجب
وآستَنصر الله وعَبّى ودخلْ * فكان فتحاً لم يكن له مثَل
لمّا مضى وجاوز الدُّرُوبا * وآدّرَع الهيْجاء والحروبا ٥
عَبّى له عِلْجٌ من الاعلاج * كتائباً غطّتْ على الفِجاج
فاستَنصرَ الإمامُ ربُّ الناس * ثم آستعان بالنّدى والبَاسِ
وعاذ بالرَّغْبة والدعاء * وآستَنزل النَّصْرَ من السَّماء
فقدَم القُوّادَ بالحُشود * وأتبعَ المُدود بالمُدودِ
فانهزَم العِلْجُ وكانت مَلْحمهْ * جاوَزَ فيها السّاقةُ المقدِّمهْ ١٠
فقتلوا مقْتلةَ الفناء * فارْتَوتِ البيضُ من الدِّماء
ثم أمالَ نحو بَلْبلونَه * وآقتَحم العسكرُ فى المدينهْ
حتى إذا جاسوا خلال دُورِها * وأسرَع الخرابُ فى مَعْمورها
بكتْ على مافاتَها النَّواظِرُ * إذ جُعِلَت تدقّها الحوافِر
لفقْد منْ قتّل من رجالِها * وذُلّ من أيْتم من أطفالها ١٥
فكم بها وحولَها مِن أغْلَفِ * تَهمِى عليه الدمعَ عينُ الأسقُفِ
وكم بها حَقر من كنائس * بَدّلت الأذانَ بالنّواقِس
يبكى لها النّاقوسُ والصّليبُ * كلاهما فرْضٌ له النَّحيب
وآنصرف الإمامُ بالنَّجاح * والنصْرِ والتأْييدِ والفلاح
ثم ثنَى الرّايات فى طريقهْ * إلى بَنِى ذى النُّون من توْفيقهْ ٢٠
فأصبحوا من بسطِهم فى قبْض * قد ألصقَت خُدودُهم بالأرض
حتى بَدوْا إليه بالبرْهانِ * من أكبر الآباء والوِلدان
فالحمدُ لله على تأييدهْ * حمداً كثيراً وعلى تسديدهْ

سنة ثلاث عشرة وثلثمائة

ثم غزا بيُمنه أشـــونا * وقد أشادوا حولها حُصونًا
وحفّهـا بالخيْـلِ والرِّجالِ * وقاتلوهُمْ أبلغَ القِتـــال
حتى إذا ماعايَنوا الهلاكا * تبادَروا بالطَّـوْع حينذاكا
وأسلَموا حِصْنَهمُ المنيعـــا * وسمَحوا بخرْجِهمْ خُضوعا ٥
وقبلهم فى هذه الغـــزاةِ * ما هُدمتْ معاقل العُصاة
وأحكمَ الإمامُ فى تدبيرهْ * على بَنى هابلَ فى مسيرهْ
ومن سِواهم من ذَوى العشيرَهْ * وأمراء الفتنة المُغـــيرهْ
إذ حبسوا مراقِباً عليهم * حتى أتوْا بكلِّ ما لديهم
منَ البنينَ والعيالِ والحشَمْ * وكلِّ من لاذ بهم منَ الخدمْ ١٠
فهبطوا من أمْنَع البُـلْدانِ * وأسكِنوا مدينة السُلطانِ
فكان فى آخرِ هذا العامِ * بعدَ خضوعِ الكُفرِ للإسلام
مشاهِدٌ من أعظم المشاهِد * على يدىْ عبد الحميدِ القائدِ
لمَّا غزا إلى بنى ذى النونِ * فكان فتْحاً لم يكن بالدُون
إذ جاوزُوا فى الظُّلمِ والطُّغيان * بقتلِهم لعامِلِ السُّلطان ١٥
وحاوَلوا الدخولَ فى الأذيّهْ * حتى غزاهمْ أنجدُ البَرِيَّهْ
فعاقهُم عن كلِّ ما رجوْهُ * بنقضِهِ كلَّ الذى بنوْهُ
وضبْطِهِ الحِصنَ العظيمَ الشّان * أشـنين بالرَّجلِ والفُرسان
ثم مضى الليْثُ إليهم زحْفا * يختطِفُ الأرواحَ منهمْ خطْفا
فانهزموا هزيمةً لن تُرْقدا * وأسلَموا صِـنْوهُم مُحَمَّدا ٢٠
وغيره من أوجُهِ الفُرسان * مغرب فى مـأتمِ الغِربان
مُقطَّع الأوصال بالسَّنابِك * من بعدِ ما مُزِّق بالنّيازِك

ثم لجوا إلى طلاب الأمنِ * وبذلهم ودائعاً من رهْنِ
فقُبِضت رِهانُهم وأمّنوا * وانفضوا رؤسَهم وأذعنوا
ثم مضى القائدُ بالتأييدِ * والنصرِ من ذى العرشِ والتسديد
حتى أتى حِصن بنى عمارهْ * والحربُ بالتدبير والإداره
٥ فافتتح الحِصنَ وخلّى صاحبه * وأمِنَ الناسُ جميعاً جانبهْ

سنة أربع عشرة وثلثمائة

لم يغزُ فيها وغزتْ قُوّاده * واعتوَرت بُبشرا أجنادُهْ
فكلهم أبلى وأغنى واكتنى * وكلهم شفى الصدور واشتفى
ثم تلاهم بعدُ ليثُ الغيلِ * عبدُ الحميدِ من بنى بسيل
١٠ هو الذى قامَ مقامَ الضّيْغَم * وجاء فى غزاته بالصّيلم
برأسِ جالوتِ النفاقِ والحسدْ * مَن جُمّع الخنزيرُ فيه والأسد
فهاكهُ من صحبه فى عُدّه * مُصلّبين عند باب السُّدّه
قدِ امتطى مطيّةً لا تبرحُ * صائمةً قائمةً لا تَرمح
مطيّةً إن يعرُها انكسارُ * يطلبُها النجّار لا البيطار
١٥ كأنه من فوقها أسوارُ * عيناه فى كلتيهما مِسمار
مباشراً للشمسِ والرّياحِ * على جوادٍ غير ذى جماح
يقول للخاطرِ بالطريق * قولَ مُحبٍّ ناصحٍ شفيقِ
هذا مقامُ خادمِ الشيطانِ * ومَن عصى خليفةَ الرحمٰن
فما رأينا واعظاً لا ينطِق * أصدقَ منه فى الذى لا يصدقُ
٢٠ فقل لِمن غُرّ بسوءِ رأيه * يَمُت إذا شاء بمثلِ دائه
كم مارقٍ مضى وكم مُنافق * قدِ ارتقى فى مثلِ ذاك الحالق
وعاد وهو فى العصى مُصلبُ * ورأسه فى جِذعه مُركّب

فكيف لا يعتبر المخالِفُ * لحالِ مَن تطلبُه الخلائفُ
أما رآه من هوانٍ يرتعُ * معتبَرا لمن يَرى ويسمع

سنة خمس عشرة وثلثمائة

فيها غَزا معتزماً يُبشترا * لجـال فى ساحتِها ودمّرا
ثم غزا طلَجيرَةَ عليها * وهىَ الشَّجَى من بين أخدعيْها ٥
وآمتدها بابنِ السّليم راتِبا * مُشمّرا عن ساقه محارِبا
حتى رأى حفصٌ سبيلَ رُشدِه * بعد بلوغ غايةٍ من جُهده
فدان للإمامِ قصداً خاضعا * وأسلَمَ الحِصن إليه طائعا

سنة ست عشرة وثلثمائة

لم يغزُ فيها وآنتحى بُبَشترا * فرمّها بما رأى ودبّرا ١٠
وآحتلّها بالعِزّ والتمكينِ * ومَحْوِ آثار بنى حفصونِ
وعاضها الصّلاحَ من فسادِهم * وطهّر القبورَ من أجسادهم
حتى خلا ملحودُ كلّ قبرِ * من كلّ مُرْتدّ عظيم الكفرِ
عصابة من شيعة الشّيْطانِ * عدوةً للهِ والسُّلطانِ
فخرِمت أجسادُها تخرُّما * وأُصليت أرواحُهم جهنّما ١٥
ووجّه الإمام فى ذا العامِ * عبدَ الحميد وهو كالضّرغام
إلى آبن داود الذى تقلّعا * فى جبَلَىْ شَنذونةٍ تمنّعا
فحطّه منها إلى البسيطِ * كطائرٍ آذنَ بالسُّقوط
ثم أتى به إلى الإمامِ * إلى وفىّ العهد والذّمام

سنة سبع عشرة وثلثمائة

وبعد سبع عشرة وفيهــا * غزا بطليوس وما يليها
فلم يزل يسومها بالخسف * ويفتحها بسيوف الحتف
حتى إذا ماضمّ جانبيها * محاصرا ثم بنى عليها
٥ خلّى ابن إسحاق عليها راتبا * مثابراً فى حربه مواظبا
ومرّ يستقصى حصون الغرب * ويبتليها بوبيل الحـــرب
حتى قضى منهنّ كلّ حاجه * وافتتحت أكشونبه وباجه
وبعد فتح الغرب واستقصائه * وحسمه الأدواء من أعدائه
لجت بطليوس على نفاقها * وغرها اللجاج من مراقها
١٠ حتى إذا شافهت الحتوفا * وشامت الرماح والسيوفا
دعا ابن مروان إلى السلطان * وجاءه بالعهد والأمان
فصار فى توســـعة الإمام * وساكناً فى قبّة الإسلام

سنة ثمان عشرة وثلثمائة

فيها غزا بعزمه طليطلة * وامتنعوا بمعقل لا مثل له
١٥ حتى بنى جرنكشه بجنبها * حصنا منيعاً كافلاً بحربهــا
وشدها بابن سليم قائدا * مجالداً لأهلهـــا مجاهدا
لجاسها فى طول ذاك العام * بالخسف والنسف وضرب الهام

سنة تسع عشرة وثلثمائة

ثم أتى ردفاً له درّىّ * فى عسكر قضاؤه مقضىّ
٢٠ فحاصروها عام تسع عشرة * بكلّ محبوك القوى ذى مرّة
ثم أتاهم بعد بالرجال * فقاتلوها أبلغ القتــال

سنة عشرين وثلثمائة

حتى إذا ما سلفتْ شهورُ * من عام عشرين لها ثُبورُ
ألقتْ يديها للإمام طائعةْ * واستسلمتْ قسراً إليه باخعةْ
فأذعنتْ وقبْلها لم تُذعنِ * ولم تُقِد من نفسها وتُمكنِ
ولم تَدِنْ لربِّها بدِينِ * سبعاً وسبعين من السِّنينِ
ومُبتدا عشرين مات الحاجبُ * موسى الذى كان الشِّهاب الثاقبُ
وبَرز الإمام بالتأييدِ * فى عُدّةٍ منه وفى عديدِ
مُعْتمداً إلى المدينة اللعينةْ * أتعسها الرحمن من مدينةْ
مدينة الشِّقاق والنِّفاقِ * وموئل الفُسّاق والمُراقِ
حتى إذا ما كان منها بالأَمَمْ * وقد ذكا حرُّ الهَجير واحتدمْ
أتاه واليها وأشياخ البلدْ * مستسلمين للإمام المُعتمَد
فوافقوا الرَّحبَ من الإمامِ * وأُنزلوا فى البِرِّ والإكرامِ
ووجَّه الإمام فى الظهيرةْ * خيلاً لكى تدخل فى الجزيرةْ
جريدةً قائدها درِّىُّ * يلمع فى مُتونها الماذىُّ
فاقتحموا فى وعرها وسهلها * وذاك حين غفلةٍ من أهلها
ولم يكن للقوم من دفاعِ * بخيْلِ درى ولا امتناعِ
وفوض الإمام عند ذلكا * وقام صِنْديداً[1] بما هنالكا
حتى إذا ما حلَّ فى المدينةْ * وأهلُها ذليلة مَهينةْ
أقمعها بالخيل والرجالِ * من غير ما حربٍ ولا قتالِ
وكان من أول شىء نظَرا * فيه وما رَوى له ودبَّرا
تهدُّمُ لبابها والسُّورِ * وكان ذاك أحسنَ التدبيرِ
حتى إذا صيَّرها بَراحا * وعاينوا حريمها مُباحا

(١) فى بعض الأصول : « وقلبه صب » .

أقرّ بالتشييد والتأسيسِ * فى الجبل النامى إلى عَمروسِ

حتى استوى فيها بناءٌ مُحكمُ * لخـلّه عامله والحشَمُ

فعندذاك أسلمتْ وآستسلمتْ * مدينة الدماء بعد ما عتتْ

سنة إحدى وعشرين وثلثمائة

٥ فيها مضى عبدُ الحميد ملتئمْ * فى أُهبةٍ وعُدّةٍ من الحشمْ

حتى أتى الحصنَ الذى تقلّعا * يَحيَى بنُ ذى النونِ به وآمتنَعا

فحطّه من هضباتٍ ولب * من غير تعنيتٍ وغير حربِ

إلا بترغيبٍ له فى الطاعهْ * وفى الدخول مدخَلَ الجماعهْ

حتى أتى به الإمامَ راغبا * فى الصّفح عن ذنوبه وتائبا

١٠ فصفَح الإمامُ عن جنايتهْ * وقبِل المبذولَ من إنابتهْ

وردّه إلى الحصونِ ثانيا * مُسجَّلا له عليها والِيا

سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة

ثم غزا الإمامُ ذو الجدّينِ * فى مُبتدا عشرين واثنتينِ

فى فيلَق بجهرٍ لُهـامِ * مُدكدِكِ الرءوس والآكامِ

١٥ جابَ الرُّبا لزحفه يَجيشُ * تَجيش فى حافاته الجيوشُ

كأنهم جنٌّ على سَعالِ * وكلُّهم أمضى من الرِّئبالِ

فافتتحوا مُلوندةً وروملهْ * ومَن حوالَيها حُصون جيمهْ

حتى أتاه المـارِق التُّجيبى * مستجْدياً كالتائب المُنيبِ

فخصّه الإمام بالترحيبِ * والصّفح والغفرانِ للذُّنوبِ

٢٠ ثم حَباه وكَساه ووصلْ * بشاحجٍ وصاهلٍ لا يمتثل

كلاهما من مركَب الخلائفِ * فى حِليةٍ تُعجِز وصفَ الواصفِ

فقال كنْ منّا وأوطِنْ قُرطبهْ * نُرقيك فيها فى أجلّ مرتبهْ

تكنْ وزيراً أعظمَ الناسِ خطرْ * وقائداً تَجبي لنا هذا الثَّغَرْ
فقال إنى ناقِهٌ من علَّتى * وقد ترى تغيُّرى وصُفرتى
فإنْ رأيتَ سيِّدى إمهالى * حتى أرمَّ من صَلاحِ حالى
ثم أوافيكَ على آستعجالِ * بالأهل والأولاد والعيال
وأوثقَ الإمامَ بالعُهودِ * وجعل اللهَ من الشُّهودِ ٥
فقبلَ الإمامُ من أيْمانِهْ * وردّه عفواً إلى مكانِهْ
ثم أتته ربَّةُ البَشاقِصِ * تُدلِى إليه بالوِداد الخالِصِ
وأنها مُرسَلةٌ من عندهِ * وجَدُّها مُتَّصِلٌ بجَدِّهِ
واكتفَلتْ بكلِّ بنْبَلونِى * وأطلقتْ أسرَى بنى ذى النونِ
فأوعد الإمام فى تأمينها * ونكب العَسكر من حُصونها ١٠
ثم مضى بالعزِّ والتمكينِ * وناصراً لأهل هذا الدِّين
فى جُملةِ الراياتِ والعساكرِ * وفى رجالِ الصبر والبصائرِ
إلى عِدا اللهِ من الجَلالِقِ * وعابِدِى المخلوقِ دون الخالق
فدمَّروا السهولَ والقِلاعا * وهتَكوا الزُّروعَ والرِّباعا
وخرّبوا الحصونَ والمدائنا * وأقفَروا من أهلها المساكنا ١٥
فليس فى الدِّيار من دَيّارِ * ولا بها من نافخٍ للنارِ
فغادَروا عُمرانها خَرابا * وبدلوا رُبوعَها يَبابا
وبالقِلاعِ أحرَقوا الحصُونا * وأسخَنوا من أهلها العُيونا
ثم ثنَى الإمامُ من عِنانِهْ * وقد شفَى الشجىَّ من أشجانه
وأمّنَ القِفارَ من أنجاسِها * وطهّر البلادَ من أرجاسِها ٢٠

انتهت الأرجوزة

وكمل كتاب العسجدة الثانية من أخبار الخلفاء

كتاب اليتيمة الثانية
في أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة

لابن عبد ربه

فرش كتاب أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة .

قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه رضى الله تعالى عنه :

٥ قد مضى قولنا فى أخبار الخلفاء وتواريخهم وأيامهم وما تصرفت به دولهم : ونحن قائلون بعون الله فى أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة ، وماسحون على شيء من أخبار الدولة ؛ إذ كان هؤلاء الذين جرّدنا لهم كتابنا هذا ، قطبَ الملك الذى عليه مدار السياسة ، ومعادن التدبير ، وينابيع البلاغة ، وجوامع البيان ؛ هم راضوا الصعاب حتى لانت مقاودها ، وخزموا الأنوف حتى ١٠ سكنت شواردها ، ومارسوا الأمور ، وجرّبوا الدهور ، فاحتملوا أعباءها ، واستفتحوا مغالقها ، حتى استقرّت قواعد الملك ، وانتظمت قلائد الحكم ، ونفذت عزائم السلطان .

أخبار زياد

من أخبار أمه

كانت سُمَيّة أمّ زياد قد وهبها أبو الخير بن عمرو الكندى للحارث بن كَلَدَة ، ١٥ وكان طبيبا يعالجه ، فولدت له على فراشه نافعا ، ثم ولدت أبا بكْرة ، فأنكر لونه . وقيل : [قيل] له : إنّ جاريتك بغىّ ! فانتفى من أبى بكْرة ومن نافع ، وزوّجها عُبَيدا : عبداً لابنته ، فولدت على فراشه زيادا ، فلما كان يوم الطائف نادى منادي رسولِ الله صلى الله عليه وسلم : أيُّما عبدٍ نزل فهو حرٌّ وولاؤه لله

ورسوله . فنزل أبو بكرة وأسلم ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال الحارث ابن كلدة لنافع : أنت ابنى فلا تفعل كما فعل هذا . يريد أبا بكرة ؛ فلحق به ، فهو ينتسب إلى الحارث بن كلدة .

شيء من البغايا فى الجاهلية وخبر أبى سفيان وسمية

وكانت البغايا فى الجاهلية لهن رايات يُعرفن بها وينتحيها الفتيان ، وكان أكثر الناس يكرهون إماءهم على البغاء والخروج إلى تلك الرايات ؛ يبتغون بذلك عرض الحياة الدنيا ، فنهى الله تعالى فى كتابه عن ذلك بقوله جل وعز : ﴿ولا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ على البِغاءِ إنْ أرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الحَياةِ الدُّنيا ومَنْ يُكْرِهْهُنَّ﴾ يريد فى الجاهلية ﴿فإنَّ اللهَ مِن بعْدِ إكراهِهِنَّ غَفُورٌ رحِيمٌ﴾ يُريد فى الإسلام .

فيقال إن أبا سفيان خرج يوما وهو ثمل إلى تلك الرايات ، فقال لصاحبة الراية : هل عندك مِن بغىّ ؟ فقالت : ما عندى إلا سمية . قال : هاتيها على نتن إبطيها ! فوقع بها ، فولدت له زياداً على فراش عُبيد .

خبر استلحاق أبى سفيان لزياد

ووجّه عاملٌ من عمال عمر بن الخطاب زيادا إلى عمر بفتح فتحه الله على المسلمين ؛ فأمره عمر أن يخطب الناس به على المنبر ، فأحسن فى خطبته وجوّد ، وعند أصل المنبر أبو سفيان بن حرب وعلىّ بن أبى طالب ، فقال أبو سفيان لعلى : أيعجبك ما سمعت من هذا الفتى ؟ قال : نعم . قال : أما إنه ابن عمك ! قال : وكيف ذلك ؟ قال : أنا قذفته فى رحم أمه سمية . قال : فما يمنعك أن تدعيه ؟ قال : أخشى هذا القاعد على المنبر ـ يعنى عمرَ بن الخطاب ـ أن يفسد على إهابى .

فبهذا الخبر استلحق معاوية زياداً وشهد له الشهود بذلك ، وهذا خلاف حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « الولد للفِراش وللعاهر الحَجَر » .

العتبى عن أبيه قال : لما شهد الشهود لزياد ، قام فى أعقابهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

هذا أمر لم أشهد أوله ، ولا علم لى بآخره ؛ وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم ، وشهد الشهود بما سمعتم ؛ فالحمد لله الذى رفع منا ما وضع الناس وحفِظ منا ما ضيّعوا ؛

وأما عُبيد فإنما هو والد مبرور، أو ربيب مشكور. ثم جلس.

وقال زياد: ما هُجيت ببيت قطُّ أشدَّ عليّ من قول الشاعر:

فكّر ففي ذاكَ إن فكّرتَ مُعْتَبَرُ ٭ هل نِلتَ مَكْرُمَةً إلا بتأميرِ

عاشتْ سُميّةُ ماعاشت وما علِمتْ ٭ أنَّ ابنَها من قريشٍ في الجماهيرِ

٥ سُبْحان من مُلْكِ عَبّادٍ بِقدْرَتِه ٭ لا يدفعُ الناسُ أسبابَ المقاديرِ

معاوية وزياد

وكان زياد عاملا لعليّ بن أبي طالب على فارس؛ فلما مات على رضى الله عنه وبايع الحسن معاويةَ عام الجماعة، بقي زيادٌ بفارس وقد ملكها وضبط قِلاعها، فاغتم به معاوية، فأرسل إلى المغيرة بن شعبة، فلما دخل عليه قال: لكل نبإٍ مستقر، ولكل سر مستودع؛ وأنت موضع سرى وغاية ثقتى. فقال المغيرة: يا أمير المؤمنين

١٠ إن تستودعنى سرك تستودعْه ناصحا شفيقا، وورعا رفيقا؛ فما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: ذكرتُ زياداً واعتصامه بأرض فارس ومقامه بها، وهو داهية العرب، ومعه الأموال، وقد تحصن بأرض فارس وقلاعها يدبر الأمور؛ فما يُؤمننى أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت، فإذا هو قد أعادها جَذَعة! قال له المغيرة: أتأذن لى يا أمير المؤمنين فى إتيانه؟ قال: نعم. فخرج إليه، فلما دخل عليه وجده

١٥ وهو قاعد فى بيت له مستقبل الشمس؛ فقام إليه زياد ورحَّب به وسُرَّ بقدومه، وكان له صديقا؛ وذلك أن زياداً كان أحدَ الشهود الأربعة الذين شهدوا على المغيرة، وهو الذى تلجلج فى شهادته عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فنجا المغيرة وجُلد الثلاثةُ من الشهود، وفيهم أبو بكرة أخو زياد، فحلف [أبو بكرة] أن لا يكلم زياداً أبدا.

٢٠ فلما تفاوضا فى الحديث قال له المغيرة: أعلمتَ أن معاوية استخفَّه الوَجل حتى بعثنى إليك؟ ولا نعلم أحداً يمدُّ يده إلى هذا الأمر غير الحسن، وقد بايع معاوية، فخذ لنفسك قبل التَّوطين فيستغنى عنك معاوية. قال: أشِرْ علىَّ وارْمِ الغرض الأقصى، فإن المستشار مؤتمن. قال: أرى أن تصل حبلك بحبله وتسير إليه، وتعير الناس أذنا صماء وعينا عمياء! قال: يا ابنَ شعبة، لقد قلت

قولا لا يكون غرسُه فى غير منبته ، ولا مَدَرة تغذيه ، ولا ماء يسقيه ، كما قال زهير :

وهل يُنبتُ الخطِّىَّ إلا وشِيجُه * وتُغرَس إلا فى مَنابِتها النَّخلُ ؟

ثم قال : أرى ويقضى الله .

لعمر بن عبد العزيز فى زياد

وذكر عمرُ بن عبد العزيز زياداً فقال : سعى لأهل العراق سعى الأمّ البرة ، وجمع لهم جمعَ الذرّة . ٥

لبعضهم

وقال غيره : تشبَّه زيادٌ بعمر فأفرط ، وتشبّه الحجاج بزياد فأهلك الناس .

وقالوا : الدهاة أربعة : معاوية للرويّة ، وعمرو بن العاص للبديهة ، والمغيرة للمعضِلات ، وزياد لكل صغيرة وكبيرة .

ولما قدم زياد العراق قال : مَن على حَرسِكم ؟ قالوا : بَلج . قال : إنما يُحترس من مثل بلَج فكيف يكون حارسا . ١٠

أخذه الشاعر فقال :

وحارسٌ من مِثلِهِ يُحتَرَسُ

سياسة زياد

العتبى قال : كان فى مجلس زياد مكتوباً : الشدّة فى غير عنف ، واللين فى غير ضعف . المحسن يُجازى بإحسانه ، والمسيء يعاقبُ بإساءته . الأعطيات فى أيامها . لا احتجاب عن طارق ليل ، ولا صاحبِ ثغر . ١٥

وبعث زياد إلى رجال من بنى تميم ورجال من بنى بكر ، وقال : دلُّونى على صُلَحاء كل ناحية ومن يطاع فيها ، فدلوه فضمَّنهم الطريق وحدّ لكل رجل منهم حدّاً ؛ فكان يقول : لو ضاع حبل بينى وبين خراسان عرفت من آخذ به .

وكان زياد يقول : من سقى صبيًّا خمراً حدَدْناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حيا . ٢٠

وكان يقول : اثنان لا تقاتلوا فيهما العدوّ : الشتاء ، وبطون الأودية .

وأول من جُمعت له العراق زياد ، ثم ابنه عبيد الله بن زياد ؛ لم تجتمع لقرشى قط غيرهما .

وعبيد الله بن زياد أول من جمع له العراق وسجستان وخراسان والبحران وعمان ، وإنما كان البحران وعمان إلى عمال أهل الحجاز .

وهو أول من عرف العرفاء ، ودعا النقباء ، ونكّب المناكب ، وحصل الدواوين ، ومُشِيَ بين يديه بالعَمد ، ووضع الكراسى ، وعمل المقصورة ، ولبس الزيادى ، وربّع الأرباع بالكوفة ، وخمّس الأخماس بالبصرة ، وأعطى فى يوم ٥ واحد للمقاتلة والذرية من أهل البصرة والكوفة ، وبلغ بالمقاتلة من أهل الكوفة ستين ألفا ، ومقاتلةِ البصرة ثمانين ألفا ، والذرية مائة ألف وعشرين ألفا . وضبط زياد وابنه عبيد الله العراق بأهل العراق .

عبد الملك وعباد ابن زياد

قال عبد الله بن مروان لعباد بن زياد : أين كانت سيرة زياد من سيرة الحجاج ؟ قال : ياأمير المؤمنين ، إن زيادا قدم العراق وهى جمرة تشتعل فسلّ ١٠ أحقادهم ، وداوى أدواءهم ، وضبط أهل العراق بأهل العراق ؛ وقدِمها الحجاج ؛ فكسر الخراج ، وأفسد قلوب الناس ولم يضبطهم بأهل الشام فضلا عن أهل العراق ولو رام منهم ما رامه زياد لم يفجأك إلا على قَعود يوجف به .

نافع وزياد

وقال نافع لزياد : استعملت أولاد أبى بكرة وتركت أولادى ؟ قال : إنى رأيت أولادك كُزْماً قصارا ، ورأيت أولاد أبى بكرة نجباء طوالا . ١٥

معاوية وابن عامر فى زياد

ودخل عبد الله بن عامر على معاوية ، فقال له : حتى متى تذهب بخراج العراق ؟ فقال : ياأمير المؤمنين ، ما تقول هذا لمن هو أبعد منى رحما ! ثم خرج فدخل على يزيد فأخبره وشكا إليه ، فقال له : لعلك أغضبت زيادا ! قال : قد فعلت . قال : فإنه لا يَرضى حتى تُرضِيَ زياداً عنك ! فانطلق ابن عامر فاستأذن على زياد ، فأذن له وألطفه ، فقال له ابن عامر : إن شئت فصلحٌ بعتاب ، وإن ٢٠ شئت فصلح بغير عتاب ، فإنه أسلم للصدر ... ، ثم راح زياد إلى معاوية فأخبره وأصبح ابن عامر غاديا إلى معاوية ، فلما دخل عليه ، قال : مرحباً بأبى عبد الرحمن . هٰهنا . وأجلسه إلى جنبه فقال له : ياأبا عبد الرحمن :

لنا سياق ولكم سياق * وقد علمت ذلك الرفاق

أبو بكرة وسعى أنس ليصلح بينه وبين أخيه

الحسن بن أبي الحسن قال : ثقل أبو بكرة ، فأرسل زيادٌ إليه أنس بن مالك ليصالحه ويكلمه ، فانطلقت معه ، فإذا هو مُوَلٍّ وجهه إلى الجدار ، فلما قعد قال له : كيف تجدك أبا بكرة ؟ فقال صالحاً : كيف أنت أبا حمزة ؟ فقال له أنس : اتق الله أبا بكرة في زيادٍ أخيك ؛ فإن الحياة يكون فيها ما يكون ؛ فأما عند فراق الدنيا فليستغفر الله أحدكما لصاحبه ، فوالله ما علمت إنه لوَصولٌ للرَّحِم ؛ هذا عبد الرحمن ابنك على الأُبلَّة ، وهذا داود على مدينة الرِّزْق ، وهذا عبد الله على فارس كلها ؛ والله ما أعلمه إلا مجتهدا . قال : أقعِدوني . فأقعدوه ، فقال : أخبرني ما قلت في آخر كلامك . فأعاد عليه القول ، فقال : يا أنس ، وأهل حروراء قد اجتهدوا ، فأصابوا أو أخطئوا ؛ والله لا أكلمه أبدا ولا يصلِّي عليَّ ! فلما رجع أنس إلى زياد أخبره بما قال ، وقال له : إنه قبيحٌ أن يموت مثل أبي بكرة بالبصرة ، فلا تصلى عليه ولا تقوم على قبره ؛ فاركب دوابك والحق بالكوفة . قال : ففعل . ومات أبو بكرة بالغد عند صلاة الظهر ، فصلى عليه أنس بن مالك .

زياد وشريح وابن سيرين

وقدم شريح مع زياد من الكوفة لقضاء البصرة ، فكان زياد يجلسه إلى جنبه ويقول له : إن حكمت بشيء ترى غيره أقرب إلى الحق منه فأعلِمنيه . فكان زياد يحكم فلا يرد شريح عليه ، فيقول زياد لشريح : ما ترى ؟ فيقول : هذا الحكم . حتى أتاه رجل من الأنصار فقال : إني قدمت البصرة والخطط موجودة ، فأردت أن أختط لي ، فقال لي بنو عمي وقد اختطوا ونزلوا : أين تخرج عنا ؟ أقم معنا واختط عندنا فوسَّعوا لي ، فاتخذت فيهم داراً وتزوجت ؛ ثم نزغ الشيطان بيننا ، فقالوا لي : اخرج عنا ! فقال زياد : ليس ذلك لكم ، منعتموه أن يختط والخطط موجودة وفي أيديكم فضل فأعطيتموه ، حتى إذا ضاقت الخطط أخرجتموه وأردتم الإضرار به ؟ لا يخرج من منزله ! فقال شريح : يا مستعير القِدرِ ارْدُدها . فقال زياد : يا مستعير القدْر احبسها ولا تردها ! فقال محمد بن سيرين : القضاء بما قال شريح ، وقول زياد حَسَن .

وقال زياد : ما غلبني أمير المؤمنين معاوية إلا في واحدة : طلبت رجلا فلجأ

إليه وتحرّم به ، فكتبت إليه : إن هذا فسادٌ لعملي : إذا طلبت أحداً لجأ إليك فتحرم بك فكتب إلىّ : إنه لا ينبغى لنا أن نسوس الناس بسياسة واحدة ، فيكون مقامُنا مقام رجل واحد ؛ ولكن تكون أنت للشدة والغلظة ، وأكون أنا للرأفة والرحمة ، فيستريح الناس فيما بيننا .

بين عمر وزياد حين عزله

٥ ولما عَزل عمر بن الخطاب رضى الله عنه زياداً من كتابة أبى موسى ، قال له : أعن عجز أم عن خيانة ؟ قال : لا عن واحدة منهما ، ولكنى كرهت أن أحمل على العامة فضل عقلك .

معاوية والحسن وزياد

وكتب الحسن بن علي رضى الله عنه إلى زياد فى رجل من أهل شيعته قد عَرَض له زياد وحال بينه وبين جميع ما يملكه ، وكان عنوان كتابه : « من الحسن بن علىّ ١٠ إلى زياد » . فغضب زياد إذ قدم نفسَه عليه ولم ينسبه إلى أبى سفيان ، وكتب إليه :

من زياد بن أبى سفيان إلى حسن : أما بعد ، فإنك كتبت إلىّ فى فاسق لا يُؤويه إلا الفُسّاق ، وآيم الله لأطلبنه ولو بين جلدك ولحمك ، فإنّ أحبَّ لحمٍ إلىّ أنْ آكله لحمٌ أنت منه .

فكتب الحسن إلى معاوية يشتكى زيادا ، وأدرج كتاب زياد فى داخل كتابه . ١٥ فلما قرأه معاوية أكثر التعجب من زياد ، وكتب إليه .

أما بعد ، فإن لك رأيين : أحدهما من أبى سفيان ، والآخر من سمية ؛ فأما الذى من أبى سفيان فحزم وعزم ، وأما الذى من سمية فكما يكون رأى مثلها : وإن الحسن بن علىّ كتب إلىّ يذكر أنك عرَضت لرجل من أصحابه ، وقد حجزناه عنك ونظراءه ، فليس لك على واحد منهم سبيل ولا عليه حُكم ؛ وعجبت منك حين ٢٠ كتبت إلى الحسن لا تنسبه إلى أبيه ، أفإلى أمه وكلْتَه لا أمّ لك ؟ فهو ابن فاطمة الزهراء ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فالآن حين اخترت له .

معاوية وابن عباس وزياد

وكتب زياد إلى معاوية : إن عبد الله بن عباس يفسد الناس علىّ ، فإن أذنت لى أن أتوعّده فعلت . فكتب إليه : إن أبا الفضل وأبا سفيان كانا فى الجاهلية فى مسلاخ واحد ، وذلك حِلف لا يَحُلُّه سوء رأيك !

معاوية وزياد في الحج

واستأذن زيادٌ معاوية فى الحج ، فأذن له ؛ وبلغ ذلك أبابكرة ، فأقبل حتى دخل على زياد وقد أجلس له بنيه ، فسلم عليهم ولم يسلم على زياد ، ثم قال : يابنى أخى ، إن أباكم ركب أمراً عظيما فى الإسلام بادّعائه إلى أبى سفيان ؛ فوالله ماعلمت سميّة بَغَتْ قط ؛ وقد استأذن أمير المؤمنين فى الحج ، وهو مارٌّ بالمدينة لا محالة ، وبها أمُّ حبيبة ابنة أبى سفيان زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، ولابد له من الاستئذان عليها ، فإن أذنت له فقعد منها مقعد الأخ من أخته ، فقد انتهك من رسول الله صلى الله عليه وسلم حُرْمةً عظيمة ، وإن لم تأذن له فهو عارُ الأبد . ثم خرج ، فقال له زياد : جزاك الله خيراً من أخ فما تدع النصيحة على حال . وكتب إلى معاوية يستقيله ، فأقاله .

دعوة ابن عمر على زياد

وكتب زياد إلى معاوية : إنى قد أخذت العراق بيمينى ، وبقيت شمالى فارغة . وهو يعرِّض له بالحجاز ، فبلغ ذلك عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، فقال : اللهم اكفنا شماله ! فعرضت له قرحةٌ فى شماله فقتلته .

ولما بلغ عبد الله بن عمر موت زياد قال : اذهب إليك ابن سمية ، لايداً رفعت عن حرام ولا دنيا تملَّيت .

زياد وعجلان

قال زياد لعجلان حاجبه : كيف تأذن للناس ؟ قال : على البيوتات ، ثم على الأنساب ، ثم على الآداب . قال : فمن تؤخر ؟ قال : من لا يعبأ الله بهم . قال : ومن هم ؟ قال : الذين يلبسون كسوة الشتاء فى الصيف ، وكسوة الصيف فى الشتاء .

وقال زياد لحاجبه : وليتُك حجابتى وعزلتك عن أربع : هذا المنادى إلى الله فى الصلاة والفلاح ، لا تعُوجنّه فلا سلطان لك عليه ؛ وطارق الليل لا تحجبه فشر ماجاء به ، ولو كان خيراً ما جاء فى تلك الساعة ؛ ورسول صاحب الثغر ، فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عمل سَنة ؛ وصاحب الطعام ، فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد .

لعجلان

وقال عجلان حاجب زياد : صار لى فى يوم واحد مائة ألف دينار وألف سيف

قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : أعطى زيادٌ ألف رجل مائتى ألف دينار وسيفاً سيفاً ، فأعطانى كل رجل منهم نصف عطائه وسيفه .

أخبار الحجاج

طلاق الفارعة من المغيرة وزواجها من ابن أبى عقيل

دخل المغيرة بن شعبة على زوجته فارعة ، فوجدها تتخلل حين انفتلت من صلاة الغداة ، فقال لهـا : إن كنت تتخللين من طعام البارحة ، فإنك قذرة ، وإن كان من طعام اليوم إنك لنهمة ؛ كنتِ فبنتِ ! قالت : والله ما فرحنا إذ كنا ، ولا أسفنا إذ بِنا ؛ وما هو بشىء ممـا ظننت ، ولكنى استكْتُ فأردت أن أتخلل للسواك ! فندم المغيرة على مابدر منه ، فخرج أسِفاً ، فلق يوسف بن أبى عقيل ، فقال له : هل لك إلى شىء أدعوك إليه ؟ قال : وماذاك ؟ قال : إنى نزلت الساعة عن سيدة نساء ثقيف ، فتزوجْها ، فإنها تُنجب لك . فتزوجها فولدت له الحجاج .

من خبر الحجاج وأبيه

ومما رواه عبد الله بن مسلم بن قتيبة قال : إن الحجاج بن يوسف كان يعلّم الصبيان بالطائف ، واسمه كليب ؛ وأبوه يوسف معلم أيضا . وفى ذلك يقول مالك بن الرَّيب :

فماذا عسى الحجاجُ يبلغُ جُهْدَه * إذا نحن جاوزْنا حَفِير زِيادِ
فلولا بنو مَرْوان كان ابن يوسُفٍ * كما كان عبداً من عبيدِ إيَادِ
زمانَ هو العبْد المُقِرُّ بذلِّهِ * يُراوح صِبيانَ القرى ويُغادى

من شدة الحجاج

ثم لحق الحجاج بن يوسف برَوح بن زنباع وزير عبد الملك بن مروان ، فكان فى عديد شرطته ، إلى أن شكا عبد الملك بن مروان مارأى من انحلال العسكر ، وأن الناس لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله . فقال روح بن زنباع : يا أمير المؤمنين ، إن فى شرطتى رجلا لو قلّده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحلهم برحيله وأنزلهم بنزوله . يقال له الحجاج بن يوسف ! قال : فإنا قد قلّدناه ذلك . فكان لا يقدر أحد [أن] يتخلف عن الرحيل والنزول ، إلا أعوان

روح بن زنباع ؛ فوقف عليهم يوماً وقد رحل الناس وهم على طعام يأكلون ، فقال لهم : ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين؟ فقال له : انزل يا ابن اللخناء فكُلْ معنا . فقال : هيهات . ذهب ما هنالك . ثم أمر بهم فجُلِدوا بالسياط وطوّفهم فى العسكر ، وأمر بفساطيط روح بن زنباع فأُحرقت بالنار ؛ فدخل بن زنباع على عبد الملك بن مروان باكياً ، فقال له : مالك ؟ فقال يا أمير المؤمنين ، الحجاجُ ابن يوسف الذى كان فى عديد شرطتى ، ضرب عبيدى وأحرق فساطيطى! قال : علىَّ به . فلما دخل عليه قال : ما حملك على ما فعلتَ ؟ قال : ما أنا فعلتُه يا أمير المؤمنين! قال : ومن فعله ؟ قال أنت والله فعلته ؛ إنما يدى يدُك ، وسوطى سوطُك ؛ وما على أمير المؤمنين أن يُخلِفَ على روح ابن زنباع للفسطاط فسطاطين وللغلام غلامين ، ولا يكسرنى فيما قدّمنى له؟ فأخلَف لروح بن زنباع ما ذهب له وتقدم الحجاج فى منزلته ، وكان ذلك أولَ ما عرِف من كفايته .

من أخبار أم الحجاج

قال أبو الحسن المدائنى : كانت أم الحجاج الفارعة بنت هبّار . فقال : كان الحجاج بن يوسف يضع كل يوم ألف خِوان فى رمضان وفى سائر الأيام خمسمائة خِوان ، على كل خِوان عشرة أنفس ، وعشرة ألوان ، وسمكة مشوية طرية ، وأرزة بسكر ، وكان يُحمل فى محفّة ويُدار به على موائده يتفقدها ، فإذا رأى أرزة ليس عليها سكر وسعى الخباز ليجيء بسكرها فأبطأ حتى أكلت الأرزة بلا سكر ، أمر به فضُرب مائتى سوط ؛ فكانوا بعد ذلك لا يمشون إلا متأبطى خرائط السكر .

من كرم ابن عمر

قال : وكان يوسف بن عمر والى العراق فى أيام هشام بن عبد الملك يضع خمسمائة خوان ، فكان طعام الحجاج لأهل الشام خاصة ، وطعام يوسف بن عمر لمن حضره ؛ فكان عند الناس أحمدَ .

الحجاج وابن سلكة

العتبى قال : دخل على الحجاج سليك بن سلكة ، فقال : أصلح الله الأمير ، أعرْنى سمعك ، واغضض عنى بصرك ، واكفف عنى غرْبك ؛ فإن سمعت خطأً أو زللا فدونك والعقوبة . فقال : قل . فقال : عصى عاص من عُرض العشيرة ،

فُحلِّق عليّ اسمى ، وهُدِمت دارى ، وحُرِمْتُ عطائى . قال : هيهات ، أما سمعت قول الشاعر :

جانيكَ مَن يَجْنِي عليكَ وقد ٭ تُعدِى الصِّحاحَ مَبارِكُ الجُربِ
ولَرُبَّ مأخوذ بذَنبِ عشيرِه ٭ ونَجا المقارِفُ صاحبُ الذَّنبِ

٥ قال : أصلح الله الأمير ، إنى سمعت الله قال غير هذا . قال : وما ذاك ؟ قال : قال ﴿ يا أيُّها العزيزُ إنّ له أباً شيْخًا كبيراً فخُذ أحدَنا مكانَهُ إنا نَراكَ منَ المُحسنينَ . قال معاذَ اللهِ أن نأخُذَ إلّا مَن وجدْنا متاعَنا عِنْدَهُ إنّا إذاً لظالِمُونَ ﴾ فقال الحجاج : علىّ بيزيد بن أبى مسلم . فأتى به ، فمثل بين يديه ، فقال : افكُك لهذا عن اسمه ، واصكك له بعطائه ، وابنِ له منزله ، ومر منادياً

١٠ ينادى فى الناس : صدق الله وكذب الشاعر :

أُتى الحجاج بامرأة عبد الرحمن بن الأشعث بعد دير الجماجم ، فقال لحرسىّ قل لهـا : ياعدوّةَ الله ، أين مالُ الله الذى جعلتيه تحت ذيلك ؟ فقال : ياعدوة الله ، أين مال الله الذى جعلتيه تحت استك ؟ فقال له : كذبت ، ماهكذا قلت ، أرسلها : فخلّى عنها .

الحجاج فى حديث للشجى

١٥ الأصمعى قال : ماتت رفقة بالشَّجِى — والشَّجِى ربو من الأرض فى بطن فلج فشجى به الوادى فسمى شج ـ فقال الحجاج : إنى أراهم قد تضرعوا إذ نزل بهم الموت ، فاحفروا فى مكانهم . فحفروا ، فأمر الحجاج رجلا يقال له عضيدة يحفر البئر ، فلما أنبطها حمل منها قربتين إلى الحجاج بواسط ، فلما قدم بهما عليه قال : يا عضيدة لقد تجاوزت مياهاً عذباً ، أخَسَفْت أم أوشلت ؟ قال : لا واحد

٢٠ منها ، ولكن نبطا بين الماءين . قال : وكيف يكون قدره ؟ قال : مرت بنا رفقة فيها خمسة وعشرون جملا ، فرويت الإبل وأهلها . قال : أوَ للإبل حفرتها ؟ إنما حفرتها للناس . إن الإبل ضُمْرٌ خُسف ، ماجُشِّمت تجشَّمت .

الحجاج على العراق

بعث عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف واليا على العراق ، وأمره أن يحشر الناس إلى المهلب فى حرب الأزارقة ، فلما أتى الكوفة صعد المنبر

متلثما متنكباً قوسه ، فجلس واضعاً إبهامه على فيه ، فنظر محمد بن عُمير بن عُطارد التميمى ، فقال : لعن الله هذا ولعن من أرسله إلينا ؛ أرسَل غلاما لا يستطيع أن ينطق عيّا ، وأخذ حصاة بيده ليحصبه بها ، فقال له جليسه : لا تعجل حتى ننظر ما يصنع . فقام الحجاج فكشف لثامه عن وجهه وقال :

أنا ٱبنُ جَلا وطلّاعُ الثَّنايَا ٭ متى أضعِ العِمامةَ تعرفونِى ٥
صَليبُ العُودِ من سَلَفَى نِزارٍ ٭ كنَصْلِ السيفِ وضّاح الجبين
أخُو خَمسينَ مُجتمعٌ أشُدّى ٭ ونَجّذنى مُداوَرةُ الشُّئون

أما والله إنى لأحمل الشر بثقله ، وأحذوه بنعله ، وأجزيه بمثله ؛ أما والله إنى لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها ، وكأنى أرى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق : ١٠

هذا أوانُ الشدِّ فاشتدّى زِيَمْ ٭ قد لفَّها الليلُ بسَوّاقٍ حُطَمْ
ليس براعى إبلٍ ولا غَنَمْ ٭ ولا بجزّارٍ على ظَهرِ وَضَمْ

ألا وإنّ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان كبَّ كنانتَه فعجم عيدانها ، فوجدنى أصلبها عودا ، فوجّهنى إليكم ؛ فإنكم طالما سعيتم فى الضلالة ، وسننتم سنن البغى ؛ أما والله لألحُوَنَّكم لحْوَ العصا ، ولأعصبنكم عصْب السَّلمة ، ١٥ ولأقرعنَّكم قرع المروة ، ولأضربنَّكم ضرب غرائب الإبل ؛ والله ما أخلق إلا فريت ، ولا أعد إلا وفيت ، ولا أُغمَز تغماز التين ، ولا يُقَعْقَع لى بالشِّنان . إياى وهذه الزرافاتِ والجماعات ، وقيلَ وقال وما تقول ، وفيم أنتم ونحو هذا ؛ ومن وجدتُه بعد ثالثة من بعْث المهلب ضربتُ عنقَه .

ثم قال : يا غلام ، اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين . فقرأ عليهم : ٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين ، سلام عليكم .

فلم يقل أحد شيئا ، فقال الحجاج : اُسكت يا غلام ، هذا أدب ابن نِهْيَة ؛

والله لأؤدبنهم غير هذا الأدب أو ليستقيمُنّ ؛ اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين . فلما بلغ إلى قوله : سلام عليكم ، لم يبق أحد فى المسجد إلا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام .

ثم نزل فأتاه عمير بن ضابئ فقال : أيها الأمير ، إنى شيخ كبير عليل ،
٥ وهذا ابنى أقوى على الغزو منى . قال : أجيزوا ابنه عنه ؛ فإنّ الحدثَ أحبُّ إلينا من الشيخ . فلما ولى الرجل قال له عنبسة بن سعيد : أيها الأمير ، هذا الذى ركض عثمانَ برجله وهو مقتول . فقال : ردّوا الشيخ . فردّوه ، فقال : اضربوا عنقه ! فقال فيه الشاعر :

تَجَهَّزْ فإمّا أنْ تَزورَ ٱبنَ ضابئٍ ٭ عُمَيْرًا ، وإمّا أن تزورَ المُهلَّبا
١٠ هما خُطَّتا خَسْفٍ نَجاؤُكَ منهما ٭ ركوبُك حَوْلِيًّا من الثلج أشْهَبا

ثم قال : دلونى على رجل أوليه الشرطة . فقيل له : أىَّ الرجال تريد ؟ قال : أريد دائم العبوس ، طويل الجلوس ، سمين الأمانة ، أعجف الخيانة ، لا يُحنَق فى الحق على حرٍّ أو حرة ، يهون عليه سِبالُ الأشراف فى الشفاعة . فقيل : عليك بعبد الرحمن بن عبيدٍ التيمى فأرسل إليه يستعمله ، فقال له : لست
١٥ أقبلها إلا أن تكفينى عيالك وولدك وحاشيتك . فقال الحجاج : يا غلام ، ناد : من طلب إليه منهم حاجة فقد برئت الذمة منه . قال الشعبى : فوالله ما رأيت قط صاحبَ شرطة مثلَه ، كان لا يحبس إلا فى دين ، وكان إذا أُتىَ برجل نقب على قوم ، وضع منقبته فى بطنه حتى تخرج من ظهره ، وكان إذا أُتىَ برجل نباش حفر له قبراً ودفنه فيه حيا ، وإذا أتى برجل قاتَل بحديدة أو شَهَر سلاحا قطع
٢٠ يده ؛ فربما أقام أربعين يوما لا يؤتى إليه بأحد ، فضم الحجاج إليه شرطة البصرة مع شرطة الكوفة .

الحجاج وخالد بن يزيد فى مسجد المدينة

ولما قدم عبد الملك بن مروان المدينة نزل دار مروان ، فمرّ الحجاج بخالد ابن يزيد بن معاوية وهو جالس فى المسجد ، وعلى الحجاج سيف محلى وهو يخطر متبختراً فى المسجد ، فقال رجل من قريش لخالد : من هذا التختارة ؟ فقال :

بَخٍ بَخٍ ! هذا عمرو بن العاص ! فسمعه الحجاج ، فمال إليه فقال : قلتَ : هذا عمرو بن العاص ! والله ما سرّنى أنّ العاص ولدنى ولا ولدتُه ولكن إن شئت أخبرتك من أنا : أنا ابن الأشياخ من ثقيف ، والعقائل من قريش ، والذى ضرب مائةً بسيفه هذا كلهم يشهدون على أبيك بالكفر وشرْب الخمر حتى أقرّوا أنه خليفة . ثم ولّى وهو يقول : هذا عمرو بن العاص . ٥

الحجاج وابن يعمر فى الحسن ابن على

الأصمعى قال : بعث الحجاج إلى يحيى بن يعمر ، فقال له : أنت الذى تقول : إنّ الحسن بن علىّ ، ابنُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ والله لتأتينّى بالمخرج أو لأضربن عنقك ! فقال له : فإن أتيت بالمخرج فأنا آمن ؟ قال : نعم . قال له : اقرأ ﴿ وتلك حُجّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومِه نَرفعُ درجاتٍ مَن نشاءُ إنّ ربّك حكيمٌ عليمٌ . ووَهبْنا له إسحٰقَ ويعقوبَ كُلاً هَدينا ونوحا هَدَينا من قبل ومن ذُرّيّتهِ داودَ وسليمانَ وأيوبَ ويوسفَ وموسى وهٰرونَ وكذلك نَجزى المحسنين . وزكريّا ويَحيَ وعيسىٰ ﴾ فمن أقربُ ، عيسى إلى إبراهيم ، وإنما هو ابن ابنته ، أو الحسن إلى محمد ؟ قال الحجاج : فوالله لكأنى ما قرأت هذه الآية قط ! وولاه قضاء بلده ، فلم يزل بها قاضياً حتى مات . ١٠

عبد الملك والحجاج

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : كان عبدُ الملك بن مروان سِنان قريش وسيفَها رأيا وحزما ، وعابدَها قبل أن يُستخلف ورعا وزهدا ؛ فجلس يوماً فى خاصّته فقبض على لحيته فشمّها مليّا ، ثم اجترّ نفَسَه ، ونفخ نفخة أطالها ، ثم نظر فى وجوه القوم فقال : ما أقول يوم ذى المسألة عن ابن أمّ الحجاج ، وأدحض المُحتج على العليم بما طوته الحُجب ؟ أمَا إنّ تمليكى له قرَن بى لوعةً يحشُها التذكار ! كيف وقد علمتُ فتعاميت ، وسمعت فتصاممت ، وحمله الكرامُ الكاتبون ! والله لكأنى إلف ذى الضِّغن على نفسى ، وقد نَعتِ الأيامُ بتصرُّفها أنفساً حُقّ لها الوعيدُ بتصرُّم الدُّول ، وما أبقت الشبهة للباقى متعلَّقاً ، وما هو إلا الغِل الكامن من النفس بحوبائها ، والغيظ المندمل ؛ اللهم أنت لى أوسع ، غيرَ منتصِر ولا معتذر . يا كاتب ، هات الدواة والقرطاس . ١٥ ٢٠

فقعد كاتبه بين يديه وأملى عليه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله ، عبد الملك بن مروان إلى الحجاج ابن يوسف : أمّا بعد ، فقد أصبحتُ بأمرك بَرِما ، يُقْعدنى الإشفاق ، ويقيمنى الرجاء ، وإذا عجزتُ فى دار السعة وتوسُّط الملك وحين المَهَل واجتماع الفكر أن ألتمس العذرَ فى أمرك ؛ فأنا لعمرُ الله فى دار الجزاء وعدمِ السلطان واشتغال الحافة والركونِ إلى الذلة من نفسى والتوقع لما طُويت عليه الصحف أعجز ؛ وقد كنت أشركتُك فيما طوقنى الله عز وجل حملَه ولاث بحقوى من أمانته فى هذا الخَلق المرعىّ ، فدُللتَ منك على الحزم والجدّ فى إماتة بدعة وإنعاش سنة ، فقعدتَ عن تلك ونهضت بما عاندها ، حتى صرتَ حجة الغائب ، وعذر اللاعن والشاهد القائم .

فلعن الله أبا عَقيل وما نَجَل ، فألأَمُ والدٍ وأخبث نسل ، فلعمرى ما ظلمكم الزمان ، ولا قعدتْ بكم المراتب ، فقد ألبستْكم ملبَسكم ، وأقعدتكم على روابى خُططكم ، وأحلّتكم أعلى منَعتكم ، فمن حافرٍ وناقل وماتح للقُلُب المُقْعدة فى القيافى المُتفيهقة ، ما تقدّم فيكم الإسلامُ ولقد تأخرتم ، وما الطائف منا ببعيد يُجهَل أهلُه ؛ ثم قمتَ بنفسك ، وطمحت بهمّتك ، وسرّك انتضاء سيفك ، فاستخرجك أميرُ المؤمنين من أعوان روح بن زنباع وشرطته ، وأنت على معاونته يومئذ محسود ، فهفا أميرُ المؤمنين والله يُصلح بالتوبة والغفران زَلّته ، وكأنى بك وكأن ما لو لم يكن لكان خيراً مما كان ؛ كلُّ ذلك من تجاسُرك وتحامُلك على المخالفة لرأى أمير المؤمنين ، فصدعتَ صَفاتَنا ، وهتكت حجبنا ، وبسطتَ يديك تحفِن بهما من كرائم ذوى الحقوق اللازمة والأرحام الواشجة ، فى أوعية ثقيف ؛ فاستغفر الله لذنب ما له عذر ، فلئن استقال أميرُ المؤمنين فيك الرأىَ ، فلقد جالت البصيرة فى ثقيف بصالحِ النبىّ صلى الله عليه وسلم ، إذ ائتمنه على الصدقات وكان عبدَه ، فهرب بها عنه ، وما هو إلا اختيار للثقة ، والمطلب لمواضع الكفاية : فقعد فيه الرجاء كما قعد بأمير المؤمنين فيما نصبك له ، فكأنّ هذا ألبسَ أميرَ المؤمنين

ثوب العزاء ، ونهض بعُذْره إلى استنشاق نسيم الرَّوح ؛ فاعتزل عملَ أمير المؤمنين وأظعن عنه باللعنة اللازمة ، والعقوبة الناهكة إن شاء الله ، إذ استحكم لأمير المؤمنين ما يحاول من رأيه ، والسلام .

ودعا عبد الملك مولى له يقال له نُباتة ، له لسان وفضل رأى ، فناوله الكتاب ، ثم قال له : يانباتة ، العجَل ثم العجل ، حتى تأتى العراق ، فضع هذا الكتاب فى يد الحجاج ، وترقب ما يكون منه ، فإذا أجْبَلَ عند قراءته واستيعاب ما فيه ، فاقلعه عن عمله وانقلع معه حتى تأتى به ، وهدِّن الناس حتى يأتيهم أمرى ، بما تصفنى به فى حين انقلاعك ، مِن حبِّى لهم السلامة ؛ وإن هش للجواب ولم تكتنفه أزِمَّة الحيرة ، فخذ منه ما يجيب به وأقرِرْه على عمله ، ثم اعْجَل علىَّ بجوابه .

قال نباتة : فخرجت قاصداً إلى العراق ، فضمتنى الصحارى والفيافى ، واحتوانى القر ، وأخذ منى السفرُ ، حتى وصلتُ ؛ فلما وردته أُدخلت عليه فى يوم ما يحضُره فيه الملأ ، وعلىَّ شحوبٌ مُضْنٍ ، وقد توسط خدمَه من نواحيه وتدثر بمطرف خز أدكن ، ولاث به الناس من بين قائم وقاعد ؛ فلما نظر إلىَّ - وكان لى عارفاً - قعد ، ثم تبسَّم تبسُّم الوجل ، ثم قال : أهلا بك يا نباتة ، أهلا بمولى أمير المؤمنين لقد أثَّر فيك سفرك ، وأعرف أمير المؤمنين بك ضنينا ، فليت شعرى ما دهمك أو دهمنى عنده ؟ قال : فسلّمت وقعدت ، فسأل : ما حال أمير المؤمنين وخوَلِه ؟ ... فلما هدأ أخرجت له الكتاب فناولتُه إياه ، فأخذه منى مسرعا ويده ترعد ، ثم نظر فى وجوه الناس فما شعرت إلا وأنا معه ليس معنا ثالث ، وصار كل من يُطيف به من خدمه يلقاه جانباً ، لا يسمعون منا الصوت ؛ ففك الكتاب فقرأه ، وجعل يتثاءب ويردد تثاؤبه ، ويسيل العرق على جبينه وصدغيه - على شدة البرد - من تحت قلنسوته من شدة الفرق ، وعلى رأسه عمامة خزّ خضراء ، وجعل يَشخص إلىَّ ببصره ساعةً كالمتوهم ، ثم يعود إلى قراءة الكتاب ويلاحظنى النظر كالمتفهِّم ، إلا أنه واجم ؛ ثم يعاود الكتاب ، وإنى لأقول : ما أراه يُثبت

حروفَه؛ من شدة اضطراب يده، حتى استقصى قراءته؛ ثم مالت يده حتى وقع الكتاب على الفراش، ورجع إليه ذهنه، فمسح العرق عن جبينه. ثم قال متمثلا:

وإذا المنيّةُ أنشَبتْ أظفارَها * ألفيتَ كل تَميمَةٍ لا تنفعُ

٥ ثم قال: قَبُح والله منا الحسن يا نباتة، وتوا كلَتْنا عند أمير المؤمنين الألسن، وما هذا إلا سانح فكرة نمقها مرْصِد يكلَب بقصتنا، مع حسن رأى أمير المؤمنين فينا. يا غلام! فتبادر الغلمان الصيحة، فملئ علينا منهم المجلس، حتى دفأتني منهم الأنفاس، فقال: الدواةَ والقرطاس. فأُتى بدواةٍ وقرطاس، فكتب بيده، وما رفع القلم مستمِداً حتى سطر مثل خد الفرس، فلما فرغ قال لى يا نباتة، هل

١٠ علمت ما جئت به فنُسمعك ما كتبنا؟ قلت: لا. قال: إذاً حسبك منا مثله. ثم ناولنى الجواب، وأمر لى بجائزة فأجزل، وجرّد لى كساء ودعا لى بطعام فأكلت ثم قال: تَكِلُكَ إلى ما أمِرت به من عجلة أو توانٍ، وإنى لأحب مقارنتك والأُنسَ برؤيتك. فقلت: كان معى قُفل مفتاحُه عندك، ومفتاح قفلك عندى، فأُحدثت لك العافية بأمرين: فاقفلتَ المكروه وفتحت العافية، وما ساءنى ذلك وما أُحب

١٥ أن أزيدك بيانا، وحسْبك من استعجال القيام.

ثم نهضت وقام مودعا لى، فالتزمنى وقال: بأبى أنت وأمى، رب لفظةٍ مسموعة ومحتقرٍ نافع؛ فكن كما أظن.

فخرجت مستقبلا وجهى حتى وردتُ أمير المؤمنين، فوجدته منصرفا من صلاة العصر، فلما رآنى قال: ما احتواك المضجع يا نباتة! فقلت: من خاف من وجه

٢٠ الصباح أدلج. فسلمت وانتبذت عنه فتركنى حتى سكن جأشى، ثم قال: مَهْيَم. فدفعت إليه الكتاب فقرأه متبسما، فلما مضى فيه ضحك حتى بدت له سنٌّ سوداء ثم استقصاه فانصرف إلىّ فقال: كيف رأيت إشفاقه؟ قال: فقصصت عليه ما رأيت منه فقال: صلوات الله على الصادق الأمين: إن من البيان لسحرا. ثم قذف الكتاب إلىّ فقال: اقرأ. فقرأته فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله أمير المؤمنين ، وخليفة رب العالمين ، المؤيَّدِ بالولاية ، المعصوم من خطل القول وزلل الفعل ، بكفالة الله الواجبة لذوى أمره ؛ من عبد اكتنفته الزّلة ، ومدّ به الصّغار إلى وخيم المرتع ، ووبيل المكرع ، من جليل فادح ومعتد قادح ؛ والسلام عليك ورحمة الله التى اتسعت فوسِعَتْ ، وكان بها إلى أهل التقوى عائدا ؛ فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، راجيا لعطفك بعطفه .

أما بعد ، كان الله لك بالدّعة فى دار الزوال ، والأمن فى دار الزلزال ؛ فإنه من عُنيتْ به فكرتك يا أمير المؤمنين مخصوصا ، فما هو إلا سعيد يؤثر ، أو شقىّ يوتّر ؛ وقد حجبنى عن نواظر السعد لسان مُرصد ونافس حَقِد ، انتهز به الشيطان حين الفكرة ، فافتتح به أبواب الوسواس بما تحنق به الصدور : فواغوثاه آستعاذةً بأمير المؤمنين من رجيم إنما سلطانه على الذين يتولونه ، واعتصاما بالتوكل على من خصه بما أجزل له من قَسْم الإيمان وصادق السنة ، فقد أراد اللعين أن يفتُق لأوليائه فتقا نبا عنه كيده ، وكثر عليه تحسره ، بلية قَرع بها فكر أمير المؤمنين مُلبساً وكادحا ومؤرّشا ، ليفلّ من عزمه الذى نصبنى ، ويصيب تأراً لم يزل به موتورا ، وذكر قديمَ ما مُنى به الأوائل حتى لحقتُ بمثله منهم وما كنت أبلوه من خسة أقدار ، ومزاولة أعمال ، إلى أن وصلت ذلك بالتشرّط لروح ابن زنباع . وقد علم أمير المؤمنين بفضل ما اختار الله له تبارك وتعالى من العلم المأثور الماضى ، بأن الذى عُيّر به القوم من مصانعهم من أشد ما كان يزاوله أهل القُدْمة الذين اجتبى الله منهم ، وقد اعتصموا وامتعضوا من ذكر ما كان ، وارتفعوا بما يكون ، وما جهِلَ أمير المؤمنين ـ للبيان موقعُه ، غير محتج ولا مُتعدّ ـ أن متابعة رَوح بن زنباع طريقُ الوسيلة لمن أراد مَن فوقه ، وأن رَوْحا لم يُلبِسْنى العزم الذى به رفعنى أمير المؤمنين عن خوله ؛ وقد ألصقتْنى بروح ابن زنباع همةٌ لم تزل نواظرها ترمى بى البعيد ، وتطالع الأعلام . وقد أخذت من أمير المؤمنين نصيبا اقتسمه الإشفاق من سَخطته والمواظبة على موافقته ، فما بقى لنا

بعد إلا صُبابة إرث ، به تجول النفس وتطرف النواظر ، ولقد سرت بعين
أمير المؤمنين سيرَ المثبِّط لمن يتلوه ، المتطاول لمن تقدمه ، غير مُبتّ موجف ،
ولا متثاقل مجحف ؛ ففتُّ الطالب ، ولحقت الهارب ، حتى سادت السنّة ،
وبادت البدعة ، وخَسئ الشيطان ، وحُملت الأديان إلى الجادة العظمى والطريقة
٥ المثلى ؛ فها أناذا يا أمير المؤمنين ، نصب المسألة لمن رامنى ، وقد عقدت الحبوة ،
وقرنت الوظيفتين لقائل محتج ، أو لائمٍ مُلتجّ ؛ وأمير المؤمنين ولى المظلوم ،
ومعقل الخائف ؛ وستظهر له المحنةُ نبأ أمرى ؛ ولكل نبإٍ مستقر ؛ وما حَقَنت
يا أمير المؤمنين فى أوعية ثقيف حتى رَوِى الظمآن ، وبطِن الغَرْثان ، وغصَّت
الأوعية ، وانقدت الأوكية فى آل مروان ، فأخذتْ ثقيفٌ فضلا صار لها ،
١٠ لولاهم للقطتْه السابلة ؛ ولقد كان ما أنكره أمير المؤمنين من تحاملى ، وكان مالو
لم يكن لعظم الخطب فوق ما كان ؛ وإن أمير المؤمنين لرابع أربعة : أحدهم ابنةُ
شعيب النبى صلى الله عليه وسلم ؛ إذ رمت بالظن غرضَ اليقين تفرسا فى النجىّ
المصطفى بالرسالة ، فحق لها فيه الرجاء ، وزالت شبهةُ الشك بالاختبار ؛ وقبْلها
العزيز فى يوسف ؛ ثم الصديق فى الفاروق ، رحمة الله عليهما ؛ وأمير المؤمنين فى
١٥ الحجاج . وما حَسد الشيطان يا أمير المؤمنين خاملا ، ولا شرِق بغير شجى ؛ فكم
غبطة يا أمير المؤمنين للرجيم أدبر منها وله عُواء وقد قلت حيلته ، ووَهَن كيده يوم
كيت وكيت ؛ ولا أظن أذكَر لها من أمير المؤمنين . ولقد سمعت لأمير المؤمنين
فى صالحٍ ـ صلوات الله عليه ـ وفى ثقيف مالا هجم بى الرجاء لعدله عليه بالحجة
فى ردّه ، بمحكم التنزيل على لسان ابن عمه خاتم النبيين وسيد المرسلين ؛ صلى الله
٢٠ عليه وسلم . فقد أخبر عن الله عز وجل ؛ وحكاية غُرّ الملأ من قريش عند الاختيار
والافتخار ، وقد نفخ الشيطان فى مناخرهم ، فلم يدّعوا خلف ما قصدوا إليه مرمًى ،
فقالوا ﴿ لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القَرْيَتَيْنِ عظيمٍ ﴾ . فوقع اختيارُهم
ـ عند المباهاة بنفخة الكفر ، وكبرِ الجاهلية ، على الوليد بن المغيرة المخزومى ،
وأبى مسعود الثقفى ؛ فصارا فى الافتخار بهما صنْوين ، ما أنكر اجتماعَهما من

الأمة منكر فى خبر القرآن ومبلّغ الوحى ، وإن كان ليقال للوليد فى الأمة يومئذ: ريحانة قريش ؛ ومارد ذلك العزيز تعالى إلا بالرحمة الشاملة فى القسم السابق ، فقال عز وجل : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟ نحن قَسَمْنا بينهم معيشتَهُمْ فى الحياةِ الدُّنيا ﴾ . وماقدمتْنى يا أمير المؤمنين ثقيف فى الاحتجاج لها ، وإن لها مقالا رحباً ، ومعاندةً قديمة ؛ إلا أن هذا من أيسر مايحتج به العبد المشفِق على سيده المغضَب ، والأمر إلى أمير المؤمنين ، عَزَل أم أقرّ ، وكلاهما عدل مُتبَع ، وصواب مُعتقَد . والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله .

قال نباتة : فأتيت على الكتاب بمحضر أمير المؤمنين عبد الملك ، فلما استوعبته سارقتُه النظر على الهيبة منه ، فصادف لحظى لحظه ، فقال : اقطعه ولا تُعلِمنّ بما كان أحداً . فلما مات عبد الملك فشا عنى الخبر بعد موته .

الحجاج وابن المنتشر فى ذمى

محمد بن المنتشر بن الأجدع الهمدانى قال : دفع إلى الحجاج رجلا ذِمّيا ، وأمرنى بالتشديد عليه والاستخراج منه ، فلما انطلقت به قال لى : يا محمد ، إن لك لشرَفاً ودينا . إنى لا أعطى على القسر شيئا ، فاستأذنى وارفق بى . قال : ففعلت فأدّى إلىّ فى أسبوع خمسمائة ألف ، فبلغ ذلك الحجاج فأغضبه ، فانتزعه من يدى ودفعه إلى الذى كان يتولى له العذاب ، فدق يديه ورجليه ولم يعطه شيئا . قال محمد ابن المنتشر : فإنى لسائر يوما فى السوق ، إذ صائح بى : يا محمد ، فالتفتّ ، فإذا أنا به معترضاً على حمار مدقوق اليدين والرجلين ، فخفت الحجاج إن أتيته وتذمّمْتُ منه ، فملت إليه ، فقال لى : إنك وليت منى ماولِىَ هؤلاء ، فرفقت بى وأحسنت إلىّ ، وإنهم صنعوا بى ماترى ، ولى خمسمائة ألف عند فلان ، فخذها مكافأة لما أحسنت إلىّ . فقلت : ما كنت لآخذ منك على معروفى أجرا ، ولا لأرزأك على هذه الحالة شيئاً ! قال : فأما إذ أبيت فاسمع منى حديثاً أحدِّثُك به ، حدّثنيه بعض أهل دينك عن نبيك صلى الله عليه وسلم : إذا رضى الله عن قوم أنزل عليهم المطر فى وقته ، وجعل المال فى سُمَحائهم ، واستعمل عليهم خيارَهم ؛ وإذا سخِط على قوم أنزل عليهم المطر فى غير وقته ، وجعل المال فى بُخَلائهم ، واستعمل عليهم شِرارَهم .

فانصرفت ، فما وضعت ثوبي حتى أتاني رسول الحجاج ، فسرت إليه ، فألفيته جالساً على فراشه والسيف مصلَت بيده ، فقال لى : آدن . فدنوت شيئاً ، ثم قال لى : آدن فدنوت شيئا ، ثم قال لى الثالثة : آدن ، لا أبالك ! فقلت : ما بى إلى الدنوّ من حاجة ، وفى يد الأمير ما أرى ! فضحك وأغمد سيفه . وقال :
٥ اجلس ، ما كان من حديث الخبيث ؟ فقلت له : أيها الأمير ، والله ما غششتُك منذ استصحبتنى ولا كذبتك منذ استخبرتنى ، ولا خنتُك منذ ائتمنتنى ؛ ثم حدثته ؛ فلما صرت إلى ذكر الرجل الذى المال عنده أعرض عنى بوجهه ، وأومأ إلىّ بيده ، وقال : لا تُسمِّه . ثم قال : إن للخبيث نفساً ، وقد سمع الأحاديث .

شىء عن الحجاج

ويقال : إن الحجاج كان إذا استغرب ضَحِكا والى بين استغفار ، وكان إذا
١٠ صعد المنبر تلفع بمطرفه ، ثم تكلم رويداً فلا يكاد يُسمع ، حتى يتزايد فى الكلام فيُخرج يده من مُطرفه ، ثم يزجر الزجرة فيقرع بها أقصى مَن فى المسجد .

خالد القسرى فى شأن الحجاج

صعد خالد بن عبد الله القسرى المنبر فى يوم الجمعة وهو إذ ذاك على مكة ؛ فذكر الحجاج ، فحمد طاعته وأثنى عليه خيرا ؛ فلما كان فى الجمعة الثانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك ، يأمره فيه بشتم الحجاج ونشر عيوبه وإظهار البراءة
١٥ منه ؛ فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

إن إبليس كان ملكا من الملائكة ، وكان يُظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له به فضلا ، وكان الله قد علم من غِشّه وخُبثه ما خفى على ملائكته ؛ فلما أراد الله فضيحتَه أمره بالسجود لآدم ، فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم ، فلعنوه ؛ وإن الحجاج كان يُظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا
٢٠ نرى له به فضلا ، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غشه وخبثه على ما خفى عنا ؛ فلما أراد الله فضيحته أجرى ذلك على يدى أمير المؤمنين ؛ فلعنَه ، فالعنوه لعنه الله ! ثم نزل .

الحجاج وامرأة ابن الأشعث

ولما أُتِى الحجاج بامرأة ابن الأشعث قال للحرسى : قل لها : يا عدوّة الله ، أين مال الله الذى جعلته تحت ذيلك ؟ فقال لها الحرسى : يا عدوّة الله أين

مال الله الذى جعلته تحت استك ؟ قال الحجاج : كذبت ؛ ماهكذا قلت ؛
أرسِلْها . فخلَّى سبيلها .

الحجاج وأبو وائل

أبو عَوانة عن عاصم عن أبى وائل قال : أرسل الحجاج إلىّ . فقال لى :
ما اسمك ؟ قلت : ما أرسل الأمير إلىّ حتى عَرَف اسمى ! قال لى : متى هبطت هذه
٥ الأرض ؟ قلت : حين ساكنت أهلها . قال : كم تقرأ من القرآن ؟ قلت : أقرأ
منه ما إن اتبعتُه كفانى . قال : إنى أريد أن أستعين بك على بعض عملى ؟ قلت :
إن تستعن بى تستعن بكبير أخرق ضعيف ، يخاف أعوان السوء . وإن تدَعْنى فهو
أحبُّ إلىّ ، وإن تُقحِمْنى أتقحّمْ . قال : إن لم أجد غيرك أقحمتك وإن وجدت
غيرك لم أقحمك . قلت وأخرى أكرم الله الأمير : إنى ما علمت الناس هابوا أميرا
١٠ قط هيبتَهم لك ؛ والله إنى لأتعارُّ من الليل فأذكرك فما يأتينى النوم حتى أصبح ؛
هذا ، ولست لك على عمل ! فأعجبه ذلك وقال : هيه ! كيف قلت ؟ فأعدت عليه
الحديث . فقال : إنى والله ما أعلم اليوم رجلا على وجه الأرض هو أجرأ على
دمٍ منى ! قال : فقمت فعدلت عن الطريق عمداً كأنى لا أبصر ، فقال : آهدوا
الشيخ ، أرشدوا الشيخ .

الحجاج وابن أبى ليلى

١٥ أبو بكر بن أبى شيبة قال : دخل عبد الرحمن بن أبى ليلى على الحجاج ، فقال
لجلسائه : إذا أردتم أن تنظروا إلى رجل يسب أمير المؤمنين عثمان فانظروا إلى
هذا . فقال عبد الرحمن : معاذ الله أيها الأمير أن أكون أسُبُّ عثمان ؛ إنه ليحْجُزنى
عن ذلك [ثلاث] آيات فى كتاب الله تعالى [قال الله تعالى] : ﴿ للفقراء المُهاجرينَ
الذين أُخرِجُوا منْ ديارِهمْ وأموالِهِمْ يبتغُونَ فضلاً منَ الله ورِضْواناً ويَنْصُرون
٢٠ اللهَ ورسولَهُ ، أُولئك هُمُ الصّادقونَ ﴾ . فكان عثمان منهم ، ثم قال : ﴿ والذين
تبوءُوا الدّار والإيمانَ منْ قبْلِهِم يُحِبُّون مَن هاجرَ إليهم ولا يجدُون فى صُدورهم
حاجةً ممّا أُوتوا ويُؤثِرونَ على أنفُسهم ولوْ كان بهم خَصاصةٌ ﴾ . فكان أبى منهم
ثم قال : ﴿ والذين جاءُوا من بعْدِهِمْ يقولون ربّنا آغفرْ لنا ولإخوانِنا الذينَ
سبَقونا بالإيمان ﴾ . فكنت أنا منهم . قال : صدقت .

ابن أبي ليلى في لعن علي وابن الزبير والمختار

أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي معاوية عن الأعمش قال: رأيت عبد الرحمن ابن أبي ليلى ضربه الحجاج وأوقفه على باب المسجد، فجعلوا يقولون له: العن الكاذبين: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن الزبير، والمختار بن أبي عبيد. فقال: لعن الله الكاذبين ثم قال: عليُّ بن أبي طالب، وعبد الله بن الزبير، والمختار بن أبي عبيد — بالرفع — فعرفت حين سكت ثم ابتدأ فرفع، أنه ليس يريدهم.

الحجاج والشعبي

قال الشعبي: أُتِيَ بي الحجاج مُوثقا، فلما جئت باب القصر لقيني يزيد بن أبي مسلم كاتبه، فقال: إنا لله يا شعبيّ لمَا بين دفتيك من العلم، وليس اليوم بيوم شفاعة! قلت له: فما المخرج؟ قال: بُؤْ للأمير بالشرك والنفاق على نفسك، وبالحرى أن تنجو. ثم لقيني محمد بن الحجاج، فقال لي مثل مقالة يزيد: فلما دخلت على الحجاج قال لي: وأنت يا شعبي فيمن خرج علينا وكفر؟ قلت: أصلح الله الأمير، نبا بنا المنزل، وأجدب بنا الجناب، واستحلسنا الخوفُ، واكتحلْنا السهر، وضاق المسلك، وخبطتنا فتنةٌ لم نكن فيها بررةً أتقياء، ولا فجرة أقوياء! قال: صدق والله، ما برُّوا بخروجهم علينا، ولا قَوُوا؛ أطلقوا عنه. فاحتاج إليّ في فريضة بعد ذلك، فأرسل إليّ فقال: ما تقول في أُمّ وأُخت وجَدٍ؟ فقلت: اختلف فيها خمسة من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم: عبد الله بن مسعود، وعلي، وعثمان وزيد، وابن عباس. قال: فما قال فيها ابن عباس، إن كان لَمِنْقَباً[1]. قلت: جعل الجد أباً ولم يُعْطِ الأخت شيئا، وأعطى الأم الثلث. قال: فما قال فيها ابن مسعود؟ قلت جعلها من ستة، فأعطى الجدّ ثلاثة، وأعطى الأم اثنين، وأعطى الأخت سهماً. قال: فما قال زيد؟ قلت: جعلها من تسعة، فأعطى الأم ثلاثة، وأعطى الجدّ أربعة، وأعطى الأخت اثنين؛ فجعل الجد معها أخا. قال: فما قال فيها أمير المؤمنين عثمان؟ قلت: جعلها أثلاثا. قال: فما قال فيها أبو تُراب؟ قلت: جعلها من ستة، فأعطى الأخت ثلاثة، وأعطى الأم اثنين وأعطى الجد سهما، قال: مُرِ القاضي فليُمْضها على ما أمضاها أمير المؤمنين.

(١) المنقب: العالم بالأشياء، الكثير البحث والتنقيب.

... فبينما أنا عنده إذ جاءه الحاجب فقال له : إنّ بالباب رسلا . فقال : إيذن لهم . قال : فدخلوا ، وعمائمهم على أوساطهم ، وسيوفهم على عواتقهم ، وكتبهم بأيمانهم ؛ وجاء رجل من بنى سُليم يقال له شبابة بن عاصم ، فقال له : من أين ؟ قال : من الشام . قال : كيف تركتَ أمير المؤمنين ؟ وكيف تركت حشمه ؟ فأخبره ، قال : هل وراءك من غيث ؟ قال : نعم ، أصابتنى فيما بينى وبين الأمير ثلاث سحائب . قال : فانعت لى ، كيف كان وقع المطر وتباشيره ؟ قال : أصابتنى سحابة بحُوارين ، فوقع قَطر صغار وقَطر كبار ، فكانت الصغار لُحمة للكبار ؛ ووقع نشيطا ومتداركا ، وهو السّيح الذى سمعتَ به ، فواد سائل ، وواد نازح ؛ وأرض مُقبلة ، وأرض مدبرة . وأصابتنى سحابةٌ بَسراء فلبّدت الدّماث ، وأسالت العَزاز ، وأدحضت التلاع ، وصدعت عن الكمأة أماكنها ؛ وأصابتنى سحابة بالقَريتين . فقاءت الأرض بعد الرىّ ، وامتلأت الأخاديد ، وأفعمت الأودية ، وجئتك فى مثل وجار الضبُع .

ثم قال : إيذن . فدخل رجل من بنى أسد ، فقال : هل وراءك من غيث ؟ قال : لا ، كثُر والله الإعصار ، وأغبرت البلاد ، وأيقنّا أنه عام سَنة . قال : بئس المُخبر أنت . قال : أخبرتك الذى كان .

ثم قال : إيذن . فدخل رجل من أهل اليمامة ، قال : هل وراءك من غيث ؟ قال : نعم ، سمعت الروّاد يدعون إلى الماء ، وسمعت قائل يقول : هلم ظعنكم إلى محلة تطفأ فيها النيران ، وتشتكى فيها النساء ، وتَنافشُ فيها المعزى . قال الشعبي : فلم يدر الحجاج ما قال ، فقال له : تبًّا لك . إنما تحدّث أهل الشام فأفهمهم . قال : أصلح الله الأمير ، أخصب الناس ، فكثر التمر والسمن والزبد واللبن ، فلا توقد نار يُختبز بها ؛ وأمّا تشكّى النساء ، فإنّ المرأة تظل تُربق بَهمها ، وتمخض لبنها ، فتبيت ؛ ولها أنين من عضدها وأمّا تنافُشُ المعزى ، فإنها ترى من أنواع التمر وأنواع الشجر ونَور النبات ، ما يشبع بطونَها ولا يُشبع عيونها ، فتبيت وقد امتلأت أكراشها ، ولها من الكظة جرة ، فتبقى الجرة حتى تستنزل الدرّة .

ثم قال : إيذن . فدخل رجل من الموالى كان من أشد الناس فى ذلك الزمان ، فقال له : هل وراءك من غيث ؟ قال : نعم ، ولكنى لا أحسن أن أقول ما يقول هؤلاء . قال : فما تحسن ؟ قال : أصابتنى سحابة بحُلوان ، فلم أزل أطأُ فى آثارها حتى دخلتُ عليك . فقال : لئن كنت أقصرَهم فى المطر خُطبة ، إنك لأطولهم بالسيف خُطوة .

عبد الملك والحجاج وابن عمر

إبراهيم بن مرزوق عن سعيد بن جويرية قال : لما كان عام الجماعة ، كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج : انظر ابنَ عمر فاقتد به وخذ عنه . يعنى فى المناسك ، قال : فلما كان عشية عرفة ، سار الحجّاج بين يدى عبد الله ابن عمر وسالم ابنه ، فقال له سالم : إن أردت أن تُصيب السُّنة اليوم فأوجز الخُطبة وعجّل الصلاة . قال : فقطَّب ونظر إلى عبد الله بن عمر ، فقال : صدقت . فلما كان عند الزوال مرَّ عبد الله بن عمر بسرادقه وقال : الرواح . فما لبث أن خرج ورأسه يقطر كأنه قد اغتسل ، فلما أفاض الناس رأيت الدم يتحدر من النجيبة التى عليها ابنُ عمر ، فقلت : أباعبد الرحمن ، عقرت النجيبة ! قال : أنا عُقرت ليس النجيبة . وكان أصابه زج رمح بين أصبعين من قدمه ، فلما صرنا بمكة دخل عليه الحجاج عائداً فقال : يا أبا عبد الرحمن ، لو علمتُ مَن أصابك لفعلتُ وفعلت ، قال له : أنت أصبتَنى . قال غفر الله لك ، لمَ تقول هذا ؟ قال : حملتَ السلاح فى يوم لا يُحمل فيه السلاح ، وفى بلد لا يُحمل فيه السلاح .

من أخبار الحجاج

أبو الحسن المدائنى قال : أخبرنى من دخل المسجد والحجاج على المنبر وقد ملأ صوتُه المسجد بأبيات سُويد بن أبى كاهل اليشكُرىّ حيث يقول :

رُبَّ مَن أنضجتُ غيظا صدرَه ۞ قد تمــنّى لى موتاً لم يُطَعْ

ســاء ما ظنُّوا وقد أبليتُهم ۞ عند غاياتِ المدَى كيف أقعْ

كيف يَرجون سِقاطى بعد ما ۞ شمِل الرأسَ مَشيبٌ وصلَعْ

كتب الوليد إلى الحجاج . أن صف لى سيرتك ، فكتب إليه : إنى أيقظت

رأيى ، وأتمت هواى ، فأدنيت السيد المطاع فى قومه ، ووليت الحربَ الحازمَ فى أمره ، وقلدت الخراج الموفِّر لأمانته ، وصرفت السيف إلى النَّطِف المسىء ، والثواب إلى المحسن البرىء ؛ فخاف المُريب صولة العقاب ، وتمسك المحسن بحظه من الثواب .

الحجاج وقارىء

قرأ الحجاج فى سورة هود : ﴿قال يا نوحُ إنه ليسَ مِن أهلِكَ إنه عَمَلٌ غيرُ صالحٍ﴾ ؛ فلم يدر كيف يقرأ : عَمَلٌ بالضم والتنوين ، أو عَمِلَ بالفتح ؛ فبعث حرسيًّا فقال : إيتنى بقارئ . فأُتى به وقد ارتفع الحجاج عن مجلسه ، فحبسه ونسيه حتى عرض الحجاج حبسَه بعد ستة أشهر ، فلما انتهى إليه قال له : فيم حُبستَ ؟ قال : فى ابن نوح ، أصلح الله الأمير ! فأمر بإطلاقه . ٥

عبد الملك والحجاج وأنس

إبراهيم بن مرزوق قال : حدثنى سعيد بن جُويرية قال : خرجتْ خارجة على الحجاج بن يوسف ، فأرسل إلى أنس بن مالك أن يخرج معه ، فأبى ؛ فكتب إليه يشتمه ، فكتب أنس بن مالك إلى عبد الملك بن مروان يشكوه وأدرج كتاب الحجاج فى جوف كتابه . ١٠

قال إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر : بعث إلىّ عبد الملك بن مروان فى ساعة لم يكن يبعث إلىّ فى مثلها ، فدخلت عليه وهو أشدّ ما كان حنقاً وغيظا ، فقال : يا إسماعيل : ما أشد علىّ أن تقول الرعية : ضعُف أمير المؤمنين ، وضاق ذرعُه فى رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ! لا يقبل له حسنة ، ولا يتجاوز له عن سيئة ، فقلت : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال أنس بن مالك : خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كتب إلىّ يذكر أنّ الحجاج قد أضرّ به وأساء جواره . وقد كتبت فى ذلك كتابين ، كتابا إلى أنس بن مالك ، والآخر إلى الحجاج ؛ فاقبضهما ثم آخرج على البريد فإذا وردت العراق فابدأ بأنس بن مالك فادفع له كتابى ، وقل له : اشتدّ على أمير المؤمنين ما كان من الحجاج إليك ، ولن يأتىَ إليك أمرٌ تكرهه إن شاء الله . ثم ائت الحجاج فادفع إليه كتابه ، وقل له : قد اغتررت بأمير المؤمنين غِرّة لا أظنه ١٥ ٢٠

يخطئك شرُّها . ثم افهم ما يتكلم به وما يكون منه ، حتى تُفهِمنى إياه إذا قدمتَ علىّ إن شاء الله .

قال إسماعيل : فقبضت الكتابين وخرجت على البريد ، حتى قدمت العراق فبدأت بأنس بن مالك فى منزله ، فدفعت إليه كتاب أمير المؤمنين ، وأبلغته رسالته ؛ فدعا له وجزاه خيرا ؛ فلما فرغ من قراءة الكتاب قلت له : أبا حمزة ، إنّ الحجاج عامل ، ولو وُضع لك فى جامعة لقدر أن يضرك وينفعك ؛ فأنا أريد أن تصالحه . قال : ذلك إليك ، لا أخرج عن رأيك . ثم أتيت الحجاج ؛ فلما رآنى رحب وقال : والله لقد كنتُ أحبُّ أن أراك فى بلدى هذا ! قلت : وأنا والله قد كنت أحب أن أراك وأقدَم عليك بغير الذى أرسلت به إليك ! قال : وماذاك ؟ قلت : فارقتُ الخليفةَ وهو أغضبُ الناس عليك ! قال : ولم ؟ قال : فدفعت إليه الكتاب ، فجعل يقرؤه وجبينُه يعرق فيمسحه بيمينه ، ثم قال : اركب بنا إلى أنس بن مالك . قلت له : لا تفعل ، فإنى سأتلطف به حتى يكون هو الذى يأتيك ـ وذلك لِلذى أشرتُ عليه من مصالحته ـ قال : فألق كتابَ أمير المؤمنين ، فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى الحجاج ابن يوسف ، أمّا بعد فإنك عبد طَمَتْ بك الأمور فطغَيْتَ ، وعلوْتَ فيها حتى جُزت قدرَك ، وعَدَوْتَ طورك ، وأَيم الله يابن المُستفرمة بعَجم زبيب الطائف ، لأغمزنّك كبعض غمزات الليوث للثعالب ، ولأركضنّك ركضة تدخل منها فى وَجعاء أُمّك ؛ اذكر مكاسب آبائك بالطائف ، إذ كانوا ينقلون الحجارة على أكتافهم ، ويحفرون الآبار فى المناهل بأيديهم ؛ فقد نسيت ما كنت عليه أنت وآباؤك من الدناءة واللؤم والضراعة ؛ وقد بلغ أميرَ المؤمنين استطالةٌ منك على أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جرأةً منك على أمير المؤمنين ، وغِرّةً بمعرفة غِيَرَه ونقماته وسطواته على من خالف سبيله وعمد إلى غير محبته ، ونزل عند سخطه ، وأظنك أردت أن تروزه بها

لتعلم ما عنده من التغيير والتنكير فيها ، فإن سُوِّغتها مضيت قُدما ، وإن بُغِّضتها وليت دُبرا ، فعليك لعنة الله من عبد أخفس العينين ؛ أصك الرجلين ؛ ممسوح الجاعرتين ، وآيم الله لو أن أمير المؤمنين علم أنك آجترمت منه جُرما وانتهكت له عرضاً فيما كتب به إلى أمير المؤمنين ، لبعث إليك من يسحبك ظهراً لبطن حتى ينتهى بك إلى أنس بن مالك ، فيحكم فيك بما أحب ، ولن يخفى على أمير المؤمنين نبؤُك ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون .

قال إسمعيل : فانطلقت إلى أنس فلم أزل به حتى انطلق معى إلى الحجاج ؛ فلما دخلنا عليه قال : يغفر الله لك أبا حمزة : عَجِلت باللائمة ، وأغضبت علينا أمير المؤمنين . ثم أخذ بيده فأجلسه معه على السرير ، فقال : أنس : إنك كنت تزعم أنا الأشرار ! والله سمّانا الأنصار ، وقلت : إنا من أبخل الناس ! ونحن الذين قال الله فيهم : ﴿ وَيُؤْثِرونَ على أَنفُسِهِمْ ولو كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ ﴾ ، وزعمت أنا أهل نفاق ! والله تعالى يقول فينا : ﴿ والذِينَ تبَوَّءوا الدَّارَ والإيمانَ مِنْ قبْلِهِمْ يُحبُّونَ منْ هاجَرَ إليهِمْ ولا يجِدُونَ فى صُدُورِهِم حاجَةً مِمَّا أُوتُوا ﴾ فكان المفزع والمشتكى فى ذلك إلى الله وإلى أمير المؤمنين ؛ فتولى من ذلك ما ولاه الله ، وعرف من حقنا ما جهلتَ ، وحفظ منا ما ضيَّعْت ؛ وسيحكم فى ذلك رُبٌّ هو أرضى للمُرضِى ، وأسخَط للمسخِط ، وأقدر على المغير ، فى يوم لا يشوبُ الحقَّ عنده الباطل ، ولا النورَ الظلمة ، ولا الهدى الضلالة ؛ والله لولا أن اليهود أو النصارى رأت مَن خدم موسى بن عمران أو عيسى ابن مريم يوماً واحداً لرأت له مالم تروا لى فى خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين .

قال : فاعتذر إليه الحجاج وترضّاه حتى قبلَ عذره ورضى عنه ، وكتب برضاه وقبوله عذرَه ، ولم يزل الحجاج له معظّماً هائباً له حتى هلك ، رضى الله عنه .

وكتب الحجاج إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، أصلح الله أمير المؤمنين وأبقاه ، وسهل

حظه وحاطه ولا أعدمناه ، فإن إسماعيل بن أبي المهاجر رسول أمير المؤمنين ـ أعز الله نصره ـ قدِمَ عليّ بكتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، وجعلني من كل مكروه فداءه ، يذكر شتيمتي وتوبيخي بآبائي ، وتعييري بما كان قبل نزول النعمة بي من عند أمير المؤمنين ، أتم الله نعمتَه عليه ، وإحسانه إليه ، ويذكر أمير المؤمنين ، جعلني الله فداه ، استطالةً مني على أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جرأة على أمير المؤمنين ، وغرة بمعرفة غِيره ونقماته وسطواته على من خالف سبيله وعمد إلى غير محبته ونزل عند سخطته وأمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ في قرابته من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إمام الهدى وخاتم الأنبياء ـ أحق من أقال عَثْرتي وعفا عن ذنبي ، فأمهلني ولم يُعجلني عند هفوتي للذي جُبل عليه من كريم طبائعه ، وما قلده الله من أمور عباده ؛ فرأى أمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ في تسكين روعتي وإفراج كربتي ، فقد مُلئت رعباً وفرقا من سطوته ، وفجاءة نقمته ؛ وأمير المؤمنين ـ أقاله الله العثرات ، وتجاوز له [عن] السيئات ، وضاعف له الحسنات ، وأعلى له الدرجات ـ أحق من صفح وعفا ، وتعمد وأبقى ، ولم يشمت بي عدوا مكبا ولا حسوداً مضبا ، ولم يجرّعني غُصصاً ؛ والذي وصف أمير المؤمنين من صنيعته إلي ، وتنويهه لي بما أسند إلي من عمله ، وأوطاني من رقاب رعيته ، فصادق فيه ، مجزي بالشكر عليه ، والتوسل مني إليه بالولاية والتقرب له بالكفاية .

وقد عاين إسماعيل بن أبي المهاجر رسول أمير المؤمنين وحاملُ كتابه نزولي عند مسرة أنس بن مالك ، وخضوعي لكتاب أمير المؤمنين ، وإقلاقه إياي ، ودخوله علي بالمصيبة ، على ماسيعلمه أمير المؤمنين وينهيه إليه ؛ فإن رأى أمير المؤمنين ـ طوّقني الله شكره ، وأعانني على تأدية حقه ، وبلّغني إلى ما فيه موافقةُ مرضاته ومدّ لي في أجله ـ أمر لي بكتاب من رضاه وسلامة صدره ، يؤمّنني به من سفك دمي ، ويردّ ما شرد من نومي ، ويطمئن به قلبي ، [فعلَ] ؛ فقد ورد عليّ أمرٌ جليل خطبُه ، عظيم أمره شديدٌ عليّ كربُه ، أسأل الله أن لا يُسخِط أمير المؤمنين

[علىّ] ، وأن يبتليه فى حزمه وعزمه ، وسياسته وفراسته ، ومواليه وحشمه ، وعماله وصنائعه ، ما يحمَد به حسنَ رأيه ، وبعد همته ، إنه ولى أمير المؤمنين والذابُّ عن سلطانه ، والصانع له فى أمره ، والسلام .

فحدث إسماعيل أنه لما قرأ أمير المؤمنين الكتاب ، قال : يا كاتب ، أفرِخْ رُوعَ أبى محمد . فكتب إليه بالرضا عنه . ٥

سليمان والحجاج

كان سليمان بن عبد الملك يكتب إلى الحجاج فى أيام أخيه الوليد بن عبد الملك كتبا فلا ينظر له فيها ، فكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم . من سليمان بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف ، سلام على أهل الطاعة من عباد الله ، أما بعد ؛ فإنك امرؤٌ مهتوك عنه حجابُ الحق ، مولَعٌ بما عليك لا لك ، منصرف عن منافعك ، تاركٌ لحظِّك ، مستخِفٌ بحق الله ١٠ وحق أوليائه ، لا ما سلف إليك من خير يَعطفك ، ولا ما عليك لا لك يصرفك فى مبهمة من أمرك مغمور منكوس مُقْصَوْصِرٌ عن الحق اعْصِيصارا ، لا تتنكَّب عن قبيح ، ولا ترعوى عن إساءة ، ولا ترجو لله وقارا ؛ حتى دُعيتَ فاحشا سبابا ، فقِس شِبرك بفِترك ، واحذُ زمام نعلٍ بحذو مثلِه فايم الله لئن أمكننى الله منك لأدوسنك دوسة تلين منها فرائصك ، ولأجعلنك شريداً فى الجبال . تلوذ بأطراف الشمال ، ١٥ ولأعلقن الرومية الحمراء بثديها ، علم الله ذلك منى وقضى لى به علىّ : فقِدْماً غرتك العافية . وانتحيت أعراضَ الرجال ؛ فإنك قدَرت فبذِخت ، وظفرت فتعدَّيت ؛ فرُويدَك حتى تنظر كيف يكون مصيرُك إن كانت بى وبك مدة أتعلق بها ، وإن تكن الأخرى فأرجو أن تئول إلى مَذلة ذليلة ، وخَزْية طويلة ، ويجعل مصيرك فى الآخرة شرَّ مصير ! والسلام . ٢٠

فكتب إليه الحجاج : بسم الله الرحمن الرحيم . من الحجاج بن يوسف إلى سليمان ابن عبد الملك ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإنك كتبت إلىّ تذكر أنى امرؤ مهتوك عنى حجابُ الحق ، مولع بما علىّ لا لى ، منصرف عن منافعى ، تارك لحظى ، مستخفٌّ بحق الله وحقِّ ولىِّ الحق ؛ وتذكُر أنك ذو مصاوَلة ؛ ولعمرى إنك لصبىٌّ

حديثُ السن ، تُعذر بقلة عقلك ، وحداثة سنك ويَرقب فيك غيرُك .

فأما كتابك إلىّ فلعمرى لقد ضعف فيه عقلك ، واستخف به حلمك ، فلله أبوك ! أفلا انتصرت بقضاء الله دون قضائك ، ورجاء الله دون رجائك وأمَتّ غيظَك وأمنت عدوك ، وسترت عنه تدبيرك ، ولم تنبِّهه فيلتمس من مكايدتك ما تلتمس من مكايدته ؟ ولكنك لم تستشفّ الأمور علما ، ولم تُرزق من أمرك حزما ، جمعت أموراً دلّاك فيها الشيطان على أسوإ أمرك ، فكان الجفاء من خليقتك ، والحُمْقُ من طبيعتك ، وأقبل الشيطانُ بك وأدبر ، وحدثك أنك لن تكون كاملا حتى تتعاطى ما يعيبك ، فتحذلقت حنجرتُك لقوله ، واتسع جوانبها لكذبه ، وأما قولك لو ملّكك اللهُ لعلّقت زينب ابنة يوسف بثديها ؛ فأرجو أن يُكرمَها الله بهوانك وأن لا يوفق ذلك لك إن كان ذلك من رأيك ؛ مع أنى أعرف أنك كتبت إلى والشيطانُ بين كفيك ، فشرٌ مملٍ على شرّ كاتب راض بالخسف ، فأحرِ بالحق أن لا يدلك على هدى ، ولا يردك إلا إلى ردًى ؛ وتحلب فوك للخلافة ، فأنت شامخ البصر ، طامح النظر تظن أنك حين تملكها لا تنقطع عنك مدتُها ؛ إنها لَلقْطَة الله ، أسأل الله أن يلهمك فيها الشكر ، مع أنى أرجو أن ترغب فيما رغب فيه أبوك وأخوك فأكون لك مثلى لهما ، وإن نفخ الشيطان فى منخريك فهو أمر أراد الله نزعه عنك وإخراجه إلى من هو أكمل به منك ؛ ولعمرى إنها النصيحة فإن تقبلها فمثلُها قُبل ، وإن تردها على اقتطعتُها دونك وأنا الحجاج .

الحجاج والوليد وأم البنين

قدم الحجاج على الوليد بن عبد الملك ، فدخل عليه وعليه درع وعمامة سوداء وقوس عربية ، وكنانة ؛ فبعثتْ إليه أمُّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان : مَن هذا الأعرابى المستلئم فى السلاح عندك وأنت فى غلالة ؟ فبعث إليها : هذا الحجاج بن يوسف . فأعادت الرسول إليه تقول : والله لأن يخلو بك ملك الموت أحبُّ إلىّ من أن يَخلوَ بك الحجاج ! فأخبره الوليد بذلك وهو يمازحه ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ؛ فإنما المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة ؛ فلا تطلعها على سرك ومُكايدة عدوك . فلما دخل الوليد

عليها أخبرها بمقالة الحجاج ؛ فقالت : يا أمير المؤمنين ، حاجتى أن تأمره غداً يأتينى مسلّما . ففعل ذلك ؛ فأتاها الحجاج فحجبته ، فلم يزل قائما ؛ ثم قالت له : إيه ياحجاج ! أنت الممتنّ على أمير المؤمنين بقتالك عبد الله بن الزبير وابن الأشعث ؟ أما والله لولا أن الله علم أنك من شرار خلقه ما ابتلاك برمى الكعبة ، وقتل ابن ذات النطاقين ، أولِ مولودٍ ولد فى الإسلام ؛ وأما نهيُك أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء وبلوغ أوطاره منهن ؛ فإن كن ينفرجن عن مثلك فما أحقه بالأخذ عنك ، وإن كن ينفرجن عن مثله فغيرُ قابلٍ لقولك : أما والله لقد نفض نساءُ أمير المؤمنين الطيب عن غدائرهن فبعْنَه فى أعطية أهل الشام حين كنت فى أضيق من الفرق ، قد أظلتك رماحهم ، وأثخنك كفاحهم ؛ وحين كان أمير المؤمنين أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم ؛ فما نجّاك الله من عدو أمير المؤمنين إلا بحبهم إياه ؛ ولله در القائل إذ نظر إليك وسنانُ غزالة بين كتفيك :

أسدٌ علىّ وفى الحروبِ نعامةٌ * رَبْداء تجفلُ من صفيرِ الصافِرِ
هلاّ بَرَزْتَ إلى غزالة فى الوغَى * بل كان قلبُك فى مخالبِ طائرِ
صَدعَتْ غزالةُ جَمْعَهُ بعساكِرٍ * تَرَكَتْ كتائبَهُ كأمْسِ الدابرِ

ثم قالت : اخرج ! فخرج مذموماً مدحورا .

عبد الملك والحجاج وعروة ابن الزبير

كان عروة بن الزبير عاملا على اليمن لعبد الملك بن مروان ، فاتصل به أن الحجاج مُجْمِع على مطالبته بالأموال التى بيده وعزله عن عمله ؛ ففر إلى عبد الملك وعاذ به تخوّفا من الحجاج واستدفاعا لضرره وشرّه ؛ فلما بلغ ذلك الحجاج كتب إلى عبد الملك بن مروان :

أما بعد فإن لِواذ المعترضين بك ، وحلول الجانحين إلى المكث بساحتك ، واستلانتهم دمث أخلاقك وسعة عفوك ، كالعارض المبرق لأعدائه لايعدم له شائما ، رجاء استمالةِ عفوك ؛ وإذا أدْنَى الناسُ بالصفح عن الجرائم ، كان ذلك تمرينا لهم على إضاعة الحقوق مع كل وال والناس عبيد العصا ، هم على الشدة أشدُّ استباقا منهم على اللين ، ولنا قِبَل عروة بن الزبير مال من مال الله ، وفى استخراجه

منه قطعٌ لطمع غيره ، فليبعث به أمير المؤمنين إن رأى ذلك ، والسلام .

فلما قرأ الكتاب ، بعث إلى عروة ثم قال له : إن كتاب الحجاج قد ورد فيك ، وقد أبى إلا إشخاصَك إليه . ثم قال لرسول الحجاج : شأنك به . فالتفت إليه عروة مقبلا عليه ، وقال : أما والله ماذلٌّ وخَزِيَ من مات ، ولكن ذل وخزى مَن ملكتموه ؛ والله لئن كان المُلك بجواز الأمر ونفاذ النهى ، إن الحجاج لسلطانٌ عليك ، ينفذ أموره دون أمورك ؛ إنك لتريد الأمر يزينك عاجله ويبقى لك أكرومةً آجلُه ، فيجذبك عنه ويلقاه دونك ، ليتولى من ذلك الحكم فيه ، فيحظى بشرف عفو إن كان ، أو بجرم عقوبة إن كانت ؛ وماحاربك من حاربك إلا على أمرٍ هذا بعضُه .

قال : فنظر فى كتاب الحجاج مرة ورفع بصره إلى عروة تارة ، ثم دعا بدواة وقرطاس فكتب إليه :

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين رآك مع ثقته بنصيحتك ، خابطا فى السياسة خبط عشواء الليل ؛ فإنّ رأيك الذى يسوّل لك أن الناس عبيد العصا ، هو الذى أخرج رجالات العرب إلى الوثوب عليك ، وإذا أحرجت العامة بعنف السياسة ، كانوا أوشك وثوبا عليك عند الفرصة ، ثم لايلتفتون إلى ضلال الداعى ولا هداه ، إذا رجوا بذلك إدراك الثأر منك ؛ وقد وليَت العراق قبلك ساسة ، وهم يومئذ أحمى أنوفا ، وأقرب من عمياء الجاهلية ، وكانوا عليهم أصلحَ منك عليهم ، وللشدة واللين أهلون ، والإفراط فى العفو أفضل من الإفراط فى العقوبة ، والسلام .

ابن شهاب والحجاج فى ضعف بصره

زكريا بن عيسى عن ابن شهاب قال : خرجنا مع الحجاج حُجاجا ، فلما انتهينا إلى البيداء وافينا ليلة الهلالِ هلالِ ذى الحجة فقال لنا الحجاج : تبصَّروا الهلال ؟ فأما أنا ففى بصرى عاهة . فقال له نوفل بن مساحق : أو تدرى لِمَ ذلك أصلح الله الأمير ؟ قال : لكثرة نظرك فى الدفاتر .

الأصمعى قال : عُرِضَتِ السجونُ بعد الحجاج ، فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً

لم يجب على واحد منهم قتلٌ ولا صلب ووُجد فيهم أعرابى أُخذ يبول فى أصل مدينة واسط ، فكان فيمن أطلق ؛ فأنشأ الأعرابى يقول :

إذا نحنُ جاوزنا مدينةَ واسِطٍ ٭ خَرِيْنَا وبُلنا لا نخافُ عِقابا

عدة من قتل الحجاج

أبو داود المصحفى عن النضر بن شُميل ، قال : سمعت هشاما يقول : أحصَوْا من قتل الحجاجُ صبراً فوجدوهم مائة ألف وعشرين ألفاً . ٥

خطبة الحجاج فى أهل العراق

وخطب الحجاج أهل العراق فقال : ياأهل العراق ، بلغنى أنكم تروون عن نبيكم أنه قال : « من مَلَك على عشرة رقاب من المسلمين جىء به يوم القيامة مغلولة يداهُ إلى عنقه ، حتى يفكه العدلُ أو يُوبقه الجور» ! وآيم الله إنى لأَحب إلىَّ أن أُحشر مع أبى بكر وعمر مغلولا من أن أحشر معكم مطلقا .

الحجاج يخطب أهل العراق بعد مرضه

١٠ ومرض الحجاج ، ففرح أهل العراق وقالوا : مات الحجاج ! مات الحجاج ! فلما أفاق صعد المنبر وخطب الناسَ فقال :

ياأهل العراق ، ياأهل الشقاق والنفاق ! مرضت فقلتم : مات الحجاج ! أما والله لأحب إلىّ أن أموت من أن لا أموت ، وهل أرجو الخير كله إلا بعد الموت ؟ ومارأيت الله رضى بالخلود فى الدنيا ، لأحد من خلقه إلا لأبغضِ خلقه إليه وأهونِهم عليه : إبليس ؛ ولقد رأيت العبد الصالح يسأل ربه فقال : ١٥ ﴿ رَبِّ هَب لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِن بَعْدِى ﴾ . ففعل ، ثم اضمحل ذلك فكأنه لم يكن .

له حين أراد الحج واستخلف ولده

وأراد الحجاج أن يحج ، فاستخلف محمداً ولده على أهل العراق ، ثم خطب ، فقال :

٢٠ ياأهل العراق ، ياأهل الشقاق والنفاق ، إنى أردت الحج ، وقد استخلفت عليكم محمداً ولدى ، وأوصيتُه فيكم بخلاف ماأوصى به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى الأنصار ؛ فإنه أوصى فيهم أن يقبل من محسنهم ، ويُتجاوز عن مسيئهم ؛ وإنى أوصيتُه أن يَقبل من محسنكم ، وأن لا يتجاوز عن مسيئكم ! ألا وإنكم قائلون بعدى مقالة لايمنعكم من إظهارها إلا خوفى : لا أحسن الله له

الصحابة ! وأنا أعجل لكم الجواب : فلا أحسن الله عليكم الخلافة ! ثم نزل .

وله فى وفاة ابنه

فلما كان غداة الجمعة مات محمد بن الحجاج ، فلما كان بالعشى أتاه بريد من اليمن بوفاة محمد أخيه : ففرح أهل العراق ، وقالوا : انقطع ظَهر الحجاج وهِيض جناحه فخرج فصعد المنبر ثم خطب الناس . فقال :

٥ أيها الناس ، محمدان فى يوم واحد ! أما والله ما كنت أحب أنهما معى فى الحياة الدنيا لِمَا أرجو من ثواب الله لهما فى الآخرة ؛ وآيم الله ليوشكن الباقى منى ومنكم أن يَفنى ، والجديد أن يبلى ، والحىُّ منى ومنكم أن يموت ، وأن تُدال الأرض منا كما أدلْنا منها فتأكل من لحومنا ، وتشرب من دمائنا ، كما مشينا على ظهرها ، وأكلنا من ثمارها ، وشربنا من مائها . ثم نكون كما قال

١٠ الله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فى الصُّورِ فإذا هُمْ مِنَ الأَجْداثِ إلى ربِّهِمْ يَنْسِلونَ ﴾ . ثم تمثل بهذين البيتين :

عزائى نبيُّ الله منْ كلِّ ميِّتٍ ٭ وحسبى ثوابُ اللهِ من كلِّ هالكِ

إذا مالقِيتُ اللّهَ عنِّىَ راضياً ٭ فإنَّ سُرورَ النَّفْس فيما هُنالك

ثم نزل ، وأذن للناس فدخلوا عليه يعزونه . ودخل فيهم الفرزدق . فلما نظر

١٥ إليه قال : يا فرزدق ، أما رئيت محمداً ومحمدا ؟ قال : نعم أيها الأمير وأنشد :

لئن جَزِع الحجّاجُ ، مامِن مُصيبةٍ ٭ تكونُ لمحزونٍ أمَضَّ وأوْجعا ..

.. من المصطفى والمنتَقى مِن نِقايَةٍ ٭ جَناحاهُ لمَّا فارقاهُ وودّعا

جَناحا عتيق فارقاهُ كلاهُما ٭ ولو نُزِعا منْ غيرهِ لتضَعْضَعا

ولو أنّ يَوْمَىْ جُمْعتيْه تتابعا ٭ على شامخٍ صَعْبِ الذُّرى لتصَدّعا

٢٠ سَمِيَّا رسولِ اللهِ سَمَّاهُما به ٭ أبٌ لم يكن عند الحوادثِ أخضعا

قال : أحسنت . وأمر له بصلة . فخرج وهو يقول : والله لو كلّفنى الحجاج بيتاً سادساً لضُرب عنقى قبل أن آتيه به . وذلك أنه دخل ولم يُهيئ شيئا .

قولهم فى الحجاج

العتبي عن أبيه فى الحجاج

الرياشى عن العتبى عن أبيه ، قال : ما رأيت مثل الحجاج . كان زِيه زىَّ شاطر ، وكلامه كلام خارجىّ ، وصولته صولةَ جبار . فسألته عن زِيه فقال : كان يرجّل شعره ويخضب أطرافه .

ولابن مهران فيه

كثير بن هشام عن جعفر بن بُرقان ، قال : سألت ميمون بن مهران ، فقلت : كيف ترى فى الصلاة خلف رجل يذكر أنه خارجى ؟ فقال : إنك لا تصلى له ، إنما تصلى لله ، قدكنا نصلى خلف الحجاج وهو حرورى أزرق ! قال : فنظرت إليه ، فقال : أتدرى ما الحرورى الأزرق ؟ هو الذى إن خالفت رأيه سماك كافراً واستحلَّ دمك ؛ وكان الحجاج كذلك .

ولعمر فيه

أبو أمية عن أبى مُسهر قال : حدثنا هشام بن يحيى عن أبيه قال : قال عمر ابن عبد العزيز : لو جاءت كل أمة بمنافقيها ، وجئنا بالحجاج لفضلناهم .

الحسن وحالف فى شأن الحجاج

وحلف رجل بطلاق امرأته : أن الحجاج فى النار ، فأتى امرأته فمنعته نفسَها فسأل الحسن بن أبى الحسن البصرى ، فقال : لا عليك يابن أخى ، فإنه إن لم يكن الحجاج فى النار ، فما يضرك أن تكون مع امرأتك على زنى .

على بن زيد فى موت الحجاج

أبو أمية عن إسحاق بن هشام عن عثمان بن عبد الرحمن الجمحى عن على بن زيد ، قال : لما مات الحجاج أتيت الحسن فأخبرته ، فخرّ ساجدا .

لإبراهيم فى الحجاج

على بن عبد العزيز عن إسحاق عن جرير بن عبد الحميد عن منصور بن المعتمر قال : قلت لإبراهيم : ما ترى فى لعن الحجاج ؟ قال : ألم تسمع لقول الله تعالى : ﴿ ألا لعنةُ اللهِ على الظّالمين ﴾ ؟ فأشهد أن الحجاج كان منهم .

جابر والحجاج

وكيع عن سفيان عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله ، قال : دخلت على الحجاج فما سلمت عليه .

الرقاشى والحسن فى الحجاج

وكيع عن سفيان قال : قال يزيد الرقاشى عند الحسن : إنى لأرجو للحجاج. قال الحسن : إنى لأرجو أن يخلف الله رجاءك .

أنس وابن سيرين فى دراهم الحجاج

ميمون بن مِهران قال : كان أنس وابن سيرين لا يبيعان ولا يشتريان بهذه الدراهم الحَجّاجيّة .

قال عبد الملك بن مروان للحجاج : ليس من أحد إلا وهو يعرف عيبَ نفسه ، فصِف لى عيوبك . قال : أعْفِنى يا أمير المؤمنين . قال : لابد أن تقول .

٥ قال : أنا لجوج حسود حقود . قال : ما فى إبليس شر من هذا .

ابن عمر فى ولاية الحجاج

أبو بكر بن أبى شيبة قال : قيل لعبد الله بن عمر : هذا الحجاج قد وَلِىَ الحرمين . قال : إن كان خيراً شكرْنا ، وإن كان شرا صبرنا .

للحسن فى قتال الحجاج

ابن أبى شيبة قال : قيل للحسن : ما تقول فى قتال الحجاج ؟ قال : إن الحجاج عقوبة من الله ، فلا تستقبلوا عقوبة الله بالسيف .

الحجاج وصلب ماهان

١٠ ابن فضيل قال : حدثنا أبو نعيم قال : أمر الحجاج بماهان أن يُصلب على بابه ، فرأيته حين رُفعت خشبتُه يسبح ويهلل ويكبر ويعقد بيده ، حتى بلغ تسعا وتسعين ؛ وطعنه رجل على تلك الحال ، فلقد رأيتها بعد شهر فى يده . قال : وكنا نرى عند خشبته بالليل شبيها بالسراج .

عدة قتلى الحجاج

أبو داود المُصحفى عن النضر بن شميل ، قال : سمعت هشاما يقول : أحصَوا ١٥ من قتل الحجاج صبراً فوجدوهم مائة وعشرين ألفاً .

من زعم أن الحجاج كان كافرا

للشعبى

ميمون بن مهران عن الأجلح ، قال : قلت للشعبى : يزعم الناس أن الحجاج مؤمن . قال مؤمن بالجبت والطاغوت ، كافر بالله .

للأعمش

على بن عبد العزيز عن إسحاق بن يحيى عن الأعمش ، قال : اختلفوا فى ١٠ الحجاج فقالوا : بمن ترضون ؟ قالوا : بمجاهد . فأتوه فقالوا : إنا قد اختلفنا فى الحجاج . فقال : أجئتم تسألونى عن الشيخ الكافر ؟

للقاسم

محمد بن كثير عن الأوزاعى ، قال : سمعت القاسم بن محمد يقول : كان الحجاج بن يوسف ينقض عُرى الإسلام عُروة عروة .

لأبي البختري عطاء بن السائب ، قال : كنت جالسا مع أبى البخترى والحجاجُ يخطب ، فقال فى خطبته :

إن مثل عثمان عند الله كمثل عيسى ابن مريم : قال الله فيه : ﴿ إنى مُتَوَفِّيكَ ورافِعُكَ إلىّ ومُطَهِّرُكَ منَ الذين كفَروا وجاعِلُ الذين اتّبعوكَ فوْقَ الذين كفَروا إلى يوْمِ القيامةِ ﴾ . ٥

فقال أبو البخترى : كفر وربِّ الكعبة .

للعلماء ومما كفَّرت به العلماءُ الحجاج ، قوله ورأى الناس يطوفون بقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنبره : إنما يطوفون بأعواد ورِمّة .

لعبد الملك الشيبانى عن الهيثم عن ابن عياش قال : كنا عند عبد الملك بن مروان إذ أتاه كتاب الحجاج يعظم فيه أمر الخلافة ، ويزعم أنْ ماقامت السموات والأرض إلا بها ١٠ وأن الخليفة عند الله أفضل من الملائكة المقربين ، والأنبياء والمرسلين . وذلك أن الله خلق آدم بيده ، وأسجد له الملائكة ، وأسكنه جنته ، ثم أهبطه إلى الأرض وجعله خليفتَه ، وجعل الملائكة رسلا إليه . فأُعجب عبد الملك بذلك ، وقال : لوددت أن عندى بعض الخوارج فأخاصمه بهذا الكتاب ! فانصرف عبد الله بن يزيد إلى منزله ، فجلس مع ضيفانه وحدّثهم الحديث ، فقال له حُوار بن زيد الضبي ، وكان ١٥ هاربا من الحجاج : تَوَثَّقْ لى منه ثم أعلِمْنى به . فذكر ذلك لعبد الملك بن مروان ، فقال : هو آمنٌ على كل مايخاف . فانصرف عبد الله إلى حُوار فأخبره بذلك ، فقال : بالغداة إن شاء الله . فلما أصبح اغتسل ولبس ثوبين ، ثم تحنَّط وحضر باب عبد الملك ، فقال : هذا الرجل بالباب . فقال : أدخله ياغلام . فدخل رجل عليه ثياب بيض يوجد عليه ريح الحنوط ، ثم قال : السلام عليكم . ثم جلس ؛ فقال ٢٠ عبد الملك : إيت بكتاب أبى محمد ياغلام . فأتاه به ، فقال : اقرأ . فقرأ حتى أتى على آخره ، فقال حوار : أراه قد جعلك فى موضعٍ ملَكاً وفى موضعٍ نبيًّا وفى موضع خليفة ؛ فإن كنت ملكا فمن أنزلك ؟ وإن كنت نبيا فمن أرسلك ؟ وإن كنت خليفة فمن استخلفك ؟ أعَن مشورةٍ من المسلمين ، أم ابتززت الناس أمورهم بالسيف ؟

فقال عبد الملك : قد أمناك ولا سبيل إليك ، والله لا تجاورنى فى بلدٍ أبدا ؛ فارحل حيث شئت . قال : فإنى قد اخترت مصر . فلم يزل بها حتى مات عبد الملك .

الربيع

على بن عبد العزيز عن إسحاق بن إسماعيل الطالقانى ، قال : حدثنا جرير عن مُغيرة عن الربيع قال : قال الحجاج فى كلام له : ويْحَكم ! أخليفةُ أحدكم فى أهله أكرمُ عليه أم رسوله إليهم ؟ قال : ففهمت ما أراد ، فقلت له : لله علىّ ألّا أصلى خلفك صلاة أبدا ، ولئن وجدت قوما يقاتلونك لقاتلتك معهم . فقاتَل فى الجماجم حتى قتل .

للحجاج فى أربعة

قيل للحجاج : كيف وجدتَ منزلك بالعراق ؟ قال : خيرَ منزل لو أدركتُ بها أربعةَ [نفَر] فتقرّبتُ إلى الله بدمائهم ، قيل : ومن هم ؟ قال : مقاتل بن مِسمع ، ولى سجستانَ فأتاه الناس فأعطاهم الأموال ، فلما قدم البصرة بسط الناسُ له أرديتهم . فقال : لمثل هذا فليعمل العاملون .

وعبيد الله بن ظبيان ، قام فخطب خطبة أوجز فيها ، فنادى الناسُ من أعراض المسجد : أكثر الله فينا أمثالك ! قال : لقد سألتم الله شططا .

ومعبد بن زُرارة ، كان ذات يوم جالساً على الطريق ، فمرّت به امرأة فقالت : يا عبد الله ، أين الطريق إلى مكان كذا ؟ فغضب وقال : أمِثلى يقال له يا عبد الله ؟

وأبو سماك الحنفى ، أضلّ ناقته فقال : والله لئن لم يردّها علىّ لا صليت له أبداً فلما وجدها قال : علِمَ أنّ يمينى كانت برّة !

قال ناقل الحديث : ونسى الحجاج نفسه وهو خامس الأربعة ، بل هو أفسقُهم وأطغاهم وأعظمُهم إلحاداً وأكفرهم فى كتابه إلى عبد الملك ابن مروان :

إنّ خليفة الله فى أرضه أكرمُ عليه من رسوله إليهم .

وكتابه إليه وبلغه أنه عطس يوما فحمد اللهَ وشمّته أصحابُه فردّ عليه ودعا لهم .

فكتب إليه :

بلغنى ما كان من عطاس أمير المؤمنين ، ومن تشميت أصحابه له وردّه عليهم ؛ فيا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما .

الحجاج وأسرى الجماجم

وكان عبد الملك كتب إلى الحجاج فى أسرى الجماجم أن يعرضهم على السيف ، « فمن أقرّ منهم بالكفر بخروجه علينا فخلّ سبيلَه ، ومن زعم أنه مؤمن فاضرب عنقه » ففعل ، فلما عرضهم أُتى بشيخ وشاب ، فقال للشاب : أمؤمن أنت أم كافر ؟ قال : بل كافر ! فقال الحجاج : لكن الشيخ لا يرضى بالكفر ! فقال له الشيخ : أعَن نفسى تخادعنى يا حجاج ؟ والله لو كان شىء أعظم من الكفر لرضيتُ به ! فضحك الحجاج وخلى سبيلهما .

ثم قدِّم إليه رجل ، فقال له : على دينِ مَن أنت ؟ قال : على دين إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . فقال : اضربوا عنقه .

ثم قدِّم آخر ، فقال له : على دين مَن أنت ؟ قال : على دين أبيك الشيخ يوسف ! فقال : أما والله لقد كان صوّاما قوّاما ، خلّ عنه يا غلام ! فلما خلّى عنه انصرف إليه فقال له : يا حجاج ، سألتَ صاحبى : على دين من أنت ؟ فقال : على دين إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين ؛ فأمرتَ به فقُتل ؛ وسألتنى : على دين من أنت ؟ فقلت : على دين أبيك الشيخ يوسف ، فقلتَ : أما والله لقد كان صوّاما قوّاما ؛ فأمرتَ بتخلية سبيلى ؛ والله لو لم يكن لأبيك من السيئات إلا أنه وَلد مثلَك لكفاه ! فأمر به فقُتل .

ثم أُتى بعمران بن عصام العَنزى ، فقال : عمران ! قال : نعم . قال : ألم أوفدك على أمير المؤمنين ولا يوفَدُ مثلُك ؟ قال : بلى . قال : ألم أزوّجك مارية بنت مسمع سيدة قومها ولم تكن لها أهلا ؟ قال : بلى . قال : فما حملك على الخروج علينا ؟ قال : أخرجنى باذان . قال : فأين كنت من حُجة أهلك ؟ قال : أخرجنى باذان . فأمر رجلا فكشف العمامة عن رأسه ، فإذا هو محلوق ؛ قال : ومحلوق أيضا ؟ لا أقالنى الله إن لم أقتلك ! فأمر به فضُرب عنقه ، فسأل

عبدُ الملك بعد ذلك عن عمران بن عصام ، فقيل له : قتله الحجاج . فقال : ولِمَ ؟ قال : بخروجه مع ابن الأشعث . قال : ما كان ينبغي له أن يقتله بعد قوله [فيه] :

وبعثتَ مِن وَلد الأغرِّ مُعَتِّبٍ ٭ صقرًا يلوذ حَمامُه بالعوسَجِ

٥ فإذا طبختَ بنارِه أنضجْتَها ٭ وإذا طبختَ بغيرها لم تُنضِجِ

وهو الهِزَبْرُ ، إذا أراد فريسةً ٭ لم يُنجِها منه صريخُ الهَجْهَجِ

ثم أُتِيَ بعامر الشعبي ومطرف بن عبد الله الشِّخِّير ، وسعيد بن جبير ؛ وكان الشعبي ومطرِّف يريان التورية ، وكان سعيد بن جبير لا يرى ذلك ؛ فلما قدِّم له الشعبي قال : أكافر أنت أم مؤمن ؟ قال : أصلح الله الأمير ، نبا بنا المنزل ،

١٠ وأجدب بنا الجناب ، واستحلسنا الخوف ، واكتحلنا السهر ، وخبطتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ، ولا فجرة أقوياء . قال الحجاج : صدق والله ، ما بَرُّوا بخروجهم علينا ولا قَوُوا ، خلّيا عنه .

ثم قدِّم إليه مطرِّف بن عبد الله ، فقال له : أكافر أنت أم مؤمن ؟ قال : أصلح الله الأمير ، إن مَن شق العصا ، ونكث البيعة ، وفارق الجماعة ، وأخاف

١٥ المسلمين ـ لجديرٌ بالكفر . فقال : صدق ، خليا عنه .

ثم أُتِيَ بسعيد بن جبير ، فقال له : أنت سعيد بن جبير ؟ قال : نعم . قال : لا ، بل شقي ابن كسير ! قال : أمي أعلمُ باسمي منك . قال : شقيتَ وشقيتْ أمُّك . قال : الشقاء لأهلِ النار ! قال : أكافرٌ أنت أم مؤمن ؟ قال : ما كفرتُ بالله منذ آمنتُ به . قال : اضربوا عنقه .

٢٠ موت الحجاج

مات الحجاج فى آخر أيام الوليد بن عبد الملك ؛ فتفجّع عليه وولّى مكانه يزيدَ بن أبى مسلم كاتب الحجاج ، فاكتفى وجاوز ؛ فقال الوليد : مات الحجاج ووليت مكانه يزيد بن أبى مسلم ، فكنت كمن سقط منه درهمٌ فأصاب دينارا .

وكان الوليد بن عبد الملك يقول : ألا إن أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول : الحجاج جلدة ما بين عيني وأنفي ؛ وأنا أقول : إنه جلدة وجهي كله .

عمر بن عبد العزيز وموت الحجاج

ولما بلغ عمرَ بنَ عبد العزيز موتُ الحجاج خرّ ساجدا ؛ وكان يدعو الله أن يكون موتُه على فراشه ، ليكون أشدَّ لعذابه في الآخرة .

يزيد على قبر الحجاج

أبو بكر بن عياش قال : سُمِعَ صياحُ الحجاج في قبره ؛ فأتوا إلى يزيد بن أبي مسلم فأخبروه ؛ فركب في أهل الشام فوقف على قبره ، فسمع ؛ فقال : يرحمك الله يا أبا محمد ؛ فما تدع القراءة حيًّا وميتا .

يزيد ورجل في الحجاج

الرياشي عن الأصمعي قال : أقبل رجلٌ إلى يزيد بن أبي مسلم فقال له : إني كنت أرى الحجاج في المنام ، فكنت أقول له : ما فعل الله بك ؟ قال : قتلني بكل قتيل قتلتُه قتْلة ، وأنا منتظر ما ينتظره الموحّدون . ثم قال : رأيتُه بعد الحول ، فقلت : ما صنع الله بك ؟ فقال يا عاضّ بظرِ أمّه ! أما سألتَني عن هذا عام أوّل فأخبرتُك ؟ فقال يزيد بن أبي مسلم : أشهد أنك رأيت أبا محمد حقا .

الفرزدق في رثاء الحجاج

وقال الفرزدق : يرثي الحجاج ليرضى بذلك الوليد بن عبد الملك :

لِيبْكِ على الحجاجِ مَن كان باكيًا * على الدِّين مِن مُستوحِشِ الليلِ خائفِ

وأرملَةَ لمَّا أتاها نعيُّه * فجادتْ له بالواكِفاتِ الذَّوارِفِ

وقالت لعبْدَيْها أنِيخا فعجِّلا * فقد مات راعي ذَوْدِنا بالتنائف

فليت الأكفَّ الدافناتِ ابنَ يوسُفٍ * يُقطَّعْنَ إذْ يَحْثِين فوق السقائف

فما ذرَفتْ عيْنانِ بعد محمدٍ * على مثْله إلا نفوسِ الخلائف

قال ابن عياش : فلقيت الفرزدق في الكوفة ، فقلت له : أخبِرني عن قولك :

فليت الأكفَّ الدافنات ابنَ يوسفٍ * يقطَّعنَ . . . .

ما معناك في ذلك ؟ فقال : وددت والله أن أرجلهم تقطع مع أيديهم .

الفرزدق في ابن المهلب

قال ابن عياش : فلما هلك الوليد واستخلف سليمان استعمل يزيد بن المهلب على العراق وأمره بقتل آل أبي عقيل فقتلهم ، فأنشأ الفرزدق يقول :

لئن نفرُ الحجّاج آلُ مُعتّبٍ ٭ لقُوا دولةً كان العدُو يدالُها
لقد أصبحَ الأحياءُ منهم أذلةً ٭ وموتاهُمُ فى النار كُلحاً سِبالها
وكانوا يرَوْنَ الدائراتِ بغيْرِهم ٭ فصار عليهم بالعذابِ انتقالها
وكنّا إذا قلنا آتّقِ اللهَ شمّرتْ ٭ به عِزّةٌ لا يُستطاعُ جِدالها
ألِكْنِى إلى مَن كان بالصِّينِ أورمَتْ ٭ به الهِندَ ألواحاً عليها جِلالها ٥
هلُمَّ إلى الإسلامِ والعدْلِ عندنا ٭ فقد ماتَ من أرضِ العِراقِ خَبالها
ألا تَشكُرون اللهَ إذ فكَّ عنكمُ ٭ أداهِمَ بالمهدِىِّ صُمّا ثقالها
وشِيمت به عنكم سُيوفٌ عليكم ٭ صَباحَ مساءً بالعذابِ آستلالها
وإذ أنتمُ مَن لم يقل أنا كافرٌ ٭ ترَدّى نهاراً عثرةً لا يُقالها

١٠ قال ابن عياش : فقلت للفرزدق : ما أدرى بأىّ قوليك نأخذ ؛ أبمدحِك فى الحجاج حياته ؛ أم هجوِك له بعد موته ؟ قال : إنما نكون مع أحدهم ما كان الله معه ؛ فإذا تخلى عنه تخلينا عنه .

لعمر بن عبد العزيز فى الحجاج

ولما مات الحجاج دخل الناس على الوليد يعزّونه ويثنون على الحجاج خيرا ، وعنده عمر بن عبد العزيز ؛ فالتفت إليه ليقول فيه ما يقول الناس ، فقال : ١٥ يا أمير المؤمنين ، وهل كان الحجاج إلا رجلا منا ؟ فرضِيها منه .

أخبار البرامكة

لابن هارون فيهم

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، حدثنى سهل بن هرون ، قال : والله إن كانوا سجعوا الخطب ، وقرضوا القريض لعيالٌ على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى ؛ ولو كان كلام يتصور درّا ، أو يحيله المنطق السرى جوهرا ، ٢٠ لكان كلامهما والمنتقى من لفظهما ؛ ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد وبديهته وتوقيعاته فى كتبه ـ فدمين عَيِيّيْنِ ، وجاهلين أُمّيّيْن ؛ ولقد عُمِّرتُ معهم وأدركت طبقة المتكلمين فى أيامهم ؛ وهم يرون أن البلاغة لم تستكمل إلا فيهم ، ولم تكن

مقصورة إلا عليهم ، ولا انقادت إلا لهم ؛ وأنهم محضُ الأيام ، ولبابُ الكرام وملح الأنام ، عِتْق منظر وجودةَ مَخبر ، وجزالة منطق ، وسهولة لفظ ، ونزاهة أنفس ، واكتمال خصال ؛ حتى لو فاخرَت الدنيا بقليل أيامهم والمأثورِ من خصالهم كثيرَ أيامِ سواهم من لدن آدم أبيهم إلى النفخ فى الصور وانبعاث أهل القبور - حاشا أنبياء الله المكرمين ، وأهل وحيه المرسلين لَمَا باهتْ إلا بهم ، ولا عوّلت إلا عليهم ، ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم ، وكريم أعراقهم ، وسعة آفاقهم ، ورونق سياقهم ، ومعسول مذاقهم ، وبهاء إشراقهم ، ونقاوة أعراضهم ، وتهذيب أغراضهم ، واكتمال الخير فيهم — فى جنب محاسن الرشيد كالنقطة فى البحر ، والخردلة فى المهمه القفر .

قال سهل بن هارون : إنى لأُحَصِّلُ أرزاق العامة بين يدى يحيى بن خالد فى بناء خلا به داخل سرادقه ، وهو مع الرشيد بالرقة وهو يعقدها جملا بكفه ، إذ غشيتْه سآمةٌ فأخذته سِنةٌ فغلبته عيناه ، فقال : ويحك ياسهل ! طَرَق النومُ شفرى ، وحلت السِّنَةُ جفنَىّ ، فما ذلك؟ قلت : ضيف كريم ، إن قريته روّحك وإن منعته عنّتك ، وإن طردته طلبك ، وإن أقصيته أدركك ، وإن غالبته غلبك ! قال : فنام أقلّ من فُواق بكية ، أو نزع ركيّة ؛ ثم انتبه مذعورا ، فقال : ياسهل لأمرٍ ما كان ! والله لقد ذَهَبَ مُلكنا ، وولّى عِزُّنا ، وانتقضت أيامُ دولتنا ! قلت : وما ذاك أصلح الله الوزير ؟ قال : كأنّ منشداً أنشدنى :

كأنْ لم يكن بين الحجُونِ إلى الصّفا ... أنيسٌ ولم يَسْمُر بمكةَ سامِرُ

فأجبته من غير روية ولا إجالة فكرة :

بلى نحنُ كنا أهلَها فأبادَنا ... صُرُوفُ الليالى والجدودُ العواثِر

قال : فوالله مازلت أعرفها منه وأراها ظاهرة فيه إلى الثالث من يومه ذلك فإنى لفى مقعدى بين يديه أكتب توقيعاتٍ فى أسافل كتبه لطلاب الحاجات إليه ، قد كلفنى إكمال معانيها بإقامة الوزن فيها ، إذ وجدت رجلا سعى إليها حتى ارتمى

مكبًا عليه ، فرفع رأسه فقال : مهلا ويحك ! ما اكْتتم خيرٌ ولا اسْتتر شرٌّ . قال : قتل أمير المؤمنين جعفراً الساعة ! قال : أوقد فعل ؟ قال : نعم . قال : فما زاد أن رمى القلم من يده ، وقال : هكذا تقوم الساعة بغتة .

قال سهل بن هارون : فلو انكفأت السماء على الأرض ما زاد . فتبرأ منهم الحميم ٥ واستبعد عن نسبهم القريب ، وجحد ولاءهم المولى واستعبرت لفقدهم الدنيا ، فلا لسانَ يخطر بذكرهم ، ولا طرف ناظر يُشير إليهم .

يحي بعد مقتل جعفر

وضم يحي بن خالد وقته ذلك الفضل ومحمداً وخالداً بنيه ، وعبد الملك ويحي وخالداً بنى جعفر بن يحي ، والعاصى ومزيدا وخالدا ومعمراً بنى الفضل بن يحي ، ويحي وجعفرا وزيدا بنى محمد بن يحي ، وإبراهيم ومالكا وجعفرا وعمرَ ومعمراً ١٠ بنى خالد بن يحي ، ومن لفّ لفهم أن هجس بصدره أمل فيهم .

الرشيد وسهل بعد مقتل جعفر

[قال سهل] : وبعث إلى الرشيد ، فوالله لقد أُعجلتُ عن النظر ، فلبست ثياب أحزانى ، وأعظم رغبتى إلى الله إلا راحة بالسيف وألا تُعبَثَ بى عَبَثَ جعفر ، فلما دخلت عليه عرف الذعر فى تجرُّض ريق وشخوصى إلى السيف المشهور ببصرى فقال : إيها ياسهل ، من غمط نعمتى وتعدّى وصيتى وجانب موافقتى أعجلته عقوبتى ١٥ قال : فوالله ماوجدتُ جوابها حتى قال : يُفْرِخُ روعُك ويسكن جأشُك وتطيب نفسُك وتطمئن حواسُّك ؛ فإن الحاجة إليك قربت منك ، وأبقت عليك بما يَبسط منقبضك ؛ ويُطلق معقولك ، فما اقْتُصر على الإشارة دون اللسان ، فإنه الحاكم الفاصل ، والحسام الباتر . وأشار إلى مصرع جعفر فقال :

من لم يُؤَدِّبْهُ الجميـ ... ـلُ ففى عقوبتِه صلاحُه

٢٠ قال سهل : والله ما أعلم أنى عييت بجواب أحد قط غير جواب الرشيد يومئذ فما عوّلتُ فى الشكر إلا على تقبيل باطن يديه ورجليه .

ثم قال : اذهب فقد أحللتك محل يحي ، ووهبتك ما ضُمِّنَتْه أفنيته وما حواه سرادقه ؛ فاقبض الدواوين ، وأحصِ حباءه وحباء جعفر لنأمرك بقبضه إن شاء الله .

قال سهل : فكنت كمن نُشر عن كفن وأُخرج من حبس ؛ وأحصيت حباءهما فوجدته عشرين ألف ألف دينار ، ثم قفلت راجعاً إلى بغداد .

وفرّق البُرُد إلى الأمصار بقبض أموالهم وغلاتهم ، وأمر بجيفة جعفر وجثته ففصلت على ثلاثة جذوع : رأسه فى جذع على رأس الجسر مستقبل الصّراط ، وبعض جسده على جذع بالجزيرة ، وسائره فى جذع على آخر الجسر الثانى مما يلى باب بغداد . ٥

فلما دنونا من بغداد ، طلع الجسر الذى فيه وجه جعفر ، واستقبلنا وجهه واستقبلته الشمس ؛ فوالله لخلْتُها تطلع من بين حاجبيه ؛ فأنا عن يمينه وعبد الملك ابن الفضل الحاجب عن يساره ، فلما نظر إليه الرشيد ـ وكأنما قنأ شعره وطلى بنور بشره ـ اربدّ وجهُه وأغضى بصره ؛ فقال عبد الملك بن الفضل : لقد عظم ذنب لم يسعْه أمير المؤمنين ! قال الرشيد : من يَرِدْ غير مائه يصدر بمثل دائه ، ومن أراد فهم ذنبه يوشك أن يقوم على مثل راحلته ؛ علىّ بالنضاخات . فنضح عليها حتى احترقت عن آخرها وهو يقول : لئن ذهب أثرك لقد بقى خبرُك ، ولئن حط قدرُك لقد علا ذِكرك ! ١٠

قال سهل بن هارون : وأمر بضم أموالهم ، فوجد من العشرين ألف ألف التى كانت مبلغ جباياتهم ، اثنى عشر ألف ألف مكتوباً على بِدَرِها صكوكٌ مختومة تفسيرها رقيا حَبَوا بها . فما كان منها حِباء على غريبة ، أو استطراف مُلحة ؛ تصدق به يحيى وأثبت ذلك فى ديوانها على تواريخ أيامها ، فكان ديوان إنفاق واكتساب فائدة . وقبض من سائر أموالهم ثلاثين ألف ألف وستمائة ألف وستة وسبعين ألفا ، إلى سائر ضياعهم وغلاتهم ودورهم ورياشهم والدقيق والجليل من مواهبهم ، فإنه لا يوصف أقلّه ، ولا يعرف أيسرَه إلا من أحصى الأعمال وعرف منتهى الآجال . ١٥ ٢٠

وأُبرزت حرمُه إلى دار البانوقة ابنة المهدى ؛ فوالله ما علمته عاش ولا عشْنَ إلا من صدقات من لم يزل متصدقا عليه ؛ وما رأوا مثل الرشيد فيما يُعلم من ملك قبله على أحد ملكه .

بين أم جعفر والرشيد

وكانت أم جعفر بن يحيى ، وهى فاطمة ابنة محمد بن الحسين بن قحطبة ، أرضعت الرشيدَ مع جعفر ؛ لأنه كان رُبِّى فى حجرها وغذى برسلها ، لأن أمه ماتت عن مهده ، فكان الرشيد يشاورها مظهراً لإكرامها والتبرُّك برأيها ، وكان آلى وهو فى كفالتها أن لايحجبها ، ولا استشفعته لأحد إلا شفعها ؛ وآلت عليه أم جعفر أن لادخلت عليه إلا مأذوناً لهـا ، ولا شفعت لأحد لغرض دنيا .

قال سهل : فكم أسير فكَّت ، ومبهم عنـده فتحت ، ومستغلق منه فرَّجت . واحتجب الرشيد بعد قدومه ، فطلبت الإذن عليه من دار الياقوتة ، ومتَّت بوسائلها إليه ؛ فلم يأذن لها ولا أمر بشيء فيها ؛ فلما طال ذلك بها خرجت كاشفةً وجهها واضعة لثامها محتفية فى مشيها ، حتى صارت بباب قصر الرشيد ؛ فدخل عبد الملك ابن الفضل الحاجب ، فقال : ظِئْرُ أمير المؤمنين بالباب ، فى حالة تقلب شماتة الحاسد إلى شفقة أم الواحد ! فقال الرشيد : ويحك يا عبد الملك ! أوَ ساعية ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين حافية ! قال أدخلها يا عبد الملك ، فرُبَّ كبدٍ غذتها ، وكربة فرجتها ، وعورة سترتها ! قال سهل : فما شككتُ يومئذ فى النجاة بطلبتها ، وإسعافِها بحاجتها . فدخلت ، فلما نظر الرشيد إليها داخلة محتفية ، قام محتفياً حتى تلقَّاها بين عَمد المجلس ، وأكب على تقبيل رأسها ومواضع ثديها ؛ ثم أجلسها معه ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، أيعدو علينا الزمان ويجفونا خوفا لك الأعوان ، ويحردك عنا البهتان وقد ربيتك فى حجرى ، وأخذتُ برضاعك الأمان من عدوى ودهرى ؟ فقال لها : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ قال سهل : فآيسنى من رأفته ، بتركه كنيتها آخِراً ما كان أطمعنى من برِّه بها أولا ، قالت : ظئرك يحيى وأبوك بعد أبيك ، ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أميرُ المؤمنين من نصيحته ، وإشفاقه عليه ، وتعرُّضه للحتف فى شأن موسى أخيه . قال لها : يا أمَّ الرشيد ، أمرٌ سَبق ، وقضاءٌ حُمّ ، وغضبٌ من الله نَفذ ! قالت : يا أمير المؤمنين ، يمحو الله مايشاء ويُثبت وعنده أُمُّ الكتابِ ، قال : صدقتَ . فهذا مما لم يمحُه الله ! فقالت : الغيب محجوب عن النبيين ، فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟ قال سهل بن هارون :

فأطرق الرشيد مليا ، ثم قال :

وإذا المنيّةُ أنشبت أظفارَها ⁂ ألفيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

فقالت بغير روية : ما أنا ليحيي بتميمة يا أمير المؤمنين ، وقد قال الأول :

وإذا افتقَرتَ إلى الذخائرِ لم تجد ⁂ ذُخراً يكونُ كصالحِ الأعمالِ

هذا بعد قول الله عز وجل ﴿ والـكاظِمِينَ الغيْظَ والعافِينَ عنِ النّاسِ والله يُحِب المحسِنينَ ﴾ . فأطرق هرونُ مليا ، ثم قال : يا أمَّ الرشيد ، أقول : ٥

إذا انصَرفتْ نفسِي عنِ الشيْءِ لم تـكد ⁂ إليـهِ بوجهٍ آخِرَ آلدّهرِ تُقبِلُ

فقالت : يا أمير المؤمنين ، وأقول :

ستَقطعُ فى الدُّنيا إذا ما قطَعْتَنى ⁂ يمينَكَ ، فانظُر أىَّ كفٍ تبدِّلُ

قال هارون : رضيت ! قالت : فهبه لى يا أمير المؤمنين ؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ مَن ترَك شيئاً للهِ لم يُوجِدهُ آللهُ لِفقدِه ﴾ . فأكب هرون مليا ، ثم رفع رأسه يقول : لله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ ! قالت : يا أمير المؤمنين ، ﴿ ويوْمَئِذٍ يَفرحُ المؤمِنون بِنصرِ آللهِ يَنصرُ مَن يَشاءُ وهُو العزيزُ الرَّحيمُ ﴾ ؛ واذكر يا أمير المؤمنين أليّتَك : ما استشفعتُ إلا شفعتنى ! قال : واذكرى يا أم الرشيد أليّتَك لاشفعتِ لمقترفٍ ذنباً . قال سهل بن هارون : فلما رأته صرّح بمنعها ولاذ عن مطلبها ، أخرجتْ حُقا من زبرجدة خضراء فوضعتْه بين يديه ؛ فقال الرشيد : ما هذا ؟ ففتحتْ عنه قفلا من ذهب فأخرجتْ منه قميصه وذوائبه وثناياه ، قد غَمست جميع ذلك فى المسك ؛ فقالت : يا أمير المؤمنين ، أستشفع إليك وأستعين بالله عليك وبمـا صار معى من كريم جسدك وطيب جوارحك ليحيي عبدِك . فأخذ هرون ذلك فلثمه ، ثم استعبر وبكى بكاء شديداً ، وبكى أهل المجلس ، ومر البشيرُ إلى يحيي وهو لايظن إلا أن البكاء رحمةٌ له ورجوعٌ عنه ، فلما أفاق رمى جميع ذلك فى الحُقّ ، وقال لها : لحسناً ماحفظت الوديعة ! قالت : وأهلٌ للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين !

١٠

١٥

٢٠

فسكت وأقفل الحق ودفعه إليهـا ، وقال : ﴿ إنّ الله يَأمُرُكُمْ أنْ تُؤدُّوا

الأماناتِ إلى أهلِها ﴾ . قالت : والله يقول : ﴿ وإذا حكمتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بالعَدْلِ ﴾ ؛ ويقول : ﴿ وأَوْفُوا بِعَهدِ الله إذا عاهَدْتُمْ ﴾ . قال : وما ذاك يا أم الرشيد ؟ قالت : ما أقسمت لى به أن لاتحجبنى ولا تجبهنى قال : أحب يا أم الرشيد أن تشتريه محكَّمةً فيه . قالت : أنصفت يا أمير المؤمنين ، وقد فعلتُ غير مستقيلةٍ لك ، ولا راجعةٍ عنك . قال : بكم ؟ قالت : برضاك عمن لم يُسخِطْك ! قال : يا أم الرشيد ، أما لى عليك من الحق مثلُ الذى لهم ؟ فتحكَّمى فى ثمنيةٍ بغيرهم . قالت : بلى قد وهبتُكه وجعلتُك فى حِلٍّ منه ؟ وقامت عنه ، وبقى مبهوتا ما يُحير لفظة . قال سهل : وخرجت فلم تَعُد ، ولا والله ما رأيتُ لها عبرة ولا سمعت لها أنَّة .

١٠ قال سهل : وكان الأمين محمد بن زُبيدة رضيع يحيي بن جعفر ، فمتَّ إليه يحيي بن خالد بذلك ، فوعده استيهاب أمِّه إياهم وتكليمها فيهم ؛ ثم شغله اللهو عنهم ، فكتب إليه يحيي ، ويقال : إنها لسليمان الأعمى أخى مسلم بن الوليد ، وكان منقطعاً إلى البرامكة ـ يقول :

يا مَلاذِي وعِصْمَتِي وعِمَادِي * ومُجِيرِي مِنَ الخُطُوبِ الشِّدادِ

١٥ بِكَ قام الرَّجاءُ فى كلِّ قَلْبٍ * زاد فيه البَلاءُ كلَّ مَزاد

إنما أنتَ نِعمةٌ أعْقبَتْها * نِعمٌ نَفْعُها لِكلِّ العِبادِ

وَعْدَ مولاك أتمِمَنْهُ فأَبهى الدُّ * رِّ ما زيد حُسنُهُ بانعقادِ

ما أَظَلَّتْ سَحائبُ اليأسِ إلَّا * كانَ فى كشفِها عليكَ اعتِمَادِي

إن تَراختْ يداكَ عنِّى فُوَاقاً * أكلتْنِي الأيامُ أكلَ الجرادِ

٢٠ وبعث بها الأمين محمد ، فبعث بها الأمين محمدٌ إلى أمه زبيدة ، فأعطتها هرون وهو فى موضع لذته وعند إقبال أريحيَّته ، وتهيأت للاستشفاع لهم ، وعبَّأت جواريَها ومغنِّياتِها وأمرتهن بالقيام معها إذا قامت ؛ فلما فرغ الرشيد من قراءتها لم ينقض حبوتَه حتى وقَّع فى أسفلها : عِظَمُ ذنبِكَ أماتَ خواطرَ العفوِ عنك ! ورمى بها إلى زبيدة ، فلما رأت توقيعه علمت أنه لا يرجع عنه .

الرشيد وإسحاق بن على فى البرامكة

وقال بعض الهاشميين : أخبرنى إسحاق بن على بن عبد الله بن العباس ، قال : كنت أساير الرشيد يوما والأمينُ عن يمينه والمأمون عن شماله ؛ فاستدْنانى وقدمهما أمامه ، فسايرْته ، فجعل يحدثنى ، ثم بدأ يشاورنى فى أمر البرامكة ، وأخبرنى بما أضمَر عليه لهم ، فإنهم استوحشوه من أنفسهم ، وإنى عنده بالموضع الذى لا يكتمنى شيئاً من أمرهم . فقلت : يا أمير المؤمنين ، لا تنقلنى من السّعة إلى الضيق ! فقال الرشيد : إلا أن تقول ؛ فإنى لا أتهمك فى نصيحة ولا أخافك على رأى ولا مشورة ! فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنى أرى نفاستك عليهم بما صاروا إليه من النعمة والسّعة ، ولك أن تأمر وتنهَى ، وهم عبيد لك بإنباتك إياهم ؛ فهل ذلك كلُّه إلا بك ؟ — قال : وكنت أحطب فى حبال البرامكة — فقال لى : فضياعهم ليس لولدى مثلُها وتطيبُ نفسى بذلك لهم ! فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن الملِك لا يَحْسُد ، ولا يَحْقِد ، ولا يُنْعِمُ نعمةً ثم يُفْسد نعمتَه . قال : فرأيته قد كرِه قولى وزوى وجهه عنى .

قال إسحاق : فعلمت أنه سيُوقِعُ بهم ، ثم انصرفتُ فكتمت الخبر فلم يسمع به أحد ، وتجنبت لقاء يحيى والبرامكة خوفاً أن يظن أنى أفضى إليهم بسرِّه ، حتى قتلهم ، وكان أشدّ ما كان إكراما لهم ؛ وكان قتلهم بعد ست سنين من تاريخ ذلك اليوم .

يحيى ومنكة الهندى

وكان يحيى بن خالد بن برمك قد اعتلّ قبل النازلة التى نزلت بهم ، فبعث إلى منكة الهندى فقال : ماذا ترى فى هذه العلة ؟ فقال منكة : داء كبير دواؤه يسير ، والصبر أيسر ؛ وكان متفننا . فقال له يحيى : ربما ثقل على السمع خطْرَةُ الحق به ، وإذا كان ذلك كان الهجر له ألزمَ من المفاوضة [فيه] . قال منكة : لكننى أرى فى الطالع أثراً والأمَدُ فيه قريب ، وأنت قسيمٌ فى المعرفة ، وربما كانت صورة النجم عقيمةً لا نتاج لها ، ولكن الأخذ بالحزم أوفى لحظّ الطالبين . قال يحيى : الأمور منصرفة إلى العواقب ، وما حُتِمَ فلا بد أن يقع ، والمَنَعة بمُسالمة الأيام نهزة ، فاقصد ما دعوتك له من هذا الأثر الموجود بالمزاج . قال منكة : هى

الصفراء مازجتها مائية البلغم ، لحدث لذلك ما يحدث من اللهب عند مُماسّة رطوبة الماء من الاشتعال ؛ فخذ ماء الرمان فدق فيه إهليلجة سوداء تُنهضك مجلسا أو مجلسين ، ويسكن ذلك التوقد إن شاء الله .

فلما كان من أمرهم ما كان ، تلطّف منكة حتى دخل الحبس ، فوجد يحيى قاعداً على لبْد ، والفضل بين يديه يخدمه ؛ فاستعبر منكة باكيا ، وقال : كنتُ ناديتُ لو أسرعتَ الإجابة . قال له يحيى : أتُراك كنت علمت من ذلك شيئا جهلته ؟ قال : كلا كان الرجاء للسلامة بالبراءة من الذنب أغلب من الشفق ، وكانت مزايلة القدْر الخطير عنا أقل ما تُنْقض تَنهض به التُهمة ، فقد كانت نقمة أرجو أن يكون أولُها صبراً ، وآخرها أجراً . قال : فما تقول فى هذا الداء ؟ قال : منكة : ما أرى له دواء أنفعَ من الصبر ، ولو كان يُفدى بمالٍ أو بمفارقة عضو كان ذلك مما يجب لك . قال يحيى : قد شكرت لك ما ذكرت ، فإن أمكنك تعاهدنا فافعل . قال منكة : لو أمكننى تخليف الروح عندك ما بخلت به ، فإنما كانت الأيام تحسن بسلامتك .

من يحيى فى حبسه إلى الرشيد

وكتب يحيى بن خالد فى الحبس إلى هارون الرشيد :

لأمير المؤمنين ، وخليفة المهديين ، وإمام المسلمين ، وخليفة رب العالمين ، من عبد أسلمتْه ذنوبه ، وأوبقتْه عيوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه صديقه ، ومال به الزمان ، ونزل به الحدثان ، [فحلّ فى الضّيق بعد السعَة] وعالج البؤس بعد الدَّعة وافترش السخط بعد الرضا ، واكتحل السهاد بعد الهجود ، ساعتُه شهر ، وليلتُه دهر ، وقد عاين الموت ، وشارف الفَوْت ، جزعا لموجِدَتك يا أمير المؤمنين ، وأسفا على ما فات من قربك ، لا على شىء من المواهب ؛ لأن الأهل والمال إنما كانا لك ، وبك وكانا فى يدىّ عارية ، والعارية مردُودة ؛ وأما ما أُصبتُ به من ولدى فبذنبه ، ولا أخشى عليك الخطأ فى أمره ، ولا أن تكون تجاوزت به فوق حده .

تفكَّرْ فى أمرى ، جعلنى الله فداك ، وليَمِل هواك بالعفو عن ذنب إن كان

فمن مثلى الزلل ومن مثلك الإقالة ؛ وإنما أعتذر إليك بإقرار ما يجب به الإقرار حتى ترضى ، فإذا رضيت رجوت إن شاء الله أن يتبين لك من أمرى وبراءة ساحتى ما لا يتعاظمك بعده ذنب أن تغفره . مدّ الله لى فى عمرك وجعل يومى قبل يومك !

وكتب إليه بهذه الأبيات : ٥

قل للخليفةِ ذى الصّنيـــعةِ والعطايا الفاشيَهْ
وابنِ الخلائفِ من قريْـــشٍ والملوكِ العاليَهْ
إنّ البرامكةَ الذيـــن رُمُوا لديْك بداهيَهْ
صُفْرُ الوُجوهِ عليهمُ * خِلَعُ المذلّةِ باديهْ
فكأنهم ممّا بِهمْ * أعجازُ نخلٍ خاوِيهْ ١٠
عمّتْهم لك سَخْطةٌ * لم تُبْقِ منهم باقيه
بعد الإمارةِ والوِزا * رة والأمورِ الساميهْ
ومنازلٍ كانت لهمْ * فوق المنازلِ عاليه
أضحَوْا وجُلُّ مُناهمُ * منك الرّضا والعافيَهْ
يا من يَوَدُّ لىَ الرّدَى * يكفيك منّى ما بِيَهْ ١٥
يكفيك ما أبصرْتَ من * ذُلّى وذُلّ مكانيه
وبُكاءِ فاطمةَ الكئيـــبةِ والمدامعُ جاريهْ
ومقالها بتوجّعٍ * يا سوْأتى وشَقائيه
من لى وقد غضِب الزّما * نُ على جميعِ رجاليه
يا لهفَ نفسى لهفَها * ما للزّمانِ وماليه ٢٠
يا عطفةَ الملِكِ الرّضا * عُودِى علينا ثانيه

فلم يكن له جواب من الرشيد .

عهد يحيى إلى الرشيد

واعتلّ يحيى فى الحبس ، فلما أشفى دعا برقعة فكتب فى عنوانها : ينفذ

أمير المؤمنين عهد مولاه يحيى بن خالد . وفيها مكتوب :

بسم الله الرحمن الرحيم . قد تقدم الخصم إلى موقف الفصل ، وأنت على الأثر ، والله حكمٌ عدْل ، وستَقْدَم فتعلم .

فلما ثقل قال للسجان : هذا عهدى توصِّله إلى أمير المؤمنين ، فإنه ولىُّ نعمتى ، وأحق من نفّذ وصيتى .

فلما مات يحيى أوصل السجان عهده إلى الرشيد .

جواب الرشيد

قال سهل بن هارون : وأنا عند الرشيد إذ وصلت الرقعة إليه ، فلما قرأها جعل يكتب فى أسفلها ولا أدرى لمن الرقعة ، فقلت له : يا أمير المؤمنين، ألا أكفيك ؟ قال : كلا ، إنى أخاف عادة الراحة أن تُقوِّىَ سلطان العجز ! فيحكم بالغفلة ويقضى بالبلادة ! ووقع فيها : الحكَمُ الذى رضيت به فى الآخرة لك هو أعدى الخصوم عليك ، وهو من لا ينقض حكمه ، ولا يُرَدُّ قضاؤه . قال : ثم رمى بالصك إلىّ فلما رأيته علمت أنه ليحيى ، وأن الرشيد أراد أن يؤثر الجواب عنه .

لدعبل فى البرامكة

وقال دعبل يرثى بنى برمك :

ولمّا رأيت السيْفَ جَلَّل جَعْفراً * ونادى مُنادٍ للخليفة فى يَحيَى

بكيْتُ على الدنيا وأيقنْتُ أنما * قُصَارى الفتَى يوما مُفارَقة الدُّنيا

لسليمان الأعمى

وقال سليمان الأعمى يرثى بنى برمك :

هَدَا الخالونَ عن شجْوى وناموا * وعيْنى لا يُلائمها المنام

وما سَهَرى بأنى مُستَهامٌ * إذا سهِرَ المُحِبُّ المُستَهامُ

ولكنّ الحوادثَ أرّقتْنى * فلى أرَقٌ إذا هَجع النِّيامُ

أُصِبْتُ بسادةٍ كانوا عُيونا * بهم نُسقَى إذا انقطَع الغمام

فقلت وفى الفؤادِ ضريمُ نارٍ * وللعَبراتِ من عيْنى انسِجام

على المعروف والدنيا جميعًا * ودوْلةِ آلِ برمكٍ السّلام

جزِعتُ عليك يافضلُ بنَيحيَى * ومن يجزَعْ عليك فلا يُلامُ

هوتْ بك أنجُم المعروفِ فينا * وعزّ بفقْدِك القومُ اللئامُ
وما ظلَمَ الإلهُ أخاك لكن * قضاءٌ كان سبّبه اجترام
عقابُ خليفةِ الرّحمنِ فخرٌ * لمن بالسيْفِ صَبّحه الحِمَامُ
عجِبْت لمَا دها فضل بن يحيَى * وما عجَبى وقد غضِب الإمام
جرى فى الليْلِ طائرُهمْ بنحْسٍ * وصَبّح جعفراً منه اصطِلامُ
ولم أرَ قبل قتْلِك يابن يحيَى * حُسَاماً قدّهُ السيفُ الحُسام
بُرِيْن الحادثاتُ له سِهاما * فغالته الحوادثُ والسّهام
لِيَهْنِ الحاسدين بأنّ يحيَى * أسيرٌ لا يضيمُ ويُسْتضامُ
وأنّ الفضل بعد رداءِ عِزّ * غدَا ورداؤهُ ذالٌّ ولامُ
فقل للشّامتين بهم جميعاً * لكم أمثالُها عامٌ فعَامُ
أمينَ اللهِ فى الفضلِ بن يحيَى * رضيعكَ والرّضيعُ له ذمام
أبا العبّاس ، إنّ لكلّ همٍّ * وإنْ طال انقِراضٌ وانصرام
أرى سببَ الرِّضاء له قَبولٌ * على الله الزِّيادة والتّمام
وقد آليْتُ فيه بصوْمِ شهرٍ * فإنْ تمّ الرِّضا وجب الصِّيام
وقد آليْت مُعتزماً بنذْرٍ * ولِى فيما نَذرتُ به اعتِزام
بأنْ لا ذُقْتُ بعدكمُ مُداماً * وموتى أن يُفارقَنى المُدام
أألْهُوا بعدكم وأقَرُّ عيناً ؟ * علىّ اللّهوُ بعدكم حرام
وكيف يطيب لى عيْشٌ وفضلٌ * أسيرٌ دونَه البلد الشّآم
وجعفر ثاوياً بالجسر أبلَت * محاسنَه السمائمُ والقتام
أمُرُّ به فيَغلِبنى بُكائى * ولكنّ البكاء له اكتتام
أقول وقمت مُنْتصباً لديه * إلى أن كاد يفضحُنى القيام
أما والله لولا خوفُ واشٍ * وعينٌ للخليفة لا تنام
لطفنا حَوْل جِذْعِك واستلَمنا * كما للناس بالحجَر استِلامُ

الشاعر في إثارة الرشيد على بنى برمك

وقال بعض الشعراء يُغرى هارون ببنى برمك :

قل للخليفةِ ياكنفائهْ * دونَ الأنامِ بحسن رائهْ
إمّا بدأتَ بجعفـرٍ * فاسق البرامكَ من إنائهْ
ما بَرْمكىٌّ بعـده * تقف الظنونُ على وفائهْ
إنى وقصـد البرمكـىِّ إلى انتكاثٍ من شَقائهْ ٥
فلقـد رفعت لجعفرٍ * ذِكْرَيْنِ قَلّا فى جزائه
فارفع ليحيى مثـله * ما العودُ إلا مِن لحائه
واخضب بصدرِ مُهنّدٍ * عُثْنونَ يحيى من دمائهْ

ابن المهدى وجعفر وعبد الملك

إبراهيم بن المهدى قال : قال لى جعفر بن يحيى يوما : إنى استأذنت أمير المؤمنين
١٠ فى الحجامة ، وأردت أن أخلو بنفسى وأفرّ من أشغال الناس وأتوحّد ، فهل أنت مساعدى ؟ قلت : جعلنى الله فداك ، أنا أسعد بمساعدتك وآنَسُ بمخالاتك .
فقال : بَكِّر إلىّ بكور الغراب . قال : فأتيت عند الفجر الثانى فوجدت الشمعة بين يديه وهو قاعد ينتظرنى للميعاد . قال : فصلينا ثم أفضنا فى الحديث ، حتى أتى وقتُ الحِجامة ، فأتى الحَجّام ، فحجَمنا فى ساعة واحدة ، ثم قُدِّم إلينا الطعام فطعِمْنا
١٥ فلما غسلنا أيدينا خُلع علينا ثياب المنادمة وضمخنا بالخَلوق ، وظللنا بأسرِّ يوم مَرّ بنا ؛ ثم إنه تذكر حاجة ، فدعا الحاجب فقال له : إذا جاء عبد الملك القهرمان فأْذن له . فنسى الحاجب وجاء عبد الملك بن صالح الهاشمى على جلالته وسنّه وقدره وأدبه ، فأذن له الحاجب ، فما راعنا إلا طلعة عبد الملك بن صالح ، فتغيّر لذلك وجه جعفر بن يحيى ، وتنغّص عليه ما كان فيه ؛ فلما نظر إليه عبد الملك على تلك
٢٠ الحالة ، دعا غلامه ، فدفع إليه سيفَه وسوادَه وعمامته ، ثم جاء فوقف على باب المجلس ، فقال : اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم ! قال : فجاء الغلام فطرح عليه ثياب المنادمة ؛ ودعا بطعام فطعم ؛ ثم دعا بالشراب فشرب ثلاثا ، ثم قال : ليخفّف عنى ، فإنه شىء ما شربتُه قط ! فتهلل وجه جعفر فرحا ، وقد كان الرشيد حاور عبد الملك على المنادمة فأبى ذلك وتنزّه عنه ؛ ثم قال له جعفر بن يحيى : جعلنى الله فداك ؛

قد تفضلتَ وتطوّلت ، فهل من حاجة تبلُغها مقدرتى ، وتحيط بها نعمتى ، فأقضيَها لك مكافأةً لما صنعت ؟ قال : بلى ، إن قلب أمير المؤمنين عاتبٌ علىّ ، فتسأله الرضا عنى . فقال قد رضى عنك أمير المؤمنين ! ثم قال [عبد الملك] : وعلىّ أربعة آلاف دينار . قال : هى حاضرةٌ ، ولكن من مال أمير المؤمنين أحبُّ إلىّ من مالى . قال : وابنى إبراهيم أحبُّ أنْ أشدّ ظهرَه بمصاهرة أمير المؤمنين . قال : قد زوّجه أميرُ المؤمنين ابنته عائشة العالية . قال : وأحب أن تخفق الألوية على رأسه بولاية . قال : وقد ولاه أميرُ المؤمنين مصر !

قال : فانصرف عبد الملك ونحن نَعجب من إقدام جعفر على الرشيد من غير استئذان ، فلما كان الغدُ وقفنا على باب أمير المؤمنين ، ودخل جعفر فلم يلبث أن دعا بأبى يوسف القاضى ، ومحمد بن الحسن ، وإبراهيم بن عبد الملك فعقد له النكاح ، وحُملت البِدَر إلى عبد الملك ، وكتب سجل إبراهيم على مصر ؛ وخرج جعفر ، فأشار إلينا ، فلما صار إلى منزله ونحن خلفه نزل ونزلنا بنزوله ، فالتفت إلينا فقال : تعلّقت قلوبكم بأول أمر عبد الملك فأحببتم أن تعرفوا آخره وإنى لمّا دخلت على أمير المؤمنين ومَثَلتُ بين يديه سألنى عن أمسى ، فابتدأت أحدثه بالقصة من أولها إلى آخرها ، فجعل يقول أحسنَ والله ! أحسن والله ! ثم قال : فما أجبتَه ؟ فجعلت أخبره ، وهو يقول فى كل شىء : أحسنتَ ! وخرج إبراهيم واليا على مصر .

من أخبار الطالبيين

حفاوة السفاح

حدّث عبدُ العزيز بن عبد الله البصرى ، عن عثمان بن سعيد بن سعد المدنى ، قال : لما ولى الخلافة أبو العباس السفاح قدم عليه بنو الحسن بن على بن أبى طالب ، فأعطاهم الأموال وقطع لهم القطائع ، ثم قال لعبد الله بن الحسن : احتكم علىّ . قال : يا أمير المؤمنين ، بألف ألف درهم ، فإنى لم أرها قط . فاستقرضها أبو العباس من ابن أبى مقرّن الصيرفى ، وأمر له بها .

قال عبد العزيز : لم يكن يومئذ بيت مال .

ثم إن أبا العباس أتى بجوهر مروان فجعل يقلبه وعبد الله بن الحسن عنده، فبكى عبد الله، فقال له : مايبكيك يا أبا محمد؟ قال : هذا عند بنات مروان وما رأتْ بناتُ عمك مثلَه قط ؟ قال : فحباه به ، ثم أمر ابن مقرِّن الصيرفىّ أن يصل إليه ويبتاعه منه ، فاشتراه منه بثمانين ألف دينار . ثم حضر خروج بنى حسن فأرسل معهم رجلا من ثقاته ، ثم قال له : قم بإنزالهم ولا تألُ فى إلطافهم ؛ وكلما خلوت معهم فأظهر الميل إليهم والتحامل علينا وعلى ناحيتنا ، وأنهم أحق بالأمر منا ، وأحصِ لى ما يقولون وما يكون منهم فى مسيرهم ومقدَمهم .

استيحاش السفاح من ابن حسن

ومما كان خشّن قلب أبى العباس حتى أساء بهم الظن ، أنه لما بنى مدينة الأنبار دخلها مع أبى جعفر أخيه وعبدِ الله بن الحسن ، وهو يسير بينهما ويريهما بنيانه وما أقام فيها من المصانع والقصور ؛ فظهرت من عبد الله بن الحسن فلتة ، فجعل يتمثل بهذه الأبيات :

ألم تَرَ جَوْشَنًا قد صار يَبْنِي ٭ قُصوراً نفعُها لِبَنِي نُفيْله

يُؤَمِّلُ أن يُعمَّرَ عُمْرَ نوحٍ ٭ وأَمْرُ ٱللهِ يَحْدُثُ كلَّ ليْله !

قال : فتغير وجه أبى العباس ؛ وقال له أبو جعفر : أتراهما ابنيك أبا محمدٍ والأمر إليهما صائر لا محالة ؟ قال : لا والله ماذهبتُ هذا المذهب ولا أردتُه ، ولا كانت إلا كلمة جرت على لسانى لم ألق لها بالا .

فأوحشتْ تلك الكلمةُ أبا العباس .

فلما قدم المدينةَ عبدُ الله بن الحسن ، اجتمع إليه الفاطميون وجعل يفرّق فيهم الأموال التى بعث بها أبو العباس ، فعظم بها سرورهم ؛ فقال لهم عبد الله ابن الحسن : فرِحتم ؟ قالوا : وما لنا لانفرح بما كان محجوباً عنا بأيدى بنى مروان حتى أتى الله بقرابتنا وبنى عمنا فأصاروه إلينا ؟ قال لهم : أفَرَضيتم أن تنالوا هذا من تحت أيدى قوم آخرين ؟

فخرج الرجل الذى كان وكله أبو العباس بأخبارهم ، فأخبره بما سمع من

قولهم وقوله ؛ فأخبر أبو العباس أبا جعفر بذلك ، فزادت الأمورُ شرًّا .

أبو جعفر وابن حسن

ثم مات أبو العباس وقام أبو جعفر بالأمر بعده ، فبعث بعطاء أهل المدينة وكتب إلى عامله ، أن أعطِ الناس فى أيديهم ولا تبعث إلى أحد بعطائه ، وتفقّد بنى هاشم ومن تخلّف منهم ممن حضر ، وتحفظ بمحمد وإبراهيم ابنى عبد الله بن الحسن . ففعل وكتب : إنه لم يتخلف أحد عن العطاء إلا محمد وابراهيم ابنا عبد الله ابن الحسن ، فإنهما لم يحضرا . فكتب أبو جعفر إلى عبد الله بن الحسن ، وذلك مبدأ سنة تسع وثلاثين ومائة ، يسأله عنهما ويأمره بإظهارهما ويخبره أنه غير عاذره . فكتب إليه عبد الله أنه لا يدرى أين هما ولا أين توجها ، وأن غيبتهما غيرُ معروفة ؛ فلم يلبث أبو جعفر — وكان قد أذكى العيونَ ووضع الأرصاد — حتى جاءه كتاب من بعض ثقاته يخبره أن رسولا لعبد الله ومحمد وإبراهيم خرج بكتب إلى رجال بخراسان يستدعيهم إليهم ؛ فأمر أبو جعفر برسولهم فأتى به وبكتبه ، فردها إلى عبد الله بن الحسن بطوابعها ، لم يَفتح منها كتاباً ، وردّ إليه رسوله وكتب إليه :

إنى أُتيتُ برسولك والكتبِ التى معه فرددتها إليك بطوابعها ، كراهيةَ أن أطّلع منها على ما يغيّر لك قلبى ؛ فلا تدعُ إلى التقاطع بعد التواصل ، ولا إلى الفُرقة بعد الاجتماع ، وأظهر لى ابنيك فإنهما سيصيران بحيث تحب من الولاية والقرابة وتعظيمِ الشرف .

فكتب إليه عبد الله بن الحسن يعتذر إليه ويتنصل فى كتابه ، ويُعْلِمه أن ذلك من عدوّ أراد تشتيت مابينهم بعد التئامه . ثم جاءه كتاب ثقة من ثقاته يذكر أن الرسول بعينه خرج بالكتب بأعيانها على طريق البصرة ، وأنه نازل على فلان المهلّبى ؛ فإن أراده أمير المؤمنين فليضع عليه رصده . فوضع عليه أبو جعفر رصده ، فأتى به إليه ومعه الكتب ، فحبس الرسول وأمضى الكتب إلى خراسان مع رسول من عنده من أهل ثقاته ، فقدِمَت عليه الجوابات بما كره؛

واستبان له الأمر ، فكتب إلى عبد الله بن الحسن يقول :

أريدُ حياتهُ ويُريدُ قتلِي * عذيرَكَ من خَليلِكَ من مُرادِ

أما بعد فقد قرأت كُتُبكَ وكُتب ابنيْكَ وأنفذتُها إلى خراسان ، وجاءتنى جواباتُها بتصديقها ، وقد استقرّ عندى أنك مغيِّب لابنيك تعرفُ مكانهما ، ٥ فأظهرهما لى ، فإن لك علىّ أن أعظِم صلتهما وجوائزهما وأضعهما بحيث وضعتْهما قرابتهما ؛ فتدارك الأمور قبل تفاقمها .

فكتب إليه عبد الله بن الحسن :

وكيف أريدُ ذاك وأنت مِنِّى * وزنْدُكَ حين تقْدح من زنادى

وكيف أُريدُ ذاك وأنت منى * بمنْزلةِ النِّياطِ منَ الفؤادِ

١٠ وكتب إليه أنه لايدرى أين توجَّها من بلاد الله ، ولا يدرى أين صاروا ، وأنه لا يعرف الكتب ولا يشك أنها مُفْتعلة .

فلما اختلفت الأمور على أبى جعفر ، بعث سَلْم بن قُتيبة الباهلى ، وبعث معه بمال وأمره بأمره ، وقال له : إنى إنما أُدخلك بين جلدى وعظمى ؛ فلا تُوطِئنّى عَشواء ، ولا تُخْفِ عنى أمراً تعلمه . فخرج سلم بن قتيبة حتى قدم المدينة ، وكان ١٥ عبد الله يبسط له فى رخام المنبر فى الروضة ، وكان مجلسه فيه ؛ فجلس إليه وأظهر له المحبة والميل إلى ناحيته ؛ ثم قال له حين أنس إليه : إن نفراً من أهل خراسان ، وهم فلان وفلان — وسمّى له رجالا يعرفهم ممن كان يكاتِب ، ممن استقرّ عند أبى جعفر أمرهم — قد بعثوا إليك معى مالا ، وكتبوا إليك كتابا فقبل الكتاب والمال ، وكان المال عشرة آلاف دينار .

٢٠ ثم أقام معه ما شاء الله حتى ازداد به أُنسا وإليه استنامة ، ثم قال له : إنى قد بُعثت بكتابين إلى أمير المؤمنين محمد ، وإلى ولىّ عهده إبراهيم ؛ وأُمرت أن لا أُوصل ذلك إلا فى أيديهما ، فإن أوصلتَنى إليهما وأدخلتنى عليهما ؛ أوصلتُ إليهما الكتابين والمال ، ورحلت إلى القوم بما يُثلِج صدورهم ، وتقبله قلوبهم ، فأنا عندهم بموضع الصدق والأمانة ، وإن كان أمرهما مظلما ؛ وإن لم

تكن تعرف مكانهما ، لم يخاطروا بدينهم وأموالهم ومُهَجهم . فلما رأى عبدُ الله أنّ الأمور تفسد عليه من حيث يرجو صلاحَها ، [وأنه لا سبيل إلى ما معه] إلا بإيصاله إليهما وإظهارهما له ، أوصله ـ فدفع الكتابين مع أربعين ألف درهم ـ ثم قال : هذا محمد ، وهذا إبراهيم . فقال لهم : إن مَن ورائى لم يبعثونى ولهم ورائى غاية ، وليس مثلى ينصرف إلى قوم إلا بجملة ما يحتاجون إليه ، ومحمدٌ إنما صار إلى هذه الخطة ، ووجبت له هذه الدعوة ، لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهاهنا مَن هو أقرب من رسول الله رحماً وأوجب حقا منه . قال : ومن هو ؟ قال : أنت ! إلا أن يكون عند ابنك محمد أثرٌ ليس عندك فى نفسك ! قال : فكذلك الأمر عندى ، قال له : فإن القوم يقتدون بك فى جميع أمورهم ، ولا يريدون أن يبذلوا دينهم وأموالهم وأنفسهم إلا بحجّة يرجون بها لمن قُتل منهم الشهادة ؛ فإن أنت خلعتَ أبا جعفر وبايعتَ محمداً اقتدَوْا بك ، وإن أبيتَ اقتدوْا بك أيضاً فى تركك ذلك ؛ ثقة بك ؛ لقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وموضعك الذى وضعك الله فيه . قال : فإنى أفعل !

فبايَعَ محمداً وخلع أبا جعفر ، وبايعه سلم من بعده ، وأخذ كتُبَه وكتُبَ إبراهيم ومحمد ، فخرج فقدم على أبى جعفر وقد حضر الموسم ، فأخبره بحقيقة الأمر ويقينه .

فلما دخل أبو جعفر المدينة ، أرسل إلى بنى الحسن فجمعهم ، وقال لسلم : إذا رأيت عبدَ الله عندى فقم على رأسى وأشر إلىّ بالسلاح ، ففعل ، فلما رآه عبد الله سُقط فى يده وتغيّر وجههُ ، قال له أبو جعفر : مالك أبا محمد ؟ أتعرفه ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، فأقلنى وصَلتْك رَحِمٌ ! فقال له أبو جعفر : هل علمت أنك تعرف موضع ولديك ، وأنه لا عذر لك ؟ وقد باح السر ؛ فأظهِرْهما لى ، ولك أن أصِلَ رَحِمَك ورحِمهما ، وأن أُعْظِمَ ولايتهما ، وأُعطِىَ كلَّ واحد منهما ألفَ ألفِ درهم ، فتراجع عبد الله حتى انكفأ على ظهره ، وبنو حسن اثنا عشر رجلا ، فأمر بحبسهم جميعا .

وخرج أبو جعفر فعسكر من ليلته على ثلاثة أميال من المدينة ، وعبّى على القتال ، ولم يشكّ أن أهل المدينة سيقاتلونه فى بنى حسن ، فعبّى ميمنة وميسرة وقلبا ، وتهيأ للحرب ، وأجلس فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم عشرين مُعطيا يُعطون العطايا ، فلم يتحرك عليه منهم أحد . ثم مضى بهم إلى مكة .

كتاب أبى جعفر إلى محمد بن عبد الله

٥ فلما انصرف أبو جعفر إلى العراق ، خرج محمد بن عبد الله بالمدينة ، فكتب إليه أبو جعفر :

من عبد الله أمير المؤمنين ، إلى محمد بن عبد الله : ﴿ إنما جزاء الذين يُحاربون الله ورسوله ويَسْعوْنَ فى الأرض فساداً أنْ يُقتَّلوا أو يُصلَّبوا أو تُقطَّعَ أيديهمْ وأرجلُهم من خلافٍ أو يُنْفوْا من الأرضِ ، ذلك لهم خِزْىٌ ١٠ فى الدنيا ولهم فى الآخرةِ عذابٌ عظيم ، إلا الذين تابوا من قبلِ أن تقْدِروا عليهم فاعلموا أنّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾ . ولك عهد الله وميثاقُه وذمّةُ الله وذمّة نبيه إن أنتما أتيتُما وتبتما ورجعتما من قبل أن أقدر عليكما وأن يقع بينى وبينكما سفكُ الدماء ـ أن أؤمّنكما وجميعَ ولدِكما ومن شايعكما وتابعكما على دمائكم وأموالكم ، وأسوّغكم ما أصبتم من دم أو مال ؛ وأعطيكما ألف ألف درهم لكل واحد منكما ، ١٥ وما سألتما من الحوائج ؛ وأبوّئكما من البلاد حيث شئتما ، وأطلقَ من الحبس جميع ولد أبيكما ، ثم لا أتعقب واحداً منكما بذنب سلف منه أبدا ؛ فلا تُشمِت بنا وبك عدوّنا من قريش ؛ فإن أحببت أن تتوثّق من نفسك بما عرضتُ عليك ، فوجّه إلىّ من أحببت ليأخذ لك من الأمان والعهود والمواثيق . ما تأمن به وتطمئن إليه إن شاء والسلام .

جواب محمد

٢٠ فأجابه محمد بن عبد الله : من محمد بن عبد الله أمير المؤمنين ، إلى عبد الله ابن محمد : ﴿ طسم ، تلك آياتُ الكتابِ المُبين ، نتلو عليك من نبإ موسى وفرعونَ بالحقِّ لقومٍ يؤمنونَ . إنّ فرعون عَلا فى الأرضِ وجعَل أهلَها شِيَعاً يستضعِفُ طائفةً منهم يُذَبِّحُ أبناءَهم ويستحيِي نساءَهم إنه كان من

المفسدين . ونريدُ أن نَمُنَّ على الذين استُضعِفوا فى الأرض ونجعلَهم أئمّةً ونجعلَهم الوارثين . ونمكّنَ لهم فى الأرض ونُرِىَ فرعونَ وهامان وجنودَهما منهم ما كانوا يَحْذَرونَ ﴾ . وأنا أعرض عليك من الأمان ما عرضتَ ؛ فإنّ الحق معنا ، وإنما ادّعيتم هذا الأمرَ بنا وخرجتم إليه بشيعتنا ، وحظِيتم بفضلنا ، وإن أبانا عليًّا رحمه الله كان الإمام ؛ فكيف ورثتم ولايةَ ولده ، وقد علمتم أنه لم يَطلب هذا الأمرَ أحدٌ بمثل نسبنا ولا شرفنا ، وأنا لسنا من أبناء الظِّئار ، ولا من أبناء الطلَقاء ؛ وأنه ليس يمُتُّ أحد بمثل ما نَمُتُّ به من القرابة والسابقة والفضل ، وأنّا بنو أمّ أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمةَ بنت عمرو فى الجاهلية ، وبنو فاطمة ابنته فى الإسلام دونكم ؛ وإنّ الله اختارنا واختار لنا ، فوالدنا من النبيين أفضلُهم . ومن السلف أوّلُهم إسلاما على بنُ أبى طالب ، ومن النساء أفضلُهن خديجة بنتُ خويلد ، أولُ من صلى إلى القبلة منهنّ ، ومن البنات فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، وولدت الحسنَ والحسينَ سيّدَىْ شبابِ أهل الجنة صلوات الله عليهما ؛ وإنّ هاشماً ولد عليًا مرتين ، وإنّ عبدَ المطلب ولد حسناً مرتين ، وإن النبي صلى الله عليه وسلم ولدنى مرتين ، وإنى من أوسط بنى هاشمٍ نسباً وأشرفِهم أباً وأمّا ، ولم تُعرِق فىّ العجم ، ولم تَنازع فىّ أمّهات الأولاد ؛ فما زال الله بمنّه وفضله يختار لى الأمّهات فى الجاهلية والإسلام ، حتى اختار لى فى النار . فأنا ابنُ أرفعُ الناس درجة فى الجنة ، ومن أهوَنِهم عذاباً فى النار ، وأبى خيرُ أهلِ الجنة ، وأبى خيرُ أهلِ النار ؛ فأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار ؛ فلك اللهُ إن دخلتَ فى طاعتى ، وأجبتَ دعوتى ، أن أؤمّنك على نفسك ومالك ودمك وكلِّ أمرٍ أحدثته ، إلا حدّا من حدود الله ، أو حقَّ امرئ مسلم أو معاهَد ؛ فقد علمتَ ما يلزمك فى ذلك ؛ وأنا أولى بالأمر منك ، وأوفى بالعهد ؛ لأنك لا تعطِى من العهد أكثرَ مما أعطيتَ رجالا قبلى ؛ فأىّ الأمانات تعطينى ؟ أمانَ ابن هبيرة ؟ أو أمان عمك عبد الله بن على ؟

أو أمانَ أبى مسلم ؟ والسلام .

رد أبى جعفر

فكتب إليه أبو جعفر المنصور :

من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله بن حسن : أمّا بعد ، فقد بلغنى كتابُك ، وفهمتُ كلامَك ؛ فإذا جلُّ فخرك بقرابة النساء ، لتُضِلَّ به الغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومةِ والآباء ، ولا كالعَصَبة والأولياء ؛ لأن الله جعل العم أبًا ، وبدأ به فى القرآن على الوالد الأدنى .

ولو كان اختيار الله لهنّ على قدر قرابتهن ، لكانت آمنة أقربَهنّ رحما ، وأعظمَهنّ حقا ، وأولَ من يدخل الجنةَ غدا ؛ ولكن اختيار الله لخلقه على قدر علمه الماضى لهنّ ؛ فأمّا ماذكرت من فاطمة جدّة النبى صلى الله عليه وسلم وولادتها لك ، فإن الله لم يرزق أحداً من ولدها دين الإسلام ، ولو أن أحداً من ولدها رُزق الإسلامَ بالقرابة لكان عبدُ الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير فى الدنيا والآخرة ؛ ولكن الأمر لله ، يختار لدينه من يشاء ، وقد قال جل ثناؤه : ﴿ إنك لاتهدى من أحببْتَ ولكنّ اللهَ يهدى مَن يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾ . وقد بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وله عمومة أربعة ، فأنزل الله عليه : ﴿ وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ ؛ فدعاهم فأنذرهم ؛ فأجابه اثنان ، أحدهما أبى ؛ وأبى عليه اثنان ، أحدهما أبوك ؛ فقطع الله ولايتَهما منه ، ولم يجعل بينهما إلًّا ولا ذمّة ولا ميراثا .

وقد زعمت أنك ابن أخف أهل النار عذابا ، وابن خير الأشرار ؛ وليس فى الشر خيار ، ولا فخر فى النار ، وستَردُ فتعلم ﴿ وسيعْلَمُ الذين ظَلموا أىَّ مُنقلَبٍ ينقلِبون ﴾ .

وأمّا مافخرتَ به من فاطمة أمّ علىّ ، وأنّ هاشما وَلَدَ عليّا مرتين ، فخير الأوّلين والآخرين رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لم يلده هاشم إلا مرة واحدة ، ولا عبدُ المطلب إلا مرة .

وزعمت أنك أوسط بنى هاشم نسبا ، وأكرمهم أبًا وأمّا ، وأنك لم تلدك العجم ، ولم تُعرق فيك أمهات الأولاد ؛ فقد رأيتك فخرْتَ على بنى هاشم

طَرًا ، فانظر أين أنت ـ ويحك ـ من الله غدا ؟ فإنك قد تعديت طورَك ، وفخرت على من هو خيرٌ منك نفسا وأبًا وأولاً وآخرا ؛ فخرت على إبراهيم ولدِ النبي صلى الله عليه وسلم ، وهل خيارُ ولدِ أبيك خاصة وأهل الفضل منهم إلا بنو أمهات أولاد ؟ وما وُلد منكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من على ابن الحسين وهو لأمِّ ولد ، وهو خير من جدك حسن بن حسن ، وما كان فيكم بعده مثلُ ابنه محمد بن على وجدته أمُّ ولد ، وهو خير من أبيك ، ولا مثلُ ابنه جعفر ، وهو خير منك ، وجدته أم ولد .

وأما قولك : إنا بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن الله يقول : ﴿ ما كان محمدٌ أبا أحد من رِجالِكُمْ ولكِن رسُولَ اللهِ وخاتَمَ النّبيِّينَ ﴾ ؛ ولكنكم بنو ابنته ، وهى امرأة لا تحوز ميراثا ، ولا ترث الولاية ، ولا يحل لها أن تؤم ؛ فكيف تورَث بها إمامة ؟ ولقد ظلمها أبوك بكل وجه ؛ فأخرجها نهاراً ، ومرضها سرا ، ودفنها ليلا ؛ فأبى الناس إلا الشيخين لتفضيلهما ؛ ولقد كانت السُّنة التى لا اختلاف فيها أن الجد أبا الأم والخال والخالة ، لا يرثون .

وأما ما فخرتَ به من علىّ وسابقته ، فقد حضرتِ النبي صلى الله عليه وسلم الوفاةُ ، فأمر غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناس رَجُلا رَجُلا بعد فما أخذوه ؛ وكان فى الستة من أصحاب الشورى ، فتركوه كلهم ؛ رفضه عبدُ الرحمن بن عوف ، وقاتله طلحة والزبير ، وأبَى سعدٌ بيعته وأغلق بابه دونه وبايع معاويةَ بعده ؛ ثم طلبها بكل وجه ، فقاتل عليها ، ثم حكم الحكمين ورضى بهما وأعطاهما عهد الله وميثاقه ، فاجتمعا على خلعه واختلفا فى معاوية ؛ ثم قام جدك الحسنُ فباعها بخرَقٍ ودراهم ، ولحق بالحجاز وأسلم شيعته بيد معاوية ، ودفع الأمورَ إلى غير أهلها ، وأخذ مالا من غير ولائه ؛ فإن كان لكم فيها حق فقد بعتموه وأخذتم ثمنه ؛ ثم خرج عمك الحسين على ابن مرجانة ، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه ؛ ثم خرجتم على بنى أمية فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل وأحرقوكم بالنيران ونَفَوْكم من البلدان ، حتى قتل يحيى بن زياد بأرض خراسان ؛ وقتلوا

رجالكم وأسروا الصّبية والنساء وحملوهم كالسبي المجلوب إلى الشام .

حتى خرجنا عليهم ، فطلبنا بثأركم ، وأدركنا بدمائكم ، وأورثناكم أرضَهم وديارهم وأموالهم ؛ وأردنا إشراككم فى ملكنا ، فأبيتم إلا الخروج علينا ؛ وظننت ما رأيتَ ذكرنا أباك وتفضيلنا إياه ، لتَقدُّمِه على العباس وحمزة وجعفر ؛ وليس كما ظننت ، ولكن هؤلاء سالمون ، مُسلَّم منهم مجتمَع بالفضل عليهم ، وابتُلى بالحرب أبوك ، فكانت بنو أمية تلعنه على المنابر كما تلعن أهل الكفر فى الصلاة المكتوبة ؛ فاحتجَجنا له ، وذكرنا فضله ، وعنَّفناهم ، وظلمناهم فيما نالوا منه .

وقد علمت أن المكرمة فى الجاهلية سقاية الحاج الأعظم وولاية بئر زمزم ، وكانت للعباس من بين إخوته ، وقد نازعَنا فيها أبوك فقضى لنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم نزل نليها فى الجاهلية والإسلام ؛ وقد علمتَ أنه لم يبق أحد من بعد النبى صلى الله عليه وسلم من بنى عبد المطلب غير العباس وحده ، فكان وارثه من بين إخوته ، ثم طلب هذا الأمرَ غيرُ واحد من بنى هاشم فلم ينله إلا ولده ، فالسقاية سقايتنا ، وميراث النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ميراثُنا ، والخلافة بأيدينا ، فلم يبق فضل ولاشرفٌ فى الجاهلية والإسلام إلا والعباس وارثُه ومُورِّثه ، والسلام .

مقتل محمد وإبراهيم

فلما خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة ، بايعه أهل المدينة وأهل مكة ، وخرج أخوه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بالبصرة فى شهر رمضان ، فاجتمع الناس إليه ، فنهض إلى دار الإمارة وبها سفيان بن محمد بن المهلب فسلَّم إليه البصرة بغير قتال ؛ وأرسل إبراهيم بن عبد الله بن الحسن إلى الأهواز جيشاً فأخذها بعد قتال شديد ، وأرسل جيشا إلى واسط فأخذها .

ثم إن أبا جعفر المنصور جهز إليهم عيسى بن موسى ، فخرج إلى المدينة ، فلقيه محمد بن عبد الله ، فانهزم بأصحابه وقتل .

ثم مضى عيسى بن موسى إلى البصرة فلقى إبراهيم بن الحسن فقتله وبعث برأسه إلى أبى جعفر .

كتاب المنصور إلى ابن عبيدة

وقال رجل ممن أهل مكة : كنا جلوساً مع عمر بن عبيد بالمسجد ، فأتاه رجل بكتاب المنصور على لسان محمد بن عبد الله بن الحسن يدعوه إلى نفسه ، فقرأه ثم وضعه ؛ فقال الرسول : الجواب ! فقال : ليس له جواب ؛ قل لصاحبك يدعنا ٥ نجلس فى الظل ونشرب من هذ الماء البارد حتى تأتينا آجالنا .

المبيضة وأسر إسماعيل ابن على وأخيه

مروان بن شجاع مولى بنى أمية قال : كنت مع إسماعيل بن على بفارس أؤدب ولده ، فلما لقيته المبيِّضة فظفر بهم ، أُتى منهم بأربعمائة أسير ؛ فقال له أخوه عبد الصمد ، وكان على شرطته : اضرب أعناقهم ! فقال : ما تقول يا مروان ؟ ١٠ فقلت : أصلح الله الأمير ، أول من سنّ قتال أهل القبلة علىُّ بن أبى طالب ، فرأى أن لا يُقتلَ أسير ، ولا يُجهزَ على جريح ، ولا يُتبَعَ مُولٍّ . قال : خذ بيعتهم وخَلِّ سبيلهم .

محمد بن على فى قلة إخوته

قيل لمحمد بن على بن الحسين : ما أقلّ ولد أبيك ! قال : إنى لأعجب كيف وُلدتُ له ! قيل له : وكيف ذلك؟ قال : إنه كان يصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة ١٥ فمتى كان يتفرّغ للنساء .

وصية المنصور لابن موسى فى حرب بنى عبدالله

ولما وجه المنصور عيسى بن موسى فى محاربة بنى عبد الله بن الحسن قال : يا أبا موسى ، إذا صرت إلى المدينة فادعُ محمد بن عبد الله بن الحسن إلى الطاعة والدخول فى الجماعة ؛ فإن أجابك فاقبل منه ، وإن هرب منك فلا تتبعه ؛ وإن أبى إلا الحرب فناجزه واستعن بالله عليه ، فإذا ظفرت به فلا تخيفَن أهل المدينة ٢٠ وعمّهم بالعفو ؛ فإنهم الأصل والعشيرة ، وذرية المهاجرين والأنصار ، وجيران قبر النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فهذه وصيتى إياك ، لا كما أوصى بها يزيد بن معاوية مسلمَ بن عقبة حين وجهه إلى المدينة وأمره أن يقتل من ظهر إلى ثنيّة الوداع ، وأن يبيحها ثلاثة أيام ، ففعل ، فلما بلغ يزيد ما فعله تمثل بقول ابن الزبعرَى فى يوم أحد ، حيث قال .

لَيتَ أشياخِي ببَدْرٍ شهِدُوا * جَزَعَ الخزْرجِ من وقْعِ الأسَلْ

ثم اكتب إلى أهل مكة بالعفو عنهم والصفح ، فإنهم آلُ الله وجيرانه وسكانُ حرمه وأمنه ، ومنبت القوم والعشيرة ، وعظماء البيت والحرم ، لا تُلحد فيه بظلم ؛ فإنه حرم الله الذى بعث منه محمداً نبيه صلى الله عليه وسلم ، وشرف به ٥ آباءنا بتشريف الله إيانا ؛ فهذه وصيتى ، لا كما أوصى به الذى وجّه الحجاج إلى مكة ، فأمره أن يضع المجانيق على الكعبة ، وأن يُلحد فى الحرم بظلم ، ففعل ذلك ، فلما بلغه الخبر تمثل بقول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يَجْهلَنْ أحدٌ علينا * فنجْهلَ فوقَ جَهْلِ الجاهلينا

لنا الدنْيا ومن أضْحى عليها * ونبْطِشُ حين نبطِشُ قادِرينا

عيسى بن موسى ووصيته المنصور

١٠ الرياشى قال : قال عيسى بن موسى : لما وجّهنى المنصور إلى المدينة فى حرب بنى عبد الله بن الحسن ، جعل يوصينى ويُكثر ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إلى كم توصينى ؟

إنى أنا السيْفُ الحسامُ الهندِى * أكلتُ جَفْنى وفَريتُ غِمْدِى

فكلُّ ما تطْلبُ منى عِنْدِى

تفضيل معاوية للحسن

١٥ وقال معاوية يوما لجلسائه : من أكرمُ الناس أبا وأمّا ، وجدّاً وجدة ، وعمّا وعمة ، وخالا وخالة ؟ فقالوا : أمير المؤمنين أعلم . فأخذ بيد الحسن بن على وقال : هذا ؛ أبوه على بن أبى طالب ، وأمّه فاطمة ابنةُ محمد ، وجدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدّته خديجة ، ، وعمه جعفر ، وعمته هالة بنت أبى طالب ، وخاله القاسم بن محمد ، وخالته زينب بنت محمد صلى الله عليه وسلم .

لسديف فى قتل المنصور لابنى عبد الله

٢٠ الرياشى عن الأصمعى قال : لما خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة ، فبايعه أهل المدينة وأهل مكة وخرج إبراهيم أخوه بالبصرة فتغلب على البصرة والأهواز وواسط ـ قال سديف بن ميمون فى ذلك :

إنّ الحمامةَ يومَ الشِّعْبِ من حَضنٍ * هاجتْ فؤادَ مُحِبٍّ دائمِ الحزَنِ

إنا لنأملُ أن ترتدّ أُلفتُنا * بعد التباعُد والشَّحناءِ والإحَنِ
وتنقضى دولةٌ أحكام قادتِها * فيها كأحكام قومٍ عابِدى وَثَنِ
فانهض ببيعتِكم ننهَضْ بطاعتنا * إنّ الخلافة فيكم يا بنى حسَنِ
لا عزّ ركنُ نزارٍ عند نائبةٍ * إن أسلَموك ولا ركنٌ لذى يَمَنِ
ألستَ أكرمَهم يوماً إذا انتسبوا * عُوداً ، وأنقاهُمُ ثوباً من الدّرَنِ ٥
وأعظمَ الناس عند الله منزلةً * وأبعدَ الناس مِن عجزٍ ومِن أفَنِ

فلما سمع أبو جعفر هذه الأبيات آستُطير بها ، فكتب إلى عبد الصمد بن على أن يأخذ سُديفاً فيدفنه حيًّا ، ففعل .

الرياشى والبغدادى فى مقتل سديف

قال الرياشى : فذكرت هذه الأبيات لأبى جعفر ، شيخٍ من أهل بغداد ، فقال : هذا باطل ؛ الأبيات لعبد الله بن مصعب ، وإنما كان سبب قتل سديف ١٠ أنه قال أبياتا مبهمة ، وكتب بها إلى أبى جعفر وهى هذه :

أسرفت فى قتل الرّعيّة ظالمًا * فاكْفُفْ يديْك أضلَّها مَهْدِيُّها
فلتأتِيَنّك رايةٌ حَسَنيَّةٌ * جرّارةٌ يقتادُها حَسَنِيُّها

فالتفت أبو جعفر ، فقال لحازم بن خزيمة : تهيأ بهيئة السفر متنكراً ، حتى إذا لم يبق إلا أن تضع رجلك فى الغرز ائتنى ، ففعل ، فقال : إذا أتيت المدينة ١٥ فادخل مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، فدع سارية ؛ وثانية فإنك تنظر عند الثالثة إلى شيخ آدم يكثر التلفت ، طويلٍ كبير ، فاجلس معه فتوجعْ لآل أبى طالب ، واذكر شدّة الزمان عليهم ، ثلاثة أيام ؛ ثم قل فى الرابع : من يقول هذه الأبيات ؟

* أسرفت فى قتلِ الرّعيّة ظالمًا * ٢٠

قال : ففعل ، فقال له الشيخ : إن شئت نبأتك من أنت ؟ أنت حازم بن خزيمة ، بعثك إلىّ أمير المؤمنين لتعرف من قال هذا الشعر ؛ فقل له : جُعِلت فداك ، والله ما قلتُه ولا قاله إلا سديف بن ميمون ، فإنى أنا القائل وقد دعونى

إلى الخروج مع محمد بن عبد الله :

دعَوْنى وقد سالت لإبليس رايةٌ * وأُوقِد للغاوينَ نارُ الحُباحِبِ

أبالّليث تغترُّون يَحمى عرينَه * وتلقَون جهلًا أُسْدَهُ بالثعالب

فلا نَفَعَتْنى السِّنُّ إن لم يَؤُزَّكم * ولاأحكمَتْنى صادِقات التجارِبِ

٥ قال : وإذا الشيخ إبراهيم بن هرمــة . قال : فقدمت على المنصور فأخبرته الخبر ، فكتب إلى عبد الصمد بن على ، وكان سديف فى حبسه ، فأخذه فدفنه حيا .

ابن عبد الحميد وابن أبى حفصة

قال الرياشى : سمعت محمد بن عبد الحميد يقول : قلت لابن أبى حفصة : ما أغراك ببنى على ؟ قال : ما أحدٌ أحبَّ إلىّ منهم ، ولكنى لم أجد شيئاً أنفع عند
١٠ القوم منه .

هشام وزيد ابن على

لما دخل زيد بن على بن أبى طالب على هشام ، قال : بلغنى أنك تحدّث نفسك بالخلافة ، ولا تصلح لها لأنك ابن أمة ! قال : أما قولك : إنى أحدّث نفسى بالخلافة ، فلا يعلم الغيب إلا الله . وأما قولك : إنى ابن أمة ، فهذا إسماعيل بن أمَة ، أخرج الله من صلبه محمداً صلى عليه وسلم ؛ وإسحاق ابن
١٥ حُرّة ، أخرج الله من صلبه القِردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوت ! وخرج من عنده فقال : ما أحبَّ أحدٌ الحياة إلا ذَلَّ . فقال له الحاجب : لا يسمع هذا الكلام منك أحد .

وقال زيد بن على عند خروجه من عند هشام بن عبد الملك :

شرَّده الخوفُ وأزْرَى به * كذاكَ مَن يكرهُ حَرَّ الجِلادْ

٢٠ مُحتَفِى الرِّجلَين يشكو الوَجا * تقرَعُه أطرافُ مَرْوٍ حِدَادْ

قد كان فى الموْت له راحةٌ * والموْت حتمٌ فى رقاب العبادْ

ثم خرج بخراسان فقتل وصلب .

وفيه يقول سديف لأبى العباس يُغريه ببنى أُمية حيث يقول :

واذكروا مَصْرع الحسينِ وزيداً * وقتيــلًا بجانب المِهْراس

يريد إبراهيم الإمام ، أخا أبى العباس .

باب من فضائل على بن أبى طالب

رضى الله عنه

ابن هشام وشيخ فى على ابن أبى طالب

عوانة بن الحكم قال : حج محمد بن هشام ، ونزلت رفقة ، فإذا بها شيخ كبير قد احتوشه النـاس وهو يأمر وينهى ؛ فقال محمد بن هشام لمن حوله : تجدون الشيخ عراقيا فاسقا ! فقال له بعض أصحـابه : نعم ، وكوفيا منافقا ! فقال محمد : علىّ به . فأُتى بالشيخ ، فقال له : أعِراقِىٌّ أنت ؟ قال له : نعم عراقى . قال : وكوفىٌّ ؟ قال : وكوفى . قال : وترابىٌّ ؟ قال : وترابى ، من التراب خُلقت ، وإليه أصير . قال : أنت ممن يهوى أبا تراب ؟ قال : ومن أبو تراب ؟ قال : علىُّ بن أبى طالب . قال : أتعنى ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزوج فاطمة ابنتِه ، وأبا الحسن والحسين ؟ قال : نعم ، فمـا قولك فيه ؟ قال : قد رأيت من يقول خيراً ويحمد ، ورأيت من يقول شرا ويذم . قال : فأيهما أفضل عندك : أهو أم عثمان ؟ قال : وما أنا وذاك ؟ والله لو أن عليا جاء بوزن الجبال حسناتٍ مانفعنى ، ولو جاء بوزنها سيئات ماضرّنى ؛ وعثمان مثل ذلك . قال : فاشتم أبا تراب ! قال : أوما رَضى منى بما رضى به من هو خير منك ممن هو خيرٌ منى فيمن هو شر من على ؟ قال : وماذاك ؟ قال : رضى الله وهو خير منك ، من عيسى وهو خير منى ، فى النصارى وهم شر من على ، إذ قال : ﴿ إنْ تُعذّبْهم فإنهم عبادُك وإنْ تغفِر لهم فإنك أنت العزيزُ الحكيم ﴾ .

حمزة وابن له فى على

الرياشى قال : انتقص ابنٌ لحمزة بن عبد الله بن الزبير عليا ، فقال له أبوه : يا بنى ، إنه والله ما بنت الدنيا شيئا إلا هدمه الدّين ، وما بنى الدين شيئا فهدمته الدنيا ؛ أما ترى عليا وما يُظهر بعض الناس من بُغضه ولعنه على المنابر فكأنما والله

يأخذون بناصيته رفعاً إلى السماء ، وما ترى بنى مروان وما يندبون به موتاهم من المدح بين الناس ؛ فكأنما يكشفون عن الجيف !

الوليد وشعر الفضل فى على

قدم الوليد مكة فجعل يطوف بالبيت والفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب يستق من زمزم وهو يقول :

٥ يأيها السائل عن علىّ * تسأل عن بدرٍ لنا بدرىّ
مُرَدَّدٍ فى المجدِ أبطحِىّ * سـائلةٍ غُرَّتُه مُضِىّ

فلم ينكر عليه أحد .

لمسلمة فى جعفر

العتبى قال : قيل يوما لمسلمة بن هلال العبدى : خطب جعفر بن سليمان الهاشمى خطبة لم يُسمع مثلها قط ، وما درينا أوجهُه كان أحسن أم كلامه ! قال :

١٠ أولئك قومٌ بنور الخلافة يَشرقون ، وبلسان النبوّة ينطقون .

من عوام إلى بعض العمال

وكتب عوام صاحب أبى نواس إلى بعض عُمال ديار ربيعة :

بحقِّ النبىِّ بحق الوصىّ * بحق الحسيْن بحق الحسَن
بحق التى ظلِمت حقَّها * ووالدها خيرُ ميْتٍ دُفنْ
تَرفّقْ بأرْزاقِنا فى الخرا * جِ بتَرفيهِها وبحطّ المؤنْ

١٥ قال : فأسقط عنه الخراج طول ولايته .

احتجاج المأمون على الفقهاء فى فضل علىّ

إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل عن حماد بن زيد قال : بعث إلىّ يحيى بن أكثم وإلى عدّة من أصحابى ، وهو يومئذ قاضى القضاة ، فقال : إن أمير المؤمنين أمرنى أن أُحضر معى غداً مع الفجر أربعين رجلا كلهم فقيهٌ يَفقه ما يقال له

٢٠ ويُحسن الجواب ؛ فسمُّوا من تظنُّونه يصلح لما يطلب أمير المؤمنين . فسمَّينا له عدة ، وذكر هو عدة ، حتى تم العدد الذى أراد ، وكتب تسمية القوم ، وأمر بالبكور فى السحر ، وبعث إلى من لم يحضر ، فأمره بذلك ؛ فغدونا عليه قبل طلوع الفجر ، فوجدناه قد لبس ثيابه وهو جالس ينتظرنا ، فركب وركبنا معه حتى

صرنا إلى الباب ، فإذا بخادم واقف؛ فلما نظر إلينا قال : يا أبا محمد ، أميرُ المؤمنين ينتظرك . فأدخلنا ، فأمرنا بالصلاة فأخذنا فيها ، فلم نستتمّها حتى خرج الرسول فقال : ادخلوا . فدخلنا فإذا أميرُ المؤمنين جالس على فراشه ، وعليه سواده وطيلسانه والطويلة وعمامته ، فوقفنا وسلّمنا ، فردّ السلام وأمرنا بالجلوس ؛ فلما استقرّ بنا المجلس انحدر عن فراشه ونزع عمامته وطيلسانه ووضع قلنسوته ، ثم أقبل علينا فقال : إنما فعلت ما رأيتم لتفعلوا مثل ذلك ، وأما الخفُّ فمَنَعَ من خلعه علة ، من قد عرفها منكم فقد عرفها ، ومن لم يعرفها فسأعرّفه بها . ومدّ رجله وقال : انزعوا قلانسكم وخِفافكم وطيالستكم . قال : فأمسكنا ، فقال لنا يحيى : انتهوا إلى ما أمركم به أمير المؤمنين . فتنحّينا فنزعنا أخفافنا وطيالستنا وقلانسنا ورجعنا ؛ فلما استقر بنا المجلس قال : إنما بعثتُ إليكم معشرَ القوم في المناظرة ، فمن كان به شيء من الأخبثين لم ينتفع بنفسه ولم يفقه ما يقول ؛ فمن أراد منكم الخلاء فهناك . وأشار بيده ، فدعونا له . ثم ألقى مسألة من الفقه ، فقال : يا محمد ، قل ، وليقل القومُ من بعدك . فأجابه يحيى ، ثم الذى يلى يحيى ، ثم الذى يليه ، حتى أجاب آخرنا ، في العلة وعلة العلة ؛ وهو مُطرِق لا يتكلم ، حتى إذا انقطع الكلام التفت إلى يحيى فقال : يا أبا محمد ، أصبت الجواب وتركت الصواب في العلة . ثم لم يزل يردُّ على كل واحد منا مقالته ، ويخطّئُ بعضنا ويُصوّب بعضنا ، حتى أتى على آخرنا ؛ ثم قال : إنى لم أبعث فيكم لهذا ، ولكننى أحببت أن أنبئكم أن أمير المؤمنين أراد مناظرتكم في مذهبه الذى هو عليه والذى يدين الله به . قلنا : فليفعل أمير المؤمنين وفقه الله . فقال : إن أمير المؤمنين يدين الله على أنّ عليّ بن أبى طالب خيرُ خلق الله بعد رسوله صلى الله عليه وسلم وأولى الناس بالخلافة له . قال إسحاق : فقلت يا أمير المؤمنين ، إن فينا من لا يعرف ما ذكر أميرُ المؤمنين في عليّ ، وقد دعانا أمير المؤمنين للمناظرة . فقال يا إسحاق ، اختر ، إن شئتَ سألتُك أسألك ، وإن شئت أن تسألْ فقلْ . قال إسحاق : فاغتنمتُها منه ، فقلت : بل أسألك يا أميرَ المؤمنين . قال : سل . قلت : من أين

قال أمير المؤمنين إن على بن أبى طالب أفضلُ الناس بعد رسول الله وأحقّهم بالخلافة بعده ؟ قال : يا إسحاق ، خبّرنى عن الناس : بم يتفاضلون حتى يقال فلانٌ أفضل من فلان ؟ قلت : بالأعمال الصالحة : قال : صدقت ، قال : فأخبرنى عمن فضَلَ صاحبَه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إن المفضول عمِل بعد وفاة رسول الله بأفضل من عمل الفاضل على عهد رسول الله — أيُلحق به؟ قال : فأطرقت ، فقال لى : يا إسحاق ، لا تقل نعمْ ؛ فإنك إن قلت نعم أوجدتُك فى دهرنا هذا من هو أكثر منه جهادا وحجا وصياماً وصلاة وصدقة . فقلت أجل يا أمير المؤمنين ، لايلحق المفضولُ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاضلَ أبدا . قال : يا إسحق ، فانظر ماروواه لك أصحابُك ومن أخذت عنهم دينك وجعلتهم قُدْوتك من فضائل علىٍّ بن أبى طالب ؛ فقِس عليها ما أتوْك به من فضائل أبى بكر ، فإن رأيت فضائل أبى بكر تشاكل فضائل على ، فقل إنه أفضل منه ؛ لا والله ، ولكن فقِس إلى فضائله ما رُوى لك من فضائل أبى بكر وعمر ، فإن وجدت لهما من الفضائل مالعلى وحده ، فقل إنهما أفضل منه ؛ لا والله ، ولكن قِس إلى فضائله فضائلَ أبى بكر وعمر وعثمان ، فإن وجدتها مثل فضائل علىّ ، فقل إنهم أفضل منه ؛ لا والله ، ولكن قس بفضائل العشرة الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، فإن وجدتها تشاكل فضائله فقل إنهم أفضل منه .

قال : يا إسحاق ، أى الأعمال كانت أفضل يوم بعث الله رسوله ؟ قلت : الإخلاص بالشهادة . قال : أليس السبقُ إلى الإسلام ؟ قلت : نعم . قال : اقرأ ذلك فى كتاب الله تعالى يقول : ﴿ والسّابقونَ السّابِقون أُولَئكَ المُقرَّبون ﴾ ، إنما عَنى من سبق إلى الإسلام ، فهل علمتَ أحداً سبق عليًّا إلى الإسلام ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، إن عليا أسلم وهو حديث السن لايجوز عليه الحكم ، وأبو بكر أسلم وهو مستكملٌ يجوز عليه الحكم . قال : أخبرنى أيهما أسلم قبلُ ، ثم أناظرك من بعده فى الحداثة والكمال . قلت : علىٌّ أسلم قبل أبى بكر على هذه

الشريطة . فقال : نعم ، فأخبرنى عن إسلام علىّ حين أسلم : لايخلو من أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه إلى الإسلام ، أو يكون إلهاماً من الله ؟ قال : فأطرقتُ ؛ فقال لى : يا إسحاق ؛ لاتقل إلهاماً فتقدِّمَه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنّ رسول الله لم يعرف الإسلام حتى أتاه جبريل عن الله تعالى . قلت : أجل ، بل دعاه رسول الله إلى الإسلام . قال : يا إسحاق ٥
فهل يخلو رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دعاه إلى الإسلام من أن يكون دعاه بأمر الله أو تكلّف ذلك من نفسه ؟ قال : فأطرقت ؛ فقال : يا إسحاق ، لا تنسب رسول الله إلى التكلف ؛ فإن الله يقول : ﴿ وما أنا مِنَ المُتَكَلِّفين ﴾ . قلت : أجل يا أمير المؤمنين ، بل دعاه بأمر الله . قال : فهل من صفة الجبار جل ثناؤه أن يكلِّف رُسلَه دعاء من لايجوز عليه حكمٌ ؟ قلت : أعوذ بالله ! ١٠
فقال : أفتراه فى قياس قولك يا إسحاق : « إن عليا أسلم صبيًّا لا يجوز عليه الحُكمُ ، قد كلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من دعاء الصبيان ما لايطيقون ، فهو يدعوهم الساعة ويرتدُّون بعد ساعة ، فلا يجب عليهم فى ارتدادهم شىء ولا يجوز عليهم حكم الرسول عليه السلام ، أترى هذا جائزاً عندك أن تنسبه إلى الله عزّ وجلّ؟ قلت : أعوذ بالله ! قال : يا إسحاق ، فأراك إنما قصدتَ لفضيلة فضّلَ بها ١٥
رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا على هذا الخلق ، أبانه بها منهم ليُعرفَ مكانُه وفضلُه ، ولو كان الله تبارك وتعالى أمره بدعاء الصبيان لدعاهم كما دعا عليا ؟ قلت : بلى . قال : فهل بلغك أن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا أحداً من الصبيان من أهله وقرابته — لئلا تقول إن عليا ابن عمه — ؟ قلت : لا أعلم ولا أدرى فَعلَ أو لم يفعل . قال : إسحاق ، أرأيت مالم تدره ولم تعلمه هل تُسأل عنه ؟ قلت : ٢٠
لا . قال : فدع ما قد وضعه الله عنا وعنك .

قال : ثم أىّ الأعمال كانت أفضلَ بعد السبق إلى الإسلام ؟ قلت : الجهاد فى سبيل الله . قال : صدقت ، فهل تجد لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تجد لعلى فى الجهاد؟ قلت : فى أى وقت ؟ قال : فى أى الأوقات شئت ! قلت:

بدر؟ قال: لا أريد غيرها؛ فهل تجد لأحد إلا دون ماتجد لعليّ يوم بدر؟ أخبرنى: كم قتلى بدر؟ قلت: نيف وستون رجلا من المشركين. قال: فكم قتل على وحده؟ قلت: لا أدرى. قال: ثلاثة وعشرين، أو اثنين وعشرين؛ والأربعونَ لسائر الناس. قلت: يا أمير المؤمنين كان أبو بكر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عريشه. قال: يصنعُ ماذا؟ قلت: يدبّر، قال: ويحك! يدبّر دون رسول الله أو معه شريكا، أو افتقاراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رأيه؟ أى الثلاث أحب إليك؟ قلت: أعوذ بالله أن يدبر أبو بكر دون رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يكون معه شريكا، أو أن يكون برسول الله صلى الله عليه وسلم افتقارٌ إلى رأيه. قال: فما الفضيلة بالعريش إذا كان الأمر كذلك؟ أليس من ضَرب بسيفه بين يدى رسول الله أفضلَ ممن هو جالس؟ قلت: يا أمير المؤمنين، كلُّ الجيش كان مجاهداً. قال: صدقت، كل مجاهد؛ ولكن الضارب بالسيف المحامى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الجالس، أفضلُ من الجالس؛ أما قرأتَ كتاب الله: ﴿لا يَسْتَوِى القاعِدونَ مِنَ المُؤمنين غيرُ أُولِى الضَّرَرِ والمُجاهِدون فى سبيلِ اللهِ بأموالِهِم وأنفُسِهِم فضَّلَ اللهُ المُجاهدينَ بأموالِهِم وأنفُسِهِم على القاعدينَ درجَةً وكُلاًّ وعَدَ اللهُ الحُسنَى، وفضَّلَ اللهُ المجاهدينَ على القاعِدين أجرًا عظيماً﴾. قلت: وكان أبو بكر وعمر مجاهدَين قال: فهل كان لأبى بكر وعمر فضلٌ على مَن لم يشهد ذلك المشهد؟ قلت: نعم. قال: فكذلك! سَبَق الباذِلُ نفسهُ فضْلَ أبى بكر وعمر، قلت: أجل.

قال: يا إسحاق، هل تقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: اقرأ علىّ ﴿هل أتى على الإنسانِ حينٌ مِنَ الدَّهرِ لم يكُن شيئاً مَذْكوراً﴾ فقرأت منها حتى بلغت: ﴿يشرَبون من كأسٍ كان مِزاجُها كافوراً﴾ إلى قوله: ﴿ويُطعِمون الطَّعام على حُبِّه مِسكيناً ويتيمًا وأسيراً﴾ قال: على رِسْلِك؛ فيمن أنزلت هذه الآيات؟ قلت: فى علىّ. قال: فهل بلغك أن عليا حين أطعَم المسكين واليتيم والأسير، قال إنما نطعمكم لوجه الله؟ وهل سمعت الله وصف فى كتابه أحداً بمثل ماوَصف به عليا؟ قلت: لا. قال: صدقت! لأن الله جل ثناؤه عرف سيرته. يا إسحاق، ألست تشهد أن العشرة فى الجنة؟ قلتُ: بلى يا أمير المؤمنين. قال:

أرأيت لو أن رجلا قال : والله ما أدرى هذا الحديث صحيح أم لا ، ولا أدرى إن كان رسول الله قاله أم لم يقله : أكان عندك كافراً ؟ قلت : أعوذ بالله ! قال : أرأيت لو أنه قال : ما أدرى هذه السورة من كتاب الله أم لا ، كان كافراً ؟ قلت : نعم . قال : يا إسحاق ، أرى بينهما فرقا . يا إسحاق ، أتروى الحديث ؟ قلت : نعم . قال : فهل تعرف حديث الطير ؟ قلت : نعم . قال : فحدثني به . قال : فحدثته الحديث ، فقال : يا إسحاق ، إنى كنت أكلمك وأنا أظنك غيرَ معاند للحق ، فأما الآن فقد بان لى عنادُك ؛ إنك تُوقِن أن هذا الحديث صحيح . قلت : نعم ؛ رواه من لا يمكننى ردّه . قال : أفرأيت من أيقن أن هذا الحديث صحيح ، ثم زعم أن أحداً أفضلُ من علىّ - لا يخلو من إحدى ثلاثة : من أن تكون دعوةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنده مردودة عليه ، أو أن يقول عرف الفاضل من خلقه وكان المفضولُ أحب إليه ، أو أن يقول إن الله عز وجل لم يعرف الفاضلَ من المفضول ؛ فأى الثلاثة أحب إليك أن تقول ؟ فأطرقت . . . ثم قال : يا إسحق ، لا تقل منها شيئا ؛ فإنك إن قلت منها شيئاً استتبْتُك ؛ وإن كان للحديث عندك تأويل غير هذه الثلاثة الأوجه فقُله . قلت : لا أعلم ، وإن لأبى بكر فضلا . قال : أجل ، لولا أن له فضلا لما قيل إن عليا أفضل منه ؛ فما فضلُه الذى قصدتَ له الساعة ؟ قلت : قول الله عز وجل : ﴿ ثانىَ اثنين إذ هما فى الغارِ إذ يقول لصاحبه لا تحزَنْ إنّ اللهَ معَنا ﴾ ؛ فنسبه إلى صحبته . قال : يا إسحاق ، أما إنى لا أحملك على الوعْر من طريقك ؛ إنى وجدت الله تعالى نسب إلى صحبة مَن رضيَه ورضى عنه كافرا ، وهو قوله : ﴿ فقال له صاحبُه وهو يُحاورُه أكفرتَ بالذى خلقك من ترابٍ ثم من نُطْفةٍ ثم سَوّاك رجلا ، لـٰكِنّا هو اللهُ ربى ولا أشركُ بربى أحدا ﴾ . قلت : إن ذلك صاحبٌ كان كافرا ، وأبو بكر مؤمن . قال : فإذا جاز أن يَنسب إلى صحبةِ مَن رضيه كافرا ، جاز أن يَنسب إلى صحبة نبيه مؤمنا ، وليس بأفضل المؤمنين ولا الثانىَ ولا الثالث . قلت : يا أمير المؤمنين ، إن قدْر الآية عظيم ، إن الله

يقول ﴿ ثانِىَ ٱثنين إذ هما فى الغار إذ يقولُ لصاحبه لا تحزنْ إنَّ اللهَ معَنا ﴾ !
قال : يا إسحاق ، تأبى الآن إلا أن أخرجك إلى الاستقصاء عليك ! أخبرنى عن
حزن أبى بكر : أكان رضاً أم سخطا ؟ قلت : إن أبا بكر إنما حزن من أجلِ
رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفا عليه وغما ، أن يصل إلى رسول الله شئ
٥ من المكروه . قال : ليس هذا جوابى ، إنما كان جوابى أن تقول : رضاً ،
أم سخط . قلت : بل كان رضاً لله . قال : فكأن الله جل ذكرُه بعث إلينا
رسولا ينهى عن رضا الله عز وجل وعن طاعته ! قلت : أعوذ بالله ! قال :
أو ليس قد زعمتَ أن حزن أبى بكر رضاً لله ؟ قلت : بلى . قال : أو لم تجد أن
القرآن يشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تحزن » ، نهياً له عن
١٠ الحزن ؟ قلت : أعوذ بالله ! قال : يا إسحاق ، إن مذهبى الرفقُ بك ، لعل الله
يردّك إلى الحق ويعدل بك عن الباطل ، لكثرة ما تستعيذ به . وحدِّثنى عن قول
الله : ﴿ فأنزَل اللهُ سَكِينَتَه عليه ﴾ ، من عَنى بذلك ؟ رسولَ الله أمْ أبابكر ؟
قلت : بل رسولَ الله . قال : صدقت !

قال : فحدِّثنى عن قول الله عز وجل : ﴿ ويومَ حُنينٍ إذ أعجبَتْكم كثرتُكم ﴾
١٥ إلى قوله : ﴿ ثم أنزلَ الله سكِينته على رسوله وعلى المؤمنين ﴾ : أتعلم مَن المؤمنون
الذين أراد الله فى هذا الموضوع ؟ قلت : لا أدرى يا أمير المؤمنين ؛ قال : الناس
جميعاً انهزموا يوم حنين ، فلم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا سبعةُ
نفر من بنى هاشم : على يضرب بسيفه بين يدى رسول الله ، والعباس آخذٌ
بلجام بغلة رسول الله ، والخمسة محدقون به خوفا من أن يناله من جِراح القوم
٢٠ شىء ، حتى أعطى اللهُ لرسوله الظَّفَر ؛ فالمؤمنون فى هذا الموضع علىٌّ خاصة ،
ثم مَن حضره من بنى هاشم ، قال : فمن أفضلُ : من كان مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم فى ذلك الوقت ، أم من انهزم عنه ولم يَره الله موضعاً ليُنزلها عليه ؟
قلت : بل من أنزلت عليه السكينة .

قال : يا إسحاق ، من أفضل : من كان معه فى الغار ، أم من نام على فراشه

ووقاه بنفسه ، حتى تمّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما أراد من الهجرة ؟ إن الله تبارك وتعالى أمر رسوله أن يأمر عليًا بالنوم على فراشه ، وأن يَقِيَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ؛ فأمره رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فبكى عليٌّ رضى الله عنه ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يُبكيك يا عليُّ ، أجزعا من الموت ؟ قال : لا ، والذى بعثك بالحق يا رسول الله ، ٥ ولكن خوفا عليك ؛ أفتَسلَم يارسول الله ؟ قال : نعم . قال : سمعا وطاعة وطيبة نفسى بالفداء لك يارسول الله . ثم أتى مضجعه واضطجع ، وتسجَّى بثوبه ، وجاء المشركون من قريش فحفُّوا به ، لا يشكُّون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أجمعوا أن يضربه من كل بطن من بطون قريش رجلٌ ضربةً بالسيف ، لئلا يطلب الهاشميون من البطون بطناً بدَمِه ؛ وعليٌّ يسمع ما القومُ فيه من ١٠ إتلاف نفسه ، ولم يدْعُه ذلك إلى الجزع كما جزع صاحبُه فى الغار ؛ ولم يزل عليٌّ صابراً محتسبا ؛ فبعث الله ملائكته فمنعتْه من مشركى قريش حتى أصبح ، فلما أصبح قام فنظر القوم إليه فقالوا : أين محمد ؟ قال : وما عِلمى بمحمد أين هو ؟ قالوا : فلا نراك إلا مغرِّرا بنفسك منذ ليلتنا ، فلم يزل علىّ أفضلِ ما بدأ به يزيد ، ولا ينقص ، حتى قبضه الله إليه . ١٥

يا إسحاق ، هل تروى حديث الولاية ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين . قال : آروه ، ففعلت قال : يا إسحاق ، أرأيت هذا الحديث هل أوجب على أبى بكر وعمر مالم يُوجب لهما عليه ؟ قلت : إن الناس ذكروا أن الحديث إنما كان بسبب زيد بن حارثة لشىء جرى بينه وبين على ، وأنكر ولاء على ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه ؛ اللهم والِ من ٢٠ والاه وعادِ من عاداه» . قال : فى أى موضع قال هذا ، أليس بعد مُنصَرفه من حجة الوداع ؟ قلت : أجل . قال : فإنَّ قتل زيد بن حارثة قبل الغدير ؛ كيف رضيت لنفسك بهذا ؟ أخبرنى : لو رأيت ابناً لك قد أتت عليه خمس عشرة سنة يقول : مولاى مولى ابن عمى ، أيها الناس فاعلموا ذلك ؛ أكنت منكراً

ذلك عليه : تعريفَه الناس ما لا ينكرون ولا يجهلون ؟ فقلت : اللهم نعم ، قال : يا إسحاق ، أفتنزِّه ابنَك عما لا تنزه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ويحكم ! لا تجعلوا فقهاءكم أربابكم ؛ إن الله جل ذكره قال فى كتابه : ﴿ اتَّخَذوا أحْبارَهم ورُهْبانَهم أرْبابًا من دُونِ اللهِ ﴾ . ولم يصلُّوا لهم ولا صاموا ولا زعموا أنهم أرباب ، ولكن أمَروهم فأطاعوا أمْرهم ؛ يا إسحاق ، أتروى حديث : «أنت منى بمنزلة هارونَ من موسى» ؟ قلت : نعم يا أميرَ المؤمنين ، قد سمعتُه وسمعتُ من صحَّحه وجَحَده . قال : فمن أوثقُ عندك : من سمعتَ منه فصحَّحه ، أو مَن جحَده ؟ قلت : من صحَّحه . قال : فهل يمكن أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم مزح بهذا القول ؟ قلت : أعوذ بالله ! قال : فقال قولا لا معنى له فلا يوقف عليه ؟ قلت : أعوذ بالله ! قال : أفما تعلم أن هارونَ كان أخا موسى لأبيه وأمّه ؟ قلت : بلى . قال : فعليٌّ أخو رسولِ الله لأبيه وأمّه ؟ قلت : لا . قال : أو ليس هارون كان نبيًا وعليٌّ غيرُ نبيّ ؟ قلت : بلى . قال : فهذان الحالان معدومان فى علىّ وقد كانا فى هارون ؛ فما معنى قوله : «أنت منى بمنزلة هارون من موسى» ؟ قلت له : إنما أراد أن يُطيِّب بذلك نفسَ علىّ لمَّا قال المنافقون إنه خلَّفه استثقالا له . قال : فأراد أن يطيِّب نفسه بقول لا معنى له ؟ قال : فأطرقت ؛ قال : يا إسحاق ، له معنى فى كتاب الله بيِّن . قلت : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : قوله عز وجل حكايةً عن موسى أنه قال لأخيه هارون : ﴿ اخْلُفْنى فى قوْمى وأصْلحْ ولا تتَّبعْ سبيلَ المُفْسِدينَ ﴾ . قلت : يا أمير المؤمنين ، إن موسى خلَّف هارونَ فى قومه وهو حىٌّ ، ومضى إلى ربه ؛ وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلّف عليًا كذلك حين خرج إلى غزاته . قال : كلا ، ليس كما قلت ؛ أخبرنى عن موسى حين خلف هارون : هل كان معه حين ذهب إلى ربه أحدٌ من أصحابه أو أحدٌ من بنى إسرائيل ؟ قلت : لا . قال : أو ليس استخلفه على جماعتهم ؟ قلت : نعم . قال : فأخبرنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج إلى غزاته : هل خلف إلا الضعفاءَ والنساء والصبيان ؛ فأنّى يكون مثلُ ذلك ؟ وله عندى

تأويل آخر من كتاب الله يدل على استخلافه إياه ، لا يقدر أحد أن يحتج فيه ، ولا أعلم أحداً احتج به وأرجو أن يكون توفيقا من الله . قلت : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : قوله عز وجل حين حكى عن موسى قوله : ﴿ وَٱجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هٰرُونَ أَخِي ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ ، فأنت منى يا علىُّ ٥ بمنزلة هارون من موسى : وزيرى من أهلى ، وأخى ، شدّ الله به أزرى ، وأشْرَكه فى أمرى ، كى نسبح الله كثيراً ، ونذكرَه كثيراً ، فهل يقدر أحدٌ أن يُدخل فى هذا شيئا غير هذا ولم يكن ليبطل قولَ النبي صلى الله عليه وسلم وأن يكون لامعنى له ؟

قال : فطال المجلس وارتفع النهار ؛ فقال يحي بن أكثم القاضى : ١٠ يا أمير المؤمنين ، قد أوضحتَ الحق لمن أراد الله به الخير ، وأثبت ما يقدر أحد أن يدفعه . قال إسحق : فأقبل علينا وقال : ما تقولون ؟ فقلنا : كلنا نقول بقول أمير المؤمنين أعزه الله ، فقال : والله لولا أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال اقبلوا القولَ من الناس ، ما كنتُ لأقبلَ منكم القول ؛ اللهم قد نصحت لهم القول ، اللهم إنى قد أخرجت الأمر من عنقى ، اللهم إنى أدينك بالتقرب إليك ١٥ بحب علىٍّ وولايته !

المساحق والدعوة إلى المأمون

وكتب المأمون إلى عبد الجبار بن سعد المساحق عامله على المدينة ، أن اخطب الناس وادعهم إلى بيعة الرضا علىّ بن موسى ، فقام خطيباً فقال :

يا أيها الناس هذا الأمر الذى كنتم فيه ترغبون ، والعدلُ الذى كنتم تنتظرون ، والخيرُ الذى كنتم ترجون ؛ هذا علىُّ بن موسى بن جعفر بن محمد ٢٠ ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ستة آباءهم ماهم ، من خيرِ مَن يَشرب صَوب الغمام .

المأمون والرضى

وقال المأمون لعلى بن موسى : علام تدعون هذا الأمر ؟ قال : بقرابة

علىّ وفاطمة من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم . فقال له المأمون : إن لم تكن إلا القرابة فقد خلف رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من أهل بيته من هو أقرب إليه من على ، أو من هو فى قُعدده ، وإن ذهبت إلى قرابة فاطمة من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فإن الأمر ٥ بعدها للحسن والحسين ، فقد ابتزّهما علىٌّ حقهما وهما حيّان صحيحان ، فاستولى على ما لاحق له فيه .

فلم يجد علىُّ بن موسى له جوابا .

باب من أخبار الدولة العباسية

علي ومعاوية في مولود لابن عباس

روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه افتقد عبد الله بن عباس وقت صلاة الظهر ، فقال لأصحابه : ما بالُ أبي العباس لم يحضر ؟ قالوا : وُلِد له مولود فلما صلى عليٌّ الظهر قال : انقلبوا بنا إليه . فأتاه فهنّأه فقال له : شكرت الواهب وبُورك لك في الموهوب ؛ فما سمّيتَه ؟ قال : لا يجوز لي أن أسمّيه حتى تسمّيه ٥ أنت . فأمر به فأُخرج إليه ، فأخذه فحنّكه ودعا له ورده ، وقال : خذه إليك أبا الأملاك ، وقد سميتُه عليا ، وكنيتُه أبا الحسن . قال : فلما قدم معاوية قال لابن عباس : لك ٱسمُه وقد كنّيتُه أبا محمد . فجرت عليه .

من أخبار علي ابن عبد الله ابن عباس

وكان عليٌّ سيداً شريفاً عابداً زاهدا ، وكان يصلى في كل يوم ألف ركعة ، ١٠ وضُرِب مرتين ، كلتاهما ضرَبه الوليد ، فإحداهما في تزوُّجِهِ لُبابة بنت عبد الله ابن جعفر ؛ وكانت عند عبد الملك بن مروان ، فعض تفاحة ورمى بها إليها ، وكان أبخر ؛ فدعت بسكين ، فقال : ما تصنعين به ؟ قالت : أُميط عنها الأذى ! فطلّقها ، فتزوجها عليٌّ بن عبد الله بن عباس ، فضربه الوليد وقال : إنما تتزوج أمهاتِ أولاد الخلفاء لتضع منهم — لأن مروان بن الحكم إنما تزوج أم خالد ١٥ ابن يزيد ليضع منه — فقال علي بن عبد الله بن عباس : إنما أرادت الخروج من هذه البلدة ، وأنا ابن عمها ، فتزوجتُها لأن أكون لها مَحْرَما.

وأما ضربُه إياه في المرة الثانية ، فإن محمد بن يزيد قال : حدثني من رآه مضروبا يُطاف به على بعير ووجهه مما يلي ذنبَ البعير ، وصائح يصيح عليه : هذا علي بن عبد الله الكذاب ! قال : فأتيته فقلت : ما هذا الذي نسبوك فيه إلى ٢٠ الكذب ؟ قال : بلغهم أني أقول : هذا الأمر سيكون في ولدي ! ووالله ليكونن فيهم حتى يملكهم عبيدُهم ، الصغار العيون ، العِراض الوجوه ، الذين كأنّ وجوههم المجانّ المطرقة .

وفي حديث آخر أن علي بن عبد الله دخل على هشام بن عبد الملك ومعه

ابناهُ : أبو العباس ، وأبو جعفر ؛ فشكا إليه دَيْناً لزِمَهُ ، فقال له : كم دينُك ؟ قال : ثلاثون ألفا . فأمر له بقضائه ، فشكر له عليه ، وقال له وصَلْتَ رَحِماً ، وأنا أريد أن تستوصى بابنَىَّ هذين خيرا . قال : نعم . فلما تولى قال هشام لأصحابه : إن هذا الشيخ قد هتر وأسنّ وخُولط ، فصار يقول إن هذا الأمر سيُنقل إلى ولده . فسمعه على بن عبد الله بن العباس ، فقال : والله ليكونن ذلك ، وليملكنّ ابناى هذان ما تملكه .

زواج على ابن عبد الله

قال محمد بن يزيد : وحدثنى جعفر بن عيسى بن جعفر الهاشمى قال : حضر على بن عبد الله مجلسَ عبد الملك بن مروان ، وكان مكرما له ، وقد أهديت له من خراسانَ جاريةٌ وفص خاتم وسيف ، فقال : يا أبا محمد ، إن حاضر الهدية شريك فيها ، فاختر من الثلاثة واحدا . فاختار الجارية ، وكانت تسمى سعدى ، وهى من سبى الصغد من رهط عُجيف بن عنبسة ، فأولدها سليمانَ بن على ، وصالح بن على .

وذكر جعفر بن عيسى أنه لما أولدها سليمانَ اجتنبتْ فراشه ، فمرض سليمان من جدرى خرج عليه ، فانصرف علىٌّ من مُصلاّه ، فإذا بها على فراشه ! فقال : مرحباً بك يا أم سليمان ؛ فوقع عليها فأولدها صالحاً ، فاجتنبت فراشه ، فسألها عن ذلك ، فقالت : خفت أن يموت سليمان فى مرضه ، فينقطع النسبُ بينى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فالآن إذ ولدت صالحاً فبالحرى إن ذهب أحدهما بقى الآخر ، وليس مثلى وطيئةَ الرجال .

وصية على لابنيه سليمان وصالح

وزعم جعفر أنه كانت فى سليمان رُتّة ، وفى صالح مثلها ، وأنها موجودة فى آل سليمان وصالح .

وكان على يقول : أكره أن أوصى إلى محمد ولدى ـ وكان سيدَ ولدِهِ وكبيرَهم ـ فأشينه بالوصية . فأوصى إلى سليمان . فلما دُفنَ علىٌّ جاء محمد إلى سعدى ليلا ، فقال : أخرجى لى وصية أبى . قالت : إن أباك أجلُّ من أن تخرجَ وصيّتُه ليلا ، ولكن تأتى غُدوة إن شاء الله . فلما أصبح غَدَا عليه سليمانُ بالوصية ،

فقال : يا أبي ويا أخي ، هذه وصية أبيك . فقال : جزاك الله من ابن وأخ خيرا ، ما كنت لأُثَرِّب على أبي بعد موته كما لم أُثَرِّبْ عليه في حياته .

وصاة معاوية في موته

العتبي عن أبيه عن جده قال : لما اشتكى معاوية شَكاتَه التي هلك فيها ، أرسل إلى ناس من جلة بني أمية ، ولم يحضرها سفيانيٌّ غيري وغير عثمان بن محمد ؛ فقال : يامعشر بني أمية ، إني لما خفت أن يسبقكم الموت إليّ سبقتُه بالموعظة إليكم ، لا لأرُدّ قدَرا ، ولكن لِأُبلغ عُذْراً ؛ إن الذي أخلّف لكم من دنياي أمرٌ ستشارَكون فيه وتُغْلبون عليه ، والذي أخلّف لكم من رأيى أمرٌ مقصورٌ لكم نفعُه إن فعلتموه ، مَخوف عليكم ضررُه إن ضيَّعتموه ؛ إن قريشا شاركتكم في أنسابكم ، وانفردتم دونها بأفعالكم ، فقدمكم ما تقدمتم له ، إذ أخّر غيركم ما تأخروا عنه ؛ ولقد جُهِل بي فخلُت ونقر لي ففهمت حتى كأني أنظر إلى أبنائكم بعدكم كنظرى إلى آبائهم قبلهم ؛ إن دولتكم ستطول ، وكلُّ طويلٍ مملول ، وكلُّ مملول مخذول ، فإذا كان ذلك كذلك ، كان سببه اختلافكم فيما بينكم ، واجتماع المختلفين عليكم ، فيُدْبِر الأمر بضدِّ ما أقبل به ، فلست أذكر جسيما يُركب منكم ولا قبيحاً يُنتَهك فيكم ، إلا والذي أُمسك عن ذكره أكثرُ وأعظمُ ؛ ولا معوّل عليه عند ذلك أفضل من الصبر واحتساب الأجر ، فيُماذكم القوم دولتهم امتداد العنانين في عنق الجواد ، حتى إذا بلغ الله بالأمر مداه ، وجاء الوقت المبلول بريق النبي صلى الله عليه وسلم ، مع الخلقة المطبوعة على ملالة الشيء المحبوب ، كانت الدولة كالإناء المُكْفأ فعندها أوصيكم بتقوى الله الذي لم يتقِه غيركم فيكم ، فجعل العاقبة لكم ، والعاقبة للمتقين .

قال عمرو بن عتبة : فدخلت عليه يوماً آخر فقال : ياعمرو ، أوَعيْت كلامي ؟ قلت : وعيْتُ . قال : أعد عليّ كلامي ، فلقد كلمتكم وما أراني أمسى من يومكم ذلك .

شبيب وعبدالله

قال شبيب بن شيبة الأهتمي حَجَجْت عام هَلَك هشام وولى الوليد بن يزيد ، وذلك سنة خمس وعشرين ومائة ، فبينما أنا مريح ناحية من المسجد ، إذ طالع

من بعض أبواب المسجد فتى أسمرُ رقيق السُّمرة ، مُوَفَّر اللِّمّة ، خفيف اللّحية ، رحب الجبهة ، أقنى بيّن القَنا ، أعْيَن كأن عينيه لسانان ينطقان ، يَخلط أُبّهة الأملاك بزِى النُّساك ، تقبله القلوب ، وتتبعه العيون ، يُعرف الشرف فى تواضعه والعتق فى صورته ، واللّب فى مِشيته ؛ فما ملكت نفسى أن نهضت فى أثره سائلا عن خبره ، وسبقنى فتحرّم بالطواف ، فلما سبّع قصد المقام فركع ، وأنا أرعاه بصرى ، ثم نهض منصرفا ، فكأن عيناً أصابته ، فكبا كبوة دميت لها أصبعه ، فقعد لها القرفصاء ، فدنوت منه متوجعاً لما ناله ، متصلا به ، أمسح رجله من عفر التراب ، فلا يمتنع علىّ ، ثم شققت حاشية ثوبه فعصبت بها أصبعَه وما يُنكر ذلك ولا يدفعه ، ثم نهض متوكئاً علىّ ، وانقدت له أماشيه ، حتى إذا أتى دارا بأعلى مكة ابتدره رجلان تكاد صدورهما تنفرج من هيبته ، ففتحا له الباب فدخل واجتذبنى فدخلت بدخوله ؛ ثم خلّى يدى وأقبل على القبلة ، فصلى ركعتين أوجز فيهما فى تمام ، ثم استوى فى صدر مجلسه ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم أتم صلاة وأطيبها ، ثم قال : لم يَخْفَ علىّ مكانُك منذ اليوم ولا فعلك بى ؛ فمن تكون يرحمك الله ؟ قلت : شبيب بن شيبة التميمى ، قال : الأهتمى ؟ قلت : نعم . قال : فرحّب وقرّب ، ووصف قومى بأبين بيان وأفصح لسان ، فقلت له : أنا أجلك — أصلحك الله — عن المسألة ، وأحبُّ المعرفة ! فتبسم وقال : لطف أهل العراق ! أنا عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله ابن عباس . فقلت : بأبى أنت وأمى ، ما أشبهك بنسبك وأدلّك على منصبك ! ولقد سبق إلى قلبى من محبتك ما لا أبلُغه بوصفى لك ! قال : فاحمد الله يا أخا بنى تميم فإنا قوم إنما يُسعِد الله بحبّنا مَن أحبَّه ؛ ويُشقى ببغضنا من أبغضَه ، ولن يصل الإيمان إلى قلب أحدكم حتى يحب الله ويحب رسوله ؛ ومهما ضعفنا عن جزائه قوى الله على أدائه . فقلت له : أنت توصف بالعلم وأنا من حمَلته ، وأيام الموسم ضيقة ، وشغل أهل مكة كثير ، وفى نفسى أشياء أحِبُّ أن أسأل عنها ؛ أفتأذن لى فيها جُعلت فداك ؟ قال : نحن من أكثر الناس مستوحشون ، وأرجو أن تكونْ

للسرّ موضعا ، وللأمانة واعيا ؛ فإن كنت كما رجوت فافعل . قال : فقدّمت من وثائق القول والأيمان ماسكن إليه ، فتلا قول الله : ﴿ قلْ أيُّ شيءٍ أكْبَر شَهادةً ؟ قلِ اللهُ شهيدٌ بيْني وبيْنَكُمْ ﴾ .

ثم قال : سل عما بدالك .

قلت : ماترى فيمن على الموسم ؟ وكان عليه يوسف بن محمد بن يوسف الثقفى خال الوليد ؛ فتنفس الصعداء وقال : عن الصلاة خلفه تسألنى ، أم كرهت أن يتأمّر على آل الله من ليس منهم ؟ قلت : عن كلا الأمرين . قال : إن هذا عند الله لعظيم ؛ فأما الصلاة ففرض لله تعبّدَ به خلقَه ؛ فأدِّ ما فرض الله تعالى عليك فى كل وقت مع كلِّ أحد وعلى كل حال ؛ فإن الذى ندبك لحجّ بيته وحضور جماعته وأعياده لم يخبرك فى كتابه بأنه لا يقبل منك نسكا إلا مع أكمل المؤمنين إيمانا ، رحمةً منه لك ؛ ولو فعل ذلك بك ضاق الأمر عليك ؛ فاسمح يُسمَح لك .

قال : ثم كررت فى السؤال عليه ، فما احتجت أن أسأل عن أمر دينٍ أحداً بعده . ثم قلت : يزعم أهل العلم أنها ستكون لكم دولة . فقال : لا شك فيها ، تطلع طُلوع الشمس وتظهر ظهورها ؛ فنسأل الله خيْرَها ، ونعوذ بالله من شرِّها ؛ فخذ بحظ لسانك ويدك منها إن أدركتها . قلت : أو يتخلف عنها أحد من العرب وأنتم سادتُها؟ قال : نعم ، قومٌ يأبوْن إلا الوفاء لمن اصطنعهم ، ونأبى إلا طَلَباً بحقنا ، فنُنْصر ويُخذَلون ، كما نصر بأولنا أوّلهم ، ويُخذل بمخالفتنا مَن خالف منهم قال : فاسترجعت ، فقال : سهُل عليك الأمر ﴿ سُنّةَ اللهِ التى قد خَلَتْ مِن قبْلُ ولَنْ تَجِدَ لِسُنّةِ الله تبديلا ﴾ . وليس مايكون لهم بحاجز لنا عن صلة أرحامهم وحفظ أعقابهم وتجديد الصنيعة عندهم . قلت : كيف تسلم لهم قلوبكم وقد قاتلوكم مع عدوِّكم ؟ قال : نحن قوم حُبِّبَ إلينا الوفاء وإن كان علينا ؛ وبُغِّض إلينا الغدر وإن كان لنا ، وإنما يشذُّ عنا منهم الأقل ؛ فأما أنصار دولتنا ونقباء شيعتنا وأمراء جيوشنا فهم مواليهم ، وموالى القوم من أنفسهم ؛ فإذا وضعَت الحرب أوزارها صفحنا بالمحسن عن المسيء ، ووهبنا للرجل قومه ومن اتصل بأسبابه ؛ فتذهب

النائرة ، وتخبو الفتنة ، وتطمئن القلوب . قلت : ويقال ، إنه يُبتلى بكم من أخلص لكم المحبة . قال : قد روى : إن البلاء أسرع إلى محبينا من الماء إلى قراره . قلت : لم أُرِدْ هذا . قال : فمه ؟ قلت : تعُقُّون الولىّ وتُحظُون العدوّ ! قال : من يسعد بنا من الأولياء أكثر ، ومن يسلم لنا من الأعداء أقلُّ وأيسر ؛ وإنما نحن بشر ٥ وأكثرنا أذن ، ولا يعلم الغيب إلا الله ، وربما استترت عنا الأمور فنقع بما لا نريدُ وإن لنا لإحسانا يأسو الله به ما نكلم ، ويرمّ به ما نَثْلم ، ونستغفر الله مما لا نعلم ، وما أنكرت من أن يكون الأمر على ما بلغك ، ومع الولىِّ التعزز والإدلال ، والثقة والاسترسال ؛ ومع العدو التحرز والاحتيال ، والتذلل والاغتيال ، وربما أمَلّ المدِل ، وأخلّ المسترسل ، وتجانب المتقرب ؛ ومع الثِقَة تكون الثقة ؛ على ١٠ أن العاقبة لنا على عدوّنا ، وهى لولينا ؛ وإنك لسئول يا أخا بنى تميم . قلت : إنى أخاف أن لا أراك بعد اليوم ! قال : إنى لأرجو أن أراك وترانى كما تحب عن قريب إن شاء الله تعالى ! قلت : عجّل الله ذلك . قال : آمين . قلت : ووهب لى السلامة منكم فإنى من محبيكم ! قال : آمين . وتبسم وقال : لا بأس عليك ما أعاذك الله من ثلاث . قلت : وما هى ؟ قال : قدحٌ فى الدين ، أو هتك للمُلْك ، ١٥ أو تُهمَة فى حرمته ، ثم قال : احفظ عنى ما أقول لك ، أَصْدُقْ وإن ضرّك الصّدق ، وانصَحْ وإن باعدَك النُّصح ، ولا تجالس عدونا وإن أحظيناه ، فإنه مخذول ؛ ولا تخذُل ولينا ، فإنه منصور ؛ وأصحبنا بترك المماكرة ، وتواضع إذا رفعوك ، وصِلْ إذا قطعوك ، ولا تسخف فيمقتوك ، ولا تنقبض فيتحشموك ، ولا تبدأ حتى يبدءوك ، ولا تخطبِ الأعمال ، ولا تتعرض للأموال ؛ وأنا رائحٌ ٢٠ من عشيّتى هذه ؛ فهل من حاجة ؟

فنهضت لوداعه فودعتُه ، ثم قلت : أترقّب لظهور الأمر وقتاً ؟ قال : الله المُقدِّر المُوَقِّت ، فإذا قامت النّوحتان بالشام فهما آخر العلامات . قلت : وماهما ؟ قال : موت هشام العام ، وموت محمد بن على مستهلّ ذى القعدة ، وعليه أُخْلِفَت بما بلغتُكم حتى أنضيْت ، قلت : فهل أوْصى ؟ قال : نعم ، إلى ابنه إبراهيم .

قال : فلما خرجت إذا مولى له يتبعنى ، حتى عرف منزلى ، ثم أتانى بكسوة من كسوته ، فقال : يأمرك أبو جعفر أن تصلى فى هذه . قال : وافترقنا .

قال : فوالله مارأيته إلا وحرسيان قابضان علىّ يدنيانى منه فى جماعة من قومى لأبايعه ، فلما نظر إلىّ اثبتنى ، فقال : خليا عمن صحّت مودتُه ، وتقدمت حُرْمتُه ، وأُخِذَتْ قبل اليوم بيعتُه . قال : فأكبر الناس ذلك من قوله ، ووجدته على أول عهده لى ؛ ثم قال لى : أين كنت عنى فى أيام أخى أبى العباس؟ فذهبت أعتذر ، قال : أمْسِكْ ؛ فإن لكل شىء وقتاً لا يعدوه ، ولن يفوتَك إن شاء الله حظُّ مودتِك وحق مسابقتك ، فاختر بين رزق يسعُك ، أو عمل يرفعك . قلت : أنا حافظٌ لوصيتك ! قال : وأنا لها أحفظ ، إنما نهيتك أن تخطب الأعمال ولم أنهك عن قبولِها . قلت : الرزقُ مع قرب أمير المؤمنين أحبُّ إلىّ . قال : ذلك لك وهو أجمُّ لقلبك وأودعُ لك ، وأعْفَى إن شاء الله . ثم قال : هل زدتَ فى عيالك بعدى شيئاً ؟ وكان قد سألنى عنهم ، فذكرتهم له فعجبت من حفظه .

قلت : الفرس والخادم .

قال : قد ألحقنا عيالك بعيالنا ، وخادمَك بخادمنا ، وفرسك بخيلنا ، ولو وسعنى لحملتُ إليك من بيت المال ، وقد ضممتك إلى المهدى ، وأنا أوصيه بك ، فإنه أفرغ لك منى .

الأحوص وأيمن وابن حزم مع الوليد

قال الأحوص بن محمد الشاعر الأنصارى ، من بنى عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح الذى حمت لحمه الدَّبْر ، يشبِّب بامرأة يقال لها أمّ جعفر ، فقال فيها :

أدورُ ولولا أن أرَى أمَّ جعفرٍ ... بأبياتِكم مادُرْتُ حيث أدورُ

وكان لأمّ جعفر أخٌ يقال له أيمن ، فاستعدى عليه ابن حزم الأنصارى وهو والى المدينة للوليد بن عبد الملك — وهو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم — فبعث ابنُ حزم إلى الأحوص فأتاه ، وكان ابن حزم يبغضه ؛ فقال : ماتقول فيما يقول هذا ؟ قال : وما يقول؟ قال : يزعم أنك تُشبِّب بأخته وقد فضحتَه وشهرت أخته بالشعر . فأنكر ذلك ، فقال لهما : قد اشتبه علىّ أمرُكما ، ولكنى أدفع إلى

كل واحد منكما سوطاً، ثم اجتلدا! وكان الأحوص قصيراً نحيفاً؛ وكان أيمن طويلا ضخماً جلداً، فغلب أيمنُ الأحوصَ فضربه حتى صرعه وأثخنه؛ فقال أيمن:

لقد مَنع المعروفَ من أُمّ جعفرٍ * أشَمُّ طويلُ الساعِدَيْن غيورُ
علاكَ بِمَتنِ السَّوْط حتى اتّقَيْتَهُ * بأصفرَ من ماءِ الصّفاقِ يفورُ

٥ قال: فلما رأى الأحوص تحامُلَ ابن حزم عليه، امتدح الوليد ثم شخص إليه إلى الشام، فدخل عليه فأنشده:

لا تَرْثِيَنَّ لِحَزْمِيٍّ رأيتَ به * ضُرًّا، ولو أُلقِيَ الحزْمِيُّ فى النارِ
الناخسين لِمروانٍ بِذِى خُشُبٍ * المُدْخِلين على عُثمانَ فى الدارِ

قال له: صدقت والله، لقد كنا غَفلنا عن حزم وآل حزم. ثم دعا كاتبه ١٠ فقال: اكتب عهد عثمانَ بن حيان المُرّى على المدينة، واعزل ابنَ حزم، واكتب بقبض أموال حزم وآل حزم وإسقاطهم أجمعين من الديوان، ولا يأخذوا لِأموى عطاءً أبداً. ففعل ذلك، فلم يزالوا فى الحرمان للعطاء مع ذهاب الأموال والضياع، حتى انقضت دولة بنى أمية وجاءت دولةُ بنى العباس؛ فلما قام أبو جعفر المنصور بأمر الدولة، قدم عليه أهل المدينة، فجلس لهم، فأمر حاجبه أن يتقدم إلى كلّ ١٥ رجل منهم أن ينتسب له إذا قام بين يديه: فلم يزالوا على ذلك يفعلون، حتى دخل عليه رجلٌ قصير قبيحُ الوجه، فلما مَثَل بين يديه قال له: يا أمير المؤمنين، أنا ابنُ حزم الأنصارى الذى يقول فينا الأحوص:

لا تَرْثِيَن لِحَزْمِيٍّ رأيتَ به * ضُرا ولو أُلقِيَ الحزْمِيُّ فى النارِ
الناخسين لِمروانٍ بِذِى خُشُبٍ * والمدخِلين على عثمانَ فى الدارِ

٢٠ ثم قال: يا أمير المؤمنين، حُرِمْنا العطاءَ منذ سنين، قُبضت أموالنا وضياعُنا فقال له المنصور: أعِدْ علىّ البيتين. فأعادهما عليه، فقال: أما والله لئن كان ذلك ضرّكم فى ذلك الحين لينفعنّكم اليوم! ثم قال: علىّ بسليمان الكاتب. فأتاه أبو أيوب الخوزى، فقال: اكتب إلى عامل المدينة أن يردّ جميع ما اقتطعه بنُو أمية من ضياع بنى حزم وأموالهم، ويحسب لهم ما فاتهم من عطائهم، وما استغلّ

من غلاتهم من يومئذ إلى اليوم ؛ فيُخْلَف لهم جميع ذلك من ضياع بنى مروان ، ويُفْرَض لكل واحد منهم فى شرف العطاء — وكان شرف العطاء يومئذ مائتى ألف دينار فى السنة — ثم قال : علىَّ الساعة بعشرة آلاف درهم تُدفع إلى هذا الفتى لنفقته .

فخرج الفتى من عنده بما لم يخرج به أحدٌ ممن دخل عليه . ٥

ذكر خلفاء بنى العباس

وصفاتهم ووزرائهم وحجابهم

أبو العباس السفاح

مولده — وُلِد أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب مستهلَّ رجب سنة أربع ومائة . ١٠

بيعته — وبويع له بالكوفة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

وفاته — وتوفى بالأنبار لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة ، فكانت خلافته أربع سنين وثمانية أشهر .

أمه وصفته — وأمه ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان ، وكان أبيض طويلا أقنى الأنف حسن الوجه حسن اللحية جعْدَها . ١٥

خاتمه — نقش خاتمه : الله ثقة عبد الله وبه يؤمن .

أولاده — وصلى عليه عمّه عيسى بن على ، ورزق من الولد اثنين : محمد ، من أم ولد ، ومات صغيراً ؛ وابنة سماها ريطة ، من أم ولد ، تزوجها المهدى وأولدها عليا وعبيد الله . ٢٠

وزراؤه — ووزر له أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال ؛ وهو أول من لقب بالوزارة، فقتله أبو العباس واستوزر بعده خالد بن برمك إلى آخر أيامه ، وكان حاجبه

أبو غسان صالح بن الهيثم ، وقاضيه يحي بن سعيد الأنصارى .

المنصور

بيعته

وبويع أبو جعفر المنصور . واسمه عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، فى اليوم الذى توفى فيه أخوه ، لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة .

مولده ووفاته

وكان مولده بالشَّراة لسبع خلون من ذى الحجة سنة خمس وتسعين ؛ وتوفى بمكة قبل التَّروية بيوم ، لسبع خَلَوْن من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة ، وهو مُحْرِم ، ودفن بالحجون ، وصلى عليه إبراهيم بن يحي بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ؛ وكانت مدة خلافته اثنتين وعشرين سنة إلا ثمانية أيام وكانت سنه ثلاثا وستين سنة .

أمه وصفته

وأُمّه أمة اسمها سلامة ، وجنسها بربرية ؛ وكان أسمر طوالا نحيف الجسم خفيف العارضين يخضب بالسواد ، ونقش خاتمه : « الله ثقة عبد الله وبه يؤمن »

أزواجه وأولاده

وتزوج أرْوَى بنت منصور الحميرية ، وولدت له : محمداً وهو المهدى، وجعفرا وكانت شرطت عليه ألا يتزوج ولا يتسرّى إلا عن أمرها ، وكان قد ابتاع جارينه أم على وجعلها قيّماً فى داره على أم موسى وأولادها ، فحظيت عند أم موسى وسألته التسرّى بها لِمَا رأت من فضلها ، فواقعَها فأولدها عليا ، وتوفى قبل استكمال سَنة : ثم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد الله ، فولدت له سليمان وعيسى ويعقوب ، ورُزق من أمهات الأولاد : صالحا والعالية وجعفرا والقاسم والعباس وعبد العزيز .

وزراؤه وحجابه

ووزر له ابن عطية الباهلى ، ثم أبو أيوب المورياني ، ثم الربيع مولاه ؛ وكان حاجبه عيسى بن روضة مولاه ، ثم أبو الخصيب مولاه ؛ وكان قاضيه عبد الله بن محمد بن صفوان ، ثم شريك بن عبد الله ، والحسن بن عمار ، والحجاج بن أرطأة .

المهـــدى

بيعته — ثم بويع ابنه أبو عبد الله محمد المهدى بن عبد الله المنصور بن محمد بن على ابن عبد الله بن عباس ، صبيحة اليوم الذى توفى فيه أبوه ، لستّ خلون من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة .

مولده ووفاته — وكان مولده بالحميمة يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة . وتوفى بماسَبذان فى المحرّم سنة تسع وستين ومائة ، وصلى عليه ابنه الرشيد . ٥

فكانت خلافته عشر سنين وخمسة وأربعين يوما ، وكان سنه إحدى وأربعين سنة وثمانية أشهر ويومين .

صفته وخاتمه — وكان أسمر طويلا معتدل الخلق جعد الشعر بعينه اليمنى نكتة بياض ، نقش خاتمه : « الله ثقة محمد وبه يؤمن » . ١٠

أزواجه وأولاده — وتزوج ريطة بنت السفاح وأولدها عليا وعبيد الله . وأوّل جارية ابتاعها محياة ، فرزق منها ولداً مات قبل استكمال سنة ، وكان يبتاع الجوارى باسمها وتقرّبهن إليه ، وأول من حظى منهن عنده رحيم ولدت له العباسة ثم الخيزران فولدت له موسى وهارون والبانوقة ، ثم حللة وحسنة ، فكانتا مغنيتين محسنتين ؛ وتزوج سنة تسع وخمسين ومائة أمّ عبد الله بنت صالح بن على ، أخت الفضل وعبد الله ؛ وأعتق الخيزران فى السنة وتزوجها . ١٥

وزراؤه — ووزر له أبو عبد الله معاوية بن عبد الله الأشعرى ، ثم يعقوب بن داود السلمى ، ثم الفيض بن أبى صالح .

حجابه وقضاته — واستحجب سَلامان الأبرش ، واستخلف على القضاء محمد بن عبد الله بن علاثة ، وعافية بن يزيد : كانا يقضيان معاً فى مسجد الرصافة . ٢٠

الهادى

بيعته — ثم بويع ابنه أبو محمد موسى الهادى بن المهدى ؛ مستهلّ صفر سنة تسع وستين ومائة .

وفاته — وتوفى ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة بعيساباذ ، وصلى عليه أخوه الرشيد .

وكانت خلافته سنة وشهرين إلا أياما ، وكانت سنه ستا وعشرين سنة .

صفته وخاتمه — وكان أبيض طويلا جسيما ، بشفته العليا تقلُّص . نقش خاتمه : « الله ربى » .

وتزوج أمة العزيز فأولدها عيسى ، ثم رحيم ، فأولدها جعفرا ، ثم سعوف فأولدها العباس ، واشترى جاريته حسنة بألف درهم ــ وكانت شاعرة ــ فرُزق منها عدة بنات ، منهم أم عيسى ، تزوجها المأمون ، وكان له من أمهات الأولاد : عبد الله ، وإسحاق وموسى وكان أعمى .

وزراؤه وحجابه وقضاته — ووزر له الربيع بن يونس ، ثم عمر بن بَزيع ؛ واستحجب الفضلَ بن الربيع . وولى القضاء : أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم ، فى الجانب الغربى ، وسعيد بن عبد الرحمن الجمحى ، بالجانب الشرقى .

هارون الرشيد

بيعته — ثم بويع أخوه أبو محمد هارون الرشيد فى اليوم الذى توفى فيه أخوه ، يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة . وفى هذه الليلة ولد عبد الله المأمون ، ولم يكن فى سائر الزمان ليلة ولد فيها خليفة وتوفى فيها خليفة وقام فيها خليفة غيرها .

مولده — وكان مولد الرشيد فى المحرم سنة ثمان وأربعين ومائة .

وفاته — وتوفى فى جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائة ، ودفن بطوس .

وصلى عليه ابنه صالح .

فكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وشهراً وستة عشر يوما ، وكانت سنه ستا وأربعين سنة وخمسة أشهر ؛ ولما أفضت إليه الخلافة سلم عليه عمه سليمان ابن المنصور ، والعباس بن محمد عم أبيه ، وعبد الصمد بن على عم جدّه ؛ فعبد الصمد عم العباس ، والعباس عم سليمان ، وسليمان عم هارون . ٥

صفته وخاتمه

وكان الرشيد أبيض جسيما طويلا جميلا ، وقد وخطه الشيب ، نقش خاتمه : لا إله إلا الله . وخاتم آخر : كن من الله على حذر .

أزواجه وأولاده

وتزوج زبيدة ، واسمها أمَة العزيز ، وتكنى أمّ الواحد ، وزبيدة لقب لها ؛ وهى ابنة جعفر بن المنصور ، أولدها محمداً الأمين ؛ ثم مراجل ، فأولدها عبد الله المأمون ؛ وماردة ، أولدها محمداً المعتصم ؛ ونادر ولدت له ١٠ صالحا ؛ وشَجا ، ولدت له خديجة ولبابة ؛ وسريرة ، ولدت محمدا ، وبربرية ، ولدت له أبا عيسى ثم القاسم ، وهو المؤتمن ، وسكينة ؛ وحث ، فولدت له إسحاق وأبا العباس .

وزراؤه وحجابه وقضاته

ووزر له جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى وقتلَه ، ثم الفضل بن الربيع ؛ واستحجب بشر بن ميمون مولاه ، ثم محمد بن خالد بن برمك ؛ واستخلف على ١٥ قضاء الجانب الغربى نوح بن دراج ، وحفص بن غياث .

الأمين

بيعته

ثم بويع أبو عبد الله محمد الأمين فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة .

مقتله

وقتل يوم الأحد لخمس بقين من المحرّم سنة ثمان وتسعين ومائة .

مولده

وكان مولده بالرصافة سنة إحدى وسبعين ومائة فى شوّال ؛ فكانت خلافته ٢٠ أربع سنين وستة أشهر وأياما ، صفا له الأمر من جملتها سنتين وشهرا ، وكانت الفتنة بينه وبين أخيه سنتين .

صفته وخاتمه

وكان طويلا جسيما جميلا حسن الوجه بعيد ما بين المنكبين أشقر سبطا صغير العينين ، به أثر جدري ؛ نقش خاتمه : «محمد واثق بالله» .

أزواجه وأولاده

ورزق من الولد موسى من أم ولد تدعى نظم . ولقبه : الناطق بالحق ؛ وضرب اسمه على الدراهم .

٥ وذكر الصولي قال : حدثني من قرأ على درهم :

كلّ عزّ ومَفْخَرٍ * فلموسَى المظَفَّـــرِ
مَلِكٌ خُطَّ ذِكرُه * فى الكتاب المسطَّرِ

وماتت نظم فاشتد جزعه عليها ، فدخلت زبيدة معزية له ، فقالت :

نفْسى فِداؤكَ لا يَذهبْ بك التلَفُ * فنى بقائِك مِمَّن قد مضى خلَفُ
١٠ عُوِّضْتَ موسَى فكانت كلُّ مَرْزِئَةٍ * ما بعْدَ موسى على مفقودةٍ أسَفُ

وبايع لابنه موسى فى حياته ، ولأخيه عبد الله ، وأمه أم ولد ، ونقش اسمه أيضا على الدراهم .

الأمين وجعفر ابن موسى فى جاريته

وكان لجعفر بن موسى الهادى جارية اسمها بذل ، فطلبها الأمين منه فأبى عليه ، وكان شديد الوجد بها ؛ فزاره الأمين يوما ، فسرّ به وزاد عليه فى الشرب
١٥ حتى ثمل ، فانصرف وأخذ الجارية ، فلما أصبح جعفر ندم على ما جرى ولم يدر ما يصنع فدخل على الأمين ، فلما مثل بين يديه ، قال له : أحسنت والله يا جعفر بدفعك بذلَ إلينا وما أحسنَّا . وأقر رزقه على عشرين ألف ألف درهم .

وزراؤه وحجابه

ووزر للأمين الفضل بن الربيع إلى آخر أيامه ، وكان حاجبه العباس بن الفضل ابن الربيع ، ثم على بن صالح صاحب المصلى ، ثم السندى بن شاهك .

٢٠ المأمون

بيعته

ثم بويع أبو العباس عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بعد قتل أخيه ، يوم الخميس لخمس خلون من صفر سنة ثمان وتسعين ومائة ، وكان مولده

بالياسرية فى ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة .

وفاته — وتوفى بالبذندون سنة ثمانى عشرة ومائتين لثمان خلون من رجب ، ودفن بطرَسوس ؛ فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوما ، وكان سنه ثمانياً وأربعين سنة وأربعة أشهر إلا أياما . ٥

صفته وخاتمه — وكان أبيض تعلوه شقرة ، أجْنأ أعْين ، طويل اللحية رقيقها ، ضيق الجبين ، بخده خال أسود ، وكان قد وخطه الشيب . نقش خاتمه : «سلِ الله يُعْطِك» .

حد الرشيد للمأمون — وكان الرشيد حدّ المأمون . وذلك أنه دخل على الرشيد وعنده مغنية تغنيه ، فلحنتْ ، فكسر المأمون عينه عند استماعه اللحن ، فتغير لون الجارية ، وفطن الرشيد لذلك ، فقال : أعلمتَها بما صنعت ؟ قال : لا والله يامولاى ! قال : ولا أومأتَ إليها ؟ قال : قد كان ذلك ، فقال : كن منى بمرأًى ومسمع ، فإذا خرج إليك أمرى فأتهِ إليه . ثم أخذ دواة وقرطاسا وكتب إليه : ١٠

يا آخذَ اللحْنِ على الـ * قَينَةِ عنــد الطرَبِ
تريدُ أن تُفْهِمَها * حـــدّ لغاتِ العَربِ
أُقسِمُ بالله وما * سَطر أهلُ الكُتبِ ١٥
لَلكلبُ خـــيرٌ أدَباً * مِن بعْضِ أهلِ الأدبِ

إذا قرأتَ ماكتبتُ به إليـك ، فأمُر من يضربك عشرين مقرعة جيادا ! فدعا المأمون النوابين ثم أمرهم ببطحه وضربه ، فامتنعوا ، فأقسم عليهم ؛ فامتثلوا أمره .

أولاده وزوجاته — ورزق من الولد محمدا الأصغر ، وعُبيد الله بن أم عيسى بنت موسى الهادى ٢٠ وتزوج بوران بنت الحسن بن سهل ، بنى بها سنة عشر ومائتين ، ووهب لأبيها عشرة آلاف ألف درهم ، ولولده ألف ألف درهم ؛ وكان له عدة أولاد من بنين وبنات .

وزراؤه وحجابه

ووزر له الفضل بن سهل ذو الرياستين ، ثم الحسن بن سهل ، ثم أحمد بن أبى خالد الأحول ، ثم أحمد بن يوسف ، ثم ثابت بن يحيى ، ثم محمد بن يزداد ، واستحجب عبد الحميد بن شبيب ، ثم محمدا وعليا ابنى صالح مولى المنصور .

المعتصم بالله

بيعته

٥ ثم بويع أخوه أبو إسحق المعتصم بن الرشيد يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من رجب سنة ثمانى عشرة ومائتين ، وكان مولده فى شهر رمضان سنة ثمان وسبعين ومائة .

وفاته

وتوفى بسرَّ مَن رأى يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين ، وصلى عليه ابنه هارون الواثق .

خلافته

١٠ وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر ؛ وأمه أمُّ ولد يقال لها ماردة .

صفته وخاتمه

وكان أبيض أصهب اللحية طويلها مربوعها مشرب اللون حمرة ؛ نقش خاتمه : « الله ثقة أبى إسحاق بن الرشيد وبه يؤمن » ؛ وكان شديد البأس ، حمل بابا من حديد فيه سبعمائة وخمسون رطلا وفوقه عِكام فيه مائتان وخمسون رطلا ، وخطا خُطا كثيرة ؛ وكان يسمى مابين أصبعى المعتصم : المِقطرة ، لشدته ؛ وإنه اعتمد يوما ١٥ على غلام فدقَّه ، وذكر الصولى أنه كان يسمي المثمّن ، وذلك أنه الثامن من خلفائهم .

مولده

ومولده سنة ثمان وسبعين ومائة ، وولى الأمر فى سنة ثمان عشرة ومائتين .

موته وخلافته

ومات وله ثمان وأربعون سنة ، وكانت خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر ؛ ورزق من الولد الذكور ثمانية ، ومن الإناث ثمانيا ؛ وغزا ثمان غزوات ، ٢٠ وخلف فى بيت ماله ثمانية آلاف ألف دينار ، ومن الورِق ثمانية آلاف ألف درهم .

وزراؤه وحجابه

ووزر له الفضل بن مروان ، ثم أحمد بن عمار ، ثم محمد بن عبد الملك الزيات ، واستحجب وصيفا مولاه ، ثم محمد بن حماد بن دَنقش .

الواثق

بيعته — ثم بويع ابنه أبو جعفر هارون الواثق ، صبيحة اليوم الذى توفى فيه أبوه يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين .

مولده — وكان مولده يوم الاثنين لعشرة بقين من شعبان سنة ست وتسعين ومائة . ٥

وفاته — وتوفى بسر من رأى يوم الأربعاء لست بقين من ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ، وصلى عليه أخوه المتوكل ؛ فكانت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وثلاثة عشر يوما وكانت سنُّه ستا وثلاثين سنة وأربعة أشهر وأياما .

صفته وخاتمه — وكان أبيض إلى الصفرة ، حسن الوجه جسيما ، فى عينه اليمنى نكتة بياض . نقش خاتمه : «محمد رسول الله» . وخاتم آخر : «الواثق بالله» . ١٠

أولاده وزوجاته — ورزق من الولد محمد المهتدى ، وأمه أم ولد يقال لها قرب ؛ وعبد الله ، وأبا العباس أحمد ، وأبا إسحق محمدا ، وأبا إسحق إبراهيم .

وزراؤه وحجابه — ووزر له محمد بن عبد الملك الزيات ، وحاجبه اتباخ ، ثم وصيف مولاه ، ثم ابن دنفش ؛ وقاضيه ابن أبى دواد .

المتوكل

١٥

بيعته — ثم بويع أخوه أبو الفضل جعفر المتوكل يوم الأربعاء لست بقين من ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين .

مولده — وكان مولده يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة ست ومائتين .

مقتله — وقتل ليلة الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين ، ودفن فى القصر الجعفرى ، وصلى عليه ابنه المنتصر ولى عهده ؛ فكانت مدة خلافته أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسعة أيام ؛ وكان سنه أربعين سنة إلا ثمانية أيام . ٢٠

وكان أسمر كبير العينين نحيف الجسم خفيف العارضين . نقش خاتمه :

«على إلٰهى اتكالى» . وكان كثير الولد .

وزراؤه — وزر له محمد بن عبد الملك الزيات ، ثم محمد بن الفضل الجرجانى ، ثم عبيد الله بن يحيى بن خاقان ؛ واستحجب وصيفا التركى ، ثم محمد بن عاصم ، ثم إبراهيم ابن سهل ؛ وكان خليفته على القضاء يحيى بن أكثم .

المنتصر

٥

بيعته — ثم بويع ابنُه أبو جعفر محمد المنتصر لأربع خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين .

مولده — وكان مولده يوم الخميس لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين ومائتين

موته — ومات ليلة السبت لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة . ثمان وأربعين ومائتين .

١٠ فكانت خلافته ستة أشهر ، وسنّه ستة وعشرين سنة إلا ثلاثة أيام .

صفته وخاتمه — وكان قصيرا أسمرَ ضخمَ الهامة عظيم البطن جسيما ، على عينه اليمنى أثر . نقش خاتمه : «يؤتَى الحذرُ من مأمنه» ، وعلى خاتم آخر : «أنا من آل محمد ، اللهُ وليِّي ومحمد» .

أولاده — ورزق من الولد عليا وعبد الوهاب وعبد الله وأحمد .

١٥ ووزر له أحمد بن الخصيب ، وحاجبه وصيف ، ثم بغا ، ثم ابن المرزبان ، ثم أوتامش .

المستعين

بيعته — ثم بويع المستعينُ أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم ، يوم الاثنين لأربع خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين .

٢٠ عزله — وخلع نفسه ـ بموافقة المعتز بوساطة أبى جعفر المعروف بابن الكُردية ـ يوم الجمعة لأربع خلون من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين . وكانت خلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر .

مولده — وكان مولده يوم الثلاثاء لأربع خلون من رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين .

مقتله — وقُتل بالقادسية بعد خلعه نفسه بتسعة أشهر ، وأمه أم ولد يقال لها مخارق .

صفته وخاتمه — وكان مربوعا ، أحمر الوجه ، أشقر ، مُسمنا ، عريض المنكبين ، ضخم الكراديس ، خفيف العارضين ، بوجهه أثر جدرى ، ألثغ بالسين ، نقش خاتمه : « فى الاعتبار غِنًى عن الاختبار » .

وزراؤه وحجابه — وزر له أحمد بن الخَصيب فنكبه ، وقلد مكانه ابن يزداد ، ثم شجاع بن القاسم كاتب أُتامش ، وأتامش هنوار حاجبه ، وكانت سنه إحدى وثلاثين سنة إلا ثمانية أيام . ٥

المعتز

بيعته — ثم ولى أبو عبد الله محمد المُعتز بن المتوكل ، يوم الجمعة لأربع خلون من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، وكانت الفتنة قبل ذلك بينه وبين المستعين سنة . ١٠

مقتله — وقتل عشية يوم الجمعة لليلةٍ خلت من شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين .

مولده — وكان مولده يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائتين .

خلافته — وكانت خلافته منذ بويع له ، واجتمعت الكلمة عليه ثلاث سنين وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوما ، ومنذ بايعه أهل سرَّ مَن رأى إلى أن قتل ، أربع سنين وستة أشهر وخمسة عشر يوما ، وقتله صالح بن وصيف . ١٥

صفته وخاتمه — وكان أبيض شديد البياض ، ربعة ، حسن الجسم ، على خده الأيسر خال أسود الشعر . نقش خاتمه : « الحمد لله رب كل شيء وخالق كل شيء » .

وزراؤه — وزر له جعفر بن محمود الإسكافى ، ثم عيسى بن فرخان شاه ، ثم أحمد بن إسرائيل الأنبارى . ٢٠

حجابه — وحاجبه سماء بن صالح بن وصيف . وكانت سنه أربعا وعشرين سنة وشهرين وأياما .

المهتدى

بيعته — ثم بويع المهتدى أبو عبد الله محمد بن الواثق بسرّ من رأى، يوم الأربعاء لليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين.

مولده ومقتله وخلافته — كان مولده يوم الأحد لخمس خلون من شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة ومائتين. وقتل بسرّ من رأى بسهم لحقه يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ست وخمسين ومائتين؛ فكانت خلافته أحد عشر شهرا وأربعة عشر يوما. وكانت سنه سبعا وثلاثين سنة وأربعة أشهر وأحد عشر يوما.

صفته وخاتمه — وكان أبيض مشربا حُمرة، صغير العينين، أقنى الأنف، فى عارضيه شيب؛ وخضّب لما ولىَ الخلافة. نقش خاتمه: «من تعدّى الحق ضاق مذهبُه».

وزراؤه وحجابه — وزر له أبو أيوب سليمان بن وهب. وحاجبه باكباك.

المعتمد

بيعته — ثم بويع أبو العباس أحمد المعتمد بن المتوكل، يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ست وخمسين ومائتين.

مولده — وكان مولده يوم الثلاثاء لثمان بقين من المحرم سنة تسع وعشرين ومائتين.

وفاته وخلافته — وتوفى ببغداد لأربع عشرة ليلة خلت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين؛ فكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة؛ وكان سنه خمسين سنة وخمسة أشهر واثنين وعشرين يوما.

ومات أخوه وولىُّ عهده طلحة الموفق فى أيامه، فى صفر سنة ثمان وسبعين ومائتين؛ وكان قد غلب على الأمر لميل الناس إليه، وكان المعتمد قد عقد لولده جعفر — ولقبه المفوّض — وبعده لأبى أحمد طلحة الموفق، فاشتد أمر الموفق وقتل صاحب الزنج فى سنة سبعين ومائتين ومال الناس إليه واسمه الناصر لدين الله وكان يدعى له على المنبر فى أيام المعتمد.

وكان الموفق حبس ابنه أبا العباس المعتضد، فلما حضرته الوفاة أطلقه للقيام

بالأمر ، وأجرى المعتمد أمره على ما كان يجرى عليه أمر أبيه الموفق ، وأفرده بولاية العهد ، وأمر بكتب الكتب لخلع ابنه المفوض ، وأفرد المعتضد بالعهد وجعله الخليفة بعده .

صفته وخاتمه — وكان المعتمد أسمر مربوعا نحيف الجسم حسن العينين مدور الوجه ، على وجهه أثر جدرى . نقش خاتمه : « السعيد من كُفى بغيره » . ٥

ووزر له عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، ثم سليمان بن وهب ، ثم الحسن بن مخلد ، ثم صاعد بن مخلد ، ثم أبو الصقر إسماعيل بن بلبل .

حجابه — حاجبه موسى بن بغا ، ثم جعفر بن بغا ، ثم بكتمر .

المعتضد

بيعته — بويع المعتضد أبو العباس أحمد بن الموفق فى رجب سنة تسع وسبعين ومائتين . ١٠

مولده ووفاته — وكان مولده فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين ومائتين ، وتوفى ببغداد ليلة الثلاث لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين ، وصلى عليه أبو عمر القاضى .

خلافته — فكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر وأربعة أيام ؛ وكان سنه خمساً وأربعين سنة وتسعة أشهر وأياما . ١٥

أمه وصفته وخاتمه — وأمه ضرار ؛ وكان نحيف الجسم معتدل القامة طويل اللحية أسمر . نقش خاتمه : « الاضطرار يزيل الاختيار » .

وزراؤه وحجابه — ووزر له عبيد الله بن سليمان بن وهب ؛ ثم ابنه القاسم بن عبيد الله . وحاجبه صالح الأمين .

المكتفى

٢٠

بيعته — ثم بويع ابنه أبو محمد على بن المعتضد يوم الثلاثاء لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين .

مولده — وكان مولده فى رجب سنة أربع وستين ومائتين .

وفاته

وتوفى ببغداد فدفن عند قبر أبيه ليلة الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين .

خلافته

وكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وعشرين يوما ؛ وكان سنه إحدى وثلاثين سنة وأربعة أشهر وأياما .

أمه

٥ وأمه جيجق ، وقيل خاضع .

صفته

وكان ربعة حسن الوجه أسْوَد الشعر وافر اللحية عريضها ، ولم يَشِبْ إلى أن مات .

خاتمه

نقش خاتمه : « بالله على بن أحمد يثق » .

وخلّف في بيت ماله [من الذهب] ستة عشر ألف ألف دينار ، ومن الورق ١٠ ثلاثين ألف ألف درهم .

وزراؤه وحجابه

ووزر له القاسم بن عبيد الله ، ثم العباس بن الحسن ، ثم الحسن بن أيوب .

وحاجبه خفيف السمّرقندي ، ثم سوسن مولاه .

المقتدر

بيعته

ثم بويع المقتدر وهو أبو الفضل جعفر بن المعتضد في اليوم الذي توفي فيه ١٥ أخوه يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين وخُلع في خلافته دفعتين : الأولى بعد جلوسه بأربعة أشهر وأيام ، بابن المعتز ، وبطل الأمر من يومه ؛ والدفعة الثانية بعد إحدى وعشرين سنة وشهرين ويومين من خلافته ، وخلع نفسه وأشهد عليه ، وأجلس القاهر يومين وبعض اليوم الثالث ، ووقع الخلف بين العسكرين وعاد المقتدر إلى حاله .

مولده

٢٠ وكان مولده لثمان بقين من شهر رمضان سنة اثنتين وثمانين ومائتين .

مقتله وخلافته

وقتل بالشماسية يوم الأربعاء لثلاث بقين من شوال سنة عشرين وثلثمائة . فكانت خلافته خمسا وعشرين سنة إلا خمسة عشر يوما ، وكانت سنه ثمانيا وثلاثين سنة وشهرا وعشرين يوما .

صفته وكان أبيض مشرَباً بحمرة، حسن الخُلُق، ضخم الجسم، بعيد ما بين المنكبين جعد الشعر، مدور الوجه، قد كثر الشيب فى وجهه.

خاتمه نقش خاتمه: «الحمد لله الذى ليس كمثله شىء وهو على كل شىء قدير».

وزراؤه ووزر له العباس بن الحسن، ثم على بن محمد بن موسى بن الفرات، ثم عُبيد الله بن خاقان، ثم أبو الحسن على بن عيسى بن داود بن الجراح، ثم حامد ابن العباس، ثم أحمد بن عبيد الله الخصيبى، ثم محمد بن على بن مقلة، ثم سليمان ابن الحسن بن مخلد بن الجراح، ثم عبيد الله بن محمد الكلوذانى، ثم الحسين بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب، ثم الفضل بن جعفر بن موسى بن الفرات.

حجابه واستحجب سوسنا، مولى المكتفى، ونصراً القشورى، وياقوتا المعتضدى، وإبراهيم ومحمدا، ابنى رائق.

القــاهر

بيعته ثم بويع أخوه أبو منصور محمد القاهر بن المعتضد يوم الخميس لليلتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلثمائة.

خلعه وخُلِع وسُمِل يوم الأربعاء لخمس خلون من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة.

مولده وكان مولده لخمس خلون من جمادى الأولى سنة سبع وثمانين ومائتين.

خلافته وكانت خلافته سنة وستة أشهر وستة أيام، وعاش إلى أيام المطيع، وكانت سنه . ...[1]

صفته وكان ربعة أسمر اللون، معتدل القامة، أصهب الشعر.

وزراؤه ووزر له أبو على محمد بن مقلة، ثم محمد بن القاسم بن عبيد الله، ثم أحمد بن عبيد الله الخصيبى.

حجابه واستحجب على بن يلبق مولى يونس، ثم سلامة الطولونى.

(١) هنا بياض بالأصل؛ ويلاحظ أن خلافة المطيع كانت ٣٣٤-٣٦٣؛ وقد توفى ابن عبد ربه صاحب العقد سنة ٣٢٨ ...، فليس من شك أن هذه زيادة على الأصل لم تكن فيه لعهد مؤلفه، زادها من زادها لغرض لم نحققه؛ انظر مقدمتنا للتعريف بالكتاب ومؤلفه ج١

الراضى

بيعته — ثم بويع الراضى أبو العباس أحمد بن المقتدر يوم الأربعاء لست خلون من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة.

مولده — وكان مولده فى رجب سنة سبع وتسعين ومائتين.

٥ وفاته — ومات ببغداد ليلة السبت لأربع عشرة بقيت من شهر ربيع الأول من سنة تسع وعشرين وثلثمائة ودفن بالرّصافة.

خلافته — وكانت خلافته ست سنين وثمانية أشهر وعشرة أيام، وكانت سنه إحدى وثلاثين سنة وثمانية أشهر وأياما.

أمه — وأمه أم ولد يقال لها ظلوم؛ وكان قصير القامة نحيف الجسم أسود الشعر

١٠ رقيق السمرة فى وجهه طول.

خاتمه — نقش خاتمه: «محمد رسول الله».

وزراؤه — ووزر له أبو على محمد بن مقلة، ثم ابنه أبو الحسين على بن محمد، ثم عبد الرحمن ابن عيسى بن داود بن الجراح، ثم محمد بن القاسم الكرخى، ثم سليمان بن الحسن ابن محمد بن الجراح، ثم الفضل بن جعفر بن الفرات، ثم أبو عبيد الله أحمد

١٥ ابن محمد اليزيدىّ.

حجابه — استحجب محمد بن ياقوت؛ ثم ذكيا مولاه.

المتــــقى

بيعته — ثم بويع أخوه المتقى أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر، يوم الأربعاء لعشر بقين من شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلثمائة.

٢٠ خلعه — وخُلع وسُمل يوم السبت لثمان خلون من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة.

مولده — وكان مولده فى شعبان سنة سبع وتسعين ومائتين.

خلافته — وكانت خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهراً إلا أياما.

صفته — وكان أبيض تعلوه حمرة، أصهب شعر اللحية، كث اللحية، بفكه الأدنى عوج،

خاتمه — نقش خاتمه : « محمد رسول الله ».

وزراؤه — ووزر له أحمد بن محمد بن ميمون ؛ ثم اليزيدى ، ثم سليمان بن الحسن بن مخلد ، ثم أبو إسحاق محمد بن أحمد القراريطى . ثم محمد بن القاسم الكرخى ، ثم أحمد بن عبد الله الأصبهانى ، ثم على بن محمد بن مقلة .

٥ واستحجب سلامة مولى خمارويه بن أحمد الطولونىّ ، ثم بدراً الخرشنى ، ثم عبد الرحمن بن أحمد بن خاقان المُفلحى .

المستكفى

بيعته — ثم بويع أبو القاسم عبد الله بن على المستكفى فى صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة بالسندية عقيب كسوف القمر .

١٠ خلعه — وخلع فى شعبان سنة أربع وثلاثين وثلثمائة ، فكانت خلافته سنة واحدة وستة أشهر وأياما .

مولده ووفاته — كان مولده مستهل سنة اثنتين وتسعين ومائتين . وتوفى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة . وكانت سنه سبعاً وأربعين سنة ، وأمُّه أم ولد يقال لها غصن ، وكان أبيض تعلوه حمرة ، ضخم الجسم ، تام الطول ، خفيف العارضين كبير العينين ، أشهل ، جهورى الصوت . نقش خاتمه « محمد رسول الله ».
١٥

وزراؤه وكتابه وحجابه — وزر له محمد بن على السر من رائىّ . واستكتب بعده أبا أحمد الفضل بن عبد الله الشيرازى . واستحجب أحمد بن خاقان .

المطيـــع

بيعته — ثم بويع المطيع أبو القاسم الفضل بن المقتدر لسبع بقين من شعبان سنة أربع وثلاثين وثلثمائة .
٢٠

خلعه — وخلع نفسه ببغداد لسبع عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة ثلاث وستين وثلثمائة .

مولده — وكان مولده فى النصف من ذى القعدة سنة إحدى وثلثمائة وتوفى فى ... [1] فكانت خلافته تسعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوما .

أمه — وأمه أم ولد تدعى مشعلة . وكان سنه . . . . [2] .

صفته — وكان شديد البياض أسود شعر الرأس واللحية .

وزراؤه — وزر له علي بن محمد بن مقلة ، والناظر فى الأمور أبو جعفر الصيمرى كاتب أحمد بن بويه، ثم استولى على اسم الوزارة ؛ وكتب للمطيع الفضل بن عبد الرحمن الشيرازى ، ومات ، وقام مقامه أبو محمد الحسن بن محمد المهلبي .

حجابه — وحاجبه عز الدولة بختيار بن معز الدولة .

تم الجزء الخامس

من العقد الفريد لابن عبد ربه

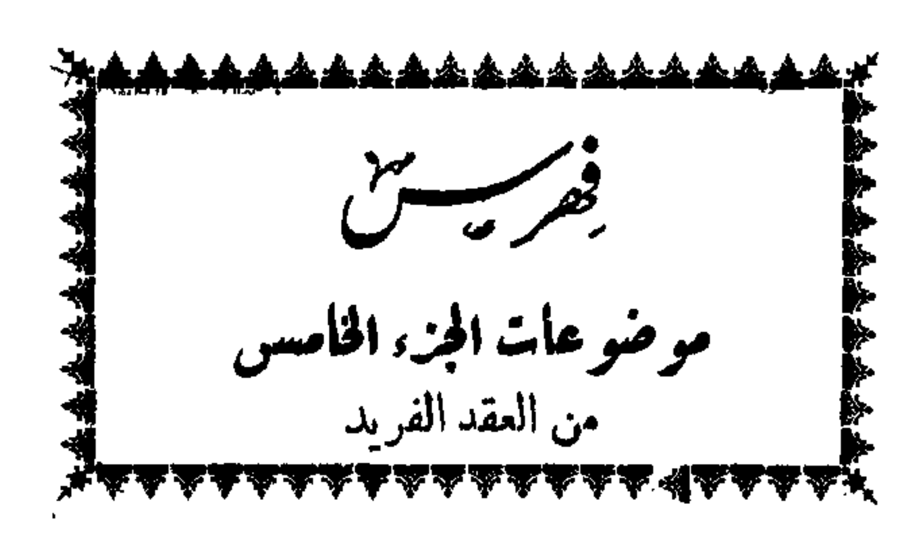
ويليه — إن شاء الله — الجزء السادس

وأوله : كتاب الدرة الثانية ، فى أيام العرب ووقائعها

---

(١) بياض بالأصل ، وكانت وفاة المطيع سنة ٣٦٤ .

(٢) بياض بالأصل ، وقد كان عمره قريباً من ثلاث وخمسين سنة .


فهرس
موضوعات الجزء الخامس
من العقد الفريد

صفحة

صحيفة

تمّ الفهرس

العِقْدُ الفَرِيدُ

تأليف

الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي

المتوفى سنة ٣٢٨هـ

بتحقيق

محمد سعيد العريان

الجزء السادس

يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى

[الطبعة الثانية]

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

١٣٧٢ — ١٩٥٣

كتاب الدرة الثانية

فى أيام العرب ووقائعهم

لابن عبد ربه — قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه رضى الله عنه :

قد مضى قولنا فى أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة ، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه فى أيام العرب ووقائعهم ؛ فإنها مآثر الجاهلية ، ومكارم الأخلاق السنية . ٥

قيل لبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما كنتم تتحدّثون به إذا خلوتم فى مجالسكم ؟

قال : كنا نتناشد الشعر ونتحدّث بأخبار جاهليتنا .

وقال بعضهم : وددت أنّ لنا مع إسلامنا كرمَ أخلاق آبائنا فى الجاهلية : ١٠
ألا ترى أنّ عنترة الفوارس جاهلى لا دين له ، والحسَن بن هانئ إسلامى له دين ؛ فمنع عنترةَ كرمُه ما لم يمنع الحسنَ بن هانئ دينُه ، فقال عنترة فى ذلك :

وأغضّ طرْفى إن بَدتْ لى جارتى * حتى يُوارىَ جارتى مأواها

وقال الحسن بن هانئ مع إسلامه :

كان الشبابُ مَطيّةَ الجهلِ * ومُحسّن الضّحكاتِ والهزْلِ ١٥

والباعِثى والناسُ قد رقَدوا * حتى أتيتُ حَليلةَ البعْلِ

حروب قيس فى الجاهلية

يوم منعج : لغنىّ على عبس

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : يوم مَنْعِج يقال له يوم الرِّدْهة ، وفيه قتل شاس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسى بمنعج على الردهة ، وذلك أنّ شاس ابن زهير أقبل من عند النعمان بن المنذر ، وكان قد حباه بحِباء جزيل ، وكان فيما حباه قطيفةٌ حمراء ذات هدبٍ ، وطيلسان وطيب ؛ فورد منعج وهو ماء لغنيّ ، فأناخ راحلته إلى جانب الردهة وعليها خباء لرياح بن الأسل الغنوى ، وجعل يغتسل وامرأةُ رياح تنظر إليه وهو مثل الثور الأبيض ؛ فانتزع له رياح سهماً فقتله ، ونحر ناقته فأكلها ، وضم متاعه ، وغيَّب أثرَه . وفُقد شاسُ بن زهير حتى وجدوا القطيفة الحمراء بسوق عكاظ ، قد سامتْها امرأةُ رياح بن الأسل ؛ فعلموا أنّ رياحا صاحب ثأرهم ، فغزتْ بنو عبس غنيّا قبل أن يطلبوا قَوَداً أو دية ، مع الُحصين بن زهير بن جذيمة ، والحصين بن أسيد بن جَذيمة ؛ فلما بلغ ذلك غنيًّا قالوا لرياح : آنْجُ لعلنا نصالحُ القوم على شيء فخرج رياح رديفاً لرجل من بنى كلاب ، لا يريان إلا أنهما قد خالفا وجهة القوم ، فمرّ صُرَدٌ على رءوسهما فصَرْصَر ، فقال : ماهذا ؟ فما راعهما إلا خيل بنى عبس ؛ فقال الكلابى لرياح : انحدر من خلفى والتمس نفقا فى الأرض ، فإنى شاغل القوم عنك . فانحدر رياحٌ عن عجزُ الجمل ، حتى أتى صَمدة فاحتفر تحتها مثلَ مكان الأرنب وولج فيه ، ومضى صاحبه ، فسألوه فحدّثهم ، وقال : هذه غنىٌ جامعة ، وقد استمكنتم منهم . فصدّقوه وخلوا سبيله ؛ فلما ولى رأوا مركب الرجل خلفه ، فقالوا : من الذى كان خلفك ؟ فقال : لا أكذب ، رياح بنُ الأسل ، وهو فى تلك الصّعدات . فقال الُحصينان لمن معهما : قد أمكننا الله من ثأرنا ، ولا نريد أن يَشركنا فيه أحد . فوقفوا عنهما ، ومضيا فجعلا يُريغان رياح بن الأسل

بالصّعدات ، فقال لهما رياح : هذا غزالكما الذى تُريغانه . فابتدراه ، فرمى أحدهما بسهم فأقصده ، وطعنه الآخر قبل أن يرميه فأخطأه ، ومرت به الفرس ، واستدبره رياح بسهم فقتله ، ثم نجا حتى أتى قومَه ، وانصرفوا خائبين موتورين ؛ وفى ذلك يقول الكميْتُ بنُ زيد الأسدى ، وكان له أمّانِ من غنىّ :

٥ أنا آبنُ غنىٍّ والِداىَ كِلاهما ٭ لأُمّيْنِ منهم فى الفُروعِ وفى الأصلِ

هم آستودَعوا زُهراً بسيبَ بن سالمٍ ٭ وهمْ عدَلوا بين الحُصيْنيْن بالنَّبْلِ

وهمْ قتَلوا شاسَ الملوكِ وأرغموا ٭ أباه زُهيْرًا بالمذَلّةِ والثُّكْلِ

يوم النفراوات : لبنى عامر على بنى عبس

فيه قتل زهير بن جذيمة بن رواحة العبسى ، وكانت هوازن تؤدّى إليه إتاوة ، وهى الخراج ، فأتته يوما عجوزٌ من بنى نصر بن معاوية بسَمن فى نحْىٍ ١٠ وآعتذرت إليه وشكتْ سنين تتابعت على الناس ؛ فذاقه فلم يرضَ طعمَه ، فدَعسها بقوس فى يده عُطُلٍ فى صدرها ، فاستلقت على قفاها منكشفة ، فتألّى خالد بن جعفر ، وقال : والله لأجعلن ذراعى فى عُنقه حتى يُقتل أو أُقتل ! وكان زهير عَدوسا مقداما لا يبالى ما أقدم عليه ؛ فاستقل — أى انفرد من قومه — بابنيه وبنى أخويه أسيد وزنباع ، يرعى الغيث فى عُشَراوات له وشَول فأتاه ١٥ الحارث بن الشّريد ، وكانت تماضر بنت الشريد تحت زهير ؛ فلما عرف الحارث مكانه أنذر بنى عامر بن صعصعة ، رهطَ خالد بن جعفر ؛ فركب منهم ستة فوارس ، فيهم خالد بن جعفر ، وصخر بن الشريد ، وحُندج بن البكّاء ، ومعاوية بن عُبادة بنَ عقيل ، فارس الهرّار ، ويقال لمعاوية : الأخيل ، وهو جد ليلى الأخيلية ، وثلاثة فوارس من سائر بنى عامر ؛ فقال أسيد لزهير : أعلمتْنى ٢٠ راعيةُ غنمى أنها رأتْ على رأس الثنية أشباحا ، ولا أحسبها إلا خيلَ بنى عامر ؛ فالحقْ بنا بقومنا . فقال زهير : «كلُّ أزبّ نفور» وكان أسيد أشعر القفا . فذهبت مثلا ؛ فتحمل أسيد بمن معه ، وبقى زهير وابناه : ورقاء ، والحارث ؛

وصبَّحتهم الفوارس ، فتمرّدتْ بزهير فرسُه القعساء ، ولحقه خالد ومعاوية الأخيل ، فطعن معاوية القعساء ، فقلبت زهيرا ، وخرّ خالد فوقه فرفع المغفر عن رأس زهير ، وقال : ياآل عامر ، أقبلوا جميعا ! فأقبل معاوية فضرب زهيرا على مفرق رأسه ضربة بلغت الدِّماغ ، وأقبل ورقاء بن زهير فضرب خالدا وعليه درعان ، فلم يُغنِ شيئا ، وأجهض ابنا زهير القومَ عن زهير ، ٥ واحتملاه وقد أثخنته الضربة ، فمنعوه الماء ، فقال : أميتٌ أنا عطشا ! أسقونى الماء وإن كان فيه نفسى ! فسقوه فمات بعد ثلاثة أيام ؛ فقال فى ذلك ورقاء بن زهير :

رأيتُ زُهيْرًا تحتَ كَلْكَلِ خالدٍ ٭ فأقبلْتُ أسعى كالعَجولِ أُبادِرُ
١٠ إلى بطَلَيْنِ ينْهضانِ كلاهما ٭ يُريدانِ نَصْلَ السيفِ والسيفُ نادرُ
فشلَّتْ يَمينى يومَ أضربُ خالداً ٭ ويمنعه منى الحـديدُ المُظاهرِ
فيالَيْتَ أنى قبـلَ أيامِ خالدٍ ٭ ويومِ زُهَيْرٍ لم تلِدْنى تماضر
لعمْرى لقد بشرْتِ بى إذ ولَدْتِنى ٭ فماذا الذى رَدّت عليك البشائر

وقال خالد بن جعفر فى قتله زهيرا :

١٥ بل كيف تكْفرُنى هَوازنُ بعدَما ٭ أعْتقْتهم فتوالَدوا أحـرارا
وقتلتُ ربَّهمُ زهيْرًا بعـد ما ٭ جَدَعَ الأُنوفَ وأكثرَ الأوْتارا
وجَعلت مَهرَ بناتِهمْ ودِيَاتِهمْ ٭ عَقْلَ الملوكِ هَجائناً وبِكارا

يوم بطن عاقل : لذبيان على عامر

فيه قتل خالد بن جعفر ببطن عاقل ، وذلك أنّ خالداً قدِمَ على الأسود ٢٠ ابن المنذر ، أخى النعمان بن المنذر ، ومع خالد عروة الرّحال بن عتبة بن جعفر ، فالتقى خالد بن جعفر والحارث بن ظالم بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ، عند الأسود بن المنذر ، قال : فدعا لهما الأسود بتمر ، فجىء به على نِطع فجُعِل بين أيديهم ، فجعل خالد يقول للحارث بن ظالم : يا حارث ، ألا تشكر يدى عندك أن قتلت عنك سيد قومك زهيراً وتركتك سيدّهم ؟ قال : سأجزيك

شكرَ ذلك ! فلما خرج الحرث قال الأسود لخالد : ما دعاك إلى أن تحترش بهذا الكلب وأنت ضيفي ؟ فقال له خالد إنما هو عبد من عبيدى ، لو وجدنى نائما ما أيقظنى ! وانصرف خالد إلى قبته ، فلامه عروةُ الرحال ، ثم ناما وقد أشرجت عليهما القبة ، ومع الحرث تبيع له من بنى محارب يقال له خراش ، فلما هدأت العيون أخرج الحرث ناقته وقال لخراش : كن لى بمكان كذا ، فإن طلع كوكب الصبح ولم آتك فانظر أى البلاد أحبُّ إليك فاعمِدْ لها . ثم انطلق الحرث حتى أتى قبة خالد ، فهتك شرَجها ثم ولجها ، وقال لعروة : اسكت فلا بأس عليك .

وزعم أبو عبيدة أنه لم يشعر به حتى أتى خالداً وهو نائم فقتله ، ونادى عروة عند ذلك : واجِوارَ الملك ! فأقبل إليه الناس ، وسمع الهتافَ الأسودُ ابن المنذر وعنده امرأة من بنى عامر ، يقال لها المتجردة ، فشقت جيبها وصرخت وفى ذلك يقول عبد الله بن جعدة :

شقَّتْ عليكَ العامريَّةُ جَيبَها ٭ أسفاً وما تبكي عليكَ ضلالا
ياحارِ لو نبَّهْتَه لوجَدْتَهُ ٭ لا طائشاً رَعِشاً ولا مِنْزَالا
واغرَوْرقتْ عيناىَ لَمَّا أُخبرت ٭ بالجعفرِيِّ وأسبَلتْ إسْبالا
فلنَقْتُلَنَّ بخالدٍ سَرواتِكُمْ ٭ ولنجْعَلَنْ للظالمينَ نَكالا
فإذا رأيتمْ عارِضاً متهلِّلا ٭ منّا فإنا لا نحاوِلُ مالا

يوم رحرحان : لعامر على تميم

قال : وهرب الحرث بن ظالم ونَبَتْ به البلاد فلجأ إلى معبد بن زرارة ـ وقد هلك زرارة ـ فأجاره ؟ فقالت بنو تميم لمعبد : مالكَ آويتَ هذا المشئوم الأنكد وأغريت بنا الأسوَد وخذلوه ، غير بنى دُماويّة ، وبنى عبد الله بن دارم ، وفى ذلك يقول لقيط بن زرارة :

فأمّا نَهشَلٌ وبنو نعيمٍ ٭ فلم يَصبِرْ لنا منهُمْ صَبُورُ

فإن تعمدْ طُهَيَّةُ فى أُمورٍ * تَجدْها ثَمَّ ليس لها نصير

ويربُوعٌ بأسفَلَ ذى طُلوحٍ * وعمرو لا تحِلُّ ولا تسير

أُسيْدٌ والهجيمُ لها حُصاصٌ * وأقوامٌ من الجعْراء عُور

وأسلمْنا قبائلَ من تميمٍ * لها عَدَدٌ إذا حُسِبوا كثير

٥ وأمّا الآثمـانِ بنو عَدِيٍّ * وتيْمٍ إذ تُدُبِّرَتِ الأمُور

فلا تنعَم بهم فِتْيانُ حرْبٍ * إذا ما الحىُّ صبّحَهُمْ نذير

إذا ذهَبَتْ رماحُهُمُ بزَيْدٍ * فإنّ رماح تيم لا تَضيرُ

قال : وبلغ الأحوص بن جعفر بن كلاب ، مكان الحارث بن ظالم عند معبد فأغزا معبداً ، فالتقوا برحرحان ، فانهزمت بنو تميم ، وأُسر معبد بن زرارة ،

١٠ أسره عامر والطفيل ابنا مالك بن جعفر بن كلاب فوفد لقيط بن زرارة عليهم فى فدائه ، فقال لهما : لكما عندى مائتا بعير . فقالا : يا أبا نهشل ، أنت سيد الناس وأخوك معبد سيد مضر ، فلا نقبل فيه إلا دية ملك ! فأبى أن يزيدهم ، وقال لهم : إن أبانا أوصانا أن لا نزيد أحداً فى ديته على مائتى بعير . فقال معبـد للقيط : لا تَدَعْنى يالقيط ! فوالله لئن تركتنى لا ترانى بعدها أبداً ! قال : صبراً أبا القعقاع ،

١٥ فأين وَصاةُ أبينا أن لا تُؤْكِلوا العربَ أنفسَكم ولا تزيدوا بفدائكم على فداء رجل منكم ، فتذوّب بكم ذُؤْبان العرب ؟

ورحل لقيط عن القوم ، قال : فمنعوا معبد الماء وضارُّوه حتى مات هزالا .

وقيل : أبى معبد أن يَطعَم شيئا أو يشرب حتى مات هزالا ؛ فى ذلك يقول عامر بن الطفيل :

٢٠ قضينا الحزنَ من عبْس وكانتْ * منِيّةُ معبَدٍ فينـــا هُزالا

وقال جرير :

وليلةَ وادِى رحرحانَ فرَرْتُمُ * فِراراً ولم تَلْوُوا زفيفَ النّعائمِ

تركتم أبا القعْقاع فى الغلّ مُصفَداً * وأىّ أخ لم تُسْلِموا فى الأداهِمِ

وقال :

وبِرَحْرَحانَ غداةَ كُبِّل معبدٌ * نكحوا بناتِكم بغيرِ مُهور

يوم شعب جبلة : لعامر وعبس على ذبيان وتميم

قال أبو عبيدة : يوم شعب جَبلة أعظم أيام العرب ؛ وذلك أنه لما انقضت وقعة رحرحان، جمع لقيط بن زرارة لبنى عامر ، وألب عليهم ، وبين أيام رحرحان ويوم جبلة سنة كاملة . ٥

وكان يوم شعب جبلة قبل الإسلام بأربعين سنة ، وهو عام ولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت بنو عبس يومئذ فى بنى عامر حلفاء لهم ، فاستعدى لقيط بنى ذبيان لعداوتهم لبنى عبس من أجل حرب داحس ، فأجابته غطفان كلها غير بنى بدر ، وتجمعت لهم تميم كلها غير بنى سعد ، وخرجت معه بنو أسد لحلف ١٠ كان بينهم وبين غطفان ، حتى أتى لقيطٌ الجونَ الكلبي ، وهو ملك هَجَرَ ، وكان يجي من بها من العرب ، فقال له : هل لك فى قوم عادين قد ملأوا الأرض نعما وشاء فترسل معى ابنيك ، فما أصبنا من مال وسبي فلهما ، وما أصبنا من دم فلي ؟ فأجابه الجون إلى ذلك ، وجعل له موعداً رأس الحول ، ثم أتى لقيطٌ النعمان بن المنذر فاستنجده وأطعمه فى الغنائم ، فأجابه ؛ وكان لقيط وجيها عند الملوك ؛ فلما كان ١٥ على قرن الحول من يوم رحرحان . انهلّت الجيوش إلى لقيط ، وأقبل سنان ابن أبى حارثة المرى فى غطفان ، وهو والد هرم بن سنان الجواد ؛ وجاءت بنو أسد ، وأرسل الجون ابنيه معاوية وعمرا ، وأرسل النعمان أخاه لأمه حسان ابن وبرة الكلبي ؛ فلما توافوا خرجوا إلى بنى عامر وقد أنذروا بهم وتأهبوا لهم ، فقال الأحوص بن جعفر ، وهو يومئذ رحا هوازن ، لقيس بن زهير : ماترى ، ٢٠ فإنك تزعم أنه لم يعرض لك أمران إلا وجدت فى أحدهما الفرج ؟ فقال قيس ابن زهير : الرأى أن نرتحل بالعيال والأموال حتى ندخل شعب جبلة ، فنقاتل القوم دونها من وجه واحد ؛ فإنهم داخلون عليك الشعب ، وإن لقيطا رجل فيه

طيش ، فسيقتحم عليك الجبل ؛ فأرى لك أن تأمر بالإبل فلا ترعى ولا تسقى وتعقل ، ثم تجعل الذرارى وراء ظهورنا ، وتأمر الرجال فتأخذ بأذناب الإبل ، فإذا دخلوا علينا الشعبَ حلَّت الرجالةُ عُقُل الإبل ثم لزمت أذنابَها ، فإنها تنحدر عليهم وتحن إلى مرعاها ووِردها ولا يردّ وجوهَها شيء ، وتخرج الفرسان فى أثر الرجالة الذين خلْف الإبل ، فإنها تحطم مالقيتْ ، وتقبل عليهم الخيل وقد حطموا من عل !

قال الأحوص : نِعم مارأيت ! فأخذ برأيه ، ومع بنى عامر يومئذ بنو عبس وغنىّ فى بنى كلاب ، وباهلة فى بنى كعب ، والأبناء أبناء صعصعة ، وكان رهط المعقر البارقى يومئذ فى بنى نمير بن عامر ، وكانت قبائل بجيلة كلها فيهم غير قَسر .

قال أبو عبيدة : وأقبل لقيط والملوك ومن معهم ، فوجدوا بنى عامر قد دخلوا شِعب جبلة ، فنزلوا على فم الشِّعب ، فقال لهم رجل من بنى أسد : خذوا عليهم فم الشعب حتى يعطشوا ويخرجوا ، فوالله ليتساقطُنّ عليكم تساقط البعْر من است البعير !

فأتوا حتى دخلوا الشعب عليهم وقد عقلوا الإبل وعطشوها ثلاثة أخماس ، وذلك اثنتا عشرة ليلة ، ولم تطعم شيئا ؛ فلما دخلوا حلوا عُقلها ، فأقبلت تهوى ، فسمع القوم دويّها فى الشعب ، فظنوا أن الشعب قد هدم عليهم ، والرجالة فى أثرها آخذين بأذنابها ؛ فدقّت كل مالقيت ، وفيها بعير أعور يتلوه غلام أعسر آخذ بذنبه وهو يرتجز ويقول :

أنا الغلامُ الأعسَرْ ٭ الخيرُ فىّ والشرّ ٭ والشرُّ فىّ أكثرْ

فانهزموا لا يلوون على أحد ؛ وقتل لقيط بن زرارة ، وأُسر حاجب بن زرارة أسره ذو الرُّقيبة ؛ وأُسر سنان بن أبى حارثة المرى أسره عروة الرحال ، فجز ناصيته وأطلقه فلم تشنه ، وأُسر عمرو بن عمرو بن عُدَس ، أسره قيس بن المنتفق فجزّ ناصيته وخلاه طمعا فى المكافأة ، فلم يفعل ؛ وقتل معاوية بن الجون ، ومنقذ

ابن طريف الأسدى ، ومالك بن ربعى بن جندل بن نهشل ؛ فقال جرير :

كأنكَ لم تشهَدْ لقيطاً وحاجباً * وعمْرَو بن عمرٍو إذ دعا يالَ دارِم

ويومَ الصَّفا كنتمْ عبيداً لعامرٍ * وبالحزْنِ أصبحتُم عبيدَ اللهازِم

يعنى بالحزن : يوم الوَقيط .

وقال جرير أيضا فى بنى دارم : ٥

ويومَ الشِّعبِ قد تَركوا لقيطاً * كأنَّ عليه حُلةَ أرجُوانِ

وكُبِّل حاجبٌ بشِمامَ حولاً * فحكَّمَ ذا الرَّقيبَةِ وهْو عانِ

وقالت دُخْتَنوس بنت لقيط ترثى لقيطا :

فرّتْ بنو أسدٍ وخَرْ * رُ الطيْرُ عن أربابِها

عن خيرِ خُنْدُفَ كلِّها * من كهْلِها وشبابِها ١٠

وأتمِّها حسَباً إذا * نُصَّتْ إلى أحسابِها

وقال المعقر البارقى :

أمِنْ آلِ شعثاء الحمولُ البواكِرُ * مع الصُّبحِ أمْ زالتْ قُبيلُ الأباعِرُ

وحلَّتْ سُليمى فى هِضابٍ وأيْكةٍ * فليس عليها يومَ ذلكَ قادرُ

وألقتْ عصاها واستقرّت بها النَّوى * كما قرَّ عيناً بالإيابِ المسافرُ ١٥

وصبَّحها أملاكها بكتيبةٍ * عليها إذا أمست من اللهِ ناظِر

معاويةُ بن الجوْنِ ذُبيانُ حولهُ * وحسّانُ فى جمعِ الرِّباب مُكاثِر

وقد زحفت دُودانُ تبْغى لثأرِها * وجاشت تميمٌ كالفُحولِ تخاطِر

وقد جمعوا جمْعاً كأنّ زُهاءهُ * جَرادٌ هَفا فى هَبوةٍ مُتطايرُ

فمروا بأطنابِ البُيوتِ فردَّهم * رجالٌ بأطنابِ البيوتِ مساعِرُ ٢٠

فباتوا لنا ضَيفاً وبِتنا بِنعْمَةٍ * لنا مُسمِعات بالدُّفوفِ وزامِرُ

فلم نُقْرِهِم شيئاً ولكن قِراهمُ * صبوحٌ لدَيْنا مَطلعَ الشّمس حازرُ

وصبّحهم عند الشروق كتائبٌ * كأركانِ سَلْمى سَيْرُها مُتواترُ
كأنّ نعام الدَّوِّ باضَ عليهم * وأعينُهم تحت الحبيك خوازرُ
منَ الضاربين الهامَ يمشون مقْدَما * إذا غُصّ بالرِّيق القليل الحناجرُ
أظَنّ سَرَاة القوم أنْ لنْ يُقاتلوا * إذا دعيَتْ بالسفح عبْسٌ وعامرُ
٥ ضَرَبنا حَبيك البيض فى غمْرِ لُجّةٍ * فلم يَنْج فى الناجين منهم مُفاخرُ
هَوَى زهْدَمٌ تحت العجاج لعامر * كما انْقضّ بازٌ أقتمُ الرِّيش كاسر
يُفرّج عنا كلَّ ثَغْر نخافه * مِسَحٌّ كسِرْحان القصيمةِ ضامر
وكل طموح فى العِنان كأنها * إذا اغتمَسَت فى الماء فتْخاءُ كاسِرُ
لها ناهِضٌ فى الوكْر قد مَهدَت له * كما مَهدَت للبَعْل حسناءُ عاقر
١٠ تخافُ نساءٌ يبْتَزَزْن حليلَها * مُجرّبةٌ قد أحردَتْها الضَّرائر

استعار هـذا البيت « فألقت عصاها » من المعقر البارقى ، إذ كان مثلا فى الناس — راشد بن عبد ربه السُّلَمى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استعمل أبا سفيان بن حرب على نجران فولاه الصلاة والحرب ، ووجه راشد ابن عبد ربه السلمى أميراً على المظالم والقضاء ؛ فقال راشد بن عبد ربه :

١٥ صحَا القلبُ عن سلْمى وأقْصر شأوُه * وردّتْ عليه تبتغيه تُمَاضُر
وحلّمه شيْبُ القَذَال عن الصِّبا * وللشيْبُ عن بعض الغواية زاجرُ
فأقصرَ جهلى اليومَ وارْتدَّ باطلى * عن اللهو لمَّا ابيضَّ منى الغدائر
على أنه قد هاجه بعد صحوَةٍ * بمعرض ذى الآجام عِيسٌ بواكِرُ
ولما دنتْ من جانب الغُوط أخصبتْ * وحلّت فلاقاها سُلَيْمٌ وعامر
٢٠ وخبّرها الرُّكبانُ أن ليس بينَها * وبين قُرى بُصْرَى ونجران كافر
فألقت عصاها وٱستقرّت بها النّوى * كما قرّ عيْناً بالإياب المُسافر

فاستعار هذا البيت الأخير من المعقر البارقى ، ولا أحسبه استجاز ذلك إلا لاستعمال العامة له وتمثيلهم به .

يوم مقتل الحارث بن ظالم بالخربة

قال أبو عبيدة : لما قتل الحارثُ بن ظالم خالدَ بن جعفر الكلابى ، أتى صديقا له من كندة فالتف عليه ، فطلبه الملك فخفى ذكرُه حتى شخص من عند الكندى ، وأضمرته البلاد حتى استجار بزياد أحد بنى عجل بن لجيم ، فقام بنو ذهل بن ثعلبة وبنو عمرو بن شيبان فقالوا لعجل : أخرجوا هذا الرجل من بين أظهركم ؛ فإنه لا طاقة لنا بالشهباء ودوسر ـ وهما كتيبتان للأسود بن المنذر ـ ولا بمحاربة الملك فأبت ذلك عليهم عجل ، فلما رأى ذلك الحارث بن ظالم كره أن تقع بينهم فتنة بسببه ، فارتحل من بنى عجل إلى جبلَى طيئ ، فأجاروه ، فقال فى ذلك :

لَعَمْرِى لقد حلَّت بى اليومَ ناقتى * على ناصرٍ من طيِّئٍ غير خاذلِ

فأصبحتُ جاراً للمَجَرَّة فيهم * على باذخٍ يعلو يدَ المُتطاول

إذا أجا لفَّتْ علىَّ شِعابها * وسَلْمى فأنى أنتم مِن تناوُلى

فمكث عندهم حينا ، ثم إن الأسود بن المنذر لما أعجزه أمره أرسل إلى جارات كن للحارث بن ظالم ، فاستاقهن وأموالهن ، فبلغ ذلك الحارث بن ظالم ، فخرج من الجبلين فاندس الحارث بن ظالم فى الناس حتى علم مكان جاراته ومرعى إبلهن ، فأتاهن فاستنقذهن واستاق إبلهن ، فألحقهن بقومهن ؛ واندس فى بلاد غطفان ، حتى أتى سنان بن أبى حارثة المُرى ـ وهو أبو هرم الذى كان يمدحه زهير ـ وكان الأسود بن المنذر قد استرضع ابنه شرحبيل عند سلمى امرأة سنان وهى من بنى غنم بن دودان بن أسد ، فكانت لا تأمن على ابن الملك أحدا ؛ فاستعار الحارث بن ظالم سرج سنان وهو فى ناحية الشربة ، لا يعلم سنانٌ ما يريد ، وأتى بالسرج امرأة سنان وقال لها : يقول لك بعلك ابعثى ابنك مع الحارث ، فإنى أريد أن أستأمن له الملك ؛ وهذا سرجه آية ذلك . قال : فزيَّنته سلمى ورفعته إليه فأتى به ناحية من الشربة فقتله ؛ وقال فى ذلك :

أَخُصَيْىَ حمار بات يَكدِم نجمة * أتؤكل جاراتى وجارُك سالم

علوتُ بذِى الحيّات مفرِقَ رأسِه ٭ ولا يركبُ المكروهَ إلا الأكارمُ
فتكتُ به كما فتكت بخالدٍ ٭ وكان سلاحى تحتويهِ الجماجمُ
بدأتُ بذاك وآنثنيْت بهـذه ٭ وثالثة تبْيضُّ منها المَقادِمِ

قال : وهرب الحارث من فوره ذلك ، وهرب سنان بن أبى حارثة ، فلما ٥ بلغ الأسود قتل ابنه شرحبيل ، غزا بنى ذبيان ، فقتل وسبى وأخذ الأموال ، وأغار على بنى دودان رهط سلمى التى كان شرحبيل فى حجرها ؛ فقتلهم وسباهم فنشط لذلك ؛ قال : فوجد بعد ذلك نعلى شرحبيل فى ناحية الشربة عند بنى محارب ابن خصفة ، فغزاهم الملك ، ثم أسرهم ، ثم أحمى الصفا ، وقال : إنى أحذيكم نعالا فأمشاهم على ذلك الصفا ، فتساقطت أقدامهم ، ثم إن سيار بن عمرو بن جابر ١٠ الفزارى ، احتمل للأسود دية ابنه ألف بعير ، وهى دية الملوك ، ورهنه بها قوسه فوفاه بها ، فقال فى ذلك :

ونحن رهَنّا القوْسَ ثُمّتَ فُودِيَتْ ٭ بألف على ظهر الفزارِى أقرعا
بعشْرِ مِئين للملوك وفَى بها ٭ ليُحمد سيّار بن عمرو فأسرعا

فكان هذا قبل قوس حاجب ، فقال فى ذلك أيضاً :

١٥ هل وجدتم حاملًا كحاملى ٭ إذ ارهَن القوْس بألفٍ كاملِ
بديَةِ ابن المَلِك الحُلاحِلِ ٭ فآفتكّها من قبل عامٍ قابل
سيّارٌ المُوفِى بها ذو النائل

وهرب الحارث فلحق بمعبد بن زرارة فاستجار به فأجاره ، وكان من سبب وقعة رحرحان التى تقدّم ذكرها ؛ ثم هرب الحارث حتى لحق بمكة وقريش ؛ لأنه ٢٠ يقال إن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ، إنما هو مرة بن عوف بن لؤى ابن غالب ؛ فتوسل إليهم بهذه القرابة ، وقال فى ذلك :

إذا فارَقْتُ ثعلبةَ بن سعدٍ ٭ وإخوتَهم نُسِبتُ إلى لؤىّ
إلى نسب كريم غير دَغْل ٭ وحىّ من أكارِم كلّ حىّ

فإنْ يكُ منهم أصلى فمنهم ٭ قرابين الإلهِ بنو قُصىٍّ

فقالوا : هذه رحم كرْشاء إذا استغنيتم عنها لن يَبَرّكم . قال : فشخص الحارث عنهم غضبان . وقال فى ذلك :

ألا لستمُ منا ولا نحن منكم ٭ برئنا إليكم من لؤىِّ بن غالب

٥ غدوْنا على نَشزِ الحجاز وأنتمُ ٭ بِمُنْشعِبِ البطحاءِ بين الأخاشِب

وتوجه الحارث بن ظالم إلى الشام ، فلحق بيزيد بن عمرو الغسانى فأجاره وأكرمه ، وكان ليزيد ناقة مُحماة ، فى عنقها مدية وزناد وصرّة ملح ؛ وإنما كان يمتحن بها رعيته لينظر من يجترئ عليه ، فوحمت امرأة الحارث فاشتهت شحما فى وحمها ؛ فانطلق الحارث إلى ناقة الملك فانتحرها ، وأتاها بشحمها ، وفقدت الناقة ،

١٠ فأرسل الملك إلى الخِمْس التغلبى وكان كاهنا ، فسأله عن الناقة ؛ فأخبره أن الحارث صاحبها ، فهمّ الملك به ، ثم تذمّم من ذلك ؛ وأوجس الحارث فى نفسه شرا فأتى الخِمس التغلبى فقتله . فلما فعل ذلك دعا به الملك فأمر بقتله ، فقال : أيها الملك إنك قد أجرْتنى فلا تغدِرَنّ بى ! فقال الملك : لا ضَيْر ، إن غدرت بك مرة فقد غدرت بى مراراً ! وأمر ابن الخِمس فقتله ، وأخذ ابن الخمس سيف الحارث فأتى

١٥ به عكاظ فى الأشهر الحُرُم ، فأراه قيس بن زهير العبسى ، فضربه قيس فقتله ، وقال يرثى الحارث بن ظالم :

وما قصّرَت من حاضِنٍ سِتْرَ بيتِها ٭ أبَرّ وأوْفى منك حارِ بن ظالم

أعزّ وأحمى عنـــد جارٍ وذمّة ٭ وأضربُ فى كاب مِن النقْع قاتم

حرب داحس والغبراء : وهى من حروب قيس

٢٠ قال أبو عبيدة : حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ابنى بغيض بن ريث بن غطفان ؛ وكان السبب الذى هاجها أن قيس بن زهير ، وحَمَل بن بدر ، تراهنا على داحس والغبراء أيهما يكون له السبْق ، وكان داحس فحلا لقيس ابن زهير ، والغبراء حِجْرا لحمل بن بدر ، وتواضعا الرهان على مائة بعير ،

وجعلا منتهى الغاية مائة غلوة ، والإضمار أربعين ليلة ؛ ثم قادوهما إلى رأس الميدان بعد أن أضمروهما أربعين ليلة ، وفى طرف الغاية شعاب كثيرة ، فأكمن حَمَلُ بن بدر فى تلك الشعاب فتيانا على طريق الفرسين ، وأمرهم إن جاء داحس سابقاً أن يردُّوا وجهه عن الغاية .

قال : فأرسلوهما فأحضرا ، فلما أُحضرا خرجت الأنثى من الفحل ، فقال حمل بن بدر : سبقتك ياقيس ! فقال قيس : رويداً يعْدُوَانِ الجَدَدَ إلى الوعْث وترشح أعطاف الفحل . قال : فلما أوغلا فى الجَدَد وخرجا إلى الوعث ، برز داحس عن الغبراء ؛ فقال قيس : جرى المذكيات غِلاء . فذهبت مثلا ، فلما شارف داحس الغاية ودنا من الفِتية ، وثبوا فى وجه داحس فردُّوه عن الغاية ؛ فنى ذلك يقول قيس بن زهير :

وما لاقَيْتُ من حَمَلِ بن بدرٍ * وإخوَتِه على ذاتِ الإصادِ
هُمُ فخَرُوا علَيّ بغيْرِ فخْرٍ * ورَدُّوا دونَ غايتِه جَوادِى

وثارت الحرب بين عبس وذبيان ابنى بغيض ، فبقيت أربعين سنة لم تُنْتَجْ لهم ناقةٌ ولا فرسٌ ، لاشتغالهم بالحرب ، فبعث حذيفةُ بن بدر ابنه مالكا إلى قيس بن زهير يطلب منه حق السبق ، فقال قيس : كلا لامطلتك به . ثم أخذ الرمح فطعنه به فدق صلبه ، ورجعت فرسه عارية ؛ فاجتمع الناس فاحتملوا دية مالك مائة عُشراء — وزعموا أن الربيع بن زياد العبسى حملها وحده — فقبضها حذيفة ، وسكن الناس .

ثم إن مالك بن زهير نزل اللّقاطة من أرض الشربة ، فأخبر حُذيفة بمكانه ، فعدا عليه فقتله . فنى ذلك يقول عنترةُ الفوارس :

فللهِ عيْنا مَنْ رأى مثلَ مالِكٍ * عقيرَةَ قوْمٍ أن جَرَى فرسانِ
فليْتَهما لم يَجْرِيا قيدَ غَلْوَةٍ * وليْتَهما لم يُرسَلا لِرهانِ

فقالت بنو عبس : مالك بن زهير بمالك بن حذيفة ، ورُدُّوا علينا مالنا . فأبى حذيفة أن يرد شيئاً ؛ وكان لربيع بن زياد مجاوراً لبنى فزارة ، ولم يكن فى

العرب مِثله ومثلُ إخوته ، وكان يقال لهم : الـكَمَلَة ؛ وكان مشاحناً لقيس بن زهير من سبب درع لقيس غلبه عليها الربيع بن زياد ؛ فاطرد قيس لبوناً لبنى زياد فأتى بها مكة ، فعاوَض بها عبد الله بن جدعان بسلاح ؛ وفى ذلك يقول قيس بن زهير :

ألم يبلغك والأنباء تنمِى * بمـا لاقَتْ لبونُ بَنِى زِيادِ
وَمَحْبِسها على القُرَشِيِّ تُشْرَى * بأدراعٍ وأسـيافٍ حِداد ٥
وكنتُ إذا بُلِيتُ بخصْمِ سوءٍ * دلَفْتُ له بداهِيَـةٍ نآدِ

ولمـا قُتل مالك بن زهير ، قامت بنو فزارة يسألون ويقولون : ما فعل حمارُكم ؟ قالوا : صدناه ! فقال الربيع : ماهذا الوحى ؟ قالوا : قتلْنا مالكَ بنَ زهير . قال : بئس مافعلتم بقومكم ؛ قبلتم الدية ثم رضيتم بها وغدرتم ! قالوا : لو لا أنك جارُنا لقتلناك ! وكانت خُفرة الجار ثلاثا ؛ فقالوا له : بعد ثلاث ليال ١٠ آخرج عنا . فخرج واتبعوه ، فلم يلحقوه حتى لحق بقومه ، وأتاه قيس بن زهير فعاقده ؛ وفى ذلك يقول الربيع :

فإنْ تكُ حرْبُكم أمْستْ عَواناً * فإنى لم أكُن مِمن جناها
ولـكنْ ولْدُ سوْدَةَ أرّثوها * وحَشُوا نارَها لِمَن اصطلاها
فإنى غيرُ خاذِلِكم ولـكِنْ * سأسْعَى الآن إذ بلغَتْ مَداها ١٥

ثم نهضت بنو عبس وحلفاؤهم بنو عبد الله بن غطفان إلى بنى فزارة وذبيان ؛ ورئيسهم الربيع بن زياد ، ورئيس بنى فزارة حذيفة بن بدر .

يوم المريقب : لبنى عبس على فزارة

فالتقوا بذى المريقب من أرض الشَّربّة فاقتتلوا ، فكانت الشوكة فى بنى فزارة ؛ قُتل منهم عوفُ بن زيد بن عمرو بن أبى الحصين ، أحد بنى عدى بن ٢٠ فزارة ؛ وضمضمُ أبو الحصين المرّى ، قتله عنترةُ الفوارس ؛ ونفرٌ كثير ممن لا يُعرف أسماؤهم ؛ فبلغ عنترةَ أن حصيناً وهرما ابنىْ ضمضم يشتمانه ويوعدانه ، فقال فى

قصيدته التي أولها :

هلْ غادرَ الشعراءُ من مُتَرَدَّمِ * أمْ هل عرفْتَ الدارَ بعدَ توَهُّمِ
يا دارَ عبْلَةَ بالجِواءِ تكلَّمي * وعِمِي صباحًا دارَ عبلةَ واسْلَمِي
ولقد خشيتُ بأنْ أموتَ ولم تَدُرْ * للحَرْبِ دائرةٌ على ابْنَيْ ضَمْضَمِ
٥ الشاتِمَيْ عِرْضِي ولم أشْتُمْهُما * والنّاذِرَيْنِ إذا لم ألقَهُما دمِي
إنْ يفعَلا فلقد تركتُ أباهُما * جزَرَ السِّباعِ وكلِّ نسْرٍ قشعَمِ
لمّا رآني قد نزلتُ أُريدُه * أبْدى نواجِذَهُ لغيْرِ تبسُّمِ

وفى هذه الوقعة يقول عنترة الفوارس :

فلتعلمنّ إذ التقَتْ فُرْسانُنا * يومَ المُرَيْقِبِ أنّ ظنَّكَ أحْمَقُ

١٠ يوم ذى حُسًى : لذبيان على عبس

ثم إن ذبيان تجمعت لِمَا أصابت منهم يوم المريقب فزارة بنُ ذبيان ومرةُ ابن عوف بن سعد بن ذبيان وأحلافُهم ، فنزلوا فتوافوا بذى حُسًى — وهو وادى الصفا من أرض الشربة وبينها وبين قَطن ثلاث ليال ، وبينها وبين اليَعمرِيّة ليلة . فهربت بنو عبس ، وخافت أن لا تقوم بجماعة بنى ذبيان ، واتّبعوهم حتى ١٥ لحقوهم ، فقالوا : التفانى أو تُقيدونا . فأشار قيس بن زهير على الربيع بن زياد أن لا يناجزوهم ، وأن يعطوهم رهائن من أبنائهم حتى ينظروا فى أمرهم ؛ فتراضوا أن تكون رُهُنهم عند سبيع بن عمرو ، أحد بنى ثعلبة بن سعد بن ذبيان ؛ فدفعوا إليه ثمانية من الصبيان وانصرفوا وتكافّ الناس ، وكان رأيُ الربيع مناجزتَهم فصرفه قيس عن ذلك ، فقال الربيع :

٢٠ أقولُ ولم أملِكْ لقَيْسٍ نصيحَةً * أرَى ما تَرى واللهُ بالغيْبِ أعلمُ
أتُبقى على ذُبيانَ فى قتْلِ مالِكٍ * فقد حشَّ جانى الحربِ نارًا تضَرَّمُ

فمكث رهنهم عند سبيع بن عمرو حتى حضرته الوفاة ، فقال لابنه مالك بن سبيع : إن عندك مكرُمةً لا تبيد إن أنت حفظتَ هؤلاء الأغيلمة ؛ فكأنى بك

لو مِتُّ أتاك خالُك حذيفة بن بدر فعصر لك عينيه وقال : هلك سيدُنا ! ثم خدعك عنهم حتى تدفعهم إليه فيقتلهم ، فلا تَشْرُفُ بعدها أبداً ، فإن خفت ذلك فاذهب بهم إلى قومهم . فلما هلك سبيع أطاف حذيفة بابنه مالك وخدعه حتى دفعهم إليه ، فأتى بهم اليعمرية ، فجعل يُبرِز كل يوم غلاماً فينصبه غرضا ، ويقول : ناد أباك ! فينادى أباه حتى يقتله . ٥

يوم اليعمرية : لعبس على ذبيان

فلما بلغ ذلك من فعل حذيفة بنى عبس أتوهم باليعمريّة ، فلقوهم بالحرّة — حَرة اليعمرية — فقتلوا منهم اثنى عشر رجلا ؛ منهم مالكُ بن سبيع الذى رمَى بالغِلمة إلى حُذيفة ، وأخوه يزيد بن سُبيع ، وعامر بن لوذان ، والحرث بن زيد ، وهرم بن ضمضم أخو حصين . ويقال ليوم اليعمرية : يوم نفر ؛ لأن بينهما أقل من نصف يوم . ١٠

يوم الهباءة : لعبس على ذبيان

ثم اجتمعوا فالتقوا فى يوم قائظ إلى جنب جفر الهَباءة ، واقتتلوا من بُكرةٍ حتى انتصف النهار ، وحجز الحَرُّ بينهم ؛ وكان حذيفة بن بدر يحرق فخذيه الركض ، فقال قيس بن زهير : يا بنى عبس ، إن حذيفة غداً إذا احتدمت الوديقة مستنقِعٌ فى جفر الهباءة فعليكم بها . فخرجوا حتى وقعوا على أثر صارف ، فرس حذيفة ، والحنفاء ، فرس حمل بن بدر ؛ فقال قيس بن زهير : هذا أثر الحنفاء وصارف ، فقفوا أثرهما حتى توافوا مع الظهيرة على الهباءة . فبصُرَ بهم حمل بن بدر ، فقال لهم : مَن أبغضُ الناس إليكم أن يقف على رءوسكم ؟ قالوا : قيس بن زهير ، والربيع بن زياد ، فقال : هذا قيس بن زهير قد أتاكم فلم ينقض كلامه حتى وقف قيس وأصحابه على جفر الهباءة ، وقيس يقول : لبيكم لبيكم ! يعنى إجابة الصِّبية الذين كانوا ينادونهم إذ يُقتلون ! وفى الجفر حذيفة وحمل ابنا بدر ومالك ابن بدر ، وورقاء بن هلال من بنى ثعلبة بن سعد ، وحَنَش بن وهب ؛ فوقف ١٥ ٢٠

عليهم شداد بن معاوية العبسى ، وهو فارس جروة ، وجروة فرسه ، وله يقول :

وَمَن يَكُ سائلا عنى فإنى ٭ وجرْوةَ كالشَّجا تحت الوَريدِ
أُقوِّتُها بقُوتى إنْ شَتَوْنا ٭ وأَلْحَفُها رِدائى فى الجَليد

فحال بينهم وبين خيلهم ، ثم توافت فرسان بنى عبس ، فقال حمل :

٥ ناشدتك اللهَ والرحِم ياقيس ! فقال : لبيكم لبيكم ! فعرف حذيفة أنه لن يدعهم ، فانتهر حملا وقال : إياك والمأثورَ من الكلام ! فذهبتْ مثلا ، وقال لقيس : لئن قتلتنى لا تصلح غطفان بعدها ! فقال قيس : أبعدها الله ولا أصلحها ! وجاءه قِرواشٌ بمِعْبلةٍ ففصم صلبه ، وابتدره الحارث بن زهير وعمرو بن الأسلع ، فضرباه بسيفيهما حتى ذَفَّفا عليه ، وقتل الربيعُ بن زياد حملَ بدر ،

١٠ فقال قيس بن زهير يرثيه :

تعلَّم أنّ خيرَ الناس ميْتٌ ٭ على جفْــر الهباءةِ مايَرِيمُ
ولولا ظُلمه ما زلتُ أبكى ٭ عليه الدهرَ ماطَلع النُّجومُ
ولـكنّ الفتى حَمَلَ بنَ بدر ٭ بغى والبغْىُ مَرْتَعُه وخِيم
أظنّ الحلمَ دلّ علىَّ قومى ٭ وقد يُستضعَفُ الرجلُ الحليم

١٥ ومارَسْتُ الرجالَ ومارَسونى ٭ فمُعْــوَجٌ علىَّ ومُســتقيم

ومثّلوا بحذيفة بن بدر كما مثّل هو بالغِلمة ؛ فقطعوا مذاكيره وجعلوها فى فيه ، وجعلوا لسانه فى استه ؛ وفيه يقول قائلهم :

فإنّ قتيلا بالهباءةِ فى آستِه ٭ صحيفتُه إنْ عاد للظُّلم ظالمُ
متى تقرَءوها تَهدِكم عن ضلالِكم ٭ وتُعرَفْ إذا مافضّ عنها الخواتم

٢٠ وقال فى ذلك عقيل بن عُلَّفة المرّى :

ويُوقِدُ عوفٌ للعشيرةِ نارَه ٭ فهلّا على جفْرِ الهباءة أوْقَدا
فإنّ على جفر الهباءة هامَةً ٭ تُنادِى بنى بَدْرٍ وعاراً مخلَّدا
وإنّ أبا وَرْدٍ حُذيفةَ مُثْفَرٌ ٭ بأيْرٍ على جفْر الهباءة أسْوَدا

وقال الربيع بن قعنب :

خَلَقَ المخازِى غير أنّ بذى حُسَى • لبَنى فزارةَ خِـــزْيَة لا تَخلَقُ

تِبْيانُ ذلك أنّ فى آست أبيهمُ • شَنْعاء من صُحُفِ المخازِى تَبْرُق

وقال عمرو بن الأسلع :

إن السماء وإن الأرض شاهدةٌ • والله يشهَدُ والإنسان والبلدُ ٥

أنّى جَزيتُ بنى بدرٍ بسعيِهمُ • على الهباءةِ قتْلا مالَه قَوَدُ

لمّا الْتقَيْنا على أرْجاءِ جُمّتِها • والمَشرَفيّة فى أيمـانِنا تَقِـد

عَلوْتُه بحُسـام ثم قلتُ له • خذْها إليك فأنت السيدُ الصمد

فلما أصيب أهل الهباءة واستعظمت غطفانُ قتلَ حذيفة ، تجمعوا ، وعرفت بنو عبس أن ليس لهم مقام بأرض غطفان ، فخرجوا إلى اليمامة فنزلوا بأخوالهم ١٠ بنى حنيفة ، ثم رحلوا عنهم فنزلوا ببنى سعد بن زيد بن مناة .

يوم الفروق

ثم إن بنى سعد غدروا بجوارهم فأتوا معاوية بن الجون فاستجاشوه عليهم وأرادوا أكلهم ، فبلغ ذلك بنى عبس ، ففرّوا ليلا ، وقدّموا ظعنهم ، ووقف فرسانهم بموضع يقال له الفَروق ، وأغارت بنو سعد ومن معهم من جنود ١٥ الملك على محلتهم ، فلم يجدوا إلا مواقد النيران ، فأتبعوهم حتى أتوا الفروق ، فإذا بالخيل والفرسان وقد توارت الظعن عنهم ، فانصرفوا عنهم ؛ ومضى بنو عبس فنزلوا ببنى ضبة فأقاموا فيهم ، وكان بنو جَذيمة من بنى عبس يسمَّوْن بنى رواحة ، وبنى بدر بن فزارة يسمون بنى سودة ؛ ثم رجعوا إلى قومهم فصالحوهم . ٢٠

وكان أوّلَ من سعى فى الحمالة حرملة بن الأشعر بن صرمة بن مرة ، فمات ؛ فسعى فيها هاشم بن حرملة ابنُه ، وله يقول الشاعر :

أحيا أباه هاشمُ بنُ حَرْمَلَهْ * يومَ الهباتَيْن ويومَ اليَعْمَلَهْ
تَرى الملوكَ حوله مُرَعْبَلَهْ * يَقتلُ ذا الذَّنْب ومَن لا ذنْب له

يوم قطن

فلما توافوا للصلح ، وقفت بنو عبس بقَطن ، وأقبل حصين بن ضمضم ،
٥ فلقى تَيحان أحد بنى مخزوم بن مالك فقتله بأبيه ضمضم ، وكان عنترة بن شداد
قتله بذى المريقب ، فأشارت بنو عبس وحلفاؤهم بنو عبد الله بن غطفان ،
وقالوا : لا نصالحكم ما بلَّ البحرُ صُوفة ، وقد غدرتم بنا غير مرة . وتناهض
القوم : عبس وذبيان ، فالتقوا بقطن ، فقَتل يومئذ عمرو بن الأسلع عيينة ، ثم
سفرت السفراء بينهم ؛ وأتى خارجة بن سنان أبا تيحان بابنه فدفعه إليه ، فقال :
١٠ فى هذا وفاءٌ من ابنك ! فأخذه فكان عنده أياما ، ثم حمل خارجة لأبى تيحان
مائة بعير قادها إليه ، واصطلحوا وتعاقدوا .

يوم غدير قلهى

قال أبو عبيدة : فاصطلح الحيان ، إلا بنى ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، فإنهم
أبَوْا ذلك وقالوا : لا نرضى حتى يُودُوا قتلانا أو يُهدَر دمُ من قتلها فخرجوا
١٥ من قطن حتى وردوا غدير قلهى ، فسبقهم بنو عبس إلى الماء ، فمنعوهم حتى
كادوا يموتون عطشا ودوابَّهم ، فأصلح بينهم عوف ومعقل ابنا سبيع من
بنى ثعلبة ؛ وإياهما يعنى زهير بقوله :

تَداركْتُما عبْسًا وذبْيانَ بعد ما * تفانَوْا ودَقُّوا بينهم عِطرَ مَنْشَم

فوردوا حرباً وأخرجوا عنه سلما .

٢٠ ثم حرب داحس والغبراء .

يوم الرقم : لغطفان على بنى عامر

غزت بنو عامر فأغاروا على بلاد غطفان بالرَّقم - وهو ماء لبنى مرة - وعلى بنى عامر : عامرُ بن الطفيل - ويقال يزيد بن الصعق - فركب عيينة بن حصن فى بنى فزارة ، ويزيد بن سنان فى بنى مرة - ويقال الحارث بن عوف - فانهزمت بنو عامر ، وجعل يقاتل عامر بن الطفيل ويقول : يا لقيس لا تقتلى ٥
تموتى ! فزعمت بنو غطفان أنهم أصابوا من بنى عامر يومئذ أربعة وثمانين رجلا ، فدفعوهم إلى أهل بيت من أشجع كانت بنو عامر قد أصابوا فيهم ، فقتلوهم أجمعين ؛ وانهزم الحكم بن الطفيل فى نفر من أصحابه ، فيهم جراب ابن كعب ، حتى انتهوا إلى ماء يقال له المروزات ، فقطع العطش أعناقهم فماتوا ، وخنق نفسَه الحكمُ بن الطفيل تحت شجرة مخافةَ المُثلة ؛ وقال فى ذلك ١٠
عروة بن الورد :

عجِبتُ لهم لِمْ يَخنقونَ نفوسَهم ... ومقتَلُهم تحت الوغَى كان أجدَرا

يوم النتأة : لعبس على بنى عامر

خرجت بنو عامر تريد أن تدرك بثأرها يوم الرقم ، فجمعوا على بنى عبس بالنُّتأة وقد أُنذروا بهم ، فالتقوا وعلى بنى عامر : عامر بن الطفيل ، وعلى ١٥
بنى عبس : الربيع بن زياد ؛ فاقتتلوا قتالا شديدا ، فانهزمت بنو عامر ، وقتل منهم صفوان بن مرة ، قتله الأحنف بن مالك ؛ ونهشل بن عبيدة بن جعفر ، قتله أبو زغبة بن حارث ؛ وعبد الله بن أنس بن خالد ؛ وطَعن ضبيعة بن الحارث عامرَ بن الطفيل فلم يضرّه ونجا عامر ، وهُزمت بنو عامر هزيمة قبيحة ، فقال خراشة بن عمرو العبسى : ٢٠

وساروا على أظْمائهم وتَواعَدوا ... مِيــاهًا تَحامتْها تَميمٌ وعامرُ

كأن لم يكنْ بينَ الدناب وواسِطٍ * إلى المُنْحَنَى من ذِى الأراكةِ حاضرُ

ألا أبْلِغا عنى خليلىَّ عامراً * أتنسى سُعادَ اليوم أم أنت ذاكرُ

وصدَّتكَ أطرافُ الرماح عن الهوى * وردْتَ أموراً ليس فيها مصادِر

وغادرْت هِزَّان الرئيسَ ونهشَلا * فلله عينْا عامرٍ مَن يُغادر

٥ وأسلمتَ عبدَ الله لما عَرفْتَهُم * ونجَّاك وثَّابُ الجراميزِ ضامر

قذفتَهم فى اليمِّ ثم خذلتهم * فلا وألتْ نفسٌ عليك تحاذِر

وقال أبو عبيدة : إن عامر بن الطفيل هو الذى طعن ضبيعة بن الحارث ثم نجا من طعنته ، وقال فى ذلك :

فإن تنجُ منها يا ضُبيعُ فإننى * وجدِّكَ لم أعقِل عليكَ التمائما

١٠ يوم شواحط : لبنى محارب على بنى عامر

غزت سرية من بنى عامر بن صعصعة بلاد غطفان ، فأغارت على إبل لبنى محارب بن خصفة ؛ فأدركهم الطلب ، فقتلوا من بنى كلاب سبعة وارتدوا إبلهم ؛ فلما رجعوا من عندهم وثب بنو كلاب على جَسر ، هم من بنى محارب كانوا حاربوا إخوتهم فخرجوا عنهم وحالفوا بنى عامر بن صعصعة — فقالوا : نقتلهم ١٥ بقتل بنى محارب مَن قتلوا منا ، فقام خداش بن زهير دونهم حتى منعهم من ذلك ، وقال :

أيا راكباً إمَّا عرضتَ فبلِّغَنْ * عقيلا وأبْلغ إنْ لقيتَ أبا بكرِ

فيا أخويْنا من أبينا وأمِّنا * إليكُمْ إليكم لا سبيلَ إلى جسْر

دَعُوا جانبى إنى سأتركُ جانباً * لكم واسعاً بين اليمامَةِ والقهْر

٢٠ أنا فارسُ الضَّحياءِ عمرو بن عامر * أبَى الذمَّ واختار الوفاءَ على الغدْر

يوم حوزة الأول : لسليم على غطفان

قال أبو عبيدة : كان بين معاوية بن عمرو بن الشريد وبين هاشم بن حرملة أحد بنى مرة بن غطفان ، كلام بعكاظ ، فقال معاوية : لوددت والله أنى قد سمعت بظعائن يندبنك ! فقال هاشم : والله لوددت أنى قد تَرَّبت الرطبة — وهى جُمة معاوية ، وكانت الدهرَ تنطف ماء ودهناً وإن لم تدهن — فلما كان بعد [حين] تهيأ معاوية ليغزو هاشماً ، فنهاه أخوه صخر فقال : كأنى بك إن غزوتهم علق بجمتك حسك العُرقط . فقال : فأبى معاوية وغزاهم يوم حوزة فرآه هاشم بن حرملة قبل أن يراه معاوية ، وكان هاشم ناقهاً من مرض أصابه ، فقال لأخيه دريد ابن حرملة : إن هذا إن رآنى لم آمن أن يشدّ علىّ . وأنا حديث عهد بشكية ؛ فاستطردْ له دونى حتى تجعله بينى وبينك . ففعل ، فحمل عليه معاوية وأردفه هاشم فاختلفا طعنتين ؛ فأردى معاوية هاشماً عن فرسه الشماء ، وأنفذ هاشمٌ سنانه من عانة معاوية . قال : وكرّ عليه دريد فظنه قد أردى هاشماً ، فضرب معاوية بالسيف فقتله ، وشد خُفاف بن عمير على مالك بن حارث الفزارى قال : وعادت الشماء فرس هاشم حتى دخلت فى جيش بنى سليم فأخذوها وظنوها فرس الفزارى الذى قتله خُفاف ، ورجع الجيش حتى دنوا من صخر أخى معاوية ، فقالوا : أنعم صباحاً أبا حسان ! قال : حُييتم بذلك ، ما صنع معاوية ؟ قالوا : قُتل ! قال : فما هذه الفرس ؟ قالوا : قتلنا صاحبها ! قال : إذاً قد أدركتم ثأركم ؛ هذه فرس هاشم بن حرملة .

قال : فلما دخل رجب ، ركب صخر بن عمرو الشماء صبيحة يوم حرام ، فأتى بنى مرة ، فلما رأوه قال لهم هاشم : هذا صخر فحيّوه وقولوا له خيرا . وهاشم مريض من الطعنة التى طعنه معاوية ؛ فقال : مَن قتل أخى ؟ فسكتوا ، فقال : لمن هذه الفرس التى تحتى ؟ فسكتوا ، فقال هاشم : هلم أبا حسان إلى من يُخبرك ! قال : من قتل أخى ؟ فقال هاشم : إذا أصبتنى أو دريداً فقد أصبت ثأرك ! قال فهل

كفنتموه ؟ قال : نعم ، فى بردين : أحدهما بخمس وعشرين بكرة . قال : فأرونى قبره . فأروه إياه ، فلما رأى القبر جزع عنده ، ثم قال : كأنكم قد أنكرتم ما رأيتم من جزعى ؛ فوالله ما بتُّ منذ عقلت إلا واترًا أو موتورا ، أو طالبا أو مطلوبا ، حتى قُتل معاوية ، فما ذقت طعم نوم بعده !

يوم حوزة الثانى

٥

قال : ثم غزاهم صخر ، فلما دنا منهم مضى على الشماء ، وكانت غراء محجَّلة ، فسوّد غرتها وتحجيلها ، فرأته بنتٌ لهاشم ، فقالت لعمها دريد : أين الشماء؟ قال : هى فى بنى سليم . قالت : ما أشبهها بهذه الفرس ! فاستوى جالساً فقال : هذه فرس بهيم ، والشماء غراء محجلة . وعاد فاضطجع ، فلم يشعر حتى طعنه صخر . قال : فثاروا وتناذروا ، وولى صخر وطلبته غطفان عامةَ يومها ، وعارض دونه أبو شجرة ابن عبد العزى ، وكانت أمه خنساء أخت صخر ، وصخر خاله ؛ فردّ الخيل عنه حتى أراح فرسه ونجا إلى قومه ، فقال خفاف بن ندبة لما قتل معاوية : قتلنى الله إن برحت من مكانى حتى أثأر به فشد على مالك سيد بنى جُمح فقتله ، فقال فى ذلك :

١٠

فإن تكُ خيلى قد أُصيبَ صَميمُها * فعمْداً على عيْنٍ تيمَّمْتُ مالكا
نَصَبْتُ له عَلْوَى وقد خان صُحْبَتِى * لأَبْنِىَ مجــداً أو لأثأرَ هالكا
أقولُ له والرُّمْح يأطِرُ متْنُه * تأمّل خُفافاً ، إننى أنا ذلكا

١٥

وقال صخر يرثى معاوية ، وكان قال له قومه : اُهْجُ بنى مرة ! فقال : ما بيننا أجلُّ من القذع [ولو لم أُمسك عن سبِّهم إلا صيانةً للسانى عن الخَنا لفعلت ! ثم خاف أن يُظنَّ به عِىّ] وأنشأ يقول :

٢٠

وعاذلةٍ هبَّت بليــلٍ تلومُنى * ألا لا تلومِينى كفى اللوم ما بيا
تقولُ ألا تَهجو فوارِس هاشمٍ * ومالىَ أن أهجوهُمُ ثم ماليا
أَبَى الذَّمَّ أنى قد أصابوا كريمتى * وأنْ ليس إهداءُ الخَنا من شماليا

إذا ما امْرؤٌ أهدَى لميتٍ تحيّةً * فحيّاكَ ربُّ الناسِ عنى مُعاويا
وهوّنَ وجدِى أننى لم أقل له * كذبتَ ، ولم أبخل عليه بماليا
وذِى إخوةٍ قطعْتُ أقران بينِهم * كما تركونى واحداً لا أخاليا

وقال فى قتل دريد :

ولقد دفعتُ إلى دريْدٍ طعنةً * نجلاء توغرُ مثلَ غطِّ المنخرِ
ولقد قتلتُكُمُ ثُناءَ وموحداً * وتركْتُ مُرّةَ مثلَ أمْس الدابرِ

قال أبو عبيدة : وأما هاشم بن حرملة فإنه خرج منتجعاً فلقيه عمرو بن قيس الجشمى فتبعه وقال : هذا قاتل معاوية ، لا وألت نفسى إن وألَ ! فلما نزل هاشم كمن له عمرو بن قيس بين الشجر ، حتى إذا دنا منه أرسل عليه معبلة ففلق قحفه فقتله ، وقال فى ذلك :

لقد قتلتُ هاشمَ بن حرمَله * إذ الملوكُ حوله مُغربله
يقتُلُ ذا الذّنب ومن لا ذنبَ له

يوم ذات الأثل

قال أبو عبيدة : ثم غزا صخر بن عمرو بن الشريد بنى أسد بن خزيمة واكتسح إبلهم ، وأتى الصريخ بنى أسد ، فركبوا حتى تلاحقوا بذات الأثل ، فاقتتلوا قتالا شديداً ؛ فطعن ربيعة بن ثور الأسدى صخراً فى جنبه ، وفات القوم بالغنيمة ، وجوى صخر من الطعنة ، فكان مريضا قريبا من الحول . حتى مله أهله ، فسمع امرأة من جاراته تسأل سلمى امرأته كيف بعلك ؟ قالت : لاحىٌّ فيرجى ، ولا ميتٌ فينعى ، لقد لقينا منه الأمرين ! وكانت تسأل أمه : كيف صخر ؟ فتقول : أرجو له العافية إن شاء الله ! فقال فى ذلك :

أرى أمَّ صخرٍ لا تملُّ عيادتِى * وملّت سُليمى مضجعى ومكانى
فأىُّ امرئٍ ساوى بأمٍّ حليلةً * فلا عاش إلا فى شقاً وهوان

وما كنتُ أخشى أن أكون جنازةً ٭ عليكِ ومَن يغترُّ بالحدثان
لَعَمْري لقد نبَّهتِ من كان نائما ٭ وأسمعْتِ من كانت له أُذُنان
أهُمُّ بأمر الحزم لو أستطيعُه ٭ وقد حِيل بين العَيْر والنَّزَوان

فلما طال عليه البلاء وقد نتأت قطعة من جنبه مثل اليد في موضع الطعنة ، ٥ قالوا له : لو قطعتَها لرجونا أن تبرأ . فقال : شأنكم ! فقطعوها فمات ، فقالت الخنساء أخته ترثيه :

فما بالُ عيْنى مابالُها ٭ لقد أخضَلَ الدمعُ سربالها
أمِن بعد صخرٍ مِنَ الِ الشريـ ـدِ حَلّت به الأرض أثقالها
فآليت أبكى على هالكٍ ٭ وأسأل نائحةً مالها
١٠ همَمْت بنفْسىَ كلَّ الهموم ٭ فأوْلى لنفسى أوْلى لها
لأحمل نفْسى على آلةٍ ٭ فإمّا عليها وإمّا لها

وقالت ترثيه :

وقائلةٍ والنَّفْسُ قد فات خَطْوُها ٭ لِتُدركه : يالهف نفْسى على صخرِ!
ألا ثكِلَت أُمُّ الذين غدوْا به ٭ إلى القبرِ، ماذا يَحملون إلى القبرِ!

١٥ يوم عدنية : هو يوم ملحان

قال أبو عبيدة : هذا اليوم قبل يوم ذات الأثل ، وذلك أن صخراً غزا بقومه وترك الحىَّ خِلْواً ، فأغارت عليهم غطفان ، فثارت إليهم غلمانهم ومن كان تخلف منهم ؛ فقتل من غطفان نفرٌ وانهزم الباقون ؛ فقال فى ذلك صخر :

جزى الله خيراً قومَنا إذ دعاهم ٭ بِعَدْنِيَّة الحى الخلوفُ المُصْبَحُ
٢٠ وغِلمانُنا كانوا أُسُود خَفِيَّةٍ ٭ وحُقَّ علينا أن يُثابوا ويُمدَحوا
هُمُ نَفَّروا أقْرانَهم بمُضَرِّسٍ ٭ وسمرٍ وذادوا الجيش حتى تزحزحوا
كأنهمُ إذ يَطْردون عشيّةً ٭ بقُنَّة مِلْحان نعامٌ مُرَوَّحُ

يوم اللوى : لغطفان على هوازن

قال أبو عبيدة : غزا عبد الله بن الصمة — واسم الصمة : معاوية الأصغر — من بنى غزيّة بن جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن — وكان لعبد الله ثلاثة أسماء وثلاث كنى ؛ فاسمه : عبد الله ، وخالد ، ومعبد ؛ وكنيته : أبو فرغان ، وأبو دفافة وأبو وفاء ؛ وهو أخو دريد بن الصمة لأبيه وأمه — فأغار على غطفان ، فأصاب منهم إبلا عظيمة فاطّردها ؛ فقال له أخوه دريد : النجاء فقد ظفرْت . فأبى عليه وقال : لا أبرح حتى أنتقع نقيعتى — والنقيعة : ناقة ينحرها من وسط الإبل فيصنع منها طعاما لأصحابه ، ويقسم ما أصاب على أصحابه فأقام وعصى أخاه ؛ فتبعته فزارة فقاتلوه ، وهو بمكان يقال له اللوى ، فقتل عبد الله ، وارتُثّ دريدٌ فبقى فى القتلى فلما كان فى بعض الليل أتاه فارسان ، فقال أحدهما لصاحبه : أنى أرى عينيه تَبِصّ ، فانزل فانظر إلى سُبّته . فنزل فكشف ثوبه فإذا هى تُرَمْرِمُ فطعنه ، فخرج دم قد كان احتقن .

قال دريد : فأفقت عندها ، فلما جاوزونى نهضت . قال : فما شعرت إلا وأنا عند عرقوب جَمَل امرأة من هوازن ، فقالت : من أنت ؟ أعوذ بالله من شرك ! قلت : لا ، بل مَن أنت ؟ ويلك ! قالت : امرأة من هوازن سيارة . قلت : وأنا من هوازن ، وأنا دريد بن الصمة . قال : وكانت فى قوم مجتازين لا يشعرون بالوقعة ، فضمته وعالجته حتى أفاق .

فقال دريد يرثى عبد الله أخاه ، ويذكر عصيانه له وعصيان قومه ، بقوله :

أعاذلُ إنّ الرُّزْء فى مِثْل خالدٍ * ولا رُزْء فيما أهلك المرءُ عن يدِ

وقلتُ لعارضٍ وأصحابِ عارضٍ * ورهْطِ بنى السَّوْداءِ والقومُ شُهَّدِى

علانيـــةً ظنُّوا بألفَىْ مُدَجّجٍ * سَراتُهُم فى الفــارسىّ المُسَرَّدِ

أمرتهم أمرى بمنقطعِ اللِّوى * فلم يَستبينوا الرُّشدَ إلّا ضُحى الغدِ

فلما عصوْنى كنتُ منهم وقد أرى * غَوايتَهُم أو أنّنى غــيرُ مُهْتَدِ

وما أنا إلا من غزيّة إن غوَتْ * غوَيتُ وإنْ ترْشُد غزيةُ أرشُدِ
فإن تُعقِب الأيامُ والدهرُ تعلَموا * بنى غالبٍ أنّا غِضابٌ لمعبـــد
تنادوْا فقالوا أرْدَت الخيْل فارسا * فقلت أعبد الله ذلِكم الرّدِى
فإنْ يكُ عبد الله خَـلّى مكانهُ * فما كان وقّافاً ولا طائش اليَدِ
٥ ولا بَرما إذْ ما الرياح تناوحَتْ * برطْب العِضاهِ والضَّريع المعضّد
كميْشُ الإزارِ خارجٌ نصف ساقِه * صبورٌ على الضَّرّاء طَلّاعُ أنْجُدِ
قليل التّشكّى للمصائبِ حافظ * من اليوْم أعقاب الأحاديثِ فى غدِ
وهَوّنَ وجدِى أننى لم أقل له * كذَبْت ولم أبخل بما ملَكتْ يدى

أبو حاتم عن أبى عبيدة قال : خرج دريد بن الصمة فى فوارس من بنى جشم ١٠ حتى إذا كانوا فى وادٍ لبنى كنانة يقال له الأخرم ، وهم يريدون الغارة على بنى كنانة إذ رُفع له رجل فى ناحية الوادى معه ظَعينة ؛ فلما نظر إليه قال لفارس من أصحابه : صِحْ به : خَلّ عن الظعينة وآنج بنفسك ، فانتهى إليه الفارس وصاح به وألحّ عليه فألقى زمام الناقة وقال للظعينة :

سيرى على رِسلِكِ سَيْر الآمن * سَيْر ردَاحٍ ذات جأشٍ ساكِنِ
١٥ إنّ آنثنائى دون قِرْنى شائنى * أبْلى بلائى وآخبُرى وعاينى

ثم حمل عليه فصرعه وأخذ فرسه فأعطاه للظعينه ؛ فبعث دريد فارسا آخر لينظر ما صنع صاحبُه ، فلما انتهى إليه ورأى ما صنع ، صاح به فتصامم عنه كأن لم يسمع ، فظن أنه لم يسمع ، فغشيه ، فألقى [ربيعة] زمام الراحلة إلى الظعينة ، ثم خرج وهو يقول :

٢٠ خَلِّ سبيل الحُرّة المنيعهْ * إنك لاقٍ دونَها ربيعهْ
فى كفّه خطّيّةٌ مُطيعهْ * أوْلا فخذْها طعْنةً سريعهْ
والطعنُ منى فى الوغى شريعهْ

ثم حمل عليه فصرعه ؛ فلما أبطأ على دريد بعث فارسا لينظر ما صنعا ؛ فلما

انتهى إليهما وجدهما صريعين، ونظر إليه يقود ظعينته ويجر رمحه، فقال له الفارس: خَلِّ عن الظعينة! فقال للظعينة: آقصِدى قصد البيوت، ثم أقبل عليه فقال:

ماذا تريدُ من شَتِيمٍ عابس ٭ ألم تر الفارس بعد الفارس

أرْداهُما عامِل رُمْحٍ يابس

ثم حمل عليه فصرعه، وانكسر رمحه. ٥

وارتاب دريد، وظنّ أنهم قد أخذوا الظعينة وقتلوا الرجل؛ فلحق دريد ربيعة وقد دنا من الحى، ووجد أصحابه قد قتلوا؛ فقال: أيها الفارس، إنّ مثلك لا يُقتل، ولا أرى معك رُمحك، والخيل ثائرة بأصحابها [وأراك حديث السنّ] فدونك هذا الرمح، فإنى منصرف إلى أصحابى فمُثَبِّطُهم عنك.

١٠ فانصرف إلى أصحابه فقال: إن فارس الظعينة قد حماها وقتل أصحابكم وانتزع رمحى، ولا مطمع لكم فيه! فانصرف القوم؛ وقال دريد فى ذلك:

ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثْلِه ٭ حامى الظَّعينةِ فارساً لم يُقتَلِ

أرْدَى فوارسَ لم يكونوا نُهْزَةً ٭ ثم آستمرّ كأنه لم يفعلِ

مُتهلِّلا تبـدو أسِرَّةُ وجهِه ٭ مثْل الحُسام جلَتْه كفُّ الصَّيْقَل

١٥ يُزْجى ظعينتَه ويسْحَب رُمْحه ٭ مُتوَجِّها يُمنـاه نحو المنزلِ

وتُرى الفوارسُ من مهابةِ رُمْحه ٭ مِثْل البُغاث خَشين وقعَ الأجدلِ

ياليْت شِعْرى مَن أبوه وأُمُّه ٭ يا صاحِ من يك مِثْله لا يُجهَل

وقال ابن مكدم:

إنْ كان ينفَعُك اليقين فسائلى ٭ عنى الظّعينةَ يوم وادى الأخرم

٢٠ إذ هِىَ لأوّل من أتاها نُهْزَةٌ ٭ لولا طِعانُ ربيعةَ بن مُكدَّمِ

إذ قال لى أدْنَى الفوارسِ منهم ٭ خلِّ الظّعينة طائعاً لا تَنْدَم

فصرفْتُ راحلةَ الظعينة نحوَه ٭ عمْـداً ليعْلَم بعض مالم يعْلَم

وهتَكْتُ بالرُّمْح الطويل إهابَهُ ٭ فهوى صريعاً لليدَيْن وللفَم

ومنحتُ آخرَ بعده جَيَّاشَةً * نجلاءَفاغِرَةً كشِدْقِ الأضجَمِ

ولقد شفَعْتُهما بآخرَ ثالثٍ * وأبَى الفِرارَعنِ العِداةِ تكرُّمِي

ثم لم يلبث بنو كنانة [رهط ربيعة بن مكدم] أن أغارت على بنى جُشَم [رهط دُريد] ، فقتلوا [وأسَروا وغَنموا] ، وأسروا دُرَيْدَ بن الصِّمة ، فأخفى نسبه ، فبينما هو عندهم محبوس ، إذ جاءت نسوة يتهادين إليه ، فصاحت إحداهن فقالت : هلكتم وأهلكتم ، ماذا جرّ علينا قومُنا ؟ هذا والله الذى أعطى ربيعةَ رمحهَ يوم الظعينة ! ثم ألقت عليه ثوبها ، وقالت يا آل فراس أنا جارة له منكم ، هذا صاحبنا يوم الوادى ! فسألوه : من هو ؟ فقال أنا دريدُ بن الصمة ، فمن صاحبي ؟ قالوا : ربيعةُ بن مكدم . قال : فما فعل ؟ قالوا : قتلته بنو سُليم ! قال : فما فعلت الظعينة ؟ قالت المرأة : أنا هى ، وأنا امرأته ! فحبسه القوم وآمَروا أنفسهم ، فقال بعضهم : لاينبغى لدريد أن تُكفَرَ نعمتُه على صاحبنا ! وقال الآخرون لا والله لايخرج من أيدينا إلا برضا المُخارق الذى أسره ، فانبعثت المرأة فى الليل — وهى ريطة بنت جزل الطعان — فقالت :

سَنجزِى دُرَيْداً عن ربيعةَ نعمةً * وكلُّ امرِئٍ يُجزَى بما كان قدما

فإنْ كان خيرا كان خيرا جزاؤه * وإن كان شَرًّا كان شرًّا مُذَمَّما

سنجزِيه نُعْمَى لم تكن بصَغيرةٍ * بإهدائه الرُّمْحَ الطويلَ المُقَوما

فلا تكْفُرُوه حقَّ نُعْماهُ فيكمُ * ولا تَركبوا تلك التى تملأُ الفَما

فإن كان حيّا لم يضِق بثوابِه * ذِراعاً ، غنيًّا كان أو كان مُعْدَما

نفُكُّوا دُرَيْداً من إسار مُخارِقٍ * ولا تجعلوا البؤسى إلى الشرِّ سُلَّما

فلما أصبحوا أطلقوه ، فكسته وجهزته ولحق بقومه ، فلم يزل كافّاً عن حرب بنى فراس حتى هلك .

يوم الصلعاء: لهوازن على غطفان

فلما كان فى العام المقبل غزاهم دريد بن الصمة بالصّلعاء، فخرجت إليه غطفان فقال دريد لصاحبه: ماترى؟ قال أرى خيلا عليها رجالٌ كأنهم الصبيان، أسِنّتُها عند آذان خيلها. قال: هذه فزارة. ثم قال: انظر ماترى؟ قال: أرى قوما كأنّ عليهم ثياباً غمست فى الجاديّ. قال: هذه أشجع. ثم قال انظر ماترى؟ قال: أرى قوماً يهزون رماحهم، سوداً، يخدون الأرض بأقدامهم. قال: هذه عبس، أتاكم الموت الزؤام فاثبُتوا! فالتقَوْا بالصلعاء، فكان الظفر لهوازن على غطفان وقَتل دريدُ ذوأبَ بن أسماء بن زيد بن قارب.

حرب قيس وكنانة

يوم الكديد: لسليم على كنانة

فيه قُتل ربيعةُ بن مكدم فارس كنانة، وهو من بنى فراس بن غنم بن مالك ابن كنانة، وهم أنجد العرب، وكان الرجل منهم يعدل بعشرة من غيرهم؛ وفيهم يقول على بن أبى طالب لأهل الكوفة: ودِدْتُ والله أن لى بجميعكم وأنتم مائةُ ألف ثلثمائةٍ من بنى فراس بن غنم.

وكان ربيعة بن مكدم يُعقر على قبره فى الجاهلية، ولم يُعقر على قبر أحد غيره؛ ومرّ به حسانُ بن ثابت وقتلته بنو سليم يوم الكديد، ولم يحضر يومَ الكديد أحدٌ من بنى الشريد.

يوم برزة: لكنانة على سليم

قال أبو عبيدة: لما قَتلت بنو سليم ربيعةَ بن مكدم فارس كنانة ورجعوا، أقاموا ماشاء الله، ثم إن ذا التاج، مالك بن خالد بن صخر بن الشريد —

واسم الشريد عمرو ، وكانت بنو سليم قد توّجوا مالكا أمّروه عليهم — فغزا بنى كنانة ، فأغار على بنى فراس ببَرْزَة ، ورئيسُ بنى فراس عبد الله بن جذل ؛ فدعا عبدُ الله إلى البراز ، فبرز إليه هند بن خالد بن صخر بن الشريد ، فقال له عبد الله : من أنت ؟ قال : أنا هند بن خالد بن صخر ، فقال عبد الله : أخوك أسنُّ منك . يريد مالك بن خالد ، فرجع فأحضر أخاه ، فبرز له ؛ فجعل عبد الله ابن جذل يرتجز ويقول :

أدنوا بنِي قِرْفِ القِمَعْ * إنى إذا الموتُ كنَعْ
لا أستغيثُ بالجزعْ

ثم شدّ على مالك بن خالد فقتله ، فبرز إليه أخوه كرز بن خالد بن صخر ، فشدّ عليه عبد الله بن جذل فقتله أيضاً ، فشدّ عليه أخوهما عمرُو بن خالد بن صخر بن الشريد ، فتخالفا طعنتين ، فجرح كلُّ واحد منهما صاحبَه وتحاجزا ، وكان عمرو قد نهى أخاه مالكا عن غزو بنى فراس ، فعصاه وانصرف للغزو عنهم ، فقال عبد الله بن جذل :

تجنَّبْتُ هِنداً رغبةً عن قِتالِهِ * إلى مالِكٍ أعشُو إلى ضوْءِ مالِكِ
فأيقنْتُ أنى ثائرٌ بابنِ مُكْدَمٍ * غَداةَ إذٍ أو هالِكٌ فى الهوالك
فأنفذْتُهُ بالرُّمحِ حين طعنْتُه * مُعانقةً ليست بطعنةِ باتِكِ
وأثنى لِكُرْزٍ فى الغُبارِ بطعنةٍ * علَتْ جِلْدهُ منها بأحْمَرَ عاتِك
قتلْنا سُلَيْمًا غَثَّها وسمينَها * فصبراً سُلَيْمٌ قد صبَرْنا لذلك
فإن تكُ نِسْوانى بكَيْنَ فقد بكت * كما قد بكتْ أمْ لِكُرْزٍ ومالك

وقال عبد الله بن جذل أيضاً :

قتلْنا مالِكا فبكَوْا عليه * وهل يُغْنِى من الجزعِ البُكاء ؟
وكُرْزاً قد تركناهُ صريعاً * تسيلُ على ترائبه الدّماء
فإن تجزعْ لِذاك بنو سُلَيْم * فقد وأبيهِمُ غلَبَ العزاء

فصبراً يا سُليمُ كما صبرْنا * وما فيكم لِواحِدِنا كِفاءُ

فلا تبعُدْ ربيعة من نديم * أخو الهُلّاكِ إن ذمّ الشّتاءُ

وكم من غارةٍ ورعيلِ خيْلٍ * تداركها وقد حَمِسَ اللّقاءُ

يوم الفيفاء: لسليم على كنانة

قال أبو عبيدة: ثم إن بنى الشريد حرّموا على أنفسهم النساء والدهن، حتى يُدرِكوا بثأرهم من بنى كنانة، فغزا عمرُو بن خالد بن صخر بن الشريد بقومه حتى أغار على بنى فراس، فقتل منهم نفراً، منهم عاصم بن المعلى، وفضالة، والمعارك، وعمرو بن مالك، وحصن، وشريح؛ وسبى سبياً فيهم ابنة مكدم أخت ربيعة بن مكدم، فقال عباس بن مرداس فى ذلك يرد على ابن جذل فى كلمته التى قالها يوم بَرزة:

ألا أبلغا عنى ابنَ جذلٍ ورهطَهُ * فكيفَ طلبْناكم بكُرْزٍ ومالكِ؟

غداةَ فجعْناكم بحِصنٍ وبِابنِهِ * وبابنِ المُعلّى عاصمٍ والمعارِكِ

ثمانيةٌ منهم ثأرْناهُمُ به * جميعاً وما كانوا بواءً بمالك

نُذيقكم والموتُ يبْنِي سُرادِقاً * عليكم، شباحَدِّ السُّيوفِ البواتكْ

تلوحُ بأيدينا كما لاح بارقٌ * تلألأ فى داجٍ مِنَ الليلِ حالِكْ

صبحْناكمُ العوجَ العناجيجَ بالضُّحى * تمُرُّ بنا مَرَّ الرِّياحِ النّواهكِ

إذا خرجَتْ من هبْوةٍ بعد هبْوةٍ * سَمتْ نحوَ مُلتفٍّ من الموتِ شائكِ

وقال هند بن خالد بن صخر بن الشريد:

قتلْتُ بمالِكٍ عَمْرًا وحِصناً * وخلّيْتُ القَتام على الخُدودِ

وكُرْزاً قد أبأْتُ به شريْحاً * على أثَرِ الفوارِسِ بالكَديدِ

جزيْناهم بما انتهكوا وزدْنا * عليْه ماوجَدْنا منْ مزيدِ

جلبْنا منْ جنُوبِ العودِ جُرْدًا * كطيْرِ الماءِ غلّسَ للوُرُودِ

قال : فلما ذكر هندُ بن خالد يوم الكديد وافتخر به ، ولم يشهده أحدٌ من بنى الشريد ، غضب من ذلك نُبيشة بن حبيب ، فأنشأ يقول :

تُبخِّل صُنعنا فى كلِّ يومٍ ٭ كمخضوبِ البَنانِ ولا يَصيدُ
وتأكلُ ما يَعافُ الكلبُ منه ٭ وتَزعُمُ أن والِدَكَ الشَّريد
أبَى لِي أنْ أُقِرَّ الضَّيمَ قيسٌ ٭ وصاحبُه المَزُورُ به الكَديدُ

حرب قيس وتميم

يوم السوبان : لبنى عامر على بنى تميم

قال أبو عبيدة : أغارت بنو عامر على بنى تميم وضبة فاقتتلوا ، ورئيسُ ضبة حسان بن وبرة ، وهو أخو النعمان لأمه ، فأسره يزيد بن الصعق ، وانهزمت تميم ؛ فلما رأى ذلك عامرُ بن مالك بن جعفر ، حسده ، فشدَّ على ضرار بن عمرو الضَّبِّىّ ، وهو الرديم ، فقال لأبنه إذ همّ : أغنِه عنى . فشدّ عليه فطعنه ، فتحوّل عن سرجه إلى جنب أبدائه ، ثم لحقه ، فقال لأحد بنيه : أغنه عنى . ففعل مثل ذلك ، ثم لحقه ، فقال لابن له آخر : أغنه عنى . ففعل مثل ذلك ، فقال : ماهذا إلا مُلاعب الأسنَّة ، فسُمِّىَ عامر من يومئذ ملاعبَ الأسنة ؛ فلما دنا منه قال له ضرار : إنى لأعلم ما تريد ، أتريد اللبن ؟ قال : نعم ! قال : إنك لن تَصِلَ إلىَّ ومن هؤلاء عين تَطرف ، كلهم بنىَّ . قال له عامر : فأحلنى عن غيرك . فدلَّه على حبيش بن الدلف ، وقال : عليك بذلك الفارس . فشد عليه فأسره ، فلما رأى سواده ، وقِصَرَه ، جعل يتفكر ؛ وخاف ابن الدلف أن يقتله ، فقال : ألست تريد اللبن ؟ قال : بلى . قال : فأنى لك به . وفادى حسان بنُ وبرة نفسه من يزيد بن الصعق بألف بعير فداء الملوك ، فكثر مال

يزيد وبما ؛ ثم أغار بعد ذلك يزيد بن الصعق على عصافير النعمان بذى لِيان ، وذو لِيان : عن يمين القريتين .

يوم أقرن : لبنى عبس على بنى دارم

غزا عمرو بن عمرو بن عدس من بنى دارم وهو فارس بنى مالك بن حنظلة ، فأغار على بنى عبس وأخذ إبلا وشاء ثم أقبل ، حتى إذا كان أسفل من ثنية أقرن ، نزل فابتنى بجارية من السبى ، ولحقه الطلب فاقتتلوا ، فقتَل أنسُ الفوارس ابنُ زياد العبسى عمْرا ، وانهزمت بنو مالك بن حنظلة ، وقتلت بنو عبس أيضاً حنظلةَ بنَ عمرو ـ وقال بعضُهم : قُتِلَ فى غير هذا اليوم ـ وارتدوا ما كان فى أيدى بنى مالك ، فنعى ذلك جريرٌ على بنى دارم ، فقال :

هل تذْكرونَ لَدَى ثنيَّة أقرُنٍ ۞ أنَسَ الفوارسِ حين يهوِى الأسْلَعُ

وكان عمرو أسلع ، أى أبرص . وكان لسماعة بن عمرو ، خالٌ من بنى عبس ، فزاره يوما فقتله بأبيه عمرو .

يوم المرّوت : لبنى العنبر على بنى قشير

أغار بَحِير بن سلمة بن قشير على بنى العنبر بن عمرو بن تميم ، فاتبعوه حتى لحقوه وقد نزل المرّوت وهو يقسم المِرباع ويعطى مَن معه ، فتلاحق القوم واقتتلوا ، فطعن قعنب بن عتاب الهيثمَ بن عامر القشيرى فصرعه فأسره ، وحمل الكدامُ ـ وهو يزيد بن أزهر المازنى ـ على بحير بن سلمة فطعنه فأرداه عن فرسه ، ثم نزل إليه فأسَرَه ؛ فأبصره قعنْب بن عتاب ، فحمل عليه بالسيف فضربه فقتله ، فانهزم بنو عامر وقُتل رجالهم ؛ فقال يزيد بن الصّعِق يرثى بحيرا :

أواردةٌ علَىّ بنو رِيَاحٍ ۞ بفخْرهمُ وقد قتلوا بحيرًا ؟

فأجابته الغوراء من بنى سليط بن يربوع :

قُعَيدَكَ يا يَزيدُ أبا قُبَيْسٍ ، أتُنذِرُ كي تُلاقينا النُّذورا
وتُوضِعُ تُخبِر الرُّكْبانَ أنَّا ، وُجِدنا في مِراس الحرب خُورا
ألَمْ تعلمْ قعيـدُك يا يزيد ، بأنا نَقْمَع الشيخَ الفَخورا
ونَفْقَأُ ناظرَيْه ولا نُبـالِي ، ونَجعل فوق هامَته الذُّرورا ٥
فأبلغ إن عرَضتَ بنى كِلابٍ ، فإنَّا نحن أقعَصْنا بَحِيرا
وضرَّجْنا عبيـدةَ بالعوالِي ، فأصبحَ مُوثَقاً فينا أسيرا
أفخْراً في الخَلاء بغير فخر ، وعند الحربِ خَوَّاراً ضَجورا

يوم دارة مأسل : لتميم على قيس

١٠ غزا عتبة بن شتير بن خالد الكلابى بنى ضبة ، فاستاق نَعَمَهم ، وقتل حصينُ بن ضرار الضبى ، أبازيد الفوارس ، فجمع أبوه ضرارٌ قومَه وخرج ثائراً بابنه حصين ، وزيد الفوارس يومئذ حَدَثٌ لم يُدرك ، فأغار على بنى عمرو بن كلاب ، وأفلت منه عتبة بن شتير وأسر أباه شتيرَ بن خالد ، وكان شيخاً كبيراً أعور ، فأتى به قومه ، فقال : يا شتير ، اختَرْ واحدةً من ثلاث . قال : أعرضها علىَّ . قال : إمّا أن تردّ ابنى حصينا ! قال : فإنى لا أنشرُ الموتى ! قال : وإمّا أن ١٥ تدفع إلىَّ ابنك عتبةَ أقتله به ! قال : لا ترضى بذلك بنو عامر : أن يدفعوا فارسهم شابا مقتبلا بشيخ أعور ، هامةِ اليوم أو غد . قال : وإمّا أن أقتلك قال : أمّا هذه فنعم ! قال : فأمر ضرارٌ ابنَه أدهمَ أن يقتله ، فلما قدمه ليضرب عنقه ، نادى شتير : ياآل عامر ، صبراً بصبىّ ! كأنه أنف أن يُقتل بصبى ، فقال ٢٠ فى ذلك شَمعلة فى كلمة له طويلة :

وخيَّرْنا شُتيراً فى ثلاثٍ ، وما كان الثلاث له خِيـارا
جَعلتُ السيفَ بين اللِّيتِ منه ، وبين قِصاص لِمَّتِه عِذارا

وقال الفرزدق يفخر بأيام ضبة :

ومغبوقةٍ قبل القِيان كأنها ٭ جرادٌ إذا أجلى على الفزعِ الفَجْرُ

عَوابس ما تَنفكُّ تحت بطونها ٭ سرابيل أبطالٍ بنائقها حُمْـر

تركْنَ ابنَ ذى الجَدَّين يَنْشِج مُسْنَداً ٭ وليس له إلا ألاءته قـبر

وهنّ على خدَّى شتير بن خالد ٭ أثير عجاجٍ من سنابكها كدْر ٥

إذا سُوِّمتْ للبأس يغشى ظهورها ٭ أسودٌ عليها البيض عادتها الهصْر

يَهُزُّون أرْماحا طِوالا مُتونها ٭ بهنّ الغِنى يومَ الكَريهةِ والفقر

أيام بكر على تميم

يوم الوقيط

قال فراس بن خندف : تجمعت اللهازم لتُغير على تميم وهم غارون ، ١٠
فرأى ذلك ناشب الأعور بن بَشامة العنبرى ، وهو أسير فى بنى سعد بن
مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ؛ فقال لهم : أعطونى رسولا أرسله إلى
بنى العنبر ، أُوصيهم بصاحبكم خيراً ليولُوه مثل الذى تُوَلُّونى من البرّ به
والإحسان إليه . وكان حنظلة بن الطفيل المرثدى أسيراً فى بنى العنبر ، فقالوا له :
على أن توصيه ونحن حضور . قال : نعم . فأتوه بغلام لهم ، فقال : لقد ١٥
أتيتمونى أحمق ، وما أراه مُبلِغا عنى ! قال الغلام : لا والله ما أنا بأحمق ، وقل
ما شئت فإنى مبلغه . فملأ الأعور كفه من الرمل ، فقال : كم هذا الذى فى كفى
من الرمل ؟ قال الغلام : شيء لا يُحصَى كثرةً . ثم أومأ إلى الشمس ، وقال :
ما تلك ؟ قال : هى الشمس ! قال : فاذهب إلى قومى فأبلغهم عنى التحية ، وقل
لهم يحسنوا إلى أسيرهم ويكرموه ؛ فإنى عند قوم محسنين إلىّ مكرمين لى ؛ وقل ٢٠
لهم يَعْروا جملى الأحمر ، ويركبوا ناقتى العيساء ، بآية ما أكلت معهم حَيْسا ، ويرعوا
حاجتى فى أُبَيْنِى مالك ؛ وأخبرهم أن العوسج قد أورق ، وأن النساء قد تشكَّتْ ؛

وليعصوا همام بن بشامة ، فإنه مشئوم محدود ، ويطيعوا هذيل بن الأخنس ، فإنه حازم ميمون .

فأتاهم الرسول فأبلغهم ؛ فقال بنو عمرو بن تميم : ما نعرف هذا الكلام ؛ ولقد جُنّ الأعورُ بعدنا ، فوالله ما نعرفُ له ناقة عنساء ، ولا جملا أحمر ! فشخص الرسول ، ثم ناداهم هذيل : يابنى العنبر ، قد بين لكم صاحبكم ؛ أما الرمل الذى قبض عليه ، فإنه يخبركم أنه أتاكم عدد لا يُحصى وأما الشمس التى أومأ إليها ، فإنه يقول إن ذلك أوضح من الشمس وأما جمله الأحمر ، فإنه هو الصّمان ، يأمركم أن تعروه ؛ وأما ناقته العيساء ، فهى الدهناء ، يأمركم أن تحترزوا منها ؛ وأما أبناء مالك ، فإنه يأمركم أن تنذروا بنى مالك بن مالك بن زيد مناة ما حذّركم ، وأن تمسكوا الحلف بينكم وبينهم ؛ وأما العوسج الذى أورق ، فيخبركم أن القوم قد لبسوا السلاح ؛ وأما تشكّى النساء ، فيخبركم بأنهن قد عملن شِكاء يغزون به .

قال : وقوله «بآية ما أكلت معكم حيسا» يريد أخلاطا من الناس قد غزوكم .

قال : فتحرزت عمرو فركبت الدهناء ؛ وأنذروا بنى مالك ، فقالوا : لسنا ندرى ما يقول بنو عمرو ، ولسنا متحولين لِما قال صاحبكم . قال : فصبّحت اللهازم بنى حنظلة ، فوجدوا عمْراً قد خلت ، وإنما أرادوهم على الوقيط ، وعلى الجيش أبجر بن جابر العجلى ؛ وشهدها ناس من تيم اللات ، وشهدها الغزر ابن الأسود بن شريك من بنى سنان ؛ فاقتتلوا ، فأُسِر ضرار بن القعقاع بن معبد ابن زرارة ، وتنازع فى أسرهِ بشر بن السوراء من تيم اللات ، والغزر بن الأسود فجزا ناصيته وخلّا سربه من تحت الليل ؛ وأسر عمرو بن قيس من بنى ربيعة ابن عجل ، وأسر عثجل بن شيبان بن علقمة من بنى زرارة ، ومُنّ عليه ، وأسرت غمامة بنت طوق بن عبيد بن زرارة ، واشترك فى أسرها الحطيم بن هلال ، وظربان ابن زياد ، وقيس بن خالد ؛ وردّوها إلى أهلها ؛ وعيّر جرير بن الخطفى بنى دارم بأسر ضرار وعثجل وبنى غمامة ، فقال :

أغمامُ لو شَهِدَ الوقيطَ فوارسى ٭ ما فيه يُقْتَلُ عثجلٌ وضرارُ

فأُسر حنظلة المأمون بن شيبان بن علقمة ، أسره طيسلة بن زياد أحد بنى ربيعة ، وأسر جويرية بن بدر من بنى عبد الله بن دارم ، فلم يزل فى الوثاق حتى قال أبياتا يمدح فيها بنى عجل ، وأنشأ يتغنى بها رافعاً عقيرته :

وقائلةٍ ما غاله أن يزورَها * وقد كنتُ عن تلك الزّيارة فى شغلِ

وقد أدركَتْني والحوادثُ جمّةٌ * مخالبُ قومٍ لا ضعافٍ ولا عزْل ٥

سِراعٍ إلى الداعى، بطاءٍ عن الخنا * رزانٍ لدى النادى، من غير ما جهْل

لعلهُمُ أن يُمطِرونى بنعمةٍ * كما طاب ماءُ المُزْن فى البلدِ المحل

فقد ينعشُ الله الفتى بعدَ عَثْرةٍ * وقد يبتدِى الحسنَى سُراةُ بنى عِجْل

فلما سمعوه أطلقوه ؛ وأُسر نعيم بن القعقاع بن معبد بن زرارة ، وعمرو ابن ناشب ؛ وأسر سنان بن عمرو أخو بنى سلامة بن كندة من بنى دارم ، ١٠ وأسر حاضر بن ضمرة ، وأسر الهيثم بن صعصعة ، وهرب عوف بن القعقاع عن إخوته ، وقتل حكيم النهشلى ، وذلك أنه لم يزل يقاتل وهو يرتجز ويقول :

كلُّ امرئٍ مُصَبّحٌ فى أهلهِ * والموتُ أدنى من شراكِ نعلهِ

وفيه يقول عنترة الفوارس : ١٥

وغادرنا حكيما فى مجالٍ * صريعاً قد سلبناهُ الإزارا

يوم النباج وثيتل : لتميم على بكر

الخشنى قال : أخبرنا أبو غسان العبدى ـ واسمه رفيع ـ عن أبى عبيدة معمر ابن المثنى ، قال : غدا قيس بن قاسم فى مقاعس وهو رئيس عليها ـ ومقاعس هو صريم ، وربيع ، وعبيد ، بنو الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة ٢٠ بن تميم ـ ومعه سلامة بن ظرب بن نمر الحمانى فى الأحارب وهم حمان ، وربيعة ، ومالك ، والأعرج ـ بنو كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم فغزوا بكر بن وائل فوجدوا بنى ذهل بن ثعلبة بن عكابة ، واللهازم ، وهم : بنو قيس وتيم اللات

ابن ثعلبة ، وعجل بن لجيم ، وعنزة بن أسد بن ربيعة ـ بالنباج وثيتل ، وبينهما روحة ؛ فتنازع قيس بن عاصم وسلامة بن ظرب فى الإغارة ، ثم اتفقا على أن يُغير قيس على أهل النِّباج ، ويُغير سلامةُ على أهل الثيتل . قال . فبعث قيس بن عاصم سنانَ بن سُمَيٍّ الأهتم شيِّفةً له ـ والشَّيِّفة الطليعة ـ فأتاه الخبر ، فلما أصبح قيسٌ

٥ سقى خيله ثم أطلق أفواه الرَّوايا ، وقال لقومه : قاتلوا ، فإن الموت بين أيديكم ، والفلاة من ورائكم ! فلما دَنَوْا من القوم صُبحاً سمعوا ساقيا من بكر يقول لصاحبه : يا قيس أوردْ فتفاءلوا به ؛ فأغاروا على النباج قبل الصبح ، فقاتلوهم قتالا شديدا ، ثم إن بكراً انهزمت ، فأسر الأهتم حمران بن بشر بن عمرو بن مرثد ، وأصابوا غنائم كثيرة ؛ فقال قيس لأصحابه : لامقام دون الثيتل ، فالنجاة . فأتوا ثيتل

١٠ ولم يغز سلامةُ ولا أصحابه بعد ، فأغار عليهم قيس بن عاصم ، فقاتلوه ثم انهزموا ، فأصاب إبلا كثيرة ؛ فقال سلامة : إنكم أغرتم على ما كان أمره إلىّ ! فتلاحوا فى ذلك ، ثم اتفقوا على أن سلموا إليه غنائم ثيتل ، ففى ذلك يقول ربيعة بن ظريف :

فلا يُبعِدَنْك الله قيس بن عاصمٍ * فأنت لنا عِز عزيزٌ وموئلُ

١٥ وأنت الذى حَوَيت بكر بن وائلٍ * وقد عضَّلت منها النباجُ وثيتل

غداةَ دعت يا آل شيبانَ إذ رأت * كراديس يهديهنّ وردٌ محجَّل

وظلت عُقابُ الموتِ تهفوا عليهم * وشُعثُ النواصى لجمهنّ تصلصل

فما منكم أبناء بكرِ بن وائل * لغارتنا إلا رَكوبٌ مذلّلُ

وقال جرير يصف ما كان من إطلاق قيس بن عاصم أفواهَ المزاد

٢٠ بقوله :

وفى يومِ الكلابِ ويوم قيسٍ * هراقَ على مُسلَّحة المزادا

وقال قُرة بن قيس بن عاصم :

أنا ابن الذى شقّ المزاد وقد رأى * بثيتل أحيـاء اللهازم حضّرا

وصبّحهم بالجيش قيس بن عاصمٍ * ولم يجدوا إلا الأسنّة مصدرا
على الجردِ يعلُكْنَ الشكيمَ عوابسا * إذا الماء من أعطافهن تحدّرا
فلم يَرها الراءون إلا لجاءةً * يُثِرن عجاجاً بالسنابك أكدرا
سقاهم بها الذيفانَ قيس بن عاصم * وكان إذا ما أوردَ الأمر أصدرا
وحُمران أدّته إلينا رماحُنا * يُنازعُ غلاًّ من ذراعيْهِ أسمرا ٥
وجشامةَ الذهليَّ قدناه عَنْوة * إلى الحي مصفودَ اليدينِ مفكّرا

يوم زرود : لبنى يربوع على بنى تغلب

أغار خزيمة بن طارق التغلبي على بنى يربوع وهم بزرود ، فنذروا به ، فالتقوا فاقتتلوا قتالا شديداً ؛ ثم انهزمت بنو تغلب وأُسر خزيمة بن طارق ، أسره أنيف بن جبلة الضبي — وهو فارس الشيّط ، وكان يومئذ معتلاً فى بنى يربوع ١٠ وأسيد بن حِناءة السليطى ؛ فتنازعا فيه ، فحكما بينهما الحرث بن قراد — وأمّ الحارث امرأة من بنى سعد بن ضبة — فحكم بناصية خزيمة للأنيف بن جبلة ، على أنّ لأسيد على أنيف مائةً من الإبل . قال : ففدى خزيمة نفسه بمائتى بعير وفرس . قال أنيف :

أخذتُك قسراً يا خزيم بن طارقٍ * ولاقيتَ منى الموتَ يوم زرودِ ١٥
وعانقته والخيلُ تدمَى نُحورُها * فأنزلتُه بالقاع غير حَميد

أيام يربوع على بكر

وهذه أيام كلها لبنى يربوع على بنى بكر : من ذلك يوم ذى طلوح ، وهو يوم أوْد ؛ ويوم الحائر ، ويوم ملهم ؛ ويوم القُحقح ، وهو يوم مالة ويوم رأس عين ، ويوم طِخفة ، ويوم الغَبيط ، ويوم مُخطّط ، ويوم جَدود ، ويوم الجبابات ويوم زرود الثانى. ٢٠

يوم ذى طلوح : لبنى يربوع على بكر

كان عميرة بن طارق بن حصينة بن أريم بن عبيد بن ثعلبة ؛ تزوج مُرّيّة بنت جابر ، أخت أبجر بن جابر العجلى ؛ فخرج حتى ابتنى بها فى بنى عجل ، فأتى أبجرُ

أختَه مزنة امرأة عميرة يزورها فقال لها : إني لأرجو أن آتيكِ ببنتِ النطف امرأة عميرة التي في قومها ! فقال له عميرة : أترضى أن تجاوِرَني وتسبِيني ؟ فندم أبجر وقال لعميرة : ما كنت لأغْزُوَ قومك ! ثم غزا أبجر والحوفزان متساندَين : هذا فيمن تبعه من بني شيبان ، وهذا فيمن تبعه من بني اللهازم ؛ وساروا بعميرة

٥ معهم قد وكل به أبجر أخاه حُرفصة بن جابر ؛ فقال له عميرة : لو رجعت إلى أهلي فاحتملتُهم ! فقال حرفصة : أفعل فكر عميرة على ناقته ، ثم نكل عن الجيش ، فسار يومين وليلة حتى أتى بني يربوع ، وأنذرهم الجيش ؛ فاجتمعوا حتى التقَوْا بأسفل ذي طلوح ، فأول ما كان فارس طلع عليهم عميرة ، فنادى : يا أبجر هلمّ ! فقال : من أنت ؟ قال : أنا عميرة ! فكذبه ، فسفر عن وجهه ، فعرفه ،

١٠ فأقبل إليه ، والتقت الخيل بالخيل ، فأُسر الجيش إلّا أقلهم .

وأسر حنظلة بن بشر بن عمرو بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم — وكان في بني يربوع — الحوفزان بن شريك ، وأخذه معه مكبلا ، وأُخذ ابن طارق سوادة بن يزيد بن بُجير بن عم أبجر ، وأُخذ ابن عنمة الضبي الشاعر ، وكان مع بني شيبان ، فافتكه متمِّم بن نويرة ؛ فقال ابن عَنمة يمدح مُتمم بن نويرة :

١٥ جزى الله ربُّ الناس عني مُتمِّما * بخيْرِ جزاءٍ ، ما أعَفَّ وأمْجَدا

أُجــيرتْ به آباؤنا وبناتنا * وشارَكَ في إطْلاقِنا وتفرّدا

أبا نَهشَلٍ إني لكم غير كافرٍ * ولاجاعِلٍ من دونِك المالَ مُرصدا

وأُسر سُويد بن الحوفزان ، وأُسر سويد وفلحس ، وهما من بني سعد بن همام فقال جرير في ذلك يذكر ذي طُلوح :

٢٠ ولمّا لقينا خيْلَ أبجَرَ يدعي * بدعوى لُجَيْمٍ غيرِ مِيلِ العواتقِ

صبَرْنا وكان الصبرُ منّا سجِيّةً * بأسيافِنا تحت الظِّلال الخوافِقِ

فلما رأوْا أنْ لا هَوادةَ عندَنا * دعوْا بعد كرْبٍ يا عُميْرَ بنَ طارق

يوم الحائر : وهو يوم ملهم . لبنى يربوع على بكر

وذلك أن أبا مُليل عبد الله بن الحارث بن عاصم بن حميد ، وعلقمة أخاه ، انطلقا يطلبان إبلا لهما ، حتى وردا ماءهم من أرض اليمامة ؛ فخرج عليهما نفر من بنى يشكر ، فقتلوا علقمة وأخذوا أبا مُليل ، فكان عندهم ما شاء الله ، ثم خلّوا سبيله ، وأخذوا عليه عهدا وميثاقا أن لا يخبر بأمر أخيه أحدا ؛ فأتى قومه ، فسألوه عن أمر أخيه ، فلم يخبرهم ؛ فقال وبرة بن حمزة : هذا رجل قد أُخذ عليه عهد وميثاق ! فخرجوا يقصُّون أثرَه ، ورئيسُهم شهاب بن عبد القيس ، حتى وردوا ملهم ؛ فلما رآهم أهل ملهم تحصنوا ، فحرقت بنى يربوع بعض زرعهم وعقروا بعض نخلهم ؛ فلما رأى ذلك القوم نزلوا إليهم فقاتلوهم ، فهُزمت بنو يشكر وقتل عمرو بن صابر صبرا ، ضربوا عنقه ، وقَتل عيينة بن الحارث بن شهاب ابن مُثَلَّم بن عبيد بن عمرو ، رجلا آخر منهم ؛ وقتل مالك بن نويرة حُمران بن عبد الله ، وقال :

طلبْنا بيومٍ مثل يوْمك علقما ٭ لَعَمْرى لَمَن يسعى بها كان أكرما
قتلْنا بجنبِ العِرْض عمرَو بن صابرٍ ٭ وحُمْرانَ أقْصَدناهما والمثلما
فللهَ عيْنا مَن رأى مثْل خيْلنا ٭ وماأدركَتْ من خيْلهم يوم مَلْهَما

يوم القحقح : وهو يوم مالة . لبنى يربوع على بنى بكر

أغارت بنو أبى ربيعة بن ذهل بن شيبان على بنى يربوع ، ورئيسهم مجبه بن ربيعة بن ذهل ، فأخذوا إبلا لعاصم بن قرط أحد بنى عُبيد ، وانطلقوا ؛ فطلبهم بنو يربوع ، فناوشوهم ، فكانت الدائرة على بنى ربيعة ؛ وقَتل المنهال بن عصمة المجبه بن ربيعة ؛ فقال فى ذلك نمران الرياحى :

وإذا لقيتَ القوْم فاطْعن فيهم ٭ يوْم اللّقاء كطعْنة المنهالِ
ترَكَ المُجبَّهَ للضّباع مُنكّسا ٭ والقومُ بين سوافلٍ وعَوالِ

يوم رأس العين : لبنى يربوع على بكر

أغارت طوائف من بنى يربوع على بنى أبى ربيعة برأس العين ، فاطّردوا النعَم فاتبعهم معاوية بن فراس فى بنى أبى ربيعة ، فأدركوهم ؛ فقتل معاوية بن فراس وفاتوا بالإبل ، وقال سحيم فى ذلك :

٥ أليس الأكرمونَ بنو رِياحٍ * نَمَــوْنى منهم عمى وخالى
هُمُ قتلوا المُجَبَّةَ وآبن تيْمٍ * تنوحُ عليهما سُودُ اللّيـالى
وهُمْ قتَلوا عميدَ بنى فِراس * برأسِ العيْنِ فى الحِجج الخوالى
وذادوا يوْمَ طِخفَة عن حِماهم * ذِياد غرائبِ الإبلِ النِّهالِ

يوم العظالى : لبنى يربوع على بكر

١٠ قال أبو عبيدة : وهو يوم أعشاش ، ويوم الأُفاقة ، ويوم الإياد ، ويوم مُليحة .

قال وكانت بكر بن وائل تحت يد كسرى وفارس ، وكانوا يجيرونهم ويجهزونهم ، فأقبلوا من عند عامل عين التمر فى ثلثمائة فارس متساندين ، يتوقعون انحدار بنى يربوع فى الحَزْن — وكانوا يَشْتُون خُفافا ، فإذا انقطع الشتاء انحدروا إلى الحزن — قال : فاحتمل بنو عُتيبة ، وبنو عبيد ، وبنو زبيد من بنى سليط ، من ١٥ أول الحى ، حتى استهلوا ببطن مُليحة ؛ فطالعت بنو زبيد فى الحزن حتى حلّوا الحُديقة والأُفاقة ، وحلت بنو عُتيبة وبنو عبيد بعين بروضة الثَّمَد .

قال : وأقبل الجيشُ حتى نزلوا هضبة الخصِىّ ، ثم بعثوا رئيسهم ، فصادفوا غلاما شابا من بنى عبيدة يقال له قرط بن أضبط ، فعرفه بسطام — وقد كان عرفه عامة غُلمان بنى ثعلبة حين أسره عتيبة ؛ قال : وقال سليط : بل هو المطوّح ٢٠ ابن قرواش — فقال له بسطام : أخبرنى ، ماذاك السواد الذى أرى بالحديقة ؟ قال : هم بنو زبيد ، قال : أفيهم أسيد بن حِنّاءة ؟ قال : نعم . قال : كم هم ؟ قال : خمسون بيتا . قال : فأين بنو عُتيبة ؟ وأين بنو أزنم ؟ قال : نزلوا روضة الثمد . قال : فأين سائر الناس ؟ قال : هم محتجزون بخفاف . قال : فمن هناك من بنى عاصم ؟

قال الأحيمر ، وقعنب ومعدان ، ابنا عِصْمة . قال فمن فيهم من بنى الحارث بن
عاصم ؟ قال : حصين بن عبد الله . فقال بسطام لقومه : أطيعونى تقبضوا على هذا
الحى من زبيد وتصبحوا سالمين غانمين . قالوا : وما يغنى عنا بنو زبيد لا يودون
رحلتنا . قال : إن السلامة إحدى الغنيمتين . فقال له مفروق : انتفخ تتحول
يا أبا الصهباء . وقال له هانئ : أجبنا ! فقال لهم : ويلكم ! إن أسيدا لم يظله بيت ٥
قط شاتيا ولا قائظا ، إنما بيته القفر ، فإذا أحس بكم أجال على الشقراء فركض
حتى يشرف على مليحة ، فينادى : ياآل يربوع ! فتركب ، فيلقاكم طعن ينسيكم
الغنيمة ، ولا يُبصر أحدكم مصرع صاحبه ؛ وقد جئتمونى وأنا أتابعكم ، وقد أخبرتكم
ما أنتم لاقون غداً ! فقالوا : نلتقط بنى زبيد ، ثم نلتقط بنى عبيدة وبنى عتيبة ،
كما نلتقط الكمأة ، ونبعث فارسين فيكونان بطريق أسيد ، فيحولان بينه وبين ١٠
يربوع . ففعلوا ، فلما أحس بهم أسيد ركب الشقراء ، ثم خرج نحو بنى يربوع ،
فابتدره الفارسان ، فطعن أحدهما فألقى نفسه فى شق فأخطأه . ثم كر راجعاً حتى
أشرف على مليحة ، فنادى : ياصباحاه ! ياآل يربوع ! غُشيتم ! فتلاحقت الخيل
حتى توافوا بالغطفان ، فاقتتلوا ؛ فكانت الدائرة على بنى بكر ، قتل منهم : مفروق
ابن عمرو ، فدفن بثنية يقال لها ثنية مفروق ، والمقاعس الشيبانى ، وزهير بن ١٥
الحزَوَّر الشيبانى ، وعمرو بن الحزور الشيبانى ، والهيثم بن المِقْعاس ، وعمير بن
الوذاك ، والضُّريس ؛ وأما بسطام فألح عليه فارسان من بنى يربوع ، وكان دارعاً
على ذات النُّسوع ، وكانت إذا أجدت لم يتعلق بها شىء من خيلهم ، وإذا أوعثت
كادوا يلحقونها ؛ فلما رأى ثقل درعه وضعها بين يديه على القَرَبوس ؛ وكره أن
يرمى بها ، وخاف أن يلحق فى الوعث . فلم يزل ديدنه وديدن طالبيه ، حتى حميت ٢٠
الشمس وخاف اللحاق ، فمر بوجار ضبع ، فرمى الدرع فيه . فمدّ بعضها بعضاً حتى
غابت فى الوجار . فلما خفف عن الفرس نشطت ففاتت الطلب وكان آخرَ من أتى
قومه ؛ وقد كان رجع إلى درعه لما رجع عنه القوم فأخذها . فقال العوام فى
بسطام وأصحابه :

وإنْ يك فى يوم الغبيطِ مَلامة * فيوم العُظالى كان أخزى وألْوَما ٢٥

أناخوا يُريدون الصباحَ فصُبِّحوا * وكانوا على الغازين غُدوةَ أشأَما
فررتم ولم تَلوُوا على مُجْحريكم * لو الحارثُ الحرّاب يُدعَى لأَقْدما
ولو أنّ بسْطامًا أُطيعَ لأمره * لأدّى إلى الأحياء بالحِنْو مَغْنَما
ففرّ أبو الصَّهْباء إذ حَمِىَ الوغى * وألقى بأبدان السلاح وسلّما
٥ وأيقن أنّ الخيلَ إن تلتبسْ به * يَعُدْ غانمًا أو يَملإ البيتَ مأتما
ولو أنها عصفورةٌ لحسِبْتُها * مُسوّمةً تدعو عُبَيداً وأزْنَما
أَبى لك قيْدٌ بالغَبيطِ لقاءهم * ويومُ العَظالى إن فخرتَ مكلَّما
فأفلتَ بسْطامٌ حريصاً بنفسه * وغادر فى كرْشاء لَدْناً مُقوّما
وقاظ أسيراً هانئٌ وكأنما * مَفارقُ مفروقٍ تَغشَّيْنَ عَندما

١٠ قال : ثم إنّ هانئاً فدى نفسه وأسرَى قومه ؛ فقال العوام فى ذلك :

إنّ الفتى هانئاً لاقى بشِكّته * ولم يَجِمْ عن قتالِ القومِ إذ نَزَلا
ثمّتَ سارَع فى الأسرى ففكّهم * حامى الذّمار حَقيقٌ بالذى فعلا

يوم الغبيط لبنى يربوع على بنى بكر

قال أبو عبيدة : يقال لهذا اليوم : يوم الغبيط ، ويوم الثعالب ـ والثعالب
١٥ أسماء قبائل اجتمعت فيه ـ ويقال له : يوم صحراء فَلْج .

وقال أبو عبيدة : حدثنى سليط بن سعد ، زبّان الصُّبيرىّ ، وجهم بن حسان السَّليطى ، قالوا : غزا بِسطام بن قيس ، ومفروق بن عمرو ، والحارث ابن شريك ـ وهو الحوفزان ـ بلاد بنى تميم ـ وهذا اليوم قبل يوم العُظالى ـ فأغاروا على بنى ثعلبة بن يربوع ، وثعلبة بن سعد بن ضبة ، وثعلبة بن عدى
٢٠ ابن فزارة ، وثعلبة بن سعد بن ذبيان ؛ فذلك قيل له يوم الثعالب ، وكان هؤلاء جميعاً متجاورين بصحراء فلج فاقتتلوا ، فانهزمت الثعالب فأصابوا فيهم واستاقوا إبلا من نَعمهم ، ولم يشهد عتيبة بن الحارث بن شهاب هذه

الوقعة ؛ لأنه كان نازلا يومئذ فى بنى مالك بن حنظلة ؛ ثم امترّوا على بنى مالك ، وهم بين صحراء فلج وبين الغبيط ، فاكتسحوا إبلهم : فركبت عليهم بنو مالك ، فيهم عتيبة بن الحارث بن شهاب ، ومعه فرسان من بنى يربوع يأثفهم ـ أى صار معهم مثل الأثافى للرماد ـ وتألّف إليهم الأحيمر بن عبد الله ، والأسيد بن حِنّاءة ، وأبو مرحب ، وجرو بن سعد الرياحى وهو ٥ رئيس بنى يربوع ـ وربيع ، والخليس ، وعمارة ، وبنو عتيبة بن الحارث ، ومعدان وعصمة ابنا قعنب ، ومالك بن نويرة ، والمنهال بن عصمة أحد بنى رياح بن يربوع ، وهو الذى يقول فيه متمّم بن نويرة فى شعره الذى يرثى فيه مالكا أخاه :

١٠ لقد غيّب المنهالُ تحت لوائِه ✻ فتًى غير مِبطان العشيّة أروعا

فأدركوهم بغبيط المَدَرة ، فقاتلوهم حتى هزموهم ، وأدركوا ما كانوا استاقوا من أموالهم ؛ وألح عتيبة والأسيد والأحيمر على بسطام ، فلحقه عتيبة فقال : استأسِر لى يا أبا الصهباء ! فقال : ومن أنت ؟ قال : أنا عتيبة ، وأنا خيرٌ لك من الفلاة والعطش ! فأسره عتيبة . ونادى القومُ بِجاداً أخا ١٥ بسطام : كرّ على أخيك ! وهم يرجون أن يأسروه ، فناداه بسطام : إن كررت فأنا حَنيف . وكان بسطام نصرانيا ، فلحق نجاد بقومه ، فلم يزل بسطام عند عتيبة حتى فادى نفسه .

قال أبو عبيدة : فزعم أبو عمرو بن العلاء أنه فدى نفسّه بأربعمائة بعير وثلاثين فرسا ، ولم يكن عربى عكاظى أعلى فداءً منه ، على أن جز ناصيته ٢٠ وعاهده أن لا يغزو بنى شهاب أبدا ؛ فقال عتيبة بن الحارث بن شهاب :

أبلغْ سَراةَ بنى شيْبان مألكةً ✻ أنى أبأتُ بعبدِ الله بسْطاما

قاظَ الشربّة فى قيدٍ وسلسلةٍ ✻ صوتُ الحديدِ يُغَنّيه إذا قاما

يوم مخطط : لبنى يربوع على بكر

قال أبو عبيدة : غزا بسطام بن قيس والحوفزان الحرثُ متساندَين يقودان بكر بن وائل ، حتى وردوا على بنى يربوع بالفِردوس ، وهو بطن لإياد ، وبينه وبين مخطط ليلة ، وقد نذِرت بهم بنو يربوع فالتقوا بالمخطط ، فاقتتلوا ، فانهزمت بكر بن وائل ، وهرب الحوفزان وبسطام ففاتا ركضا ، وقُتل شريك بن الحوفزان ، قتله شهاب بن الحارث أخو عتيبة ، وأسر الأحيمر بن عبد الله بن الضريس الشيبانى ؛ فقال فى ذلك مالك بن نويرة ولم يشهد هذا اليوم :

إلّا أكن لاقيتُ يومَ مُخطَّطٍ * فقد خَبّرَ الرُّكبانُ ما أتودّدُ
بأفناء حيّ من قبائل مالكٍ * وعمرو بن يربوعٍ أقاموا فأخلَدوا
فقال الرئيسُ الحوفزان تبيَّنوا * بنى الحِصنِ قد شارفتم ثم حَرِّدوا
فما فَتِئوا حتى رأونا كأننا * مع الصبح آذِيٌّ من البحر مُزبِد
بملمومة شهباء يَبرُقُ خالُها * تَرى الشمسَ فيها حين دارت توقَّد
فما بَرِحوا حتى علَتْهم كتائبٌ * إذا طُعنت فرسانها لا تُعَرِّد
فأقررتُ عينى يوم ظلّوا كأنهم * ببطن غَبيطٍ خُشْبُ أثلٍ مُسنَّد
صَريعٌ عليه الطيرُ تَحجِلُ فوقَه * وآخَرُ مَكبولُ اليدَين مُقيَّد
وكان لهم فى أهلِهم ونسائهم * مَبيتٌ ولم يَدْروا بما يُحدِثُ الغد
وقد كان لابن الحوفزان لو انتهى * شَريكٌ وبِسْطامٌ عن الشرّ مَقعَد

يوم جدود

غزا الحوفزان ، وهو الحارث بن شريك ، فأغار على من بالقاعة من بنى سعد ابن زيد مناة ؛ فأخذ نَعَما كثيرا ، وسبى فيهنّ الزرقاء من بنى ربيع بن الحارث ، فأعجب بها وأعجبت به ، وكانت خرقاء ، فلم يتمالك أن وقع بها ؛ فلما انتهى إلى جَدود ، منعتهم بنو يربوع بن حنظلة أن يردوا الماء ، ورئيسهم عتيبة بن الحارث

ابن شهاب ، فقاتلوهم ، فلم يكن لبنى بكر بهم يدٌ ، فصالحوهم على أن يعطوا بنى يربوع بعض غنائمهم ، على أن يخلُّوهم [أنْ] يردوا الماء ، فقبلوا ذلك وأجازوهم ؛ فبلغ ذلك بنى سعد ، فقال قيس بن عاصم فى ذلك :

جزى اللهُ يرْبوعًا بأسوأ سعْيها * إذا ذُكرتْ فى النائباتِ أمورُها

ويومَ جَدودٍ قد فضَحْتمْ أباكمُ * وسالمْتمُ والخيلُ تَدْمَى نُحورُها

فأجابه مالك :

سأسأل مَن لاقَى فوارِسَ مُنقِذٍ * رِقابَ إماءٍ كيف كان نَكيرُها

ولما أتى الصريخُ بنى سعد ، ركب قيس بن عاصم فى أثر القوم حتى أدركهم بالأشْيَمَيْن ، فألح قيس على الحوفزان وقد حمل الزرقاء ، وكان الحوفزان قد خرج فى طليعة ، فلقيه قيس بن عاصم فسأله من هو ؛ فقال : لا تَكاتَم اليوم ، أنا الحوفزان ، فمن أنت ؟ قال : أنا أبو على . ومضى ، ورجع الحوفزان إلى أصحابه ، فقال : لقيت رجلا أزرق كأنّ لحيته ضريبة صوف فقال : أنا أبو على . فقالت عجوز من السبي : بأبى أبو على ! ومن لنا بأبى على ؟ فقال لها : ومن أبو على ؟ قالت : قيس بن عاصم ! فقال لأصحابه : النجاء ! وأردف الزرقاء خلفه وهو على فرسه الزَّبِد ، وعقد شعرها إلى صدره ونجا بها . وكانت فرس قيس إذا أوعثت قصّرت وتمطّر عليها الزّبد ، فلما أجدّت لحقتْ بحيث يُكلم الحوفزان ، فقال قيس له : يا أبا حمار ، أنا خير لك من الفلاة والعطش ! قال له الحوفزان : ما شاء الزبِد . فلما رأى قيس أن فرسه لا يلحقه ، نادى الزرقاء فقال : ميلى به يا جعار ! فلما سمعه الحوفزان ، دفعها بمرفقه وجزّ قرونها بسيفه ، فألقاها عن عجز فرسه ، وخاف قيس أن لا يلحقه فنجله بالرمح فى خُرابة وركه ، فلم يُقصِده وعَرج منها وردّ قيس الزرقاء إلى بنى الربيع ، فقال سوّار بن حيّان المِنقرى :

ونحن حَفَزْنا الحوْفزان بطعْنةٍ * تَمُجُّ نجيعًا من دمِ الجوْفِ أشْكلا

يوم سفوان

قال أبو عبيدة : التقت بنو مازن وبنو شيبان على ماء يقال له سفوان فزعمت بنو شيبان أنه لهم ، وأرادوا أن يُجلوا تميما عنه ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، فظهرت عليهم بنو تميم ، وذادوهم حتى وردوا الحدَث ، وكانوا يتوعّدون بنى مازن قبل ذلك ، فقال فى ذلك وذاك المازنى :

٥

رُويداً بنى شيبانَ بعضَ وعيدِكم ٭ تُلاقوا غداً خيلى على سفَوان
تلاقوا جياداً لا تَحيد عن الوغَى ٭ إذا الخيلُ جالت فى القنا المتدانِى
عليها الكُماة الغُرُّ من آل مازنٍ ٭ ليوثُ طعانٍ كلَّ يومِ طعان
تلاقوهم فتعرفوا كيف صبرُهُم ٭ على ما جنت فيهم يدُ الحدَثان
مقاديمُ وصّالون فى الروع خطوَهُم ٭ بكلِّ رقيق الشَّفْرتين يمانِ
إذا استُنجدوا لم يسألوا من دعاهم ٭ لأيَّةِ حربٍ أم لأىِّ مكان

١٠

يوم السلى

قال أبو عبيدة : كان من حديث يوم السلى أن بنى مازن أغارت على بنى يشكر فأصابوا منهم ، وشدّ زاهر بن عبد الله بن مالك على تميم بن ثعلبة اليشكرى فقتله ، فقال فى ذلك :

١٥

لله تيمٌ أىُّ رُمحِ طرادٍ ٭ لاقى الحِمام وأى نصل جلادِ
ومِحَشُّ حربٍ مقدمٌ متعرضٌ ٭ للموتِ غـيرُ معرِّدٍ حيَّاد

وقال حاجب بن ذبيان المازنى :

سلى يشكراً عنى وأبناء وائلٍ ٭ لهـازِمَها طرًّا وجمع الأراقمِ
ألم تعلمى أنّا إذا الحربُ شمرت ٭ سِمامٌ على أعدائنا فى الحلاقم
عُتاةٌ قراةٌ فى الشتاء مساعِرٌ ٭ حُماةٌ كماةٌ كالليوثِ الضراغمِ

٢٠

بأيديهم سُمْرٌ من الخطّ لدْنةٌ * وبيضٌ تجلى عن فراخ الجماجمِ
أُولئكَ قومٌ إن فخرتُ بعزّهم * فخرتُ بِعزٍّ فى اللّهى والغَلاصم
هُمُ أنزلوا يوم السليّ عزيزَها * بسُمْرِ العوالِى والسُّيوفِ الصّوارِمِ

يوم نقاء الحسن : وهو يوم السقيفة لبنى ضبه على شيبان

قال أبو عبيدة : غزا بسطام بن قيس بن مسعود بن قيس بن خالد ـ وقيس ابن مسعود هو ذو الجدّين وأخوه ، السليل بن قيس بن ضبة بن أد بن طابخة ـ فأغار على ألف بعير لمالك بن المنتفق فيها فحلها قد فقأ عينه ، وفى الإبل مالك ابن المنتفق ، فركب فرساً له ونجا ركضا ، حتى إذا دنا من قومه نادى : يا صباحاه ! فركبت بنو ضبة ؛ وتداعت بنو تميم ، فتلاحقوا بالنقا ، فقال عاصم بن خليفة لرجل من فرسان قومه أيهم رئيس القوم ؟ قال : حاميتهم صاحب الفرس الأدهم يعنى بسطاما ، فعلا عاصمٌ عليه بالرمح فعارضه ، حتى إذا كان بحذائه رمى بالقوس وجمع يديه فى رمحه فطعنه ، فلم تخطئ صماخ أذنه ، حتى خرج الرمح من الناحية الأخرى ، وخرّ على الألاءة ـ والألاءة شجرة ـ فلما رأى ذلك بنو شيبان خلّوا سبيل النعم وولوا الأدبار ؛ فمن قتيل وأسير ؛ وأسر بنو ثعلبة بجاد بن قيس بن مسعود أخا بسطام فى سبعين من بنى شيبان ، فقال ابن غنمة الضبى ، وهو مجاورٌ يومئذ فى بنى شيبان يرثى بسطاما وخاف أن يقتلوه ، فقال :

لأمِّ الأرضِ ويلٌ ما أجنَّت * بحيثُ أضرَّ بالحسنِ السبيلُ
نقسم ماله فينا وندعو * أبا الصهباء إذ جَنح الأصيل
كأنكِ لم تَرَيْه ولم تريه * تُخَبُّ به عُذَا فرةٌ ذَمول
حقيبةُ رحْلها بدنٌ وسرْجٌ * تعارضُها مربّبةٌ دءول
إلى ميعادِ أرْعَنَ مكفهِرٍّ * تُضمَّرُ فى جوانبه الخيُول
لك المِرْباعُ منها والصّفايا * وحُكمُك والنشيطَة والفضُول
لقد ضمِنت بنو زيد بن عمرو * ولا يوفِى ببسطامٍ قتيل

خرّ على الألاءة لم يوسّد * كأنّ جبينَه سيفٌ صقيلُ

فإن تجزَع عليه بنو أبيهِ * فقد فُجِعوا وحلّ بهم جليل

بمطعامٍ إذا الأشوالُ راحت * إلى الحجراتِ ليس لها فصيل

وقال شملة بن الأخضر بن هُبيرة :

٥ ويومَ شقائقِ الحسنَيْنِ لاقت * بنو شيبانَ آجالا قصاراً

شككْنا بالرماح وهُنّ زورٌ * صماخَى كبشِهم حتى استدارا

وأوجَرْناه أسمرَ ذا كعوبٍ * يشبّه طولُه مسَداً مُغارا

وقال محرز بن المكعبر الضبي :

أطلقتُ من شيبانَ سبعينَ راكباً * فآبوا جميعاً كلُّهم ليس يشكر

١٠ إذا كنتَ فى أفنانِ شيبانَ مُنعماً * فجُزّ اللحى إنّ النواصىَ تكفر

فلاشكرهم أبغى إذا كنتُ مُنعما * ولا ودّهم فى آخر الدهر أُضمِر

أيام بكر على تميم

يوم الزُّويرَين

قال أبو عبيدة : كانت بكر بن وائل تنتجع أرض تميم فى الجاهلية ترعى بها
١٥ إذا أجدبوا ، فإذا أرادوا الرجوع لم يدعوا عورة يصيبونها ولا شيئا يظفرون
به إلا اكتسحوه ؛ فقالت بنو تميم : امنعوا هؤلاء القوم من رعْى أرضكم وما
يأتون إليكم فحشدت تميم ، وحشدت بكر واجتمعت : فلم يتخلف منهم إلا
الحوفزان بن شريك فى أناس من بنى ذهل بن شيبان وكان غازيا ؛ فقدّمت بكر
عليهم عمراً الأصم أبا مفروق ـ قال : وهو عمرو بن قيس بن مسعود أبو عمر
٢٠ ابن أبى ربيعة بن ذهل بن شيبان ـ فحسد سائر ربيعة الأصم على الرياسة ، فأتوه
فقالوا : يا أبا مفروق ، إنا قد زحفنا لتميم وزحفوا لنا أكثر ما كنا وكانوا قط .
قال : فما تريدون ؟ قالوا : نريد أن نجعل كل حى على حياله ، ونجعل عليهم رجلا

منهم ؛ فنعرف غَناء كل قبيلة ، فإنه أشدّ لاجتهاد الناس ! قال : والله إنى لأبغض الخلاف عليكم ، ولكن يأتى مفروق فينظر فيما قلتم . فلما جاء مفروق شاوره أبوه ـ وذلك أول يوم ذُكر فيه مفروق بن عمرو — فقال له مفروق : ليس هذا أرادوا ، وإنما أرادوا أن يخدعوك عن رأيك وحسدوك على رياستك ؛ والله لئن لقيت القوم فظفرت لايزال الفضلُ لنا بذلك أبدا ، ولئن ظفر بك لاتزال لنا رياسة نُعرف بها ! فقال الأصم : ياقوم ، قد استشرت مفروقا فرأيته مخالفا لكم ، ولست مخالفا رأيه وما أشار إليه . فأقبلت تميم بجملين مجللين مقرونين مقيدين ، وقالوا : لانولّى حتى يولى هذان الجملان ، وهما الزويران . فأخبرت بكر بقولهم الأصمّ ، فقال : وأنا زويركم ، إن حشوهما فحشونى ، وإن عقروهما فاعقرونى ! قال : والتقى القوم ، فاقتتلوا قتالا شديدا .

قال : وأسرت القوم بنو تميم ، حراث بن مالك أخا مرة بن همام ، فركض به رجل منهم وقد أردفه ، واتبعه ابنه قتادة بن حراث ، حتى لحق الفارس الذى أسر أباه ، فطعنه فأراده عن فرسه ، واستنقذ أباه ؛ ثم استحر بين الفريقين القتال ، فانهزمت بنو تميم ؛ فقتل منهم مقتلة عظيمة . فمن قتل منهم : أبو الرئيس النهشلى . وأخذت بكر الزويرين ، أخذتهما بنو سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة ، فنحروا أحدهما فأكلوه وافتحلوا الآخر ، وكان نجيبا ، فقال رجل من بنى سدوس :

يا سَلْمُ إن تسألِى عنّا فلا كشفٌ * عند اللّقاء ولسنا بالمقاريفِ

نحنُ الذين هَزمنا يوم صبَّحنا * جيشَ الزُّويرينِ فى جمعِ الأحاليف

ظلُّوا وظلنا نكر الخيلَ وسطهمُ * بالشِّيبِ منّا وبالمردِ الغطاريفِ

وقال الأغلب بن جُشم العجلى :

جاءوا بزويرهم وجئنا بالأصم * شيخٌ لنا قد كان من عهدِ إرمْ

يكرُّ بالسّيفِ إذا الرمحُ انحطمْ * كهمّةِ الليْثِ إذا ما الليثُ هم

كانت تميمٌ معشراً ذوِى كرمْ * غلصمةً من الغَلاصِمِ العظم

قد نَفَخُوا لو ينفُخُون فى فَحَمْ * وصَبَرُوا لو صَبَروا على أَمَمْ
إذ رَكِبَتْ ضَبَّةُ أَعجازَ النَّعمْ * فلمْ تَدَعْ ساقاً لهـا ولا قدمْ

يوم الشيطين : لبكر على تميم

قال أبو عبيدة : لما ظهر الإسلام ـ قبل أن يسلم أهل نجد والعراق ـ
٥ سارت بكر بن وائل إلى السواد ، وقالت : نغير على تميم بالشيِّطَين ؛ فإن فى دِين ابن عبد المطلب : من قتل نفساً قُتل بها ؛ فنغير هذا العام ثم نسلم عليها ! فارتحلوا من لعلع بالذرارى والأموال ؛ فأتوا الشيطين فى أربع ، وبينهما مسيرة ثمانية أميال ؛ فسبقوا كل خبر حتى صبحوهم وهم لا يشعرون ، ورئيسهم يومئذ بشر بن مسعود بن قيس بن خالد ذى الجدين ؛ فقتلوا بنى تميم قتلا ذريعاً ، وأخذوا أموالهم ؛ واستحر القتل
١٠ فى بنى العنبر وبنى ضبة وبنى يربوع ، دون بنى مالك بن حنظلة .

قال أبو عبيدة : حدثنا أبو الحناء العنبرى ؛ قال قتل من بنى تميم يوم الشيِّطَين ستمائة رجل . قال : فوفد وفد بنى تميم على النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فقالوا : ادعُ الله على بكر بن وائل ! فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رُشَيد ابن رميض العنبرى :

١٥ وَما كانَ بيْن الشيِّطَيْنِ ولعْلَعٍ * لِسُوقنا إلاَّ مَراجِعُ أربعُ
فجئنا بجمعٍ لم يرَ النَّاسُ مِثلهُ * يَكادُ لهُ ظهرُ الوريعة يَضلَعُ
بأرْعَنَ دَهْمٍ شَيّد البُلْق وسْطهُ * له عارِضٌ فيه الأَسِنَّةُ تلمعُ
صَبَحْنا بِه سعداً وعَمْراً ومالكا * فكان لهم يومٌ مِنَ الشَّرِّ أشنعُ
فخلَّوْا لنا صحنَ العِراقِ وإنَّه * حِمًى منهم لا يُستطاعُ مُمَنَّعُ

٢٠ يوم صعفوق : لبكر على تميم

أغارت بنو أبى ربيعة على بنى سليط بن يربوع يوم صعفوق ، فأصابوا منهم أسرى ، فأتى طريفُ بن تميم العنبرى فروة بن مسعود ، وهو يومئذ سيد

بنى أبى ربيعة ، ففدى منهم أسرى بنى سليط ورهَنهم ابنه ؛ فأبطأ عليهم فقتلوا ابنه ، فقال :

لا تأمَنَنَّ سُلَيْمى أنْ أُفارِقَها * صرْعى الظَّعائن بعد اليوْم صُعْفوق
أعطيْتُ أعداءهُ طوْعاً برُمَّتِه * ثم انصرفْتُ وظنى غيرُ موْثوق

٥

يوم مبايض : لبكر على تميم

قال أبو عبيدة : كانت الفرسان إذا كانت أيام عكاظ فى الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضا ، تقنَّعوا كى لا يُعرفوا ، وكان طريف بن تميم العنبرى لا يتقنّع كما يتقنعون ، فوافى عكاظ وقد كشفت بكر بن وائل ، وكان طريف قتل شراحيل الشيبانى أحد بنى عمرو بن أبى ربيعة بن ذهل بن شيبان ، فقال حصيصة : أرونى طريفا . فأروه إياه ، فجعل كلما مر به تأمله ونظر إليه ففطن طريف ، فقال : مالَكَ تنظر إلىّ ؟ فقال : أترسَّمك لأعرفك ؛ فلله علىّ إن لقيتُك أن أقتلك أو تقتلنى ! فقال طريف فى ذلك :

١٠

أوَ كلما وردَتْ عكاظَ قبيلةٌ * بعثوا إلىّ عَريفَهم يتوَسَّمُ
فتوَسَّمُونى إننى أنا ذلكم * شاكى سِلاحى فى الحوادثِ مُعْلِمُ
تحتى الأغرُّ وفوْق جلدى نَثْرةٌ * زغْفٌ ترُدُّ السَّيفَ وهو مُثَلَّمُ
حوْلى أسيِّد والهُجَيْم ومازنٌ * وإذا حللتُ فحوْل بيتىَ خَضَّمُ

١٥

قال : فمضى لذلك ما شاء الله ، ثم إن بنى عائذة حلفاء بنى أبى ربيعة بن ذهل ابن أبى شيبان — وهم يزعمون أنهم من قريش ، وأن عائذة بن لؤى بن غالب — خرج منهم رجلان يصيدان ، فعرض لهما رجل من بنى شيبان ، فذعر عليهما صيدَهما ، فوثبا عليه فقتلاه ؛ فثارت بنو مرة بن ذهل بن شيبان يريدون قتلهما فأبت بنو ربيعة عليهم ذلك ؛ فقال هانئ بن مسعود : يا بنى ربيعة ، إن إخوتكم قد أرادوا ظلمكم فانمازوا عنهم . قال : ففارقوهم وساروا حتى نزلوا بمبايض ، ماء لهم — ومبايض علم من وراء الدهناء — فأبق عبدٌ لرجل من بنى أبى ربيعة ،

٢٠

فسار إلى بلاد تميم ، فأخبرهم أن حيًّا جديدا من بنى بكر بن وائل نُزولٌ على مبايض ؛ وهم بنو أبى ربيعة والحى الجديد المنتقى من قومه ؛ فقال طريف العنبرى : هؤلاء ثأرى ياآل تميم ، إنما هم أكلة رأس . وأقبل فى بنى عمرو بن تميم ، وأقبل معه أبو الجدعاء ، أحد بنى طُهية ، وجاءه فدَكىّ بن أعبد المِنقرى فى جمع من بنى سعد

٥ ابن زيد مناة ؛ فنذِرت بهم بنو أبى ربيعة ، فانحاز بهم هانئ بن مسعود وهو رئيسهم ، إلى علم مبايض ؛ فأقاموا عليه وشرقوا بالأموال والسَّرح ، وصبَّحتهم بنو تميم ؛ فقال لهم طريف : أطيعونى ولترغوا من هؤلاء الأكلب يصفُ لكم ما وراءهم . فقال له أبو الجدعاء رئيس بنى حنظلة ، وبدكى رئيس بنى سعد بن مناة : أنقاتل أكلبا أحرزوا نفوسهم ونترك أموالهم ؟ ما هذا برأى ، وأبَوْا عليه . فقال

١٠ هانئ لأصحابه : لا يقاتل رجل منكم ولحقت تميم بالنعم والبغال فأغاروا عليها ، فلما ملئوا أيديَهم من الغنيمة قال هانئ بن مسعود لأصحابه : احملوا عليهم . فهزموهم وقتلوا طريفا العنبرى ، قتله خَصيصة الشيبانى ، وقال :

ولقد دعوتَ طريفَ دعْوةَ جاهلٍ * سفَهاً وأنت بمعْلم قد تعْـلَمُ

وأتيْتَ حيًّا فى الحروبِ محَلُّهم * والجيْشُ باسم أبيهم يُستقْدمُ

١٥ فوجدْتَ قوْما يمنعون ذِمارَهُم * بُسلاء إذا هابَ الفوارِسُ أقدَموا

وإذا دُعُوا أبنى ربيعةَ ! شمَّروا * بكتائبٍ دون السماء تلملم

حشَدوا عليك وعجَّلوا بِقِرائهم * وحَموْا ذِمار أبيهم أنْ يُشتموا

سلبوك درعَك والأغرَّ كلاهما * وبنو أُسيِّد أسلموك وخضَّم

يوم فيحان : لبكر على تميم

٢٠ قال أبو عبيدة : لما بدى بسطام بن قيس من عُتيبة بن الحارث إذ أسر يوم الغبيط بأربعمائة بعير ، قال : لأدركن عقْل إبلى ! فأغار بفيحان ؛ فأخذ الربيع بن عتيبة واستاق ماله ، فلما سار يومين شُغل عن الربيع بالشراب ، وقد مال الربيع على قدّه حتى لان ، ثم خلعه وانحلّ منه . ثم جال فى متْن ذات النسوع — فرس

بسطام — وهرب ، فركبوا فى أثره ؛ فلما يئسوا منه ناداه بسطام : يا ربيع ، هلمّ طليقا ! فأبى . قال : وأتى نادِىَ قومه يحدثهم ، فجعل يقول فى أثناء حديثه : إيها يا ربيع ! انج ربيع ! وكان معه رئى .

قال : وأقبل ربيع حتى انتهى إلى أدنى بنى يربوع ، فإذا هو براع ، فاستسقاه وضربت الفرس برأسها فماتت . فسُمى ذلك المكان إلى اليوم : عبير الفرس . ٥

فقال له أبو عُتَيبة : أما إذ نجوت بنفسك فإنى مخلفٌ لك مالك .

يوم ذى قار الأول : لبكر على تميم

قال أبو عبيدة : فخرج عتيبة فى نحو خمسة عشر فارسا من بنى يربوع فكمن فى حبى ذى قار ، حتى مرت به إبل بنى الحَصين بالقَداوية ، اسم ماء لهم ، فصاحوا بمن بها من الحامية والرِّعاء ، ثم استاقوها . ١٠

فأخلف للربيع ما ذهب له ، وقال :

ألم ترَنى أفأتُ على ربيعٍ * جِلاداً فى مَبارِكِها وخُورا

وأنى قد تركْت بنى حُصَيْنٍ * بذى قارٍ يُرَمُّون الأمورا

يوم الحاجر : لبكر على تميم

قال أبو عبيدة : خرج وائل بن صريم اليشكرى من اليمامة ، فلقيه بنو أُسيد ابن عمرو بن تميم ، فأخذوه أسيراً ، فجعلوا يغمسونه فى الركيّة ويقولون : ١٥

* يا أيها المائحُ دَلْوِى دُونَكا *

حتى قتلوه ؛ فغزاهم أخوه باعث بن صريم يوم حاجر ، فأخذ ثمامة بن باعث ابن صريم رجلا من بنى أسيد كان وجيهاً فيهم فقتله ، وقتل على الظنّة مائة منهم ، فقال باعث بن صريم : ٢٠

سائلْ أُسَيْداً هل ثأرْتُ بوائلٍ * أمْ هل شَفَيتُ النّفسَ من بَلْبالِها

إذ أرسلونىَ ماتِحاً لدِلائهم * فملأْتُها عَلَقاً إلى أسبالها

إني ومَن سَمَك السّماء مكانَها * والبدرَ ليلةَ نصفِها وهِلالِها
آليتُ أثقفُ منهم ذا لحيَةٍ * أبداً فتنظر عينُه في مالِها

وقال :

سائلْ أُسيداً هل ثأرتُ بوائل * أم هل أتيتُهم بأمرٍ مُبرمِ
إذ أرسلوني ماتِحاً لِدِلائهم * فَلأْتهن إلى العراق بالدّم !

يوم الشقيق : لبكر على تميم

قال أبو عبيدة : أغار أبجر بن جابر العجلي على بني مالك بن حنظلة ، فسبي سُلَيْمى بنت محصن ، فولدت له أبجر . ففي ذلك يقول أبو النجم :

ولقد كرَرْتُ على طُهيَّة كَرّةً * حتى طَرقْتُ نساءها بِمَساء

حرب البسوس

وهي حرب بكر وتغلب ، ابني وائل

أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب قال : لم تجتمع معَدٌ كلُّها إلا على ثلاثة رهط من رؤساء العرب ، وهم عامر ، وربيعة ، وكليب .

فالأول : عامر بن الظرب بن عمرو بن بكر بن يشكر بن الحارث ، وهو عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان ، وهو الناس بن مضر . وعامر بن الظرب هو قائد معدّ يوم البيداء ، حين تمذحجت مذحج وسارت إلى تهامة ، وهي أول وقعة كانت بين تهامة واليمن .

والثاني : ربيعة بن الحارث بن مرة بن زهير بن جشم بن بكر بن حُبَيب ابن كعب ، هو قائد معد يوم السُّلّان ، وهو يوم كان بين أهل تهامة واليمن .

والثالث : كليب بن ربيعة ، وهو الذي يقال فيه : أعز من كليب وائل . وقاد معدًّا كلها يوم خَزازَ ، ففض جموع اليمن وهزمهم ، فاجتمعت عليه

معد كلها ، وجعلوا له قَسْم الملك وتاجه ونجيبته وطاعته فغبر بذلك حينا من دهره . ثم دخله زهو شديد ، وبغى على قومه لما هو فيه من عزه ، وانقيادِ معدّ له ؛ حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمى مواقع السحاب فلا يُرعى حماه ، ويجير على الدهر فلا تُخفر ذمّته ، ويقول : وحش أرض كذا فى جوارى ! فلا يهاج ، ولا تورد إبل أحد مع إبله ، ولا توقد نار مع ناره ، حتى قالت العرب : أعز من كليب وائل .

وكانت بنو جشم وبنو شيبان فى دار واحدة بتهامة ، وكان كليب بن وائل قد تزوج جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان ، وأخوها جساس بن مرة ؛ وكانت البسوس بنت منقذ التميمية خالة جساس بن مرة ، وكانت نازلة فى بنى شيبان مجاورة لجساس ، وكان لها ناقة يقال لها سراب ، ولها تقول العرب : أشأم من سراب ، وأشأم من البسوس ! فمرت إبل لكليب بسراب ناقةِ البسوس ، وهى معقولة بفناء بيتها ، جوار جساس بن مرة ؛ فلما رأت سرابُ الإبل نازعت عقالها حتى قطعته ، وتبعت الإبل واختلطت بها ، حتى انتهت إلى كليب وهو على الحوض ، معه قوس وكنانة ؛ فلما رآها أنكرها ، فانتزع لها سهما فخرم ضرعها فنفرت الناقة وهى ترغو ، فلما رأتها البسوس قذفت خمارها عن رأسها وصاحت : واذُلّاه ! واجاراه ! وخرجت .

مقتل كليب بن وائل

فأحمست جسّاسا ، فركب فرساً له مغروراً به ، فأخذ آلته ، وتبعه عمرو ابن الحارث بن ذهل بن شيبان على فرسه ، ومعه رمحه ، حتى دخلا على كليب الحمى ، فقال له : يا أبا الماجدة ، عمدت إلى ناقة جارتى ، فعقرتَها ! فقال له : أتراك مانِعِى أن أذبّ عن حِماى ؟ فأحمسه الغضب ، فطعنه جساس فقصم صلبه ، وطعنه عمرو بن الحارث من خلفه فقطع قَطَنه ؛ فوقع كليب وهو يفحص برجله ؛ وقال لجساس : أغِثنى بشربة من ماء ! فقال : تجاوزت شبيثاً والأحصّ : فى ذلك

يقول عمرو بن الأهتم :

وإنّ كُليْباً كان يَظلم قومَه ۞ فأدركَه مثلُ الذى تَرَيانِ

فلما حَشاه الرُّمحُ كفُّ ابن عمه ۞ تَذكَّرَ ظلمَ الأهلِ أىَّ أوانِ

وقال لجسّاسٍ أغثْنى بشربةٍ ۞ وإلا فخبّر مَن رأيتَ مكانى

٥ فقال تجاوزتَ الأحَصَّ وماءه ۞ وبطنَ شُبيثٍ وهو غيرُ دفانِ

وقال نابغة بنى جعدة :

أَبْلِغْ عِقالا أنّ خُطةَ داحِسٍ ۞ بكفَّيكَ فاستأخرْ لها أو تقدّمِ

كُليْبٌ لعمرى كان أكثرَ ناصراً ۞ وأيسَرَ ذنباً منكَ ضُرِّج بالدّمِ

رمَى ضِرْعَ ناب فاستمَرّ بطعْنة ۞ كحاشيةِ البُرْدِ اليمانى المُسهَّمِ

١٠ وقال لجسّاس أغثْنى بشربةٍ ۞ تَدارَكْ بها مَنّا علىّ وأنعِمِ

فقال تجاوزتَ الأحَصَّ وماءه ۞ وبطنَ شُبَيثٍ وهو ذو مُتَرسَّمِ

فلما قُتل كليب ارتحلت بنو شيبان حتى نزلوا بماء يقال له النِّهْىّ ؛ وتشمر المهلهل أخو كليب ـ واسمه عدى بن ربيعة ، وإنما قيل المهلهل لأنه أوّل من هلهل الشعر ، أى أرقّه ـ واستعد لحرب بكر ، وترك النساء والغزل ، ١٥ وحرّم القمار والشراب ، وجمع إليه قومه ، فأرسل رجلاً منهم إلى بنى شيبان يُعذر إليهم فيما وقع من الأمر ؛ فأتوا مرة بن ذهل بن شيبان وهو فى نادى قومه ، فقالوا له : إنكم أتيتم عظيما بقتلكم كليباً بنابٍ من الإبل ، فقطعتم الرحم ، وانتهكتم الحرمة ؛ وإنا كرهنا العجلة عليكم دون الإعذار إليكم ؛ ونحن نعرض عليكم خلالا أربعا ، لكم فيها مخرج ، ولنا مقنع . فقال مرة : ٢٠ وما هى ؟ قال : تحيي لنا كليبا ، أو تدفع إلينا جساساً قاتِلَه فنقتله به ، أو همّاما فإنه كفء له ، أو تمكننا من نفسك ، فإنّ فيك وفاء من دمه ! فقال : أمّا إحيائى كليباً فهذا ما لا يكون ، وأمّا جساس فإنه غلام طعن طعنة على عجل ثم ركب فرسه فلا أدرى أىُّ البلاد احتوى عليه ، وأمّا همام فإنه أبو عشرة

وأخو عشرة وعم عشرة ، كلهم فرسان قومهم فلن يسلموه إلىّ فأدفعه إليكم يُقتَل بجريرة غيره ، وأمّا أنا فهل هو إلا أن تجول الخيل جولة غداً فأكون أولَ قتيلٍ فيها ، فما أتعجل من الموت ؟ ولكنْ لكم عندى خصلتان : أما إحداهما فهؤلاء بنىّ الباقون ، فعلقوا فى عنق أيهم شئتم نسعة فانطلقوا به إلى رحالكم فاذبحوه ذبح الجزور ، وإلا فألف ناقة سوداء المقل أقيم لكم بها كفيلا من بنى وائل ! فغضب القوم وقالوا : لقد أسأت ، تُرذل لنا ولدك وتسومنا اللبن من دم كليب .

ووقعت الحرب بينهم .

ولحقت جليلة زوجة كليب بأبيها وقومها ، ودعت تغلبُ النمرَ بن قاسط فانضمت إلى بنى كليب وصاروا يداً معهم على بكر ؛ ولحقت بهم غُفيلة بن قاسط ، واعتزلت قبائل بكر بن وائل وكرهوا مجامعة بنى شيبان ومساعدتهم على قتال إخوتهم ، وأعظموا قتل جساس كليباً بنابٍ من الإبل ؛ فظعنت لجيم عنهم ، وكفت يشكر عن نصرتهم ، وانقبض الحارث بن عباد فى أهل بيته ، وهو أبو بجير وفارسُ النعامة . وقال المهلهل يرثى كليبا :

بِتُّ ليلى بالأنعمينَ طويلا ٭ أرقُبُ النجمَ ساهراً أن يزولا
كيف أهدا ولا يزال قتيل ٭ مِن بَنِى وائلٍ يُنسِّى قتيلا
غَنِيتْ دارُنا تِهامةَ فى الدهْـ ٭ ـرِ وفيهـا بنو مَعَدٍ حُلولا
فتَساقوْا كأسًا أُمِرَّت عليهم ٭ بينهم يقتل العزيزُ الذليلا
فصبَحْنا بنى لجيمٍ بضربٍ ٭ يَترك الهامَ وقْعُه مفلولا
لم يُطيقوا أن يَنزلوا ونَزلنا ٭ وأخو الحرب مَن أطاق النزولا
انتَضوْا مَعْجِس القِسىّ وأبرقْـ ٭ ـنا كما تُوعِد الفحولُ الفحولا
قَتَـلوا ربَّهم كُليْباً سفاهاً ٭ ثم قالوا ما إن نخاف عَويلا
كذَبوا والحرامِ والحلّ حتى ٭ يُسلَب الخِدْرُ بيضَه المحجولا

ويَموتَ الجنينُ فى عاطفِ الرِّحـ * ـمِ وتُروِى رماحَنا والخيولا

وقال أيضا يرثيه :

كليبُ لا خير فى الدنيا ومَن فيها * إذ أنت خلّيتها فيمن يُخلّيها
كليب أىُّ فتى عزّ ومكرُمةٍ * تحت السقائف إذ يعلوك سافيها
٥ نَعى النعاة كليباً لى فقلتُ لهم * مالت بنا الأرضُ أو زالت رواسيها
الحزمُ والعزم كانا من صنيعته * ما كلُّ آلائِه يا قومُ أحصيها
القائدُ الخيلَ تردى فى أعنّتها * زهوًا إذا الخيلُ لَجّت فى تعاديها
من خيل تَغلبَ ما تُلقَى أسنّتها * إلا وقد خضَبوها من أعاديها
يُهزهزون من الخطِّىّ مُدمَجةً * كُمْتاً أنابيبُها زرقا عواليها
١٠ ترى الرماحَ بأيدينا فنُورِدُها * بيضًا ونُصدِرُها حُمراً أعاليها
ليتَ السماء على مَن تحتَها وقعتْ * وآنشقّت الأرضُ فانجابت بمن فيها
لا أصلَح اللهُ منّا مَن يُصالحكم * ما لاحت الشمسُ فى أعلى مجاريها

يوم النهى

قال أبو المنذر : أخبرنى خراش أنّ أول وقعة كانت بينهم يوم النَّهى ، فالتقوا
١٥ بماء يقال له النّهى ، كانت بنو شيبان نازلة عليه ، ورئيسُ تغلب المهلهل ،
ورئيس شيبان الحارث بن مرة ؛ فكانت الدائرة لبنى تغلب ، وكانت الشوكة فى
شيبان ؛ واستحر القتل فيهم إلا أنه لم يُقتل فى ذلك اليوم أحدٌ من بنى مرة .

يوم الذنائب

ثم التقوا بالذنائب ، وهو أعظم وقعة لهم ؛ فظفرت بنو تغلب ، وقتلت
٢٠ بكرا مقتلة عظيمة ، وفيها قتل شراحيل بن مرة بن همام بن مرة بن ذهل بن
شيبان ــ وهو جدّ الحوفزان ، وهو جد معن بن زائدة ، والحوفزان هو

الحرث بن شريك بن عمرو بن قيس بن شراحيل ـ قتله عتاب بن سعد بن زهير ابن جشم ، وقُتل الحرث بن مرة بن ذهل بن شيبان ، قتله كعب بن زهير بن جشم ؛ وقتل من بنى ذهل بن ثعلبة عمرو بن سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة. وقتل من بنى تيم الله : جميل بن مالك بن تيم الله ، وعبيد الله بن مالك بن تيم الله. وقتل من بنى قيس بن ثعلبة : سعد بن ضبيعة بن قيس ، وتميم بن قيس بن ثعلبة ، وهو أحد الخرفين ، وكان شيخا كبيرا ، فحمل فى هودج ، فلحقه عمرو بن مالك ابن الفدوكس بن حشم ، وهو جد الأخطل ، فقتله . هؤلاء مَن أصيب من رؤساء بكر يوم الذنائب .

يوم واردات

ثم التقوا بواردات ، وعلى الناس رؤساؤهم الذين سمينا ؛ فظفرت بنو تغلب واستحر القتل فى بنى بكر ، فيومئذ قتل الشعثمان شعثم وعبد شمس ابنا معاوية بن عامر بن ذهل بن ثعلبة ، وسيار بن الحرث بن سيار ؛ وفيه قُتل همام بن مُرَّة بن ذهل ابن شيبان ، أخو جساس لأمه وأبيه ؛ فمر به مهلهل مقتولا ، فقال : والله ما قتل بعد كليب قتيلٌ أعز علىّ فقد منك ! وقتله ناشرة ؛ وكان همام ربّاه وكفله ، كما كان ربّى حذيفة بن بدر قرواشا فقتله يوم الهباءة .

يوم عنيزة

ثم التقوا بعنيزة ، فظفرت بنو تغلب ؛ ثم كانت بينهم معاودة ووقائع كثيرة ، كل ذلك كانت الدائرة فيه لبنى تغلب على بنى بكر : فمنها يوم الحنو ، ويوم عُويرضات ، ويوم أنيق ، ويوم ضريّة ، ويوم القُصيبات ، هذه الأيام كلها لتغلب على بكر ، أصيبت فيها بكر ، حتى ظنوا أن ليس يستقبلون أمرهم .

وقال مهلهل يصف هذه الأيام وينعاها على بكر ، فى قصيدة طويلة أولها :

أليلتَنا بذِى حُسُمٍ أنيرى • إذا أنتِ انقضَيتِ فلا تَحورى

فإن يكُ بالذَّنائبِ طال ليلِى • فقد أبكى من اللّيل القصيرِ

وفيها يقول :

٥ فلو نُبش المقابرُ عن كليْبٍ • لأخبَرَ بالذَّنائبِ أىّ زِيرِ

كأنا غُـــدْوةً وبنى أبينا • بجنبِ عنيزةٍ رحَيا مُدير

وإنى قد تركتُ بواراداتٍ • بُجيراً فى دمٍ مثلِ العبير

هتكْتُ به بيوتَ بنى عُبادٍ • وبعضُ القتلِ أشفى للصُّدور

على أنْ ليس عدلا من كليْبٍ • إذا برزت مُخبَّأةُ الخدور

١٠ ولولا الريحُ أسمعَ من بحُجْرٍ • صليلَ البيضِ تُقرعُ بالذكور

وقال مهلهل لما أسرف فى الدماء :

أكثرتُ قتل بنى بكرٍ بِرَبِّهمُ • حتى بكيتُ وما يبكى لهم أحدُ

آليتُ بالله لا أرضى بقتلِهمُ • حتى أبهرِجَ بكراً أينما وُجدوا

وقال أبو حاتم : أبهرج : أدعهم بهرجا : لايقتل فيهم قتيل ، ولا يؤخذ لهم

١٥ دية . وقال : البهرج من الدراهم من هذا .

وقال المهلهل :

يا لَبكْرٍ أنشروا لى كُليْباً • يا لَبكْر أين أين الفِرارُ ؟

تلك شيبانُ تقول لبكْر • صرّح الشرُّ وبان السّرار

وبنو عِجْـــل تقولُ لقيس • ولِتَيْم اللاتِ سيروا فساروا

٢٠ وقال :

قتلوا كليْباً ثم قالوا أربِعوا • كذَبُوا وربِّ الحلِّ والإحرامِ

حتى تبيدَ قبائلٌ وقبيـــلةٌ • ويعضُّ كلٌّ مثقَّف بالهـــام

وتقومُ ربَّاتُ الخدورِ حواسراً ٭ يمسحْنَ عرض ذوائبِ الأيتامِ
حتى يَعَضَّ الشيخ بعدَ حميمِهِ ٭ مما يرى ندما على الإبهام

يوم قضة

ثم إن مهلهلا أسرف فى القتل ولم يبال بأى قبيلة من قبائل بكر أوقع ؛ وكان أكثر بكر قعدت عن نصرة بنى شيبان ، لقتلهم كليب بن وائل ؛ وكان الحارث بن عباد قد اعتزل تلك الحروب ، حتى قتل ابنه بجير بن الحارث ، ويقال إنه كان ابن أخيه ؛ فلما بلغ الحرثَ قتله قال : نعمَ القتيلُ قتيلٌ أصلح بين ابنى وائل ! وظن أن المهلهل قد أدرك به ثأر كليب وجعله كفئاً له ؛ فقيل له : إنما قتله بشسع نعل كليب ؛ وذلك أن المهلهل لما قتل بجيرا قال : بُؤ بشسع نعل كليب ! فغضب الحرث بن عباد، وكان له فرس يقال له النعامة، فركبها وتولى أمر بكر : فقاتل تغلب حتى هرب المهلهل وتفرقت قبائل تغلب فقال فى ذلك الحارث ابن عباد :

قرِّبا مربطَ النعامةِ منى ٭ لقحتْ حرب وائل عن حِيالى
لم أكنْ من جُناتِها علم اللهُ وإنى بحرِّها اليوم صالى

وكان اليوم الذى شهده الحرث بن عباد يوم قضة ، ويوم تحلاق اللمم . وفيه يقول طرفة بن العبد :

سائِلوا عنّا الذى يعرِفُنا ٭ مالقوا فى يوم تَحْلاقِ اللِّمَمْ
يوم تُبدِى البيضُ عن أسْوُقِها ٭ وتلفُّ الخيلُ أفواجَ النَّعَمْ

وفيه أسر الحارث بن عباد المهلهل وهو لا يعرفه — واسمه عدى بن ربيعة — فقال له : دلّنى على عدى بن ربيعة وأخلى عنك . فقال له عدى : عليك العهودُ بذلك إن دللتك عليه ؟ قال : نعم : قال : فأنا عدى ! فجز ناصيته وتركه ، وقال فيه :

لهفَ نفسِى على عدِىٍّ ولم أعـــرف عدِيًّا إذ أمكنَتْنِى اليدانِ

وفيه قتل عمرو وعامر التغلبيان ، قتلهما جحدر بن ضبيعة ، طعن أحدهما بسنان رمحه ، والآخر بزجه ؛ ثم إن المهلهل فارق قومه ونزل فى بنى جَنب ـ وجنبَ فى مذحج ـ فخطبوا إليه ابنته فنعهم ، فأجبروه على تزويجها وساقوا إليه فى صداقها جلودا من أدم ؛ فقال فى ذلك :

٥ أعززْ على تغلب بما لقيتْ • أخت بنى الأكرمينَ من جُشمِ
أنكحها فقدُها الأراقِمَ فى • جنب وكان الحباء من أدم
لو بِأبانَيْنِ جاء يخطبُها • زمّل ما أنفُ خاطِبٍ بدمِ !

الكلاب الأول

قال أبو عبيدة : لما تسافهت بكر بن وائل وغلبها سفهاؤها ، وتقاطعت ١٠ أرحامها ، ارتأى رؤساؤهم ، فقالوا : إن سفهاءنا قد غلبوا على أمرنا ، فأكل القويُّ الضعيف ؛ ولا نستطيع تغيير ذلك ؛ فنرى أن نُملّك علينا ملِكا نعطيه الشاء والبعير ، فيأخذ للضعيف من القوى ، ويرد على المظلوم من الظالم ؛ ولا يمكن أن يكون من بعض قبائلنا ، فيأباه الآخرون ، فتفسُد ذات بيننا ، ولكنا نأتى تُبّعاً فنملّكه علينا . فأتوه ، فذكروا له أمرَهم ، فملّك عليهم الحارث بن عمرو آكل ١٥ المرار الكندى ، فقدِم فنزل بطن عاقل .

ثم غزا ببكرَ بن وائل ، حتى انتزع عامة مافى أيدى ملوك الحيرة اللخميين ، وملوكِ الشام الغسانيين ، وردّهم إلى أقاصى أعمالهم . ثم طُعن فى نَيْطِه ـ أى مات ؛ فدفن ببطن عاقل ؛ واختلف ابناه شُرحبيل وسلمة فى الملك ، فتواعدا الكلاب ، فأقبل شرحبيل فى ضبة والرّباب كلها ، وبنى يربوع ، وبكر بن وائل ؛ وأقبل سلمة ٢٠ فى تغلب ، والنمر ، وبهراء ومن تبعه من بنى مالك بن حنظلة ؛ وعليهم سفيان ابن مجاشع ؛ وعلى تغلب السفاح ؛ وإنما قيل له السفاح لأنه سفح أوعية قومه وقال لهم : اندروا إلى ماء الكلاب . فسبقوا ونزلوا عليه ، وإنما خرجت بكر بن وائل

مع شُرحبيل لعداوتها لبنى تغلب ؛ فالتقوا على الكلاب ، واستحرَّ القتلُ فى بنى يربوع ، وشد أبو حَنش على شُرحبيل فقتله ؛ وكان شرحبيل قتلَ حنشاً ، فأراد أبو حنش أن يأتى برأسه إلى مسلمة ، فخافه ، فبعثه مع عَسيف له ، فلما رآه مسلمة دمعت عيناه وقال له : أنت قتلته ؟ قال لا ، ولكنه قتله أبو حنش . فقال : إنما أدفع الثواب إلى قاتله ! وهرب أبو حنش عنه ، فقال سلمة .

ألا أبْلِغ أبا حنشٍ رَسُولًا * فمالكَ لاتجىء إلى الثّواب

تعلَّمْ أنَّ خيرَ الناسِ مَيْتاً * قتيلٌ بينَ أحجارِ الكُلابِ

تَدَاعتْ حَولهُ جُشمُ بنُ بكرٍ * وأسلَمَهُ جَعاسيسُ الرِّبابِ

ومما يدل على أن بكراً كانت مع شرحبيل قولُ الأخطل :

أبا غَسّانَ إنَّك لم تُهنّى * ولكنْ قد أهَنْتَ بنى شِهابِ

تَرَقّوْا فى النخيلِ وأنسئُونا * دماءَ سَراتِكمْ يومَ الكُلابِ

يوم الصفقة : ويوم الكلاب الثانى

قال أبو عبيدة : أخبرنا أبو عمرو بن العلاء قال : كان يومُ الكلاب متصلا بيوم الصفقة ؛ وكان من حديث الصفقة أن كسرى الملك كان قد أوقع ببنى تميم فأخذ الأموال وسبي الذرارى بمدينة هجر ؛ وذلك أنهم أغاروا على لطيمةٍ له فيها مسك وعنبر وجوهر كثير ؛ فسمِّيت تلك الوقعة يوم الصفقة ، ثم إن بنى تميم أداروا أمرهم ، فقال ذو الحجى منهم : إنكم قد أغضبتم الملك ، وقد أوقع بكم حتى وهنتم ، وتسامعتْ بما لقيتم القبائل ، فلا تأمنون دورانَ العرب !

فجمعوا سبعةَ رؤساء منهم ، وشاوروهم فى أمرهم ، وهم : أكثم بن صيفى الأُسيدى ، والأعيمر بن يزيد بن مُرة المازنى ، وقيس بن عاصم المنقرى ، وأُبير بن عِصمة التيمى ، والنعمان بن الحسحاس[1] التيمى ، وأُبَيْر بن عمرو والسعدى ، والزبرقان بن بدر السعدى ؛ فقالوا لهم : ماذا ترون ؟ فقال أكثم بن

(١) فى الأغانى وابن الأثير : « النعمان بن جساس » .

صيفى ، وكان يكنى أبا حنش : إن الناس قد بلغهم ماقد لقينا ؛ نحن نخاف أن يطمعوا فينا . ثم مسح بيده على قلبه وقال : إنى قد نيّفت على تسعين ، وإنما قلبي بضعة من جسمى ، وقد نحل كما نحل جسمى ؛ وإنى أخاف أن لا يدرك ذهنى الرأى لكم ؛ وأنتم قوم قد شاع فى الناس أمركم ، وإنما كان قوامُكم أسيفا وعسيفا ـ يريد العبد والأجير ـ وصرتم اليوم إنما ترعى لكم بناتُكم ؛ فليعرض علىّ كلُّ رجل منكم رأيه وما يحضره ؛ فإنى متى أسمع الحزمَ أعرفه . فقال كل رجل منهم مارأى ، وأكثم ساكتٌ لا يتكلم ، حتى قام النعمان بن الحسحاس ، فقال : ياقوم ، انظروا ماء يجمعكم ولا يعلم الناس بأى ماء أنتم ، حتى تنفرج الحلقة عنكم وقد جممتم وصلحت أحوالكم وانجبر كسيركم وقوى ضعيفكم ؛ ولا أعلم ماء يجمعكم إلا قِدّة ؛ فارتحِلوا وانزلوا قِدّة . وهو موضع يقال له الكلاب ؛ فلما سمع أكثم بن صيفى كلام النعمان ، قال : هذا هو الرأى ! فارتحَلوا حتى نزلوا الكلاب ، وبين أدناه وأقصاه مسيرة يوم ، وأعلاه مما يلى اليمن ، وأسفله مما يلى العراق ؛ فنزلت سعد والرِّباب بأعلى الوادى ، ونزلت حنظلة بأسفله .

قال أبو عبيدة : وكانوا لايخافون أن يغزوا فى القيظ ، ولا يسافر فيه أحد ، ولا يستطيع أحد أن يقطع تلك الصحارى ، لبُعْد مسافتها ، وليس بها ماء ! ولشدة حرها .

فأقاموا بقية القيظ لايعلم أحدٌ بمكانهم ! حتى إذا تهور القيظ ـ أى ذهب ـ بعث اللهُ ذا العينين ، وهو من أهل مدينة هجر ، فر بقدة وصحرائها ، فرأى مابها من النَّعم ، فانطلق حتى أتى أهل هجر . فقال لهم : هل لكم فى جارية عذراء ، ومهرة شوهاء ، وبكرة حمراء ، ليس دونها نكبة ؟ فقالوا : ومن لنا بذلك ؟ قال : تلكم تميم ألقاء مطروحون بقِدّة . قالوا : إى والله !

فمشى بعضهم إلى بعض ، وقالوا : اغتنموها من بنى تميم ! فأخرجوا منهم أربعة أملاك ، يقال لهم اليزيديون : يزيد بن هوبر ، ويزيد بن عبد المدان ، ويزيد بن المأمور ، ويزيد بن المخرم ، وكلهم حارثيون ؛ ومعهم عبد يغوث الحارثى ؛ فكان

كل واحد منهم على ألفين ، والجماعة ثمانية آلاف ؛ فلا يُعلم جيش فى الجاهلية كان أكبرَ منه ، ومن جيش يوم كسرى يومِ ذى قار ، ويوم شعب جبلة ـ فمضوا ؛ حتى إذا كانوا ببلاد باهلة ، قال جزء بن جزء الباهلى لابنه : يا بنى ، هل لك فى أكرومة لا يصاب أبداً مثلُها ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : هذا الحىُّ من تميم قد والجوا هناك مخافةً ، وقد قصصت أثر الجيش يريدونهم ؛ فاركب جملى الأرحبىّ ، وسر سيراً رويداً عقبةً من الليل ـ يعنى ساعة ـ ثم حلّ عنه حبليه وأنخْهُ وتوسَّدْ ذراعه ، فإذا سمعتَه قد أفاض بجِرَّتِه وبال فاستنقعت ثفِنَاته فى بوله ، فشدَّ عليه حبله ثم ضع السَّوْطَ عليه ، فإنك لا تسأل جملك شيئاً من السير إلا أعطاك ، حتى تصبِّحَ القوم . ففعل ما أمره به .

قال الباهلى : فحللت بالكلاب قبل الجيش وأنا أنظر إلى ابن ذُكاء ـ يعنى الصبح ـ فناديت : ياصباحاه ! فإنهم ليثبون إلىّ ليسألونى من أنت ، إذ أقبل رجل منهم من بنى شقيق على مُهر قد كان فى النعم ، فنادى : ياصباحاه ! قد أُتى على النعم ! ثم كر راجعاً نحو الجيش ، فلقيه عبد يغوث الحارثى وهو أول الرعيل ، فطعنه فى رأس معدته فسبق اللبنُ الدم ، وكان قد اصطبح ، فقال عبد يغوث : أطيعونى وامضوا بالنعم وخلوا العجائز من تميم ساقطة أفواهها . قالوا : أما دون أن تُنكَح بناتُهم فلا !

وقال ضمرة بن لبيد الحِماسى ، ثم المذحجى الكاهن : انظروا إذا سُقتم النعم فإن أتتكم الخيل عصبا [عصبا] ، العصبة تنتظر الأخرى حتى تلحق بها ، فإنَّ أمرَ القوم هيِّن ؛ وإن لحق بكم القوم ولم ينتظر بعضُهم بعضاً حتى يردُّوا وجوه النعم ، فإنّ أمرَهم شديد .

وتقدمت سعد والرباب فى أوائل الخيل ، فالتقوا بالقوم فلم يلتفتوا إليهم ، واستقبلوا النَّعم ولم ينتظر بعضهم بعضاً . ورئيسُ الرباب النعمانُ بن الحسحاس ، ورئيس بنى سعد قيس بن عاصم ؛ وأجمع العلماء أن قيس بن عاصم كان رئيسَ بنى تميم .

فالتقى القوم ، فكان أول صريع النعمان بن الحسحاس ، واقتتل القوم بقية يومهم ، وثبت بعضهم لبعض حتى حجز الليل بينهم ؛ ثم أصبحوا على راياتهم ، فنادى قيس بن عاصم : ياآل سعد ! ونادى عبد يغوث : ياآل سعد ! قيسٌ يدعو سعد بن زيد مناة ، وعبد يغوث يدعو سعد العشيرة ؛ فلما سمع ذلك قيس نادى :
٥ ياآل كعب ! فنادى عبد يغوث : ياآل كعب ! قيسٌ يدعو كعب بن سعد ، وعبد يغوث يدعو كعب بن مالك ؛ فلما رأى ذلك قيس نادى : ياآل كعب مقاعس فلما سمعه وعلة بن عبد الله الجرمى — وكان صاحب لواء أهل اليمن — نادى : يا لَمُقَاعس ! تفاءل به فطرح له اللواء ، وكان أول من انهزم ؛ فحملت عليهم بنو سعد الرباب فهزموهم ، ونادى قيس بن عاصم : ياآل تميم ، لا تقتلوا إلا فارسا
١٠ فإن الرَّجالة لكم ! ثم جعل يرتجز ويقول :

لمَّا تولَّوْا عُصَباً هَوارِبَا * أقسمتُ لاأطعَنُ إلاراكبا

إنى وجدتُ الطعْنَ فيهم صائبا

وقال أبو عُبيدة : أمر قيس بن عاصم أن يتبعوا المنهزمة ويقطعوا عرقوب من لحقوا ولا يشتغلوا بقتلهم عن اتِّباعهم فجزُّوا دوابرهم ، فذلك قول وعلة :

١٥ فِدى لكم أهلى وأمى ووالدى * غَداةَ كُلاَب إذ تُجَزُّ الدَّوابرُ

وسنكتب هذه القصيدة على وجهها[1] ، وحمى عبد يغوث أصحابه فلم يوصل إلى الجانب الذى هو فيه ؛ فألظَّ به مَصاد بن ربيعة بن الحارث ، فلما لحقه مصادٌ طعَنهُ فألقاه عن الفرس فأسره ، وكان مصادٌ قد أصابته طعنة فى مأبضه ، وكان عِرقه يهمى — أى يسيل — فعصبه ، وكتفه — يعنى عبد يغوث — ثم أردفه
٢٠ خلفه ، فنزفه الدم ، فمال عن فرسه مقلوبا . فلما رأى ذلك عبد يغوث قطع كتابه وأجهز عليه وانطلق على فرسه ، وذلك أول النهار ، ثم ظفر به بعد فى آخره . ونادى مناد قتل اليزيدون . وشد قبيصة بن ضرار الضبى على ضمرة بن لبيد الحماسى

---

(١) ستأتى فى هذا الجزء بعد قليل.

الكاهن فطعنه فخر صريعا ، فقال له قبيصة : ألا أخبرك تابعُك بمصرعك اليوم !
وأسر عبد يغوث ، وأسره عصمة بن أبير التيمى .

قال أبو عبيدة : انتهى عصمةُ بن أبير إلى مصادٍ وقد أمعنوا فى الطلب ، فوجده صريعا ؛ وقد كان قبل ذلك رأى عبدَ يغوث أسيراً فى يديه ، فعرف أنه هو الذى أجهز عليه ، فاقتص أثره ؛ فلما لحقه قال له : ويحك ! إنى رجل أُحِبُّ اللبَن ، وأنا خير لك من الفلاة والعطش ! قال عبد يغوث : ومن أنت ؟ قال : عصمةُ بن أبير . قال عبد يغوث : أو عندك منعة ؟ قال : نعم ، فألقى يده فى يده ، فانطلق به عصمة حتى خبأه عند الأهتم ، على أن جعل له مِن فِداه جُعلا فوضعه الأهتم عند امرأته العبشمية ، فأعجبها جماله وكمالُ خلْقِه ، وكان عصمة الذى أسره غلاما نحيفا ، فقالت لعبد يغوث : من أنت ؟ قال : أنا سيِّدُ القوم ! فضحكت ، وقالت : قبحك الله سيدَ قوم حين أسرَك مثلُ هذا . ولذلك يقول عبد يغوث :

وتضحَكُ منى شيْخةٌ عبْشَمِيَّةٌ * كأن لم تَرا قبْلِى أسيراً يمانِيا

فاجتمعت الرباب إلى الأهتم فقالت : ثأرنا عندك ، وقد قُتل مَصاد والنعمان ، فأخرجه إلينا ! فأبى الأهتم أن يُخرجه إليهم ، فكاد أن يكون بين الحيين : الرباب وسعد ، فتنة ؛ حتى أقبل قيس بن عاصم المنقرى ، فقال : أيُؤتَى قطع حلف الرّباب من قِبلنا ؟ وضرب فمه بقوس فهتمه فسمّى الأهتم ، فقال الأهتم : إنما دفعه إلىّ عصمةُ بن أبير ، ولا أدفعه إلا لمن دفعه إلىّ ؛ فليجئْ فيأخذه . فأتوا عصمة فقالوا : يا عصمة ، قُتل سيدُنا النعمان ، وفارسُنا مصاد ، وثأرُنا أسيرك وفى يدك ؛ فما ينبغى لك أن تستحييَه ! فقال : إنى مُمْحِل ، وقد أصبت الغنى فى نفسى ، ولا تطيب نفسى عن أسيرى ! فاشتراه بنو الحسحاس بمائة بعير . وقال رؤبة بن العجاج : بل أرضوه بثلاثين من حواشى النَّعم ؛ فدفعه إليهم ، فخشوا أن يهجُوَهم ، فشدوا على لسانه نِسعة ؛ فقال إنكم قاتلىّ ولا بد ، فدعونى أذمُّ أصحابى وأنوح على نفسى ! فقالوا : إنك شاعر ونخاف أن تهجُوَنا ! فعقد لهم

أن لا يفعل ، فأطلقوا لسانه وأمهلوه حتى قال قصيدته التى أولها :

ألَا لا تلومانِى كفَى اللّومَ مابِيا * فما لكما فى اللّومِ خيرٌ ولا لِيا
ألم تعلَما أنّ المَلامة نفعُها * قليل وما لومِى أخى من شماليا
فيا راكباً إمّا عَرضتَ فبلِّغنْ * نَداماىَ من نَجْرانَ أنْ لا تَلاقيا
أبا كَربٍ والأيهمين كليهِما * وقيْساً بأعلى حضرموْتَ اليمانيا ٥
جزى الله قوْمى بالكلاب مَلامةً * صريحَهُم والآخرين المَواليا
ولو شئتُ نجّتْنى من القَوم نَهدَةٌ * ترى خلفَها الجُرْد الجِيادَ تَواليا
ولكننى أحمى ذِمار أبيكم * وكاد الرِّماح يَختطِفن المحاميا
أحقًّا عباد الله أن لست سامعاً * نشيدَ الرِّعاء المُعزِبين المَتاليا
أقول وقد شَدّوا لسانى بِنِسْعةٍ * أمعشَرَ تيْمٍ أطلِقوا عن لسانيا ١٠
وتَضحك منى شيْخةٌ عَبْشميّةٌ * كأنْ لم ترَىْ قبْلى أسيراً يمانيا
أمعْشر تيْمٍ قد ملَكتم فأسْجِحوا * فإنّ أخاكم لم يكن من بَوائيا
وقد علمتْ عِرسِى مُليكة أننى * أنا اللّيثُ معْدوًّا عليه وعاديا
وقد كنتُ نَحّار الجَزور ومُعْمِل المـَطِىّ وأمضِى حيثُ لا حىٌّ ماضيا
وأعقِرُ للشَّرْب الكرام مَطِيّتى * وأصدعُ بين القَينتيْن رِدائيا ١٥
وكنتُ إذا ما الخيْل شمَّطَها القَنا * لبيقاً بتصْريف القَناةِ بَنانيا
وعاديةٍ سَومَ الجراد وزعْتُها * برُمْحى وقد أنْحوا إلىّ العَواليا
كأنّىَ لم أركَب جَواداً ولم أقل * لخَيْلِىَ كُرِّى قاتلى عن رِجاليا
ولم أسْبأ الزِّقَّ الرَّوِىَّ ولم أقل * لأيْسار صِدْقٍ أعظِموا ضوْءَ ناريا

٢٠ قال أبو عبيدة : فلما ضُربت عنقه قالت ابنة مصاد : بُؤْ بمصاد ! فقال بنو النعمان : يا لكاع ! نحن نشتريه بأموالنا ويبوء بمصاد ؟ فوقع بينهم فى ذلك الشر ، ثم اصطلحوا ؛ وكان الغَناء كله يوم الكلاب من الرباب لتيم ، ومن بنى سعد لمقاعس .

وقال وعلة الجرمى وكان أول منهزم انهزم يوم الكُلاب ، وكان بيده لواء القوم :

وَمَنَّ علىّ ٱللّه مَنّا شكرْتُه * غداةَ الكلاب إذ تُجَزّ الدّوابرُ
ولما رأيتُ الخيْل تَترى أثابجا * علِمتُ بأنّ اليومَ أحمس فاجرُ
نجوْتُ نجاءً ليس فيه وتيرةٌ * كأنى عُقابٌ عند تَيمن كاسرُ
خُداريّةٌ سفعاء لبّدَ ريشَها * بطخفةَ يومٌ ذو أهاضيبَ ماطِرُ
لها ناهضٌ فى الوكْر قد مَهدَتْ له * كما مَهدَتْ للبعْل حسناء عاقر
كأنّا وقد حالت حذُنّة دوننا * نَعامٌ تلاهُ فارسٌ مُتواتر
فَمَنْ يك يَرجو فى تميمٍ هَوادةً * فليس لجرْم فى تميمٍ أواصر
ولما سمعْتُ الخيل تدْعو مُقاعِساً * تُنازعَنى من ثُغرةِ النحر ناحر
فإنْ أستطع لا تَلْتبس بى مقاعسٌ * ولا ترنى بيْداؤهُمْ والمحاضر
ولا أكُ فى جَرّارة مُضرِيّة * إذا ماغدتْ قوت العيال تُبادرُ
وقد قلت للنّهْدِىّ هل أنت مُرْدِفى * وكيف رِداف الفَلّ أمّك عاثر
يُذكّرُنى بالإلّ بينى وبينه * وقد كان فى جرْمٍ ونَهدٍ تَدابُر

وقال مُحرز بن المكعبر الضبى — ولم يشهدها وكان مجاورا فى بكر بن وائل — لما بلغه الخبر :

فِدًى لقومِىَ ماجمّعْتُ من نَشَبٍ * إذ ساقتِ الحربُ أقواماً لأقوامِ
إذ حُدّثتْ مذحِجٌ عنا وقد كُذبتْ * أنْ لا يُذبّب عن أحسابنا حامِ
دارت رَحانا قليلا ثم واجههُم * ضَرْبٌ تصدّعُ منه جلدةُ الهَام
ظلّت ضباعٌ مُجيرات تُجرّرُهم * وألحمْنَهنّ منهم أىّ إلحام
حتى حذُنّة لم نَترك بها ضَبُعا * إلّا لها جَزَرٌ من شِلْوِ مِقْدام
ظلّت تدوس بنى كعب بكلْكلها * وهَمّ يومُ بنى نَهْدٍ بإظلام

قال أبو عبيدة : حدثنى المنتجع بن نبهان قال : وقف رؤبة بن العجاج على

التيم بمسجد الحرورية ، فقال : يا معشر تيم ، إنى سمرت عند الأمير تلك الليلة ، فتذاكرنا يوم الكلاب ، فقال : يا معشر تيم ، إن الكلاب ليس كما ذكرتم فأعفونا من قصيدتَى صاحبينا — يعنى عبد يغوث ووعلة الجرمى — ومن قصيد ابن المكعبر صاحبكم ، وهاتوا غير ذلك ؛ فأنتم أكثر الناس كلاما وهجاء .

٥ قال رؤبة : فأنشدناه فى ذلك اليوم شعرا كثيرا ، فجعل يقول : هذه إسلاميةٌ كلها .

يوم طِخْفَة

كانت الرِّدافة ، ردافة الملك ، لعتّاب بن هرمىّ بن رياح ؛ ثم كانت لقيس ابن عتاب ، فسأل حاجب بن زرارة النعمان أن يجعلها للحارث بن مرط بن سفيان ١٠ ابن مجاشع ؛ فسألها النعمان بنى يربوع ، وقال : أعقِبوا إخوتكم فى الرِّدافة . قالوا : إنهم لا حاجة لهم فيها ، وإنما سألها حاجبٌ حسداً لنا . وأتوا عليه . فقال الحارث بن شهاب وهو عند النعمان : إن بنى يربوع لا يسلمون ردافتهم إلى غيرهم . وقال حاجب : إن بعث إليهم الملك جيشاً لم يمنعوه ، ولم يمتنعوا . فبعث إليهم النعمان قابوساً ابنه ، وحسان بن المنذر ؛ فكان قابوس على الناس ، وكان ١٥ حسان على المقدمة . وبعث معهم الصنائع والوضائع — فالصنائع من كان يأتيه من العرب ، والوضائع المقيمون بالحيرة — فالتقوا بطُخفة ، فانهزم قابوس ومن معه ، وضَرب طارق بن عميرة فرس قابوس فعقره ، وأخذه ليجز ناصيته ، فقال قابوس : إن الملوك لا تُجَزُّ نواصيها ! فجهزه وأرسله إلى أبيه ، وأما حسان بن المنذر ، فأسره بشر بن عمرو الرياحى ، ثم منّ عليه وأرسله ، فقال مالك ٢٠ ابن نويرة :

ونحن عقَرْنا مُهْر قابوس بعدما * رأى القومُ منه الموت والخيل تُلْحبُ

عليه دِلاصٌ ذات نسجٍ وسيفَه * جُرازٌ من الهِنْدِىِّ أبيضُ مُقضَبُ

طلبنا بها إنا مُـداريكُ قبْلَها * إذا طَلَبَ الشَّأوِ البعيدَ المُغَرِّبُ

يوم فيف الريح

قال أبو عبيدة : تجمعت قبائل مذحج ، وأكثرها بنو الحارث بن كعب ، وقبائل من مراد وجعفى وزبيد وخثعم ؛ وعليهم أنس بن مدركة ؛ وعلى بنى الحارث الحصين ؛ فأغاروا على بنى عامر بن صعصعة بفَيْف الريح ، وعلى بنى عامرٍ، عامرُ بن مالك ملاعب الأسنة .

قال : فاقتتل القوم فكثَّروهم . وارفضت قبائل من بنى عامر ، وصبرت بنو نمير ، فما شبهوا إلا الكلاب المتعاظلة حول اللواء ؛ وأقبل عامر بن الطفيل وخلفه دَعِىّ بن جعفر ، فقال : يامعشر الفتيان ، من ضرب ضربة أو طعن طعنة فليُشْهدنى فكان الفارس إذا ضرب ضربة أو طعن طعنة قال عند ذلك : أبا على ! فبينما هو كذلك إذ أتاه مسهر بن يزيد الحارثى ، فقال له من ورائه : عندك ياعامر ! والرمح عند أذنه ، فوهصه — أى طعنه فأصاب عينه — فوثب عامر عن فرسه ، ونجا على رجليه ؛ وأخذ مسهر رمح عامر . فنى ذلك يقول عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر :

لعَمْرِى وما عَمْرِى علىّ بهَيِّنٍ * لقد شانَ حُر الوجهِ طعنةُ مُسْهِرِ
أعاذِلُ لو كانَ البِداد لقوتِلوا * ولكنْ نزونا بالعديدِ المجَمْهرِ
ولو كان جَمْعٌ مِثلنا لم يبزّنا * ولكن أتتْنا أسرةٌ ذاتُ مَفْخرِ
أتوْنا بِبَهْراءَ ومذْحجَ كلِّها * وأكْلُبَ طُرًّا فى جِنان السَّنوّرِ

وقال مُسهر ، وزعم أنهم أخذوا امرأة عامر بن الطفيل :

وَهصْتُ بخَرِ الرُّمح مُقلَةَ عامر * فأضحَى نحيفاً فى الفوارس أعْورَا
وغادرَ فينا رُمحَهُ وسلاحه * وأدْبَر يدعو فى الهوالِكِ جعفرَا
وكنَّا إذا قيْسيَّةٌ دُهيتْ بنا * جرَى دمعُها من عينِها فتحدّرا
مخافةَ مالاقتْ حليلَةُ عامر * مِنَ الشَّرِّ إذ سرْبالُها قد تعفَّرا

قال : وامتلأتْ بنو نمير على بنى كلاب بصبرهم يوم فيف الريح ، فقال عامر :

تَمنُّون بالنُّعما ولولا مكَرُّنا * بمنعرَجِ الفيْفا لكنتُم مَواليا
ونحنُ تداركنا فوارسَ وحْوحٍ * عشيَّةَ لاقيْنا الُحصيْنَ آليَمانِيا

٥ وحوح : من بنى نمير ، وكان عامر استنقذهم ؛ وأسر حنظلة بن الطفيل يومئذ .

قال أبو عبيدة : كانت وقعةُ فيف الريح وقد بُعث النبى صلى الله عليه وسلم بمكة ، وأدرك مُسْهِرُ بن يزيد الإسلام فأسلم .

يوم تياس

١٠ كانت أفناء قبائل من بنى سعد بن زيد مناة وأفناء قبائل من بنى عمرو بن تميم التقت بتِياس ، فقطع غيلان بن مالك بن عمرو بن تميم رِجل الحارث بن كعب بن سعد بن زيد مناة ، فطلبوا القِصاص ، فأقسم غيلان أن لا يعقلها ولا يقص بها حتى تحشَى عيناه تراباً ! وقال :

لانعقِلُ الرِّجْلَ ولا نديها * حتى تَروْا داهيةً تُنسيها

١٥ فالتقوا فاقتتلوا فجرحوا غيلان حتى ظنوا أنهم قد قتلوه ، ورئيسُ عمرو ، كعب بن عمرو ، ولواؤه مع ابنه ذؤيب وهو القائل لأبيه :

يا كعبُ إن أخاك مُنْحمِقٌ * إن لم يكن بِك مرَّة كعب
جانيك مَن يَجنى عليك وقد * تُعدِى الصِّحاحَ مبارِكُ الُجربِ
والحربُ قد تضطرُّ جانبَها * نحو المضيقِ ودونهُ الرُّحْبُ[1]

يوم زرود الأول

٢٠

غزا الحوفزانُ حتى انتهى إلى زَرود خلف جبل من جبالها ، فأغاروا على نعم

(١) كذا ، وفيه إقواء.

كثير صادر عن الماء لبنى عبس ، فاحتازوه ، وأتى الصريخ بنى عبس ، فركبوا ،
ولحق عمارة بن زياد العبسى الحوفزانَ فعرفه — وكانت أم عمارة قد أرضعت
مضر بن شريك ، وهو أخو الحوفزان — فقال عمارة : يابنى شريك ، قد علمتم
ما بيننا وبينكم ! قال الحوفزان ، وهو الحارث بن شريك : صدقت ياعمارة ،
فانظر كل شئ هُو لك فخُذْه ! فقال عمارة : لقد علمت نساء بنى بكر بن وائل ٥
أنى لم أملأ أيدى أزواجهن وأبنائهن شفقة عليهن من الموت ! فحمل عمارة
ليعارض النعم ليردّه ، وحال الحوفزان بينه وبين النعم ، فعثرت بعمارة فرسُه
فطعنه الحوفزان ، ولحق به نعامة بن عبد الله بن شريك فطعنه أيضاً ؛ وقال نعامة:
ما كرهتُ الرمح فى كفَلِ رجل قط أشد من كفَل عمارة ! وأُسِر ابنا عمارة :
سنان وشداد ، وكان بنى عبس رجلان من طيئ ابنان لأوس بن حارثة ، مجاورين ١٠
لهم ، وكان لهما أخ أسير فى بنى يشكر ، فأصابا رجلا من بنى مرة يقال له :
معدان بن محرب ، فذهبا به فدفناه تحت شجرة ، فلما فقدته بنو شيبان نادوا :
يا ثارات معدان ! فعند ذلك قتلوا ابنَىْ عمارة ، وهرب الطائيان بأسيرهما . فلما
برئ عمارة من جراحه أتى طيئا فقال : ادفعوا إلىّ هذا الكلب الذى قُتلنا به !
فقال الطائى لأوس : ادفع إلى بنى عبس صاحبَهم . فقال لهم أوس : أتأمروننى ١٥
أن أعطى بنى عبس قطرةً من دمى ، وإن ابنى أسير فى بنى يشكر ؟ فوالله
ما أرجو فكاكه إلا بهذا ! فلما قفل الحوفزان من غزوه بعث إلى بنى يشكر
فى ابن أوس ، فبعثوا به إليه ؛ فافتكّ به معدان .

وقال نعامة بن شريك :

استنزلتْ رِماحُنا سِنانا ۞ وشيخَه بطخفَةٍ عِيانا ٢٠
ثم أخوهُ قد رأى هَوانا ۞ لمَّا فقدنا بيننا مَعدانا

يوم غول الثانى : وهو يوم كنهل

قال أبو عبيدة : أقبل ابنا هُجيمة ـ وهما من بنى غسان ـ فى جيش ، فنزلا فى

بنى يربوع ، فجاورا طارقَ بن عوف بن عاصم بن ثعلبة بن يربوع ، فنزلا معه على ماء يقال له كنهل ، فأغار عليهما أناس من ثعلبة بن يربوع ، فاستاقوا نَعمهما وأسروا من كان فى النعم ؛ فركب قيس بن هجيمة بخيله حتى أدرك بنى ثعلبة ، فكرّ عليه عتيبة بن الحارث ، فقال له قيس : هل لك يا عتيبة إلى البراز ؟
٥ فقال : ما كنتُ لأسأله وأدعه ! فبارزه ، قال عُتيبة : فما رأيت فارساً أملأ لعينى منه يومَ رأيتُه ، فرمانى بقوسه ، فما رأيت شيئاً كان أكره إلىّ منه ، فطعننى فأصاب قربوس سرجى ، حتى وجدتُ مَسَّ السنان فى باطن فخذى ، فتجنبت ؛ قال : ثم أرسل الرمح وقبض بيدى وهو يرى أن قد أثبتنى وانصرف ، فأتبعته الفرس ، فلما سمع زجلها رجع جانحا على قربوس سرجه ، وبدا لى فرج الدرع
١٠ ومعى رمح مُعلّب بالقِدّ والعصب كنا نصطاد به الوحش ، فرميته بالقوس ، وطعنته بالرمح ، فقتلته وانصرفت ؛ فلحقت النعم ، وأقبل الهرماس بن هجيمة فوقف على أخيه قتيلا ، ثم اتبعنى ، وقال : هل لك فى البراز ؟ فقلت : لعل الرجعة لك خير ! قال : أبعدَ قيس ؟ ثم شدّ علىّ فضربنى على البيضة ، فخلص السيف إلى رأسى ، وضربته فقتلته ؛ فقال سحيم بن وَثيل يُعيِّر طارقا فقتل جارَيه :

١٥ لقد كنت جارَ بنى هجيْمةَ قبلَها ٭ فلم تُغنِ شيئاً غيرَ قتْل المجاورِ

وقال جرير :

وساقَ أبَنَىْ هجيْمةَ يومَ غولٍ ٭ إلى أســـيافِنا قدَرُ الحِمامُ

يوم الجبات

قال أبو عبيده : خرج بنو ثعلبة بن يربوع فمرّوا بناس من طوائف بنى بكر
٢٠ ابن وائل بالجُبّات ، خرجوا سُفّارا ، فنزلوا وسرحوا إبلهم ترعى ، وفيها نفر منهم يرعونها : منهم سوادة بن يزيد بن بُجير العجلى . ورجل من بنى شيبان ، وكان محموما ؛ فمرّت بنو ثعلبة بن يربوع بالإبل ، فاطّردوها ،

وأخذوا الرجلين فسألوهما : من معكما ؟ فقالا : معنا شيخ من يزيد بن بجيل العجلى فى عصابة من بنى بكر بن وائل ، خرجوا سُفارا يريدون البحرين . فقال الربيع ودعموص ابنا عتيبة بن الحارث بن شهاب : لن نذهب بهذين الرجلين وبهذه الإبل ولم يعلموا من أخذها ؟ ارجعوا بنا حتى يعلموا من أخذ إبلهم وصاحبيهم ليغنيهم ذلك . فقال لهما عميرة : ما وراءكما إلا شيخ بن يزيد قد أخذتما أخاه وأطردتما ماله ، دعاه ، فأبيا ورجعا ، فرقفا عليهم وأخبراهم وتسميا لهم ، فركب شيخ بن يزيد فاتبعهما وقد ولّيا ، فلحق دعموصا فأسره ومضى ربيع حتى أتى عميرةَ فأخبره أنّ أخاه قد قتل ، فرجع عميرة على فرس يقال له الخنساء ، حتى لحق القوم ، فافتكّ منهم دعموصاً على أن يرد عليهم أخاهم وإبلهم : فردّها عليهم ؛ فكفَر ابنا عتيبة ولم يشكرا عميرة ، فقال :

ألم تَرَ دُعْموصًا يَصُدّ بوجهه * إذا ما رآنى مُقبلا لم يُسَلِّمِ
ألم تَعْلما يابْنَىْ عتيْبةَ مُقدَمِى * على ساقطٍ بين الأسِنّةِ مُسْلِمِ
فعارَضتُ فيه القومَ حتى انتزعْته * جِهاراً ولم أنظُرْ له بالتّلَوُّمِ

يوم إراب

غزا الهذيل بن هبيرة بن حسان التغلبى ، فأغار على بنى يربوع بإراب فقتل فيهم قتلا ذريعا ، فأصاب نعما كثيرة وسبى سبيا كثيرا ، فيهم زينب بنت حمير ابن الحارث بن همام بن رياح بن يربوع ؛ وهى يومئذ عقيلة نساء بنى تميم وكان الهذيل يسمى مُجدعا ، وكان بنو تميم يُفزِعون به أولادهم ، وسبى أيضاً طابية بنت جزء بن سعد الرياحى ، ففداها أبوها ؛ وركب عتيبة بن الحارث فى أسراهم ففكهم أجمعين .

يوم الشعب

غزا قيس بن شرفاء التغلبي ، فأغار على بني يربوع بالشعب ، فاقتتلوا ، فانهزمت بنو يربوع ، فزعم أبو هدبة أنها كانت اختطافا ، فأسر سحيم بن وَثيل الرياحى ، ففي ذلك يقول سحيم :

٥ أقول لهم بالشِّعْب إذ يأسِرونني ٭ ألم تعلَموا أني ابنُ فارس زَهْدَمِ

ففدى نفسه . وأُسر يومئذ متمّم بن نويرة ، فوفد مالك بن نويرة على قيس ابن شرفاء في فدائه فقال :

هل أنتَ يا قيسَ بنَ شَرْفاء مُنْعِمٌ ٭ أو الجهْد إن أعطيتُه أنت قابلُه

فلما رأى وسامتَه وحسنَ شارته ، قال : بل مُنْعم . فأطلقه له .

١٠ يوم غول الأول

فيه قتل طريف بن شراحيل وعمرو بن مرثد المُحلَّمى .

غزا طريف بن تميم في بنى العنبر وطوائفَ من بنى عمرو بن تميم ، فأغار على بنى بكر بن وائل بغَول ، فاقتتلوا ، ثم إنّ بكراً انهزمت ، فقُتل طريف بن شراحيل أحد بنى ربيعة ، وقُتل أيضاً عمرو بن مرثد المحلّمى ، وقتل المحسِّر ،

١٥ فقال في ذلك ربيعة بن طريف :

يا راكبًا بَلِّغَنْ عنى مُغلْغَلة ٭ بني الخَصيب وشرُّ المنطِق الفَنَدُ

هلّا شراحيلُ إذ مال الحِزام به ٭ وسْطَ العَجاج فلم يغضَبْ له أحد

أو المحسِّرُ أو عمرٌو تَحيَّفَهم ٭ منّا فوارسُ هيْجَا نصْرُهم حَشَد

إذ يُلحَظونَ بزُرْقٍ من أسنّتنا ٭ يُشْفَى بهنّ الشَّنا والعُجْبُ والكمد

٢٠ وقد قتلناكم صبراً ونَأسِرُكم ٭ وقد طَردناكم لو ينفع الطرَد

حتى استغاثَ بنا أدنَى شَريدكم ٭ مِن بعدِ ما مسه الضراء والنكد

وقال نضلة السلمى فى يوم غَول ، وكان حقيراً دميما ، وكان ذا نجدة :

ألم تَسَلِ الفوارسُ يومَ غَول * بنَضْلةَ وهو موتورٌ مُشيحُ ؟
رأوْه فازدَروْه وهو حُــرٌّ * ويَنفع أهله الرجلُ القبيح
فشدَّ عليهمُ بالسيفِ صَلْتًا * كما عَضَّ الشبَا الفرَسُ الجَموح
فأطلَق غلَّ صاحبه وأرْدَى * قتيــلا منهمُ ونَجا جريح
ولم يَخشوْا مَصالَته عليهــم * وتحت الرَّغوَةِ اللبَنُ الصريح

يوم الخندمة

كان رجل من مشركى قريش يُحِدّ حربة يوم فتح مكة ، فقالت له امرأته : ما تصنع بهذه ؟ قال : أعددتها لمحمد وأصحابه ! قالت : والله ما أرى [أنه] يقوم لمحمد وأصحابه شىء ! فقال : والله إنى لأرجو أن أخدِمَك بعض نسائهم ! وأنشأ يقول :

إن يُقبِلوا اليومَ فما بى عِلَّه * هذا سـلاح كاملٌ وألَّهْ
وذو غِرارَينِ سريعُ السَّلَّهْ

فلما لقيهم خالد بن الوليد يوم الخندمة انهزم الرجل لا يلوى على شىء ، فلامته امرأته ؛ فقال :

إنكِ لو شهِدتِ يومَ الخَنْدَمَهْ * إذ فرّ صَفوان وفرّ عِكرِمَهْ
ولقِيَتْنــا بالسيوفِ المُسْلِمَهْ * يَفلِقْنَ كلَّ ساعد وجُمجُمَهْ
ضرْبًا فلا تُسمَعُ إلا غَمغَمَهْ * لم تَنطِق فى اللوْمِ أدنَى كَلِمَهْ !

يوم اللهيماء

قال أبو عبيدة : كان سبب الحرب التى كانت بين عمرو بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل ، وبين بنى عبد بن عدى بن الدُّئِل بن بكر بن عبد مناة ، أن قيس

ابن عامر بن غريب أخا بنى عمرو بن عدى ، وأخاه سالما ، خرجا يريدان بنى
عمرو بن الحارث ، على فرسين ، يقال لأحدهما اللّعاب ، والأخرى عفزر ؛ فباتا
عند رجل من بنى نفاثة ، فقال النفاثى لقيس وأخيه : أطيعانى وارجعا ، لأعرفنّ
رماحكما تُكسَر فى قتاد نُعمان . قالا : إن رماحنا لا تُكسر إلا فى صدور الرجال !
٥ قال : لا يضركما ، وستحمدان أمرى . فأصبحا غاديين ، فلما شارفا متن اللهيما من
نعمان ، وبنو عمرو بن الحارث فُويق ذلك ، بموضع يقال له أديمة ، أغارا على
غنم جندب بن أبى عُميس ، وفيها جندب ؛ فتقدم إليه قيس ، فرماه جندب فى
حلمة ثديه ، وبعجه قيس بالسيف فأصابت ظُبةُ السيف وجه جندب ، وخرّ قيس ؛
ونفرت الغنم نحو الدار ، فتبعها ، وحمل سالم على جندب بفرسه عفزر ،
١٠ فضرب جندب خطم عفزر بالسيف فقطعه ، وضربه سالم فاتقاه بيده فقطع
أحد زنديه ، فخر جندب وذفّف عليه سالم ، وأدرك العيثى سالما ، فخرج وترك
سيفه فى المعركة ، وثوبه بحقويه ، لم ينج إلا بجفن سيفه ومئزره ؛ فقال فى ذلك
حماد بن عامر :

لعمرُكَ ما وفى ابن أبى عميس * وما خان القتالَ وما أضاعا
١٥ سما بقرابه حتى إذا ما * أتاهُ قرنُه بذَل المِصاعا
فإن أكُ نائياً عنه فإنى * سُرِرْتُ بأنه غُبِن البِياعا
وأفلتَ سالمٌ منها جَريضاً * وقد كلَمَ الذُبابَةَ والذّراعا
ولو سَلِمت له يُمنَى يديه * لعمرُ أبيكَ أطعمك السِّباعا

وقال حذيفة بن أنس :

٢٠ ألا بلِّغا جُلَّ السوارى وجابراً * وبلغ بنى ذِى السَّهمِ عنا ويَعمرا
كشفتُ غطاء الحرب لما رأيتُها * تميل على صفوٍ من الليلِ أكدرا
أخو الحرب إن عضّت به الحربُ عضها * وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا
ويمشى إذا ما الموتُ كان أمامَه * كذا الشِّبلُ يحمِى الأنفُ أن يتأخرا

نجـا سالمٌ والنفسُ منه بشدْقه * ولم ينجُ إلا جفْنَ سيفٍ ومئزَرا
وطاب عنِ اللّعاب نفسا وربّه * وغادر قيسا فى المكرّ وعفزَرا

يوم خزاز

قال أبو عبيدة تنازع عامر ومسمع ابنا عبد الملك ، وخالد بن جبلة ، وإبراهيم
ابن محمد بن نوح العطاردى ، وغسان بن عبد الحميد ، وعبد الله بن سلْم الباهلى ، ٥
ونفر من وجوه أهل البصرة كانوا يتجالسون يوم الجمعة ويتفاخرون ويتنازعون
فى الرياسة يوم خزاز ؛ فقال خالد بن جبلة : كان الأحوص بن جعفر الرئيس .
وقال عامر ومسمع : كان الرئيس كليب بن وائل . وقال بن نوح : كان الرئيس
زرارة بن عدس . وهذا فى مجلس أبى عمرو بن العلاء ، فتحاكموا إلى أبى عمرو ،
فقال : ما شهدها عامر بن صعصعة ، ولا دارم بن مالك ، ولا جشم بن بكر ؛ ١٠
اليومُ أقدم من ذلك ، ولقد سألت عنه منذ ستين سنة فما وجدت أحداً من القوم
يعلم من رئيسهم ومَن الملك ؛ غير أن أهل اليمن كان الرجل منهم يأتى ومعه كاتب
وطنْفسة يقعد عليها ، فيأخذ من أموال نزار ماشاء ، كعمال صدقاتهم اليوم .
وكان أول يوم امتنعت معدٌّ عن الملوك ملوك حِمْير ، وكانت نزار لم تكثر بعد ،
فأوقدوا ناراً على خزاز ثلاث ليال ، ودخنوا ثلاثة أيام . . . فقيل له : ١٥
وما خزاز ؟ قال : هو جبل قريب من أمرة على يسار الطريق ، خلفه صحراء
مَنْعِج ، يناوحه كور وكُوير ، إذا قطعت بطن عاقل ؛ فى ذلك اليوم امتنعت نزار
من أهل اليمن أن يأكلوهم ، ولولا قول عمرو بن كلثوم ما عرف ذلك اليوم ،
حيث يقول :

ونحنُ غداةَ أوقد فى خَزاز * رفدْنا فوق رِفد الرافدينا ٢٠
فكنّا الأيمنِين إذا التقينا * وكان الأيسرينَ بنو أبينا
فصالوا صَولةً فيما يليهم * وصُلنا صولةً فيمن يلينا
فآبوا بالنهـابِ وبالسّبايا * وأُبنا بالملوكِ مصفَّدينا

قال أبو عمرو بن العلاء : ولو كان جدُّه كليب بن وائل قائدهم ورئيسهم ما ادعى الرِّفادة وترك الرياسة ، وما رأيت أحداً عرف هذا اليوم ولا ذكره في شعره قبله ولا بعده !

يوم المعـــا

٥ قال أبو عبيدة : أغار المنبطح الأسـدى على بنى عبّاد بن ضبيعة ، فأخذ نعما لبنى الحرب بن عباد ، وهى ألف بعير ؛ فمر ببنى سعد بن مالك بن ضبيعة ، وبنى عجل بن لجيم ؛ فتبعوه حتى انتزعوها منه ، ورئيس بنى سعد حمران ابن عبد عمرو ، فأسر أفتل بن حسان العجلىُّ المنبطحَ الأسـدى ، ففداه قومه ، ولا أدرى كم كان فداؤه ، واستنقذوا السبى ، فقال حُجر بن خالد بن محمود فى
١٠ يوم المعـا :

ومُنبطِح الغواضر قد أذَقنا * بناعِجَةِ المِعا حَرّ الجلادِ
تنفَّذنا أخاذِيذاً فرُدّت * على سكنٍ وجمع بنى عُباد

سكن : ابن باعث بن الحرث بن عباد ؛ والأخائذ : من أُخذ من النساء .

وقال حُمران بن عبد عمرو :

١٥ إنّ الفوارِسَ يوم ناعِجة المعا * نعمَ الفوارسُ من بنى سيارِ
لم يُلهِهم عقدُ الأصِرّة خلفهم * وحنينُ مُنهلةِ الضروعِ عشار
لحِقوا على قبِّ الأياطلِ كالقنا * شُعثٌ تعدُّ لكلّ يومِ عوار
حتى حبوْن أخا الغواضر طعنةً * وفككن منه القِدّ بعد إسار
سالت عليه من الشِّعاب خوانفٌ * وردّ الغُطاط تبلُّج الأسحار

٢٠ يوم الفِّسار

قال أبو عبيدة : حالفت أسد وطيء وغطفان ، ولحقت بهم ضبة وعدى ؛ فغزوا بنى عامر فقتلوهم قتلا شديدا ؛ فغضبت بنو تميم لقتل عامر ؛ فتجمعوا

حتى لحقوا طيئاً وغطفان وحلفاءهم من بنى ضبة وعدى يوم الجفار ، فقتلت تميم طيئا أشد مما قتلت عامر يوم النسار . فقال فى ذلك بشر بن أبى خازم :

غضبت تميمٌ أن تُقتل عامرٌ * يوم النسار فأعتبوا بالصيلم

يوم ذات الشقوق

٥

لحلف ضمرة بن النهشلى . فقال : الخمر علىّ حرام حتى يكون له يوم يكافئه! فأغار عليهم ضمرة يوم ذات الشقوق فقتلهم ، وقال فى ذلك :

الآن ساغ لىَ الشرابُ ولم أكن * آتى التجار ولا أشدّ تكلّمى

حتى صبحتُ على الشقوق بغارةٍ * كالتمر يُنثر فى حرير العُرّم

وأبأت يوما بالجفار بمثــلهِ * وأجرتُ نصفاً من حديث الموسمِ

١٠

ومشت نساءٌ كالظباء عواطلا * من بين عارفةِ السّباء وأيّمِ

ذهب الرّماح بزوجها فتركنه * فى صدرِ مُعتدلِ القناةِ مُقوّم

يوم خوّ

قال أبو عبيدة : أغارت بنو أسد على بنى يربوع فاكتسحوا إبلهم ؛ فأتى الصريخ الحىّ ، فلم يتلاحقوا إلا مساء بموضع يقال له خوّ ، وكان ذؤاب ابن ربيعة الأسدى على فرس أنثى ، وكان عُتيبة بن الحارث بن شهاب على حصان ؛ فجعل الحصان يستنشق ريح الأنثى فى سواد الليل ويتبعها ، فلم يعلم عتيبة إلا وقد أقحم فرسه على ذؤاب بن ربيعة الأسدى ، وعتيبة غافل لا يبصر ما بين يديه فى ظلمة الليل ، وكان عتيبة قد لبس درعه وغفل عن جُربّانها حتى أتى الصّريخ فلم يشدّه ، ورآه ذؤاب فأقبل بالرمح إلى ثغرة نحره فخر صريعا قتيلا ؛ ولحق الربيع بن عتيبة فشد على ذؤابٍ فأسره وهو لا يعلم أنه قاتل أبيه ، فكان عنده أسيرا حتى فاداه أبوه ربيعة بإبل معلومة قاطعه عليها ، وتواعدا سوق عكاظ فى الأشهر الحرم

١٥

٢٠

أن يأتى هذا بالإبل ويأتى هذا بالأسير ؛ وأقبل أبو ذؤاب بالإبل ، وشُغل الربيع ابن عتيبة فلم يحضر سوق عكاظ ، فلما رأى ذلك ربيعة أبو ذؤاب لم يشك أن ذؤابا قد قتلوه بأبيهم عتيبة ، فرثاه وقال :

أبلغْ قبائلَ جعفرٍ مخصوصةً * ما إنْ أحاولُ جعفرَ بن كلابِ

٥ إنّ المودّةَ والهوادةَ بيْنَنا * خَلَقٌ كسَحْقِ الرّيْطَةِ المُنجابِ

ولقدعَلِمتُ على التّجلّدِ والأسَى * أنّ الرّزِيّةَ كان يومَ ذُؤابِ

إنْ يَقتُلوك فقدْ هَتكتَ بُيُوتَهمْ * بعُتَيْبَةَ بنِ الحرثِ بن شِهابِ

بأحَبِّهم فقــدًا إلى أعدائِهِ * وأشدِّهم فقْـداً على الأصحاب

فلما بلغهم الشعرُ قتلوا ذؤاب بن ربيعة .

١٠ وقالت آمنة بنت عُتيبة ترثى أباها :

على مِثلِ ابنِ مَيـةَ فانعَياهُ * بِشقّ نواعِمِ البَشرِ الجُيُوبا

وكانَ أبى عُتَيْبةُ شَمَرِيًّا * فلا تَلقـاهُ يَدّخِرُ النّصيبا

ضَرُوبا للكَمِىّ إذا اشمَعلّتْ * عوانُ الحرْبِ لاوَرِعاً هَيُوبا

أيام الفجار الأول

١٥ قال أبو عبيدة : أيام الفجار عدة ، وهذا أولها ؛ وهو بين كنانة وهوازن ، وكان الذى هاجه أن بدر بن معشر أحد بنى غِفار بن مُليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، جُعل له مجلس بسوق عكاظ ، وكان حدثا منيعا فى نفسه ، فقام فى المجلس وقام على رأسه قائم ، وأنشأ يقول :

نحنُ بنُو مُدرِكةَ بن خِندِفِ * مَن يطعنُوا فى عينِه لم يَطرِفِ

٢٠ ومن يكونُوا قومَه يُغطرِفِ * كأنهمْ لُجّةُ بحــرٍ مُسْدِف

قال : ومدّ رِجْله وقال : أنا أعز العرب ، فمن زعم أنه أعز منى فليضربها !

فضربها الأحيمر بن مازن أحد بنى دهمان بن نصر بن معاوية ، فأندرها من الركبة ، وقال :

* خذها إليك أيها المخندف *

قال أبو عبيدة : إنما خرصها خُريصة يسيرة وقال فى ذلك :

نحن بنُو دهمانَ ذُو التّغَطرُفِ * بحرٌ لِبحْرٍ زاخرٍ لم ينزف ٥

تَبنى على الأحياء بالمُعرّفِ

قال أبو عبيدة : فتحاور الحيان عند ذلك حتى كاد أن يكون بينهما الدماء ؛ ثم تراجعوا ورأوا أن الخطب يسير .

الفجار الثانى

كان الفجار الثانى بين قريش وهوازن ، وكان الذى هاجه أن فتية من قريش ١٠ قعدوا إلى امرأة من بنى عامر بن صعصعة وضيئة وحسانة بسوق عكاظ . وقالوا : بل طاف بها شباب من بنى كنانة وعليها برقع وهى فى درع فضل ، فأعجبهم مارأوا من هيئتها ، فسألوها أن تسفر عن وجهها فأبت عليهم ، فأتى أحدُهم من خلفها فشد دُبُرَ درعِها بشوكة إلى ظهرها وهى لاتدرى ، فلما قامت تقلص الدرع عن دبرها ، فضحكوا وقالوا : منعتْنا النظرَ إلى وجهها فقد رأينا دبرها ! فنادت المرأة ١٥ ياآل عامر ! فتحاور الناس ، وكان بينهم قتال ودماء يسيرة ، فحملها حرب بن أمية وأصلح بينهم .

الفجار الثالث

وهو بين كنانة وهوازن : وكان الذى هاجه أن رجلا من بنى كنانة كان عليه دين لرجل من بنى نصر بن معاوية ؛ فأعدم الكنانى ، فوافى النصرى بسوق ٢٠ عكاظ بقرد فأوقفه فى سوق عكاظ ، وقال : من يبيعنى مثل هذا بمالى على فلان ! حتى أكثر فى ذلك ؛ وإنما فعل ذلك النصرى تعييرا للكنانى ولقومه ؛ فمر به رجل من بنى كنانة فضرب القرد بسيفه فقتله ، نهتف النصرى : ياآل هوازن !

وهتف الكنانى : ياآل كنانة ! فتهايج الناس حتى كاد أن يكون بينهم قتال ، ثم رأوا الخطب يسيرا فتراجعوا ولم يفقم الشر بينهم .

قال أبو عبيدة : فهذه الأيام تسمى فجارا ، لأنها كانت فى الأشهر الحرم ، وهى الشهور التى يحرّمونها ففجروا فيها ، فلذلك سميت فجارا وهذه يقال لها الفجار الأول . ٥

الفجار الآخر

وهو بين قريش وكنانة كلها وهوازن ؛ وإنما هاجها البرّاض بقتله عروة الرّحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب ؛ فأبت أن تقتل بعروة : البراض ؛ لأن عروة سيد هوازن ، والبراض خليع من بنى كنانة ؛ أرادوا أن يقتلوا به سيدا من قريش . ١٠

وهذه الحروب كانت قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم بست وعشرين سنة وقد شهدها النبى صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربع عشرة سنة مع أعمامه . وقال النبى عليه الصلاة والسلام : كنت أنبّلُ على أعمامى يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة يعنى أناولهم النبل .

١٥ وكان سبب هذه الحرب أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث [إلى] سوق عكاظ فى كل عام لطيمة فى جوار رجل شريف من أشراف العرب ، يجيرها له حتى تباع هناك ويُشترى له بثمنها من أَدَمِ الطائف ما يحتاج إليه ، وكانت سوق عكاظ تقوم فى أول يوم من ذى القعدة ، فيتسوقون إلى حضور الحج ، ثم يحجون ؛ وكانت الأشهر الحرم أربعة أشهر : ذو القعدة ، وذو الحجة ، ٢٠ والمحرم ، ورجب ؛ وعكاظ بين نخلة والطائف ، وبينها وبين الطائف نحو من عشرة أميال ؛ وكانت العرب تجتمع فيها للتجارة والتّهيُّؤ للحج ، من أول ذى القعدة إلى وقت الحج ، ويأمن بعضها بعضاً ؛ فجهز النعمان : عِيرَ اللطيمة ، ثم قال : من يجيرها ؟ فقال البراض بن قيس الضّمرى : أنا أجيرها على بنى كنانة . فقال النعمان

ما أريد إلا رجلا يجيرها على أهل نجد وتهامة . فقال عروة الرحّال ، وهو يومئذ رجل هوازن : أكلبُ خليع يجيرها لك ؟ أبيتَ اللعن أنا أجيرها لك على أهل الشيح والقيصوم من أهل نجد وتهامة ! فقال البراض : أعلَى بنى كنانة تجيرها ياعروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم ! فدفعها النعمان إلى عروة ، فخرج بها وتبعه البراض ، وعروة لا يخشى منه شيئا ، لأنه كان بين ظهرانَى قومه من غطفان إلى جانب فَدَك ، وإلى أرض يقال لها أوارة ؛ فنزل بها عروة فشرب من الخمر وغنته قينة ، ثم قام فنام ، فجاء البراض فدخل عليه ، فناشده عروة وقال : كانت منى زلّة ، وكانت الفعلة منى ضلة ! فقتله وخرج يرتجز ويقول : ٥

قد كانتِ الفعْلة منى ضلّهْ * هلّا على غيرى جعلتَ الزّلّهْ

فسوف أعلو بالحُسامِ القُلّهْ ١٠

وقال :

وداهيَة يُهال النـــاسُ منها * شدَدْت لها بنى بكْرٍ ضُلوعى

هتكْتُ بها بيوتَ بنى كِلاب * وأرضعْتُ الموالىَ بالضُّروع

جمَعْت له يدىَّ بنصْلِ سيْف * أفَلّ فخرَّ كالجذعِ الصَّريع

واستاق اللطيمة إلى خيبر ، واتّبعه المساور بن مالك الغطفانى ، وأسد بن خيثم الغنَوى ، حتى دخل خيبر ! فكان البراض أول من لقيهما ، فقال لهما : من الرجلان ؟ قالا : من غطفان وغنىّ . قال البراض : ماشأن غطفان وغنىّ بهذه البلدة ؟ قالا : ومن أنت ؟ قال : من أهل خيبر . قالا : ألك علم بالبراض ؟ قال : دخل علينا طريدا خليعا فلم يُؤوِه أحدٌ بخيبر ولا أدخله بيتا . قالا : فأين يكون ؟ قال : وهل لكما به طاقة إن دللتكما عليه ؟ قالا : نعم . قال : فانزلا ! فنزلا وعقلا راحلتيهما . قال : فأيكما أجرأُ عليه وأمضى مقدَما وأحدُّ سيفا ؟ قال الغطفانى : أنا ! قال البراض : فانطلق أدُلّك عليه ، ويحفظ صاحبك راحلتيكما ففعل ، فانطلق البراض يمشى بين يدى الغطفانى حتى انتهى إلى خرِبة فى جانب ١٥ ٢٠

خيبر خارجة عن البيوت . فقال البراض : هو فى هذه الخربة وإليها يأوى ، فأنظِرْنى حتى أنظر أثَمّ هو أم لا . فوقف له ودخل البراض ، ثم خرج إليه وقال : هو نائم فى البيت الأقصى خلف هذا الجدار ، عن يمينك إذا دخلت ، فهل عندك سيف فيه صرامة ؟ قال : نعم . قال : هات سيفك أنظر إليه أصارمٌ هو ؟ فأعطاه إياه ، فهزه البراض ثم ضربه به حتى قتله ، ووضع السيف خلف الباب ؛ وأقبل على الغنوى ، فقال : ما وراءك ؟ قال : لم أر أجبَنَ من صاحبك ، تركته قائما فى الباب الذى فيه الرجل ، والرجل نائم ، لا يتقدم إليه ولا يتأخر عنه ! قال الغنوى : يا لهفاه ! لو كان أحد ينظر راحلتينا ! قال البراض : هما علىّ إن ذهبتا ، فانطلق الغنوى . والبراض خلفه ، حتى إذا جاوز الغنوى باب الخربة أخذ البراض السيف من خلف الباب ثم ضربه به حتى قتله ؛ وأخذ سلاحيهما وراحلتيهما ثم انطلق .

وبلغ قريشا خبر البراض بسوق عكاظ ، فخلصوا نجيا ، واتبعتهم قيس لمّا بلغهم أن البراض قتل عروة الرّحال ، وعلَمُ قيس أبو براء عامر بن مالك ، فأدركوهم وقد دخلوا الحرم ؛ ونادوهم : يا معشر قريش ، إنا نعاهد الله أن لا نبطل دم عروة الرحال أبداً ونقتل به عظيما منكم ، وميعادنا وإياكم هذه الليالى من العام المقبل ؛ فقال حرب بن أمية لأبى سفيان ابنه : قل لهم إن موعدكم قابل فى هذا اليوم . فقال خداش بن زهير فى هذا اليوم ، وهو يوم نخلة :

يا شدةً ما شددْنا غير كاذبةٍ * على سَخِينةَ لولا البيت والحُرَمُ
لما رأوْا خيلَنا تُزجِى أوائلَها * آسادُ غِيلٍ حمى أشبالَها الأجَمُ
واستُقْبِلوا بضرابٍ لا كِفاء له * يُبْدِى من العُزْلِ الأكفالِ ما كتموا
ولّوْا سلالاً وعظم الخيل لاحقةً * كما تخُبُّ إلى أوطانها النعم
ولّت بهم كل مِحْضارٍ مُلملمة * كأنها لِقْوَةٌ يجنبها ضَرَم

وكانت العرب تسمى قريشا سخينة لأكلها السخن .

يوم شمطة

وهى من يوم الفجار الآخر ، ويوم نخلة منه أيضا ؛ قال : فجمعت كنانة قريشها وعبد مناتها والأحابيش ومن لحق بهم من بنى أسد بن خزيمة ، وسلّح يومئذ عبد الله بن جدعان مائة كمىّ بأداة كاملة ، سوى من سلح من قومه والأحابيش بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة . قال : وجمعت سليم وهوازن جموعها وأحلافها — غير كلاب وبنى كعب ، فإنهما لم يشهدا يوما من أيام الفجار غير يوم نخلة — فاجتمعوا بشَمْطة من عكاظ فى الأيام التى تواعدوا فيها على قرن الحول ، وعلى كل قبيلة من قريش وكنانة سيدُها . وكذلك على قبائل قيس ، غير أن أمر كنانة كلها إلى حرب بن أمية ، وعلى إحدى مجنبتيها عبد الله بن جدعان ، وعلى الأخرى كريز بن ربيعة . وحرب بن أمية فى القلب ، وأمر هوازن كلها إلى مسعود بن معتب الثقفى . فتناهض الناس وزحف بعضهم إلى بعض . فكانت الدائرة فى أول النهار لكنانة على هوازن ، حتى إذا كان آخر النهار تداعت هوازن وصابرت ، وانقشعت كنانة فاستحر القتل فيهم ؛ فقتل منهم تحت رايتهم مائة رجل ، وقيل ثمانون ، ولم يُقتل من قريش يومئذ أحدٌ يُذكر ؛ فكان يوم شمطة لهوازن على كنانة .

يوم العَبْلاء

ثم جمع هؤلاء وأولئك ، فالتقوا على قرن الحول فى اليوم الثالث من أيام عكاظ ، والرؤساء على هؤلاء وأولئك الذين ذكرنا فى يوم شمطة ، وكذلك على المجنبتين ؛ فكان هذا اليوم أيضا لهوازن على كنانة ؛ وفى ذلك يقول خداش ابن زهير :

ألم يبلغك ما لقِيَتْ قريشٌ ۞ وحىٌّ بنى كنانة إذ أُبيروا
دَهَمْناهم بأرْعَن مُكْفَهِرٍ ۞ فظلّ لنا بعَقْوتهم زئير

وفى هذا اليوم قُتل العوام بن خويلد ، والد الزبير بن العوام ، قتله مرة بن

معتب الثقفى ؛ فقال رجل من ثقيف :

منّا الذى تركَ العوّام مُنْجدِلاً * تنتابُه الطيرُ لحما بينَ أحجارِ

يوم شرِبَ

ثم جمع هؤلاء وأولئك ؛ فالتقوا على قرن الحول فى اليوم الثالث من أيام

٥ عكاظ ؛ فالتقوا بشرب ، ولم يكن بينهم يوم أعظمُ منه ، والرؤساء على هؤلاء وأولئك الذين ذكرنا ، وكذلك على المجنبتين ؛ وحمل ابن جدعان يومئذ مائة رجل على مائة بعير ، ممن لم تكن له حمولة ؛ فالتقوا وقد كان لهوازن على كنانة يومان متواليان : يوم شمطة ، ويوم العبلاء : فحميت قريش وكنانة ؛ وصابرت بنو مخزوم وبنو بكر فانهزمت هوازن وقُتلت قتلا ذريعا ؛ وقال عبد الله بن الزبعرى يمدح

١٠ بنى المغيرة :

ألا لله قومٌ وَ * لدتْ أختُ بنى سهم

هِشامٌ وأبو عبدِ * منافٍ مِدْرهُ الخصْم

وذو الرُّمحَيْنِ أشباكَ * مِن القوةِ والحزْمِ

فهذان يَذودانِ * وذا من كَثَبٍ يَرْمِى

١٥ وأبو عبد مناف : قصى ، وهشامٌ . ابنُ المغيرة ، وذو الرمحين : أبو ربيعة بن المغيرة ، قاتل يوم شرب برمحين ، وأمهم رَيطة بنت سعد بن سهم .

فقال فى ذلك جذل الطعان :

جاءت هوازن أرسالاً وإخوتُها * بنو سُلَيمٍ فهابوا الموتَ وانصرَفوا

فاستُقبِلوا بضِرابٍ فَضّ جمعَهُمْ * مثلِ الحريقِ فما عاجوا ولا عطَفوا

٢٠
يوم الحُرَيرة

قال : ثم جمع هؤلاء وأولئك ثم التقوا على رأس الحول بالحُرَيْرة ، وهى حرّة إلى جنب عكاظ ، والرؤساء على هؤلاء وأولئك هم الذين كانوا فى سائر

الأيام ، وكذلك على المجنبتين ، إلا أن أبا مساحق بلعاء بن قيس اليعمرى قد كان مات ، فكان من بعده على بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وأخوه جثامة بن قيس ؛ فكان يوم الحريرة لهوازن على كنانة ، وكان آخرَ الأيام الخمسة التى تزاحفوا فيها ، قال : فقتل يومئذ أبو سفيان بن أمية أخو حرب بن أمية ، وقُتل من كنانة ثمانية نفر ، قتلهم عثمان بن أسيد بن مالك ، من بنى عامر بن صعصعة ، وقُتل أبو كنف ٥ وابنا إياس ، وعمر بن أيوب ؛ فقال خِداش بن زهير :

إنى مِنَ النَّفَرِ المُحْمَرِّ أعيُنُهُمْ * أهلِ السوامِ وأهلِ الصخْرِ واللُّوبِ
الطاعنينَ نحورَ الخيْـلِ مُقْبِلةً * بكلِّ سَمراءَ لم تُعلب ومعلوبِ
وقد بلَوْتم فأبلَوْكم بلاءهم * يومَ الُحريرةِ ضرباً غيرَ مكذوبِ
لاقتْكمُ مِنهُمُ آسـادُ مَلْحمةٍ * ليْسوا بزارِعةٍ عُوجِ العراقيبِ ١٠
فالآن إن تُقْبِلوا تأْخذْ نحُورَكم * وإن تُباهوا فإنى غيرُ مغلوبِ

وقال الحارث بن كَلَدة الثقفى :

تركْتُ الفارسَ البذَّاخ منهم * تمُجُّ عروقُه علقاً عبيطَا
دعَسْتُ لَبانَهُ بالرُّمحِ حتى * سمِعْتُ لِمَتْنِه فيـــه أطِيطا
لقد أرديْتَ قومَك يا ابن صَخْرٍ * وقد جشَّمْتَهم أمْرًا سليطا ١٥
وكم أسلمتُ منكم من كَمِىٍّ * جريحاً قد سمِعْتُ له غطِيطا

مضت أيام الفجار الآخِر ، وهى خمسة أيام فى أربع سنين : أولها يوم نخلة ، ولم يكن لواحد منهما على صاحبه ؛ ثم يوم شمطة لهوازن على كنانة ، وهو أعظم أيامهم ؛ ثم يوم العبلاء ، ثم يوم شرب ، وكان لكنانة على هوازن ؛ ثم يوم الحريرة لهوازن على كنانة . ٢٠

قال أبو عبيدة : ثم تداعى الناس إلى السلم على أن يذروا الفضل ويتعاهدوا ويتواثقوا .

يوم عين أباغ

ويعـــده أيام ذى قار

قال أبو عبيدة : كان ملك العرب المنذر الأكبر ابن ماء السماء ، ثم مات فملك ابنه عمرو بن المنذر ، وأمه هند وإليها ينسب ؛ ثم هلك فملك أخوه قابوس، وأمه هند أيضا ، فكان ملكُه أربع سنين ، وذلك فى مملكة كسرى بن هرمز ؛ ٥ ثم مات فملك بعده أخوه المنذر بن المنذر بن ماء السماء ، وذلك فى مملكة كسرى ابن هرمز ؛ فغزاه الحارث الغسانى ، وكان بالشام من تحت يد قيصر ، فالتقوا بعين أباغ ، فقُتل المنذر ، فطلب كسرى رجلا يجعله مكانه ، فأشار إليه عدى بن زيد — وكان من تراجمة كسرى — بالنعمان بن المنذر ، وكان صديقاً له فأحب ١٠ أن ينفعه ، وهو أصغر بنى المنذر بن المنذر بن ماء السماء ؛ فولاه كسرى على ما كان عليه أبوه ، وأتاه عدى بن زيد فمكّنه النعمان ، ثم سُعى بينهما فحبسه حتى أتى على نفسه ، وهو القائل :

أبلِـغ النُّعمانَ عنى مألُكا * أنهُ قد طال حَبْسى وانتظارى
لو بغيْرِ المـاءِ حَلْقِى شرِقٌ * كنت كالغَصَّانِ بالمـاءِ اعْتِصارى
١٥ وعُـداتى شَمِتتْ أعجبَهمْ * أنّنى غُيِّبت عنهم فى إسارى
لامْرِئٍ لم يبْلُ منى سقْطَة * إنْ أصابتْهُ مُلِمّاتُ العِثار
فلئن دهْرٌ تولّى خـيْرُه * وجرَتْ بالنَّحْسِ لى منه الجوارى
لَبِمَا منه قضيْنا حاجـة * وحياةُ المرْءِ كالشَّىءِ المُعـارِ

فلما قَتل النعمان عدىَّ بن زيد العبادى — وهو من بنى امرئ القيس بن ٢٠ سعد بن زيد مناة بن تميم — سار ابنه زيد بن عدى إلى كسرى فكان من تراجمته وكان النعمان عند كسرى ، فحمله عليه ، فهرب النعمان حتى لحق ببنى رواحة من عبس ، واستعمل كسرى على العرب إياسَ بن قبيصة الطائى ؛ ثم إن النعمان تحول حيناً فى أحياء العرب ، ثم أشارت عليه امرأته المتجردةُ أن يأتى كسرى

ويعتذر إليه ، ففعل ، فحبسه بساباط حتى هلك ، ويقال أوطأه الفِيَلة .

وكان النعمان إذا شخص إلى كسرى أودع حلقته وهى ثمانمائة درع وسلاحا كثيراً ، هانئَ بن مسعود الشيبانى ؛ وجعل عنده ابنتَه هند التى تسمى حرقة ؛ فلما قُتل النعمان قالت فيه الشعراء ؛ فقال فيه زهير بن أبى سلمى المزنى :

ألم تَرَ للنُّعْمانِ كان بنَجْوَةٍ * مِنَ الشرِّ لو أنّ آمرءًا كان باقيا ٥

فلم أرَ مخذولاً له مثلُ مُلْكِهِ * أقلَّ صديقا أو خليلا مُوافيا

خلَا أنّ حيًّا من رواحةَ عافظُوا * وكانوا أُناسا يتَّقونَ المخزِيا

فقالَ لهم خيْراً وأثْنَى عليهمُ * ووَدّعهُم توْديعَ أن لا تلاقِيا

يوم ذى قار

قال أبو عبيدة : يوم ذى قار هو يوم ذى الحِنْو ، ويوم قراقر ، ويوم ١٠ الجبابات ، ويوم ذات العُجرُم ، ويوم بطحاء ذى قار ؛ وكلهن حول ذى قار ؛ وقد ذكرتهن الشعراء .

قال أبو عبيدة : لم يكن هانئ بن مسعود المستودَع حلقة النعمان ، وإنما هو ابن ابنه ، واسمه هانئ بن قبيصة بن هانئ بن مسعود ؛ لأن وقعة ذى قار كانت ١٥ وقد بُعث النبىُّ صلى الله عليه وسلم ، وخبَّر أصحابه بها فقال : اليوم أولُ يوم انتصفت فيه العرب من العجم ، وبى نُصروا .

فكتب كسرى إلى إياس بن قبيصة يأمره أن يضم ما كان للنعمان ؛ فأبى هانئ ابن قبيصة أن يسلم ذلك إليه ، فغضب كسرى وأراد استئصال بكر بن وائل .

وقدم عليه النعمان بن زرعة التغلبى وقد طمع فى هلاك بكر بن وائل ، فقال : ٢٠ يا خير الملوك ، ألا أدلك على غِرة بكر ؟ قال : بلى . قال : أقِرّها وأظهر الإضراب عنها حتى يُجليها القيظ ويدنيها منك : فإنهم لو قاظوا تساقطوا عليك بماءلهم واديا يقال له ذو قار تَسَاقُطَ الفَراش فى النار فأقرهم ، حتى إذا قاظوا جاءت بكر بن وائل حتى نزلوا الحنو حِنو ذى قار ؛ فأرسل إليهم كسرى النعمان بن زرعة

يخيّرهم بين ثلاث خصال : إمّا أن يُسلموا الحلقة ، وإمّا أن يُعروا الديار ، وإما أن يأذنوا بحرب ! فتنازعت بكر بينها ، فهمّ هانئ بن قبيصة بركوب الفلاة ، وأشار به على بكر ، وقال : لا طاقة لكم بجموع الملك ! فلم تُرَ من هانئ سقطة قبلها .

٥ وقال حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي : لا أرى غيرَ القتال ، فإنّا إن ركبنا الفلاة متنا عطشا ، وإن أعطينا بأيدينا تُقتل مقاتلتُنا وتُسبي ذرارينا . فراسلت بكر بينها وتوافت بذى قار ، ولم يشهدها أحد من بنى حنيفة ؛ ورؤساء بنى بكر يومئذ ثلاثة نفر : هانئ بن قبيصة ، ويزيد بن مسهر الشيبانى ، وحنظلة ابن ثعلبة العجلي .

١٠ وقال مسمع بن عبد الملك العجلي بن لُجيم بن صَعب بن على بن بكر ابن وائل : لا والله ما كان لهم رئيس ، وإنما غزوا فى ديارهم فثار الناس إليهم من بيوتهم .

وقال حنظلة بن ثعلبة لهانئ بن قبيصة : يا أبا أمامة ، إنّ ذمتكم ذمتنا عامّة ، وإنه لن يُوصَل إليك حتى تفنى أرواحُنا ؛ فأخرِج هذه الحلقة ففرّقها ١٥ فى قومك ، فإن تظفر فستُردّ عليك ، وإن تهلك فأهوَن مفقود . فأمر بها فأُخرجت وفرّقت بينهم . وقال للنعمان : لولا أنك رسول ما أُبتَ إلى قومك سالما !

قال أبو المنذر : فعقد كسرى للنعمان بن زرعة على تغلب والنمر ، وعقد لخالد بن يزيد البهرانى على قضاعة وإياد ، وعقد لإياس بن قبيصة على جميع ٢٠ العرب ، ومعه كتيبتاه الشهباء والدوسر ؛ وعقد للهامرز التسترى ـ وكان على مسلحة كسرى بالسواد ـ على ألف من الأساورة ، وكتب إلى قيس بن مسعود ابن قيس بن خالد ذى الجدين ـ وكان عامله على الطّفّ طفّ سفوان وأمره أن يوافى إياس بن قبيصة ، ففعل .

وسار إياس بن معه من جنده من طيئ ، ومعه الهامرز ، والنعمان بن زرعة وخالد بن يزيد ، وقيس بن مسعود ، كل واحد منهم على قومه ؛ فلما دنا من بكر انسلّ قيس إلى قومه ليلا ، فأتى هانئا فأشار عليهم كيف يصنعون ، وأمرهم بالصبر ثم رجع .

٥ فلما التقى الزحفان وتقارب القوم ، قام حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلى ، فقال : يامعشر بكر ، إنّ النُّشّاب الذى مع هؤلاء الأعاجم تفرّقكم ؛ فعاجلوهم اللقاء وابدءوهم بالشدّة .

وقال هانئ بن مسعود : ياقوم مهلك مقدور ، خير من منجى مغرور ؛ إنّ الجزع لايردّ القَدَر ، وإنّ الصبر من أسباب الظفر . المنيّة خير من الدّنية ، واستقبال الموت خير من استدباره ، فالجِدّ الجِدّ ، فما من الموت بدّ . ١٠

ثم قام حنظلة بن ثعلبة فقطع وُضُنَ النساء فسقطن إلى الأرض ، وقال : ليقاتلْ كل رجل منكم عن حليلته . فسُمى مقطع الوضن .

قال : وقطع يومئذ سبعُمائة رجل من بنى شيبان أيدىَ أقبيتهم من مناكبها لتخف أيديهم لضرب السيوف ، وعلى ميمنتهم بكر يزيد بن مسهر الشيبانى ، وعلى ميسرتهم حنظلة بن ثعلبة العجلى وهانئ بن قبيصة ، ويقال ابن مسعود ١٥ فى القلب ؛ فتجالد القوم ، وقَتل يزيد بن حارثة اليشكرى الهامرزَ مبارزةً ، ثم قُتل يزيد بعد ذلك ؛ ويقال إنّ الحوفزان بن شريك شدّ على الهامرز فقتله ؛ وقال بعضهم : لم يدرك الحوفزان يوم ذى قار ، وإنما قتله يزيد بن حارثة .

وضرب الله وجوهَ الفرْس فانهزموا ، فاتّبعهم بكر حتى دخلوا السواد فى طلبهم يقتلونهم ؛ وأُسر النعمان بن زرعة التغلبى . ٢٠

ونجا إياس بن قبيصة على فرسه الحمامة ؛ فكان أولَ من انصرف إلى كسرى بالهزيمة إياسُ بن قبيصة وكان كسرى لا يأتيه أحدٌ بهزيمة جيش إلا نزع كتفيه ، فلما أتاه ابنُ قبيصة ، سأله عن الجيش ، فقال : هَزمنا

بكرَ بن وائل وأتيناك ببناتهم ! فعجب بذلك كسرى وأمر له بكسوة ؛ ثم استأذنه إياس فقال : أخى قيس بن قبيصة مريض بعين التمر ، فأردت أن آتيه . فأذن له .

ثم أتى كسرى رجلٌ من أهل الحيرة وهو بالخورنق ، فسأل : هل دخل على الملك أحد ؟ فقالوا : إياس . فظنّ أنه حدّثه الخبر ، فدخل عليه وأخبره بهزيمة القوم وقتلهم ، فأمر به فنُزعت كتفاه .

قال أبو عبيدة : لما كان يوم ذى قار ، كان فى بكر أسرى من تميم قريباً من مائتى أسير ، أكثرهم من بنى رياح بن يربوع ، فقالوا : خلُّوا عنا نقاتل معكم ، فإنما نذب عن أنفسنا ! فقالوا : إنا نخاف أن لا تُناصحونا ! قالوا : فدعونا نعلم حتى تَرَوْا مكاننا وغَناءنا .

وفى ذلك قول جرير :

منّا فوارسُ ذى بَهْدَى وذى نَجَبٍ * والمُعْلِمونَ صباحا يومَ ذى قارِ

قال أبو عبيدة : سئل عمرو بن العلاء ـ وتنافر إليه عجلى ويشكرى ، فزعم العجلى أنه لم يشهد يومَ ذى قار غيرُ شيبانى وعجلى ، وقال اليشكرى : بل شهدتْها قبائلُ بكر وحلفاؤهم .

فقال عمرو : قد فصل بينكما التغلبى حيث يقول :

ولقد رأيتُ أخاكَ عَمراً أمْرةً * يقْضِى وضِيعَتَيْه بذات العُجْرُمِ
فى غَمْرةِ الموتِ التى لا تشتكِى * غَمَراتِها الأبطالُ غير تَغَمْغُمِ
وكأنما أقدامُهم وأكفهم * سِربٌ تَساقَطَ فى خليجٍ مُفْعَمِ
لمّا سمعتُ دُعاء مُرّةَ قد علا * وأتى ربيعة فى العَجاجِ الأقتمِ
ومُحلِّمٌ يَمشون تحت لوائهم * والموتُ تحت لواء آل مُحلِّمِ
لا يَصدِفونَ عن الوغَى بوجوههم * فى كلّ سابغةٍ كلونِ العِظْلِمِ
ودعَتْ بنو أمّ الرِّقاع فأقبلوا * عنــد اللّقاء بكلّ شاكٍ مُعْلَمِ

وسمعتُ يَشكرَ تدّعى بِحَبَيِّبٍ * تحت العَجاجة وهى تَقطر بالدم
يَمشون فى حِلَقِ الحديد كما مشتْ * أُسْدُ العَرين بيوم نَحسٍ مُظلِم
والجمعُ من ذهَل كأن زُهاءهم * جرْبُ الجِمال يقودُها آبنا قَشْعَم
والخيلُ من تحت العجاج عَوابساً * وعلى سنابكها مناسجُ من دَم

وقال العديل بن الفرخ العجلى : ٥

ما أوقَد الناسُ من نار لمَكرُمة * إلا آصطلَيْنا وكنا مُوقِدِى النارِ
وما يَعُدّون من يوم سمعْت به * للناس أفضلَ من يوم بذى قار
جئنا بأسلابهم والخيلُ عابسةٌ * لمّا آستَلبْنا لكِسْرَى كلّ إسْوار

قال : وقالت عجل : لنا يوم ذى قار . فقيل لهم : من المستودع ، ومن المطلوب ، ومن نائب الملك ، ومن الرئيس ؟ فهو إذاً لهم ، كانت الرياسة لهانئ ١٠ وكان حنظلة يشير بالرأى .

وقال شاعرهم :

إن كنتِ ساقيةً يوما ذوِى كرَم * فاسقِ الفوارسَ من ذهْلِ بن شيْبانا
وآسقِ فوارسَ حامَوْا عن ذِمارِهمُ * وآعْلِ مَفارِقَهم مِسْكا وريْحانا

وقال أعشى بكر : ١٥

أمّا تَميمُ فقد ذاقتْ عداوتَنا * وقيسُ عَيْلانَ مَسَّ الخِزْىُ والأسَفُ
وجُنْدُ كسْرَى غداةَ الحِنْوِ صبّحهم * منا غَطارِيفُ تُزْجِى الموتَ وآنصرَفوا
لقوا مُلَمْلَمَةً شهباء يَقْدُمُها * للموتِ لا عاجزٌ فيها ولا خَرِف
فرْعٌ نَمَتْه فروعٌ غيرُ ناقصةٍ * مُوَفَّقٌ حازمٌ فى أمره أنف
فيها فوارسُ محمودٌ لقاؤهمُ * مثْلُ الأسنَّة لا مِيلٌ ولا كُشُف ٢٠
بِيضُ الوجوه غَداةَ الروْع تَحسَبُهم * جِنانَ عَبْس عليها البِيضُ والزَّغَفُ
لمّا التقينا كشَفْنا عن جَماجِمنا * ليَعلَموا أننا بَكْرٌ فينصَرِفوا

قالوا البقيّة والهنديُّ يحصدُهم * ولا بقيةَ إلا السيفُ فانكشفوا
لو أنّ كلّ معدٍ كان شاركَنا * فى يوم ذى قارٍ ما أخطاهم الشرف
لما أمالوا إلى النشّابِ أيديَهمْ * ملنا ببيضٍ فظلّ الهامُ يُختطف
إذا عطفنا عليهم عطفة صبَرَتْ * حتى تولت وكادَ اليومُ ينتصِف
٥ بطارقٌ وبنو ملْكٍ مرازِبة * من الأعاجم فى آذانها النّطف
من كلّ مَرجانةٍ فى البحرِ أحرزَها * تيّارُها ووقاها طِينها الصدَف
كأنما الآلُ فى حافاتِ جمعِهمُ * والبِيضُ برقٌ بدا فى عارضٍ يكف
مافى الخدودِ صُدودٌ عن سُيوفهمُ * ولا عنِ الطّعنِ فى اللبّاتِ منحرَف

وقال الأعشى يلوم قيس بن مسعود :

١٠ أقيسَ بن مسعودِ بن قيس بن خالدٍ * وأنت امرُؤٌ ترجو شبابكَ وائلُ
أطوْرين فى عامٍ غزاةً ورحْلةً * ألا ليت قيساً غرّقته القوابل
لقد كان فى شيْبانَ لو كنت عالما * قبابٌ وحيٌّ حِلّة وقنابل
ورجْراجة تعشى النواظرَ فخمةٌ * وجُردٌ على أكتافهنّ الرّواحل
رحلتَ ولم تنظر وأنت عميدُهم * فلا يبلُغَنّى عنك ما أنت فاعل
١٥ فعرّيت من أهلٍ ومالٍ جمعْتَهُ * كما عرِيتْ مما تُمِرُّ المغازل
شفى النفس قتلى لم توسّد خُدُودُها * وساداً ولم تُعضَضْ عليها الأنامل
بعينيك يوم الحِنْوِ إذ صبّحَتهم * كتائبُ موتٍ ، لم تعُقْها العواذل

ولما بلغ كسرى خبر قيس بن مسعود إذ انسل إلى قومه ، حبسه حتى مات فى حبسه : وفيه يقول الأعشى :

٢٠ وعرّيت من أهلٍ ومالٍ جمعْته * كما عرِيَتْ مما تُمِرُّ المغازلُ

وكتب لقيط الإيادى إلى بنى شيبان فى يوم قار شعراً يقول فى بعضه :

قوموا قياماً على أمشاطِ أرجُلكم * ثم افزعوا قد ينالُ الأمنَ من فزعا

وقلِّدوا أمركم للهِ درُّكم * رحبَ الذِّراعِ بأمرِ الحربِ مضطلعا

لا مُترفاً إن رخاءُ العيشِ ساعدهُ * ولا إذا عضَّ مكروهٌ به خشعا

ما زال يحلِبُ هذا الدهرَ أشطرهُ * يكون مُتَّبِعاً طوْراً ومتَّبَعا

حتى آستمرَّ على شزْرٍ مريرتُه * مُستحكمَ الرأيِ لا قحْماً ولا ضرِعا

وهذه الأبيات نظير قول عبد العزيز بن زرارة :

قد عشتُ في الدهرِ أطواراً على طُرقٍ * شتَّى فصادفتُ منه اللينَ والفظَعا

كلاًّ بلوتُ فلا النعماءُ تبْطرني * ولا تخشَّعْتُ من لأوائِه جزعا

لا يملأُ الأمرُ صدْري قبل موْقعه * ولا أضيق به ذرعاً إذا وقعا

كتاب الزمردة
فى المواعظ والزهد

فرش كتاب الزمردة الثانية فى فضائل الشعر

لابن عبد ربه

قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه رحمه الله :

٥ قد مضى قولنا فى أيام العرب ووقائعها وأخبارها ، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه فى فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه ؛ إذ كان الشعر ديوان خاصة العرب والمنظوم من كلامها ، والمقيِّد لأيامها ، والشاهد على حُكامها ؛ حتى لقد بلغ من كَلَف العرب به ، وتفضيلها له ، أن عمدت إلى سبع قصائد تخيَّرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطِىّ المدرجة ، وعلقتها بين أستار الكعبة ؛
١٠ فمنه يقال : مذهبة امرئ القيس ، ومذهبة زهير . والمذهبات سبع ، وقد يقال لها المعلقات .

قال بعض المحدثين قصيدةً له ، ويشبهها ببعض هذه القصائد التى ذكرت .

برْزَة تذكَرُ فى الحُسْـ * ـنِ من الشعرِ المعلَّقْ
كلُّ حرفٍ نادرٍ منـ * ـها له وجهٌ مُعشَّق

١٥ ### المعلقات

لامرئ القيس : * قفا نبْكِ من ذكْرَى حبيبٍ ومنزلِ *
ولزهير : * أمن أمِّ أوفى دِمنـــةٌ لم تكلَّم *
ولطرفة : * لخوْلةَ أطلالٌ ببُرقةِ ثَهْمَدِ *
ولعنترة : * يا دارَ عبْلةَ بالجواء تكلَّمى *

ولعمرو بن كلثوم : ٭ ألا هُبى بصحْنِكِ فاصبحِينا ٭

وللبيد : ٭ عفَتِ الديارُ محلُّها فمُقامُها ٭

وللحارث بن حلزة : ٭ آذنتنا ببيْنِها أسمـــاء ٭

اختلاف الناس فى أشعر الشعراء

للنبى صلى الله عليه وسلم

قال النبى صلى الله عليه وسلم وذكر عنده امرؤ القيس بن حُجر : هو قائدُ الشعراء وصاحب لوائهم . ٥

لابن الخطاب

وقال عمر بن الخطـاب للوفد الذين قدموا عليه من غطفان : مَن الذى يقول :

حلفتُ فلم أترُكْ لنفسِكَ ريبةً ٭ وليس وراءَ اللهِ للمرء مذهبُ

قالوا : نابغة بنى ذبيان . قال لهم : فمن الذى يقول هذا الشعر : ١٠

أتيتُـــك عارياً خلقاً ثِيابى ٭ على وجلٍ تُظن بىَ الظنونُ

فألفيت الأمانةَ لم تخنْها ٭ كذلك كان نوحٌ لا يخون

قالوا : هو النابغة . قال هو أشعر شعرائكم . وما أحسب عمر ذهب إلا إلى أنه أشعر شعراء غطفان ، ويدل على ذلك قوله : هو أشعر شعرائكم .

عمر وابن عباس فى زهير

وقد قال عمر لابن عباس : أنشدنى لأشعر الناس ، الذى لا يعاظِل بين القوافى ولا يتبع حوشىّ الكلام . قال : من ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : زهير بن أبى سلمى فلم يزل ينشده من شعره حتى أصبح . ١٥

وكان زهير لا يمدح إلا مستحِقا ، كمدحه لسنان بن أبى حارثة ، وهرم بن سنان وهو القائل :

وإنّ أشعر بيت أنتَ قائلهُ ٭ بيتٌ يُقال إذا أنشدتَه : صدَقا ٢٠

وكذلك أحسنُ القولِ ما صدّقه الفعل .

تميم وابن جندل

قالت بنو تميم لسلامة بن جندل : مجِّدنا بشعرك . قال : افعلوا حتى أقول .

لبيد

وقيل للبيد : من أشعر الشعراء ؟ قال : صاحب القروح — يريد امرأ القيس — قيل له : فبعدَه مَن ؟ قال : ابن العشرين — يعنى طَرَفة — قيل له : فبعده مَن ؟ قال : أنا .

الحطيئة

وقيل للحطيئة : من أشعر الناس ؟ قال : الذى يقول :

٥ من يسألِ الناسَ يَحْرِموهُ ٭ وسائلُ الله لا يَخيبُ

يريد عبيد بن الأبرص . قيل له : فبعده من ؟ فأخرج لسانه وقال : هذا إذا رغب .

وقيل لبعض الشعراء : من أشعر الناس ؟ قال : النابغة إذا رهب ، وزهيرٌ إذا رغب ، وجرير إذا غضب .

١٠ وقال أبو عمرو بن العلاء : طرفةُ أشعرُهم واحدة . يعنى قصيدته :

٭ لخَوْلةَ أطلالٌ بِبُرقةِ ثَهْمَدِ ٭

وفيها يقول :

ستبدى لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلا ٭ ويأتيكَ بالأخبارِ من لم تُزوِّدِ

وأُنشد هذا البيت للنبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فقال : هذا من
١٥ كلام النبوّة !

لابن عمر

وسمع عبد الله بن عمر رجلا يُنشد بيت الحطيئة :

متى تأتِه تعشو إلى ضوءِ نارِه ٭ تَجد خير نار عندها خيرُ موقدِ

فقال : ذاك رسول الله ! إعجاباً بالبيت ، يعنى أن مثل هذا المدح لا يستحقه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

للأصمعى

٢٠ سئل الأصمعى عن شعر النابغة ، فقال : إن قلتُ ألين من الحرير صدقت وإن قلت أشدّ من الحديد صدقت .

وسئل عن شعر الجعدى ، فقال : مطرَف بآلف وخمار بوافٍ .

لحماد — وسئل حماد الراوية عن شعر ابن أبي ربيعة، فقال: ذلك الفستق المقشر الذي لا يُشبَع منه.

لبعضهم — وقالوا في عمرو بن الأهتم: كأنّ شعره حُلَلٌ منشّرة.

لابن العلاء — وسئل عمرو بن العلاء عن جرير والفرزدق، فقال: هما بازيان، يصيدان ما بين الفيل والعندليب. ٥

لجرير — وقال جرير: أنا مدينة الشعر والفرزدق نبْعته.

لابن جرير — وقال بلال بن جرير: قلت لأبي: يا أبت، إنك لم تهجُ قوما قط إلا وضعتهم إلا بني لجأ. قال: إني لم أجد شرفا فأضعه ولا بناء فأهدمه!

أشعر نصف بيت — واختلف الناس في أشعر نصف بيت قالته العرب، فقال بعضهم: قول أبي ذؤيب الهذلي: ١٠

والدّهرُ ليس بمعتِبٍ مَن يَجزَعُ

وقال بعضهم: قول حميد بن ثور الهلالي:

نُوكّلُ بالأدنى وإن جلّ ما يَمضى

وقال بعضهم: قول زُميل:

ومن يكُ رهنا للحوادثِ يَغلَقِ ١٥

وهذا ما لا يُدرَك غايته ولا يوقَف على حدّ منه، والشعر لا يفوت به أحد ولا يأتي به بديع إلا أتى ما هو أبدع منه؛ ولله درُّ القائل: أشعرُ الناس من أبدع في شعره؛ ألا ترى مروانَ بن أبي حفصة على موضعه من الشعر وبُعد صيته فيه ومعرفته وسمته ـ أنشدوه لامرئ القيس فقال: هذا أشعر الناس.

في شعر حسان — وقد قالوا: لحسان بن ثابت أفخرُ بيت قالته العرب وأحكم بيت قالته العرب؛ ٢٠ فأما أفخر بيت قالته العرب فقوله:

وبيومِ بدرٍ إذ يردُّ وجوهَهم * جبريلُ تحت لوائنا ومحمدُ

وأما أحكم بيت قالته العرب فقوله :

فإنّ آمرأً أمسى وأصبح سالما ٭ من الناسِ إلّا ماجَنَى لَسعيدُ

في شعر جرير

وقالوا : أهجى بيت قالته العرب قول جرير :

والتَّغْلبِيُّ إذا تنحْنَح للقِرَى ٭ حكّ آسْته وتَمثَّل الأمثالا

٥ ولما قال جرير هذا البيت قال : والله لقد هجوت بنى تغلب ببيت لو طعنوا في أستاهِهِم بالرماح ماحكُّوها !

في شعر أبي ذؤيب

ويقال : إن أبدع بيت قالته العرب : قول أبي ذؤيب الهذلي :

والنَّفس راغبةٌ إذا رغَّبْتَها ٭ وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ

ويقال إنّ أصدق بيت قالته العرب قول لبيد :

١٠ ألَا كلُّ شيءٍ ماخلا آلله باطلُ ٭ وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائل

لعبد الملك

وذُكر الشعر عند عبد الملك بن مروان فقال : إذا أردتم الشعر الجيِّد فعليكم بالزرق من بنى قيس بن ثعلبة — وهم رهط أعشى بكر — ، وبأصحاب النخل من يثرب — يريد الأوس والخزرج — ، وأصحاب الشعف من هذيل . والشعف : رءوس الجبال .

١٥ فضائل الشعر

لابن عبد ربه

ومن الدليل على عِظَم قدر الشعر عند العرب وجليل خطبه في قلوبهم : أنه لما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن المعجز نظمُه ، المحكم تأليفه ، وأعجب قريشاً ماسمعوا منه ، قالوا : ما هذا إلا سحرٌ ! وقالوا في النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ شاعر نتربّص به ريب المنون ﴾ . وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في

٢٠ عمرو بن الأهتم لما أعجبه كلامه : إنّ من البيان لَسِحْرا .

وقال الراجز :

لقد خشيتُ أن تكونَ ساحرَا ٭ راويةً مَرًّا ومَرًّا شاعرَا

للنبي صلى الله عليه وسلم

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنّ من الشّعر لحكمة .

وقال كعب الأحبار : إنا نجد قوماً فى التوراة أناجيلهم فى صدورهم ، تنطق ألسنتهم بالحكمة ؛ وأظنهم الشعراء .

لابن الخطاب

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أفضل صناعات الرجل الأبياتُ من الشعر يقدمها فى حاجاته ، يستعطف بها قلب الكريم ، ويستميل بها قلب اللئيم . ٥

الحجاج والمساور

وقال الحجاج للمساور بن هند : مالك تقول الشعر وقد بلغت من العمر ما بلغت ؟ قال : أرعى به الكلأ ، وأشرب به الماء ، وتُقْضى لى به الحاجة ؛ فإن كفيتنى ذلك تركته !

وقال عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده : رَوِّهم الشعر ، روِّهم الشعر : يمجدوا وينجدوا ! ١٠

لعائشة

وقالت عائشة : رَوُّوا أولادكم الشعر تعذُبْ ألسنتهم .

معاوية وولد لزياد

وبعث زياد بولده إلى معاوية ، فكاشفه عن فنون من العلم فوجده عالمًا بكل ما سأله عنه ، ثم استنشده الشعر ، فقال : لم أروِ منه شيئا ! فكتب معاوية إلى زياد ؟ ما منعك أن تُرَوِّيَه الشعر ؟ فوالله إن كان العاق ليَرْويه فيَبرّ ، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو ، وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل . ١٥

لعلى فى الحرب

وكان على رضى الله عنه إذا أراد المبارزة فى الحرب أنشأ يقول :

أىّ يومىَّ من الموت أفرّ ٭ يومَ لا يُقْدر أم يومَ قُدِرْ

يوم لا يُقْدَر لا أرْهَبُه ٭ ومن المقْدور لا ينْجو الحذِرْ

للمقداد

وقال المقداد بن الأسود : ماكنت أعلم أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بشعر ولا فريضة من عائشة رضى الله عنها ! ٢٠

وفى رواية الخشنى عن أبى عاصم عن عبد الله بن لاحق عن ابن أبى مليكة قال : قالت عائشة : رحم الله لبيداً كان يقول :

قَضِّ اللُّبانة لا أبَا لك واذهبِ ٭ والحقْ بأُسرتك الكرام الغُيَّبِ

ذهب الذين يُعاشُ فى أكنافهم ٭ وبقِيتُ فى خلَفٍ كجلد الأجربِ

فكيف لو أدرك زماننا هذا ! ثم قالت : إنى لأروى ألف بيت له ، وإنه أقل ما أروى لغيره .

الشعبى

وقال الشعبى : ما أنا لشىء من العلم أقلّ منى روايةً للشعر ، ولو شئت أن أنشد شِعْراً شهراً لا أُعيد بيتاً لفعلت .

٥

النبى صلى الله عليه وسلم

وسمع النبى صلى الله عليه وسلم عائشة وهى تنشد شعر زهير بن جناب :

ٱرفعْ ضعيفَك لايحلْ بك ضَعفُه ٭ يوماً فتــدركه عواقب ماجنَى

يَجزيك أو يُثْنِي عليك فإنّ مَن ٭ أثنى عليك بما فعلْت كمن جزى

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : صدق ياعائشة : لاشكَر الله من لا يشكر الناس .

١٠

يزيد بن عمر بن مسلم الخزاعى ، عن أبيه عن جده قال : دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم ومنشدٌ يُنشده قول سُويد بن عامر المصطلق :

لاتأمَنَنّ وإنْ أمسيْتَ فى حرمٍ ٭ إنّ المنايا بجَنْبَىْ كلّ إنسانِ

فٱسلكْطريقَك تمشىغيْرمُختشعٍ ٭ حتى تُلاقى الذى مَنّى لك المَانى

فكلُّ ذى صاحبٍ يوماً مُفارقه ٭ وكلُّ زادٍ وإنْ أبقيْتَه فانِ

والخيْرُ والشرُّ مقرونان فى قرَنٍ ٭ بكلّ ذلك يأتيك الجديدانِ

١٥

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لو أدرك هذا الإسلام لأسلم .

أبو حاتم عن الأصمعى قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أُنشدك يارسول الله ، قال : نعم ، فأنشده :

تركْت القِيان وعزْف القِيانِ ٭ وأدمنْتُ تصليةً وابتهالا

وكَرّ المُشقّر فى حُومةٍ ٭ وشَنّى على المشركين القتالا

٢٠

أيارَبّ لا أُغْبَنَنْ صَفْقتى ٭ فقد بعْت مالى وأهلى بدالا

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ربح البيع . ربح البيع .

وقدم أبو ليلى النابغة الجعدى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنشده

شعره الذي يقول فيه :

بلَغْنا السماءَ مجدُنا وجدودُنا ٭ وإنا لنرجو فوق ذلك مَظْهرا

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقال : إلى الجنة يا رسول الله بك ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إلى الجنة إن شاء الله ! فلما بلغ قوله وانتهى وهو يقول : ٥

ولا خيْر في حلْمٍ إذا لم تكن له ٭ بوادرُ تحمى صَفْوهُ أن يكدّرا

ولا خيْر في جهلٍ إذا لم يكن له ٭ حليمٌ إذا ما أورد الأمْرَ أصدرا

قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا يَفْضُض الله فاك . فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنْفَض له ثنية .

لابن عباس — سفيان الثوري عن ليث عن طاوس عن ابن عباس قال : إنها لكلمة نبيّ . ١٠ يعني قول الشاعر :

ستبْدِي لك الأيام ما كنت جاهلا ٭ ويأتيك بالأخبار من لم تُزوِّدِ

لكعب — وسمع كعبٌ قول الحطيئة :

من يفعل الخيْر لا يَعدمْ جوازيَه ٭ لا يذهبُ العُرْفُ بين الله والناس

قال : إنه في التوراة حرف بحرف ؛ يقول الله تعالى : من يفعل الخير يجده ١٥ عندي ، لا يذهب الخير بيني وبين عبدي .

للنبي صلى الله عليه وسلم — ابن عباس قال : أنشدت النبي صلى الله عليه وسلم أبياتاً لأمية بن أبي الصلت يذكر فيها حملة العرش ، وهي :

رجلٌ وثورٌ تحت رِجْلِ يمينه ٭ والنَّسْر للأُخرى وليْثٌ مُرْصد

والشمس تَطْلُع كل آخر ليلةٍ ٭ حمراءَ ويصبح لونها يتوقّدُ ٢٠

تبدو فما تبدو لهم في وقتها ٭ إلا مُعَذَّبةً وإلا تُجلد

فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم كالمصدّق له .

ومن حديث ابن أبي شيبة : أن النبي صلى الله عليه وسلم أردف الشريد ،

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : تَروى من شعر أمية بن أبي الصلت شيئاً ؟ قلت : نعم . قال : فأنشدنى . فأنشدته ، فجعل يقول بين كل قافيتين : هيه ! حتى أنشدته مائة قافية ، فقال : هذا رجل آمن لسانُه وكفر قلبُه !

ولو لم يكن من فضائل الشعر إلا أنه أعظم جند يجنِّده رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين ... يدلّ على ذلك قوله لحسان : شن الغطاريف على بنى عبد مناف ؛ فوالله لَشِعْرُك أشدُّ عليهم من وقع السهام فى غَلَس الظلام ؛ وتَحَفَّظْ ببَنِى فيهم . قال : والذى بعثك بالحق نبيا ، لأَسُلَّنَّك منهم سَلَّ الشعرةِ من العجين! ثم أخرج لسانه فضرب به أرنبة أنفه ، وقال : والله يارسول الله إنه ليُخيَّل لى أنى لو وضعتُه على حجر لفلقه ، أو على شَعر لحلقه ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أيَّد الله حساناً فى هجوه بروح القُدس .

إسلام دوس

وقال ابن سيرين : بلغنى أن دوْساً إنما أسلمتْ فرَقاً من كعب بن مالك صاحب النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

قضيْنا من تِهامةَ كل نَحبٍ * وخيْبَرَ ثمَّ أغمَدْنا السُّيوفا

نُخبِّرُها ولو نطقَت لقالت * قواضِبُهُنّ : دوْساً أو ثقيفا

النبي صلى الله عليه وسلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت : لقد شكر اللهُ لك قولك حيث تقول :

زعَمَتْ سخينَةُ أن ستغلبُ ربَّها * ولَيُغلَبنّ مُغالبُ الغَـلّاب

ولو لم يكن من فضائل الشعر إلا أنه أعظم الوسائل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ...

فمن ذلك أنه قال لعبد الله بن رواحة : أخبرنى ما الشعر يا عبد الله ؟ قال : شيء يختلج فى صدرى فينطق به لسانى . قال : فأنشـدنى . فأنشده شعرَه الذى يقول فيه :

فثبَّتَ الله ماآتاك من حسنٍ * تثبيتَ عيسى بإذنِ الله والقدرِ

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وإياك ثبَّتَ الله ، وإياك ثبَّت الله .

شعر قتيلة بنت الحارث

ومن ذلك ما رواه ابن إسحاق صاحب المغازى وابن هشام : قال ابن إسحاق : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفراء — قال ابن هشام : الأثيل — أمر عليا فضرب عنق النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف صبرا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقالت أخته قتيلةُ بنت الحارث ترثيه : ٥

ياراكباً إنّ الأثَيلَ مَظِنَّةٌ * من صُبحِ خامسةٍ وأنت مُوَفَّقُ
أبلغ بها مَيْتاً بأنّ تحيّةً * ما إن تزالُ بها النجائبُ تخفِق
منى عليكَ وعَبْرةً مسفوحَةً * جادت بواكِفِها وأُخرى تخنُق
هل يسمَعنّ النَّضْرُ إن ناديْته * أم كيفَ يسمعُ ميِّتٌ لا ينطِق
أمُحمَّدٌ يا خيرَ ضِنْءٍ كريمة * فى قومِها والفحلُ فحلٌ مُعْرِق ١٠
ما كان ضَرَّك لو مننْتَ وربّما * مَنّ الفتى وهو المغيظُ المحنَق
والنضْرُ أقربُ مَن أسَرت قرابة * وأحقُّهم إن كان عِتقاً يُعتَق
ظلَّتْ سيوفُ بنى أبيه تَنوشُه * لله أرحامٌ هُناك تُمزَّق
صبْراً يُقادُ إلى المنيّةِ مُتعَباً * رسْفَ المقيَّدِ وهو عانٍ مُوثَق

قال ابن هشام : قال النبى صلى الله عليه وسلم لما بلغه هذا الشعر : لو بلغنى قبل قتله ما قتلتُه . ١٥

بين النبى وأبى جرول يوم حنين

من حديث زياد بن طارق الجُشمى قال : حدثنى أبو جرول الجشمى — وكان رئيس قومه — قال : أسرنا النبىُّ صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، فبينما هو يميز الرجال من النساء ، إذ وثبتُ فوقفت بين يديه وأنشدته :

اُمْنُن علينا رسول الله فى كَرمٍ * فإنك المرْءُ نرجوهُ وننتَظِرُ ٢٠
اُمْنن على نِسْوة قد كنت تَرضعُها * يا أرجح الناس حِلماً حين يُختبَرُ
إنا لنشكُر لِلنُّعْمى إذا كُفِرَتْ * وعندنا بعدَ هذا اليومِ مُدّخَرُ

فذكَّرته حين نشأ فى هوازن وأرضعوه ؛ فقال عليه الصلاة والسلام :

أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لله ولكم . فقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لله ولرسوله . فردّت الأنصار ما كان فى أيديها من الذرارى والأموال !

فإذا كان هذا مقام الشعر عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فأىُّ وسيلة تبلغُه أو تعسره ؟

فتح مكة

٥ وكان الذى هاج فتح مكة أن عمرو بن مالك الخُزاعى ، ثم أحد بنى كعب خرج من مكة حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ؛ وكانت خُزاعة فى حِلف النبي صلى الله عليه وسلم فى عهده وعقده ؛ فلما انتقضت عليهم قريش بمكة وأصابوا منهم ما أصابوا ، أقبل عمرو بن سالم الخزاعى بأبيات قالها ، فوقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد بين ١٠ أظهر الناس ؛ فقال :

يا ربِّ إنى ناشِدٌ مُحمَّدَا * حِلفَ أبينا وأبيه الأتلَدَا
قد كنتمُ وُلْداً وكنّا ولِداً * وزعَموا أنْ لستُ أدعو أحدَا
إنّ قريشاً أخلفوك الموعِدا * ونقضوا ميثاقك المؤكّدا
وجعلوا لى فى كَداء رصدَا * وزعموا أنْ لستُ أدعو أحدا
١٥ وهم أذلُّ وأقل عددَا * هُمْ بيّتُونا بالوتير هُجّدا
وقتلونا رُكّعًا وسجّدا * فانصر هداكَ الله نصرًا أيّدا
وادعُ عباد الله يأتوا مددَا * فيهم رسولُ الله قد تجرّدا
إن سِيم خسْفًا وجهه تَربّدا * فى فيْلَقٍ كالبحرِ يجرى مُزْبِدا

قال ابن هشام : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نُصرتَ يا عمرو بن ٢٠ مالك ، ثم عرض عارض من السماء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ! إنّ هذه السحابة تستهِلُّ بنصر بنى كعب .

لابن الخطاب

وقال عمر بن الخطاب : الشعر جذل من كلام العرب ، يسكَنُ به الغيظ ، وتطفأ به النائرة ، ويتبلّغ به القوم فى ناديهم ، ويعطى به السائل .

لابن عباس

فقال ابن عباس . الشعر علم العرب وديوانها؛ فتعلموه، وعليكم بشعر الحجاز فأحسبه ذهب إلى شعر الحجاز وحض عليه؛ إذ لغتهم أوسط اللغات .

لمعاوية

وقال معاوية لعبد الرحمن بن الحكم : يا أخي ، إنك شُهِرْتَ بالشعر ؛ فإياك والتشبيب بالنساء ، فإنك تعرّ الشريفة في قومها ، والعفيفة في نفسها — ؛ والهجاء فإنك لا تعدو أن تعادي به كريما أو تستثير به لئيما ؛ ولكن افخر بمآثر قومك ، ٥ وقل من الأمثال ما توقِّر به نفسك ، وتؤدب به غيرك .

عمر يشاطر عماله أموالهم

وسئل مالك بن أنس : من أين شاطر عمر بن الخطاب عماله؟ فقال : أموال كثيرة ظهرت عليهم ، وإن شاعرا كتب إليه يقول :

نحُجُّ إذا حجُّوا ونغزو إذا غزوْا ٭ فأنى لهم وفْرٌ ولسنا بذى وفْرِ؟

إذا التاجرُ الهنــدِىُّ جاء بفارة ٭ منَ المسكِ راحت فى مفارِقهم تجرى ١٠

فدونكَ مال اللهِ حيثُ وجدْتَه ٭ سيَرْضون إن شاطرْتَهم منك بالشطْر

قال : فشاطرهم عمر أموالهم .

عمر وشعر زهير

وأنشد عمر بن الخطاب قول زهير :

فإنّ الحقّ مقطعهُ ثلاثٌ ٭ يَمينٌ أو نِفارٌ أو جلاء

لجعل يعجب بمعرفته بمقاطع الحقوق وتفصيلها ، وإنما أراد : مقطع الحقوق ١٥ يمين أو حكومة أو بينة .

وأنشد عمر قول عبدة بن الطبيب :

٭ والعيشُ شُحٌّ وإشفاقٌ وتأميل ٭

فقال : على هذا بُنِيَتِ الدنيا .

النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في وباء المدينة

ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وهاجر أصحابه ، مسهم وباء ٢٠ المدينة ، فمرض أبو بكر وبلال . قالت عائشة : فدخلت عليهما . فقلت : يا أبت كيف تجدك ؟ ويا بلال ، كيف تجدك ؟ قالت فكان أبو بكر إذا أخذته

الحمى يقول :

كلُّ امرئٍ مُصَبَّحٌ فى أهلهِ ٭ والموتُ أدنى من شِراكِ نعْله

قالت : وكان بلال إذا أقلعتْ عنه يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليتَ شعرى هل أبيتَنَّ ليْلة ٭ بوادٍ وحوْلِى إذخِرٌ وجَليلُ

٥ وهل أرِدَنْ يوما مياهَ مَجَنَّةٍ ٭ وهل يبدوَنْ لى شامةٌ وطَفِيل

قالت عائشة : وكان عامر بن فهيرة يقول :

وقد رأيتُ الموتَ قبل ذوْقه ٭ إنّ الجبانَ حتْفه من فوْقه

كالثوْر يَحْمِى جلدَه بروْقِهِ

قالت عائشة : فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته ؛ فقال : اللهم

١٠ حبِّب إلينا المدينة كحُبِّنا مكة وأشد ، وصححها ، وبارك لنا فى صاعها ومُدّها ، وانقل حُمّاها فاجعلها بالُجحفة .

النبى صلى الله عليه وسلم يوم حنين

ومن حديث البراء بن عازب : قال : لما كان يومُ حنين رأيتُ النبى صلى الله عليه وسلم ، والعباس وأبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وهما آخذان بلجام بغلته . وهو يقول :

١٥ أنا النبىُّ لا كذِبْ ٭ أنا ابنُ عبدِ المطّلبْ

المنثور الذى يوافق المنظوم

ومن حديث أبى بكر بن أبى شيبة عن سفيان بن عيينة يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم : أنه لما دخل الغار نُكب ، فقال :

« هل أنتِ إلا أُصْبُع دَميتِ ، وفى سبيلِ اللهِ ما لقِيتِ » .

فهذا من المنثور الذى يوافق المنظوم وإن لم يتعمّد به قائله المنظوم . ومثل

٢٠ هذا من كلام الناس كثير يأخذه الوزن ، مثل قول عبد مملوك لمواليه :

« اذهبوا بى إلى الطبيـ ـب وقولوا قد اكتوى » .

ومثله كثير مما يأخذه الوزن ولا يراد به الشعر ، ولا يسمّى قولُ النبى صلى الله عليه وسلم ـ وإن كان موزونا ـ شعرا ، لأنه لا يراد به الشعر .

ومثله فى آى الكتاب : ﴿ ومن الليل فسبّحه وإدبارَ النجومِ ﴾ .

ومنه : ﴿ وجِفانٍ كالجوَابِ ، وقُدورٌ راسِياتٍ ﴾ .

ومثله : ﴿ ويُخزِهم وينصرْكم عليهم ، ويَشْفِ صدورَ قومٍ مؤمنينَ ﴾ .

ومنه : ﴿ فذلك الذى يَدُعُّ اليتيمَ ﴾ .

٥ ولو تطلّبْت فى رسائل الناس وكلامهم لوجدتَ فيه ما يحتمل الوزن كثيراً ، ولا يسمّى شعرا . من ذلك قول القائل : مَن يشتَرى باذِنجان . تقطيعه : مستفعلن مفعولات ، وهذا كثير .

من قال الشعر

من الصحابة والتابعين والعلماء المشهورين

الصحابة

١٠ كان شعراء النبي صلى الله عليه وسلم : حسان ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة .

وقال سعيد بن المسيب : كان أبو بكر شاعرا ، وعمرُ شاعرا ، وعلىٌّ أشعرَ الثلاثة .

ومن قول على كرم الله وجهه بصِفين :

١٥ لمن رايةٌ سوداءُ يَخفِقُ ظلُّها ٭ إذا قيل قدِّمْها حُضَيْنُ تقدّما

يقدمها فى الصف حتى يُذيدها ٭ حِياضَ المنايا تقطُر السمَ والدما

جَزَى اللهُ عنى والجزاءُ بكفِّه ٭ ربيعةَ خيراً ، ما أعفَّ وأكرَما

وقال أنس بن مالك خادم النبي صلى الله عليه وسلم : قدم علينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وما فى الأنصار بيتٌ إلا وهو يقول الشعر . قيل له : وأنت

٢٠ أبا حمزة ؟ قال : وأنا .

عمرو بن العاص

وقال عمرو بن العاص يوم صفّين :

شبّت الحربُ فأعددْتُ لها ٭ مُفرَعَ الحارك مَحبوكَ الثَّبَج

يَصِلُ الشّدَّ بشدٍّ فإذا ٭ ونَتِ الخيلُ عن الشدِّ مَعَجْ

جُرْشُعٌ أعظَمُه جُفْرَتُه ٭ فإذا ابْتَلَّ من الماء خَرَجْ

عبدالله بن عمرو

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص :

فلو شَهدتْ جُمْلٌ مَقامى ومَشهَدِى ٭ بصِفِّينَ يوما شابَ منها الذّوائبُ

٥ عشيّةَ جا أهلُ العراقِ كأنهم ٭ سحاب ربيعٍ زعْزعتْها الجنائب

وجئناهمُ تُرْدِى كأنّ صفوفَنا ٭ من البحر مَدٌّ موْجُه متراكب

إذا قلتُ قد ولّوْا سراعا بَدتْ لنا ٭ كتائب منهم فارجَحَنَّتْ كتائب

فدارتْ رَحانا واستدارتْ رَحاهمُ ٭ سراةَ النهار ما تولى المناكب

وقالوا لنا إنا نَرَى أن تُبايِعوا ٭ عليًّا فقلنا بل نَرى أن نُضارب

١٠ ومن شعراء التابعين

عبيد الله بن مسعود

عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وهو ابن أخى عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أحد السبعة من فقهاء المدينة ، وله يقول سعيد بن المسيب : أنت الفقيه الشاعر ؟ [قال] : لا بدّ للمصدور أن ينفث . يعنى أنه من كان فى صدره زكام فلا بدّ أن ينفث به زكمة ١٥ صدره : يريد أن كل من اختلج فى صدره شىء من شعر أو غيره ظهر على لسانه .

وقال عمر بن عبد العزيز : وددت لو أن لى مجلساً من عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود بدينار .

قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود : ما أحسنَ الحسنات فى أثر السيئات ، وأقبحَ السيئات فى أثر الحسنات ! وأحسنُ من هذا وأقبحُ من ذلك : ٢٠ الحسناتُ فى أثر الحسنات ، والسيئات فى أثر السيئات !

عروة بن أذينة

عروةُ بن أذينة ، وكان من ثقات أصحاب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يَروى عنه مالك .

وقال ابن شبرمة : كان عروة بن أذينة يخرج فى الثلث الأخير من الليل إلى سكك البصرة فينادى : يا أهل البصرة ، ﴿ أفأمَنَ أهلُ القُرى أن يأتيهم بأسُنا ضُحًى وهم يلعَبون ؟ ﴾ الصلاةَ الصلاة !

ومن شعراء الفقهاء المبرزين

ابن المبارك — عبد الله بن المبارك صاحب الرقائق وقال حِبّان : خرجنا مع ابن المبارك مرابطين إلى الشام ، فلما نظر إلى ما فيه القوم من التعبد والغزو والسرايا كل يوم ، التفت إلىّ وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون على أعمارٍ أفنيناها ، وليالٍ وأيام قطعناها فى علم الخلية والبَرِيّة وتركنا هاهنا أبواب الجنة مفتوحة ! قال : فبينما هو يمشى وأنا معه فى أزقة المصِّيصة ، إذ لقى سكرانا قد رفع عقيرته يتغنى ويقول :

أذلّنىَ الهوى فأنا الذليـــلُ ... وليس إلى الذى أهوَى سبيلُ

قال : فأخرج برنامجاً من كمه فكتب البيت ؛ فقلنا له : أتكتب بيت شعر سمعتَه من سكران ؟ قال : أما سمعتم المثل : رُبَّ جوهرة فى مزبلة ؟ قالوا : نعم . قال : فهذه جوهرة فى مزبلة !

وبلغ عبيدَ الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عمر بن عبد العزيز بعضُ ما يكره ؛ فكتب إليه :

أتانى عنكَ هذا اليوم قولٌ ... فضِقتُ به وضاق به جَوابى
أبا حفصٍ فلا أدرى أرَغْمِى ... تريدُ بما تحاولُ أم عتابى
فإن تك عاتباً تُعتَب وإلا ... فما عُودى إذاً بيراع غاب
وقد فارقتُ أعظمَ منك رزءًا ... وواريتُ الأحبةَ فى التراب
وقد عزُّو علىّ إذا أسلَمونى ... معاً فلبسْت بعدهمُ ثيـــابى

وقد ذكرنا شعر عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وعروة بن أذينة فى الباب

الباب الذى يتلو هذا ، وهو « قولهم فى الغزل » .

راشد بن عبد ربه

حدث فرج بن سلام قال : حدثنا عبد الله بن الحكم الواسطى عن بعض أشياخ الشام قال : استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب على نجران ، فولاه الصلاة والحرب ، ووجه راشد بن عبد ربه السُّلمى أميرا على القضاء والمظالم ؛ فقال راشد بن عبد ربه :

صحا القلبُ عن سلمى وأقصرَ شأوُهُ * وردّت عليه ما نعتْه تماضرُ

وحكّمهُ شيبُ القذالِ عن الصِّبا * وللشيبُ عن بعضِ الغوايةِ زاجر

فأقصرَ جهلى اليوم وآرتدّ باطلى * عن اللهوِ لما آبيضّ منى الغدائرِ

على أنه قد هاجهُ بعد صحوِه * بمعرِضِ ذى الآجام عيسٌ بواكر

ولما دنت من جانبِ الفرضِ أخصبتْ * وحلت ولاقاها سُليمٌ وعامر

وخبّرها الركبانُ أن ليس بينها * وبين قُرى بصرى ونجرانَ كافر

فألقت عصاها وآستقرّ بها النّوى * كما قرّ عيناً بالإيابِ المسافر

لابن عمر فى ولده سالم

وكان عبد الله بن عمر يحب ولده سالما حُبًّا مُفرطا ، فلامه الناس فى ذلك ؛ فقال :

يلومُونَنِي فى سالمٍ وألومُهم * وجلدةُ بين العينِ والأنفِ سالمُ

وقال : إن ابنى سالما يحب الله حبًّا لو لم يخفه ما عصاه .

لعلى

وكان على بن أبى طالب كرم الله وجهه إذا برز للقتال أنشد :

أى يومىَّ من الموتِ أفرّ * يومَ لا يقدَرُ أم يومَ قُدِرْ

يوم لا يُقدر لا أرهبُهُ * ومن المقدورِ لا ينجو الحذِر

وكان إذا سار بأرض الكوفة يرتجز ويقول :

يا حبّذا السيْرُ بأرض الكوفهْ * أرضٌ سواءٌ سهلة معروفه

تعرِفُها جِمالنا المعلوفهْ

لابن عباس

وكان ابن عباس فى طريقه من البصرة إلى الكوفة يحدو الإبل ، ويقول :

أَوِبِى إلى أهلِكِ يا ربابُ ٭ أوبِى فقد حان لكِ الإيابُ

وقال ابن عباس لما كُفَّ بصره :

إن يأخُذِ الله من عينىّ نُورَهُما ٭ ففى لسانى وقلبى مِنهما نورُ

قلبى ذكىٌّ وعقلى غير ذى دَخَلٍ ٭ وفى فى صارمٌ كالسيفِ مشهورُ ٥

قولهم فى الغزل

ابن سيرين

قال رجل لمحمد بن سيرين : ما تقول فى الغزل الرقيق يُنشده الإنسان فى المسجد ؟ فسكت عنه حتى أقيمت الصلاة وتقدم إلى المحراب ، فالتفت إليه فقال :

وتُبردُ بردَ رداء العرو ٭ سِ فى الصيف رقرقْتَ فيه العبيرا ١٠

وتُسخنُ ليلةَ لا يستطيعُ ٭ نُباحاً بها الكلبُ إلا هريرا

ثم قال : الله أكبر .

الحجاج وأبو هريرة

وقال الحجاج : دخلت المدينة فقصدت إلى مسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم : فإذا بأبى هريرة قد أكبَّ الناس عليه يسألونه ، فقلت : هكذا ! افرجوا لى عن وجهه . فأُفرج لى عنه ، فقلت له : إنى إنما أقول هذا : ١٥

طاف الخيالان فهاجا سقما ٭ خيالُ أروى وخيالُ تُكتَما

تريكَ وجهاً ضاحكاً ومعصما ٭ وساعداً عبلا وكفًّا أدرما

فما تقول فيه ؟ قال : قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُنشَدُ مثل هذا فى المسجد فلا يُنكره .

النبى صلى الله عليه وسلم وكعب

ودخل كعب بن زهير على النبىّ صلى الله عليه وسلم قبل صلاة الصبح ، فمثل بين يديه وأنشده : ٢٠

بانت سُعادُ فقلبى اليوم متبولُ ٭ متيمٌ إثرَها لم يفدَ مكبولُ

وما سُعاد غداةَ البينِ إذ رحلوا * إلا أغنُّ غضيضُ الطرفِ مكحولُ
هيفاء مقبِـلةً عجزاء مُدبرةً * لا يُشتكى قصرٌ منها ولا طول
ما إن تدُومُ على حالٍ تكونُ بها * كما تلوَّنُ فى أثوابهـا الغول
ولا تمسَّكُ بالوعدِ الذى وعدَتْ * إلا كما يُمسِك المـاء الغرابيل
٥ كانت مواعيدُ عرقوبٍ لها مثلا * وما مواعيدها إلا الأباطيل
فلا يغرَّنْكَ ما منتْ وما وعدت * إنّ الأمانيَّ والأحلامَ تضليل

ثم خرج من هذا إلى مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، فكساه برداً اشتراه منه معاوية بعشرين ألفا .

عبيد الله بن مسعود

ومن قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود فى الغزل :

١٠ كتمتَ الهوى حتى أضرَّ بك الكتْمُ * ولامكَ أقوامٌ ولومُهُمُ ظـلمُ
ونمَّ عليك الكاشحون وقبلَ ذا * عليكَ الهوى قد نمَّ لو نفعَ النَّمُّ
فيامن لِنفسٍ لا تموتُ فينقَضى * عَناها ، ولا تحيا حياةً لهـا طعمُ
تجنّبت إتيانَ الحبيبِ تأثُّماً * ألا إنّ هِجران الحبيبِ هو الإثم

عروة بن أذينة

ومن شعر عروة ابن أذينة ، وهو من فقهاء المدينة وعُبّادها ، وكان من
١٥ أرق الناس تشبيبا :

قالت وأبثثْتُها وجدِى وبُحتُ به * قدكنتَ عِندى تحت السِّترِ فاستتِرِ
أَأَنتَ تُبصِرُ من حولِي؟ فقلت لها * غطَّى هواكِ وما ألقى على بصرى

وقد وقفت عليه امرأةٌ ، فقالت له : أنت الذى يقال فيك الرجل الصالح وأنت القائل :

٢٠ إذا وجدتُ أُوارَ الحبِّ فى كبدِى * غدوْتُ نحو سِقاءِ المـاءِ أبترِدُ
هَبْنِى بَردتُ ببردِ المـاءِ ظاهرهُ * فمن لنارٍ على الأحشاءِ تتّقِدُ !

والله ما قال هذا رجل صالح . وكذبت عدوة الله عليها لعنة الله ؛ بل لم يكن

مرائياً ولكنه كان مصدوراً فنفث !

هو وهشام بن عبد الملك

وقدم عروة بن أذينة على هشام بن عبد الملك فى رجال من أهل المدينة ، فلما دخلوا عليه ذكروا حوائجهم فقضاها ثم التفت إلى عروة ، فقال له : ألست القائل :

لقد علمتُ وخيرُ القول أصدقُه * بأنّ رزقى وإن لم آت يأتينى ٥

أسعى له فيُعنّينى تطلُّبُــــه * ولو قعدتُ أتانى لا يُعنّينى

قال : فما أراك إلا قد سعيت له ! قال : سأنظر فى أمرى يا أمير المؤمنين . وخرج عنه فجعل وجهته إلى المدينة ، فبعث إليه بألف دينار ، وكشف عنه فقيل له : قد توجه إلى المدينة ! فبعث إليه بالألف دينار ، فلما قدم عليه بها الرسول ، قال له : أبلغ أمير المؤمنين السلام ، وقل له أنا كما قلت : قد سعيت وعييت فى ١٠ طلبه ، وقعدت عنه فأتانى لا يعنّينى .

ومن قول عبد الله بن المبارك ، وكان فقيهاً ناسكا شاعراً رقيق النسيب معجب التشبيب حيث يقول :

زعموها سألتْ جارتَها * وتعرّت ذات يوم تبترِدْ

أكما ينعتُنى تُبصرْنَنى * عَمْرَكُنّ الله أمْ لا يقتصدْ ١٥

فتضاحكن وقد قلْن لها * حسنٌ فى كلّ عينٍ من تُودّ

حسَداً حُمّلْنه من شأنها * وقديماً كان فى الحبِّ الحسدْ

شريح القاضى

وقال شريح القاضى ، وكان من جلّة التابعين ، والعلماء المتقدمين ، استقضاه على رحمه الله ومعاوية ، وكان يزوج امرأة من بنى تميم تسمى زينب ، فنقم عليها فضربها ، ثم ندم ، فقال : ٢٠

رأيت رجالاً يَضربونَ نساءهم * فشُلّت يَمِينى يوم أضربُ زينبا

أأضرِبُهــا فى غير ذنبٍ أتت به * فما العدلُ منّى ضربُ من ليس أذْنبا

فزينبُ شمسٌ والنساءُ كواكبٌ * إذا بَرَزَتْ لم تُبْدِ منهنّ كوكبا

قولهم فى المـــدح

الرشيد وشاعر مدحه

قال : حج الرشيد وزميله أبو يوسف القاضى ؛ قال شراحيل بن زائدة : وكان كثيراً ما أسايره ، فبينما أنا أسايره إذ عرض له أعرابى من بنى أسد فأنشده شعراً مدحه فيه وعرضه ، فقال له الرشيد : ألم أنهك عن مثل هذا فى شعرك
٥ يا أخا بنى أسد ؟ إذا أنت قلت فقل كما قال مروان بن أبى حفصة فى أبى هذا ، وأشار إلىّ يقول :

بنو مطـــرٍ يوم اللقاء كأنهم * أسودٌ لهـا فى غِيلِ خَفانَ أشبُلُ
هُمُ يَمنعون الجارَ حتى كأنما * لجارِهِم بين السِّماكين منزلُ
بهاليلُ فى الإسلام سادوا ولم يكن * كأَوّلهم فى الجاهليّـــة أوّلُ
١٠ هُمُ القومُ إن قالوا أصابوا، وإن دُعُوا * أجابوا، وإن أعطَوْا أطابوا وأجزلوا
وما يستطيعُ الفاعلونَ فَعالهم * وإنْ أحسَنوا فى النائبات وأجملوا

ابن شماس يمدح عمر بن عبد العزيز

وقال عتبة بن شماس يمدح عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى :

إنّ أولى بالحقّ فى كلّ حقٍّ * ثم أحرَى بأن يكون حقيقا
مَنْ أبوه عبدالعزيز بن مرْوا * نَ ومَن كان جدُّه الفاروقا
١٥ ثم داموا لنـا علينا وكانوا * فى ذُرا شاهقٍ تفوتُ الانوقا

الرسول صلى الله عليه وسلم وابن مرداس

مدح عباس بن مرداس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكساه حلة ؛ ومدحه كعب بن زهير ، فكساه بُرْداً اشتراه منه معاوية بعشرين ألف درهم ، وإن ذلك البرد لعند الخلفاء إلى اليوم .

عمر بن الخطاب وابن عباس فى شعر زهير

وقال ابن عباس : قال لى عمر بن الخطاب : أنشِدْنى قول زهير . فأنشدته
٢٠ قوله فى هرم بن سنان بن حارثة حيث يقول :

قومٌ أبوهم سِنانٌ حين تَنسُبهم * طابوا وطابَ من الأولاد ماولَدوا
لو كان يقعُد فوق الشمس من كرم * قومٌ بأوّلِهم أو بجـــدِهم قعَدوا
جنٌّ إذا فزعوا ، إنسٌ إذا أمنوا * مُرَزَءون بهاليلٌ إذا آحتشدوا

مُحَسَّدون على ماكان من نِعم * لا يَنزعُ الله منهم ماله حُسِدوا

فقال له عمر : ماكان أحبَّ إلىّ لو كان هذا الشعر فى أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ! انظر إلى ضنانة عمر بالشعر ، كيف لم يرَ أحداً يستحق هذا المدح إلا أهل بيت محمد عليه الصلاة والسلام ؟

ابن عمرو يمدحهم فى بيت للحطيئة

وأسمع رجلٌ عبد الله بن عمر بيت الحطيئة : ٥

متى تأتِه تعشُو إلى ضَوْءِ نارِه * تجدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقِدِ

فقال : ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلم يرَ أحداً يستحق هذا المدح غير رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عمر بن عبد العزيز ونصيب

واستأذن نصيب بن رباح على عمر بن عبد العزيز فلم يأذن له ، فقال : أعلِموا أمير المؤمنين أنى قلت شعرا أوله الحمد لله . فأعلموه ، فأذن له ؛ فأدخل عليه وهو يقول : ١٠

الحمـــد لله ، أما بعـــد يا عمرُ * فقد أتتْنا بك الحاجاتُ والقَدَرُ

فأنت رأسُ قريشٍ وابن سيِّدِها * والرأسُ فيه يكون السمع والبصَرُ

فأمر له بحليّة سيفه .

هو وجرير

ومدحه جرير بشعره الذى يقول فيه : ١٥

هٰذى الأراملُ قد قَضَّيْت حاجتَها * فَنْ لحاجةِ هذا الأرملِ الذكَرِ ؟

فأمر له بثلثمائة درهم .

هو ودكين

ومدحه دكين الراجز ، فأمر له بخمس عشرة ناقة .

ابن جعفر ونصيب

ومدح نصيب بن رباح عبد الله بن جعفر ، وأمر له بمال كثير وكسوة ورواحل . فقيل له : تفعل هذا بمثل هذا العبد الأسود ؟ فقال : أما والله لئن كان عبداً إن شِعرَه لحرّ ، وإن كان أسود إن ثناءه لأبيض . وإنما أخذ مالاً يَفنى ، وثيابا تَبلى ، ورواحل تُنضى ، وأعطى مديحا يُروى ، وثناء يَبْقى . ٢٠

ودخل ابن هرم بن سنان على عمر بن الخطاب ؛ فقال له : من أنت ؟ قال :

أنا ابن هرم بن سنان ، قال : صاحب زهير ؟ قال : نعم . قال : أما إنه كان يقول فيكم فيُحسن ! قال : كذلك كنا نعطيه فنُجزل ! قال : ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم .

أبو جعفر وطريح

وكان طريح الثقفى ناسكا شاعراً ، فلما قال فى أبى جعفر المنصور قوله :

٥ أنت ٱبن مُسْلَنْطِحِ البِطاحِ ولم * تَطْرُق عليـــك الحُنِيُّ والوُلُجِ

لو قلت للسَّيْلِ دعْ طريقَك والموْ * جُ عليـــه كالليل يعْتلجُ

لَهمَّ أو كاد أو لكانــ له * فى سائر الأرض عنك مُنعرجُ

طوبَى لفرعيْك من هُنــا وهُنــا * طوبَى لأعـــراقك التى تَشج

قال أبو جعفر : بلغنى عن هذا الرجل أنه يتأله ، فكيف يقول : دع طريقك ؟

١٠ فبلغ ذلك ، فقال : الله يعلم أنى إنما أردت يارب ، لو قلت للسيل : دع طريقك .

الحطيئة فى سجن عمر

وقال الحطيئة لما حبسه عمر بن الخطاب فى هجائه للزبرقان بن بدر — أبياتاً يمدح فيها عمر ويستعطفه ؛ فلما قرأها عمر عطف له وأمر بإطلاقه وعفا عما سلف منه ؛ والأبيات :

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذى مرخ * زُغْبِ الحواصلِ لاماءٌ ولا شجرُ

١٥ ألقيْتَ كاسِبَهم فى قعر مُظْلِمةٍ * فاغفرْ عليك سلام ٱلله يا عمرُ

أنت الإمام الذى من بَعد صاحبِه * ألقَى إليك مقاليد النُّهى البشر

ما آثرُوك بها إذ قدموك لهــا * لكن لأنفسِهم كانت بها الإثَر

ابن دارة وابن حاتم

ودخل ابن دارة على عدى بن حاتم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنى مدحتك ! قال : أمسِك حتى آتيك بمالى ثم امدحنى على حسبه ؛

٢٠ فإنى أكره أن لا أُعطيَك ثمن ما تقول . لى ألف شاة ، وألف درهم ، وثلاثة أعبد ، وثلاث إماء ، وفرسى هـذا حبيس فى سبيل الله ؛ فامدحنى على حسب ما أخبرتك ، فقال :

تَحِن قلُوصى فى مَعَدٍ وإنمــا * تَلاقى الربيعَ فى ديار بنى ثُعَلْ

وأبقى الليالى من عدِىٍّ بن حاتم ٍ * حُساماً كنصل السيف سُلَّ من الخِلَلْ
أبوك جَوَادٌ لا يُشَقُّ غُبارُه * وأنت جوادٌ ليس يُعذر بالعِلل
فإن تفعلوا شرًّا فمثلُكم اتَّقى * وإن تفعلوا خيرًا فمثلُكم فعَل
قال عدى : أمسِك ؛ لا يبلغ مالى إلى أكثر من هذا .

قولهم فى الهجاء

٥

قال الله تبارك وتعالى فى هجو المشركين : ﴿ والشُّعراءُ يتبعُهم الغاوُون ، ألم تَرَ أنهمْ فى كل وادٍ يهيمونَ ، وأنهُمْ يقولونَ ما لا يفعلونَ ، إلا الذين آمنوا وعمِلوا الصالحاتِ وذكروا اللهَ كثيراً وانتَصروا من بعدِ ما ظُلِموا ، وسيعْلمُ الذين ظَلَموا أىَّ مُنْقلَبٍ ينقلِبونَ ﴾ .

فأرخص الله للشعراء بهذه الآية فى هجائهم لمن تعرض لهم .

١٠

الرسول صلى الله عليه وسلم ورجل فى أبى سفيان

يزيد بن عمرو بن تميم الخزاعى عن أبيه عن جده ، أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، إن أبا سفيان يهجوك ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إنه هجانى وإنى لا أقول الشعر ؛ فاهجُه عنى ، فقام إليه عبد الله ابن رواحة فقال : يارسول الله إيذن لى فيه .

قال أنت القائل :

١٥

* فثبَّت اللهُ ما آتاك من حسنٍ *

قال : نعم . قال : وإياك فثبَّت الله . ثم قام إليه كعب بن مالك فقال : إيذن لى فيه . قال : أنت القائل : « همّتْ » ؟ قال : نعم . قال : لست له . ثم قام حسان ابن ثابت ، فقال يارسول الله ائذن لى فيه . وأخرج لسانه فضرب به أرنبة أنفه وقال : والله يارسول الله إنه ليُخَيَّل لى أنى لو وضعتُه على حجر لفلقه ، أو شَعر لحلَقهُ ! فقال : أنت له ؛ اذهب إلى أبى بكر يخبرك بمثالب القوم ، ثم اهجهم

٢٠

وجبريلُ معك . فقال يردُّ على أبى سفيان :

ألا أبْلغ أبا سُفيان عنى * مُغلغلةً فقد بَرِح الخفاء

هجوْتَ محمدًا فأجبْتُ عنه * وعند الله فى ذاك الجزاء

أتهْجُوه ولستَ له بنِدٍّ * فشرُّكما لخيرِكما الفِداء

٥ فمَن يهجو رسول الله مِنكم * ويُطْرِيه ويمدَحُه سواء

لنا فى كلِّ يومٍ من مَعدّ * سِبابٌ أو قِتالٌ أو هِجاء

لِسانى صارِمٌ لا عيْبَ فيه * وبَحْرى لا تُكدِّرُهُ الدِّلاء

فإن أبى ووالِده وعِرْضِى * لِعِرْض محمدٍ مِنكم وِقاء

ابن ياسر وعلى

وقال رجل من أهل اليمن : دخلت الكوفة فأتيت المسجد ، فإذا بعمار بن

١٠ ياسر ورجل ينشده هجاء معاوية وعمرو بن العاص ، وهو يقول : ألصق بالعجوزين !

قلت له : سبحان الله ! أتقول هذا وأنتم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال :

إن شئت فاجلس وإن شئت فاذهب ! فجلست ، فقال : أتدرى ما كان يقول لنا

رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هجانا أهل مكة ؟ قلت : لا أدرى . قال : كان

يقول لنا : قولوا لهم مثل ما يقولون لكم .

النبى صلى الله عليه وسلم وحسان فى شعر له

١٥ وقال النبى صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت : لقد شكر الله لك بيتاً

قلته وهو :

زعَمتْ سخينةُ أن تُغالبَ ربَّها * وليُغْلبنَّ مُغالبُ الغَـلّاب

هذيل وسؤالها حل الزنا

وسألت هذيل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُحلَّ لها الزنا ، فقال

حسان فى ذلك :

٢٠ سألتْ هُذيلُ رسولَ الله فاحشةً * ضلَّت هُذَيْلُ بما سألتْ ولم تُصِبِ

وقال عبد الملك بن مروان : ماهُجِىَ أحد بأوجع من بيت هُجى به ابن

الزبير ، وهو :

فإن تُصِبْكَ من الأيام جائحة * لم نَبْكِ منكَ على دنيا ولا دِينِ !

ابن علفة وإطالة الهجاء

وقيل لعقيل بن عُلَّفَة : مالك لا تُطيلُ الهجاء ؟ قال : يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق .

لابن منادر فى كثرة الهجاء

وقال رجل من ثقيف لمحمد بن مُناذر : ما بال هجائك أكثرُ من مدحك ؟ قال : ذلك بما أغرانى به قومُك ، واضطرنى إليه لؤمُك .

لجرير فى الهجاء

٥ وقال أبو عمرو بن العلاء : قلت لجرير : إنك لعفيف الفَرج كثيرُ الصدقة ، فلِمَ تسبُّ الناس ؟ قال : يبدءونى ثم لا أغفر لهم . وكان جرير يقول : لست بمبتدئ ولكنى مُعْتَد . يريد أنه يُسرف فى القصاص .

لبعض الشعراء

ومثله قول الشاعر :

بنى عَمِّنا لا تَنطِقوا الشِّعرَ بعدَما * دفنْتُم بأفناءِ العُذيبِ القوافِيا
١٠ فلسْنا كَمَنْ قد كنتُم تظْلِمونه * فيقبَلُ ضيماً أو يُحكِّمُ قاضيَا
ولكنَ حُكمَ السيْفِ فيكم مُسَلَّطُ * فَنرضى إذا ما اصبحَ السيْفُ راضيا
فإن قلتُم إنا ظُلِمْنا فلم نكن * ظَلَمْنا ولكنّا أسأنا التّقاضيا

وكان عمر بن الخطاب يقول : واحدة بأخرى والبادى أظلم .

عبدالملك وجرير والأخطل

وقيل : وفد جرير على عبد الملك بن مروان ، فقال عبد الملك للأخطل : ١٥ أتعرف هذا ؟ قال : لا . قال : هذا جرير . قال الأخطل : والذى أعمى رأيك يا جرير ما عرفتُك ! قال له جرير : والذى أعمى بصيرتك وأدام خزْيتك لقد عرفتك : لسيماك سيما أهلِ النار .

كثير والأخطل عند عبد الملك

ابن الأعرابى قال : دخل كُثَيِّرُ عزّة على عبد الملك فأنشده وعنده رجل لا يعرفه ؛ فقال لعبد الملك : هذا شعر حجازى ، دعنى أضغَمه لك ضغْمة . قال ٢٠ كثيِّرُ : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذا الأخطل . قال : فالتفت إليه فقال له : هل ضغَمت الذى يقول :

والتَّغْلبىُّ إذا تنحنحَ للقِرَى * حكَّ اسْتَهُ وتَمثَّل الأمثالا
تلقاهُم حُلَماء عن أعدائِهم * وعلى الصَّديقِ تَراهم جُهّالا

حصين وصديق له

حدثنا يحيى بن عبد العزيز قال : حدثنا محمد بن عبد الحكم بمصر : كان رجل له صديق يقال له حُصين ، فولى موضعا يقال له السابَين ، فطلب إليه حاجة فاعتل فيها ، فكتب إليه :

آذهبْ إليكَ فإنّ وُدّك طالقٌ * منى وليسَ طلاقَ ذاتِ البيْنِ

٥ فإذا ارعوَيْتَ فإنها تطْليقةٌ * ويُقيم ودُّك لى على ثِنْتيْنِ

وإذا أبيتَ شفعْتها بمثالها * فيكونُ تطليقَيْنِ فى حيْضَيْنِ

وإنِ الثلاثُ أتتْك منى بتّةً * لم تُغْنِ عنكَ ولايةُ السّابيْنِ

ولَمْ أرضَ أنْ أهجو حُصيْناً وحده * حتى أُسَوِّد وجهَ كلِّ حُصَيْنِ

بعض الملوك ودعبل

طلب دعبل بن على حاجة إلى بعض الملوك فصرح بمنعه ؛ فكتب إليه :

١٠ أحَسِبتَ أرض الله ضيِّقةً * عنى؟ فأرضُ اللهِ لم تضِقِ

وحسِبتنى فقْعًا بقرقَرةٍ * فوطِئتنى وطْناً على حَنَق

فإذا سألتُك حاجةً أبداً * فاضْرِب بها قفْلاً على غلَق

وأعِدَّ لى غُلاًّ وجامعةً * فاجمعْ يدىَّ بها الى عُنق

ثم آرمِ بى فى قعْرِ مُظْلِمةٍ * إنْ عُدتُ بعدَ اليومِ فى الحَق

١٥ ماأطولَ الدنيا وأوسَعها * وأدلَّنى بمسالكِ الطُّرق

لأبى زبيد

ومثل هذا قول أبى زبيد :

إنْ كان رزقى إليك فآرم به * فى ناظِرَى حيّةٍ على رَصَدِ

ليْتَك أدبتَنى بواحدةٍ * تجعلُها منك آخرَ الأبد

تحلِفُ أن لا تبرّنى أبداً * فإنّ فيها برداً على كَبدى

٢٠ وقال زياد : ماهجيت ببيتٍ قط أشد علىّ من قول الشاعر :

فكّرْ فى ذاك إن فكرتَ مُعتبَرٌ * هل نِلْت مكْرمةً إلا بتأميرِ

عاشتْ سُميّة ماعاشت وما علِمت * أنّ آبنَها من قريشٍ فى الجماهيرِ

سُبحانَ من مُلْك عبّاد بقدرتِه * لايَدفعُ الخلق محتومَ المقادير

لجرير في هجاء البعيث له

وقال بلال بن جرير : سألت أبي : أيُّ شيء هُجيتَ به أشدُّ عليك ؟ قال : قولُ البَعِيث :

ألستَ كليبيًّا إذا سِيمَ خُطَّةً * أقرّ كإقرار الحليلةِ للبعْلِ

وكلُّ كليبيٍّ صحيفةُ وجهه * أذلُّ لأقدام الرجال من النّعل

وكان بلال بن جرير شاعراً ابن شاعر ابن شاعر ؛ لأنّ الخطَفى كان شاعرا ، وهو يقول : ٥

ما زال عِصيانُنا لله يُسلِمنا * حتى دُفِعنا إلى يَحيَى ودينارِ

إلى عُلَيْجيْن لم تُقطَعْ ثمارُهما * قد طالما سجَدا للشمس والنار

لجميل

ومن أخبث الهجاء قول جميل :

أبوكَ حبابٌ سارق الضيف بُردَه * وجدّيَ يا شمّاخ فارس شمّرا ١٠

بنو الصالحين الصالحونَ ومَن يكن * لآباءِ سوءٍ يلقَهم حيث سيِّرا

فإن تغضَبوا من قِسمة الله فيكمُ * فللّهُ إذ لم يرْضكم كان أبصَرا

لكثير

وقال كثيِّر في نُصيب ، وكان أسود ، ويكنى أبا الحجناء :

رأيتُ أبا الحَجْناءِ في الناس حائرًا * ولون أبي الحجناءِ لون البَهائمِ

تَراه على ما لاحَه من سواده * وإن كان مظلوما ، له وجه ظالم ! ١٥

ابن أبي وقاص ودعوته

وكان يقال لسعد بن أبي وقاص : المستجاب ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم : اتقوا دعوة سعد . فقال رجل بالقادسية فيه :

ألم تَرَ أنّ اللهَ أنزل نصرَه * وسعدٌ بباب القادسيّة مُعصِمُ

فأُبنا وقد آمَتْ نساءٌ كثيرةٌ * ونِسوة سعدٍ ليس فيهنّ أيِّم

فقال سعد : اللهم اكفني يدَه ولسانه . فخرس لسانه ، وضربتْ يدُه فقطعتْ . ٢٠

المبرد وشاعر هجاه

وذُكر عند المبرّد محمد بن يزيد النحوي رجلٌ من الشعراء ، فقال : لقد هجاني ببيتين أنضج بهما كبدي ! فاستنشدوه ، فأنشدهم هذين البيتين :

سألنا كلَّ حيٍّ عن ثُمالَهْ * فكلٌّ قد أجاب ومَن ثُمالَهْ

دعتهُ كى يُجيبَ لها وشيكا * وقدمُلئت حناجرُها صفادا

فقال زياد : لبّيكِ يا بدور ! ثم أرسل فيه فأغرمه مائة ألف .

باب فى رواة الشعر

الأصمعى — قال الأصمعى : ما بلغت الحلمَ حتى رويت اثنى عشر ألف أرجوزة للأعراب .

خلف الأحمر — كان خلف الأحمر أروى الناس للشعر وأعلمهم بجيّده . ٥

المهدى وابن أبى حفصة — قال مروان بن أبى حفصة : لما مدحتُ المهدى بشعرى الذى أوله :

طَرقتْكَ زائِرةً فَحَىِّ خيالَها * بيضاء تخلِطُ بالحياء دلالها

أردت أن أعرضه على قراء البصرة ، فدخلت المسجد الجامع ، فتصفحت الحلَق فلم أر حلْقة أعظمَ من حلْقة يونس النحوى ، فجلست إليه ، فقلت له : إنى مدحت المهدى بشعر ، وأردت ألا أرفعه حتى أعرضَه على بصرائكم ، وإنى ١٠ تصفحت الحلَق فلم أر حلقة أحفل من حلْقتك ؛ فإن رأيت أن تسمعه منى فافعل . فقال : يا ابن أخى ، إن هٰهنا خلفا ، ولا يمكن أحدنا أن يسمع شعراً حتى يحضر ، فإذا حضر فأسمِعْه . فجلست حتى أقبل خلف الأحمر ، فلما جلس جلست إليه ، ثم قلت له ما قلت ليونس ؛ فقال : أنشِدْ يابن أخى ؛ فأنشدته حتى أتيت على آخره فقال لى : أنت والله كأعشى بكر ، بل أنت أشعر منه ١٥ حيث يقول :

رحلت سُميَّةُ غدوةً أجمالها * غضْبَى عليكَ فما تقولُ بَدالها

خلف الأحمر — وكان خلف مع روايته وحفظه يقول الشعر فيُحسن وينحله الشعراء . ويقال إن الشعر المنسوب إلى ابن أخت تأبط شرّاً ، وهو :

إنّ بالشعبِ الذى دون سلعٍ * لقتيلا دمُـــه ما يُطلّ ٢٠

لخلف الأحمر ، وإنما ينحله إياه .

حماد الراوية — وكذلك كان يفعل حمادُ الراوية : يخلط الشعر القديم بأبيات له .

قال حماد : ما من شاعر إلا قد زدت فى شعره أبياتا فجازت عليه ، إلا الأعشى ،

ما أحوجَ المُلْكَ إلى دِيمَة * تَغسل عنه وضَرَ الزيتِ

زياد الأعجم

ومن أخبث الهجاء قول زياد الأعجم :

قالوا الأشاقِرُ تهجونى فقلت لهم * ما كنتُ أحسبهم كانوا ولا خُلقوا

وهم من الحسَب الذاكى بمنزلةٍ * كطحْلب الماء لا أصلٌ ولا ورَق

٥ لا يَكثرون وإن طالت حياتُهمُ * ولو يَبول عليهم ثعلب غَرِقوا

وقوله أيضا :

قضَى الله خلْق الناس ثم خُلقتمُ * بقيّة خلْق الله آخِرَ آخِرِ

فلم تَسمَعوا إلا الذى كان قبلَكم * ولم تُدرِكوا إلا مَدَقّ الحوافِر

وقال فيهم :

١٠ قُبيِّلةٌ خيرها شرُّها * وأصدقها الكاذب الآثمُ

وضيْفهم وسْط أبياتِهم * وإن لم يكن صائمًا صائم

الطرماح

ونظير هذا قول الطرمّاح :

وما خُلقتْ تَيْم وزيْد مَناتِها * وضَبّة إلا بعد خلْق القبائِل

ومن أخبث الهجاء قول الطرمّاح فى بنى تميم :

١٥ لو حان وِرْد تميمٍ ثم قيل لهم * حوْضُ الرسول عليه الأزْد لم تَرِدِ

أو أنزل الله وحْياً أن يعذّبَها * إن لم تعدْ لقتالِ الأزْد لم تَعد

وكلُّ لؤْمٍ أباد الله سُـــنّته * ولؤْم ضَبّة لم يَنقص ولم يَزد

لو كان يَخفَى على الرحمٰن خافية * من خلْقه خفِيتْ عنه بنو أَسَد

قوْم أقامَ بدار الذلّ أوّلهم * كما أقامت عليه جِذْمة الوَتِد

المساور

٢٠ ومن قول المساور بن هند :

ماسرّنى أن قومى من بنى أسَدٍ * وأن ربى يُنجّينى من النار

وأنهم زوّجونى من بناتِهمُ * وأن لى كل يومٍ ألفَ دينار

ومن أخبث الهجاء من غير إقذاع :

بلاد نأى عنى الصديق وسبّنى ◦ بها عنزىّ ثم لم أتكلم

لعبيد

وقال عَبيد :

يا أبا جعفر كتبتكَ سَمْحًا ◦ فاستطالَ المِداد فالميم لامُ

لا تلمْنى على الهجاء فلم يَهْ ◦ جُكَ إلا المِداد والأقلام

٥

الرائى وكوفى

وقال سليمان بن أبى شيخ : كان أبو سعيد الرائى يمارى أهل الكوفة ويفضل أهل المدينة ، فجاءه رجل من أهل الكوفة وسماه شرشيرا ، وقال : كاب فى جهنم يسمى شرشيرا ، فقال :

عندى مَسائل لا شرشير يعْرفها ◦ إنْ سِيلَ عنها ولا أصحاب شرشير

وليس يَعرف هذا الدّين معرفةً ◦ إلا حَنيفيّةٌ كوفيّة الدُور

١٠

لا تسألنّ مَدينيًا فتكْفره ◦ إلا عن البمّ والمَثْنى أو الزّير

فكتب أبو سعيد إلى أهل المدينة : إنكم قد هُجيتم فردّوا . فردّ عليه رجل من أهل المدينة يقول :

لقد عَجِبْتُ لغاوٍ ساقه قَدَر ◦ وكل أمر إذا ماحُمّ مقْدورُ

قالوا المدينة أرضٌ لا يكون بها ◦ إلا الغِناء وإلا البمُّ والزّير

١٥

لقد كَذَبتَ لَعَمْر الله إنّ بها ◦ قبرَ النبيّ وخير الناس مقبور

قال : فما انتصر ولا انتصِر به ، فليته لم يقل شيئا .

للوراق

وقال مساور الوراق فى أهل القياس :

كنّا من الدّين قبلَ اليوم فى سَعةٍ ◦ حتى بُلينا بأصحاب المقاييس

قاموا من السُّوق إذ قلّت مكاسبهم ◦ فاستَعمَلوا الرأىَ بعد الجُهد والبُوس

٢٠

أمّا الغريب فأمسَوْا لا عطاء لهم ◦ وفى المَوالى علامات المفاليس

فلقيه أبو حنيفة ، فقال له : هجوتنا ! نحن نرضيك . فبعث إليه بدراهم ،

فكف عنه وقال :

إذا ما الناسُ يوماً قايَسونا * بمسألة مِن الفُتيا طريفَهْ

أتيناهُم بِقياسٍ صحيحٍ * بديعٍ من طرازِ أبي حنيفَه

إذا سمعَ الفقيهُ بها وعاها * وأثبتَها بحبرٍ في صحيفهْ

لبعض الشعراء

ومن خبيث الهجاء قول الشاعر : ٥

عجِبْتُ لعبْدانٍ هجوني سفاهةً * أنِ اصطبحُوا من شاءِهم وتقيَّلوا

بجادٌ وريسانٌ وفِهرٌ وغالبٌ * وعونٌ وهدمٌ وابن صفوةَ أخيلُ

فأمّا الذي يُحصيهِمُ فمُكثِّرٌ * وأمّا الذي يُطريهِمُ فمقلِّل

لأبي العتاهية في ابن معن

وقال أبو العتاهية في عبد الله بن معن بن زائدة :

قال ابن معنٍ وجلى نفسَهُ * على القرباتِ من الأهل ١٠

هل في جواري الحيْ من وائلٍ * جاريةٌ واحدةٌ مثلي

أكنَى أبا الفضل فيا من رأى * جاريةً تُكنَى أبا الفضل

قد نقطَت في خدِّها نقطةً * مخافةَ العينِ من الكحْلِ !

مداراة الشعراء وتقيهم

سليمان والخليل وبعض المادحين

أبو جعفر البغدادي قال : مدح قومٌ من الشعراء جعفر بن سليمان بن علي ١٥ ابن عبد الله بن عباس ، فماطلهم بالجائزة ؛ وكان الخليلُ بن أحمد صديقَه ، وكان وقتَ مدحهم إياه غائباً ، فلما قدم الخليل أتوه فأخبروه ، فاستعانوا به عليه ؛ فكتب إليه :

لا تقبلنَّ الشعر ثمَّ تعُقُّه * وتنامُ والشعراءُ غير نِيامِ

واعلم بأنَّهم إذا لم يُنصَفوا * حكموا لأنفُسهم على الحكّام ٢٠

وجنايةُ الجاني عليهم تنقضي * وعقابُهم باقٍ على الأيامِ

فأجازهم وأحسن إليهم .

النبي صلى الله عليه وسلم وابن مرداس

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لما مدحه عباس بن مرداس : اقطعوا عنى لسانه . قالوا : بماذا يارسول الله ؟ فأمر له بحلة قطع بها لسانه .

ومدح ربيعة الرقّيُّ يزيد بن حاتم وهو والى مصر ، فتشاغل عنه ببعض الأمور واستبطأه ربيعة فشخص من مصر ، وقال :

٥ أرانِى ولا كُفرانَ لله راجعاً * بخُفَّىْ حُنَيْنٍ من نوالِ ابن حاتمِ

فبلغ قوله يزيد بن حاتم ، فأرسل فى طلبه وردّه ، فلما دخل عليه قال له : أنت القائل :

أرانى ولا كفران للهِ راجعاً * بخفى حُنين من نوال ابن حاتم

قال : نعم . قال : هل قلت غير هذا ؟ قال : لا . قال : والله لترجعن بخفّىْ

١٠ حنين مملوءة مالا ! فأمر بخلع خُفَّيه ، وأن تملأ له مالا ؛ ثم قال : أصلح ما أفسدت من قولك ؛ فقال فيه لما عزل عن مصر وولى مكانه يزيد بن السلمى :

بكى أهلُ مصرٍ بالدموعِ السواجِمِ * غداةَ غدا منها الأغرُّ ابن حاتم

لشتانَ ما بين اليزيدَيْنِ فى الندَى * يزيدِ سُليمٍ والأغرِّ ابنِ حاتمِ

فهمُّ الفتى الأزدِىِّ إنفاقُ مالهِ * وهمُّ الفتى القيسىِّ جمعُ الدراهمِ

١٥ فلا يحسَب التَّمْتامُ أنى هجوتُه * ولكنَّنى فضلْتُ أهلَ المكارم

واعلم أن تقية الشعراء من حفظ الأعراض التى أمر الله تعالى بحفظها ؛ وقد وضعنا فى هذا الكتاب باباً فيمن وضعه الهجاء ، ومن رفعه المدح .

تيم عامل زياد ومادح له

وكان لزياد عامل على الأهواز يقال له تَيم ، فمدحه رجل من الشعراء ، فلم يُعطه شيئا ، فقال الشاعر : أما إنى لا أهجوك ، ولكنى أقول فيك ما هو

٢٠ شر عليك من الهجاء . فدخل على زياد فأسمعه شعراً مدحه فيه ، وقال فى بعضه :

وكائِن عند تيمٍ من بُدورٍ * إذا ما صُفِّدتْ تدعو زيادا

دعته كى يجيبَ لها وشيكا * وقد مُلئت حناجرُها صفادا

فقال زياد : لبّيكِ يا بدور ! ثم أرسل فيه فأغرمه مائة ألف .

باب فى رواة الشعر

الأصمعى — قال الأصمعى : ما بلغت الحلمَ حتى رويت اثنى عشر ألف أرجوزة للأعراب .

خلف الأحمر — كان خلف الأحمر أروى الناس للشعر وأعلمهم بجيّده . ٥

المهدى وابن أبى حفصة — قال مروان بن أبى حفصة : لما مدحتُ المهدى بشعرى الذى أوله :

طَرقتْكَ زائرةً فحىِّ خيالَها * بيضاء تخلِطُ بالحياء دلالها

أردت أن أعرضه على قراء البصرة ، فدخلت المسجد الجامع ، فتصفحت الحلَق فلم أر حلْقة أعظمَ من حلْقة يونس النحوى ، فجلست إليه ، فقلت له : إنى مدحت المهدى بشعر ، وأردت ألا أرفعه حتى أعرضَه على بصرائكم ، وإنى تصفحت الحلَق فلم أر حلقة أحفل من حلْقتك ؛ فإن رأيت أن تسمعه منى فافعل . فقال : يا ابن أخى ، إن ههنا خلفا ، ولا يمكن أحدنا أن يسمع شعراً حتى يحضر ، فإذا حضر فأسمعْه . فجلست حتى أقبل خلف الأحمر ، فلما جلس جلست إليه ، ثم قلت له ما قلت ليونس ؛ فقال : أنشِدْ يا ابن أخى ؛ فأنشدته حتى أتيت على آخره فقال لى : أنت والله كأعشى بكر ، بل أنت أشعر منه حيث يقول : ١٠ ١٥

رحلت سُميّةُ غدوةً أجمالها * غضْبَى عليكَ فما تقولُ بَدالها

خلف الأحمر — وكان خلف مع روايته وحفظه يقول الشعر فيُحسن وينحله الشعراء . ويقال إن الشعر المنسوب إلى ابن أخت تأبط شرًّا ، وهو :

إنّ بالشعبِ الذى دون سلعٍ * لقتيلاً دمُـــه ما يُطلّ ٢٠

لخلف الأحمر ، وإنما ينحله إياه .

حماد الراوية — وكذلك كان يفعل حمادٌ الراوية : يخلط الشعر القديم بأبيات له .

قال حماد : ما من شاعر إلا قد زدت فى شعره أبياتا فجازت عليه ، إلا الأعشى ،

أعشى بكر ؛ فإنى لم أزد فى شعره قط غير بيت فأفسدت عليه الشعر . قيل له : وما البيت الذى أدخلته فى شعر الأعشى ؟ فقال :

وأنكرتْنى وماكان الذى نَكِرت * من الحوادِثِ إلا الشّيبَ والصَّلعا

قال حماد الراوية : أرسل إلىّ أبو مسلم ليلا ، فراعنى ذلك ، فلبست أكفانى ومضيت ؛ فلما دخلت عليه تركنى حتى سكن جأشى ، ثم قال لى : ما شعرٌ فيه أوتاد؟ قلت : من قائله أصلح الله الأمير ؟ قال : لا أدرى . قلت : فمِن شعراء الجاهلية أم شعراء الإسلام ؟ قال : لا أدرى . قال : فأطرقت حينا أفكّر فيه ، حتى بدر إلى وهمى شعر الأفوه الأزدى حيث يقول :

لا يصلُح الناسُ فوضى لا سَراةَ لهم * ولا سَراةَ إذا جُهّالهم سادوا

والبيتُ لا يبتَنَى إلا له عمدٌ * ولا عِمادَ إذا لم تُرسَ أوتاد

فإن تجمّعَ أوتادٌ وأعمدةٌ * يوماً فقد بلغوا الأمرَ الذى كادوا

فقلت : هو قول الأفوه الأزدى أصلح الله الأمير ، وأنشدته الأبيات ، فقال : صدقت ، انصرف إذا شئت ! فقمت ، فلما خطوت الباب لحقنى أعوان له ومعهم بدرة ، فصحبونى إلى الباب ؛ فلما أردت أن أقبضها منهم ، قالوا : لابد من إدخالها إلى موضع منامك ! فدخلوا معى ، فعرضت أن أعطيهم منها شيئا ، فقالوا : لا تقدم على الأمير .

أبو ضمضم

الأصمعى قال : أقبل فتيانٌ إلى أبى ضمضم بعد العشاء ، فقال : ما جاء بكم ؟ قالوا : جئنا نتحدث إليك . قال : كذبتم يا خبثاء ! ولكن قلتم : كبر الشيخ فهلُم بنا عسى أن نأخذ عليه سقطة ! قال : فأنشدهم لمائة شاعر كلهم اسمه عمرو . قال الأصمعى : تحدثت أنا وخلف الأحمر فلم نزد على أكثر من ثلاثين .

الشعبي

وقال الشعبي : لست لشىء من العلوم أقل رواية من الشعر ، ولو شئت لأنشدتُ شهراً ولا أعيد بيتا !

الخليل والأصمعى

وكان الخليل بن أحمد أروى الناس للشعر ولا يقول بيتا .

وكذلك كان الأصمعى . وقيل للأصمعى : ما يمنعك من قول الشعر ؟ قال : نظرى لجيّده .

وقيل للخليل : مالك لا تقول الشعر ؟ قال : الذى أريده لا أجده ، والذى أجدُه لا أريدُه . ٥

لخصم

وقيل لآخر : مالك تروى الشعر ولا تقوله ؟ قال : لأنى كالمِسَنّ : أشحَذ ولا أقطع .

لابن هانئ

وقال الحسن بن هانئ : رويت أربعة آلاف شعر ، وقلت أربعة آلاف شعر ، فما رزأت لشاعر شيئا .

الرشيد والأصمعى

القاسم بن محمد السّلامىّ قال : حدثنا أحمد بن بشر الأُطروش قال : حدثنى ١٠ يحيى بن سعيد قال : أخبرنى الأصمعى قال : تصرفتْ بِىَ الأسباب إلى باب الرشيد مؤملا للظفر ، بما كان فى الهمة دفينا ، أترقب به طالع سعد ، فاتصل بى ذلك إلى أن صرت للحرس مؤانساً بمـا استملت به مودّتهم ، فكنت كالضيف عند أهل المبرّة ، فطرفهم متوجهة بإتحافى ، وطاولتنى الغايات بمـا كدت به أن أصير إلى ملالة ، غير أنى لم أزل مُحْيِياً للأمل بمذاكرته عند اعتراض الفترة ، وقلت فى ذلك : ١٥

وأىُّ فتًى أُعِيرَ ثباتَ قلب * وساع ماتضيق به المعـانى

تجاذَبه المواهبُ عن إباء * ألا بل لا تُواتيه الأمانى

فرُبّ مُعَرِّس لليأس أجلى * عن التّركِ الحميد لدى الرِّهان

وأىُّ فتى أناف على سُمُوّ * من الهِمّات ملتهب الجَنان

بغير توسُّع فى الصدر ماض * على العزَمات والعَضْب اليمانى ٢٠

فلم تَبْعد أن خرج علينا خادم فى ليلة نثرت السعادة والتوفيق فيهـا الأرقَ بين أجفان الرشيد ، فقال : هل بالحضرة أحد يحسن الشعر ؟ فقلت : الله أكبر ! رب قيد مضيقة قد فكّه التيسير للإنعام ! أنا صاحبك إن كان صاحبك من طلب

فأدمن ، وحفظ فأتقن . فأخذ بيدى . ثم قال : ادخل أن يختم الله لك بالإحسان لديه والتصويب ، فلعلها أن تكون ليلة تعوّض صاحبتها الغنى . قلت : بشّرك الله بالخير ! قال : ودخلت ، فواجهت الرشيد فى البهو جالساً كأنما ركب البدر فوق أزراره جمالا ، والفضل بن يحيى إلى جانبه ، والشمع يحدق به على قضب المنابر ، والخدم فوق فرشه وقوف ؛ فوقف بى الخادم حيث يسمع تسليمى ، ثم قال : سلِّم ! فسلمت ، فردّ ؛ ثم قال : يُنَحَّى قليلا روعُه ، إن وجد لروعه حسًّا . فقعدت حتى سكن جاشى قليلا ، ثم أُقدِمت ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إضاءة كرمك ، وبهاء مجدك ، مجيران لمن نظر إليك من اعتراض أذية له ؛ أيسألنى أمير المؤمنين فأجيب ، أم أبتدئ فأصيب ، بيمن أمير المؤمنين وفضله ؟ قال : فتبسم الفضل ، ثم قال : ماأحسن مااستدعى الاختبار استسهل به المفاتحة ؛ وأجدر به أن يكون محسِنا . ثم قال الفضل : والله يا أمير المؤمنين لقد تقدم مبرِّزاً محسنا فى استشهاده على براءته من الحيرة ، وأرجو أن يكون ممتعا . قال : أرجو . ثم قال : آدن . فدنوت ، فقال : أشاعر أم راوية ؟ قلت : راوية يا أمير المؤمنين . قال : لمن ؟ قلت : لذى جدّ وهزل بعد أن يكون محسنا . قال : والله ما رأيت أدعى لعلم ، ولا أخبَرَ بمحاسن بيان فتقته الأذهان منك ؛ ولئن صرت حامداً أثرك لتعرفن الإفضال متوجّها إليك سريعا . قلت : أنا على الميدان يا أمير المؤمنين ، فيطلق أمير المؤمنين من عقالى مُجيبا فيما أحبه قال :

* قد أنصف القارةَ من راماها *

ثم قال : مامعنى المثل فى هذه الكلمة بديًّا ؟ قلت : ذكرت العرب يا أمير المؤمنين أن التبابعة كانت لهم رُماة لا تقع سهامهم فى غير الحدق ، فكانت تكون فى الموكب الذى يكون فيه الملك ، على الجياد البُلْق ، بأيديهم الأسورة وفى أعناقهم الأطواق ؛ فخرج من موكب الصُّغد فارس مُعْلَم بعذبات سود فى قلنسوته ، قد وضع نشابته فى الوتر ، ثم صاح : أين رماة الحرب ؟ قالوا : قد أنصف القارة من راماها . والملك أبو حسان إذ ذاك المضاف إليه .

قال الرشيد : أحسنت؛ أرويت للعجاج ورؤبة شيئا؟ قلت : هما يا أمير المؤمنين يتناشدان لك بالقوافى وإن غابا عنك بالأشخاص . فمد يده فأخرج من تحت فراشه رقعة ، ثم قال : أسمعنى . فقلت :

* أرَّقنى طارقُ همٍّ طَرَقا *

فمضيت فيها مُضىَّ الجواد فى سَنَن ميدانه ، تهدر بها أشداقى ، حتى إذا صرت إلى مدح بنى أمية ثنيت عنان اللسان إلى امتداحه المنصور فى قوله :

* قلت لزيرٍ لم تصله مريَمُهْ *

قال : أعن حيرة أم عن عمد ؟ قلت : عن عمْد ؛ تركت كذِبَه إلى صدقه فيما وصف به المنصور من مجده . قال الفضل : أحسنت بارك الله فيك ، مثلك يؤمل لهذا الموقف . قال الرشيد : ارجع إلى أول هذا الشعر . فأخذت من أوله حتى صرت إلى صفة الجمل فأطلت ، فقال الفضل : مالك تضيِّق علينا كلَّ ما اتسع لنا من مساعدة السَّهر فى ليلتنا هذه بذكر جمل أجرب ؟ صِره إلى امتداح المنصور حتى تأتى على آخره . فقال الرشيد : اسكت ، هى التى أخرجتك من دارك ، وأزعجتك من قرارك ، وسلبتك تاجَ مُلكك ؛ ثم ماتت ، فعُمل جلودُها سياطا تضرب بها قومُك ضرب العبيد ! ثم قهقه ، ثم قال : لا تدع نفسك والتعرض لما تكره ! فقال الفضل : لقد عوقبت على غير ذنب ، والحمد لله ! قال الرشيد : أخطأت فى كلامك يرحمك الله ؛ لو قلت : وأستغفر الله ! قلت صوابا ، إنما يحمد الله على النِّعم . ثم صرف وجهه إلىّ وقال : ما أحسن ما أديت فى قدر ما سئلت ! أسمعنى كلمة عدى بن الرقاع فى الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، قوله :

* عرف الديارَ توهُّما فاعتادها *

فقال الفضل : يا أمير المؤمنين ، ألبستنا ثوب السهر ليلتَنا هذه لاستماع الكذب ! لم لا تأمره يُسمعك ما قالت الشعراء فيك وفى آبائك ؟ قال : ويحك ! إنه أدب وقلما يُعتاض عن مثله ؛ ولأن أسمع من ثقيف بعبارة تشغله العناية بها عمره ، أحبُّ إلىّ من أن تشافهنى به الرسوم ؛ وللممتدَح بهذا الشعر حركاتٌ

سترد عليك ، ولا تقدر أن تَصْدُر من غير انتفاع بها ؛ ولا أكون أول مسنّ طريقة ذكر لم تؤدها الرواية . قال الفضل : قد والله يا أمير المؤمنين شاركتك فى الشوْق ، وأعنتك على التَّوْق ، ثم التفت إلىّ الفضل فقال : آحدُنا ليلتك منشدا ، هذا سيدى أمير المؤمنين قد أصغى إليك مستمعا ، فمز ويحك فى عنان
٥ الإنشاد ، فهى ليلة دهرك لم تنصرف إلا غانما . قال الرشيد : أما إذ قطعت على فاحلف لتشركنى فى الجزاء ؛ فما كان لى فى هذا شيء لم تقاسمنيه . قال الفضل : قد والله يا أمير المؤمنين وطنت نفسى على ذلك متقدما فلا تجعلنّه وعيدا ، قال الرشيد : لا أجعله وعيدا . قال الأصمعى : الآن ألبس رداء التّيه على العرب كلّها ، وإنى أرى الخليفة والوزير وهما يتناظران فى المواهب لى ، فمررت فى سَنن الإنشاد
١٠ حتى بلغت إلى قوله :

تُزْجِى أَغَنَّ كأنَّ إبرةَ رَوْقِه ❊ قلمٌ أصاب من الدَّواةِ مدادَها

فاستوى جالسا ، ثم قال : أتحفظ فى هذا شيئا ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ؛ كان الفرزدق لما قال عدى :

❊ تزْجى أغَنّ كأنّ إبرةَ روْقه ❊

١٥ قلت لجرير : أىُّ شيء تراه يناسب هذا تشبيها ؟ فقال جرير :

❊ قلمٌ أصاب من آلدَّواةِ مدادَها ❊

فما رجع الجواب حتى قال عدى :

❊ قلمٌ أصابَ من آلدَّواة مدادَها ❊

فقلت لجرير : ويحك لكأن سمعَك مخبوءٌ فى فؤاده ! فقال جرير : اسكت ،
٢٠ شغلنى سَبُّك عن جيِّد الكلام !

ثم قال الرشيد : مُرَّ فى إنشادك . فمضيت حتى بلغت إلى قوله :

ولقد أراد آلله إذ ولاّكها ❊ من أُمّةٍ إصلاحَها ورشادَها

قال الفضل : كذب وما بر . قال الرشيد : ماذا صنع إذ سمع هـذا البيت ؟ قلت : ذكرَت الرواة يا أمير المؤمنين أنه قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ! قال :

مُرَّ فى إنشادك ، فضيت حتى بلغت إلى قوله :

تأتيه أسلابُ الأعزةِ عَنْوةً * عُصَباً ويَجمع للحروب عَتادَها

قال الرشيد : لقد وصفه بحزم وعزم لا يعرض بينهما وَكل ولا استدلال ؟ قال : فماذا صنع ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، ذكرت الرواة أنه قال : ما شاء الله ! قال : أحسبك واهما . قلت : يا أمير المومنين ، أنت أولى بالهداية ، فليردّنى أميرُ المؤمنين إلى الصواب . قال : إنما هذا عند قوله :

ولقد أراد اللهُ إذ ولّاكَها * من أمّةٍ إصلاحَها ورشادَها

ثم قال : والله ما قلت هذا عن سمع ، ولكننى أعلم أنّ الرجل لم يكن يخطئ فى مثل هذا . قال الأصمعى : وهو والله الصواب . ثم قال : مرّ فى إنشادك . فضيتُ حتى بلغت إلى قوله :

وعَلِمتُ حتى لا أُسائل واحداً * عن حرْفِ واحدةٍ لكى أزدادَها

قال : وكان من خبرهم ماذا ؟ قلت : ذكرت الرواة أنّ جريراً لما أنشد عدى هذا البيت ، قال : بلى والله وعشر مئين . قال عدى : وقر فى سمعك أثقل من الرصاص ؛ هذا والله يا أمير المؤمنين المديح المنتق . قال الرشيد : والله إنه لنقُّ الكلام فى مدحه وتشبيبه . قال الفضل : يا أمير المؤمنين ، لا يحسن عدى أن يقول :

شُمْسُ العداوة حتى يُستقادَ لهم * وأعظمُ الناس أحلاما إذا قدَروا

قال الرشيد : بلى قد أحسن . ثم التفت إلىّ فقال : ما حفظت له فى هذا الشعر شيئاً حين قال :

أطفأتَ نيرانَ الحروب وأوقدتْ * نارٌ قدحتَ براحتيْــــكَ زنادَها

قلت : ذكرت الرواة أنه يا أمير المؤمنين حك يميناً بشمال مقتدحا بذلك ، ثم قال : الحمد لله على هبة الإنعام . ثم قال الرشيد : رويت لذى الرُّمّة شيئا ؟ قلت : الأكثر يا أمير المؤمنين . قال : والله لا أسألك سؤال امتحان ، ولا كان

هذا عليك ، ولكننى أجعله سبباً للمذاكرة ، فإن وقع عن عرفانك ، وإلا فلا ضيقَ عليك بذلك عندى ؛ فماذا أراد بقوله :

تَمَرُّ أمرّت مَتْنَه أسَدِيَّةٌ ٭ يمانيّةٌ حلّالةٌ بالمصانع

قلت : وصف يا أمير المؤمنين حماراً وحشيًّا أسمنه بقلُ روضة تشابكت فروعه ، ثم تواشجت عروقه ، من قطر سحابة كانت فى نوء الأسد ، ثم فى الذراع منه . قال : أصبت ، أفترى القوم علموا هذا من النجوم بنظرهم ، إذ هو شىء قلما يُستخرج بغير أسباب للذين رُويتْ لهم أصوله ، أو أدّتهم إليه الأوهام والظنون ؟ فالله أعلم بذلك .

قلت : يا أمير المؤمنين ، هذا كثير فى كلامهم ، ولا أحسبه إلا عن أثر ألقىَ إليهم . قال : قلما أجد الأشياء لا تثيرها إلا الفِكرُ فى القلوب ، فإن ذهبتَ إلى أنه هبة الله . قال : ذهبتَ إلى ما أدّتهم إليه الأوهام . ثم قال : أرويت للشماخ شيئا ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين . قال : يعجبنى منه قوله :

إذا رُدّ من ثِنْي الزّمام ثنتْ له ٭ جِراناً كخُوط الخيزُران المُموّج

قلت : يا أمير المؤمنين ، هى عروسُ كلامه . قال : فأيها الحسن الآن من كلامه ؟ قلت : الرائية . وأنشدته أبياتاً منها ، قال : أمسك ؛ ثم قال : أستغفر الله ثلاثا ؛ أرح قليلا واجلس ، فقد أمتعتَ منشداً ، ووجدناك محسنا فى أدبك ، معبراً عن سرائر حفظك ، ثم التفت إلى الفضل ، فقال : لكلام هؤلاء ومن تقدم من الشعراء ، ديباج الكلام الخسروانىّ يزيد على القِدم جدّة وحُسنا ، فإذا جاءك الكلام المزيّن بالبديع ، جاءك الحرير الصينى المذهب ، يبقى على المحادثة فى أفواه الرُّواة ، فإذا كان له رونق صواب ، وعتْه الأسماع ، ولذَّ فى القلوب ، ولكن فى الأول منه ؛ ثم قال : يُعجبنى مثل قول مسلم فى أبيك وأخيك الذى افتتحه بمخاطبة حليلته مفتخراً عليها بطول السُّرَى فى اكتساب المغانم حيث قال :

أَجَدِّكِ هل تدرين أنْ رُبَّ ليلةٍ ❊ كأنّ دُجاها من قرونكِ يُنْشَرُ

صَبَرتُ لها حتى تجلّت بغُرّةٍ ❊ كغُرّة يَحْيَى حين يُذكر جعفرُ

أفرأيت ؟ ما ألطف ما جعلهما معدناً لكمال الصفات ومحاسنها ! ثم التفت إلىّ فقال : أجدُ مَلالة ، ولعل أبا العباس يكون لذلك أنشط ، وهو لنا ضيفٌ فى ليلتنا هذه ، فأقم معه مسامراً له ! ثم نهض ، فتبادر الخدم ، فأمسكوا بيده حتى نزل عن فرشه ، ثم قدمت النعلُ ، فلما وضع قدمه فيها جعَل الخادم يسوّى عقب النعل فى رجله ، فقال : ارفق ويحك ، حسْبك قد عقرتنى !

قال الفضل : لله درّ العجم ما أحكم صنعتَهم ، لوكانت سنديّة ما احتجتَ إلى هذه الكلفة ! قال : هذه نعلى ونعلُ آبائى رحمة الله عليهم ، وتلك نعلك ونعل آبائك ؛ لا تزال تعارضنى فى الشىء ولا أدعك بغير جواب يُمِضُّك ! ثم قال : يا غلام ، علىّ بصالح الخادم . فقال : يؤمَر له بتعجيل ثلاثين ألف درهم فى ليلته هذه .

قال الفضل : لو لا أنه مجلس أمير المؤمنين ولا يأمر فيه أحدٌ غيره ، لدعوت له بمثل ما أمر به أميرُ المؤمنين ، فدعا له بمثل ما أمر إلا ألفَ درهم ويصبح من غدٍ فيلقى الخازن إن شاء الله .

قال الأصمعى : فما صليت الظهر إلا وفى منزلى تسعة وخمسون ألف درهم .

لدعبل

وقال دعبل بن على الخزاعى :

يموتُ ردىء الشّعر من قبل أهله ❊ وجيّدُه يَبقى وإن مات قائله

وقال أيضا :

إنى إذا قلتُ بيتاً مات قائله ❊ ومَن يُقال له ، والبيتُ لم يَمت

باب من استعدى عليه من الشعراء

عمر بن الخطاب بين الحطيئة والزبرقان

لما هجا الحطيئة الزبرقانَ بن بدر بالشعر الذى يقول فيه :

دعِ المكارمَ لا تَرحلْ لِبُغيَتِها * واقعد فإنكَ أنت الطاعِمُ الكاسى

استعدى عليه عمرَ بن الخطاب ، وأنشده البيت ، فقال : ما أرى به بأسا !

٥ قال الزبرقان : والله يا أمير المؤمنين ، ما هُجيتُ ببيت قط أشدّ علىّ منه ! فبعث إلى حسان بن ثابت وقال : انظر إن كان هجاه . فقال : ما هجاه ، ولكن سلَح عليه ! ـ ولم يكن عمر يجهل موضع الهجاء فى هذا البيت ، ولكنه كره أن يتعرّض لشأنه ، فبعث إلى شاعر مثله ـ وأمر بالحطيئة إلى الحبس ، وقال : يا خبيث ، لأشغلنّك عن أعراض المسلمين . فكتب إليه من الحبس يقول :

١٠ ماذا تقولُ لأفراخٍ بذى مَرَخٍ * زُغْبِ الحواصلِ لا ماءٌ ولا شجر

أَلقيْتَ كاسِبَهم فى قعْر مُظلمةٍ * فاغفرْ عليك سلامُ الله يا عُمر

أنت الإمام الذى من بَعد صاحبه * أَلقتْ إليك مقاليدَ النُّهَى البَشَر

ما آثروك بها إذ قدّموك لها * لكنْ لأنفسِهم قد كانت الإِثَر

فأمر بإطلاقه وأخذ عليه ألّا يهجوَ رجلا مسلما .

عمر والنجاشى ورهط ابن مقبل

١٥ ولما هجا النجاشىُّ رهطَ تميم بن مقبل ، استعدَوْا عليه عمرَ بن الخطاب ، وقالوا : يا أمير المؤمنين ، إنه هجانا ! قال : وما قال فيكم ؟ قالوا : قال :

إذا اللهُ عادَى أهلَ لؤمٍ ورقّةٍ * فعادَى بنى عجلانَ رَهْط ابن مُقْبِلِ

قال عمر : هذا رجل دعا ؛ فإن كان مظلوما استُجيب له ، وإن لم يكن مظلوما لم يُستَجبْ له .

٢٠ قالوا : فإنه قد قال بعد هذا :

قبيلتُه لا يَغدِرونَ بذمّةٍ * ولا يَظلمونَ الناسَ حبّةَ خَرْدَلِ

قال عمر : ليت آل الخطاب مثل هؤلاء . قالوا : فإنه يقول بعد هذا :

ولا يَرِدُون الماءَ إلا عشيّةً * إذا صَدَرَ الورّاد عن كل مَنْهَلِ

قال عمر : فإن ذلك أجم لهم وأمكن . قالوا فإنه يقول بعد هذا :

وما سُمّى العجلانَ إلا لقولهم * خُذِالقعبَ واحلبْ أيُّها العبدُ واعْجل

قال عمر : سيد القوم خادمهم . فما أرى بهذا بأسا .

معاوية وأبو بردة وعقيبة

ونظير هذا قول معاوية لأبى بردة بن أبى موسى ؛ وكان دخل حماماً ٥ فزحمه رجلٌ ، فرفع الرجلُ يده فلطم بها أبا بردة فأثر فى وجهه ، فقال فيه عُقيبة الأسدى :

فلا يصرمُ اللهُ اليمينَ التى لها * بوجهكَ يابن الأشعرِين نُدوبُ

قال : فاستعدى عليه معاوية ، وقال : إنه هجانى ! قال : وما قال فيك؟ قال : فأنشده البيت ؛ قال معاوية : هذا رجل دعا ولم يقل إلا خيرا . قال : فقد قال ١٠ غير هذا . قال : وما قال ؟ فأنشده :

وأنت امْرُؤٌ فى الأشعرِين مُقابَلٌ * وفى البيتِ والبطحاءِ أنتَ غريبُ

قال معاوية : وإذا كنت مقابلا فى قومك فما عليك أن لا تكون مقابلا فى غيرهم ؟ قال : فقد قال غير هذا . قال : وما قال ؟ قال : قال

وما أنا من حُدّاث أُمِّك بالضُّحى * ولا مَن يُزكّيها بظهر مَغيبِ ١٥

قال : إنما قال : ما أنا من حداث أمك . فلو قال إنه من حُدّاثها لكان ينبغى لك أن تغضب ؛ والذى قال لى أشدُّ من هذا . قال : وما قال لك يا أمير المؤمنين؟ قال : قال :

مُعاوِىَ إننا بَشَرٌ فأسْجِحْ * فلسنا بالجبالِ ولا الحديدِ

أكلتم أرضَنا وجَذَذْتُموها * فهل من قائمٍ أو من حَصيدِ ٢٠

فهَبنا أمةً هلكت ضياعا * يزيدُ أميرُها وأبو يزيد

أتطمعُ بالخلودِ إذا هلكنا * وليسَ لنا ولا لكَ من خلودِ

ذَروا جورَ الخلافةِ واستقيموا * وتأميرَ الأراذلِ والعبيد

قال : فما منعك يا أمير المؤمنين أن تبعث إليه من يضرب عنقه ؟ قال : أفلا خير من ذلك ؟ قال : وما هو ؟ قال : نجتمع أنا وأنت فترفع أيدينا إلى السماء وندعو عليه . فما زاد على أن أزرى به .

زياد والفرزدق في قوم هجاهم

استعدى قوم زيادا على الفرزدق وزعموا أنه هجاهم ، فأرسل فيه وعرض له أن يعطيَه ، فهرب منه وأنشد :

دعانى زيادٌ للعطاء ولم أكنْ * لأقربه ما ساقَ ذو حسبٍ وفْرا

وعندَ زيادٍ لو يريدُ عطاءهُم * رجالٌ كثيرٌ قد يَرى بهمُ فقرا

فلما خشيتُ أن يكون عطاؤه * أداهمَ سودا أو مُحدْرجةً سُمرا

نهضتُ إلى عنْس تخون نِيُّها * سُرى الليلِ واستِعراضُها البلَدَ القفْرا

يؤُمُّ بها الموماة مَنْ لا ترى له * لَدَى ابن أبي سُفيانَ جاهاً ولا عُذرا

ثم لحق بسعيد بن العاص وهو والى المدينة ، فاستجار به وأنشده شعرَه الذي يقول فيه :

إليكَ فررتُ منكَ ومن زيادٍ * ولم أحسِبْ دمى لكما حلالا

فإنْ يكنِ الهجاء أحلَّ قتلِي * فقــد قُلنا لشاعِرِكم وقالا

ترى الغُرَّ السَّوابقَ من قريشٍ * إذا ما الأمرُ بالحدَثانِ عالا

قياماً ينظُرون إلى ســعيدٍ * كأنهمُ يرونَ به هِلالا

يزيد والأخطل في هجاء الأنصار

ولما وقع التهاجى بين عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن أم الحكم أرسل يزيدُ بن معاوية إلى كعب بن جعيل ، فقال له : إن عبدَ الرحمن بن حسان فضح عبد الرحمن بن الحكم فاْهجُ الأنصارى . فقال : أرادِّى أنت إلى الإشراك بعد الإيمان ؟ لا أهجو قوماً نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أدلُّك على غلام منا نصرى . فدله على الأخطل فأرسل إليه فهجا الأنصارى ، وقال فيه :

ذهَبت قريشٌ بالمكارِمِ كلِّها * واللُّؤمُ تحت عمائِمِ الأنصارِ

قومٌ إذا حضرَ العصيرُ رأيتَهم * حُمراً عيونُهُمُ من المسطارِ

وإذا نسبتَ إلى الفُريعةِ خلتَهُ * كالجحشِ بين حمارة وحمار

فدَعُوا المكارمَ لستُمُ من أهلِها * وخُذوا مساحيَكم بني النجّار

وكان مع معاوية النعمان بن بشير الأنصارى ، فلما بلغه الشعر أقبل حتى دخل على معاوية ، ثم حسر العمامة عن رأسه وقال : يامعاوية ، هل ترى من لؤم ؟ ٥
قال : ما أرى إلا كرما . قال : فما الذى يقول فينا عبد الأراقم :

ذهبت قريشٌ بالمكارمِ كلِّها * واللؤمُ تحتَ عمائمِ الأنصارِ!

قال قد حكمتك فيه . قال : والله لا رضيت إلا بقطع لسانه ، ثم قال :

مُعاوِى إلا تُعطِنا الحقَّ تعترفْ * لِحَىِ الأَزْدِ مشدوداً عليها العمائمُ

أيَشتُمُنا عبدُ الأراقمِ ضلّةً * وماذا الذى تجدى عليك الأراقم ١٠

فمالِيَ ثأرٌ دون قطع لسانِه * فدونَكَ من ترضيهِ عنكَ الدّراهِمِ

فقال معاوية : قد وهبتك لسانه . وبلغ الأخطل ، فلجأ إلى يزيد بن معاوية ، فركب يزيد إلى النعمان فاستوهبه إياه ، فوهبه له .

ومن قول عبد الرحمن بن حسان فى عبد الرحمن بن أم الحكم :

وأمّا قولُكَ الخلفاء منّا ، * فهم منَعوا وريدكَ من وِداجى ١٥

ولولاهُم لطحْتَ كحوتِ بَحْرٍ * هوى فى مُظلِمِ الغمراتِ داجِ

وهم دُعْجٌ وولْدُ أبيك زُرق * كأنَّ عيونَهم قطعُ الزُجاجِ

وقال يزيد لأبيه : إن عبد الرحمن بن حسان يشبب بابنتك رملة . قال : وما يقول فيها ؟ قال : يقول :

هىَ بيضاءُ مثلُ لؤلؤةِ الغوّا * صِ صيغَت من لؤلؤٍ مكنونِ ٢٠

قال صدق ! قال : ويقول :

وإذا ما نسبتَها لم تجِدْها * فى سَناء من المكارمِ دون

قال : صدق أيضا ! قال : ويقول :

تجعل المسكَ واليَنْجُو * جَ صِلاءً لها على الكانون

قال : وصدق . قال : فإنه يقول :

ثم خاصرتها إلى القبّةِ الخضـــراء تمشى فى مَرْمَرٍ مسنون

٥ قال كذب ! قال : ويقول :

قبة من مراجلٍ ضربوها * عند برد الشتاء فى قيطون

قال : مافى هـذا شيء . قال : تبعث إليه مَن يأتيك برأسه . قال : يابنىّ ، لو فعلت ذلك لكان أشدّ عليك ؛ لأنه يكون سبباً للخوض فى ذكره ، فيُكثر مُكْثِر ويزيد زائد ، اضرب عن هذا صفحا ، واطوِ دونه كشْحا .

يزيد وابن الرقيات فى تشبيبه بعاتكة

١٠ ومن قول عبيد الله بن قيس . المعروف بالرقيات . يشبب بعاتكة بنت يزيد ابن معاوية :

أعاتكَ يابنتَ الخلائفِ عاتكا * أنيلى فتًى أمسى بحبّكِ هالكا

تبدت وأترابا لهـــا فقتلْننى * كذلك يَقتلن الرجالَ كذلكا

يُقلّبنَ ألحاظًا لهن فواترا * ويحملن ما فوق النّعالِ السبائكا

١٥ إذا غفَلت عنّا العيونَ التى نَرى * سلكْن بنا حيثُ اشتهين المسالكا

وقلنَ لنا لو نستطيعُ لَزارَكم * طبيبانِ منا عالمانِ بدائكا

فهل من طبيبٍ بالعراقِ لعله * يُداوى سقيما هالكا مُتهالكا

فلم يعرض له يزيد ، للذى تقدم من وصاية أبيه معاوية فى رملة .

الحجاج وابن نمير فى زينب

تحدثت الرواة أن الحجاج رأى محمد بن عبد الله بن نمير الثقفى ، وكان يشبب ٢٠ بزينب بنت يوسف أخت الحجاج ، فارتاع من نظر الحجاج إليه ، فدعا به ، فلما وقف بين يديه قال :

فداكَ أبى ضاقت بىَ الأرضُ رُحبها * وإن كنت قد طوفتُ كلّ مكان

وإن كنتُ بالعَنْقاءِ أو بتُخومها * ظننتُك إلا أن يصُدّ ترانى

فقال : لا عليك ، فوالله إن قلت إلا خيراً ! إنما قلت هذا الشعر :

يُخَبِّئْن أطراف البَنان من التُّقى * ويَخرُجْن وسْطَ الليل مُعْتجرات

ولكن أخبرنى عن قولك :

ولمّا رأت رَكْبَ النُّميرىّ أعرَضت * وكُنّ من آنْ يَلقَيْنه حَذِرات ٥

فى كم كنت ؟ قال : والله إن كنت إلا على حمار هزيل ، ومعى رفيق على أتان مثله ! قال : فتبسم الحجاج ولم يعرض له .

وهذه الأبيات قالها ابن نمير فى زينب بنت يوسف :

ولم تَرَ عيْنى مثل سِرْبٍ رأيتُه * خَرَجْن من التنْعيم مُعْتمِراتِ

مَرَرْن بفجٍّ ثم رُحْن عشيةً * يُلبِّين للرحمن مُؤْتجِراتِ ١٠

تضوَّعَ مِسْكاً بَطنُ نَعمانَ إذ مَشَتْ * به زينبٌ فى نِسْوةٍ خَفِرات

ولمّا رأت رَكْبَ النُّمَيرىّ أعرضت * وكُنّ مَن آنْ يَلقَيْنه حَذِرات

دعَت نسوَةً شُمَّ العَرانين بُدّنا * نواضِرَ لا شُعْثًا ولا غَبِرات

فأدنَيْنَ لمّا قُمن يَحجُبْن دونَها * حجابا من القَسّىِّ والحِبَرات

أحلّ الذى فوق السمٰوات عرشُه * أوانِسَ بالبَطْحاء مُعْتمِرات ١٥

يُخبِّئْن أطرافَ البنان من التُّقى * ويَخرُجْن وسْطَ الليل مُعْتجِرات

هشام والفرزدق

وكان الفرزدق قد عرّض بهشام بن عبد الملك فى شعره ، والبيت الذى عرّض به فيه قوله :

يُقلِّبُ عيْنا لم تكن لخليفة * مُشوّهةً حَوْلاءَ جَمّا عيوبُها

فكتب هشام إلى خالد بن عبد الله القسرى عامله على العراق يأمره بحبسه ، ٢٠ فحبسه ، حتى دخل جرير على هشام فقال : ياأمير المؤمنين ، إنك تريد أن تبسط يدك على بادِى مُضَرَ وحاضرَها ، فأطلق لنا شاعرَها وسيدَها الفرزدق . فقال له هشام : أو مايسرك ماأخزاه الله ؟ قال : ماأريد أن يخزيه الله إلا على يدى ! فأمر بإطلاقه .

أي بيت تقوله العرب أشعر

لأبي عمرو

قيل لأبي عمرو بن العلاء: أي بيت تقوله العرب أشعر؟ قال: البيت الذي إذا سمعه سامعه سولت له نفسه أن يقول مثله، ولأن يخدش أنفه بظفر كلب أهونُ عليه من أن يقول مثله.

للأصمعي

٥ وقيل للأصمعي: أي بيت تقوله العرب أشعر؟ قال: الذي يسابق لفظه معناه.

للخليل

وقيل للخليل: أي بيت تقوله العرب أشعر؟ قال: البيت الذي يكون في أوله دليل على قافيته.

لبعضهم

وقيل لغيره: أي بيت تقوله العرب أشعر؟ قال: البيت الذي لا يحجبه عن ١٠ القلب شيء.

لزهير

وأحسن من هذا كله قول زهير:

وإنّ أحسَن بيتٍ أنت قائلُه ۝ بيتٌ يُقال إذا أنشدْتَه: صَدَقا

أحسن ما يجتلب به الشعر

للحكماء

قالت الحكماء: لم يُستدع شارد الشعر بأحسن من الماء الجاري، والمكان ١٥ الخالي، والشرف العالي.

وتأول بعضهم «الخالي» يريد الخالي بالنُّوار، يعني الرياض، وهو توجيه حسن

أبو العتاهية وابن هانئ

ولقي أبو العتاهية الحسن بن هانئ، فقال له: أنت الذي لا تقول الشعر حتى تؤتَى بالرياحين والزهور فتوضع بين يديك؟ قال: وكيف ينبغي للشعر أن يقال إلا على هكذا؟ قال: أما إني أقوله على الكنيف! قال: ولذلك توجد ٢٠ فيه الرائحة.

عبد الملك وابن سهية

وقال عبد الملك بن مروان لأرطاة بن سُهَيّة: هل تقول الآن شعراً؟ قال: ما أشربُ ولا أطرَبُ ولا أغضَب؛ فلا يقال الشعر إلا بواحدة من هذه.

الحطيئة — وقيل للحطيئة : من أشعر الناس ؟ فأخرج لسانا رقيقا كأنه لسان حية وقال : هذا إذا طمع .

لكثير — وقيل لكثيّر عَزة : لِمَ تركت الشعر ؟ قال : ذهب الشباب فما أعجب ، وماتت عزة فما أطرب ، ومات ابن ابى ليلى فما أرغب يريد عبد العزيز ابن مروان . ٥

لبعضهم — وقالوا : أشعر النـاس النابغه إذا رهب ، وزهير إذا غضب ، وجرير إذا رغب .

لعبيد — وقال عمرو بن هند لعبيد بن الأبرص ، ولقيه فى يوم بؤسه : أنشِدنى من شعرك . قال : حال الجريض دون القريض . وقد يمتنع الشعر على قائله ولا يسلس حتى يبعثه خاطر أو صوت حمامة . ١٠

للفرزدق — وقال الفرزدق : أنا أشعر الناس عند الناس ، وقد يأتى على الحين وقلع ضرس عندى أهون من قول بيت شعر

لبعض الرجاز — وقال الراجز :

إنمـا الشِّعْر بناءٌ * يَبْتنِيه المُبْتنونا

فإذا ما نَسَّـقوه * كان غثا أو سمينا ١٥

ربمـا واتاك حِينا * ثم يَستصعِبُ حينا

وأسلس ما يكون الشعر فى أول الليل قبل الكرى ، وأول النهار قبل الغذاء وعند مناجاة النفس واجتماع الفكر ، وأقوى ما يكون الشعر عندى على قدر قوة أسباب الرغبة والرهبة .

للخريمى — قيل للخُريمى : ما بال مدائحك لمحمد بن منصور أحسن من مراثيك ٢٠ قال : كنـا حينئذ نعمل على الرجاء ، ونحن اليوم نعمل على الوفاء ، وبينهما بون بعيد .

والدليل على صحة هذا المعنى وصدق هـذا القياس ، أن كثيّر عزة والكميت

ابن زيد كانا شعيَّيْن غاليين ، فى التشيُّع ، وكانت مدائحهما فى بنى أمية أشرف وأجود منها فى بنى هاشم ؛ وما لذلك علة إلا قوة أسباب الطمع .

لكثير

وقيل لكثير عزة : يا أبا صخر ، كيف تصنع إذا عسر عليك الشعر ؟ قال : أطوف فى الرباع المحيلة والرياض المعشبة ؛ فإن نفرت عنك القوافى وأعيت عليك المعانى ، فروّح قلبك ، وأجِمَّ ذهنك ؛ وارتصد لقولك فَراغ ٥ بالك وسعة ذهنك ، فإنك تجد فى تلك الساعة ما يمتنع عليك يومك الأطول وليلك الأجمع .

من رفعه المدح ووضعه الهجاء

جرير وابنه

قال بلال بن جرير : سألت أبى جريراً فقلت له : إنك لم تهج قوما قط إلا وضعتهم غير بنى لَجَأ ! قال : يا بنى إنى لم أجد شرفا فأضعه ، ١٠ ولا بناء فأهدمه .

وقد يكون الشىء مدحا فيجعله الشعر ذمًّا ، ويكون ذما فيجعله الشعر مدحا . قال حبيب الطائى فى هذا المعنى :

ولولا خِلالٌ سَنَّها الشِّعْر ما درى ٭ بُغاةُ العُلا من أين تُؤتَى المكارمُ

يُرى حكمةً ما فيه وهو فُكاهةٌ ٭ ويُقضَى بما يَقضى به وهو ظالم ١٥

ألا ترى إلى بنى عبد المدان الحارثيين كانوا يفخرون بطول أجسامهم وقديم شرفهم حتى قال فيهم حسان بن ثابت :

لا بأس بالقومِ من طول ومن غِلَظٍ ٭ جسمُ البغالِ وأحلامُ العصافير

فقالوا له : والله يا أبا الوليد لقد تركتنا ونحن نستحى من ذكر أجسامنا بعد أن كنا نفتخر بها ! فقال لهم : سأصلح منكم ما أفسدت ، فقال فيهم : ٢٠

وقد كنا نقول إذا رأينا ٭ لِذِى جسمٍ يُعَدُّ وذى بيان

كأنك أيها المُعطَى لسانا ٭ وجسما من بنى عبد المُدان

وكان بنو حنظلة بن قُريع بن عوف بن كعب يقال لهم بنو أنف الناقة يُسَبُّون

بهذا الاسم فى الجاهلية ، وسبب ذلك أنّ أباهم نحر جزوراً وقسم اللحم ، فجاء حنظلة وقد فرغ اللحم وبقى الرأس ، وكان صبيا ، فجعل يجره ؛ فقيل له : ما هذا ؟ فقال : أنف الناقة . فلقّب به ، وكانوا يغضبون منه حتى قال فيهم الحطيئة :

سِيرِى أُمامَ فإنّ الأكثرين حصًى ۞ والأكرمين إذا ما يُنسَبون أبَا ٥

قومٌ همُ الأنفُ والأذنابُ غيرهمُ ۞ ومَن يُسوّى بأنف الناقة الذّنَبا

فعاد هذا الاسم فخراً لهم وشرفا فيهم .

جرير وبنو نمير

وكان بنو نُمير أشراف قيس وذوائبها حتى قال جرير فيهم :

فغُضّ الطَّرْفَ إنكَ من نُميرٍ ۞ فلا كَعْباً بلغْتَ ولا كِلابَا

فما بقى نميرىٌّ إلا طأطأ رأسه . ١٠

لحبيب

وقال حبيب :

فسوف يَزيدكم ضَعةً هجائى ۞ كما وضع الهجاءُ بنى نميرِ

الأعشى والمحلق

وقد كان المحلّق بن حَنتَم بن شدّاد خاملا لا يُذكر ، حتى طرقه الأعشى فى فتية وليس عنده إلا ناقة ، فأتى أمّه فقال : إنّ فتية طرقونا الليلة ، فإن رأيت أن تأذنى فى نحر الناقة ! قالت : نعم يا بُنى . فنحرها واشترى لهم ببعض لحمها ١٥ شرابا ، وشوى لهم بعض لحمها ؛ فأصبح الأعشى ومن معه غادين ، فلم يشعر المحلّق حتى أتته القصيدة التى أولها :

أرِقتُ وما هذا السُّهادُ المؤرِّقُ ۞ وما بىَ من سُقْمٍ وما بى مَعشَقُ

لَعمْرى لقد لاحتْ عيونٌ كثيرةٌ ۞ إلى ضوء نارٍ فى يَفاعٍ تَحرَّق

تُشَبُّ لمقرورَيْنِ يَصطليانها ۞ وبات على النار النّدَى والمحلّق ٢٠

رَضيعَىْ لبانٍ ثَدْىِ أمٍّ تقاسَما ۞ بأسْحَمَ داجٍ عَوْضُ لا نتفرّق

ترى الجودَ يسرى سائلا فوق وجهه ۞ كما زان متنَ الهندوانىِّ رونق

فلما أتته القصيدة جعلت الأشراف تخطب إليه ، ويقول القائل :

• وبات على النار الندى والمحلق •

وقوله : « تقاسما بأسحم داج » ؛ يقول : تحالفا على الرماد ، وهذا شيء تفعله الفرس لئلا يفترقوا أبدا . والعَوْض : الدهر

٥ ما يعاب من الشعر وليس بعيب

لحماد

قال الأصمعى : سمعت حماد الراوية وأنشد رجلٌ بيتاً لحسان :

يُغشونَ حتى ما تَهِرُّ كلابُهم • لا يَسألون عن السَّوادِ المُقْبِلِ

فقال : ما يُعرف هذا إلا فى كلاب الحانات

وأنشده آخر قول الشاعر :

١٠ • لِمن منزلٌ بين المَذانِب والجُسْرُ •

فقال : ما يعرف هذا إلا دار الياسريين [1] .

بيت للفرزدق

ومما يعاب من الشعر وليس بعيب قول الفرزدق :

أيابنة عبـدِ الله وابنـةَ مالك • ويابنتَ ذى البُرْدَيْن والفَرَس الوَرْدِ

فقال من جهل المعنى ولم يعرف الخبر [لم يدرك] ما فى هذا من المدح : أن

١٥ يمدح رجلا بلباس البردين وركوب فرس ورد ؛ إنما معناه : ما قال أبو عبيدة : إن وفود العرب اجتمعت عند النعمان ، فأخرج إليهم بردَى محرّق ، وقال : ليقم أعز العرب قبيلة فليلبسهما . فقام عامر بن أحيمر بن بهدلة فاتزر بأحدهما وتردى بالآخر ، فقال له النعمان : أنت أعز العرب قبيلة ؟ قال : العز والعدد من العرب فى معدّ ، ثم فى نزار ، ثم فى مضر ، ثم فى خندف ، ثم فى تميم ،

٢٠ ثم فى سعد ، ثم فى كعب ، ثم فى عوف ، ثم فى بهدلة ؛ فمن أنكر هذا من العرب فلينافِرنى ، فسكت الناس ، فقال النعمان . هذه [حالك فى] عشيرتك

(١) كذا بالأصل : وفى أصول أخرى «الماسيذين» ، ولم نوفق لتحقيقها على الوجهين .

فكيف أنت كما تزعم فى نفسك وأهل بيتك ؟ فقال : أنا أبو عشرة ، وعم عشرة ، وخال عشرة ؛ وأمّا أنا فى نفسى فهذا شاهدى . ثم وضع قدمه فى الأرض ، وقال : من أزالها فله مائة من الإبل ! فلم يتعاطَ ذلك أحد ؛ فذهب بالبردين ؛ فسُمى ذا البردين ؛ وفيه يقول الفرزدق :

فما تمّ فى سعد ولا آل مالك * غلامٌ إذا ما سِيل لم يتبهْدَلِ ٥

لهم وَهب النعمانُ بُردى مُحرِّق * لمَجدِ معَدّ والعَديد المُحصَّل

بيت للأعشى — ومما يعاب من الشعر وليس بعيب ، قول الأعشى فى فرس النعمان ، وكان يسمى اليحموم :

ويأمُرُ لليحْموم كل عشية * بقتٍّ وتعليق فقدَ كاد يَسْنَقُ

١٠ فقالوا : ما يمدح به أحد من السوقة فضلا عن الملوك : أن يقوم بفرس ويأمر له بالعلف حتى كاد يسنق . وليس هذا معناه ؛ وإنما المعنى فيه ما قال أبو عبيدة : أن ملوك العرب بلغ من حزمها ونظرها فى العواقب أن أحدهم لا يبيت إلا وفرسه موقوف بسرجه ولجامه بين يديه قريبا منه ، مخافة عدو يفجؤه أو حالة تصعب عليه ؛ فكان للنعمان فرس يقال له اليحموم ، فيتعاهده كل ١٥ عشية ؛ وهذا مما يتمادح به العرب من القيام بالخيل وارتباطها بأفنية البيوت .

بيت لزهير — ومما عابوه وليس بعيب ، قول زهير :

قِفْ بالدِّيار التى لم يَعفُها القِدَمُ * بَلى وغيّرها الأرْياحُ والدِّيَمُ

فنَفَى ثم حقق فى معنى واحد ، فنقض فى عجز هذا البيت ما قال فى صدره ، لأنه زعم أن الديار لم يعفها القدم ، ثم إنه انتبه من مرقده فقال : بلى ، عفاها ٢٠ وغيّرها أيضا الأرياح والديم ! وليس هذا معناه الذى ذهب إليه ؛ وإنما معناه أن الديار لم تعف فى عينه ، من طريق محبته لها وشغفه بمن كان فيها .

بيت لبعض الشعراء — وقال غيره فى هذا المعنى ما هو أبْين من هذا ، وهو :

ألا ليْت المنازل قد بَلينا * فلا يَرمين عن شَزْرٍ حَزينا

فقوله : ألا ليت المنازل قد بلينا . أى . بَلِىَ ذكرها ؛ ولكنها تتجدّد على طول البلى بتجدد ذكرها .

وقال الحسن بن هانئ : فى هـذا المعنى فلخصه وأوضحه وشنّفه وقرطه حيث يقول :

٥ لِمن دِمَنٌ تَزداد طول نسيمٍ ۞ على طول ما أقْوَتْ وحسْنَ رُسومِ

تَجافَى البلى عنهن حتى كأنما ۞ لَبِسْنَ على الأقواء ثوبَ نعيم

مروان وابن يزيد

ومما عيب من الشعر وليس بعيب ، ما يروى عن مروان بن الحكم أنه قال لخالد بن يزيد بن معاوية وقد استنشده من شعره فأنشده :

فلو بَقِيَتْ خَلائف آل حرْبٍ ۞ ولم يُلْبِسْهم الدهرُ المَنـونَا

١٠ لأَصبحَ ماء أهل الأرض عذْبا ۞ وأصبح لحمُ دنيـاهم سمِينا

فقال له مروان : «منونا» ، و«سمينا» والله إنها لقافية ما اضطرك إليها إلا العجز . وهذا مما لا عجز فيه ولا عابه أحد فى قوافى الشعر ، وما أرى العيبَ فيه إلا على من رآه عيبا ، لأن الياء والواو يتعاقبان فى أشعار العرب كلّها قديمها وحديثها ؛ قال عبيد بن الأبرص :

١٥ وكلُّ ذى غيْبةٍ يَئوبُ ۞ وغائب الموت لا يئوبُ

مَن يَسأل الناس يَحرموه ۞ وسـائلُ الله لا يَخيب

ومثله من المحدثين :

أجارةَ بيْتيْنا أبوك غَيُورُ ۞ وميْسور ما يُرجَى لديْك عسيرُ

بيت لذى الرمة

ومما عيب من الشعر وليس بعيب ، قولُ ذى الرمة :

٢٠ رأيتُ الناسَ يَنتجعون غيْثاً ۞ فقلتُ لِصَيْدَحَ : انتجِعِى بِلالا

ولما أنشد هذا الشعر بلال بن أبى بردة قال : يا غلام مُرْ لصيدح بقت وعلَف ، فإنها هى انتجعتْنا . وهذا من التعنُّت الذى لا إنصاف معه ؛ لأن قوله : انتجعى بلالا ، إنما أراد نفسه ، ومثله فى كتاب الله تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَة

التي كنّا فيها والعيرَ التي أقبلنا فيها ﴾ ، وإنما أراد أهلَ القرية وأهل العير .

وكان عمر بن الخطاب يقول في بعض ما يرتجز به من شعره :

إليكَ يغْدُو قلقاً وضينُها * مخالفاً دينَ النصارى دينُها

فجعل الدين للناقة ، وإنما أراد صاحب الناقة .

ولم تزل الشعراء في أماديحها تصف النوق وزيارتها لمن تمدحه ، ولكن من ٥
طلب تعنتا وجده ، أو تجنيا على الشاعر أدركه عليه ؛ كما فعل صريع الغواني بالحسن
ابن هانئ حين لقيه ، فقال له : ما يسلم لك بيت عندي من سقطٍ ! قال : فأي بيت
أسقطت فيه ، قال : أنشدني أي بيت شئت . فأنشده :

ذكرَ الصَّبوحَ بسحرةٍ فارْتاحا * وأملَّهُ ديكُ الصَّباحِ صياحا

فقال له : قد ناقضت في قولك ؛ كيف يمله ديكُ الصباح صياحا ، وإنما ١٠
يبشره بالصبوح الذي ارتاح له ! فقال له الحسن : فأنشدني أنت من
قولك . فأنشده :

عاصَى العزاء فراحَ غيرَ مُفنَّدِ * وأقامَ بين عزيمةٍ وتجلُّدِ

قال له : قد ناقضت في قولك ؛ إنك قلت :

عاصى العزاء فراح غير مفند ١٥

ثم قلت :

وأقام بين عزيمة وتجلد

فجعلته رائحا مقيما في مقام واحد ؛ والرائح غير المقيم .

والبيتان جميعاً مؤتلفان ، ولكن من طلب عيباً وجده .

بيت المرقش

ومما عابه ابن قُتيبة وليس بعيب ، قول المرقّش الأصغر : ٢٠

صحــا قلبُهُ عنها على أنَّ ذِكرَها * إذا ذُكرتْ دارتْ به الأرضُ قائما

فقال له : كيف يصحو من كانت هذه صفته . والمعنى صحيح ، وإنما ذهب
إلى أن حاله هذه ، على ما تقدم من سوء حاله ، حالُ صحو عنده ؛ ومثل هذا في

الشعر كثير ، لأن بعض الشر أهونُ من بعض . وقال النبي صلى الله عليه وسلم في عمه أبي طالب : إنه أخف الناس عذاباً يوم القيامة ، يحذى نعلين من نار يغلى منهما دماغه ! وهذا من العذاب الشديد ، وإنما صار خفيفاً عند ما هو أشد منه ؛ فزعم المرقّش أنه عند نفسه صاح ، إذ تبدّلُ حاله أسهل مما كان فيه .

بيت لابن هانئ

٥ وقد عاب الناس قول الحسن بن هانئ :

وأخفتَ أهل الشِّرْكِ حتى إنه • لتخافكَ النُّطَفُ التي لم تخلَقِ

فقالوا : كيف تخافه النطف التي لم تخلق ؟ ومجاز هذا قريب إذا لحظ أن من خاف شيئاً خافه بجوارحه وسمعه وبصره ولحمه وروحه ؛ والنطف داخلة في هذه الجملة ؛ فهو إذا أخاف أهل الشرك أخاف النطف التي في أصلابها .

١٠ وقال الشاعر :

ألا تَرِثي لمكتئِبٍ • يُحبُّكَ لحمُهُ ودمُهْ

وقال المكفوف :

أُحبُّكُمُ حُبًّا على اللهِ أجرُه • تضَمَّنُه الأحشاء واللحْمُ والدمُ

العتابي ومنصور النمري

ولقي العتابي منصوراً النميري ، فسأله عن حاله فقال : إني لمدهوش ؛ وذلك ١٥ أني تركت امرأتي وقد عسر عليها وِلادُها . فقال له العتابي : ألا أدلك على ما يُسهّل عليها ! قال : وما هو ؟ قال : اكتُبْ على رحِمِها : « هارون » . قال : وما معناك في هذا ؟ قال : ألست القائل فيه :

إنْ أخلفَ القطرُ لم تُخلِفْ مواهبُهُ • أو ضاق أمرٌ ذكرناه فيتّسِعُ

فقال : أبالخلفاء تعرّض وفيهم تقع وإياهم تعيب ؟ فيقال إنه دخل على هارون ٢٠ فأعلمه ما كان من قول العتابي ، فكتب إلى عبد الصمد عمه يأمره بقتله . فكتب إليه عبد الصمد يشفع له ، فوهبه له .

تقبيح الحسن وتحسين القبيح

لبعضهم سئل بعض علماء الشعر : من أشعر الناس ؟ قال : الذى يصوّر الباطل فى صورة الحق ، والحقّ فى صورة الباطل ، بلطف معناه ، ودقة فطنته ، فيقبّح الحسن الذى لا أحسن منه ، ويُحسّن القبيح الذى لا أقبح منه .

للحارث فمن تحسين القبيح قول الحارث بن هشام يعتذر من فراره يوم بدر . ٥

اللهُ أعلمُ ما تركتُ قتالهم ٭ حتى رموا مُهرى بأشقرَ مزبدِ

وعلمتُ أنىَ إن أقاتلْ واحداً ٭ أُقتلْ ولا يضرر عدُوّى مشهدى

فصدفتُ عنهم والأحبّةُ فيهمُ ٭ طمعاً لهم بعقابِ يومٍ مرصدِ

وهذا الذى سمعه صاحب رُتْبيل فقال : يا معشر العرب ، حسنتم كل شىء فحُسن حتى الفرار . ١٠

لبشار ومن تقبيح الحسن قول بشار العقيلى فى سليمان بن على وكان وصل رجلا فأحسن :

يا سوأةً يُكثر الشيطانُ ما ذُكرت ٭ منها التّعجُّبَ جاءت من سُليمانا

لا تعجبَنّ لخير زلّ عن يدهِ ٭ فكوكبُ النحسِ يسقى الأرضَ أحيانا

لبعضهم وقال غيره فى تقبيح الحسن . ١٥

يقولون لى إنى بخيلٌ بنائلى ٭ وللبخلُ خيرٌ من سؤالِ بخيلِ

المتلمس وقال المتلمس فى تقبيح الحسن :

وحبس المال خيرٌ من بُغاهُ ٭ وضربٌ فى البلاد بغير زاد

وإصلاح القليل يزيد فيه ٭ ولا يبقَ الكثير مع الفساد

وقال محمود الوراق فى تحسين القبيح : ٢٠

يا عائب الفقرِ ألا تزدجر ٭ عيبُ الغِنى أكبرُ لو تعتبرْ

من شرف الفقرِ ومن فضلِه ٭ على الغِنى إن صحّ منكَ النظَر

أنكَ تعصِى كى تنالَ الغِنى ٭ ولستَ تَعصِى اللهَ كى تفتَقِرا !

جذيمة — ومن تحسين القبيح أنه قيل لجذيمة الأبرص : ماهـذا الوضح الذى بك ؟ قال : سيف الله الذى جلاه .

لابن حسان — وقال ابن حسان وكان به برص :

٥ لا تحسبَنَّ بياضا فىَّ منقصةً ٭ إنّ اللهاميم فى أقرابها بَلَقُ

للوراق — وقال محمود الورّاق يمدح الشيب :

وعائبٍ عابَنى بشيْبى ٭ لم يعْد لمـا ألَمَّ وقتَهْ

فقلتُ للعائبى بشيْبى : ٭ ياعائبَ الشيبِ لا بلغتَهْ

لبعضهم — وقال آخر :

١٠ يقولون هل بعدَ الثلاثين ملعبٌ ؟ ٭ فقلت : وهل قبلَ الثلاثين ملعبُ ؟

لقد جلّ قدرُ الشيبِ إن كان كلّما ٭ بدت شيبةٌ يعْرَى من اللهْوِ مركب

لأعرابى — وقال أعرابى فى عجوز :

أبى القلبُ إلا أمَّ عمرٍو وحُبَّها ٭ عجوزاً ومن يحْبِب عجوزاً يُفنَّدِ

كبُردِ يمـانٍ قد تقادمَ عهدُه ٭ ورُقعتُه ما شيبَ فى العينِ واليد

١٥ لبشار — وقال بشار العقيلى فى سوداء :

أشبَهك المسكُ وأشبَهْتِه ٭ قائمةً فى لونه قاعــدهْ

لا شكَّ إذ لونُكما واحدٌ ٭ أنّكما من طينةٍ واحدهْ

الاستعارة

فى معنى هذا العنوان — لم تزل الاستعارة قديما تستعمل فى المنظوم والمنثور ، وأحسن ما تكون أن

٢٠ يُستعار المنثور من المنظوم ، والمنظوم من المنثور ؛ وهذه الاستعارة خفية لا يؤبه بها لأنك قد نقلت الكلام من حال إلى حال ، وأكثر مايجتلبه الشعراء ويتصرف فيه البلغاء ، إنمـا يجرى فيه الآخر على السنن الأُول ، وأقل ما يأتى لهم معنى لم يسبق

إليه أحدا ، إما فى منظوم وإما فى منثور ؛ لأن الكلام بعضه من بعض ؛ ولذلك قالوا فى الأمثال : ماترك الأولُ للآخِرِ شيئا . ألا ترى أن كعب بن زهير ، وهو فى الرعيل الأول والصدر المتقدم ، قد قال فى شعره :

ما أرانا نقُولُ إلا مُعاراً * أو مُعاداً مِن قولِنا مَكرُوراً

للأعشى

ولكن قولهم : إن الآخر إذا أخذ من الأول المعنى فزاد فيه ما يحسّنه ويقرّبه ويوضحه فهو أولى به من الأول ، وذلك كقول الأعشى : ٥

وكأسٍ شَرِبْتُ على لذّةٍ * وأُخرَى تَداويْتُ منها بِها

لابن هانئ

فأخذ هذا المعنى الحسنُ بن هانئ فحسنه وقرّبه إذ قال :

دعْ عنك لوْمى فإنّ اللوْمَ إغراءُ * وداوِنى بالتى كانت هى الدّاءُ

وقال القطامى : ١٠

والناسُ مَن يَلْقَ خيْراً قائلون له * ما يَشتهى ، ولِأمِّ المخطِئ الهَبلُ

للمرقش

أخذه من قول المرقّش :

ومن يَلق خيْراً يحمَدِ الناسُ أمرَهُ * ومن يَغوَ لا يَعْدمْ على الغيِّ لائما

لابن الخطيم

وقال قيس بن الخطيم :

تَبدّتْ لنا كالشمْسِ تحتَ غَمامة * بدا حاجِبٌ منها وضنّتْ بحاجِبِ ١٥

لبعض المحدثين

أخذه بعض المحدثين فقال :

فشبّهْتُها بدراً بَدَا منه شقّةٌ * وقد سَتَّرتْ خدًّا فأبدتْ لنا خدًّا

وأذرتْ على الخدّين دمعاً كأنه * تناثُر دُرٍّ أو ندًى واقعَ الورْدا

وأخذه آخر فقال :

يا قمراً للنّصف من شهْرِه * أبدَى ضِياءً لثمانٍ بقِينْ ٢٠

لبشار

وأخذه بشار فقال :

صَدّتْ بخدٍّ وجَلَتْ عن خدّ * ثمّ انْثنتْ كالنَّفسِ المرْتدّ

فلم يُفسد الآخرُ قول الأول ، ولم يكن الأولُ بالمعنى أولى من الآخِر .

لابن عبد ربه

وقد قلنا فى هذا المعنى ما هو أحسن من كل ما تقدم أو مثله ، وهو قولى :

كأنَّ التى يومَ الوَداعِ تَعرَّضتْ * هلالٌ بدا مُختفياً على أنهُ تَمُّ

وأما الاستعارة إذا كانت من المنثور فى المنظوم ، ومن المنظوم فى المنثور ، فإنها أحسنُ استعارة .

الرشيد وسهل

٥ دخل سهل بن هارون على الرشيد وهو يضاحك ابنه المأمون ؛ فقال سهل : اللهم زده من الخيرات ، وآبسط له من البركات ، حتى يكون بكل يوم من أيامه مُوفيا على أمسه ، مقصراً عن غده ! فقال له الرشيد : ياسهل ، من روى من الشعر أفصحه ومن الحديث أوضحه ، إذا رام أن يقول لم يُعجزه ! قال : يا أمير المؤمنين ، ما أعلم أحدا سبقنى إلى هذا المعنى . قال : بلى سبقك أعشى

١٠ همدان ، حيث يقول :

رأيتك أمسِ خيرَ بنى مَعدٍ * وأنت اليومَ خيرٌ منكَ أمسِ

وأنتَ غداً تَزيدُ الضِّعفَ خيراً * كذاكَ تَزيدُ سادةُ عبدِ شمسِ

وقد يكون مثل هذا وما أشبهه عن موافقة .

للأصمعى

وقد سئل الأصمعى عن الشاعرين يتفقان فى المعنى الواحد ولم يسمع أحدُهما

١٥ قول صاحبه فقال : عقول الرجال توافت على ألسنتها .

اختلاف الشعراء فى المعنى الواحد

فى معنى هذا العنوان

وقد تختلف الشعراء فى المعنى الواحد ، وكل واحد منهم محسنٌ فى مذهبه جارٍ فى توجيهه ، وإن كان بعضُه أحسنَ من بعض .

للشماخ

ألا ترى أن الشماخ بن ضرار يقول فى ناقته :

٢٠ إذا بلَّغتِنِي وحَملتِ رَحْلى * عرابةَ فآشرَقى بدَمِ الوتينِ

لابن هانئ

وقال الحسن بن هانئ فى ضد هذا المعنى ما هو أحسن منه فى محمد الأمين :

فإذا المطِيُّ بنا بَلغْنَ محمَّداً * فظُهورُهُنَّ على الرجال حرامُ

وقال أيضاً :

أقول لناقتي إذ أبلغتني * لقد أصبحتِ مني باليمين

فلم أجعلكِ للغربان نحْلا * ولا قلت اشرَقي بدمِ الوَتِين

فقد عاب بعض الرواة قول الشماخ ، واحتجّ فى ذلك بقول النبى صلى الله عليه وسلم للأنصارية المأسورة التى نجت على ناقة النبى صلى الله عليه وسلم ٥ [وقالت] : إنى نذرت يارسول الله إن نجانى الله عليها أن أنحرها . قال : « بئسما جزَيتيها ! ولا نذر لأحد فى مِلك غيره » .

الفرزدق — وقد قالت الشعراء ، فلم تزل تمدح حسن الهيئة وطيب الرائحة وإسبال الثوب قال الفرزدق :

١٠ بنو دارِمٍ قومى ، ترى حُجُزاتِهم * عِتاقاً حَواشيها رِقاقاً نعالُها

يجُرُّون هُدّاب اليمان كأنهم * سُيوفٌ جلا الأطباع عنها صِقالُها

للذبيانى — وأول من سبق إلى هذا المعنى النابغة الذبيانى فى قوله :

رِقاقُ النِّعال طيِّبٌ حجزاتهم * يحيَّوْن بالرَّيحان يوم السَّباسب

لطرفة — وقال طرَفة :

١٥ ثم راحوا عَبِق المسك بهم * يلحَفون الأرض هُدّاب الأُزُرْ

لكثير — وقال كثيِّر عزة فى إسبال الذيول يمدح بنى أمية :

أشَم من الغادين فى كلِّ حُلَّةٍ * يميسون فى صِبْغٍ من العصْبِ مُتْقَن

لهم أُزُرٌ حُمْرُ الحواشى يَطَونها * بأقدامهم فى الحضْرمىِّ المُلَسَّن

وقال فيه أيضاً :

٢٠ إذا حُلَلُ العصْبِ اليمانى أجادَها * أكُفُّ أساتيذٍ على النَّسج دُرَّبِ

أتاهم بها الجابى فراحوا عليهم * تمائم من قضْفاضِهن المكعَّبِ

لها طُرَرٌ تحت البَنائق أُدنيت * إلى مُرْهَفات الحضرميِّ المعقرب

وقال آخر : — لبعضهم

معى كل فَضْفاض القميص كأنه * إذا ما سَرَت فيه المُدامُ فَنيقُ

وخالفهم فيه صريعُ الغوانى فقال : — لمسلم

لا يعبقُ الطيب خدَّيه ومَفْرِقِه * ولا يُمسِّحُ عينيه من الكُحْلِ

٥ وقال دُرَيد بن الصِّمَّة يرثى أخاه عبد الله بن الصِّمة ويصفه بتشمير الثوب : — لدريد

كَمِيشُ الإزارِ خارجٌ نصف ساقِه * بعيدٌ من السَّوْءات طَلّاعُ أَنْجُدِ

مثل قول الحجاج : — للحجاج

أنا ابن جَلا وطلّاعُ الثّنايا * متى أضعِ العمامةَ تَعرفونى

وقد يُحمل معناهم فى تشمير الثوب وسحبه واختلافهم فيه على وجهين : — لعمرو بن معديكرب

١٠ أحدهما أن يَستحسن بعضهم ما يستقبح بعض ، والوجه الثانى يشبه أن يكون لتشمير الثوب موضع ولسحبه موضع كما قال عمرو بن معديكرب :

فيوماً ترانا فى الخُزوز نَجرُّها * ويوماً ترانا فى الحديدِ عوابسا

ويوماً ترانا فى الثريدِ نَدوسُه * ويوماً ترانا نَكْسِر الكعكَ يابسا

وقال أعشى بكر لعمرو بن معديكرب : — للأعشى

١٥ وإذا تجىء كتيبةٌ مكروهةٌ * ملمومةٌ يَخشى الكماة نِزالَها

كنتُ المقدَّمَ غيرَ لابسِ جُبَّةٍ * بالسيف تضربُ مُعْلَمًا أبطالَها

وقال مسلم بن الوليد فى يزيد بن مزيد خلاف هذا كلّه ، وهو : — لمسلم بن الوليد

تراه فى الأمْن فى دِرْعٍ مُضاعفةٍ * لا يأمن الدهرَ أن يُدْعى على عَجَلِ

ولما أنشده يزيد بن مزيد قال له : ألا قلت كما قال الأعشى . فأنشده البيتين ؛

٢٠ فقال : قولى أحسن من قوله ؛ إنه وصفه بالخرق ، وأنا وصفتُك بالحزم .

وقال عبد الملك بن مروان لأُسيلم بن الأحنف الأسدى : ما أحسن شىء مُدِحت به ؟ قال : قول الشاعر : — لأسيلم فيما مدح به

أُسيْلِمُ ذاكُم لا خَفاً بمكانِه * لعينٍ تُرَجّى أو لأُذْنٍ تَسَمَّعُ

من النَّفَر الشُّم الذين إذا اعتَزوْا * وهاب رجالٌ حَلْقة الباب قَعْقَعوا
جلاَ الإذْفَر الأحْوى من المسك فَرْقَه * وطيّب دُهناً رأسَــه فهو أنزع
إذا النَّفر السُّودُ اليمانونَ حاوَلوا * له حول بُرْدَيْه أذَقُّوا وأوسَعوا

فقال عبد الملك : أحسن من هذا قول قيس بن الأسلت :

قد حصَّتِ البيْضة رأسي فما * أطعم نوْما غــير تَهجاع ٥
أسعى على جُل بنى مالك * كل امرئ فى شأنه ساعى

لبعضهم وقال بعضهم :

ســألت المحبِّين الذين تحمّلوا * تباريح هذا الحبِّ فى سالف الدهر
فقالوا : شفاء الحبِّ حُبٌ يُزيله * لأخرى، وطولُ التمادى على الهجرِ

للحمدونى وقال الحمدونى ما هو أحسن من هذا المعنى فى ضدّه ، وهو قوله : ١٠

زعَموا أنّ من تشاغل بالحــبِّ ســلا عن حبيبه وأفَاقا
كذَبوا ، ما كذَا بلوْنا ولكن * لم يكونوا فيما أرى عُشّاقا
كيف أسلو بلذة عنك واللّـذاتُ يُحدِثن لى إليك اشتياقا
كلما رُمْتُ سَلْوَةً تُذهِب الحُر * قةَ زادت قلبي عليك احتراقا

لكثير وقال كثيِّر عزّة : ١٥

أُريد لأنسى ذكرَها فكأنّما * تمثَّل لى ليْلى بكلِّ سبيل !

للمجنون وقال بعض الناس : إن كان يحبها فلماذا ينسى ذكرها ؟ ألا قال كما قال مجنون بنى عامر :

فلا خفَّف الرحمنُ ما بى من الهوى * ولا قطع الرحمن عن حبِّها قلبي
فما سرَّنى أنى خلىٌّ من الهوى * ولو أنّ لى ما بين شرق إلى غرب ٢٠

وذهب أكثرهم أن بُعد العهد يُسلى المحب عن حبيبه ، وقالوا فيه :

إذا ما شئت أن تسْلو حبيباً * فأكثِر دونَه عدد الليالى

لابن الأحنف

وقال العباس بن الأحنف :

إذا كنت لا يُسليك عمن تحبُّه ٭ تناءٍ ولا يَشفيك طولُ تلاقِ

فما أنت إلا مستعيرٌ حُشاشةً ٭ لمُهجةِ نفْسٍ آذنتْ بفِراق

لكثير

وقال كثيِّر عزة :

٥ فإن تَسْلُ عنكِ النفسُ أو تَدعِ الهوى ٭ فباليأس تسلو عنك لا بالتَّجلُّدِ

لبشار

ومثله قول بشار :

من حُبِّها أتمنى أن يُلاقيَنى ٭ من نحوِ بلدتِها ناعٍ فينعاها !

كيما أقول : فراقٌ لا لقاء له ٭ وتُضمِر النَّفس يأساً ثم تسلاها

وهذه المذاهب كلها خارجة فى معناها ، جارية فى مجراها .

لابن جندب

١٠ وقال عبد الله بن جندب :

ألا يا عباد الله ، هـذا أخوكم ٭ قتيـلا فهل منكم له اليومَ واتِرُ

خذوا بدمى إن مِتُّ كلَّ خريدةٍ ٭ مريضةِ جَفْنِ العين والطَّرْفُ ساهِرُ

لصريع الغوانى

وقال صريع الغوانى فى ضد هذا :

أدِيرا علىَّ الرَّاح لا تشربا قبْلى ٭ ولا تطلبا من عند قاتلتِى ذَحْلى

١٥ وقول عبد الله بن جُندب أحسن فى هذا المعنى ؛ لأنه إنما أراد أن يدل على موضع ثأره واسم قاتله ، ولم يُرد الطلب بالثأر ؛ ولأنه لا ثأر له .

وقد قال عبد الله بن عباس ؛ ونظر إلى رجل مدنف عِشْقاً : هذا قتيل الحبِّ . لا عقلٌ ولا قوَدٌ .

للفرزدق

وقال الفرزدق وأراد مذهب ابن جندب فلم تؤاته رقة الطبع ، فخرج إلى

٢٠ جفاء القول وقبحه فقال :

يا أخت ناجيةَ بن سامةَ إننى ٭ أخشى عليكِ بَنىَّ إن طلبوا دمى

لن يتركوكِ وقد قتلتِ أباهُمُ ٭ ولو ارتقيت إلى السماء بسُلَّمِ

لابن أخت تأبط شرا — وقال ابن أخت تأبط شرا يرثى خاله وقتلته هُذيل :

شامِسٌ فى القرّ حتى إذا ما * ذَكَت الشِّعْرَى فَبَرْدٌ وظِلّ

ظاعنٌ بالحزم حتى إذا ما * حَلّ حَلّ الحزمُ حيث يَحِلّ

لبعض الأعراب — أخذ معنى البيت الأوّل أعرابى فسهل معناه وحسن ديباجته ، فقال :

إذا نزل الشتاء فأنت شمسٌ * وإن نزل المَصيف فأنت ظلٌّ ٥

لابن هانئ — وأخذ معنى البيت الثانى الحسن بن هانئ فقال فى الخصيب :

فما جازَه جودٌ ولاحلّ دونَه * ولكنْ يصيرُ الجودُ حيث يصيرُ

لابن أبى حفصة — وقالوا فى الخيال فحيَّوه ورحّبوا به . فمن ذلك قول مروان بن أبى حفصة :

* طرَقتْك زائرةً فحَىِّ خيالَها *

وقال : ١٠

* طرَق الخيالُ فحيِّه بسلامِ *

وعلى هذا بُنيت أشعارهم ؛ وخالفهم جرير فطرد الخيال ، فقال :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا * وقت الزيارة فارجعى بسلامِ

الطرفة — وأوّل من طرد الخيال طرفة فقال :

فقُل لخيــالِ الحنظليّة ينقلبْ * إليها ، فإنى واصلٌ حبلَ مَن وَصلْ ١٥

الراعى — وأعجب من هذا قول الراعى الذى هجا الخيال فقال :

طاف الخيالُ بأصحابى فقلتُ لهم * أأُمُّ شَــذْرة زارتْنى أمِ الغُولُ

لا مرحباً بابنةِ الأقيالِ إذ طرَقتْ * كأنّ مَحجَرَها بالقار مكْحول

امرؤ القيس — وقد يختلف معنى الشاعر أيضاً فى شعر واحد بقوله ، ألا ترى أنّ امرأ القيس

قال فى شعره : ٢٠

وإن تكُ قد ساءتْكِ منى خَليقة * فسُلِّى ثيابى من ثيابكِ تَنْسُلِ

فوصف نفسه بالصبر والجلد والقوّة على التهالك ، ثم أدركته الرقة والاشتياق

فى البيت الذى بعده :

أغرّكِ منى أنّ حبّكِ قاتلى * وأنكِ مهما تأمُرى القلبَ يفعل

مستدركا قوله فى البيت الأول :

* فسُلّى ثيابى من ثيابكِ تنسَلِ *

٥ ولم يزل مَن تقدم من الشعراء وغيرهم مجمعين على ذمّ الغراب والتشاؤم به ، لأبى الشيص
وكان اسمه مشتقا من الغُربة ، فسموه غرابَ البين ، وزعموا أنه إذا صاح
فى الديار أقْوَتْ من أهلها ؛ وخالفهم أبو الشّيص فقال ما هو أحسن من هذا
وأصدق من ذلك كله ، قوله :

ما فرّق الأحبابَ بعْ * ـد اللهِ إلا الإبـــلُ

١٠ والناسُ يَلْحَون غرا * بَ البيْن لمّا جَهلوا

وما إذا صاحَ غرا * بٌ فى الديار آحتَملوا

وما على ظهْـــر غرا * ب البيْن تُطوى الرّحل

وما غـرابُ البيْن إ لّا ناقــة أو جمَــل

وقال آخر فى هذا المعنى وذكر الإبل : لبعضهم

١٥ لعَنَ الوَجَى إذ كنّ عوْناً على النّوَى * ولا زال منهـا ظالع وكسيرُ

وما الشؤْمُ فى نَعْب الغراب ونَعْته * وما الشـــؤْمُ إلا ناقة وبعـــير

ومن قولنا فى هذا المعنى : لابن عبد ربه

نَعَبَ الغرابُ فقلتُ أكذبُ طائرٍ * إن لم يُصدّقه رُغاء بعـــيرِ

رِدُّ الجمالِ هو المحقّق للنّــوَى * بل شرُّ أحلاسٍ لهنّ وكور

٢٠ وقد يأتى من الشعر ما هو خارج عن طبقة الشعراء ، منفرد فى غرائبه
وبديع صنعته ولطيف تشبيهه ، كقول جعفر بن جدار كاتب ابن طولون :

كم بين بارى وبين بمّا * وبين بَوْنٍ إلى دِمّا

مَن رَشاٍ أبيض التراقى ॰ أغيدَ ذى غُنّةٍ أحَمّا
وطَفلةٍ رخصةِ المَراقِى ॰ ليستْ تحلّى ولا تُسمّى
إلا وسِلكٌ من اللآلى ॰ يُعجِز مَن يُخرِج المُعمّى
صُغرَى وكبرَى إلى ثلاثٍ ॰ مثل التّعاليل أو أتَمّا
وكم بيَمٍّ وأرض بَمٍّ ॰ وكم بِرَمٍّ وأرض رمّا
من طَفلةٍ بَضّةٍ لَعوبٍ ॰ تلْقاك بالحُسنِ مُستَتِمّا
منهن رَيّا وكيف ريّا ॰ ريّا إذا لاقت المَشَمّا
لو شمّها طائرٌ بجوّ ॰ لَخرّ فى الترب أو لهَمّا
تَسحَبُ ثوبين من خَلوق ॰ قد أفنَيا زعفران قُمّا
كأنما جُلّيا عليها ॰ من طِيبِ ما باشَرا وشَمّا
فألفَيا زَعفرانَ قُمٍّ ॰ فانغمَسا فيه واستحَمّا
فهى نَظير اسمِها المُعَلّى ॰ يَفوحُ لا مِرْطُها المُذَمّا
هيْهات يا أختَ أهل بمٍّ ॰ غَلِطتُ فى الاسم والمُسمّى
لو كان هذا وقيل سمٌّ ॰ مات إذاً مَن يقول سَمّا
قد قلتُ إذ أقبلتْ تَهادَى ॰ كطلْعة البدر أو أتَمّا
تُومِى بأُسْروعة وتُخفى ॰ بالبُرْد مثل القداح خُمّا
لو كنتُ ممّن لكنت ممّا ॰ لكنّنى قد كبِرتُ عمّا ...
عاتبَنى الدهرُ فى عِذارى ॰ بأحرُفٍ فارعوَيتُ لمّا
قوّس ما كان مستقيمًا ॰ وابيضَّ ما كان مُدْلَهِمّا
وكيف تَصبو الدُّمى إلى مَن ॰ كان أخًا ثم صار عمّا
لى عنكِ يا أختَ أهلِ بَمٍّ ॰ شُغْلٌ بما قد دنَا مُهِمّا
فلستُ من وجهكَ المفدّى ॰ ولستُ من قدّكَ المُحمّى

أذهلَنى عنكَ خوفُ يومٍ * يحيا له كلُّ من أَلمّا
ما كسبتْه يداىَ وهْماً * خيراً وشرًّا أصبتُ ثمّا
تُحشَر فيه الجِنان زُلْفًا * وتُحشَر النارُ فيه زَمّا
تقولُ هذِى لطالبِيها * هَيْتَ وهذِى لهم هَلُمّا
نفسىَ أوْلى بأن أذُمّا * من أمرِها كلَّ ما آستَذمّا ٥
يا نفسُ كم تخدَعين عما * بلُبس داجٍ وأكل لَمّا
رعيتِ من ذى الحطام مَرْعَى * جمعتِ أكلاً له وذمّا
ويحكِ فاستيقِظى ليومٍ * يحيا له كلُّ من أَرَمّا
ألم ترىْ يونسَ بن عبدِاللّٰه * أعلى غدًا صامتاً فصُما
فى حُفرةٍ ما يُحيرُ حرْفا * قد دُكَّ من فوقِها وطُما ١٠
والمُزَنِىّ الذى إليــه * نَعشُو إذا دهْرنا آدلَهما
أخفَى فؤادى له عزائى * لكنْ زفيرى عليه نَمّا
كأنما خوفًا مخافا * أو حــذرا غاشماً فصُما
أقبل سهمٌ من الرزايا * فخَصَّ أعلامَنا وعمّا
دَكدَكَ منا ذُرا جبال * شامخةٍ فى السماء شُما ١٥
وخَصّنا دونَ مَن عليها * وزاد هما بنا وغَما
قد قرُب الموتُ يابنَ أُمّا * فبادِرِ الموتَ يابن أُمّا
وآعلم بأنْ مَن عَصاكَ جهلا * من التُّقى لم يُطِعكَ هِما
هو الهُدَى والرّدَى فإمّا * أتيتَ آتى الرّدى وإمّا
هأنذا فاعتــبِر بحــالى * فى طَبَق مُوصدٍ مُعَمّى ٢٠
قد أسكنتْنى الذنوبُ بيتاً * يخــالُه الإلفُ مُستحَمّا
فهل إلى توبة ســبيلٌ * تكون فيها الهموم هَمّا

فتشكر اللهَ لا ســـواهُ ۞ لعلَّ نعماه أن تتمّا
يا نفسُ جدّى ولا تميلى ۞ فأفضـــلُ البرِّ ما آستتما
أو ابحثى عن فُلِ ابن فُلٍّ ۞ تَرَيْه تحت التراب رمّا
لبئس عبدٌ يروح بغياً ۞ مع المساوى تراه دَوْما
فى غمرة العيش لا يبالى ۞ أحمَدَهُ الجـــار أم أذمّا
كم بين هـــذا وبين عبدٍ ۞ يغدو خميصَ الحشى هضما
يقطع آناءه صـــلاة ۞ ودهره بالصلاح صوما
إن بهذا الـكلامِ نُصْحاً ۞ إن لم يوافِ القلوبَ صُما
يا ربِّ لى ألفُ ألفِ ذنبٍ ۞ إن تعفُ يا ربِّ فاعف جمّا
فأبرِد بعفوٍ غليلَ قلبٍ ۞ كأنّ فيه رسيسَ حُمّى

وقال الغزّال :

لعمرىَ ما ملّكتُ مِقْودِىَ الصّبا ۞ فأمطُوَ للذاتِ فى السهل والوعرِ
ولا أنا ممن يؤثر اللهو قلبُه ۞ فأُمسىَ فى سُكر وأصبح فى سكر
ولا قارعٌ باب اليهودىِّ مَوْهِناً ۞ وقد هجع النُّوّام من شهوة الخمر
وأوثقهُ الشيطان حتى أصارهُ ۞ من الغىِّ فى بحر أضل من البحر
أُغذُّ السّرى فيها إذا الشَّرب أنكروا ۞ ورهنى عند العِلج ثوبى من الفجر
كأنّىَ لم أسمع كتاب محمد ۞ وما جاء فى التنزيل فيه من الزجر
كمانىَ من كل الذى أعجبوا به ۞ قُلَيْلَةُ ماءٍ تستقى لى من النهر
فمنها شرابى إن عطشت وكل ما ۞ يُريد عيالى للعجين وللقِدر
بخبز وبَقل ليس لحماً وإننى ۞ عليه كثير الحمد لله والشكر
فيا صاحبَ اللُّحيان والخمر هل ترى ۞ بوجهى إذا عاينتَ وجهى من ضُرّ
وبالله لو عُمّرتُ تسعين حجةً ۞ إلى مثلها ما اشتقت فيها إلى خمر

ولا طربتْ نفسى إلى مزهر ولا * تحنَّنَ قلبى نحو عود ولا زَمْر
وقد حدثونى أن فيها مرارةً * وما حاجة الإنسان فى الشرب للمرّ
أخى عُدَّ ما قاسيته وتقلبت * عليك به الدنيا من الخير والشر
فهل لك فى الدنيا سوى الساعة التى * تكون بها السراء أو حاضرُ الضر
٥ فما ساق منها لا يُحس ولا يُرى * وما لم يكن منها عَمِىٌّ عن الفكر
فطوبى لعبدٍ أخرج الله روحَه * إليه من الدنيا على عمل البر
ولكننى حُدّثت أنّ نفوسهم * هنالك فى جاه جليل وفى قَدر
وأجسادهم لا يأكل التُّرب لحمها * هنالك لا تبلى إلى آخر الدهر

وقال أيضا :

١٠ كتبت وشوقٌ لا يفارق مُهجتى * ووجدى بكم مستحكم وتذكرى
بقرطبـــةٍ قلبى وجسمى ببلدة * نأيت بها عن أهل ودّى ومعشرى
سقى الله من مزن السحائب ثرّةً * دياركم اللاتى حوت كل جُؤذر
بحق الهوى أقر السلام على التى * أهيم بها عشقا إلى يوم محشرى
لئن غبت عنها فالهوى غير غائب * مقيم بقلب الهـــائم المتفطر
١٥ كأن لم أبت فى ثوبها طول ليلة * إلى أن بدا وجه الصباح المنوّرِ
وعانقت غُصناً فيه رمّان فضّة * وقبلتُ ثغراً ريقه ريق سُكر
أأنسى ولا أنسى عناقك خالياً * وضمّى ونقلى نظم دُرّ وجوهر
فواحزنى أن فرّق الدهر بيننا * وكدّر وصلا منك غيرَ مكدّرِ
لقد غرّرت نفسى بحبك ضلةً * ولو علمت عُقبى الهوى لم تغرّر
٢٠ بكيت فما أغنى البكا عند صحبتى * وشوقى إلى رئم من الإنس أحور
سلام سلام ألف ألف يكرر * ويا حاملا عنى الرسالة كرِّر
ألا يانسيم الريح بلِّغ ســـلامنا * وصفْ كلَّ ما يلقى الغريب وخبِّر

وقل لشعاع الشمس بلّغ تحيتى * تحيّتك واقرأها على آل جعفر

وقال أيضا :

أقر السلام على إلف كَلِفتُ به * قد رُمتُ صبراً وطولُ الشوق لم يرم
ظبىٌ تباعدَ عن قربى وعن نظرى * فالنفسُ والهمُّ من شدة الألم
كنا كرُوحين فى جسم غذاؤهما * ماء المحبة من هامٍ ومنسجم ٥
إلفين هذا بهذا مغرم كَلِفٌ * لا واحدٌ فى الهوى منا بمتّهم
لله تلك الليالى والسرور بها * كأنما أبصرتها العين فى الحلم
ففرق الدهر شملا كان ملتئما * منا وجمّع شملا غير ملتئم
ما زلت أرعى نجوم الليل طالعةً * أرجو السلوّ بها إذ غِبتُ عن نجمى
نجم من الحسن ما يجرى به فلك * كأنه الدر والياقوت فى النظم ١٠
ذاك الذى حاز حُسنا لا نظير له * كالبدر نوراً علا فى منزل النعم
وقد تناظر والبِرْجِيس فى شرفٍ * وقارن الزُهرةَ البيضاء فى تَوم
فذاك يُشبهه فى حُسن صورته * وذا يزيد بخط الشعر والقلم
أشكو إلى الله ما ألقى لفُرقته * شكوى محبٍ سقيمٍ حافظ الذمم
لو كنت أشكو إلى صمّ الهضاب إذاً * تفطرتْ للذى أبديه من ألم ١٥
يا غادراً لم يزل بالغدر مُرتديا * أين الوفاء أبِنْ لى غير محتشم
إن غاب جسمُك عن عينى وعن نظرى * فما يغيب عن الأسرار والوهم
إنى سأبكيك ما ناحت مُطوّقة * تبكى ألِيفا على فرع من النَّشم

ما يجوز فى الشعر مما لا يجوز فى الكلام

لأبى حاتم قال أبو حاتم : أبيح للشاعر ما لم يُبحْ للمتكلم ، من قصر الممدود ، ومدّ ٢٠
المقصور ، وتحريك الساكن ، وتسكين المتحرك ، وصرف ما لا ينصرف ، وحذف

الكلمة مالم تلتبس بأخرى ، كقولهم : فل ، من فلان ؛ وحَم ، من حمام .

لبعض الشعراء

قال الشاعر :

وجاءتْ حوادثُ من مِثلِها * يقال لمِثْلِك : وَيْهــاً فُلُ

لمسلم

وقال مسلم بن الوليد :

٥ سلِ الناسَ إنى سائلُ الله وحدهُ * وصائنُ وجْهى عن فلانٍ وعن فل

لبعضهم

وقال آخر :

* دُعاء حماماتٍ تُجاوبُها حَم *

ومن المحذوف أيضا قول الشاعر :

لهــا أشاريرُ من لحمٍ تُتمّره * من الثّعالى ووخْزٌ من أرانيها

١٠ يريد « من الثعالب » . ومثله قول الشاعر :

* ولضَفادى جمّه نقانقُ *

يريد « الضفادع »

لكعب

ومن المحذوف قول كعب بن زهير :

ويْلُمها خلّةً لو أنهــا صدقَتْ * فى وعدها أولو أنّ النُّصح مقبولُ

١٥ يريد : ويل لأمها . ومنه قولهم : لاهِ أبوك ، يريدون : لله أبوك . وقال الشاعر :

لاهِ ابنُ عمّــكَ لا يخا * فُ المبدِياتِ من العواقِبْ

لزهير

وكذلك الزيادة أيضا إذا احتاجوا إليها فى الشعر ، فن ذلك قول زهير :

ثم استمرُّوا وقالوا إنّ موعِدَكم * ماءٌ بشرقىّ سلمى فَيْدُ أوْ رَكَكُ

قال الأصمعى : سألت نجيبات فيد عن ركك فقيل : ماء هاهنا يسمى رَكّا ؛

٢٠ فعلمت أن زهيرا احتاج فضعّف .

للقطامى

ومنه قول القطامى :

وقولُ المرء ينْفذ بعد حينٍ * مواضع ليس ينْفذها الإبارُ

ومثله قولهم : كلكال ، من كلكل . ونظير هذا كثير فى الشعر لمن تتبعه .

وأما قصرهم الممدودَ فجائز فى أشعارهم ، ومدّ المقصور عندهم قبيح .

لحسان — وقد يُستجاد فى الشعر على قبحه ، مثل قول حسان بن ثابت :

قَفاؤُكَ أَحْسَنُ من وَجْهِه * وأُمُّكَ خيرٌ من المُنْذِرِ

لبعضهم — وأنشد أبو عبيدة : ٥

يالَكَ من تَمْرٍ ومن شِيشَاءِ * يَنْشَبُ فى الحلْقِ وفى اللَّهاءِ

فمدّ اللها ، وهو جمع لهاة . كما قالوا : قطاة وقطاً ، ونواة ونوًى .

لبيد — وأما تحريك الساكن وتسكين المتحرك ، فمن ذلك قول لبيد بن ربيعة :

تَرّاكُ أَمكِنَةٍ إذا لم أرضَها * أو يرتَبِطْ بعضَ النُّفوسِ حِمامُها

لامرئ القيس — ومثله قول امرئ القيس : ١٠

فاليومَ أشرَبْ غيرَ مُستحقِبٍ * إثماً من اللهِ ولا واغِلِ

لأمية — وقال أمية بن أبى الصلت :

تأبَى فما تطلُعْ لهم فى وقتِها * إلا مُعَذَّبةً وإلا تُجْلَدُ

ومن قولهم فى تحريك الساكن :

اِضْرِبَ عنكَ الهُمومَ طارقَها * ضَرْبَكَ بالسَّوْطِ قونَسَ الفرَسِ ١٥

لابن مرداس — وأما صرف مالا ينصرف عندهم فكثير ، والقبيح عندهم أن لا يُصرف المنصرف ، وقد يستجاد فى الشعر على قبحه ؛ قال عباس بن مرداس :

وما كان بدرٌ ولا حابِسٌ * يفُوقانِ مِرْداسَ فى المَجمَعِ

ومن قولهم فى تسكين المتحرك وقد استشهد به سيبويه فى كتابه :

عجِبَ الناسُ وقالوا * شِعرُ وضّاحِ اليمانى ٢٠

إنما شِعرِىَ قَنْدٌ * قد خُلِطْ بجُلْجُلانِ

ولو حرّكها فقال : خلط ، اجتمع خمس حركات .

باب ما أدرك على الشعراء

امرىء القيس

قال أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة : أدركتِ العلماء بالشعر على امرئ القيس قوله :

أغرّكِ منّى أنّ حُبّكِ قاتِلى ۞ وأنكِ مَهما تأمُرِى القلبَ يَفعَلِ

٥ وقالوا : إذا لم يغرّ هذا فما الذى يغر ؟ ومعناه فى هذا البيت يناقض البيت الذى قبله حيث يقول :

وإن كنت قد ساءتْكِ منى خَليقةٌ ۞ فَسُلّى ثِيابِى من ثيابِكِ تَنسَلِ

لأنه آدعى فى هذا البيت فضلا للتجلد وقوة الصبر بقوله :

۞ فسُلّى ثيابى من ثيابك تنسَلِ ۞

١٠ وزعم فى البيت الثانى أنه لا تحمُّل فيه للصبر ولا قوة على التمالك بقوله :

۞ وأنكِ مهما تأمرِى القلبَ يَفعلِ ۞

وأقبحُ من هذا عندى قولُه :

فظلّ العَذارَى يَرتمِين بلَحمِها ۞ وشَحمٍ كهُداب الدِّمقْس المفتلِ

زهير

ومما أدرك على زهير قوله فى الضفادع :

١٥ يَخرُجنَ من شَرَباتٍ ماؤها طَحِلٌ ۞ على الجُذُوعِ يَخفْن الغمّ والغرَقا

وقالوا : ليس خروج الضفادع من الماء مخافة الغم والغرق ، وإنما ذلك لأنهن يبتن فى الشطوط .

ومما أُدرك على النابغة قوله يصف الثور :

يَحيدُ عن أسْتَنٍ سودٍ أسافلُه ۞ مثلَ الإماءِ الغوادى تحمِلُ الحُزَما

٢٠ قال الأصمعى : إنما توصف الإماء فى مثل هذا الموضع بالرواح لا بالغدوّ ؛ لأنهن يجئن بالحطب إذا رُحن . قال الأخنس التغلبى :

تظَل بها رابدُ النَّعامِ كأنها ۞ إماءٌ يَرُحن بالعشِىّ حواطبُ

وأخذ عليه فى وصف السيف قوله :

يَقُدُّ السَّلوقِيَّ المضاعَف نسجُه * ويوقِد بالصُّفَّاح نار الحباحِبِ

فزعم أنه يقد الدرع المضاعفة ، والفارس ، والفرس ، ثم يقع فى الأرض فيقدح النار من الحجارة ؛ وهذا من الإفراط القبيح . وأقبح عندى من هذا فى وصف المرأة قوله : ٥

ليست منَ السُّود أعقاباً إذا انصرفتْ * ولا تبيــعُ بأعلى مــكةَ البُرَما

ومما أُخذ عليه قوله :

خطاطيف حُجْنٌ فى حِبالٍ متينةٍ * تُمَدُّ بها أيدٍ إليك نوازعُ

فشبه نفسه بالدّلو ، وشبه النعمان بخطاطيف حجن ، يريد خطاطيف معوجة تمدّ بها الدلو . وكان الأصمعى يكثر التعجب من قوله : ١٠

وعيّرتنى بنو ذُبيانَ خَشيتَه * وهل علىّ بأن أخشاك من عارِ

المتلمس ومما أدرك على المتلمّس قوله :

وقد أتناسَى الهمَّ عند احتضارِه * بناجٍ عليه الصَّيْعرية مُكْدَم

والصيعرية : سمة النوق ، فجعلها صفة للفحل ؛ وسمعه طرفة وهو صبى ينشد هذا البيت ، فقال : استنْوَق الجمل ! نضحك الناس ، وصارت مثلا . ١٥

أُخذ عليه أيضاً قوله :

أحارثُ إنا لو تُساط دماؤنا * تزايلْن حتى لا يمَسَّ دمٌ دما

وهذا من الكذب المحال .

طرفة ومما أدرك على طرفة قوله :

أســـدُ غِيلٍ فإذا ماشربوا * وَهَبُوا كل أَمونٍ وطِمِرْ ٢٠

ثم راحوا عَبِقَ المسك بهم * يَلحَفون الأرضَ هُدّابَ الأُزُرْ

فذكر أنهم يُعطون إذا سكروا ، ولم يشترط لهم ذلك إذا صحوا كما

قال عنترة:

وإذا شربتُ فإننى مُستهلكٌ * مالى، وعِرْضى وافرٌ لم يُكْلَم
وإذا صحوتُ فما أُقصّر عن نَدًى * وكما علمتِ شمائلى وتكرُّمى

عدى

وممـا أُدرك على عدى بن زيد قوله فى صفة الفرس:

٥ فصافَ يُفرّى جُلَّه عن سَراتِه * يبُـــذُّ الجيادَ فارهاً مُتتابعاً

ولا يقال للفرس فاره، وإنمـا يقال له جواد وعتيق، ويقال للبِرْذَوْن والبغل والحمار: فاره.

وممـا أُدرك عليه وصفه الخمر بالخضرة، ولا يعلم أحد وصفها بذلك؛ فقال:

والمُشرف الهندىُّ يسقى به * أخضرَ مطموثاً بماءِ الخَريص

الأعشى

١٠ وممـا أدرك على أعشى بكر قوله:

وقد غَدوتُ إلى الحانوت يتبعُنى * شاوٍ مِشَلٌّ شَلولٌ شُلْشُلٌ شوِلُ

وهذه الألفاظ الأربعة فى معنى واحد.

لبيد

وممـا أدرك على لبيد قوله:

ومَقـــام ضيِّق فرّجْتُه * بمقامى ولسـانى وجـدَلْ
١٥ لو يقوم الفيل أو فيّالُه * زَلَّ عن مثل مَقامى وزَحلْ

فظن أن الفيّال أقوى الناس، كما أن الفيل أقوى البهائم.

عمرو بن أحمر

وممـا أُدرك على عمرو بن أحمر الباهلى قوله يصف المرأة:

لم تَدْرِ ما نَسْجُ اليَرَنْدجِ قبلَها * ودِراسُ أعوَصَ دارسٍ متجدِّدِ

اليرندج: جلود سود. فظن أنه شىء يُنسج، ودراس أعوص: يريد أنها
٢٠ لم تُدارس الناس عويص الكلام الذى يخفى أحيانا ويتبين أحيـانا. وقد أتى ابن أحمر فى شعره بأربعة ألفاظ لم تعرف فى كلام العرب: منها أنه سمى النار ماموسة، ولا يعرف ذلك، قال:

* كما تطايحَ عن مامُوسةَ الشّرَرُ *

وسمى حُوار الناقة بابوساً ، ولا يعرف ذلك ، فقال :

حنّتْ قلُوصى إلى بابوسها جزَعاً * فما حنينُك أمّا أنت والذكر

وفى بيت آخر يذكر فيه البقرة :

* ... وبَنّس عنها فرْقدُ خَصِر *

أى تأخر ، ولا يُعرف التبنس ، وقال : ٥

* وتقنّعَ الحِرْباء أُرْنَته *

يريد ماأُلفّ على الرأس ، ولا تعرف الأُرنة إلا فى شعره .

نصيب — ومما أدرك على نُصيب بن رباح قوله :

أهِيم بِدَعْدٍ ما حَيِيت فإن أمت * فواكَبدى من ذا يَهيم بها بَعدى

تلهف على من يهيم بها بعده . ١٠

الراعى — ومما أُدرك على الراعى قوله فى المرأة :

تكْسو المفارقَ واللّبّات ذا أَرَجٍ * من قُصْبِ مُعْتلِفِ الكافور دَرّاجِ

أراد المسك ، لجمله من قصب ، والقصب : المِعَى لجعل المسك من قصب دابة تعتلف الكافور فيتولد عنها المسك .

جرير — ومما أدرك على جرير قوله فى بنى القَدَوْكَس رهط الأخطل : ١٥

هذا ابن عمى فى دمشقٍ خليفةً * لو شئتُ ساقكمُ إلىّ قطينا

القطين فى هذا الموضع : العبيد والإماء . وقيل له : أبا حَزرة ، ماوجدت فى تميم شيئاً تفخر به عليهم حتى فخرت بالخلافة ؟ لا والله ما صنعت فى هجائهم شيئاً .

الفرزدق — ومما أدرك على الفرزدق قوله : ٢٠

وعض زمانٌ يابن مَرْوان لم يَدَعْ * من المال إلا مُسْحتاً أو مُجلّفُ

وقد أكثر النحويون الاحتيال لهذا البيت ولم يأتوا فيه بشىء يُرضى .

ومثل ذلك قوله :

غَداةَ أحلَّت لابن أصرمَ طَعْنةٌ * حُصينٍ عبيطاتِ السدائفِ والخمر

وكان حصين بن أصرم قد حلف ألا يأكل لحما ولا يشرب خمرا حتى يدرك ثأره ؛ فأدركه فى هذا اليوم الذى ذكره ؛ فقال : عبيطات السدائف . فنصب « عبيطات السدائف » ورفع « الخمر » ، وإنما هى معطوفة عليها وكان وجهها النصب ، فكأنه أراد : وأحلَّت له الخمر .

٥

ومما أدرك على الأخطل قوله فى عبد الملك بن مروان : الأخطل

وقد جَعَل الله الخلافة منهم * لأبيَض لاعارِى الخِوانِ ولا جَدْبِ

وهذا مما لا يُمدح به خليفة .

١٠ وأُخذ عليه قوله فى رجل من بنى أسد يمدحه ، وكان يعرف بالقَين ولم يكن قينا ، فقال فيه :

نعمَ المجير سماكٌ من بنى أسدٍ * بالمرْج إذ قتلت جيرانَها مُضَرُ

قد كنتُ أحسبُه قَيناً وأُنبِؤه * فالآن طيِّر عن أثوابِه الشَّرر

وهذا مدح كالهجاء .

١٥ ومما أُدرك على ذى الرُّمة : ذى الرمة

تُصْغى إذا شدَّها بالكور جارحةً * حتى إذا ما استوى فى غَرْزها تَثِبُ

وسمعه أعرابى ينشده فقال : صرع والله الرجل ! ألا قلت كما قال عمك الراعى :

وواضعةٍ خَدَّها للزِّما * م فالخدُّ منها له أصْعَر

فلا تَعْجِل المرءَ قبل الرُّكو * ب وهى بِرُكْبتِه أبصرُ

٢٠ وهى إذا قام فى غرْزِها * كمثْلِ السفينةِ أو أوْقر

ومما أدرك عليه أيضا قوله :

حتى إذا دوَّمَت فى الأرض راجعَه * كِبرٌ ولو شاد نَجَّى نفسَه الهربُ

قالوا : التدويم إنمـا يكون فى الجوّ ، يقال : دوم الطائر فى السماء ، إذا حلق واستدار ؛ ودوّى فى الأرض ، إذا استدار فيها .

أبو الطمحان

وممـا أدرك على أبى الطُّمحان القينى قوله :

لمّا تحمّلت الحمولُ حسبتُها • دوْمًا بأيلةَ ناعماً مَكموما

الدوم : شجر المُقل ، وهو لا يُكمّ ، وإنمـا يكم النخل . ٥

العجاج

وممـا أخذ على العجاج قوله :

كأنّ عينيه من الغُئور • قَلْتانِ أوحَوْجَلتا قارُور

صَيّرتا بالنّضْح والتصْيير • صلاصلَ الزيت إلى الشُّطور

الحوجلتان : القارورتان ، جعل الزجاج ينضح ويرشح .

رؤبة

وممـا أدرك على رؤبة قوله : ١٠

كنتم كمن أدخل فى جُحْرٍ يدا • فأخطأ الأفعى ولاقى الأسْودا

جعل الأفعى دون الأسود ، وهى فوقه فى المضرّة . وأخذ عليه فى قوله فى وصف الظليم :

وكلُّ زَجّاء سُخام الخَمْلِ • تَبرِى له فى زَعِلات خُطْل

فجعل للظليم عدة إناث ، كما يكون للحمار ؛ وليس للظليم إلا أنثى واحدة . ١٥

وأخذ عليه قوله يصف الراعى :

• لا يَلتوى من عاطسٍ ولا نَغَقْ •

إنمـا هو النغيق والنُّغاق وإنما يصف الرامى ؛ وأدرك عليه قوله :

أقفرتِ الوعْثاء والعَثاعثُ • من أهلها والبُرْقُ البَرارثُ

إنمـا هى البِراث جمع بَرث ، وهى الأرض اللينة . وأدرك عليه قوله : ٢٠

• يا ليتنا والدهرَ جرْىُ السُّمّه •

إنمـا يقال : السُّمّهَى : أى فى الباطل .

وأخذ عليه قوله :

* أو فضةٌ أو ذهَب كِبريتُ *

قال : فسمع بالكبريت أنه أحمر فظنّ أنه ذهب .

ومما يستقبح من تشبيهه قوله فى النساء :

٥ * يَلبسن مِن لِين الثّياب نِيما *

والنِّيم : الفرْو القصير ، وأخذ عليه قوله فى قوائم الفرس :

* يَهوِينَ شَتَّى وَيقَعْن وقْفا *

وأنشده مسلم بن قتيبة ، فقال له : أخطأت يا أبا الجحاف ، جعلتَه مقيَّدا .
قال له رؤبة : أدنِنى من ذَنَب البعير .

١٠ ومما أُدرك على أبى نُخيلة الراجز قوله فى وصف المرأة : أبو نخيلة

بُرِّيَّةٌ لم تلبس المُرَقَّقا * ولم تَذُقْ من البُقول الفُسْتُقا

فجعل الفستق من البقول ، وإنما هو شجر .

ومما أُدرك على أبى النجم قوله فى وصف الفرس : أبو النجم

* تَسبح أُخراه ويَطفو أوّلُهْ *

١٥ قال الأصمعى : إذا كان كذلك فحمار الكسّاح أسرع منه ؛ لأنّ اضطراب مؤخره قبيح ؛ وإنما الوجه فيه ما قال أعرابى فى وصف فرس أبى الأعور السلمى :

مَرٌّ كلمع البرْق سامٍ ناظرُهْ * تَسْبح أُولاه ويَطفو آخرهْ

فما يَمَسُّ الأرضَ منه حافرهْ

وأُخذ عليه أيضاً فى الورود قوله :

٢٠ جاءت تَسانَى فى الرعيل الأوّلِ * والظِّلُّ عن أخفافها لم يَفضُلِ

فوصف أنها وردت فى الهاجرة ، وإنما خير الورود غلساً والماء بارد ، كما قال الآخر :

* فوردَتْ قبْل الصباح الفاتِقِ *

لبيد

وكقول لبيد بن ربيعة العامرى :

* إنّ مِن ورْدِى لتفليس النّهلْ *

وقال آخر :

* فورَدنَ قبْل تبيُّن الألوانِ *

لبشار

وأُنشد بشار الأعمى قولَ كثيّر عزة : ٥

ألا إنما ليلى عصا خيزُرانةٍ * إذا غمَزوها بالأكفّ تَلين

فقال : لله أبو صخر ! جعلها عصا خيزرانة ، فوالله لو جعلها عصا زبد لهجّنها ، ألا قال كما قلتُ :

وبيْضاء المحاجرِ من مَعَدّ * كأنّ حديثَها قِطَعُ الجُمانِ

إذا قامت لحاجتِها تثنّت * كأنّ عظامَها من خيزُران ١٠

العتابى والرشيد

ودخل العتابىّ على الرشيد فأنشده فى وصف الفرس :

كأنّ أذنيْه إذا تَشوّفا * قادمةً أو قلمًا محرّفا

فعلم الناس أنه لحن ، ولم يهتد أحد منهم إلى إصلاح البيت غير الرشيد ؛ فإنه قال : قل :

* تَخال أُذنيه إذا تشوّفا * ١٥

والراجز وإن كان لحن فإنه أصاب التشبيه .

كثير وابن أبى عتيق وابن معاذ

حدّث أبو عبد الله محمد بن عرفة بواسط ، قال : حدّثنى أحمد بن محمد بن يحيى عن الزبير بن بكار عن سليمان بن عباس السعدى عن السائب راوية كثيّر عزة ، قال : قال لى كثير عزة يوما : قم بنا إلى ابن أبى عتيق نتحدث عنده . قال : فجئناه فوجدنا عنده ابن معاذ المغنى ، فلما رأى كثيّراً قال لابن أبى عتيق : ٢٠ ألا أغنيك شعر كثير عزة ؟ قال : نعم . فغناه :

أبائنةٌ سُعْدَى نعم ستبينُ * كما أنبتّ من حبل القَرين قرينُ

أأنْ زُمّ أجمالٌ وفارَق جيرةٌ * وصاح غرابُ البيْن أنت حزينُ

كأنك لم تَسمع ولم تَرَ قبلها * تفرُّقَ أُلّافٍ لهن حنين

فأخلَفنَ ميعادى وخُنّ أمانتى * وليس لمن خان الأمانةَ دِين

فالتفت ابن أبى عتيق إلى كثيِّر فقال : وللدين صحبتهم يابن أبى جمعة ! ذلك والله أشبه بهن وأدعى للقلوب إليهن ، وإنما يوصفن بالبخل والامتناع ، وليس بالوفاء والأمانة ؛ ذو الرقيّات أشعرُ منك حيث يقول :

حبّذا الإدلالُ والغَنَجُ * والتى فى طـرْفها دَعَجُ

والتى إن حدثتْ كذَبتْ * والتى فى ثغْـرها فَلَج

خَبّرونى هل على رجُلٍ * عاشـق فى قُبلةٍ حَرَج

فقال كثيِّر : قم بنا من عند هذا .

عمارة وابن أبى السمط

عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير ، قال : إنى بباب المأمون إذ خرج عبد الله بن السمط ، فقال لى : علمتُ أنّ أمير المؤمنين على كماله لا يعرف الشعر ! قلت له : وبِمَ علمتَ ذلك ؟ قال : أسمعتُه الساعة بيتاً لو شاطرنى مُلْكه عليه لكان قليلا ، فنظر إلى نظراً شزْراً كاد يصطلمنى . قلت له : وما البيت ؟ فأنشد :

أضحَى إمامُ الهدَى المأمون مُشتغلا * بالدِّين ، والناسُ بالدنيا مَشاغِيلُ

قلت له : والله لقد حلم عليك إذ لم يؤدبك عليه ؛ ويلك ! وإذا لم يشتغل هو بالدنيا فمن يدبِّر أمرها ؟ ألا قلتَ كما قال جدّى فى عبد العزيز بن مروان :

فلا هو فى الدنيـا مُضِيعٌ نصيبَه * ولا عَرَضُ الدنيا عن الدِّين شاغِلُهْ

فقال : الآن علمتُ أنى أخطأت .

البعيث وجلة من الشعراء والوليد

الهيثم بن عدى قال : دخل رجل من أصحاب الوليد بن عبد الملك عليه فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد رأيت ببابك جماعة من الشعراء لا أحسبهم اجتمعوا

بباب أحد من الخلفاء ، فلو أذنتَ لهم حتى يُنشدوك ! فأذن لهم ، فأنشدوه ، وكان فيهم الفرزدق ، وجرير ، والأخطل ، والأشهب بن رميلة ، وتَرك البعيث فلم يأذن له ، فقال الرجل المستأذِن لهم : لو أذنت للبعيث ! فلم يأذن له ، وقال : ليس كهؤلاء ؛ إنما قال من الشعر يسيراً . قال : والله يا أمير المؤمنين إنه لشاعر . فأذن له ، فلما مثل بين يديه ، قال : يا أمير المؤمنين : إن هؤلاء ومن ببابك قد ظنوا أنك إنما أذنت لهم دونى لفضلٍ لهم علىّ . قال : أولستَ تعلم ذلك ؟ قال : لا والله ، ولا عليه الله لى ، قال : فأنشِدْنى من شعرك . قال : أما والله حتى أُنشدك من شعر كل رجل منهم ما يفضحه ! فأقبل على الفرزدق ، فقال : قال هذا الشيخ الأحمق لعبد بنى كليب :

بأىِّ رِشاء يا جريرُ وماتِحٍ * تدلَّيتَ فى حوماتِ تلك القماقِمِ

فجعله تَدَلّى عليه وعلى قومه من علٍ وإنما يأتيه من تحته لو كان يعقل .

وقد قال هذا كلبُ بنى كليب :

لَقومىَ أحمَى للحقيقةِ منكم * وأضربُ للجبّار والنقْعُ ساطعُ

وأوثقُ عنـدَ المردفاتِ عشيّةً * لحاقاً إذا ما جرد السّيفَ لامعُ

فجعل نساءه لا يثقن بلحاقه إلا عشيةً وقد نُكحن وفُضحن .

وقال هذا النصرانىّ ومدح رجلا يسمى قينا فهجاه ولم يشعر ، فقال :

قد كنتُ أحسَبهُ قيناً وأنبَؤُه * فالآن طيّرَ عن أثوابه الشّررُ

وقال ابن رُمية ودفع أخاه إلى مالك بن رِبعىّ بن سلمى فقتل ، فقال :

مددْنا وكانت ضلةً من حُلومِنا * تبدى إلى أولادِ ضمرَةَ أقطعا

فمن يرجو خيره وقد فعل بأخيه ما فعل ؟ فجعل الوليد يَعجب من حفظه لمثالب القوم وقوة قلبه ؛ وقال له : قد كشفتَ عن مساوى القوم ، فأنشِدنى من شعرك . فأنشده ، فاستحسن قوله ووصله وأجزل له .

ابن هانئ

ومما عِيبَ على الحسن بن هانئ قوله فى بعض بنى العباس :

كيف لا يُدنيكَ من أملٍ * مَن رسولُ اللهِ مِن نفرِه

فقالوا : من حق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يضاف إليه ولا يضاف هو إلى غيره ؛ ولو اتسع متسع فأجازه لكان له مجازٌ حَسَن ، وذلك أن يقول

٥ القائل من بنى هاشم لغيره من أبناء قريش : منا رسول الله صلى الله عليه وسلم . يريد أنه من القبيلة التى نحن منها ، كما قال حسان بن ثابت :

وما زال فى الإسلامِ من آل هاشم * دعائمُ عِـــزٍّ لا تُرامُ ومفخرُ

بهـــاليلُ منهم جعفرٌ ، وابن أمّه * علىٌّ ، ومنهم أحمـــدُ المتخيَّرُ

فقال : منهم ، كما قال هذا : من نفره .

١٠ ومما أُدرك عليه قوله فى البعير :

* أخنسُ فى مثلِ الكظامِ مخطِمُهْ *

والأخنس : القصير المشافر ، وهو عيب له ؛ وإنما توصف المشافر بالسبوطة .

أبو ذؤيب

ومما أدرك على أبى ذؤيب قوله فى وصف الدُّرّة :

فجاء بها ما شئتَ من لطَميّةٍ * يدورُ الفُراتُ فوقها وتَموجُ

١٥ قالوا : والدُّرة لا تكون فى الماء الفرات إنما تكون فى الماء المالح .

جرير وابن لجأ

اجتمع جرير بن الخطفى وعمر بن لَجأ التيمى عند المهاجر بن عبد الله والى اليمامة ، فأنشده عمر بن لجأ أرجوزته التى يقول فيها :

تصطكُّ ألحيها على دِلائها * تلاطمَ الأزْدِ على عطائها

حتى انتهى إلى قوله :

٢٠ تُجَرُّ بالأهونِ من إدنائها * جرَّ العجوزِ الثِّنْىَ من خفائها

فقال جرير : ألا قلت :

* جرَّ الفتاةِ طرْفىْ ردائها *

فقال . والله ما أردتُ إلا ضَعف العجوز ؛ وقد قلت أنت أعجبَ من هذا ، وهو قولك :

وأوثقُ عند المردفاتِ عشيّةً * لحاقاً إذا ما جرّدَ السيفَ لامعُ

والله لئن لم يُلحقن إلا عشية ، ما لحقن حتى نُـكحن وأحبلن . ووقع الشر بينهما .

ابن أبي ربيعة والأحوص ونصيب وكثير

وقدم عمر بن أبي ربيعة المدينة ، فأقبـل إليه الأحوص ونصيب ، فجعلوا يتحدثون ، ثم سألهما عمر عن كثيّر عزة ، فقالوا : هو ههنا قريب . قال : فلو أرسلنا إليه ! قالا : هو أشد بأوا من ذلك ! قال : فاذهبا بنا إليه . فقاموا نحوه ، فألفوه جالسا فى خيمة له ، فوالله ما قام للقرشى ولا وسع له ؛ فجعلوا يتحدثون ساعة ، فالتفت إلى عمر بن أبى ربيعة ، فقال له : إنك لشاعر ، لولا أنك تشبّب بالمرأة ثم تدعها وتشبّب بنفسك ! أخبرنى عن قولك :

ثمّ اسبَطرّتْ تشتدُّ فى أثرى * تسألُ أهل الطّوافِ عن عمرِ

والله لو وصفت بهذا هرةَ أهلك لكان كثيرا ؛ ألا قلت كما قال هذا ، يعنى الأحوص :

أدورُ، ولولا أن أرى أمّ جعفرٍ * بأبياتِكم ما دُرتُ حيث أدورُ

وما كنت زوّاراً ولكنّ ذا الهوى * وإنْ لم يزرْ لا بدّ أن سيَزور

قال : فانكسرت نخوة عمر بن أبي ربيعة ودخلت الأحوص زهوة ، ثم التفت إلى الأحوص فقال : أخبرنى عن قولك :

فإن تَصِلى أصلْكِ وإن تبينى * بهجْرك بعد وصْلِك ما أُبالى

أما والله لو كنت حرًّا لباليت ولو كُسر أنفك : ألا قلت كما قال هذا الأسود وأشار إلى نصيب :

بزينبَ ألمم قبلَ أن يرحَل الركبُ * وقل إن تمَلّينا فما ملّكِ القلبُ

قال : فانكسر الأحوص ودخلت نُصيبا زهوة ؛ ثم التفت إلى نصيب فقال له :

أخبرنى عن قولك :

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ فإن أمُتْ * فوا كبِدى مَن ذا يَهيم بها بَعدى !

أهمّك ويحك من يفعلُ بها بعدك ؟ فقال القوم : الله أكبر ! استوت الفِرق

قوموا بنا من عند هذا .

٥ ودخل كثيّر عزة على سُكينة بنت الحسين ، فقالت له : يابن أبى جمعة ، أخبرنى عن قولك فى عزة : كثير وسكينة

وما روْضةٌ بالحَزْنِ طيّبةُ الثرى * يَمجّ النّدى جَثْجاثُها وعَرارُها

بأطيبَ من أرْدانِ عزّة مَوهِنا * وقدأُوقدتْ بالمندَلِ الرَّطْبِ نارها

ويحك ! وهل على الأرض زَنجية منتنة الإبْطين ، توقَد بالمندل الرطب نارها

١٠ إلا طاب ريحها ؟ ألا قلت كما قال عمك امرؤ القيس :

ألم تَريانى كلما جئت طارقاً * وجدتُ بها طيباًوإن لم تطيَّبِ

سمر عبد الملك بن مروان ذات ليلة وعنده كثيّر عزة ، فقال له : أنشدنى بعض ماقلت فى عزة . فأنشده إلى هذا البيت : عبدالملك وكثير

همَمْت وهمَّت ، ثم هابت وهِبْتها * حياءً ، ومثلى بالحياء حقيق

١٥ فقال له عبد الملك : أما والله لولا بيتٌ أنشدتنيه قبل هذا لحرمتك جائزتك !

قال : ولم يا أمير المؤمنين ؟ قال : لأنك شركتَها معك فى الهيبة ، ثم استأثرت بالحياء دونها . قال : فأى بيت عفوتَ عنى به يا أمير المؤمنين ؟ قال قولك :

دَعونى لا أُريد بها سِواها * دعونى هائماً فيمنْ يَهيم

وما أُدرك على الحسن بن هانئ قولُه فى وصف الأسد حيث يقول : ابن هانئ

٢٠ كأنما عينُه إذا التفتتْ * بارزةَ الجفنِ عينُ مخنُوق

وإنما يوصف الأسد بغؤور العينين ، كما قال العجاج :

كأن عينَيْه من الغئورِ * قلتانِ أو حوْجلتا قارورِ

وقال أبو زبيد : لأبى زبيد

* كأنّ عينيه نقْباوان فى حَجَر *

لابن عبد ربه

ومن قولنا فى وصف الأسد ماهو أشبه به من هذا :

ولرُبّ خافقةِ الذوائبِ قد غدتْ * معْقــودةً بلِوائه المنْصـورِ
يَرمى بهـا الآفاقَ كلّ شرَنْبَثٍ * كفّاهُ غيْر مُقــلّمِ الأُظفور
ليْثٌ تطيرُ له القـلوبُ مخافةً * من بين هَمْهَمةٍ له وزئير
وكأنما يُومى إليك بطَرْفه * عن جَمْرتيْن بجلْــد مَنْقورِ

باب من أخبار الشعراء

دعبل ومسلم وأبو الشيص وأبو نواس

حدث دعبل الشاعر أنه اجتمع هو ومسلم وأبو الشيص وأبو نواس فى مجلس ، فقال لهم أبو نواس : إن مجلسنا هذا قد شَهر باجتماعنا فيه ، ولهذا اليوم مابعده فليأت كلُّ واحد منكم بأحسن ما قال فلينشده . فأنشده أبو الشيص فقال :

وقفَ الهوى بى حيثُ أنتِ فليْس لى * مُتأخَّرٌ عنـه ولا مُتقــدّمُ
أجدُ الملامةَ فى هواكِ لذيذة * حُبًّـا لذكْركِ فلْيلُمْنى الّلوّمُ
وأهَنتِنى فأهنْتُ نفْسى صاغِراً * مامَن يهونُ عليكِ مِمَّنْ أُكرم
أشْبهتِ أعدائى فصِرْتُ أُحِبُّهم * إذ كان حَظّى منك حظّى منهم

قال : فجعل أبو نواس يعجب من حسن الشعر حتى ما كاد ينقضى عجبه ، ثم أنشده مسلمٌ أبياتاً من شعره الذى يقول فيه :

فأُقسِمُ أنسَى الدّاعياتِ إلى الصِّبا * يميناً وقد فاجأتُ والسِّترُ واقعُ
فغطّتْ بأيديها ثمـارَ نحورِها * كأيْدِى الأُسارى أثقلَتْها الجوامِعُ

قال دعبل : فقال لى أبو نواس : هات أبا على ، وكأنى بك قد جئتنا بأم القلادة . فقلت : ياسيدى ، ومن يباهيك بهاغيرى فأنشدته :

أيـن الشّبابُ وأيّةً سَلكا * أمْ أينَ يطلبُ ضَلّ أم هلكا
لا تعجَبى يا سَلْمُ من رجُلٍ * ضحِكَ المشيبُ برأسه فبكى
ياليْتَ شِعرِى كيف صَبْرُكما * ياصاحبَىَّ إذا دَمى سُفكا

لا تطلُبا بظُلامَتِى أحداً * قلبي وطرْفِى فى دمى آشتركا

ثم سألناه أن يُنشد ، فأنشد أبو نواس :

لا تبْكِ هِنداً ولا تطرَب إلى دَعْد * وآشرب على الوِرْد من حَمراء كالورد
كأساً إذا آنحدرتْ فى حَلْق شارِبها * وجدتَ حمرتَها فى العيْن والخـــدِّ
فالخمر ياقوتةٌ والـــكأس لؤلؤةٌ * فى كفِّ جاريةٍ ممشوقةِ القدِّ ٥
تُسقيك من عينها خمراً ومن يدِها * خمراً ، فـمالك من سُكرَين من بُدّ
لى نَشوتان وللنّدمانِ واحـدةٌ * شيء خُصِصْت به من بينهم وحْدى

فقاموا كلهم فسجدوا له ؛ فقال : افَعلتموها أعجميّة ؟ لا كلمتكم ثلاثا ولا ثلاثا ولا ثلاثا ! ثم قال : تسعة أيام فى هجر الإخوان كثير ، وفى هجر بعض ١٠ يوم استصلاح للفساد وعقوبة على الهفوة . ثم التفت فقال : أعلمتم أن حكيما عتب على حكيم ، فكتب المعتوب عليه إلى العاتب : يا أخى ، إن أيام العمر أقلُّ من أن تحتمل الهجر .

المعتز والزبير

محمد بن الحسن المدينى قال : أخبرنى الزبير بن أبى بكر قال : دخلت على المعتز بالله أمير المؤمنين ، فسلمت عليه ؛ فقال : يا أبا عبد الله إنى قد قلت فى ١٥ ليلتى هذه أبياتا ، وقد أعيا علىّ إجازة بعضها . قلت : أنشدنى . فأنشدنى — وكان محموما — يقول :

إنى عرفتُ علاج القلب من وجع * وما عرفت علاج الحبِّ والخُدَعِ
جزِعْتُ للحبِّ، والحُمى صَبَرْت لها * إنى لأعجب من صبرى ومن جزَعى
من كان يشغَلُه عن حبِّه وجعٌ * فليس يشغَلُنى عن حبِّكم وجعى

٢٠ قال أبو عبد الله : فقلت :

وما أمَـــلّ حبيبى ليـلةً أبدا * مع الحبيب ، ويا ليْت الحبيبَ معى

فأمر لى على البيت بألف دينار .

أبو نواس ومسلم وأبو العتاهية

اجتمع الحسن بن هانئ . وصريع الغوانى ، وأبو العتاهية ، فى مجلس بالكوفة

فقيل لأبى العتاهية : أنشدنا . فأنشد :

أسيِّدتى هاتى ــ فدَيْتُك ــ ماجرْمِى ✽ فأنزلَ فيما تشتهين من الحكمِ
كفاكِ بحقِّ الله ماقد ظَلَمْتِنى ✽ فهذا مقام المُستجير من الظُلمِ

وقيل لصريع الغوانى : أنشِدنا فأنشأ يقول :

٥ قد اطَّلعْت على سِرِّى وإعــــلانى ✽ فاذهب لشأنك ليس الجهلُ من شانى
إنّ التى كنت أرجو قصْد سيرتِهـا ✽ أعطتْ رضاً وأطاعت بعد عصيان

ثم قيل للحسن بن هانئ : أنشِدنا . فأنشد :

يا ابنة الشيْخ اْصبحينا ✽ ما الذى تنتظرينـا
قد جرى فى عوده المـا ✽ ء فأجرِى الخمر فينا

١٠ قيل : هذا الهزل . فهات الجد . فأنشأ :

لمن طلَلٌ عارى المحَلِّ دفين ✽ عفا عهدَه إلا روائم جُونُ
كما اْفترقت عند المبيتِ حمائمٌ ✽ غريباتٌ تَمَّى ماهنّ وُكونُ
ديارُ التى أمّا جَنَى رشفاتِهـا ✽ فحُلْوٌ وأما مسُّها فَليــين
وماأنصفَت،أمّاالشُحوبُ فظاهرٌ ✽ بوجهى ، وأما وجهُها فمصونُ

١٥ فقام صريع الغوانى يجر ذيله ، وخرج وهو يقول : إن هذا مجلس ما جلسته أبدا .

الرشيد والمأمون فى الصلاة على صوتى

هشام بن عبد الملك الخزاعى قال : كنا بالرَّقة مع هارون الرشيد ، فكتب إليه صاحب الخبر بموت الكسائى ، وإبراهيم الموصلى ، والعباس بن الأحنف ، فى وقت واحد ؛ فقال لابنه المأمون : اخرج فصلِّ عليهم . فخرج المأمون فى وجوه قواده وأهل خاصته ، وقد صفُّوا له . فقالوا له : من ترى أن يقدم ؟

٢٠ قال : الذى يقول :

يابعيد الدّار عن وطنِه ✽ هائماً يبكى على شَجَنهْ
كلمـا جـــدّ البكاء به ✽ زادتِ الأسقامُ فى بدنهْ

قيل له : هذا . وأشاروا إلى العباس بن الأحنف ؛ فقال قدِّموه ! فقدِّم عليهم .

أبو عمرو وجرير

أبو عمرو بن العلاء قال : نزل جريرٌ وهو مقبل من عند هشام بن عبد الملك فبات عندى إلى الصبح ؛ فلما أصبح شخص وخرجت معه أشيِّعه ، فلما خرجنا من أطناب البيوت التفت إلىّ فقال : أنشدنى من قول مجنون بنى الملوّح ، فأنشدته :

وأدْنيتِنى حتى إذا ما سَبيْتِنى ٭ بقولٍ يحلُّ العُصْمَ سهلَ الأباطح

٥ تجافيتِ عنى حين لا لىَ حيلةٌ ٭ وغادرْتِ ماغادرْتِ بين الجوانح

فقال : والله لولا أنه لا يَحسن بشيخ مثلى الصراخ ، لصرخت صرخة سمعها هشام على سريره .

وهذا من أرق الشعر كله وألطفه ، لولا التضمين الذى فيه ، والتضمين : أن يكون البيت معلّقا بالبيت الثانى ، لا يتم معناه إلا به ، وإنما يُحمد البيت إذا ١٠ كان قائما بنفسه .

ابن الأحنف وابن الملوح

وقال العباس بن الأحنف نظير قول المجنون بلا تضمين ، وهو قوله :

أشكو الذين أذاقونى مَودّتهم ٭ حتى إذا أيقظونى بالهوى رقَدوا

الرشيد والأصمعى

وقال الأصمعى : دخلت على هارون الرشيد ، فوجدته منغمساً فى الفرش ، فقال : ما أبطأ بك يا أصمعى ؟ قلت : احتجمت يا أمير المؤمنين . قال : فما أكلت ١٥ عليها ؟ قلت : سكباجة وطباهجة ، قال : رميتها بحجرها ، أتشرب ؟ فقلت : نعم ؛ وقلت :

أَســـقِنى حتى ترانى مائلا ٭ وترى عُمْران دينى قد خَرِبْ

قال : يا مسرور ، أىُّ شىء معك ؟ قال : ألف درهم . قال : ادفعها للأصمعى .

ابن داود ويهودى

كان يصحب على بن داود الهاشمى يهودىٌّ ظريف مؤنس أديب شاعر ٢٠ أريب ، فلما أراد الحج أراد أن يستصحبه فكتب إليه اليهودى يقول :

إنى أعـــوذُ بداوُد وحُفْرته ٭ من أن أَحُجَّ بكُرْه يابن داود

نُبئت أنّ طريقَ الحجِّ مُصْردةٌ ٭ عن النّبيذ وما عيْشى بتَصْريد

والله ما فىّ من أجر فتطْلُبَه ٭ فيما علِمت ولا دِينِى بمحمود

أما أبوكَ فذاكَ الجودُ يعرفُه * وأنت أشبه خلْق الله بالجودِ

كأنّ ديباجتَيْ خدّيه من ذهب * إذا تعصّبَ فى أثوابِه السُّود

السويق فى ضر ناله

حدث أبو إسحاق يحيى بن محمد الحوارى ، قال : سمعت شيخا من أهل البصرة يقول : قال إبراهيم السويقى مولى المهالبة : تتابعت علىَّ سُنون ضيِّقة ، وألحَّ علىّ العسْر وكثرة العيال وقلّةُ ذات اليد ؛ وكنت مشتهرا بالشعر أقصد به ٥ الإخوان وأهل الأقدار وغيرهم ، حتى جفانى كلُّ صديق ، وملّنى من كنت أقصده ؛ فأضرَّ بى ذلك جدا ؛ فبينما أنا ذات يوم جالس مع امرأتى فى يوم شديد البرد ، إذ قالت : ياهذا ، قد طال علينا الفقر ، وأضر بنا الجهد ؛ وقد بقيت فى بيتى كأنك زَمِنٌ ، هذا مع كثرة الولد ؛ فاخرج عنى واكفنى نفسك ، ودعنى مع هؤلاء الصبيان أقوم بهم مرة وأقعد بهم أخرى . وألحّت علىّ فى ١٠ الخصومة ، وقالت لى : يامشئوم ، تعلمت صناعة لا تُجدى عليك شيئا ! فضجرت منها ومن قولها ، وخرجت على وجهى فى ذلك البرد والريح ، وليس علىّ إلا فروٌ خلَق ، ليس فوقه دثار ، ولا تحته شعار ، إلا إزار على عنق ؛ ثم جاءت ريح شديدة ، فذهبت به عن يدى ، وتفرقت أجزاؤه عنى من بلاه وكثرة رقاعه ، وعلى عنق طيلسان ليس علىّ منه إلا رسمُه . ١٥

فخرجت والله متحيرا لا أدرى أين أقصد ولا حيث أذهب ؛ فبينما أنا أجيل الفكرة ، إذ أخذتنى سماءٌ بقَطارٍ متدارك ، فدفعت على دار على بابها رَوشن مُطِلّ ودكان لطف وليس عليه أحد : فقلت : أستتر بالروشن إلى أن يسكن المطر . فقصدت قصد الدار ، وإذا بجارية قاعدة ، قد لزمتْ باب الدار كالحافظة عليه ؛ فقالت لى : إليك ياشيخ عن بابنا . فقلت : أنا — ويحك — لست بسائل ، ولا أنا ٢٠ ممن تتخوّف ناحيته ! فجلست على الدكان ، فلما سكنت نفسى سمعت نغمة رخيمة من وراء الباب ، تدلُّ على نغمة امرأة ؛ فأصغيت ، فإذا بكلام يدل على عتاب ؛ ثم سمعت نغمة أخرى مثل ذلك ، وهى تقول فعلتِ وفعلتِ ! والأخرى تقول : بل أنت

فعلتِ وفعلتِ ! إلى أن قالت إحداهما : أنا ـ جُعلت فداك ـ إن كنتُ أسأت فاغفرى ؛ واحفظى فىَّ بيتين لمولانا إبراهيم السويقى ! فقالت الأخرى : وما قال ؟ فإنه يبلغنى عنه أشعار ظريفة . فأنشدتْها تقول :

هبِينى يا مُعــذِّبتى أسأت ٭ وبالهجرانِ قبلَكمُ بدأتُ
٥ فأين الفضلُ منكِ فدتْكِ نفسى ٭ علىَّ إذا أسأتِ كما أسأتُ

فقالت : ظَرُف والله وأحسن ! فلما سمعتُ ذكرى وذكر « مولانا » علمت أنهما من بعض نساء المهالبة ؛ فلم أتمالك أن دفعت الباب وهجمت عليهما ، فصاحتا : وراءك يا شيخُ عنَّا حتى نستتر ! وتوهَّمَتا أننى من أهل الدار ؛ فقلت لهما . جُعلتُ فداكما ، لا تحتشما منى ؛ فإنى أنا إبراهيم السويقى ؛
١٠ فبالله ، وبحق حرمتى منكن ، إلا شفَّعتِنى فيها ، ووهبتِ لى ذنبها ؛ واسمعى منى فأنا الذى أقول :

خُذى بيَدى من الُحزْن الطويل ٭ فقد يعْفو الخليلُ عن الخليلِ
أسأتُ فأَجْمِلى تَفديكِ نفسى ٭ فما يأتى الجميلَ سوَى الجميل

فقالت : قد فعلتُ وصفحتُ عن زلَّتها ؛ ثم قالت : يا أبا إسحاق ، مالى
١٥ أراك بهذه الهيئة الرثة والبزّة الخلقة ! فقلت : يا مولاتى ، تعدَّى علىَّ الدهر ، ولم يُنصفْنى الزمان ، وجفانى الإخوان ، وكسدتْ بضاعتى . فقالت : عز علىَّ ذلك ! وأومأتْ إلى الأخرى ، فضربت بيدها على كمها ، فسلَّت دُمْلجا من ساعدها ، ثم ثنت باليد الأخرى ، فسلت منها دملجاً آخر ؛ فقالت : يا أبا إسحاق ، خذ هذا واقعد على الباب مكانك وانتظر الجارية تأتيك . ثم قالت : يا جارية ،
٢٠ سكن المطر ؟ قالت : نعم . فقامَتا ، وخرجتُ وقعدتُ مكانى ؛ فما شعرتُ إلا والجارية قد وافت بمنديل فيه خمسة أثواب وصُرّةٍ فيها ألف درهم ؛ وقالت : تقول لك مولاتى : أنفِق هذه ، فإذا آحتجْت فصِرْ إلينا حتى نزيدَك إن شاء الله ! فأخذتُ ذلك وقمت وقلت فى نفسى : إن ذهبت بالدمْلجين إلى امرأتى ، قالت : هذا لِبناتى ، وكاثرتنى عليهما ؛ فدخلت السوق فبعتهما بخمسين ديناراً وأقبلت ؛

فلما فتحتُ الباب صاحت امرأتى وقالت : قد جئت أيضاً بشؤمك ! فطرحت الدنانير والدراهم بين يديها والثياب ؛ فقالت : من أين هذا ؟ قلت : من الذى تشاءمتِ به وزعمت أنه بضاعتى التى لا تُجدى ! فقالت : قد كانت عندى فى غاية الشؤم ، وهى اليوم فى غاية البركة !

نوادر من الشعر

٥

المأمون وابن الجهم

قال المأمون لمحمد بن الجهم : أنشِدنى بيتاً أوله ذمّ وآخره مدح ؛ أُوَلِّك به كورة . فأنشده :

قَبُحتْ مناظرُهم فحين خبَرْتُهم ٭ حسُنتْ مناظرُهم لحسْن المخبَر

فقال له : زدنى . فأنشده :

أرادوا لِيُخْفوا قبرَه عن عدوِّه ٭ فطِيبُ تراب القبر دَلَّ على القبر ١٠

فولّاه الدِّينَوَر .

الرشيد والضبى

وقال هارون الرشيد للمفضل الضبى : أنشِدنا بيتا أوله أعرابى فى شَمْلته هبَّ من نوْمته ، وآخِره مدنى رقيق ، غُذى بماء العقيق . قال المفضل : هوّلتَ علىّ يا أمير المؤمنين ، فليت شعرى بأى مهر نفتضّ عروس هذا الخدْر ؟ ... قال هارون : هو بيتُ جميلٍ حيث يقول : ١٥

ألا أيُّها النُّوَّامُ ويْحكم هُبُّوا ٭ أُسائلكم : هل يَقتُلُ الرجلَ الحبُّ

فقال له المفضل : فأخبرنى يا أمير المؤمنين عن بيت أوله أكثمُ بن صيفى فى إصابة الرأى ، وآخِره بقراطُ الطبيب فى معرفته بالداء والدواء . قال له هارون : ما هو ؟ قال : هو بيت الحسن بن هانئ حيث يقول :

دعْ عنكَ لوْمى فإنّ اللّوْمَ إغراءُ ٭ وداوِنى بالتى كانت هى الداءُ ٢٠

قال : صدقت .

المنصور فى الرضمة

قال الربيع : خرجنا مع المنصور منصرَفَنا من الحج ، فنزلنا الرَّضْمة ، ثم راح المنصور ورحنا معه فى يوم شديد الحرّ ، وقد قابلته الشمس ، وعليه جبة

وشى ؛ فالتفت إلينا وقال : إنى أقول بيتاً من شعر ، فمن أجازه منكم فله جبتى هذه ! قلنا : يقول أمير المؤمنين . فقال :

وهاجرةٍ نصبتُ لهـا جَبِينى * يُقطِّعُ حَرُّها ظهْرَ العَظايَهْ

فبدر بشار الأعمى فقال :

٥ وقفت بها القَلوصَ ففاض دَمْعى * على خـــدِّى وأَقصَرَ واعِظايَهْ

فخرج له من الجبة ، فلقيته بعد ذلك فقلت له : ما فعلتَ بالُجبة ؟ قال : بعتها بأربعة آلاف درهم !

عائشة بنت المهدى والشعراء

خرج رسول عائشة بنت المهدى ـ وكانت شاعرة ـ إلى الشعراء وفيهم صريع الغوانى ، فقال : تقرئكم سيدتى السلام وتقول لكم : من أجاز هذا البيت

١٠ فله مائة دينار . فقالوا : هاتِه . فأنشدهم :

أَنِيلِى نوالا وجُودى لنا * فقد بلَغتْ نفسىَ التَّرْقُوَهْ

فقال صريع :

وإنىَ كالدَّلوِ فى حُبِّكم * هَوَيْتُ إذ انقطعتْ عَرْقُوَهْ

فأخذ المـائة الدينار .

الحسن البصرى والفرزدق

١٥ وكان الفرزدق يجلس إلى الحسن البصرى ، وجريرٌ يجلس إلى ابن سيرين ؛ لتباعد ما بين الرجلين ـ وكان موتهما فى عام واحد ، وذلك سنة عشر ومائة ـ فبينما الفرزدق جالس عند الحسن ، إذ جاءه رجلٌ فقال : يا أبا سعيد ، إنا نكون فى هذه البعوث والسرايا ، فنُصيب المرأة من العدوّ وهى ذات زوج ، أفتحلّ لنا من غير أن يطلقها زوجُها ؟

٢٠ قال الفرزدق : قد قلت أنا مثل هذا فى شعرى . قال له الحسن : وما قلت ؟ قال : قلت :

وذات حَليلٍ أنكحتْها رماحُنا * حلالٌ لمن يبْنِى بهـا لم تُطَلَّقِ

قال الحسن : صدقت .

ثم أقبل إليه رجل آخر ، فقال : يا أبا سعيد ، ما تقول فى الرجل يشك فى الشخص يبدو له فيقول : والله هذا فلان ! ثم لا يكون هو : ما ترى فى يمينه ؟ فقال الفرزدق : وقد قلت أنا مثل هذا . قال الحسن : وما قلت ؟ قال : قلت :

ولستَ بمأخوذٍ بقولٍ تقولُه * إذا لم تعنه عاقداتُ العزائمِ ٥

قال الحسن : صدقت .

عباد ورؤبة بين زوجين

استعدت امرأةٌ على زوجها عبّاد بن منصور ، وزعمتْ أنه لا ينفق عليها ؛ فقال لرؤبة : احكم بينهما . فقال :

فطلّقْ إذا ما كنتَ لستَ بمنْفِقٍ * فما الناسُ إلا مُنفقٌ أو مطلِّقُ

بشار بين شاعرين

كان رجل يدّعى الشعر ، ويستبرده قومُه ؛ فقال لهم : إنما تستبردونى من طريق الحسد . قالوا : فبيننا وبينك بشارٌ العقيلى ، فارتفعوا إليه ، فقال له : أنشدنى . فأنشده ؛ فلما فرغ قال له بشار : إنى لأظنُّك من أهل بيت النبوة ! قال له : وما ذاك ؟ قال : إنّ الله تعالى يقول ﴿ وما علّمناه الشِّعْرَ وما ينبغى له ﴾ فضحك القوم وخرجوا عنه : ١٠

أبو دلف وابن عبد ربه

وقال أبو دُلَف : ١٥

أتى أبو دلَف المُبْدِى بقافيةٍ * جوابُها يُهلِك الداعى من الغيظِ

مَن زاد فيها له رَحْلى وراحلَتى * وخاتَمى ، والمَدَى فيها إلى القيْظِ

فأجابه ابن عبد ربه :

قد زِدتُ فيها وإن أَضحى أبو دلَفٍ * والنفسُ قد أشرفتْ منه على الغيظِ !

لبعض الشعراء فى حضرة سليمان

سمر الفرزدق والأخطل وجرير عند سليمان بن عبد الملك ليلة ، فبينما هم حوله إذ خَفَقَ فقالوا : نعس أمير المؤمنين ! وهموا بالقيام ؛ فقال لهم سليمان : لا تقوموا حتى تقولوا فى هذا شعرا . فقال الأخطل : ٢٠

رماه الكَرَى فى رأسه فكأنه * صريعٌ تَرَوَّى بين أصحابِه خمرا

فقال له : ويحك ! سكرانَ جعلتَنى ! ثم قال جرير بن الخطفى :

رماهُ الكَرى فى رأسه فكأنما * يَرى فى سَوادِ الليلِ قُنبُرةً سَكْرا

فقال له : ويحك ! أجعلتنى أعمى ! ثم قال الفرزدق بعد هذا :

رماهُ الكَرى فى رأسِه فكأنما * أميمُ جَلاميدٍ تركنَ به وقْرَا

٥ قال له ويحك ! جعلتنى مشجوجا ، ثم أذن لهم فانقلبوا لحبائهم وأعطاهم .

كان عمر بن أبى ربيعة القرشى غزِلا مشبِّبا بالنساء الحوَاجّ ، رقيق الغزل ؛ وكان الأصمعى يقول فى شعره : الفستق المقشر الذى لا يُشبع منه ! وكان جرير يستبرده ويقول : شعر حجازى ، لو اتخذ فى تموز لوُجد البرد فيه . فلما أُنشد له :

فلما تَلاقَيْنا عَرفتُ الذى بها * كَمِثْلِ الذى بى حَذوَكَ النَّعْلَ بالنَّعلِ

١٠ قال : ما زال يهذى حتى قال الشعر !

في شعر ابن أبي ربيعه

وقالت العلماء : ما عُصِىَ اللهُ بشعرٍ ما عُصِىَ بشعر عمر بن أبى ربيعة !

ووُلد عمر بن أبى ربيعة يوم مات عمر بن الخطاب ، فسمِّى باسمه ؛ فقالت العلماء : أى خير رُفع ، وأىُّ شرٍّ وُضعَ ! ثم إنه تاب فى آخر أيامه وتنسّك ، ونذر لله أن يُعتق لله رقبة لكل بيت يقوله ؛ وإنه حج ، فبينما هو يطوف بالبيت

١٥ إذ نظر إلى فتى من نُمير يلاحظ جاريةً فى الطواف ، فلما رأى ذلك منه مرارا ، أتاه ، فقال له يافتى ، أما رأيت ما تصنع ؟ فقال له الفتى : يا أبا الخطاب لا تعجل علىّ ؛ فإن هذه ابنةُ عمى ، وقد سُمِّيتْ لى ، ولستُ أَقدِرُ على صداقها ، ولا أظفر منها بأكثر مما تَرى ؛ وأنا فلان بن فلان ، وهذه فلانة ابنة فلان . فعرفهما عمر ، فقال له : اقعد يا ابن أخى عند هذه السارية حتى يأتيك رسولى .

٢٠ ثم ركب دابته حتى أتى منزل عمِّ الفتى ، فقرع الباب فخرج إليه الرجل ، فقال : ما جاء بك يا أبا الخطاب فى مثل هذه الساعة ؟ قال : حاجةٌ عرضت قِبَلَك فى هذه الساعة . قال : هى مقضية . قال عمر : كائنةً ما كانت ؟ قال : نعم ! قال : فإنى قد زوّجت ابنتَك فلانة من ابن أخيك فلان : قال : فإنى قد أجزتُ ذلك . فنزل عمر عن دابته ، ثم أرسل غلاماً إلى داره فأتاه بألف درهم

فساقها عن الفتى ، ثم أرسل إلى الفتى فأتاه ، فقال لأبي الجارية : أقسمتُ عليك إلا ما أَبَتَنَى بها هذه الليلة ! قال له : نعم فلما أدخلت على الفتى انصرف عمر إلى داره مسروراً بما صنع ، فرمى بنفسه على فراشه وجعل يتململ ، ووليدة له عند رأسه ، فقالت : ياسيدى ، أرقت هذه الليلة أرقا لا أدرى ما دهمك ؟ فأنشأ يقول : ٥

تقولُ وليدتِى لمّا رأتْنى * طَرِبْتُ وكنتُ قد أقصَرْتُ حينَا

أراكَ اليومَ قد أحدثْتَ شوقا * وهاجَ لك الهوى داءٌ دَفينا

وكنتَ زعمْتَ أنكَ ذا عزاءٍ * إذا ماشئتَ فارَقتَ القَرينا

بعيْشِك هل رأيتَ لها رسولا * فشاقَكَ أم لقِيتَ لها خَدينا ؟

فقلْتُ : شَكا إلىّ أخٌ مُحِبٌّ * كبعضِ زمانِنا إذ تَعلَمينا ١٠

فقَصَّ علىّ ما يَلْقى بهِنْدٍ * يُذكِّرُ بعضَ ما كنّا نَسينا

وذو القلبِ المُصابِ وإن تعزّى * مشُوقٌ حينَ يَلقَى العاشِقينا

ثم ذكر يمينَه ، فاستغفر الله ، وأعتق رقبةً لكل بيت .

الأخطل والأعور بن بنان

دعا الأعورُ بن بَنان التغلبىُّ الأخطل الشاعر إلى منزله ، فأدخله بيتاً قد نجد بالفُرش الشريفة والوطاء العجيب ، وله امرأة تسمى برّة فى غاية الحسن والجمال ؛ ١٥ فقال له : أبا مالك ، إنك رجل تدخل على الملوك فى مجالسهم ؛ فهل ترى فى بيتى عيبا ؟ فقال له : ما أرى فى بيتك عيبا غيرَك ! فقال له : إنما أعجب من نفسى إذ كنت أدْخلُ مثلك بيتى ! اخرُجْ عليك لعنةُ الله ! فخرج الأخطل وهو يقول :

وكيف يُداوِينى الطّبيبُ من الجَوى * وبرّةُ عنــدَ الأعورِ بن بَنانِ ٢٠

ويُلصِقُ بطناً مُنْتِنَ الريحِ مُجْرزاً * إلى بَطنٍ خَودٍ دائمِ الخفَقانِ

باب من الشعر

يخرج معناه فى المدح والهجاء

لبعض الشعراء

قال الشاعر فى خياط أعور يسمى عَمرا :

خاطَ لى عَمْرو قباء * ليت عينَيْه سَواء

٥ فاسألِ النّاسَ جميعاً * أمَديحٌ أمْ هِجاء

لحبيب وغيره

ومنه قول حبيب فى مرثية بنى حُميد حيث يقول :

لو خَرّ سيفٌ من العَيُّوق مُنصَلِتا * ما كان إلا على هاماتِهم يَقعُ

فلو هجوا بهذا رجلا على أنه أنحس خلق الله ، لجاز فيه ؛ ولو مُدح به على مذهب قول الشاعر :

١٠ وإنا لتستحْلِى المَنايا نُفوسُنا * ونَترُكُ أُخرى مُرَّةً ما نَذوقها

وقول الآخر :

ونحنُ أُناسٌ لا نَرى القَتلَ سُبّةً * إذا ما رأَتهُ عامرٌ وسَلولُ

يُقرّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنا لنا * وتَكرَهُه آجالُهم فتطُول

وما ماتَ منّا سيّدٌ فى فراشِه * ولا طُلَّ منّا حيثُ كان قَتيل

١٥ تَسيلُ على حدّ السُّيوفِ دِماؤُنا * وليس على غيرِ السُّيوفِ تَسيل

لجاز ذلك .

ومثله لحبيب :

آنظر فحيثُ تَرى السُّيوفَ لوامِعاً * أبداً ففوقَ رءوسِهم تتألقُ

ماقالوه فى تثنية الواحد

للفرزدق

٢٠ قال الفرزدق فى تثنية الواحد :

[ألمْ تعلَموا أنّى ابن صاحبِ صَوْأر] * وعِندى حُساما سيفِه وحمائلهْ

لجرير

وقال جرير :

لمَّا تَذَكَّرتُ بالدَّيْرَيْنِ أرَّقَنِى * صوتُ الدَّجاجِ وقرعٌ بالنَّواقِيسِ

وإنما هو دير الوليد ، معروف بالشام ؛ وأراد بالدجاج : الدِّيَكة .

لابن الحطيم

وقال قيس بن الحطيم فى الدرع :

مُضاعفَة يُغشِي الأناملَ رِيعُها * كأنَّ قَتِيرَيْها عُيونُ الجنادِبِ ٥

يريد : قتيرها .

لبعضهم

وقال آخر :

وقالَ لبوّابيـــهِ لا تُدخِلنَّهُ * وسدِّ خَصاصَ البابِ عن كلِّ مَنظرِ

وقال أهل التفسير فى قول الله عز وجل : ﴿ ألقِيا فى جَهنَّمَ كلَّ كفَّارٍ عنيدٍ ﴾ أنه إنما أراد واحداً فثنَّاه : ١٠

لمعاوية

وكذلك قول معاوية للجلْواز الذى كان وكله برَوح بن زنباع لما اعتذر إليه روحٌ واستعطفه : خلِّيا عنه :

قولهم فى جمع الاثنين والواحد

من كلام الله تعالى

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فإنْ كانَ له إخوةٌ فلِأُمِّهِ السُّدُسُ ﴾ . يريد : أخوين فصاعدا . ١٥

وقوله : ﴿ إنَّ الذينَ يُنادُونكَ منْ وراءِ الحُجراتِ أكثَرُهُم لا يَعقِلونَ ﴾ ، وإنما ناداه رجلٌ من بنى تميم .

وقوله : ﴿ وألقَى الألواحَ ﴾ ، وإنما هى لَوحان .

وقال الشاعر :

لولا الرَّجاءُ لِأمرٍ ليس يعلَمُهُ * خَلْقٌ سِواكَ لَمَا ذَلَّتْ لكمْ عُنُقِى ٢٠

ومثل هذا كثير فى الشعر القديم والمحدث .

وقولهم فى إفراد الجمع والاثنين

وأما قولهم فى إفراد الجمع فهو أقل من هذا الذى ذكرناه . وكذلك فى إفراد الاثنين ؛ فن ذلك قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُخرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ .

وقوله : ﴿ فأْتِيا فِرْعَوْنَ فقُولا إنّا رسُولُ رَبِّ العالَمِينَ ﴾ .

٥ وقوله : ﴿ فما مِنكُمْ مِن أحدٍ عنهُ حاجِزِينَ ﴾ .

وقال جرير : لجرير

هذى الأراملُ قد قضّيْتَ حاجَتَها * فمَن لحاجَةِ هذا الأرمَلِ الذَّكَرِ !

وقال آخر : لبعض الشعراء

وكأنّ بالعيْنَيْنِ حَبَّ قَرَنفُلٍ * أو فلفُلٍ كُحلتْ به فانهلّتِ

١٠ ولم يقل : فانهلتا .

وقال مسلم بن الوليد : لمسلم

ألا أنِفَ الكواعبُ عن وصالى * غَداةَ بدا لها شيْبُ القَذالِ

وقال جرير : لجرير

* وقُلنا للنِّساءِ به أقِيمى *

١٥ قولهم فى تذكير المؤنث وتأنيث المذكر

قال مالك بن أسماء بن خارجة الفزارى فى شعره الذى أوله : لابن أسماء

* حبّذا ليْلُنا بتلِّ بَونّا *

ومرَرْنا بنِسْوةٍ عطِراتٍ * وسَماعٍ وقَرقفٍ فنزلنا

ما لهُمْ لا يُبارِكُ اللهُ فيهِمْ * حينَ يُسألنَ مَنْحنا ما فعلْنا

٢٠ وقال آخر ، وقد استشهد به سيبويه فى كتابه : لبعضهم

فلا دِيمــــةٌ ودَقتْ ودْقَها * ولا أرْضَ أبْقلَ إبْقالَها

فذكّر الأرض .

لنصيب وقال نصيب :

إنّ السّماحةَ والمروءةَ ضُمِّنا * قبراً بِمَرْوٍ على الطريقِ الواضِح

لأعرابية وقالت أعرابية :

قامتْ تُبكِّيه على قبرِهِ * من لي مِن بعدِكَ يا عامرُ

تركتَني في الدّارِ وحْشيّةً * قد ذلّ من ليْسَ له ناصِرُ ٥

لأبي نواس وقال أبو نواس :

كَمَنَ الشّنْآنُ فيه لنا * كَكُمُونِ النارِ في حَجَرِهْ

وإنما ذكرت هذا الباب في كتاب الشعر ، لاحتياج الشاعر إليه في شعره واتساعه فيه .

باب ما غلط فيه على الشعراء ١٠

لابن عبد ربه وأكثر ما أدرك على الشعراء له مجاز وتوجيه حسن ، ولكن أصحاب اللغة لا يُنصفونهم ، وربما غلطوا عليهم وتأولوا غير معانيهم التي ذهبوا إليها ؛ فمن ذلك قول سيبويه واستشهد ببيت في كتابه في إعراب الشيء على المعنى لا على اللفظ وأخطأ فيه :

مُعاويَ إنّنا بشرٌ فأَسْجِحْ * فلسْنا بالجِبالِ ولا الحديدَا ١٥

كذا رواه سيبويه على النصب ، وزعم أن إعرابه على معنى الخبر الذي في « ليس » ، وإنما قاله الشاعر على الخفض ، والشعر كله مخفوض ، فما كان يضطره أن ينصب هذا البيت ويحتال على إعرابه بهذه الحيلة الضعيفة ، وإنما الشعر :

مُعاويَ إنّنا بشرٌ فأَسْجِحْ * فلسْنا بالجِبالِ ولا الحديدِ ٢٠

أكلتُم أرضَنا فجرَدْتموها * فهلْ مِن قائمٍ أو من حصيدِ

أتطمعُ في الخلودِ إذا هلَكْنا * وليس لنا ولا لكَ من خُلودِ

فهَبْنا أمّةً هلَكتْ ضَياعاً * يزيدُ أميرُها وأبو يزيدِ

ونظير هذا البيت ما ذكره فى كتابه أيضا واحتج به فى باب النون الخفيفة :

ثَبَتُّمْ ثَباتَ الخَيْزُرانِىِّ فى الثَّرى ۞ حديثاً متى ما يأْتِكَ الخيرُ ينفَعا

وهذا البيت للنجاشى ، وقد ذكره عمرو بن بحر الجاحظ فى فخر قحطان على عدنان فى شعر كله مخفوض وهو :

٥ أيا راكباً إمّا عَرَضْتَ فبلِّغَنْ ۞ بنى عامرٍ عنّى يزيدَ بنَ صعْصَعِ

ثَبَتُّم ثباتَ الخَيْزُرانِىِّ فى الثَّرى ۞ حديثاً متى ما يأْتِكَ الخيرُ ينْفَعِ

ومثله قول محمد بن يزيد النحوى المعروف بالمبرّد فى كتاب الروضة وأدرك على الحسن بن هانئ قوله :

وما لِبكْرِ بنِ وائلٍ عصمٌ ۞ إلا لِحَمْقائِها وكاذِبِها

١٠ فزعم أنه أراد بحمقائها هَبَنَّقَةَ القيسى ، ولا يقال فى الرجل حمقاء ، وإنما أراد دُغَةَ العجلية ، وعِجلٌ فى بكر ، وبها يضرب المثل فى الحمق .

باب من مقاطع الشعر ومخارجه

لابن عبد ربه اعلم بأنك متى ما نظرت بعين الإنصاف ، وقطعت بحجة العقل ، علمت أن لكل ذى فضلٍ فضلَه ، ولا ينفع المتقدم تقدُّمُه ، ولا يضرُّ المتأخر تأخُّرُه ؛ فأما

١٥ من أساء النظم ولم يحسن التأليف فكثير ، كقول القائل :

شرَّ يومَيْها وأغواهُ لها ۞ ركِبَتْ هِنْدٌ بحِدْجٍ جَمَلا

شرّ يوميها ، نُصب على الحال ، وإنما معناه : ركبت هند جملا بحدج فى شرّ يوميها .

وكقول الفرزدق :

٢٠ وما مِثْلُهُ فى الناسِ إلا مُمَلَّكا ۞ أبو أمِّهِ حىٌّ أبوهُ يُقارِبُهْ

معناه : ما مثل هذا الممدوح فى الناس إلا الخليفة الذى هو خاله ، فقال :

۞ أبو أمّه حىٌّ أبوهُ يُقارِبُهْ ۞

فبعّد المعنى القريب ، ووعّر الطريقَ السهل ، ولبّس المعنى بتوعُّر اللفظ وقبح البنية حتى ما يكاد يُفهم .

ومثل هذا إلا أنه أقرب منه إلى الفهم قول القائد :

بينما ظِلٌّ ظليـــلٌ ناعمٌ * طلَعتْ شمسٌ عليه فاضمَحَلّ

٥ يريد : حتى طلعت شمس عليه .

ومثل قول الآخر :

إنّ الكريمَ وأبيـك يعْتَمِلْ * إن لم يجدْ يوماً على مَن يتَّكِلْ

يريد : من يتكل عليه .

ولله در الأعشى حيث قال :

١٠ لم تمشِ مِيلًا ولم تَركبْ على جَمل * ولم ترَ الشمس إلا دُونَها الكِلَلُ

وأبين منه قول النابغة :

ليستْ منَ السُّودِ أعقاباً إذا انْصرَفتْ * ولا تَبيعُ بأعلَى مكّةَ البرَمَا

لبعض المحدثين — وقد حذا على مثال قول النابغة بعض المبرِّزين من أهل العصر ، فقال :

ليست منَ الرُّمْصِ أشْفاراً إذا نظَرتْ * ولا تبيعُ بفَوْقِ الصّخرةِ الرُّغفا

١٥ فقيل له : ما معناك فى هــذا ؟ قال : هو مثل قول النابغة . وأنشد البيت وقال : ما الفرق بين أن تبيع البرم أو تبيع الرغف ، وبين أن تكون رمصاء العينين أو سوداء العقبين .

أبو نواس — وانظر إلى سهولة معنى الحسن بن هانئ وعذوبة ألفاظه فى قوله :

حَذَرَ امْرئٍ ضَرِيَتْ يداه على العِدَا * كالدَّهرِ فيـــه شراسةٌ ولِيَانٌ

٢٠ حبيب — وإلى خشونة ألفاظ حبيب الطائى فى هذا المعنى حيث يقول :

شَرِسْتَ بل لِنتَ بل قابلْت ذاك بِذَا * فأنت لا شكَّ فيـه السهلُ والجبلُ

لبعضهم — وقد يأتى من الشعر ما لا فائدة له ولا معنى ، كقول القائل :

الليلُ ليـــلٌ ، والنهارُ نَهــارُ * والأرضُ فيها المـاءُ والأشجارُ !

الأعشى

وقال الأعشى :

إنْ مُحلًّا وإنْ مُرْتحلَا * وإنْ فى السَّفْرِ إذ مَضَى مثلا

لإبراهيم الشيبانى

وقال إبراهيم الشيبانى الكاتب : قد تكون الكلمة إذا كانت مفردة حوشية بشِعَة ، حتى إذا وضعت فى موضعها وقُرِنَتْ مع إخوتها حسُنَتْ ؛ كقول الحسن بن هانئ :

٥

* ذو حَصَرٍ أفلَتَ منْ كَرِّ القُبل *

والكز كلمة خسيسة ، ولا سيما فى الرقيق والغزل والنسيب ، غير أنها لما وُضعت ف موضعها حسنت .

و العذبة ربما قبُحت ونفرت إذا لم توضع ب موضعها ، مثل قول الشاعر :

١٠

رأ تحاً جوناً فقامت غَريرة * بمسْحاتِها جُنْح الظَّلامِ تُبادرُهْ

فأوقع الجافى الجلفُ هذه اللفظة غير موقعها ، وبخسها حقَّها حين جعلها فى ر مكانها حفا ؛ لأن المساحى لا تصلح الغرائر .

واعلم أنه لا يصلح لك شىء من المنثور والمنظوم ، إلا أن تجرى منه على عرق وأن تتمسك منه بسبب ، فأما إن كان غير مناسب لطبيعتك ، وغير ملائم لقريحتك ، فلا تُنْضِ مطيَّتك فى التماسه ، ولا تُتْعِب نفسك إلى ابتغائه ، باستعارتك ألفاظ الناس وكلامهم ، فإن ذلك غير مثمر لك ولا مُجدٍ عليك ، مالم تكن الصناعة ممازجة لذهنك ، وملتحمة بطبعك .

١٥

واعلم أن من كان مرجعُه اغتصابَ نظم من تقدمه ، واستضاءته بكوكب مَن سبقه ، وسحْبَ ذيلِ حلة غيره ، ولم تكن معه أداة تولِّد له من بنات ذهنه ، ونتائج فكره ، الكلام الجزْل والمعنى الحَفْل ، لم يكن من الصناعة فى عِيرٍ ولا نفير ، ولا وِرْد ولا صدر ؛ على أن سماع كلام الفصحاء المطبوعين ، ودرْس رسائل المتقدمين ، هو على كل حال مما يَفْتق اللسان ، ويقوِّى البيان ، ويُحِد الذِّهن ، ويشحذ الطبع ، إن كانت فيه بقية وهناك خبيَّة .

٢٠

واعلم أن العلماء شبهت المعانى والألفاظ بالأجساد والثياب ، فإذا كتب الكاتب البليغ المعنى الجزل ، وكساه لفظا حسنا ، وأعاره مخرجا سهلا ، ومنحه دلا مونقا ـ كان فى القلب أحلى ، وللصدر أملى ؛ ولكنه بقى عليه أن يؤلفه مع شقائقه وقرائنه ، ويجمع بينه وبين أشباهه ونظائره ، ويَنظمه فى سِلْكه ، كالجوهر لمنثور : الذى إذا تولى نظمَه الناظمُ الحاذق ، وتعاطى تأليفَه الجوهرىُّ العالم ، ٥
ظهر له بأحكام الصنعة ولطيف الحكمة حُسنا هو فيه ، وكساه ومنحه بهجة هى
، وكذلك كلما احلَوْلَى الكلام وعذب وراق وسهلت مخارجه ، كان أسهل
، جاف الأسماع ، وأشدّ اتصالا بالقلوب ، وأخف على الأفواه ؛ لاسيما إذا
ن المعنى البديع مترجما بلفظ موتق شريف ، لم يسِمْه التكلف بميسمه ، ولم
ده التعقيد باستهلاكه ، كقول ابن أبى كريمة : ١٠

قفاه وجهٌ ، والذى وجهُهُ * مثل قفاه يُشْبِهُ الشَّمْسا

فهجّن المعنى بتعقد مخارج الألفاظ ؛ وأخذه الحسن بن هانئ فأوضحه وسهله قال :

بأبى أنت من غزالٍ غريرٍ * بَزَّ حُسنَ الوجوه حُسْنُ قفاكا

وكلاهما أخذه من حسان بن ثابت حيث يقول : ١٥

قفاؤُك أحسن من وجهه * وأُمُّك خيرٌ من المُنذِرِ

وقد يأتى من الشعر فى طريق المدح ما الذمّ أولى به من المدح ، ولكنه يحل ما قبله وما بعده ، ومثله قول حبيب :

لو خرّ سيفٌ من العَيُّوقِ مُنْصلِتاً * ما كان إلا على هاماتِهم يقعُ

هذا لا يجوز ظاهره فى شىء من المدح ، وإنما يجوز فى الذم والنحس ؛ ٢٠
لو وصفت رجلا بأنه أنحس الخلق ، لم تصفه بأكثر من هذا ، وليس
اعة فيه وجه ؛ لأن قولهم «لو خر سيف من السماء لم يقع إلا على رأسه»
ه أن تقول] : هذا رأسُ كلِّ نحس .

قولهم فى رقة التشبيب

لابن الأحنف

ومن الشعر المطبوع الذى يجرى مع النفس رقة ويؤدى عن الضمير إبانة ، مثل قول العباس بن الأحنف :

وليلة ما مثلُها ليلةٌ * صاحبُها بالسَّعْد مفجوع
٥ ليلةَ جئناها على موْعدٍ * نَسْرى وداعِى الشَّوْق مَتْبوعُ
لمَّا خَبَت نيرانُها وانكفا السَّامر عنها وهو مَصروعُ
قامت تَثَنَّى وهى مرعوبةٌ * تَودُّ أنَّ الشَّمْل مجموع
حتى إذا ما حاولتْ خطْوةً * والصَّدرُ بالأردافِ مدفوع
بكى وِشاحاها على مَتْنِها * وإنما أبكاهُما الجوع
١٠ فانتبهَ الهادونَ من أهلها * وصار للوعِدِ مرجوع
ياذا الذى نَمَّ علينا لقد * قلتَ ومنك القول مسْموع
لا تشغلِينى أبداً بعدَها * إلا ونَمَّامُكِ منزوعُ
ما بالُ خَلْخالِكِ ذا خرْسةٍ * لسانُ خَلْخالِك مقْطوع
عاذِلَتِى فى حبِّها أقْصِرِى * هذا لَعَمْرى عنك موضوع

لبشار

١٥ وفى معناه لبشار بن برد :

سيِّدى لا تأتِ فى قمر * لحديثٍ وارقُب الدُّرَعا
وتَوَقَّ الطِّيبَ ليلتنا * إنه واشٍ إذا سطعا

وله أيضا :

يقولان لو عزَّيتَ قلبك لارعَوَى * فقلت وهل للعاشقين قلوب

كثير وشعر جميل

٢٠ الأصمعى قال : سمع كثير عزة مُنشداً ينشد شعر جميل بن معمر الذى يقول فيه :

ما أنتِ والوعْدَ الذى تعديَنِى * إلا كبَرْق سحابةٍ لم تُمْطر
تُقْضَى الدُّيونُ ولست تقْضى عاجلا * هذا الغريمَ ولست فيه بمُعْسِر

يا ليتنى ألقى المنيّــة بغتــةً * إنْ كان يومُ لقائكمْ لم يُقْدرِ
يهواك ما عِشْت الفؤادُ وإن أَمُت * يَتْبعْ صَداى صَداك بين الأقْبُرِ

فقال كثيّر: هذا والله الشعر المطبوع؛ ما قال أحد مثل قول جميل، وما كنت إلا راويةً لجميل، ولقد أبقى للشعراء مثالا تحتذى عليه.

الفرزدق وشعر لابن أبى ربيعة

وسمع الفرزدق رجلا ينشد شعر عمر بن أبى ربيعة الذى يقول فيه: ٥

فقالت وأرْخت جانب السِّتر إنما * معى فتحدَّث غير ذى رِقْبةٍ أهْلى
فقلت لها مالى لهم من ترقّبٍ * ولكنّ سرّى ليس يَحملُه مثْلى

حتى انتهى إلى قوله:

فلما توافقْنا عرَفْت الذى بها * كمثْلِ الذى بى حَذْوَكَ النعْلَ بالنعْلِ

فقال الفرزدق: هذا والله الذى أرادت الشعراء أن تقوله فأخطأته وبكت على الطلول. وإنما عارض بهذا الشعر جميلا فى شعره الذى يقول فيه: ١٠

خليلىّ فيما عشْتُما هل رأيتُما * قتيلاً بكى من حبِّ قاتِلِه قبْلى

فلم يصنع عُمر مع جميل شيئاً.

لابن عبد ربه

ومن قولنا فى رقة التشبيب والشعر المطبوع الذى ليس بدون ما تقدم ذكره:

صحا القلبُ إلّا خطْرة تبعثُ الأسى * لها زَفْرةٌ موْصــولةٌ بحنين ١٥
بلى ربما حلَّتْ عُرى عَزماتِه * ســوالفُ آرامٍ وأعيُنُ عِين
لواقِطُ حبّات القلوب إذا رَنتْ * بسِحرِ عُيونٍ وانكسارِ جُفونِ
ورَيْطِ متين الوَشْىَ أينعَ تحته * ثِمار صُدورٍ لا ثِمار غُصونِ
بُرودٌ كأنوار الرّبيع لبِسْنَها * ثيابَ تَصابٍ لا ثيابَ مُجُون
فرَين أديم الليْل عن نورِ أوْجُهٍ * تُجَنّ بها الألبابُ أىّ جُنون ٢٠
وُجوهٌ جرى فيها النعيم فكُلِّلتْ * بوَرْد خُدودٍ يُجْتنى وعُيون
سألبَسُ للأيام دِرْعاً من العَزا * وإن لم يكن عند اللّقا بحصين
فكيف ولى قلبٌ إذا هَبّتِ الصَّبا * أهَبَّ بشوْقٍ فى الضُّلوع دفين

وَيَهتاجُ منه كلُّ ما كان ساكنا * دُعاء حَمام لم تَبِتْ بُوكون

وإنّ آرتياحى من بُكاء حَمامة * كذِى شَجَن داوَيْتَه بِشُجون

كأنّ حَمَامَ الأيْك حين تجاوَبتْ * حزينٌ بكى من رحمةٍ لحزين

ومما عارضت به صريع الغوانى فى قوله :

٥ أدِيرا علىَّ الرّاحَ لا تشربا قبْلى * ولا تطلبا من عندِ قاتلَتى ذَحْلى

فياحَزَنِى أنى أموتُ صَبابَةً * ولكن على من لا يَحِلُّ له قتْلى

فدَيتُ التى صَدّت وقالت لِترْبِها * دعِيه الثُّرَيّا منه أقربُ من وصْلى

فقلت على رَوِيّه :

أتقْتُلُنى ظلماً وتَجحدُنى قَتْلِى * وقد قام من عيْنيْك لى شاهدا عدْلِ

١٠ أطُلاّب ذَحْلِى ليس بى غيرُ شادِنٍ * بعيْنيْه سحرٌ فاطلبوا عنده ذَحْلِى

أغارَ على قلبي فلما أتيتُه * أُطالبُه فيه أغارَ على عقْلِى

بنفسى التى ضَنّتْ بردِّ سلامِها * ولو سألت قتلِى وهَبْت لها قتْلِى

إذا جئتُها صَدّت حياءً بوجهِها * فتَهجُرُنى هجراً ألذَّ من الوصلِ

وإن حَكَمَت جارتْ علىّ بحكمِها * ولكنّ ذاكَ الجوْرَ أشهى من العدْل

١٥ كَتَمْت الهوى جهْدى فجَدّدَه الأسى * بماء البُكا هذا يَخُطّ وذا يُمْلى

وأحببْت فيها العَذْلَ حبّا لذِكْرها * فلا شىءَ أشهى فى فؤادى من العَذْلِ

أقول لقلبي كُلّما ضامَه الأسى * إذا ما أبيْت العزَّ فاصبرْ على الذلّ

برأيِك لا رأيى تَعرّضتُ للهوى * وأمرِك لا أمرى وفعلِكَ لا فعْلى

وجدْتَ الهوى نَصْلا من الموت مُغْمَدا * فجَرّدْتَه ثم اتّكأْت على النّصْل

٢٠ فإن كنتُ مقتولا على غيرِ رِيبة * فأنتِ التى عرّضْت نفسىَ للقتْلِ

فمن نظر إلى سهولة هذا الشعر ، مع بديع معناه ورقة طبعه ، لم يفضل شعر صريع الغوانى عنده إلا بفضل التقدم ، ولا سيما إذا قُرن قوله فى هذا الشعر

كَتَمْت الذى ألْقى من الحبّ عاذلى * فلم يدْرِ ما بى فاسترَحْتَ من العذل

بقولى فى هذا الشعر :

أحبَبْت فيها العذلَ حُبًّا لذِكْرِها * فلاشىء أشهى فى فؤادى من العذلِ

ومن قولنا فى رقة التشبيب وحسن التشبيه :

كم سَوْسَنٍ لطف الحياء بلونِه * فأصارَهُ وردًا على وجناته

ومثله : ٥

يا لؤلؤًا يَسْبى العقولَ أنيقا * ورَشاً بتقطِيع القلوب رفيقَا

ما إن رأيت ولا سَمِعْت بمثلِه * دُرًّا يعود من الحياء عَقِيقا

ونظير هذا من قولنا فى رقة التشبيب وحسن التشبيه والبديع الذى لانظير له ، والغريب الذى لم يسبق إليه :

حوْراء داعبها الهوى فى حُور * حَكَمَت لواحظُها على المقدورِ ١٠

نظرتْ إلىَّ بمقلةٍ أذمانة * وتلَفّتت بسوالف اليَعْفورِ

فكأنما غاض الأسى بجفونِها * حتى أتاك بلؤلؤ منثورِ

ونظير هذا من قولنا :

أدعو إليك فلا دُعاء يُسْمعُ * يا من يَضُرُّ بناظِرَيْه وينفعُ

للوردِ حينٌ ليس يَطلُعُ دونَه * والورد عندك كلَّ حينٍ يَطلُعُ ١٥

لم تنصدعْ كبدى عليك لضَعفِها * لكنها ذابت فما تتصدّعُ

مَن لى بأجردَ ما يُبين لسانُه * خجلاً وسيْفُ جفونِه ما يَقْطع

منع الكلامَ سوى إشارةِ مُقْلةٍ * فبِها يُكلّمنى وعنها يسمع

ومثله :

جمالٌ يفوتُ الوهْمَ فى غاية الفكر * وطرْفٌ إذا ما فاهَ ينطقُ بالسِّحْر ٢٠

ووجْهٌ أعار البدرَ حُلّةَ حاسدٍ * فمنه الذى يَسْود فى صفْحة البدرِ

وقال بشار بن برد :

ويح قَلبى مابه من حُبِّها * ضاق من كِتْمانه حتى علنْ

لا تلُم فيها وحسِّن حبَّها * كل ما مرّت به العينُ حَسَنْ

وله :

كأنها روضةٌ منوّرةٌ * تنفّستْ فى أواخر السَّحَر

ولبشار ، وهو أشعر بيت قاله المولّدون فى الغزل :

٥ أنا والله أشتهى سحر عَينيـ * ـك وأخشى مَصارع العشّاق

وله :

حَوراء إن نظرت إليـ * ـك سقتْك بالعينين خمرًا

وكأنها بَرْدُ الشرا * ب صفا ووافق منك فِطْرا

ولأبى نواس :

١٠ وذات خدٍّ مورَّدْ * قُوهِيَّة المُتجرَّدْ

تأمّلُ العين منـ * ـها محاسناً ليس تنفَد

فبعضه فى انتهاءٍ * وبعضه يتولَّد

وكلما عُدْت فيه * يكون فى العود أحمد

وله أيضا :

١٥ ضَعيفة كرِّ الطَّرف تحسب أنها * قريبة عهدٍ فى الإفاقة من سُقْمِ

قولهم فى النحول

قال عمر بن أبى ربيعة القرشى يصف نحول جسمه وشحوب لونه فى شعره الذى يقول فيه : لابن أبى ربيعة

رأتْ رُجلاً أمّا إذا الشمسُ عارضتْ * فيضحى وأما بالعشىّ فيَخْصَرُ

٢٠ أخا سَفر جوّابَ أرضٍ تقاذفتْ * به فلَواتٌ فهو أشْعث أغبَرُ

قليلا على ظهر المطيّة ظِلّه * خلا ما نَفَى عنه الرداءُ المحبَّر

وفى هذا الشعر يقول :

فلما فقدتُ الصوتَ منهم وأطفئتْ ٭ مصابيح شبّت بالعِشاء وأنْؤُرُ
وغاب قُميرٌ كنتُ أرجو غيوبَه ٭ وروّحَ رُعْيانٌ ونوّم سُمّر
وخُفِّض عنى الصّوتُ أقبلتُ مِشيةَ الـ ٭ ـحُبَاب وركْنى خيفة القوم أزْوَر
فحيّيتُ إذ فاجأتُها فتلهّفتْ ٭ وكادتْ بمكتوم التحيّةِ تَجهر
وقالت وعضّت بالبنان : فضحتَنى ٭ وأنت امرؤٌ ميْسور أمْرك أعسَر
أرَيْتك إذ هُنّا عليك ألم تَخف ٭ رقيباً وحوْلى من عدوّك حُضَّر
فوالله ما أدرى أتعجيل حاجةٍ ٭ سَرتْ بك أم قد نام من كنتَ تحذَر
فقلت لها بل قادنى الشوق والهوى ٭ إليكِ وما عينٌ من الناس تنظر
فيالك من ليلٍ تَقاصَر طوله ٭ وما كان ليلى قبل ذلك يَقصر
ويالك من ملهى هناك ومجلس ٭ لنا لم يكدّرْه علينا مكدِّر
يَمجُّ ذكىَّ المسك منها مفلَّجٌ ٭ رقيق الحواشى ذو غروبٍ مؤشَّر
وتَرنو بعينيها إلىّ كما رَنا ٭ إلى رَبرب وسْط الخميلةِ جُؤذر
بَروق إذا تفترُّ عنه كأنه ٭ حصَى بَرَدٍ أو أقحوان منوِّر
فلما تقضّى الليل إلا أقلّه ٭ وكادت توالى نجمِه تتغـوّر
أشارت بأنّ الحىّ قد حان منهمُ ٭ هُبوب ولكن موْعد لك عزْوَر
فما راعنى إلا منادٍ برحلةٍ ٭ وقد لاح مفتوق من الصُّبح أشقَر
فلما رأت مَن قد تنوّر منهمُ ٭ وأيقاظَهم قالت أشِرْ كيف تأمر
فقلت : أباديهم فإمّا أفوتهم ٭ وإمّا يَنال السيف ثأراً فيثأر
فقالت : أتحقيقاً لما قال كاشح ٭ علينا وتصديقاً لما كان يُؤثَر
فإن كان ما لا بدّ منه فغيْره ٭ من الأمر أدنى للخفاء وأستَر
أقصُّ على أختىَّ بَدءَ حديثنا ٭ ومالىَ من أن يعلما متأخَّر

لعلّهما أن يَبغيا لك مخرَجًا * وأن يَرْحبا صدراً بما كنت أحصَر
فقالت لأختيْها أعينا على فتى * أتى زائراً والأمر للأمر يُقدَر
فأقبلتا فارتاعَتا ثم قالتا * أقِلّى عليكِ اللوم فالخطْب أيسَر
يقوم فيمشى بيننا متنكِّراً * فلا سِرُّنا يفشو ولا هو يُبصِر
٥ فكان مِجَنّى دون ما كنت أتّقى * ثلاثَ شخوصٍ: كاعبان ومُعصِر
فلما أجَزْنا ساحةَ الحىِّ قُلْنَ لى * ألم تتّق الأعداء والليل مُقمِر
وقُلْنَ أهذا دأبك الدهرَ سادراً * أما تستحى أم ترعوى أم تفكّر

ويروَى أنّ يزيد بن معاوية لما أراد توجيه مسلم بن عقبة إلى المدينة ، اعترض الناس ، فمرّ به رجل من أهل الشام معه تُرس قبيح ، فقال : يا أخا
١٠ أهل الشام ، مجنّ ابن أبى ربيعة كان أحسن من مجنّك هذا ! يريد قول عمر ابن أبى ربيعة :

فكان مجنّى دون ما كنت أتّقى * ثلاثَ شخوصٍ: كاعبانِ ومُعصِر

وقال أعرابىّ فى النحول : لأعرابى

ولو أنّ ما أبقيْتِ منى معلّق * بعُود ثَمامٍ ما تأوّدَ عودُها

١٥ وقال آخر : لبعضهم

إن تسألونى عن تباريحِ الهوى * فأنا الهوى وأبو الهوى وأخوهُ
فانظرْ إلى رجلٍ أضرَّ به الأسى * لولا تقلُّب طرفه دفنوه

وقال مجنون بنى عامر فى النحول :

ألا إنما غادرتِ يا أمَّ مالك * صدًى أينما تذهبْ به الريح يذهبِ

٢٠ وللحسن بن هانئ : لابن هانئ

كما لا ينقضى الأرَبُ * كذا لا يَفتُر الطلبُ
ولم يُبقِ الهوى إلا * أقلّ وهو مُحتسَب
سوى أنى إلى الحيوا * ن بالحركات أنتسب

وقال آخر وهو خالد الكاتب :

هذا مُحِبُّكِ نِضْوٌ لاحَراك به * لم يبقَ من جسمه إلا توهُّمه

لابن عبد ربه ومن قولنا فى هذا المعنى :

سبيلُ الحبِّ أوله اغتِرارُ * وآخره همومٌ وادِّكارُ

وتلقى العاشقين لهم جُسومٌ * بَراهاالشوقلو نُفخوا الطاروا ٥

ومثله من قولنا :

لم يبقَ من جُثْمانِه * إلا حُشاشة مبتئِس

قد رَقَّ حتى ما يُرى * بل ذاب حتى ما يُحَس

وقال الحسن بن هانئ فى هذا المعنى ، فأربى على الأولين والآخرين :

يامَن تَموّتَ عمْداً * فكان للعين أملَى ١٠

وفى الشعوثة أرْبى * فكان أشهى وأحلَى

أردتَ أن تزدريكَ * العيون هيهات كلاَّ

ياعاقدَ القلبِ منى * هلَّا تَذكّرتَ حَلَّا

تَركْت منى قليلا * من القليل أقلّا

يكاد لا يَتجزّا * أقلُّ فى اللفظ من لا ١٥

لأبى العتاهية ولأبى العتاهية :

تلاعبْتِ بى ياعُتْبَ ثم حَملْتنى * على مركب بين المنية والسُّقْم

ألا فى سبيل الله جسمى وقوّتى * ألا مُسعد حتى أنوح على جسمى

وله :

لم تُبْق منى إلا القليلَ وما * أحسبها تترك الذى بقيا ٢٠

قولهم فى التوديع

ابن حميد وجاريته

قال سعيد بن حميد الكاتب وكان على الخراج بالرقة : ودعت جارية لى تسمى شفيعاً وأنا أضحك وهى تبكى ، وأقول لها : إنما هى أيام قلائل ! قالت : إن كنت تقدر أن تخلف مثل شفيع فنعم ! فلما طال بى السفر واتصلت بى الأيام
٥ كتبتُ إليها كتابا ، وفى أسفله :

ودَّعْتُها والدّمع يقطُرُ بيننا ✽ وكذاكَ كلُّ مُلذَّعٍ بفِراقِ
شُغِلَتْ بتفْييضِ الدُّموعِ شِمالُها ✽ ويمينُهـــا مشْغولةٌ بعناق

قال : فكتبتْ إلىّ فى طومار كبير ليس فيه إلا : بسم الله الرحمن الرحيم ؛ [فى أوله] وفى آخره : ياكذاب ، وسائر الكتاب أبيض ، قال : فوجهتُ الكتاب
١٠ إلى ذى الرياستين الفضل بن سهل . وكتبتُ إليها كتاباً على نحو ما كتبت ، ليس فيه إلا : بسم الله الرحمن الرحيم ، فى أوله ، وفى آخره أقول :

فودّعتُها يومَ التفرُّقِ ضاحِكا ✽ إليها ولم أعْلَمْ بأنْ لا تَلاقِيا
فلو كنتُ أدرى أنهُ آخِرُ اللِّقا ✽ بكَيْتُ وأبْكيتُ الحبيبَ المُصافيا

قال : فكتبتْ إلىّ كتابا آخر ليس فيه إلا : بسم الله الرحمن الرحيم ، فى أوله ،
١٥ وفى آخره : أعيذك بالله أن يكون ذلك! فوجهتُه إلى ذى الرياستين الفضل بن سهل فأشخَصَنى إلى بغداد وصيّرنى إلى ديوان الضياع .

ابن يحيى وجاريتان

محمد بن يزيد الرَّبعى عن الزبير عن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل قال : إنه لما نفاه المتوكل إلى جزيرة أقريطش فطال مقامه بها ، تمتع بجارية رائعة الجمال بارعة الكمال ، فأنسته ما كان فيه من رونق الخلافة وتدبيرها ، وكان
٢٠ قبل ذلك متيّما بجارية خلّفها بالعراق ، فسلا عنها ؛ فبينما هو مع الأقريطشيّة فى سرور وحبور ، يحلف لها أنه لا يفارق البلد ما عاش ، إذ قدم عليه كتاب جاريته

من العراق وفيه مكتوب :

كيف بَعدِى لاذُقتمُ النومَ أنتم ٭ خبّرونى مُذ بِنتُ عنكمْ وبِنتُمْ
بمِراضِ الجفُونِ من خُرّدِ العيـــنِ وورْدِ الخدودِ بعْدى فتِنْتم
يا أخِلاّىَ إنّ قلبى وإنْ با ٭ نَ، من الشوقِ عندكم حيثُ كنتم
فإذا ما أبَى الإلهُ اجتماعاً ٭ فالمنايا علىّ وحدى وعِشتُم ٥

أخذَتْ هذا المعنى من قول حاتم :

إذا ما أتى يومٌ يُفرّقُ بيننا ٭ بموتٍ، فكُنْ أنت الذى تتأخّرُ

فلم يباشر لذة بعد كتابها ، حتى رضى عنه المتوكل وصرفه إلى أحسن حالاته .

المعتز وجارية لابن رجاء

الزبيرى قال : حدثنى ابن رجاء الكاتب قال : أخذ منى الخليفة المعتز جارية كنت أحبها وتحبنى ؛ فشربا معاً فى بعض الليالى ، فسكر قبلها ، وبقيت وحدها ولم ١٠ تبرح من المجلس هيبةً له ، فتذكرتْ ما كنا فيه من أيامنا ، فأخذت العود فغنت عليه صوتاً حزيناً من قلب قريح وهى تقول :

لا كان يومُ الفِراقِ يوما ٭ لم يُبقِ للمُقْلتيْن نوما
شتّتَ منّى ومنكَ شَمْلا ٭ فسرّ قوماً وساء قوما
ياقومِ مَن لى بوجْدِ قلْبٍ ٭ يسومُنى فى العذابِ سَوما ١٥
مالامَنى الناسُ فيـه إلا ٭ بكيْتُ كيما أزاد لَوما

فلما فرغت من صوتها رفع المعتز رأسه إليها والدموع تجرى على خديها كالفرند انقطع سلكه فسألها عن الخبر وحلف لها أن يبلغها أملها ، فأعلمته القصة فردها إلىّ وأحسن إليها ، وألحقنى فى ندمائه وخاصته .

أبو أحمد وجارية له

وكان لأبى أحمد صاحب حرب المعتمد جارية ، فكتبت إليه وهو مقيم على ٢٠ العلوى بالبصرة تقول :

لنا عَبَراتٌ بعدَكم تبعثُ الأسَى ٭ وأنفاسُ حُزن جَمّةٌ وزَفيرُ
ألاليت شِعْرِى بعدَنا هل بَكيتُمُ ٭ فأمّا بُكائى بعْدَكم فكثيرُ

قال أبو أحمد : فلم يكن لى همٌّ غيرها حتى قفلتُ من غزاتى .

مروان وجاريته

وكتب مروان بن محمد وهو منهزم نحو مصر إلى جارية له خلفها بالرّملة :

وما زالَ يَدعونى إلى الصَّدِّ ما أرى * فأَأْبَى ويَثْنِينِى الذى لكِ فى صَدرى
وكانَ عزيزاً أنْ بيْنى وبينَها * حِجاباً فقد أمسَيْتُ منكِ على عَشْرِ
٥ وأَنْكاهُما واللهِ للقلبِ فاْعلَمى * إذا ازْدَدتُ مِثلَها فصرْتُ على شهْرِ
وأعظمُ منْ هذَين واللهِ أنّى * أخافُ بأنْ لا نَلتَقِى آخرَ الدّهْرِ
سأبكيكِ لامُستبقِياً فيضَ عَبْرةٍ * ولا طالباً بالصَّبْرِ عاقبةَ الصَّبْرِ

ابن بكار ورجل بالثغر

الزبير بن بكار قال : رأيت رجلا بالثغر وعليه ذلة واستكانة وخضوع ، وكان يكثر التنفس ، ويخفى الشكوى ، وحركات الحب لا تخفى ؛ فسألتُه وقد
١٠ خلوتُ به فقال وقد تحدّر دمعه :

أنا فى أمرَىْ رشادٍ * بينَ غزوٍ وجهادِ
بَدنى يَغزو الأعادِى * والهوى يَغْزُو فؤادِى
يا عَليا بالعبــادِ * رُدّ إلفى ورُقادى

لأعرابى

وقال أعرابىٌّ يصف البين :

١٥ أَدْمَتْ أنامِلَها عَضًّا على البَيْنِ * لمّا انْثَنتْ فرأَتْنى دامعَ العيْنِ
وودّعتْنِى إيماءً وما نَطَقتْ * إلا بسَبّابةٍ منها وعيْنَيْنِ
وَجدى كوَجدِكِ بل أضعافُه فإذا * عنّى تَوارَيْتِ قابَ الرُّمحِ وَاحَيْنِى
وإنْ سَمِعتِ بموتى فاْطلُبى بدمِى * هَواكِ والبيْنَ واْستعْدِى على البيْنِ

لبعضهم

وقال آخر :

٢٠ مالتْ تُودّعُنى والدّمعُ يَغلِبُها * كما يميلُ نَسيمُ الرِّيحِ بالغُصُنِ
ثمّ اْستمرّت وقالتْ وهْىَ باكيةٌ * ياليت مَعرِفتى إيّاكَ لم تَكُنِ

وقال آخر :

أنين فاقدِ إلْفٍ أنّ فى الغَلَسِ * حتى تَضايق منه مَخْرَجُ النَّفَسِ

فكلّما أنّ من شَوْقٍ أجالَ يداً * على فؤادٍ له بالبيْن مُختَلَس

وقال آخر :

أمُبْتكِرٌ لِلبيْنِ أم أنت رائحُ * وقلبك ملهوفٌ ودمعُكَ سافحُ ٥

ألآن تبكى والنّوى مُطْمَئِنّةٌ * فكيف إذا بارَحْتَ مَنْ لا تبارِحُ

فإنك لم تَبْرَحْ ولا شَطَّتِ النوى * ولكنّ صبرى عن فؤادىَ نازحُ

وقال آخر :

إذا انفتحت قيودُ البيْنِ عنّى * وقيل أُتيحَ للنّائى سَراحُ

أبت حلقاتُهُ إلّا انقفالا * ويأْتى اللهُ والقدرُ المُتاح ١٠

ومن لى بالبقاء وكلّ يوم * لسهمِ البيْنِ فى كبِدى جِراحُ

لمحمد بن أبى أمية — وقال محمد بن أبى أمية الكاتب :

يا غريباً يبكى لكلّ غريب * لم يَذُقْ قبلَها فِراق حبيب

عزّهُ البيْنُ فاستراح إلى الدّمْـ * ـع وفى الدمع راحةٌ للقلوبِ

ختَلتْهُ حوادثُ الدهرِ حتى * أقصدَتْهُ منها بسهم مُصيب ١٥

أىْ يومٍ أراك فيه كما كنْـ * ـت قريباً فأشتكى من قريب

لأبى الطيامير — وقال أبو الطيامير :

أقول له يومَ ودّعْتُهُ * وكلٌّ بعَبْرتِه مُبلسُ

لئن رجعَتْ عنك أجسامُنا * لقد سافرتْ معكَ الأنفُسُ

لأبى العتاهية — وقال أبو العتاهية : ٢٠

أبيتُ مُسَهّداً قلِقاً وِسادِى * أُروِّحُ بالدموعِ عنِ الفؤادِ

فراقكَ كان آخرَ عهد نومى * وأوّل عهد عينى بالسُّهادِ

فلم أر مثل ماسُلِبَتْهُ نفسى * ومارجعتْ به من سوء زادِ

وقال محمد بن يزيد التُّسْتَرى : للتسترى

رَفعتْ جانباً إليكَ منَ الكِلَّـ * ـةِ قد قابلَتْهُ طرْفاً كحيـلا

نظرتْ نظرةَ الصَّبابةِ لا تَمْـ * ـلِكُ للبين دَمعها أن يجولا

٥ ثم ولّتْ وقد تغير ذاك الصُّـ * ـبحُ من خدِّها فعاد أصيلا

وقال يزيد بن عثمان : لابن عثمان

دَمعـة كاللُّـؤْلُؤ الرَّطـ * ـب على الخـدِّ الأسيل

وجُفُون تنفُثُ السِّحْـ * ـرَ من الطَّرْفِ الـكحيل

إنمـا يَفْتضِحُ العـا * شقُ فى يوم الرحيل

١٠ وقال على بن الجهم : لابن الجهم

ياوحشتا للغريبِ فى البلدِ النّـ * ـازح ماذا بنفسه صـنعا

فارق أحبـابَه فـا انتفعوا * بالعَيْشِ من بعدِه وما انتفعا

يقولُ فى نَأيِه وغُرْبتِـه : * عدلٌ من الله كلُّ ما صنَعا

وقال آخر : لبعضهم

١٥ بانُوا وأضحى الجسمُ من بعدهِمْ * ما تُبْصِرُ العـينُ له فَيّـا

يا أسفى منهم ومن قولِهِمْ * ما ضرّكَ الفقدُ لنـا شَيّا

بأىِّ وجـهٍ أتلقـاهُمُ * إن وجدونى بعـدهُمْ حيّا

وقال آخر :

أترْحلُ عن حبيبِك ثم تبكى * عليه ، فمن دعاكَ إلى الفِراقِ ؟

٢٠ وقال هُدْبة العذْرى : لهدبة

ألَا ليت الرياح مسخَّراتٌ * بحاجتنا تُبـاكِرُ أو تئوبُ

فتُخْبِرَنا الشَّمالُ إذا أتتْنـا * وتُخْبرَ أهلنا عنّـا الجَنوبُ

عسى الكربُ الذى أمسيتُ فيه * يكون وراءه فرجٌ قريبُ
فيأمنَ خائفٌ ويُفكَّ عانٍ * ويأتىَ أهلَه النّائى الغريب

لبعضهم — وقال آخر :

لا بارك الله فى الفِراقِ ولا * بارك فى الهَجْرِ ما أمرَّهُما
لو ذُبح الهجرُ والفِراقُ كما * يُذبحُ ظبيٌ لَما رحِمْتُهما ٥
شربتُ كأسَ الفراقِ مُتْرَعةً * فطار عن مُقْلتىَّ نومُهما
يا سيِّدى والذى أؤمِّلُه * ناشدْتُك اللهَ أن تذوقَهُما

لحبيب — وقال حبيب الطائى :

الموت عنـــدى والفِرا * قُ كِلاهما ما لايُطـاقْ
يتعاونانِ على النفو * سِ فذا الحِمامُ وذا السِّياقُ ١٠
لو لم يكن هـذا كذا * ما قيل موتٌ أو فِراق

وقال آخر :

شتانَ ما قُبْلةُ التّلاقِ * وقُبلةٌ ساعةَ الفِراقِ
هٰذِى حياةٌ وتلك موتٌ * بينهما راحةُ العِناق

لابن حميد — وقال سعيد بن حميد : ١٥

موقفُ البيْنِ مأتم العاشقينا * لا ترى العيْنُ فيه إلّا حزينَا
إنّ فى البيْن فرحتَيْن : فأمّا * فرحتِى بالوَداع للظّاعِنينا ...
فاعتِناقٌ لِمَن أحِبُّ وتقْبيـــلٌ ولمسٌ بحضرةِ الكاشِحينا
ثم لى فرحة إذا قَدِم النّا * سُ لتسليمِهم على القادِمينا !

لأعرابى — وقال أعرابى : ٢٠

ليلُ الشّجىِّ على الخلىِّ قصيرُ * وبَلا المحبِّ على المحبِّ يسيرُ
بانَ الذين أحبُّهُم فتحمّلوا * وفراقُ من تهوى عليك عسيرُ

فلأبعثَنّ نِياحـةً لفراقِهم * فيها تُلطَم أوجُهٌ وصُدورُ
ولألبسَنّ مَدارعاً مُسوَدّة * لُبْس الثّواكِلِ إذ دهاكِ مسيرُ
ولأذكُرنّك بعد موتى خاليا * فى القبر عندى منكَرٌ ونكيرُ
ولأطلُبنّك فى القيامةِ جاهداً * بين الخلائقِ والعبادُ نُشور
٥ فبِجنّةٍ إن صِرْت صِرتُ بجنةٍ * ولئن حَواك سعيرُها فسَعير
والمُسْتهام بكلّ ذاك جدير * والذّنْبُ يُغفَروالإله شَكور

ومن قولنا فى البين : لابن عبد ربه

هَيّج البيْنُ دواعِى سَقَمى * كَسا جسمى ثوْب الألم
أيهـــا البيْنُ أَقِلْنى مرة * فإذا عُدْتُ فقد حَلّ دمِى
١٠ يا خَلِيَّ الرَّوع نَم فى غِبطةٍ * إنّ من فارقْتَه لم يَنَم ا
ولقـــد هاج لقلبى سَقَمًا * ذِكْرمن لوشاء داوى سَقمى

ومن قولنا فى المعنى :

ودّعتْنى بزفرةٍ واعتنـــاقِ * ثم نادت : متى يكونُ التلاق؟
وتصدّت فأشرَق الصّبحُ منها * بيْن تلك الجيوبِ والأطواقِ
١٥ ياسقيمَ الجفونِ من غيرِ سُقْمٍ * بين عينيْك مَصْرعُ العُشّاقِ
إنّ يوم الفِراق أفظعُ يومٍ * ليتَنى مِتُّ قبل يوم الفِراقِ

ومن قولنا فيه :

فررْتُ من اللّقاءِ إلى الفِراقِ * فحسبِى ما لقيتُ وما أُلاقى
سَقانى البيْن كأس الموْتِ صِرْفاً * وما ظنى أموتُ بكفّ ساق
٢٠ فيابَرْد اللقــاءِ إلى فؤادى * أَجِرْنى اليومَ منْ حرّ الفِراق

وقال مجنون بنى عامر .

وإنى لمُفْنٍ دمعَ عينى من البكا * حَذاراً لأمرٍ لم يكن وهو كائن

وقالوا : غداً أو بعد ذاك بليْلةٍ ٭ فِراقُ حبيب لم يَبِنْ وهو بائنُ
وما كنتُ أخشى أن تكونَ منيّتى ٭ بكفّىَّ إلّا أنّ ماحانَ حائن

الباهلى وقال أبو هشام الباهلى :

خليلى غداً لا شكّ فيه مودِّعُ ٭ فوالله ماأدرى غداً كيف أصنعُ
فواحَزَنا إن لم أوَدِّعه غُدْوةً ٭ ويا أسفا إن كنتُ فيمنْ يُوَدِّع ٥
فإن لم أوَدِّعْه غَداً مِتُّ بعده ٭ سريعاًوإن ودّعْت فالموتُ أسرع
أنا اليومَ أبكيه فكيف به غداً ٭ أنا فى غَد واللّه أبكى وأجزع
لقد سَخِنَتْ عينى وجلّت مُصيبتى ٭ غَداةَ غدٍ إن كان ماأتوقّع
فيايومُ لاأدبَرْتَ اهل لكمَحْبِسٌ؟ ٭ ويا غَدُ لاأقبلْت اهل لك مدفَعُ

لبشار وقال بشار بن برد : ١٠

نبتْ عينى عن التغميض حتى ٭ كأنّ جفونها عنها قِصارُ
أقول وليلتى تزداد طولاً ٭ أما للّيل بعدكم نهار

للمعتصم وقال المعتصم لما دخل مصر وذكر جارية له :

غريبٌ فى قُرى مِصْرٍ ٭ يُقاسى الهمَّ والسّقَما
لَليْلكَ كان بالمَيْدا ٭ نِ أقصرَ منه بالفرما ١٥

لبعضهم وقال آخر :

وداعُكَ مثْلُ وداعِ الربيع ٭ وفقدُكَ مثلُ افتِقادِ الدِّيَمْ
عليكَ سلامٌ فكمْ من نَدًى ٭ فقدْناه منكَ وكم من كَرَم

قولهم فى الحمام

لجحدر قال أبو الحسن الأخفش : قال جحدر العُكلى ، وكان لصّا : ٢٠

وقِدْماً هاجَنى فازْدَدْتُ شوقاً ٭ بُكاءُ حمامتَيْن تَجاوَبانِ
تجاوَبتا بلحْن أعجَمِىٍّ ٭ على عودَيْنِ من غربٍ وبان

فكان البانُ أن بانت سُليمى ٭ وفى الغرب اغترابٌ غيرُ دان

وقال آخر :

وتفرّقوا بعــدَ الجميع لأنّه ٭ لا بدّ أن يتفرّقَ الجيرانُ

لا تصبرُ الإبلُ الجيادُ تفرّقتْ ٭ بعد الجميع ، ويَصبرُ الإنسانُ !

٥ وقال آخر :

فهل ريبة فى أن تحنّ نجيبةٌ ٭ إلى إلفها أو أنْ يحنّ نجيبُ

وإذا رجعت الإبل الحنين كان ذلك أحسنَ صوت يهتاج له المفارِقون كما يهتاجون لنوح الحمام .

وقال عوف بن مُحلِّم : لابن محلم

١٠ ألا يا حمامَ الأيْكِ إلفكَ حاضرٌ ٭ وغُصْنُكَ ميّادٌ ففيمَ تنوحُ ؟

وكل مطوّقة عند العرب حمامة ، كالدُّبْسِى والقُمرى والورَشان وما أشبه ذلك ؛ وجمعها حمام ، ويقال : حمامة ، للذكر والأنثى ؛ كما يقال : بطة ، للذكر والأنثى ؛ ولا يقال حمام إلا فى الجمع ، والحمامة تبكى وتغنى وتنوح وتغرد وتسجع وتقرقر وتترنم ؛ وإنما لها أصوات سجيع لا تُفهم فيجعله الحزين بكاء ، ويجعله

١٥ المسرور غناء .

قال حميد بن ثور : لحميد

وما هاجَ هذا الشوقَ إلا حمامةٌ ٭ دعَتْ ساقَ حُرٍّ تَرحةً وتَرنُّما

مُطوّقةٌ خطْباء تَسجعُ كلّما ٭ دنا الصّيفُ وانزاحَ الربيعُ فأنجما

تغنّتْ على غُصنِ عشاءً فلم تَدعْ ٭ لنائحـــةٍ فى نوحِها مُتلوّما

٢٠ فلم أرَ مِثلى شاقَه صوتُ مثلِها ٭ ولا عربيا شاقه صوتُ أعجما

وقال مجنون بنى عامر : للمجنون

ألا يا حماماتِ اللّوى عُدنَ عُدوةً ٭ فإنى إلى أصواتِكنّ حزين

فعُدنَ ، فلما عُدن كِدنَ يُمِتْنَنى * وكدتُ بأشجانى لهنّ أبين

فلم تَر عينى مِثلهُنّ بواكياً * بَكيْنَ ولم تَذرِفْ لهن عُيون!

لحبيب وقال حبيب فى المعنى :

هُنّ الحَمامُ فإن كَسرْتَ عيافةً * من حائِهن فإنّهن حِمامُ

وقال : ٥

كما كادَ يَنسى عهدَ ظمياء باللِّوى * ولكنْ أملّتهُ علىّ الحمائمُ

بَعثْنَ الهوى فى قلب من ليسَ هائما * فقلْ فى فُؤادى رُعنَهُ وهْو هائم

لها نَغَمٌ ليسَت دُمُوعاً فإن علت * مَضت حيثُ لا تَمضى الدُّموعُ السواجم

لابن عبد ربه ومن قولنا فى الحمام :

١٠ فكيفَ، ولى قلبٌ إذا هبّت الصَّبا * أهاب بِشوقٍ فى الضلوعِ مكِينِ

ويَهتاجُ منه كلُّ ما كان ساكِنا * دُعاء حمامٍ لم تَبِت بوُكون

وكان ٱرتياحِى من بُكاء حمامةٍ * كَذِى شجَن داوَيْتَه بشُجون

كأنّ حمامَ الأيكِ لما تجاوبَت * حزينٌ بكى من رحمةٍ لِحزينِ

ومن قولنا فى المعنى :

١٥ ونائِح فى غُصونِ الأيْكِ أرّقنى * وما عنِيت بشىء ظَلّ يَعنيه

مُطوّقٌ بخضابٍ ما يُزايِلهُ * حتى تُفارقَه إحدى تَراقيه

قد بات يَشكو بشجْوٍ ما دَريت به * وبِتُّ أشكو بشجْوٍ ليس يَدْريه

ومن قولنا فيه :

أناحت حماماتُ اللِّوى أم تغنّتِ * فأبدَتْ دواعى قلبه ما أجنّت

٢٠ فدَيْت التى كانت ولا شىء غيرها * مُنى النفْسِ لو تُقضَى لها ما تمنّت

ومن قولنا :

لقد سَجعت فى جُنحِ ليْل حمامةٌ * فأىّ أسًى هاجت على الهائِم الصبّ

لكِ الويلُ كم هيّجت شجواً بلا جوى * وشكوى بلا شكوى وكرباً بلا كربِ
وأسكبْت دمعا من جفونِ مسهّدٍ * ومارقرقتْ منك المدامعِ السّكبِ

وقال ذو الرمة : لذى الرمة

رأيتُ غُراباً ناعِباً فوقَ بانةٍ * من القضْب لم ينبُتْ لها ورقٌ نَضر
٥ فقلتُ غُرابٌ لاغترابٍ وبانةٌ * لبينِ النّوى هذا العيافةُ والزّجر

قولهم فى طيب الحديث

قال عدى بن زيد : لعدى

فى سماعٍ يأذنُ الشيخُ له * وحديثٍ مثلِ ماذِيٍّ مُشارِ

وقال القطامى : للقطامى

١٠ فهنّ ينبِذْنَ من قولٍ يُصبن بهِ * مواقعَ الماءِ من ذى الغلةِ الصّادى

وقال جران العَوْد : لجران العود

فنِلنا سِقاطاً من حديث كأنهُ * جَنى النّحلِ أو أبكارُ كرْمٍ تقطّفُ

وقال آخر : لآخر

وإنا ليَجْرِى بيننا حين نلتقى * حديثٌ له وشْىٌ كوشْيِ المطارِف

١٥ وقال بشار : لبشار

وكأن نَشْرَ حديثها * قِطَعُ الرياض كُسينَ زَهرا

وله :

لئن عشقتْ أذنى كلاماً سمعتُهُ * فقلبى إذاً لا شكّ باللحظ أعشقُ
وكيف تناسِى من كأنّ كلامه * بأُذْنى ولو عزيتُ قُرْط معلّقُ

٢٠ وقال بشار أيضا :

وبكر كنُوّارِ الربيع حديثُها * يَروقُ بوجْهٍ واضِحٍ وقوامِ

لبعضهم وقال آخر:

كأنما عسلٌ رُجْعانُ منطِقِها * إن كان رَجْعُ كلامٍ يُشبه العسلا

وقال آخر:

وحديثٌ كأنه زهَرُ الرَّوْ * ضِ وفيه الصّفْراء والحمراء

قولهم فى الرياض

٥

المعلى أنشد أحمد بن جِدار للمعلّى الطائى:

كأنّ عيونَ الرَّوْضِ يَذْرِفْن بالنّدى * عيونٌ يُراسلْن الدموعَ على غدْرِ

البحترى وقال البحترى:

شقائقُ يحمِلنَ النّدى فكأنه * دُموع التّصابى فى خُدودِ الخرائدِ

ومن لؤلؤٍ كالأقحوانِ مُنضّدٍ * على نُكَت مُصْفرّةٍ كالفرائد

١٠

وقال أيضا:

وقد نبَّه النَّيْرُوز فى غَلَسِ الدُّجى * أوائلَ وَرْدٍ كُنّ بالأمس نُوّما

يُفتِّقُه بردُ النّــدى فكأنه * يَبُثُّ حديثاً كان قبلُ مُكتّما

ومن شجَرٍ رَدّ الرَّبيعُ لباسَــه * عليها كما نَشَّرْت وشْياً مُنَمْنَما

الأعشى وقال أعشى بكر:

١٥

ما روْضةٌ من رياض الحُسنِ مُعْشِبةٌ * خضراء جادَ عليها مُسْبلٌ هَطِلُ

يُضاحك الشمسَ فيها كوكبٌ شَرِقٌ * مُؤزَّرٌ بعميمِ النَّبْتِ مُكْتَهلُ ...

... يوما بأطيَبَ منها نشْرَ رائحةٍ * ولا بأحسنَ منها إذ دنا الأصلُ

لابن أبى طاهر وأنشد ابن أبى الطاهر لنفسه:

فتقَتْ جيوبَ الرَّوْضِ منها دِيمة * حلَتْ عَواليهــا صَباً وقَبولُ

٢٠

ولهــا عيونٌ كالعيونِ نواظرٌ * تبدو فمنهــا أمْرَهٌ وكحيل

للأخطل الصغير

وقال الأخطل الصغير :

خلَع الرَّبيعُ على الثَّرى من وَشْيِه * حُللا يَظَلُّ بهـا الثرى يتخيَّلُ

نَور إذا مَرَت الصَّبا فيه الندى * خِلْتَ الزَّبرْجدَ بالفَريد يُفصَّل

فكأنها طَوْراً عُيونٌ كُحَّلٌ * وكأنها طوْراً عُيونٌ هُمَّل

لأبى نواس

٥ وقال أبو نواس :

يومٌ تَقاصرَ وآستتبَّ نعيمه * فى ظلّ مُلْتفِّ الحدائق أخضرَا

وإذا الرِّياح تنسَّمت فى روْضةٍ * نَثرتْ به مسكا عليك وعنبَرا

لابن أبى زرعة

وأنشد ابن مُسهر لابن أبى زرعة الدمشقى يقول :

وقد لبسَتْ زهرُ الرِّياض حُلِيَّها * وجُللتِ الأرضُ الفضا بالزخارفِ

١٠ لجَيْنٌ وعِقْيانٌ ودُرٌّ وجوهرٌ * تُؤلِّفُه أيدى الربيع اللطائف

البحترى

وأنشد البحترى لنفسه :

قطراتٌ من السحابِ وروْضٌ * نَثَرتْ وردَها عليه الخدودُ

وكأن الحوذانَ الأقحوانَ الـــغَضَّ نَظْمان : لؤلؤٌ وفريدُ

للمعلى

وأنشد ابن جِدار للمعلّى :

١٥ ترى للندَى فيه مجالا كأنما * نَثَرْت عليه لؤلؤاً فتبدّدا

لابن الحارثى

وأنشد ابن الحارثى لنفسه :

وما روضـــةٌ عُلْوِيَّةٌ أسَـــدِيَّةٌ * مُنمْنمَةٌ زهراء ذاتُ ثَرى جَعْدِ

سقاها الندى فى عقْبِ جنْح من الدُّجى * فنُوّارُها يهتزُّ بالكوكب السعدِ

بأحسنَ من حرٍ تَضمَّن حاجةً * لِحُرٍ فأوْفى بالنجاح مع الوعـــدِ

لابن وهب

٢٠ وأنشد محمد بن عمار للحسن بن وهب، يقول :

طلَع الربيعُ على الرياض فبُشِّرتْ * نورُ الرياض بجِدَّةٍ وشـــبابِ

وغدَا السَّحابُ مُكلِّلا جوَّ الثرى * أذيالَ أسْحَمَ حالِكِ الجِلبـابِ

فترى السماء إذا أجدّ ربابُها ٭ فكأنما التحفتْ جناحَ غُرابِ
وترى الغُصونَ إذا الرياحُ تناوحت ٭ مُلتفّةً كتعانُقِ الأحبابِ

لحبيب وقال حبيب بن أوس الطائى :

الروضُ ما بين مَغبوقٍ ومُصطبِحٍ ٭ من ريق مكنفلاتٍ فى الثرى دُلُجِ
وطُف إذا وكَفَتْ فى روضةٍ طفِقتْ ٭ عيونُ نُوّارِها تبكى من الفرَجِ ٥

البحترى وأنشد البحترى فى دمشق :

إذا أردتَ ملأتَ العينَ من بلدٍ ٭ مُستحسنٍ وزمانٍ يُشبه البلدا
يُمسى السحابُ على أجبالِها فِرَقاً ٭ ويُصبح النَّبْتُ فى صحرائها بَدَدا
فلستَ تُبصِر إلّا واكِفاً خضِلا ٭ أو يانعاً خضِراً أو طائراً غرِدا
كأنما القَيْظُ ولّى بعد جَيْئتِه ٭ أوِ الربيعُ دنا من بَعد ما بَعُدا ١٠

لأشجع وأنشد ابن أبى الطاهر لأشجع :

من الكنائس والأرواح مُطرِدٌ ٭ للعين يلعبُ فيه الطرْفُ والبصَرُ
فى رُقعةٍ من رُقاع الأرض يعمُرُها ٭ قومٌ على أبوَيهم أجمعتْ مُضَرُ

لعلى بن الخليل وأنشد على بن الجهم لعلىّ بن الخليل :

وروْضةٍ فى ظِلالِ دَسْكَرةٍ ٭ جداولُ الماءِ فى جوانبِها ١٥
تَسْتَنُّ فى روضةٍ مُنوّرةٍ ٭ يُغرِّد الطيْرُ فى مَشارِبِها
كأنّ فيها الحُلِيَّ والحُلَلَ السـ ٭ ـيِّمنة تهدى إلى مَرازِبِها

لإبراهيم بن العباس وقال إبراهيم بن العباس الكاتب :

تأمّلْ سماءً أظلّت عليـ ٭ ـك فيها مَصابيحُها تزهرُ
وأرضاً تُقابلُها بالعرو ٭ س والمَرْج بينهما جعفرُ ٢٠
ومُنسحَبَ نورِ غَداةَ الربيـ ٭ ـع أنفاسُه المسكُ والعنبرُ
خلالَ شقائقِه أصفرٌ ٭ وأضعافَ أصفرِه أحمرُ

وللماء مُطَّرَدٌ بينــه * يُصفِّق باديَه المصـدرُ
يُشارفه البَرُّ من جانبٍ * ومن جانبٍ بحرُه الأخضر
بحالُ وحوش ومَرْقَى سفين * فياعَرْفَ لهو ويا منظرُ
ويا حُسنَ دُنيا ويا عزَّ مُلْكٍ * يَسوسُهُما السائسُ الأكبرُ

٥ وقال ابن أبي عُيينة في بستانه : لابن أبي عيينة

يُذكِّرنى الفردوسَ طوْراً فأنثنى * وطوْراً يُواتيني إلى القَصْف والفَتْكِ
بغرْسٍ كأبكارِ العذارى وتُربةٍ * كأنّ ثَراها ماءُ وردٍ على مِسْك
كأنّ قصورَ الأرضِ ينظُرْن حوْله * إلى ملِكٍ أوفى على مِنْبر المُلْك
يُدلّ عليهـا مُستطيلا بحُسْنِه * ويَضحكُ منها وهْي مُطرقةٌ تبكى

١٠ وقال فيه :

يا جنة فاقتِ الجِنانَ فما * تَبلُغُها قيمة ولا ثمنُ
ألِفتُها فاتخذتُهـا وطناً * لأنّ قلبي لأهلِها وطن
زوجَ حِيتانها الضِباب بها * فهذه كَنَّةٌ وذا خَتَن
فانظر وفكِّر فيما تمُرّ به * إنّ الأريبَ المفكِّرُ الفطِن
١٥ من سُفُنٍ كالنعَامِ مُقْبِلةٍ * ومن نَعامٍ كأنها سُفُنُ

وقال الخليل بن أحمد : الخليل

يا صاحبَ القصرِ نِعم القَصرُ والوادى * بمنزِل حاضِر إنْ شئت أو بادِى
تُرْفى به السُّفْنُ والظُّلْمانُ واقفةٌ * والنُّونُ والضَّبُّ والملاحُ والحادى

وقال إسماعيل بن إبراهيم الحمدونى : الحمدونى

٢٠ بروضةٍ صَبَغت أيدى الربيع لها * برُودَها وكَسَتْها وشْيَها عدَنُ
عاجتْ عليها مطايا الغيْثِ مُسبِلةً * لهنّ فى ضَحِكاتٍ أدمُعٌ هُتُن
كأنمـا البيْنُ يُبكيها ويُضحِكُها * وصْلُ حَباها به مِن بعده سَكن

فولّدَت صُفراً أثوابُها خضرٌ * أحشاؤهُنّ لأحشاء الندى وطَنُ
من كلّ عسجدةٍ فى خِدْرِها اكتَتَمتْ * عذراء فى بطنِها الياقوتُ مُكتمِن

الجاحظ وأنشد عمرو بن بحر الجاحظ :

أين إخوانُنا على السّرّاء * أين أهلُ القباب والدَّهْناء
جاوَرونا والأرضُ مُلبسةٌ نَوْ * رَ الأقاحى تُجادُ بالأنواء ٥
كلَّ يوم بأقحوانٍ جديدٍ * تضحك الأرضُ من بُكاء السماء

لابن عبد ربه ومن قولنا فى هذا المعنى :

وروضة عَقَدت أيدى الربيع بها * نوراً بنور وتَزْويجاً بتزويجِ
بمُلْقح من سَواريها ومُلقِحةٍ * وناتج مِن غَواديها ومَنتوجِ
توشّحت بمُلاةٍ غير مُلحَمةٍ * من نورِها ورِداءٍ غير منسوجِ ١٠
فألبستْ حُللَ الموْشىّ زهرَتَها * وجَلّلتْها بأنماط الديابيجِ

ومن قولنا :

ومَوْشيّة يُهدِى إليك نسيمُها * على مفرقِ الأرواح مسكا وعنبرا
سدَاوتها من ناصعِ اللونِ أبيض * ولُحمتُها من فاقعِ اللونِ أصفَرا
يُلاحظ لحظاً من عيونٍ كأنها * فصوصٌ من الياقوتِ كُلّمن جوْهرا ١٥

ومثله قولنا :

وماروضةٌ بالحَزْف حاك لها الندى * بُروداً من الموْشىّ حُمْر الشّقائق
يُقيم الدُّجى أعناقَها ، ويُميلُها * شُعاعُ الضُّحى المستَنُّ فى كلّ شارقِ
إذا ضاحكَتْها الشمسُ تبكى بأعيُن * مُكلّلة الأجفانِ صُفْرِ الحمالق
حكَتْ أرضُها لونَ السماء وزانَها * نجوم كأمثال النُّجومِ الخوافق ٢٠
... بأطيبَ نشْراً من خلائقه التى * لها خضعتْ فى الحُسْنِ زهرُ الخلائق

كتاب الجوهرة الثانية

فى أعاريض الشعر وعلل القوافى

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه : قد مضى قولنا فى فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه .

ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه فى أعاريضه وعلله ، وما يحسن ويقبح من زحافه ، وما ينفك من الدوائر الخمس من الشطور التى قالت عليها العرب والتى لم تقل ، وتلخيص جميع ذلك بمنثور من الكلام يقرب معناه من الفهم ، ومنظوم من الشعر يسهل حفظه على الرواة ، فأكملت جميع هذه العروض فى هذا الكتاب ـ الذى هو جزءان ، جزء للفرش وجزء للمثال ـ مختصراً مبيّناً مفسّرا ؛ فاختصرت للفرش أرجوزة ، وجمعتُ فيها كلَّ ما يدخل العروضَ ويجوز فى حشو الشعر من الزحاف ، وبيّنت الأسباب والأوتاد ، والتعاقب والتراقب ، والخرومَ والزيادة على الأجزاء ، وفكّ الدوائر ـ فى هذا الجزء ؛ واختصرت المثال فى الجزء الثانى فى ثلاث وستين قطعة ، على ثلاثة وستين ضرباً من ضروب العروض ، وجعلت المقطّعات رقيقة غزلة ، ليسهل حفظها على ألسنة الرواة ؛ وضمّنت فى آخر كل مقطعة منها بيتاً قديما متصلا بها وداخلا فى معناها من الأبيات التى استشهد بها الخليل فى عروضه ، لتقوم به الحجة لمن روى هذه المقطعات واحتج بها .

مختصر الفرش

الساكن والمتحرك

اعلم أنّ أوّل ما ينبغى لصاحب العَروض أن يبتدئ به ، معرفةُ الساكن والمتحرّك ؛ فإنّ الكلام كله لا يعدو أن يكون ساكناً أو متحرّكا .

واعلم أنّ كل ألف خفيفة ، أو ألف ولام خفيفتين لا يظهران على اللسان ويثبتان فى الكتابة ، فإنهما يسقطان فى العروض وفى تقطيع الشعر : نحو ألف «قال آبنك» ، أو ألف ولام نحو «قال آلرجل» ، وإنما يعدّ فى العروض ما ظهر على اللسان .

واعلم أنّ كل حرف مشدّد فإنه يُعدّ فى العروض حرفين : أولهما ساكن ، والثانى متحرّك : نحو ميم محمّد ، ولام سلّام .

واعلم أنّ التنوين كله يُعدّ فى العَروض نوناً ساكنة ليست من أصل الكلمة .

باب الأسباب والأوتاد

اعلم أنّ مدار الشعر وفواصل العروض على ثمانية أجزاء ، وهى :

فاعلن ، مفعولن ، مفاعيلن ، فاعلاتن ، مستفعلن ، مُفاعَلَتنْ ، متفاعلن ، مفعولات .

وإنما أُلِّفت هذه الأجزاء من الأسباب والأوتاد .

الأسباب

فالسبب سببان : خفيف ، وثقيل : فالسبب الخفيف حرفان : متحرّك ، وساكن ، مثل : من ، وعَن ، وما أشبههما ؛ والسبب الثقيل حرفان متحرّكان ، مثل : بكَ ولكَ ، وما أشبههما .

الأوتاد

والوتد وتدان : مفروق ، ومجموع ؛ فالوتد المجموع ثلاثة أحرف : متحرّكان وساكن ، مثل : علَى ، وإلَى ، وما أشبههما ؛ والوتد المفروق ثلاثة أحرف : ساكن بين متحرّكين ، مثل : أيْنَ ، وكيْف ، وما أشبههما ؛ وإنما قيل للسبب

سبب ؛ لأنه يضطرب ، فيثبت مرة ويسقط أخرى ؛ وإنما قيل للوتد وتد ؛ لأنه يثبت فلا يزول .

باب الزحاف

أعلم أنّ الزّحاف زِحافان : فزحاف يسقط ثانى السبب الخفيف ، وزحاف يسكن ثانى السبب الثقيل ، وربما أسقَطه .

ولا يدخل الزحاف فى شيء من الأوتاد ، وإنما يدخل فى الأسباب خاصة ؛ وإنما يدخل فى ثانى الجزء ، ورابعه ، وخامسه ، وسابعه ؛ فإن أردت أن تعرف موضع الزحاف من الجزء ، فانظر إلى جزء من الأجزاء الثمانية التى سَمَّيتُ لك ؛ فإن رأيت الوتد فى أول الجزء ، فإنما يزحف خامسه وسابعه ؛ وإن كان الوتد فى آخر الجزء ، فإنما يزحف ثانيه ورابعه ؛ وإن كان الوتد فى وسط الجزء ، فإنما يزحف ثانيه وسابعه .

فللزحاف الذى يدخل فى ثانى الجزء ثلاثة أسماء : الخبن ، والإضمار ، والوقص ، فالمخبون : ماذهب ثانيه ، والمضمر : ماسكن ثانيه المتحرك ، والموقوص ؛ ماذهب ثانيه المتحرك .

وللزحاف الذى يدخل فى رابع الجزء اسم واحد : الطَّىّ فالمطوىّ هو ماذهب رابعه الساكن .

وللزحاف الذى يدخل فى الخامس منها ثلاثة أسماء : القبض ، والعصب ، والعقل .

فالمقبوض : ماذهب خامسه الساكن ، والمعصوب : ماسكن خامسه المتحرك ، والمعقول : ماذهب خامسه المتحرك .

[وللزحاف الذى يدخل] السابع اسم واحد : الكَفّ ، فالمكفوف ، هو ماذهب سابعه الساكن .

باب الزحاف المزدوج

المخبول : هو ماذهب ثانيه ورابعه الساكنان .

والمخزول : هو ماسكن ثانيه وذهب رابعه الساكن .

والمنقوص : هو ماسكن خامسه وذهب سابعه الساكن .

والمشكول : هو ماذهب ثانيه وسابعه الساكنان . ٥

علل الأعاريض والضروب

المحذوف : هو ماذهب من آخر الجزء سبب خفيف .

والمقطوف : هو ماذهب من آخر الجزء سبب خفيف وسكن آخر مابقى .

والمقصور : ماذهب آخر سواكنه وسكن آخر متحركاته من الجزء الذى فى آخره سبب . ١٠

والمقطوع : ماذهب أواخر سواكنه وسكن آخر متحركاته من الجزء الذى فى آخره وتد .

والأبتر : ماحُذف ثم قطع ، فكان فاعلْ من فاعلاتن وفَعْ فى فعولن .

والأحذ : ماذهب من آخر الجزء وتد مجموع .

والأصلم : ماذهب من آخر الجزء وتد مفروق . ١٥

والموقوف : ماسكن سابعه المتحرك .

والمكشوف : ماذهب سابعه المتحرك .

والمجزوء : ماذهب من آخر الصدر جزء ومن آخر العجز جزء .

والمشطور : ماذهب شطره .

والمنهوك : ماذهب منه أربعة أجزاء وبقى جزآن . ٢٠

الزيادات على الأجزاء

والزيادة على الأجزاء ثلاثة أشياء : المذال ، وهو ما زاد على اعتدال جزئه حرف ساكن مما يكون فى آخره وتد .

والمسبغ : ما زاد على اعتداله حرف ساكن مما يكون فى آخره سبب .

٥ والمرفل : ما زاد على اعتداله حرفان : متحرك وساكن ، مما يكون فى آخره وتد .

واعلم أن كل جزء من أجزاء العروض يكون مخالفاً لأجزاء حشوه بزحاف أو سلامة فهو المعتل : وما كان معتلا فإنما هو ثلاثة أشياء : ابتداء ، وفصل ؛ وغاية ؛ وإن الاعتماد ليس علة : لأنه غير مخالف لأجزاء الحشو كلها ، وإنما

١٠ خالفها فى الحسن والقبح وليس اختلاف الحسن والقبح علة ، ونحن نجد الاعتماد فى الشعر كثيراً ؛ من ذلك البيت الذى جاء به الخليل :

أقيموا بنى النُّعمانِ عنا صُدُورَكم * وإلا تقيمُوا صاغرينَ الرءوسا

ومنه قول امرئ القيس :

أعنِّى على بَرْق ـ أراهُ ـ ومِيضِ * يُضِىءُ حَبِيًّا فى شماريخَ بِيضِ

١٥ ويخرُجُ منه لامِعاتٌ كأنها * أكُفٌ تَلقَّى الفوزَ عند المفيض

وإنما زعم الخليل أن المعتل ما كان مخالفا لأجزاء حشوه بزحاف أو سلامة ولم يقل بحسن أو قبح : ألا ترى أن القبض فى مفاعيلن فى الطويل حسن ، والكف فيه قبيح : والقبض فى مفاعيلن فى الهزج قبيح ، والكف فيه حسن ؛ والاعتماد فى المتقارب ـ على ضد ما هو فى الطويل السالم ـ فيه حُسن ، والقبض

٢٠ فيه قبيح ؟

فإذا اعتل أول البيت سمى ابتداء : وإذا اعتل وسطه وهو العروض سمى فصلا ، وإذا اعتل الطرف ــ وهو فى القافية ــ سمى غاية ؛ وإذا لم يعتل أوله ولا وسطه ولا آخره سمى حشواً كله .

وما كان من الأنصاف مستوفيا لدائرته وآخر جزء منه بمنزلة الحشو من الآخر فهو التام ؛ وما كان من الأنصاف لم يذهب به الانتقاص فهو مجزوء ، وما كان من الأنصاف مقفًى فهو مصرّع ؛ فإن كانت الكلمة كلها كذلك فهو مشطور ؛ فإذا لم يبق منه إلا جزآن فهو المنهوك ، وإذا اختلفت القوافى واختلطت وكانت حيزاً حيزا من كلمة واحدة فهو المخمّس ؛ وإذا كانت أنصاف على قواف يجمعها قافية واحدة ثم تعاد لمثل ذلك حتى تنقضى القصيدة ، فهو المسمّط .

باب الخرم

اعلم أن الخرم لا يدخل إلا فى كل جزء أوله وتد ، وذلك ثلاثة أجزاء : فعولن ، مفاعلَتن ، مفاعيلن ؛ وهو سقوط حركة من أول الجزء ؛ وإنما منعه أن يدخل فى السبب ، أنك لو أسقطت من السبب حركةً بقى ساكنٌ ، ولا يُبدأ بساكن أبدا .

ولا يدخل الخرم إلا فى أول البيت ، فإذا أدخل الخرم « فعولن » قيل له أثلم ؛ فإذا دخل القبض مع الخرم قيل له أثرم ؛ فإذا دخل الخرم مفاعلَتن قيل له أعضب ؛ فإذا دخله العصب مع الخرم قيل له أقصم ؛ فإذا دخل الخرم مفاعيلن قيل له أخرم ؛ فإذا دخله الكف مع الخرم قيل له أخرب ؛ فإذا دخله القبض مع الخرم قيل له أشتر ؛ وكل مالم يدخله الخرم فهو الموفور [1] .

باب التعاقب والتراقب

اعلم أن التعاقب يدخل بين السببين المتقابلين فى حشو الشعر حيثما كانا ، ولا يكونان مع جميع العروض إلا فى أربعة أشطار : فى المديد ، والرمل ، والخفيف ، والمجتث ؛ وقد بينا جميع ذلك فى موضعه : فما عاقبه ماقبله فهو صدر ، وما عاقبه

(١) فى بعض الأصول « تام » .

مابعده فهو عجز ، وما عاقبه ماقبله وما بعده فهو طرفان ، ومالم يعاقبه ما قبله ولا ما بعده فهو برىء.

والتراقب بين السببين المتقابلين من فاصلة واحدة ؛ ولا يدخل التراقب من جميع العروض إلا فى المضارع ، والمقتضب ؛ وقد فسّرناه هنالك .

٥ وقد نظمنا جميع ما ذكرناه من هذه الأبواب فى أرجوزة ، ليسهل حفظها على المتعلم : إذ كان حفظ المنظوم أسهلَ من حفظ المنثور : وقد ذكرنا فيها كل الدوائر الخمس وما ينفكّ من كل دائرة من عدد الشطور التى قالت عليها العرب والتى لم تقل عليها وموضع الزحاف منها .

واعلم أن الدائرة الأولى مؤلفة من أربعة أجزاء : سباعيين مع خماسيّين

١٠ وهى :

فعولن ، مفاعيلن ، فعولن ، مفاعيلن .

والدائرة الثانية من ثلاثة أجزاء سباعية ، وهى :

مفاعلَتن ، مفاعلتن ، مفاعلتن .

والدائرة الثالثة مؤلفة من ثلاثة أجزاء سباعية ، وهى :

١٥ مفاعيلن ، مفاعيلن ، مفاعيلن .

والدائرة الرابعة مؤلفة من ثلاثة أجزاء سباعية ، وهى :

مستفعلن ، مفعولاتُ ، مستفعلن .

والدائرة الخامسة مؤلفة من أربعة أجزاء خماسية وهى :

فعولن ، فعولن ، فعولن ، فعولن .

٢٠ واعلم أن كل دائرة من هذه الدوائر ينفك من رأس كل سبب وكلّ وتد فيها شطر ؛ وقد بيّنا جميع ذلك فى الدوائر ، وأسماء الشطور التى تنفكُّ عنها.

وهذه أرجوزة العروض :

بالله نَبْــدَا وبه التّمامُ * وباسْمِــه يُفتتَحُ الكلامُ
ياطالبَ العلمِ هو المنهــاجُ * قد كثُرتْ من دُونه الفِجاجُ
وكلُّ علمٍ فــلهُ فنونُ * وكلُّ فنٍ فلهُ عُيونُ
أوّلُهــا جوامعُ البيانِ * وأصلُها معرفة اللّسانِ
فإنّ فى المجــازِ والتّأويلِ * ضلّتْ أساطيرُ ذوى العُقول
حتى إذا عرَفْتَ تلكَ الأبنِيَهْ * واحِــدَها وجَمعها والتّثنِيَهْ
طلبتَ ماشئتَ من العلومِ * ما بينَ منثُورٍ إلى منظــوم
فدَاوِ بالإعرابِ والعَرُوض * داءكَ فى الإمْلاء والقَرِيض
كِلاهما طِبٌّ لداءِ الشّعرِ * واللّفظِ من لَحْنٍ به وكَسْر
ما فلسفَ البطْلِيسُ جالِينُوسُ * وصاحبُ القانونِ بَطلِيْمُوسُ
ولا الذى يَدعونهُ بهرمِس * وصاحبُ الأرْكَنْد والأقليدِس
فلسفةَ الخليــلِ فى العَروض * وفى صحيحِ الشّعرِ والمَرِيض
وقد نظرْتُ فيه فاختَصرْتُ * إلى نظامٍ منــه قد أحْكمتُ
ملخص مختصَرٍ بديعِ * والبعض قد يَكْفِى عن الجميعِ

اختصار الفرش

هذا اخْتصارُ الفَرشِ من مَقالى * وبعــدَهُ أقولُ فى المثالِ
أوّلهُ والله أستــعينُ * أن يُعرفَ التّحريكَ والسكونُ
من كلِّ ما يَبدُو على اللسانِ * لا كلِّ ما تخطُّهُ اليدانِ
ويَظهرُ التضعيفُ فى الثَّقيلِ * تَعدُّهُ حرفَيْنِ فى التفصيل
مُسكَّناً وبَعــدهُ مُحرّكا * كنونِ كُنّا وكراءِ سَرّكا

باب الأسباب والأوتاد

وبَعد ذا الأسبابُ والأوتادُ * فإنهـا لقوْلِنا عِمـادُ
فالسببُ الخفيفُ إذ يُعدُّ * مُحرَّكٌ وساكنٌ لا يعدُو
والسبب الثقيلُ فى التبْيين * حركتان غير ذى تنْوين
٥ والوتدُ المفروقُ والمجموع * كلاهما فى حَشوِهِ ممنوع
وإنما آعتلَّ من الأجزاء * فى الفصل والغائى والابتداء
فالوتدُ المجموع منها فافهَمْ * حركتان قبل حَرْفٍ قد سكَنْ
والوتد المفروقُ من هذينِ * مُسكَّنٌ بين مُحرَّكيْنِ
فهذه الأوتادُ والأسبابُ * لها ثباتٌ ولها ذَهابُ
١٠ وإنما عَروض كلِّ قافيَةْ * جارٍ على أجزائِه الثمانيَةْ
وهاكها بينةً مصوَّرةْ * لكلِّ من عاينَها ، مُفسَّره

الفواصل

فاعلن ، فعولن ، مستفعلن ، فاعلاتن ، مفاعيلن ، مفاعَلَتن ، متفاعلن ، مفعولات :

١٥ هذِى التى بها يقول المُنشِد * فى كلِّ مايرجوه أو يُقصِّد
كلُّ عَروضٍ يَعتزى إليها * وإنما مَـدارُه عليها
منها خُماسيَّانِ فى الهِجاء * وغيرُها مسبَّعُ البِناء
يدخُلها النُّقصانُ بالزِّحافِ * فى الحشوِ والعروض والقوافى
وإنما يدخُلُ فى الأسبابِ * لأنها تُعرَف باضطراب

٢٠ باب الزحاف

فكلُّ جزءٍ زالَ منه الثانى * من كلِّ مايبدو على اللسانِ

وكان حرفاً شأنه السكونُ * فإنه عندي اسمُه مخبونُ
وإن وجدتَ الثانيَ المنقوصا * محرّكا سميتَه الموقوصا
وإن يكن محرّكا فسُكّنا * فذلك المضمرُ حقًّا بيّنا
والرابعُ الساكنُ إذ يزولُ * فذلك المَطْويُّ لا يحولُ
وإن يُزَلْ خامسُه المسكّن * فذلك المقبوضُ فهو يَحسُن ٥
وإن يكن هذا الذى يزول * محرّكاً فإنه المعقولُ
وإن يكن محرّكا سكنتَه * فَسَمّه المعصوبَ إن سمّيتَه
وإن أزلتَ سابعَ الحروفِ * سميتَه إذ ذاك بالمكفوف

باب الزحاف

الذى يكون فى موضعين من الجزء ١٠

كل زِحافٍ كان فى حرفين * حلّ من الجزء بموضعين
فإنه يُجحِف بالأجزاء * وهو يسمّى أقبح الأسماء
فكلُّ ما سُكّن منه الثانى * وأُسقِط الرابع فى اللسانِ
فذلك المخزولُ وهُو يقْبُح * فحيثُما كان فليس يَصلُح
وإن يُزَلْ رابعُه والثانى * وذا وذا فى الجزء ساكِنان ١٥
فإنه عندى اسمُه المخبولُ * يقصِّرُ الجزءَ الذى يطول
وكل جزء فى الكتابِ يُدرَك * يَسكنُ منه الخامس المحرّك ..
..وأُسقِطِ السابع وهْو يسكنُ * فذلك المنقوصُ ليس يَحسُن
وسابعُ الجزء وثانيه إذا * كان يُعَدّ ساكناً ذاك وذا
فأُسقِطا بأقبح الزّحافِ * سُمّىَ مشكولاً بلا اختِلافِ ٢٠
هذا الزحافُ لا سواه فاسمع * يُطلَقُ فى الأجزاء لم يمتنع

باب العلل

والعِللُ التى تجوزُ أجمع * وليس فى الحشو لهن موضع..
.. ثلاثةٌ ، تُدْعى بالابتداء * والفصلِ والغاية فى الأجزاء
والاعتمادُ خارجٌ عن شكلِها * وفعـــلُه مخالفٌ لفعلِها
٥ لأنهم قد تركوا التزامَهْ * وجاز فيه القبضُ والسّلامهْ
ومثلُ ذاك جائز فى الحشوِ * فنحْوُ هذا غير ذاك النحوِ
وكلُّ مُعتـــلٍّ فغيرُ جائزِ * فى الحشوِ والقصيدِ والأراجز
وإن أجازَه الخليـــلُ * مُجازفاً إذ خانه الدّليـــلُ
وكلُّ حيٍّ من بنى حوّاء * فغيرُ معصومٍ من الخطَاء
١٠ فأوّل البيتِ إذا ما اعتَلاّ * سمّيْتَه بالابتداء كُلاّ
وغاية الضَّرب تُسمّى غايهْ * وليس فى الحشوِ لها حكايهْ
وكل ما يدخُلُ فى العَروضِ * من علةٍ تجوزُ فى القريضِ
فهى تسمّى الفصلَ عند ذاكا * وقلَّ مَن يَعرِفُه هُناكا !

باب الخرم

١٥ والخَرْمُ فى أوائلِ الأبياتِ * تُعرَف بالأسماء والصّفاتِ
نُقْصانُ حرفٍ من أوائلِ العَدد * فى كلِّ ما شَطْرٍ يُفَكُّ من وتَدْ
خمسةُ أشطارٍ من الشُّطورِ * يُخرَم منها أوّل الصُّدورِ :
منها الطويل أوّلُ الدّوائر * وأطول البناءِ عند الشّاعرِ
يَدخلُه الخرْمُ فيُدْعى أثْلما * فإنْ تلاه القبض سُمّى أثرما
٢٠ والوافر الذى مَدارُ الثانيَهْ * عليه ، قد تَعيه أُذْنٌ واعيهْ
يَدخلُه الخرمُ فى الابتداء * فى أوّل الجزءِ من الأجزاء

وهو يُسمى أعْصَباً، وكلُّما ٭ ضُمّ إليه العَصْبُ سمّى أقْصَما
وإن يكن أعْصَبَ ثم يُعقَلُ ٭ فذلك الأجَمّ ليس يُجهلُ
والهزَج الذى هو السّوار ٭ عليـــه للثالثـــةِ المدارُ
يدخُله الخَرْمَ فيُدعَى أخرَما ٭ وهو قبيح فاعلَمَنْ وافهَما
حتى إذا ماكُفَّ بعدالخَرْمِ ٭ سُمّيتَه أخْرَبَ إذ تُسمّى
والأشتَرُ المُهجّن العَروضا ٭ ماكان منه آخِرٌ مقبوضا
هذا وفى الرابعة المضارعُ ٭ يَدخل فيه الخَرْمُ لا يُدافَعُ
كمثل مايَدخل فى شطر الهزَجْ ٭ وهو يسمّى باسمه بلا حَرجْ
ولا يجوز الخرْمُ فيه وحدَهُ ٭ إلا بقبضٍ أو بكفّ بعــدَهُ
لعِلّةِ التراقُب المذكــورِ ٭ خُصّ به من أجمع الشُّطورِ
والمُتقارب الذى فى الآخِرِ ٭ تحلو به خامسة الدوائرِ
يَدخله مايَدخــل الطويلا ٭ من خرْمه وليس مُستحيلا
هذا جميع الخرم لا سواهُ ٭ وهو قبيح عنــد مَن سمّاهُ
يَدخل فى أوائل الأشعارِ ٭ ما قيل فى ذى الخمسة الأشطارِ
لأنّ فى أوّل كلّ شطرٍ ٭ حركتين فى ابتداء الصّدْر
وإنمــا ينفــكُّ فى أوتادِ ٭ فلم يَضِرْها الخرم فى الكادِ
لقوّة الأوتاد فى أجزائِهــا ٭ وأنها تَبرَأُ من أدوائِهــا
سالمةٌ من أجمع الزّحافِ ٭ فى كلّ مجزوءٍ وكل وافِ
والجزء مالم تَرَ فيه خَرْما ٭ فإنه الموفورُ قد يُسمّى

باب علل الأعاريض والضروب

والعلــلُ المسمّيات اللاتِى ٭ تعرَف بالفصولِ والغاياتِ

تَدخل فى الضَّرب وفى العَروضِ * وليس فى الحشْوِ من القريضِ
منها الذى يُعرَف بالمحذوفِ * وهو سقوطُ السببِ الخفيفِ
فى آخر الجزء الذى فى الضرْب * أو فى العَروض غير قول كَذِبِ
ومثله المعروفُ بالمقطوفِ * لو بسكونِ آخر الحروفِ
٥ وكلّ جزء فى الضروب كائن * أُسقِطَ منه آخرُ السّواكن
وسَكَّن الآخرَ من باقيهِ * مما يُجيزون الزّحاف فيهِ
فذلك المقصورُ حين يوصَفُ * وإن يكن آخرَه لا يزحفُ ...
من وتدٍ يكون حين لا سببْ * فذلك المقطوعُ حين ينتسبْ
وكلُّ ما يُحذفُ ثم يُقطَعُ * فذلك الأبترُ وهو أشنَعُ
١٠ وإن يُزَلْ من آخرِ الجزء وتدْ * إن كان مجموعا فذلك الأحذ
أوكان مفروقا فذاك الأصلمُ * كلاهما للجزء حقًّا صيْلمُ
وإن يُسكَّن سابعُ الحروفِ * فإنه يُعــرَف بالموقوفِ
وإن يكن مُحرَّكا فأُذهِبا * فذلك المكشوفُ حقًّا مُوجَبا
وبعده التشعيثُ فى الخفيف * فى ضربه السالم لا المحذوف
١٥ يُقطَعُ منه الوتَدُ الموسّطُ * وكلُّ شىء بعده لا يَسقُطُ

باب التعاقب والتراقب

وبعــد ذا تعاقبُ الجزءينِ * فى السببيْن المتقـــابليْن
لا يسقُطان جملة فى الشّعرِ * فإنّ ذاك من أشدّ الكسرِ
ويَثبُتان أيّمـا ثَباتِ * وذاك من سلامة الأبياتِ
٢٠ وإن ينلْ بعضَهما إزالهْ * عاقَبه الآخَـــرُ لا محالهْ
فكل ما عاقَبه ما قبلهُ * سُمِىَ صدْراً فافهمَنّ أصلهُ

وكلُّ ما عاقَبه ما بعدهُ * فهو يسمَّى عَجُزاً فَعُدَّهُ
وإن يكن هذا وذا مُعاقِبا * فهو يسمَّى طرَفيْن واجبا
يَدخل فى المديد والخفيفِ * والرَّمَل المجزوءِ والمحذوفِ
ويَدخل المجتث أيضاً أجمعهْ * ولا يكون فى سوى ذى الأربعهْ
والجزء إذ يخلو من التعاقبِ * فهو برىءٌ غير قول الكاذبِ ٥
وهكذا إن قسته التعاقبُ * وليس مثل ذلك التراقب
لأنه لم يأتِ من جزءين * فى السببيْن المتجاوريْن
لكنه جاء بجزء واحدِ * فى أول الصدرِ من القصائدِ
والسببان غيرُ مزحوفيْنِ * فى جزئه وغير سالميْنِ
إن زال هذا كان ذا مكانهْ * فاسمعْ مَقالى وافهمنْ بيانهْ ١٠
فهكذا التراقبُ الموصوفُ * وكلُّه فى شطره معروف
يدخلُ أولَ المضارعِ السببْ * وبعده يدخلُ صدرَ المقتضبْ

الزيادات على الأجزاء

ثم الزياداتُ على الأجزاءِ * موجودةٌ تُعرفُ بالأسماءِ
وإنما تكون فى الغاياتِ * تُزادُ فى أواخرِ الأبياتِ ١٥
وكلُّها فى شطره موجودُ * منها المُرفَّلُ الذى يزيد ...
.. حرفيْن فى الجزء على اعتدالهْ * محرّكا وساكناً فى حالهْ
وذاك فيما لا يجوزُ الزحفُ * فيه ولا يُعزَى إليه الضَّعفُ
وفيه أيضاً يَدخل المُذالُ * مُقيَّداً فى كلِّ ما يُقالُ
وهو الذى يزيدُ حرفا ساكِنا * على اعتدال جُزئه مُباينا ٢٠
ومثله المسبَّغ من هذى العللْ * حرفٌ تَزيدُه على شطر الرَّمَلْ

باب نقصان الأجزاء

فإنْ رأيتَ الجُزء لم يَذهبْ مَعا * بالانتقاصِ فهْو وافٍ فاسْمَعا
وإن يكن أذهبَهُ النُّقْصانُ * فافْهَمْ ففي قولي لكَ البيانُ ...
... فذلك المَجزُوء في النِّصفيْن * إذا انتقَصْتَ منهما جُزْءَيْنِ
والبيْتُ إن نقَصْتَ منه شَطْرَهُ * فذلك المشطورُ فافْهَمْ أمرهُ ٥
وإن نقصْتَ منهُ بعد الشّطرِ * جُزءًا صحيحاً من أخيرِ الصدرِ..
.. وكان ما يَبقى على جُزْءَيْنِ * فذلكَ المنهُوكُ غيرَ مَيْنِ

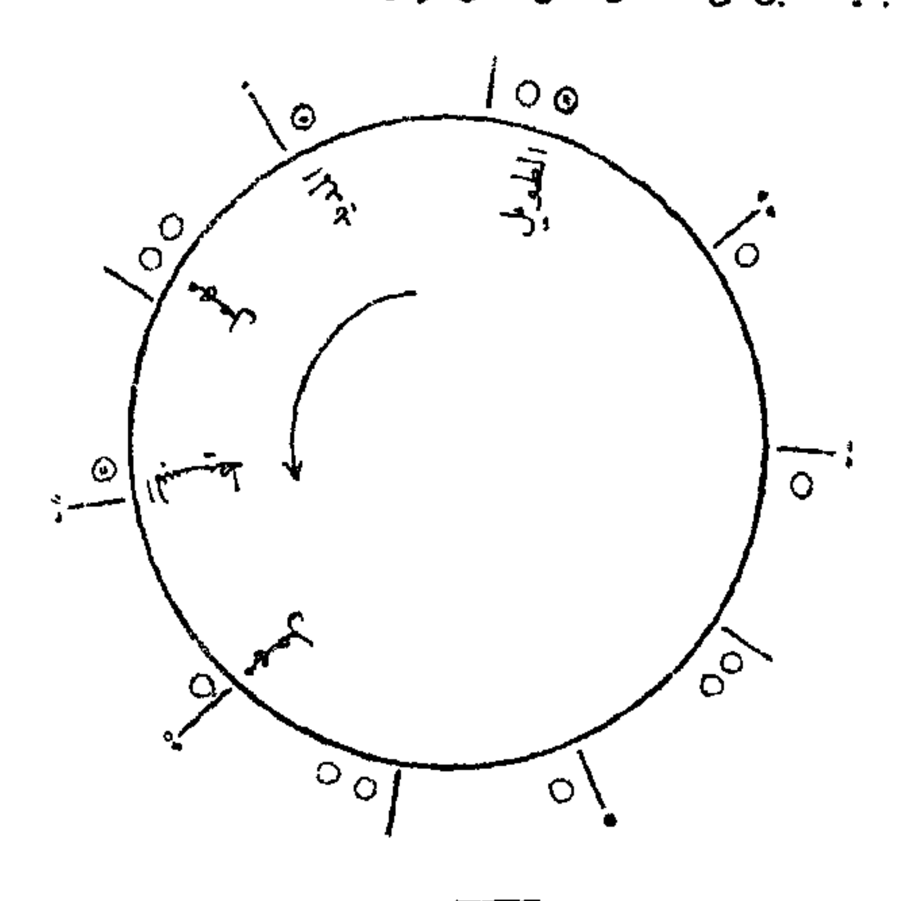
صفة الدوائر

فاسْمَعْ فهٰذي صفةُ الدوائرِ * وصفُ عليمٍ بالعَروض خابِرِ
دوائرٌ تعيا على ذِهنِ الحَذِقْ * خمسٌ عليهنّ الخطوطُ والحلَقْ ١٠
فما لهـا منَ الخطوط البائنهْ * دلائلٌ على الحروفِ السّاكِنهْ
والحلَقـاتِ المتجوِّفات * عـلامةٌ للمتحرِّكاتِ
والنقَط التي على الخطوطِ * عـلامة تعدُّ للسُّقوط
والحِلَقُ التي عليها تنقطُ * تَسكُنُ أحياناً وحيناً تسْقُطُ
والنُّقطُ التي بأجوافِ الحلَقْ * لِمبْتدا الشطورِ منها يُختَرقْ ١٥
فانظرْ تجد مِن تحتها أسماءها * مكتوبةً قد وُضعَتْ إزاءها
والنُّقطتانِ موضعُ التعاقبِ * ومِثلُ ذاكَ موضعُ التراقُبِ
وهٰذهِ صُورة كل واحدهْ * منها ومعنًى فسْرها على حِدهْ
أوّلُهـا دائرة الطويلِ * وهي ثمانٍ لذَوِي التفصيلِ
مُقسّم الشطْر على أرباعِ * بينَ خماسيٍّ إلى سُباعِي ٢٠
حُروفه عِشرون بعدَ أربعهْ * قد بيّنوا لِكلّ حرفٍ موضِعه

يُنقلُ منها خمسةٌ شُطورُ * يفصلُها التفعيلُ والتقديرُ
منها الطويلُ والمديدُ بعدَهُ * ثم البسيطُ يُحكِمونَ سرْدَهْ
ثلاثةٌ قالت عليها العربُ * واثنان صدُّوا عنهما ونَكبوا
وهٰذهِ صورتُها كما ترى * وذِكرُها مُبيَّنا مُفسَّرا

الأولى : دائرة المختلف

الطويل . مبنى على فعولن مفاعيلن ثمانى مرات[1]
المديد : مبنى على فاعلاتن فاعلن ، ست مرات[1]
البسيط : مبنى على مستفعلن فاعلن ، ثمانى مرات[1]



وهـذه الثانيةُ المخصُوصةْ * بالسببِ الثقيلِ والمقوصَةْ
أجزاؤُها مُثلَثةٌ مُسبَّعه * قدكَرهوا أن يجعلوها أربعه

١٠

(١) يعنى بقوله «ثمانى مرات» و «ست مرات» : ثمانية أجزاء ، وستة أجزاء ؛ وإلا فإن أجزاء الطويل مثلا هى ، فعولن مفاعيلن ، مكررة أربع مرات لاغير ، مرتين فى كل شطر .

لأنّها تخرجُ عن مقدارِهِمْ * فى جُملةِ الموزُونِ من أشعارِهِمْ

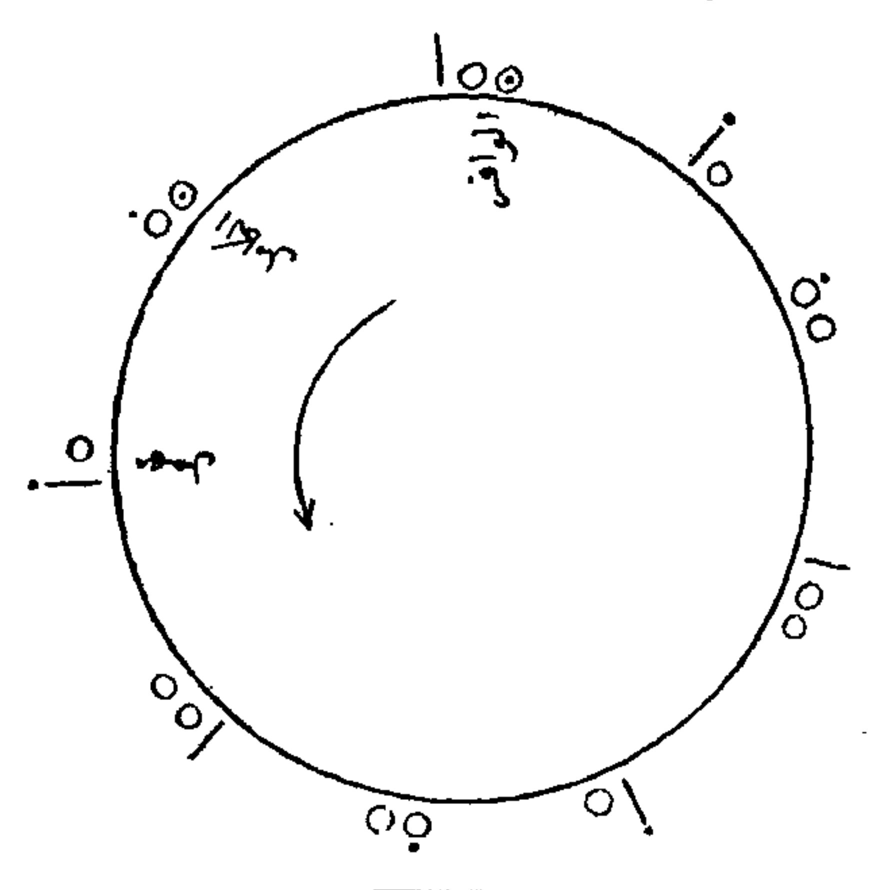
فهْى على عشرينَ بَعدَ واحدِ * منَ الحروفِ ما بِها من زائدِ

ينفَكُّ منها وافر وكاملُ * وثالثٌ قد حار فيه الجاهِلُ

الثانية : دائرة المؤتلف

الوافر : مبنى على مفاعلتن ، ست مرات ، فقطعوا ضربه وعروضه .

الكامل : مبنى على متفاعلن ، ست مرات .



والدائرة الثالثةُ التى حكتْ * فى قدرِها الثانية التى مَضَت

فى عِدّةِ الأجزاءِ والحروفِ * وليس فى الثّقيلِ والخفيف

يَنفكُّ منها مثلُ ما ينفكُّ * من تلكَ حقًّا ليس فيه شكُّ

ترفُلُ من دِيباجِها فى حُلَلِ * من هَزَجٍ أو رجَزٍ أو رمَلِ

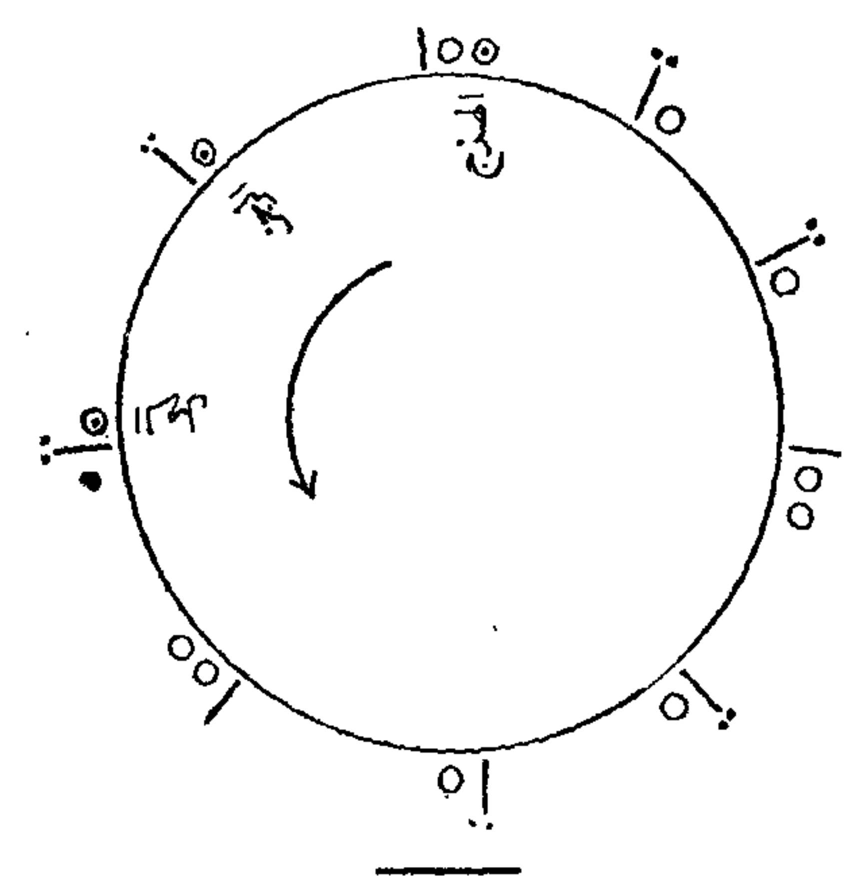
وهـــذهِ صُورتُها مُبيّنهْ * بحلْيِها ووشْيِها مُزيّنهْ

الثالثة : دائرة المجتلب

الهزج : مبنى على مفاعيلن ، بعد الحذف ، أربع مرات .

الرجز : مبنى على مستفعلن ، ست مرات .

الرمل : مبنى على فاعلاتن ، ست مرات .



ورابعُ الدوائرِ المَسْرودَهْ * أجزاؤها ثلاثةٌ معدُودهْ

عجيبةٌ قد حار فيها الوصفُ * عشرون حرفاً عَدُّها وحرفُ

مثلُ التى تقدمتْ من قبْلها * وشكلُها مُخالفٌ لشكلِها

بديعةٌ أُحكِمَ فى تدبيرها * بالوتَدِ المفروقِ فى شطورِها

ينفَكُّ منها ستَّةٌ مَقولَهْ * من بَينِها ثلاثةٌ مجهُولهْ

وكلُّ هٰذِى السِّتَّةِ المشطورَهْ * معرُوفةٌ لأهلِها مخبُوره

أوّلها السريعُ ثم المُنسرِحْ * ثم الخفيفُ بعدهُ ثم وَضَحْ

وبعـــدهُ مُضارِعٌ ومُقتَضَب ٭ شَطرانِ مجزُوءان فى قولِ العربْ
وبعدَها المُجتثُّ أحلَى شطرٍ ٭ يُوجَدُ مَجزُوءًا لأهلِ الشِّعرِ

الرابعة : دائرة المشتبه

السريع : مبنى على مستفعلن مفعولات ، ست مرات [١] .

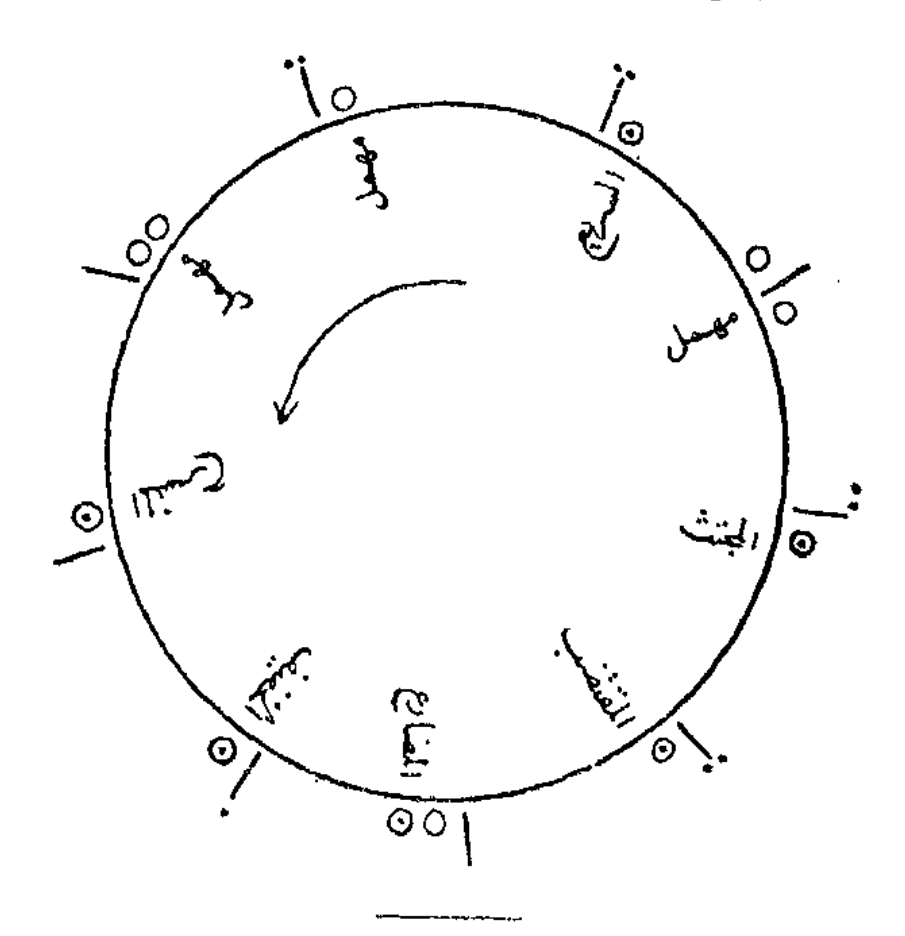
٥ المنسرح : مبنى على مستفعلن مفعولات مستفعلن ، ست مرات [١] .

الخفيف : مبنى على فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن ، ست مرات [١] .

المضارع : مبنى على مفاعيلن فاعلاتن ست مرات[١] ؛ لحذفوا منه جزأين فصار مربعا .

المقتضب : مبنى على مفعولات مستفعلن مستفعلن ست مرات [١] ، فربعوه كما تقدم .

المجتث : مبنى على فاعلاتن فاعلاتن . ست مرات[١] . فربعوه كما تقدم .



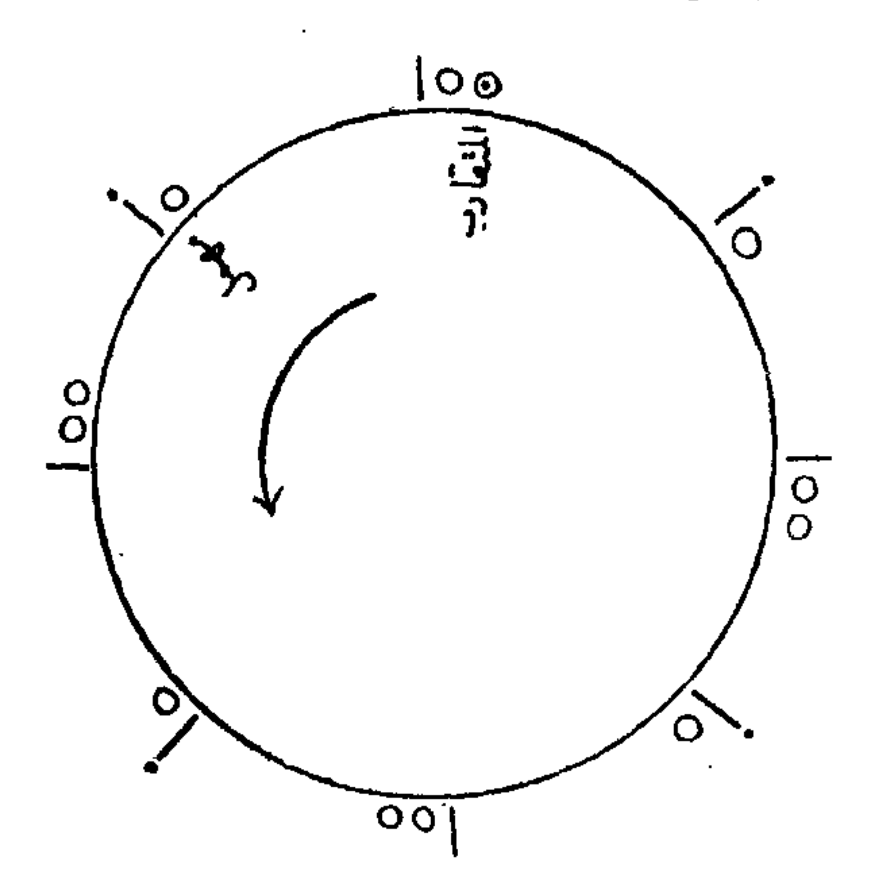
١٠ وبعدها خامسَةُ الدوائرِ ٭ للمتقاربِ الذى فى الآخِرِ

(١) انظر التعليق بصحيفة ٢٤٨

يَنفكُّ منها شَطْرُهُ وشطرُ * لم يأتِ فى الأشعارِ منه الذِّكْرُ
من أقصرِ الأجزاءِ والشُّطورِ * حروفُه عشرون فى التقديرِ
مؤلَّفُ الشطرِ على فواصلِ * مجَسَّماتٍ أربعٍ مواثلِ
هذا الذى جرّبه المُجَرِّبُ * من كلِّ ما قالت عليه العربُ
فكلُّ شىءٍ لم تقُلْ عليه * فإننا لم نلتفت إليه ٥
ولا نقولُ غير ما قد قالوا * لأنه من قولنا مُحالُ
وأنه لو جاز فى الأبياتِ * خِلافه لجاز فى اللُّغاتِ
وقد أجاز ذلك الخليلُ * ولا أقولُ فيه ما يقولُ
لأنه ناقضَ فى معناه * والسيف قد يَنْبُو وفيه ماهُ
إذ جعل القولَ القديمَ أصلَهُ * ثم أجاز ذا وليس مثلَهُ ١٠
وقدْ يَزِلُّ العالِمُ النِّحْرِيرُ * والحَبْرُ قد يخونُه التَّحْبيرُ
وليس للخليل من نظيرِ * فى كلِّ ما يأتى منَ الأمورِ
لكنَّه فيه نسيجُ وحْدِهِ * ما مثله من قبلِه وبعدِهْ
فالحمد لله على نَعمائِهْ * حمداً كثيراً وعلى آلائِهْ
يا ملِكاً ذَلَّتْ له الملوكُ * ليس له فى مُلْكِه شريكُ ١٥
ثَبِّتْ لعبدِ الله حُسْنَ نيّتهْ * وأعطِفْهُ بالفضلِ على رعِيّتهْ

الخامسة : دائرة المتفق

المتقارب : مبنى على فعولن ، ثمانى مرات .



ابتداء الامثال

شطر الطويل

الطويل له عروض واحد مقبوض ، وثلاثة ضروب : ضرب سالم ، وضرب مقبوض ، وضرب محذوف معتمد .

العروض المقبوض والضرب السالم ٥

ورَوضة وَرْدٍ حُفَّ بالسوْسَنِ الغَضّ * تَحلّتْ بلون السّامِ والذهبِ المحضِ

رأيتُ بها بدْراً على الأرض ماشياً * ولم أر بدراً قطُّ يمشى على الأرض

إلى مثله فلْتَصْبُ إن كنتَ صابياً * فقد كاد منه البعضُ يصْبُو إلى البعضِ

وكلْ وردَ خـدّيْهِ ورُمّانَ صدرِه * بمَصٍّ على مص وعضّ على عضّ

وقُلْ للذى أفنَى الفؤادَ بحُبِّــه * على أنه يَجزى المحبـةَ بالبُغْضِ : ١٠

«أبا مُنْـذِرٍ أفنيتَ فاستَبْقِ بعضَنا * حنانَيْكَ بعضُ الشرّ أهونُ من بعض»

تقطيعه :

فعولن ، مفاعيلن ، فعولن ، مفاعلن * فعولن ، مفاعيلن ، فعولن ، مفاعيلن

الضرب المقبوض

وحاملة راحًا على راحةِ اليـدِ * مُوَرّدَة تسعى بلوْنٍ مُوَرَّد ١٥

متى ما تَرَ الإبريقَ للكأسِ راكعاً * تُصلّ له من غير طُهرٍ وتسجُدِ

على ياسمينٍ كاللّجَيْن ونرجسٍ * كأقراطِ دُرّ فى قضيبِ زَبرْجدِ

بتلك وهٰذِى فالْه ليْـلكَ كلّه * وعنها فسلْ لا تسألِ الناسَ عن غدِ

«ستبْدِي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلاً * ويأتيك بالأخبارِ مَنْ لم تُزوّدِ»

تقطيعه

فعولن مفاعيلن ، فعولن ، مفاعلن * فعولن ، مفاعيلن ، فعولن ، مفاعلن

الضرب المحذوف المعتمد

أيقتُلُنى دائى وأنت طبيبى * قريبٌ وهل مَنْ لا يُرَى بقريبِ

لئن خنتَ عهدى إننى غيرُ خائنٍ * وأىُّ مُحِبٍّ خان عهدَ حبيب ٥

وساحِبَةٍ فضْلَ الذُّيُولِ كأنها * قضيبٌ من الرَّيحانِ فوق كثيب

إذا ما بَدتْ من خِدْرِها قال صاحبى * أطِعنى وخُذْ من وصْلِها بنصيب

«وما كلُّ ذى لُبٍّ بمؤتيك نُصْحَهُ * وما كلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بلَبيب»

تقطيعه

١٠ فعولن ، مفاعيلن ، فعولن ، مفاعلن * فعولن ، مفاعيلن ، فعولُ ، فعولن

يجوز فى حشو الطويل القبض والكف : فالقبض فيه حسن ، والكف فيه قبيح ؛ ويدخله الخرم فى الابتداء ، فيقال له : أثلم ؛ فإذا دخله القبض مع الخرم قيل له : أثرم .

والخرم سقوط حركة من أول البيت ، ولا يكون إلا فى وتد ؛ والقبض ماذهب خامسه الساكن ، والكف ما ذهب سابعه الساكن ، والاعتماد [فى الطويل] ١٥ سقوط الخامس من فعولن التى قبل القافية ، اعتمد به نقُبض ، ولم تجر فيه السلامة إلا على قبح ، ولم يأت فى الشعر إلا شاذا قليلا ؛ والاعتماد فى المتقارب : سلامة الجزء الذى قبل القافية ؛ والمحذوف ما ذهب من آخره سبب خفيف .

شطر المديد : وهو مجزوء كله

له ثلاثة أعاريض وستة ضروب ؛ فالعروض الأول منها مجزوء وله ضرب ٢٠ مثله ؛ والعروض الثانى محذوف لازم الثانى ، له ثلاثة ضروب لازمة الثانى : ضرب مقصور لازم الثانى ، وضرب محذوف لازم الثانى ، وضرب أبتر لازم الثانى ؛ والعروض الثالث محذوف مخبون وله ضربان : ضرب مثله ، وضرب أبتر لازم الثانى .

العروض المجزوء والضرب المجزوء

ياطويلَ الهجرِ لاتنسَ وصْلى ٭ واشتغالى بكَ عن كلِّ شغلِ
يا هِلالا فوقَ جِيدِ غزالٍ ٭ وقضيباً تحتهُ دعْصُ رمل
لا سلَتْ عاذِلتى عنه نفسى ٭ أكثِرى فى حُبِّه أو أقِلِّى
شادِنٌ يُزهِى بخدٍّ وجيدٍ ٭ مائِسٍ فاتِنٍ حُسْنٍ ودلٍّ ٥
« ومتى مايعِ منكَ كلاماً ٭ يتكلَّم فيُجبْكَ بعقْل »

تقطيعه :

فعلاتن ، فعلن ، فعلاتن فعلاتن ، فعلن ، فعلاتن

العروض المحذوف اللازم الثانى

والضرب المقصور اللازم الثانى ١٠

ياومِيضَ البَرق بين الغَمام ٭ لا عليها بل عليك السلامْ
إنّ فى الأحداج مقصورَةً ٭ وجْهُها يهتِكُ سِتر الظلامْ
تَحسبُ الهجْر حلالا لها ٭ وترى الوصلَ عليها حرامْ
ما تأسِّيكَ لِدار خلتْ ٭ ولشعب شتّ بعد التِئام
« إنما ذكرُكَ ماقد مضَى ٭ ضلّةٌ مثلُ حديث المنام » ١٥

تقطيعه :

فاعلاتن ، فعلن ، فاعلن فاعلاتن ، فعلن ، فاعلانْ

الضرب المحذوف اللازم الثانى

عاتبٌ ظلْتُ له عاتباً ٭ رُبَّ مطلوبٍ غدَا طالبا
مَن يتُب عن حُب معشوقِه ٭ لستُ عن حُبِّى له تائبا ٢٠

فالهوى لى قدَرٌ غالبٌ * كيف أعصِى القدَرَ الغالبا
ساكِنَ القصرِ ومَن حلَّه * أصبحَ القلبُ بكم ذاهِبا
«آعلَموا أنى لكم حافظ * شاهداً ما عِشْتُ أو غائبا»

تقطيعه :

٥ فاعلاتن ، فاعلن ، فاعلن فاعلاتن ، فاعلن ، فاعلن

الضرب الأبتر

أىُّ تُفّاحٍ ورُمّانٍ * يُجتنى من خوطِ ريحانِ
أىُّ وردٍ فوق خدّ بَدا * مُستنيرا بين سوسانِ
وثَنٍ يُعبدُ فى روْضةٍ * صيغَ من دُرٍّ ومَرْجانِ
١٠ مَن رأى الذّلفاء فى خَلْوةٍ * لم يَرِ الحدّ على الزّانى !
«إنما الذّلفاء ياقوتةٌ * أُخرِجت من كيسِ دهْقان»

تقطيعه :

فاعلاتن ، فاعلن ، فاعلن فاعلاتن ، فاعلن ، فعْلن

العروض المجزوء المحذوف

والمخبون ضَرْبُه

١٥

مِن مُحِبٍّ شفَّهُ سقَمُه * وتلاشى لحمُه ودَمُه
كاتبٍ حنّتْ صحيفتُه * وبكى من رحمةٍ قلَمهْ
يَرفعُ الشكوى إلى قمرٍ * ينْجَلى عن وجهِه ظُلَمه
من لقَرْن الشمسِ جَبْهتُهُ * ولِلَمْعِ البَرْقِ مُبْتَسمه
٢٠ خــلّ عقلى يامُسَفِّهَهُ * إنّ عقلى لستُ أتهمه

« للفتى عقلٌ يعيش به * حيث تَهدى ساقَه قدمُهْ »

تقطيعه :

فاعلاتن ، فاعلن ، فعِلن * فاعلاتن ، فاعلن ، فعِلن

الضرب الأبتر اللازم الثانى

زادَنى لومُك أضرارا * إنّ لى فى الحب أنصارا ٥
طار قلبى من هوى رَشإ * لو دَنا للقلب ما طارا
خُذ بكَفّى لا أمُتْ غَرَقا * إنّ بحر الحبّ قد فارا
أنضجتْ نار الهوى كبدى * ودموعى تُطفئ النـارا
« رُبّ نارٍ بتُّ أرمُقُها * تَقضِمُ الهندىّ والغارا »

تقطيعه : ١٠

فاعلاتن ، فاعلن ، فعِلن * فاعلاتن ، فاعلن ، فعْلن

* * *

يجوز فى حشو المديد : الخبن ، والكف ، والشكل ؛ فالمخبون : ماذهب ثانيه الساكن ، والمكفوف : ماذهب سابعه الساكن ، والمشكول : ماذهب ثانيه وسابعه الساكنان ، وهو اجتماع الخبن والكف فى فاعلاتن . ١٥

ويدخله التعاقب فى السببين المتقابلين بين النون من « فاعلاتن » والألف من « فاعلن » لا يسقطان جميعا ، وقد يثبتان ؛ فما عاقبه ما قبله فهو صدر ، وما عاقبه ما بعده فهو عجُز ، وما عاقبه ما قبله وما بعده فهو طرفان ، وما لم يعاقبه شىء فهو برىء ؛ والمقصور : ما ذهب آخر سواكنه وسكن آخر متحرّكاته من السبب ؛ والأبتر : ما حُذف ثم قُطع . ٢٠

شطر البسيط

البسيط له ثلاثة أعاريض وستة أضرب :

فالعروض الأوّل مخبون تام ، له ضربان : ضرب مثله ، وضرب مقطوع لازم الثانى .

٥ والعروض الثانى مجزوء ، له ثلاثة أضرب : ضرب مُذال وضرب مجزوء ، وضرب مقطوع ممنوع من الطىّ .

والعروض الثالث مقطوع ممنوع من الطىّ ؛ له ضرب مثله .

العروض المخبون والضرب المخبون

بين الأهلّةِ بدر ماله فلَكُ * قلبي له سلمٌ والوجه مشتركُ

١٠ إذا بَدا آنتهبتْ عينى محاسنه * وذَلّ قلبي لعينيــه فينتَهك

آبتعتُ بالدين والدنيا مودّتَه * فخانَنى ، فعلى من يَرجِع الدرَك

كُفُّوا بنى حارثٍ ألحاظَ رِيمِكمُ * فكلُّها لفؤادى كلّه شَرَك

« ياحارِ لا أُرمَيَنْ منكم بداهيةٍ * لم يَلقَها سُوقةٌ قبلِى ولا مَلِك »

تقطيعه :

١٥ مستفعلن ، فاعلن ، مستفعلن ، فعِلن * مستفعلن ، فاعلن ، مستفعلن ، فعِلن

الضرب المقطوع اللازم الثانى

يا ليلةً ليس فى ظلْمائها نورُ * إلا وُجوهاً تضاهِيها الدنانيرُ

حُورٌ سقتْنى بكأس الموت أعينُها * ماذا سقتْنيه تلك الأعينُ الحور

إذا آبتسمْنَ فدُرُّ الثغر مُنتظِم * وإن نطَقنَ فدرُّ اللفظ منثور

خَلِّ الصِّبا عنك وآختم بالنُّهى عمَلا * فإنّ خاتمةَ الأعمال تكْفير

«والخيرُ والشرُّ مقرونانِ فى قَرَنٍ * فالخيرُ متَّبَع والشر محذورُ»

تقطيعه :

مستفعلن ، فاعلن ، مستفعلن ، فعْلن * مستفعلن ، فعِلن ، مستفعلن ، فعْلن

العروض المجزوء والضرب المذال

٥

يا طالباً فى الهوى ما لا ينالْ * وسائلا لم يَعَفْ ذلَّ السؤالْ

ولَّت ليالى الصِّبا محمودةً * لو أنها رجعتْ تلك الليالْ

وأعقبتْها التى واصلْتُها * بالهَجر لمَّا رأت شيْبَ القَذالْ

لا تلتمسْ وصْلةً من مُخْلِفٍ * ولا تكن طالباً ما لا يُنال

«يا صاحِ قد أخلفتْ أسماءُ ما * كانت تمنِّيكَ من حُسن الوصال»

١٠

تقطيعه :

ستفعلن، فاعلن، مستفعلن * مستفعلن، فاعلن، مستفعلان

الضرب المجزوء

١٥

ظالمِى فى الهوى لا تظلِمى * وتَصْرِمى حبلَ مَن لم يصرِمِ

أهكذا باطلا عاقبتِنى * لا يَرحمُ اللهُ مَن لم يَرحمِ

قتلتِ نفساً بلا نفسٍ وما * ذنب بأعظمَ من سفكِ الدم

لمثل هذا بكت عينى ولا * للمنزل القفْرِ أو للأرْسُم

«ماذا وُقوفى على رسْمٍ عَفا * مُخْلَوْلِق دارسٍ مُستَعجِمِ»

٢٠

تقطيعه :

مستفعلن ، فاعلن ، مستفعلن * مستفعلن ، فاعلن ، مستفعلن

الضرب المقطوع الممنوع من الطىّ

ما أقرَب اليأسَ من رجائِى * وأبعدَ الصبرَ من بُكائِى
يا مُذْكِىَ النارِ فى جوانِحى * أنت دوائِى وأنت دائِى
مَن لى بمُخْلِفةٍ فى وعْدِها * تَخلِط لى اليأسَ بالرجاء
سألتُها حاجةً فلم تفُهْ * فيها بنعْمَى ولا بِلاء ٥
« قلتُ آستجيبِى فلما لم تُجِبْ * سالت دُموعى على رِدائى

تقطيعـــه :

مستفعلن ، فاعلن ، مستفعلن * مستفعلن ، فاعلن ، فعولن

العروض المقطوع الممنوع من الطىّ

ضربه مثـــله ١٠

كآبةُ الذُلّ فى كتابى * ونَخوَةُ العِـــزّ فى جواب
قَتلتَ نفساً بغير نفسٍ * فكيف تنجو من العذاب
خُلِقْت من بهجةٍ وطِيبٍ * إذ خُلِق الناسُ من تراب
وَلّت حُمَيّا الشباب عنى * فلَهْف نفْسى على الشباب
« أصبَحت والشيْبُ قد علاَنى * يَدعو حثِيثاً إلى الخِضاب » ١٥

تقطيعـــه :

مستفعلن ، فاعلن ، فعولن * مستفعلن ، فاعلن ، فعولن

* * *

يجوز فى حشو البسيط : الخبن ، والطى ، والخبل ؛ فالخبن ما ذكرناه فى
٢٠ المديد ، والطىّ ما ذهب رابعه الساكن ، والمخبول ما ذهب ثانيه ورابعه الساكنان ،
وهو اجتماع الخبن والطىّ فى « مستفعلن » .

والخبن فيه حَسَن ، والطىّ فيه صالح ، والخبل فيه قبيح .

والمقطوع ما ذهب آخر سواكنه وسكن آخر متحركاته من الوتد : والمذال ما زاد على اعتداله حرف ساكن .

[تمت الدائرة الأولى]

شطر الوافر

له عروضان وثلاثة أضرب : فالعروض الأول مقطوف ، له ضرب مثله ؛ والعروض الثانى مجزوء ممنوع من العقل ، له ضربان : ضرب سالم ، وضرب معصوب .

العروض المقطوف : الضرب المقطوف

تجافى النومُ بَعدَك عن جُفونى * ولكن ليس يَجفوها الدموعُ
يذَكِّرُنى تَبَسُّمَك الأقاحِى * ويَحكِى لِى تَوَرُّدَك الربيعُ
يطير إليك من شوْقٍ فؤادى * ولكن ليس تتركُه الضلوعُ
كأنّ الشمسَ لمّا غِبْتَ غابت * فليس لها على الدُّنيا طُلوعُ
فمالى عن تَذَكُّرِك امتناعٌ * ودون لِقائك الحِصنُ المنيع
« إذا لم تستطعْ شيئاً فدعْهُ * وجاوِزْه إلى ما تستطيعُ »

تقطيعه :

مفاعلْتن ، مفاعلْتن ، فعولن * مفاعلْتن ، مفاعلْتن ، فعولن

العروض المجزوء الممنوع من العقل . الضرب السالم

غزالٌ زانَه الحوَرُ * وساعَد طرْفَه القدَرُ
يُريك إذا بدا وجْهاً * حكاه الشمسُ والقمَر
بَراهُ الله من نورٍ * فلا جِنٌّ ولا بشَر
فذاك الهمُّ ، لا طلَلٌ * وقفْتَ عليه تعْتبِرُ

«أهاجَك منزلٌ أقوى * وغَيّر آيَهُ الغِيَرُ»

تقطيعه:

مفاعلَتن ، مفاعلْتن * مفاعلَتن ، مفاعلَتن

الضرب المعصوب

وبدْرٍ غيرِ مَمْحوقٍ * من العِقيان مخلوقِ
إذا أُسقِيت فضلَتَه * مَزَجْتُ بريقهِ رِيق
فيالك عاشقاً يُسْقَى * بقيَّةَ كأسِ معشوقِ
بكَيْتُ لنأيِه عنى * ولا أبكِى بتَشْهِيق
«لمنْزلةٍ بها الأفلا * كُ أمثال المهارِيق»

تقطيعه:

مفاعلَتن ، مفاعلْتن * مفاعلْتن ، مفاعلْتن

* * *

يجوز فى حشو الوافر: العصب، والعقل، والنقص؛ فالعصب فيه حَسَن، والنقص فيه صالح، والعقل فيه قبيح.

ويدخله الخرم فى الابتداء فيسقط حركة من أول البيت فيسمى أعصب، فإذا دخله العصب مع الخرم قيل له: أقصم، فإذا دخله النقص من الخرم قيل له: أعقص، فإذا دخله العقل مع الخرم قيل له: أجمّ.

والمعصوب ما سكن خامسه المتحرك، والمنقوص ما سكن خامسه المتحرك وذهب سابعه الساكن، والمقطوف ما ذهب من آخره سبب خفيف وسكن آخر ما بقى؛ ولا يدخل القطف إلا فى العروض والضرب من تمام الوافر.

شطر الكامل

الكامل له ثلاثة أعاريض وتسعة ضروب، فالعرض الأول تام، له ثلاثة

ضروب : ضرب تام مثله ، وضرب مقطوع ممنوع إلا من سلامة الثانى وإضماره ، وضرب أحذّ مضمر .

والعروض الثانى أحذّ له ضربان : ضرب مثله وضرب مضمر .

والعروض الثالث مجزوء له أربعة ضروب : ضرب مرفّل ، وضرب مُذال ، وضرب مجزوء ، وضرب مقطوع ممنوع إلا من سلامة الثانى وإضماره . ٥

العروض التام : الضرب التام

يا وجهَ مُعْتذِرٍ ومُقلةَ ظالم * كم من دمٍ ظلماً سفكْت بلادمِ
أوجدْتَ وصْلى فى الكتابِ مُحرّما * ووجدْتَ قتْلى فيه غيرَ مُحرّم
كم جنةٍ لك قد سكَنْت ظِلالها * مُتفكّهاً فى لذّةٍ وتنعُّم
وشرِبْتُ من خمرِ العيونِ تعلُّلا * فإذا انتشيْتُ أُجودُ جُودَ المِرْزم ١٠
« وإذا صحوْتُ فما أُقصِّرُ عن ندًى * وكما علِمتَ شمائلى وتكرُّمى »

تقطيعــــه :

متفاعلن ، متفاعلن ، متفاعلن * متفاعلن ، متفاعلن ، متفاعلن

الضرب المقطوع الممنوع إلا من الإضمار والسلامة

حالَ الزّمانُ فبدَّل الآمالا * وكسا المَشيب مفارقاً وقَذالا ١٥
غنيَتْ غَوانى الحىّ عنك وربما * طَلَعت إليك أَكِلَّةً وحِجالا
أضحَى عليك حلالُهُنّ مُحرّما * ولقد يكونُ حرامُهُنّ حلالا
إنّ الكواعبَ إنْ رأيْنَك طاويا * وصْلَ الشباب طَوَين عنك وِصالا
« وإذا دعَوْنَك عمّهُنّ فإنه * نسَبٌ يزيدُك عندهُنّ خَبالا »

تقطيعــــه : ٢٠

متفاعلن ، متفاعلن ، متفاعلن * متفاعلن ، متفاعلن ، فَعِلاتن

الضرب الأحذ المضمر

يوم المحبِّ لطوله شهـــرُ * والشهـــرُ يُحسَبُ أنه دهرُ
بأبى وأمى غادةٌ فى خـــدها * سحـــر وبين جُفونِهـا سحـــر
الشمسُ تحسب أنها شمسُ الضُحى * والبدرُ يَحسِب أنهـا البــدْر
فسَلِ الهوى عنها يجبْك، وإن نأتْ * فسلِ القِفارَ يُجبْكَ القفـــر ٥
«لمَن الديارُ برامَتيْن فعاقلٍ * درستْ وغيّر آيَهـا القَطر»

تقطيعه

متفاعلن ، متفاعلن ، متفاعلن * متفاعلن ، متفاعلن ، فعْلن

العروض الأحذ ضربه مثله

أمّا الخليطُ فشَدّ ماذهَبوا * بانوا ولم يَقضوا الذى يَجبُ ١٠
فالدارُ بعـــدهم كوَشْم يَدٍ * يادار فِيكِ وفيهمُ العجب
أين التى صِيغتْ محاسنُها * من فضّةٍ شيبَتْ بهـا ذهَب
ولّى الشبابُ فقلتُ أندُبُه * لا مثْلَ ماقالوا ولاندَبوا
«دِمَنٌ عَفتْ ومَحا معالَمَها * هَطِلٌ أَجشُّ وبارِحٌ تَرِب»

تقطيعه : ١٥

متفاعلن ، متفاعلن ، فعِلن * متْفاعلن ، متفاعلن ، فعِلن

الضرب الأحذ المضمر

عينىّ كيف غررتُمـا قلبى * وأبحتُماه لوعةَ الحبِّ
يا نظرةً أذكتْ على كَبدى * ناراً قضيْتُ بحرّها نَحْبى
خَلُّوا جَوَى قلبى أكابِدُه * حسْبى مُكابَدةُ الجوَى حسْبى ٢٠

عيني جنَت من شؤْم نظرتها * ما لا دواء له ، على قلبي
«جانِيكَ من يَجني عليك وقد * تعْدِى الصِّحاحَ مَبارِكُ الْجُرْب»

تقطيعه :

متْفاعلن ، متْفاعلن ، فعِلن * متْفاعلن ، متَفاعلن ، فعْلن

٥ العروض المجزوء والضرب المجزوء المرفل

هتكَ الحِجابَ عن الضمائرْ * طرْفٌ به تُبلَى السرائرْ
يرْنُو فيَمتَحِنُ القلو * بَ كأنه فى القلب ناظر
ياساحراً ماكنتُ أعْ * رفُ قبله فى الناس ساحر
أقصيْتَنى من بعد ما * أدنيْتَنى فالقلب طائِر
١٠ «وغَرَرْتَنِى وزعمتَ أنْ * نَكَ لابِنٌ بالصيف تامِر»

تقطيعه :

متَفاعلن ، متَفاعلن * متَفاعلن ، متْفاعلاتن

الضرب المذال

يامُقْلةَ الرَّشإ الغريـ * ـرِ وشقّةَ القمرِ المنيرْ
١٥ ما رَنَّقتْ عيْناكِ لى * بين الأكِلّةِ والسُّتور
إلا وضعتُ يَدى على * قلبي مخافةَ أن يطير
هبْنى كبعضِ حَمام مكْ * كةَ وآستمعْ قولَ النذير :
«أبُنَىَّ لا تَظلمْ بمكْ * كةَ لاالصغيرَ ولا الكبير»

تقطيعه :

٢٠ متَفاعلن ، متْفاعلن * متَفاعلن ، متَفاعلان

الضرب المجزوء

قل ما بدا لكَ وافعَلِ * واقطعْ حِبالكَ أو صِلِ
هٰــــذا الربيع لحيْه * وانزلْ بأكرمِ منزلِ
وصِلِ الذى هُو واصلٌ * فإذا كرهْتَ فبدّلِ
٥ وإذا نبا بك منزلٌ * أو مسكنٌ فتحوّل
«وإذا افتقرتَ فلا تكُن * مُتخشّعاً وتجمَّــلِ»

تقطيعه :

متفاعلن ، متفاعلن * متفاعلن ، متفاعلن

الضرب المقطوع الممنوع إلا من سلامة الثانى وإضماره

١٠ يا دهرُ مالى أصْفِى * وأنتَ غيرُ مُواتِى
جرعْتَنى غُصَصاً بها * كدرتَ صَفْوَ حياتى
أين الذينَ تسابقُوا * فى المجدِ للغاياتِ
قومٌ بهمْ روحُ الحيا * ةِ تُردُّ فى الأموات
«وإذا هُمُو اذكرُوا الإسا * ءةَ أكثرُوا الحسنات»

١٥ تقطيعه :

متفاعلن ، متفاعلن * متفاعلن ، فعِلاتن

* * *

يجوز فى الكامل من الزحاف : الإضمار والوقص والخزل ، فالإضمار فيه حسن ، والوقص فيه صالح ، والخزل فيه قبيح .

٢٠ فالمضمر ما سكن ثانيه المتحرك .

والموقوص ماذهب ثانيه المتحرك .

والمخزول ماسكن ثانيه المتحرك وذهب رابعه الساكن .

ويدخله من العلل القطع والحذَذ ، فالمقطوع ما تقدم ذكره ، والأحذ ماذهب من آخر الجزء وتد مجموع .

[تمت الدائرة الثانية] ٥

شطر الهزج

الهزج له عروض واحد مجزوء ممنوع من القبض ، وضربان : ضرب سالم ، وضرب محذوف .

العروض المجزوء الممنوع من القبض ضربه مثله

أيا مَن لامَ فى الحبِّ * ولم يَعلَمْ جَوى قلبى ١٠

مَلامُ الصبِّ يُغويه * ولا أغْوى منَ القلبِ

فأنى لمْتَ فى هندٍ * مُحِبًّا صادقَ الحبِّ

وهند مالها شِبهٌ * بِشرقٍ لا ولا غربِ

«إلى هند صَبا قلبى * وهِندٌ مثلُها يُصبى»

تقطيعه : ١٥

مفاعيلن ، مفاعيلن * مفاعيلن ، مفاعيلن

الضرب المجزوء المحذوف

متى أشفِى غليلى * بنيلٍ من بَخيلِ

غزالٌ ليس لى منه * سوى الحزن الطويلِ

جميلُ الوجهِ أخلانِى * من الصبرِ الجميلِ ٢٠

حَمَلْتُ الضَّيْمَ فيه من ٭ حَسودٍ أو عـذول

«وما ظَهري لباغي الضَّـيْم بالظهرِ الذَّلُولِ»

تقطيعه :

مفاعيلن ، مفاعيلن ٭ مفاعيلن ، فعولن

٥ * * *

يجوز فى الهزج من الزحاف : القبض، والكف ؛ فالكف فيه حسن ،والقبض فيه قبيح ؛ وقد فسرنا المقبوض والمكفوف فى الطويل أيضا ؛ ويدخله الخرم فى الابتداء ، فيكون أخرم ، فإذا دخله الكف مع الخرم قيل له : أخرب ، فإذا دخله القبض مع الخرم قيل له : أشتر ، والخرم كله قبيح .

شطر الرجز

١٠

الرجز له أربعة أعاريض وخمسة ضروب :

فالعروض الأول تام ، له ضربان : ضرب تام مثل عروضه ، وضرب مقطوع ممنوع من الطىّ .

والعروض الثانى مجزوء ، له ضرب مثله مجزوء .

١٥ والعروض الثالث مشطور ، له ضرب مثله ؛ والعروض الرابع منهوك ، له ضرب مثله .

العروض التام . الضرب التام

لم أدرِ جِنّىٌّ سَبانى أم بشرْ ٭ أم شمسُ ظُهرٍ أشرقتْ لى أم قمرْ

أمْ ناظرٌ يُهدِى المنايا طرفهُ ٭ حتى كأنّ الموتَ منه فى النّظر

٢٠ يُحيِي قتيلا ما له من قاتلٍ ٭ إلا سهامُ الطَّرْفِ ريشت بالحوَرْ

ما بالُ رسمِ الوصْلِ أضحى دارِساً ٭ حتى لقد أذكرتَنى عما دَثَرْ

«دارٌ لِسلمى إذ سُليمَى جارةٌ ٭ قفْرٌ ترى آياتِها مثلَ الزُّبُرْ»

تقطيعه :

مستفعلن ، مستفعلن ، مستفعلن مستفعلن ، مستفعلن ، مستفعلن

الضرب المقطوع الممنوع من الطى

قلبٌ بِلوْعاتِ الهوى معمودُ ٭ حيٌّ كَمَيْتٍ حاضرٌ مفقودُ ٥

مَن ذا يُداوى القلبَ من داءِ الهوى ٭ إذ لا دواءَ للهوى مَوجود

أم كيفَ أسلُو غادةً ماحُبُّها ٭ إلا قضـــاءٌ ماله مَرْدودُ

«القلبُ منهـــا مُستريح سالمٌ ٭ والقلب منِّى جاهِد مجهودُ

تقطيعه :

مستفعلن ، مستفعلن ، مستفعلن مستفعلن ، مستفعلن ، مستفعلْ ١٠

العروض المجزوء . الضرب المجزوء

أعطيتُـه ماسَألا ٭ حكَّمْتُه لو عـدَلا

وهَبته رُوحى فـا ٭ أدرى به ما فعَلا

أسـلَمْتُهُ فى يده ٭ عيَّشهُ أم قَتلا

قلبِى به فى شُغُلٍ ٭ لاملَّ ذاكَ الشُّغُلا ١٥

«قيَّدهُ الحبُّ كما ٭ قيدَ راعٍ جَملا»

تقطيعه :

مفتعلن ، مفتعلن مفتعلن ، مفتعلن

العروض المشطور . الضرب المشطور

يأيها المشغوف بالحبِّ التَّعِبْ ٭ كم أنت فى تقريب مالا يَقترِبْ ٢٠

دعْ وُدَّ مَنْ لايَرْعَوى إذا غضِبْ * ومَن إذا عاتَبْتَهُ يوما عَتبْ

* «إنك لا تَجنى من الشَّوْكِ العِنَبْ» *

تقطيعه :

مفتعلن ، مستفعلن ، مستفعلن

العروض المنهوك . الضرب المنهوك

٥

ياصُ شيْب قد نَصَعْ * رَقَعْته فما آرْتَقعْ

إذا رأى البِيضَ انقَمَع * ما بين يأس وطمع

للهِ أيّامُ النَّخَعْ * يا ليتنى فيها جَذَع

* أخُبُّ فيها وأضَع *

١٠ تقطيعه :

مُتَفْعلن ، مفتعلن

* * *

ويجوز فى حشو الرجز : الخبن ، والطى ، والخبل ؛ فالخبن فيه حسَن ، والطىّ فيه صالح ، والخبل فيه قبيح ؛ وقد مضى تفسير الطىّ والخبن والخبل فى البسيط .

١٥ ويدخله من العلل القطع ، وقد ذكرناه ، ويكون مجزوءاً ، والمجزوء ما ذهب من آخر الصدر جزء ومن آخر العجز جزء ؛ ويأتى مشطوراً ، والمشطور ما ذهب شطره ؛ ويأتى منهوكا ، والمنهوك ما ذهب من شطره جزآن وبقى على جزء .

شطر الرمل

الرمل له عروضان وستة ضروب ؛ فالعروض الأول محذوف جائز فيه

٢٠ الخبن ، له ثلاثة ضروب : ضرب متمّم ، وضرب مقصور جائز فيه الخبن ، وضرب محذوف مثل عروضه ؛ والعروض الثانى مجزوء له ثلاثة ضروب :

ضرب مسبّغ ، وضرب مجزوء مثل عروضه الجائز فيه الخبن ، وضرب محذوف جائز فيه الخبن .

العروض المحذوف الجائز فيه الخبن لضرب المتمم

أنا فى اللّذاتِ مخلوعُ العِذارِ * هائمٌ فى حُب ظَبْي ذى احْورار

صُفرةٌ فى حُمْرةٍ فى خدِّهِ * جَمعتْ رَوضةَ وردٍ وبَهار ٥

بأبى طاقــةَ آسٍ أقبلَتْ * تتثنّى بين حَجْــلٍ وسِوار

قادنى طَرْفى وقلبى للهوى * كيف من طرفى ومن قلبى حَذارى

«لو بغيرِ المـاءِ حَلْقى شَرِقٌ * كنتُ كالغَصّانِ بالماءِ اعتِصارى»

تقطيعه :

فاعلاتن ، فاعلاتن ، فعلن فاعلاتن ، فاعلاتن ، فاعلاتن ١٠

الضرب المقصور

يا مُديرَ الصّدْغِ فى الخدّ الأسيلْ * ومُجيلَ السِّحْرِ بالطَّرفِ الكحيلْ

هل لِمحزونٍ كئيبٍ قُبلةٌ * منك يَشفى بَرْدُها حَرَّ الغليل

وقليــلٌ ذاك إلّا أنه * ليس من مِثْلِك عندى بالقليل

بأبى أحورَ غَــنَّى مَوْهِناً * بغِناءٍ قصّر الليلَ الطويل ١٥

« يا بَنى الصَّيداءِ رُدُّوا فرسى * إنما يُفعلُ هـذا بالذّليل »

تقطيعه :

فاعلاتن ، فاعلاتن ، فعلن فاعلاتن ، فعلاتن ، فاعلات

الضرب المحذوف

شادِنٌ يَسحَبُ أذيالَ الطَّرَبْ * يَتثنّى بين لهــوٍ ولعِبْ ٢٠

بجَبين مُفْرَغٍ من فِضّةٍ * فوق خدٍّ مُشْرَبٍ لونَ الذهب

كَتَبَ الدمعُ بخدّى عهدَه • للهوى والشوقُ يُملِى ماكَتبْ
ما لجهْلِى ما أراه ذاهبــا • وسَوادُ الرأسِ منى قد ذَهب
« قالت الخنساء لمّا جئتُها • شاب بعدى رأسُ هذا واشتَهبْ »

تقطيعــه :

٥ فاعلاتن ، فاعلاتن ، فاعلن * فاعلاتن ، فاعلاتن ، فاعلن

العروض المجزوء . الضرب المسبغ

يا هلالا فى تَجَنّيهْ • وقضيباً فى تَثَنّيهْ
والذى لستُ أُسَمّيــهِ ولكنى أُكَنّيهْ
شادِنٌ ما تَقْدِر العيْــنُ تراهُ من تلالِيه
١٠ كلّما قابلَه شخــصٌ رأى صورتَه فيه
« لآن حتى لومشَى الذَّ • رُّ عليه كاد يُدْميه »

تقطيعــه :

فاعلاتن ، فاعلاتن • فعلاتن ، فاعلاتانْ

الضرب المجزوء

١٥ يا هلالا قد تَجلّى • فى ثياب من حرير
وأمــيراً بهــوَاهُ • قاهراً كلّ أمير
ما لخدّيْكَ آستَعارا • حُمْرةَ الوردِ النضيرِ
ورُسوم الوصْلِ قد • ألبسْتَها ثوْبَ دُثورِ
« مُقْفِرات دارِسات • مثْل آياتِ الزبورِ »

٢٠ تقطيعــه :

فاعلاتن ، فاعلاتن • فاعلاتن ، فاعلاتن

الضرب المجزوء المحذوف الجائز فيه الخبن

يا قتيلا من يَدِهْ * ميّتاً من كَمَدِهْ
قَدَحتْ للشوْق نارا * عينُه فى كَبِدِهْ
هائمٌ يَبكى عليه * رحمةً ذو حسَدِه
كلَّ يومٍ هو فيه * مُستعيذٌ من غدِه ٥
«قلبُه عند الثُّريّا * بائنٌ عن جسده»

تقطيعـــه :

فاعلاتن ، فاعلاتن * فاعلاتن ، فعلن

* * *

يجوز فى الرمل من الزحاف : الخبن ، والكف ، والشكل ؛ فالخبن فيه حسن ١٠ والكف فيه صالح ، والشكل فيه قبيح ، وقد فسرنا المكفوف والمخبون .

فأما المشكول فهو ما ذهب ثانيه وسابعه الساكنان .

ويدخله التعاقب فى السببين المتقابلين على حسب ما يدخل فى المديد ؛ ويدخله من العلل : الحذف ، والقصر ، والإسباغ ؛ وقد فسرنا المحذوف والمقصور ، وأما المسبغ فهو مازاد على اعتدال جزئه حرف ساكن مما يكون فى آخره سبب ١٥ خفيف ، وذلك «فاعلاتن» يزاد عليها حرف ساكن فيكون «فاعلاتان» .

[تمت الدائرة الثالثة] .

شطر السريع

السريع له أربعة أعاريض وسبعة أضرب .

فالعروض الأول مكشوف مطوى لازم الثانى ، له ثلاثة ضروب : ضرب ٢٠ موقوف مطوى لازم الثانى ، وضرب مكشوف مطوى لازم الثانى مثل عروضه وضرب أصلم سالم .

والعروض الثانى مخبول مكشوف ، له ضربان : ضرب مثل عروضه ، وضرب أصلم سالم .

والعروض الثالث مشطور موقوف ممنوع من الطىّ ، ضربه مثله .

والعروض الرابع مشطور مكشوف ممنوع من الطىّ ضربه مثله .

العروض المكسوف المطوى اللازم الثانى

الضرب الموقوف المطوى اللازم الثانى

بكيتُ حتى لم أدَعْ عَبْرةً * إذ حَملوا الهوْدجَ فوق القَلوصْ

بُكاء يعقوبَ على يوسُفٍ * حتى شقَى غُلتَه بالقميصْ

لا تأسفِ الدهرَ على ما مضى * وألقَ الذى ما دونَه من مَحيص

«قد يُدرِكُ المُبْطِئُ من حظِّه * والخيرُ قد يَسبِق جُهدَ الحريص»

تقطيعـــه :

مستفعلن ، مفتعلن ، فاعلن * مستفعلن، مفتعلن، فاعلات

الضرب المكشوف المطوى اللازم الثانى

لله دَرُّ البيْنِ ما يَفعلُ * يقتُل من شاء ولا يُقتَلُ

بانُوا بمن أهواه فى ليلةٍ * رُدّ على آخِرها الأوّلُ

ياطولَ ليلِ المبتَلَى بالهوى * وصُبْحُه من ليْلِه أطوَل

فالدارُ قد ذكَّرَنى رسمُها * ما كدتُ من تَذكارِه أذهَل

«هاج الهوى رسْمٌ بذاتِ الغَضَى * مُخْلَوْلِقٌ مُستَعجِمٌ مُحْوِل»

تقطيعـــه :

مستفعلن، مستفعلن، فاعلن * مستفعلن، مستفعلن، فاعلن

الضرب الأصلم السالم

قلبي رهينٌ بين أضلاعي * من بين إيئاس وإطماعِ
من حيثُما يدعوه داعي الهوى * أجابه لبّيك من داعي
مَنْ لسقيمٍ ماله عائدٌ * وميّتٍ ليس له ناعِي
٥ لما رأتْ عاذلتي ما رأتْ * وكان لي من سَمْعِها واعي
« قالت ولم تقصدْ لقيْل الخنا * مَهلا لقد أبلغتَ أسماعي »

تقطيعه :

مستفعلن، مستفعلن، فاعلن * مستفعلن، مستفعلن، فعْلن

العروض المخبول المكسوف

١٠ ضربه مثله

شمسٌ تجلّت تحت ثوبِ ظُلَمْ * سَقيمةُ الطرْف بغير سَقَمْ
ضاقتْ عليّ الأرضُ مُذْ صَرَمَت * حَبْلي فما فيها مكانُ قدم
شمسٌ وأقمارٌ تطوفُ بها * طوْفَ النصارى حول بيْتِ صنَمْ
« النّشرُ مِسكٌ والوجوه دَنا * نيرٌ وأطرافُ الأكفّ عَنَمْ »
١٥ تقطيعه :

مستفعلن، مستفعلن، فعِلن * مستفعلن، مستفعلن، فعِلن

الضرب الأصلم السالم

أنت بما في نفْسه أعلمْ * فاحكم بما أحببْتَ أن تحكُمْ
ألحاظُه في الحبّ قد هتَكتْ * مكتومةً والحبُّ لا يُكتَم
٢٠ يا مُقْلةً وحشِيّةً قتلتْ * نفساً بلا نفْسٍ ولم تَظلمْ
قالت تَسلّيْتَ فقلتُ لها * ما بالُ قلبي هائمٌ مُغْرَمْ

«يا أيها الزارِى على عُمَرٍ * قد قلتَ فيه غير ما تعلمْ»

تقطيعه :

مستفعلن ، مستفعلن ، فعِلن * مستفعلن ، مستفعلن ، فعْلن

العروض المشطور الموقوف الممنوع من الطى

ضربه مثله

خلّيْتُ قلبى فى يدىْ ذات الخالْ * مُصفَّدًا مُقيَّـــداً فى الأغلالْ

قد قلتُ للباكى رُسومَ الأطلالْ * «يا صاحِ ما هاجَك من رَبْعٍ خالْ»

تقطيعه :

مستفعلن ، مستفعلن ، مفعولانْ

العروض المشطور المكسوف الممنوع من الطى

ضربه مثله

ويْحِى قتيلا ماله من عقلٍ * بشادِنٍ يهتزّ مثْلَ النَّصْلِ

مكحّلٍ ما مسّه من كحْلٍ * لا تعذلانى إننى فى شُغْلِ

« يا صاحِبَىْ رَحْلى أقِلّا عَذْلى »

تقطيعه :

مستفعلن ، مستفعلن ، مفعولن

* * *

يجوز فى السريع من الزحاف : الخبن ، والطىّ ، والخبل ؛ فالخبن فيه حَسَن ، والطى صالح ، والخبل فيه قبيح .

ويدخله من العلل : الكشف ، والوقف ، والصلم ؛ فالمكشوف ما ذهب

سابعه المتحرك ، والموقوف ما سكن سابعه ، والأصلم ما ذهب من آخره وتد مفروق ؛ والمشطور ما ذهب شطره .

شطر المنسرح

المنسرح له ثلاثة أعاريض وثلاثة ضروب ؛ فالعروض الأول ممنوع من الخبل ، له ضرب مطوى ؛ والعروض الثانى منهوك موقوف ممنوع من الطىّ ، له ضرب مثله ؛ والعروض الثالث منهوك مكشوف ممنوع من الطىّ ، له ضرب مثله .

العروض الممنوع من الخبل

الضرب المطوى

بيضاء مضمومة مُقرْطقةٌ * ينقَدّ عن نهدها قَراطِقُها
كأنما باتَ ناعماً جَذِلا * فى جنة الخلد مَن يُعانقها
وأىّ شىءٍ ألذُّ من أملٍ * نالته معشوقة وعاشقها
دعْنى أمُت من هَوَى مُخدَّرةٍ * تعْلق نفسى بها عَلائقها
«مَن لم يمتْ عِبْطةً يمت هَرَما * الموتُ كأسٌ والمرء ذائقها»

تقطيعه :

مستفعلن ، مفْعلاتُ ، مفتعلن * مستفعلن ، مفعولاتُ مفتعلن

العروض المنهوك الموقوف الممنوع من الطى

ضربه مثله

أقْصرتُ بعضَ الإقصارْ * عن شادِنٍ نائِى الدارْ
صَبَّرَنِى لمّا صارْ * ولم أكن بالصّبّارْ

«وقال لى باستعْبار * صَبْراً بنى عبد الدارْ»

تقطيعه :

مستفعلن ، مفعولاتْ

العروض المنهوك المكسوف الممنوع من الطى

٥ ضربه مثله

عاضتْ بوصْل صدًّا * تريد قتْلى عمـدا

لما رأتـنى فرْدا * أبكى وألقَى جهْدا

«قالت وأبدتْ ردّا * وَيْلمِّ سعدٍ سعدا»

تقطيعه :

١٠ مستفعلن ، مفعولن

* * *

يجوز فى المنسرح من الزحاف : الخبن ، والطىّ ، والخبل ؛ فالخبن فيه حسن ، والطىّ فيه صالح ، والخبل قبيح .

ويدخله من العلل : الوقف ، والكشف ؛ وقد فسرناهما فى السريع .

١٥ والمنهوك ما ذهب شطره ثم ذهب منه جزء بعد الشطر .

شطر الخفيف

الخفيف له ثلاثة أعاريض وخمسة ضروب :

فالعروض الأول منه تامّ له ضربان : ضرب يجوز فيه التشعيث ، وضرب محذوف يجوز فيه الخبن .

٢٠ والعروض الثانى جائز فيه الخبن . وله ضرب مثله .

والعروض الثالث مجزوء ، له ضربان : ضرب مثله مجزوء ، وضرب مجزوء مقصور مخبون .

العروض التامّ . الضرب التامّ

الجائز فيه التشعيث

أنتَ دائِي وفي يديك دوائِي * ياشِفائِي من الجوَى وبلائِي ٥
إنّ قلبي يُحِبُّ مَن لا أُسمِّي * فى عَناءٍ أَعْظِمْ به من عَناء
كيف لا كيف أَنْ أَلَذَّ بعيشٍ * مات صبرِي به ومات عزائى
أيها اللائِمون ماذا عليكم * أن تعيشوا وأن أموتَ بدائى
«ليس مَن مات فاستراح بميْتٍ * إنما الميْتُ ميِّتُ الأحياء»

تقطيعه : ١٠

فاعلاتن ، مُتَفعلن ، فعِلاتن * فاعلاتن ، متفعلن ، مفعولن

الضرب المحذوف يجوز فيه الخبن

ذاتُ دَلٍّ وشاحُها قَلِقُ * من ضُمُورٍ وحَجلها شَرِقُ
بَزَّتِ الشمسَ نورُها ، وحَباها * لَحْظَ عينيه شادِنٌ خَرِق
ذَهبٌ خَدُّها يَذوبُ حَياءً * وسِوَى ذاكَ كلِّه وَرِق ١٥
إن أَمُتْ مِيتةَ المحبِّين وَجْداً * وفؤادى من الهوى حَرِق
فالمَنايَا من بين غادٍ وسارٍ * كلُّ حيّ برَهْنِها غَلِق

تقطيعه :

فاعلاتن ، مستفعلن ، فاعلاتن * فاعلاتن ، متفعلن ، فعِلن

الضرب المحذوف الجائز فيه الخبن

ضربه مثله

ياغليلا كالنارِ فى كبدِى * واغترابِ الفؤادِ عن جسدِى
وجفوناً تذرى الدموعَ أسى * وتَبيعُ الرقادَ بالسُّهـدِ
٥ ليت مَن شَفنى هواهُ رأى * زفراتِ الهوى على كَبِدِى
غادةٌ نازحٌ محلّتُهـا * وكلتنى بلوعةِ الكَمَدِ
«رُبَّ خرقٍ من دونِها قذف * ما به غير الجنّ من أحدِ»

تقطيعه :

فاعلاتن ، مستفعلن ، فعِلن فاعلاتن ، مستفعلن ، فعِلن

١٠ العروض المجزوء والضرب المجزوء

ما لِليـلَى تبدّلتْ * بعدَنا ودّ غـيرِنا
أرهقتْنا ملامـةً * بعـد إيضاحِ عُذرِنا
فسلوْنا عن ذكرها * وتسلّتْ عن ذكرِنا
لم نَقُل إذ تَحرمتْ * واستهلّتْ بهجرِنا
١٥ «ليتَ شِعرى ماذا تَرى * أُمُّ عمرو فى أمرِنا»

تقطيعه :

فاعلاتن ، مستفعلن فاعلاتن ، مستفعلن

الضرب المجزوء المقصور المخبون

أشرقَتْ لى بُدُورُ * فى ظلامٍ تُنيرُ
٢٠ طار قلبي بحبِّها * مَن لِقلبٍ يَطيرُ
يا بُدوراً أنا بهـا * الدهرَ عانٍ أسيرُ

إن رضيتم بأن أمو * ت فوتى حقيرُ
«كل خطب إن لم تكو * نوا غضبتم يسيرُ»

تقطيعه :

فاعلاتن ، مستفعلن فاعلاتن ، فعولن

* * *

يجوز فى الخفيف من الزحاف : الخبن ، والكف ، والشكل ؛ فالخبن فيه حَسن ، والكف فيه صالح ، والشكل فيه قبيح . ٥

ويدخله التعاقب بين السببين المتقابلين من مستفعلن وفاعلاتن : لا يسقطان معا ، وقد يثبتان ؛ وذلك أن وتد «مُسْ تَفْعِ لنْ» فى الخفيف والمجتث ، كله مفروق فى وسط الجزء ؛ وقد بينا التعاقب فى المديد .

ويدخله من العلل ، التشعيث ، والحذف ، والقصر ؛ وقد بينا المحذوف والمقصور ، وأما التشعيث فهو دخول القطع فى الوتد من «فاعلاتن» التى من الضرب الأول من الخفيف ، فيعود «مفعولن» . ١٠

شطر المضارع

المضارع له عروض واحد مجزوء ممنوع من القبض ، وضرب مجزوء ممنوع من القبض مثل عروضه ، وهو : ١٥

أرى لِلصّبا وَداعا * ولا يذكرُ اجتماعا
كأن لم يكنْ جديراً * بحفظِ الذي أضاعا
ولم يُصبِنا سرُوراً * ولم يُلهِنا سَماعا
لجِدّد وِصالَ صبّ * متى تعصِه أطاعا
«وإن تَدْنُ منه شبراً * يُقرِّبْك منه باعا» ٢٠

تقطيعه :

مفاعيلن فاعلاتن مفاعيلن فاعلاتن

* * *

يجوز فى حشو المضارع من الزحاف : القبض ، والكف ، فى مفاعيلن ، ولا يجتمعان
٥ فيه لعلة التراقب ، ولا يخلو من واحد منهما ؛ وقد فسرنا التراقب مع التعاقب .
ويدخله فى فاعلاتن الكف ؛ فأما القبض فهو ممنوع منه وتد فاع لاتن فى المضارع ؛ لأنه مفروق وهو « فاع » ؛ والتراقب فى المضارع بين السببين فى « مفاعيلن » فى الياء والنون : لا يثبتان معا ولا يسقطان معا ؛ وهو فى المقتضب بين الفاء والواو من « مفعولات » .

١٠ شطر المقتضب

المقتضب له عروض واحد بجزوء مطوى . وضرب مثل عروضه ، وهو :

يا مليحةَ الدعجِ * هل لديكِ من فرَجِ
أم تُراكِ قاتِلَتِى * بالدلالِ والغنْجِ
من لِحسْنِ وجهكِ من * سوء فِعلِكِ السمِجِ
١٥ عاذِلىَّ حسبُكما * قد غرِقْتُ فى لُجَجِ
« هل علىَّ ويْحكما * إن لهوْتُ من حرجِ »

تقطيعه :

فاعلاتُ مفتعلن فاعلاتُ مفتعلن

* * *

٢٠ يدخل التراقب فى أول البيت ، فى السببين المتقابلين ، على حسب ما ذكرناه فى المضارع .

شطر المجتث

له عروض واحد مجزوء . ضربه مثله

وشادنٍ ذى دلالٍ * مُعصَّبٌ بالجمالِ
يضنُّ أنْ يَحتويه * مَعى ظلامُ الليالى
أو يلتَقِى فى منامى * خَيالهُ معْ خيالى
غُصنٌ نما فوقَ دعْصٍ * يختالُ كلَّ اختيال
«البطنُ منها خميص * والوجهُ مثلُ الهلالِ»

تقطيعه :

مستفعلن ، فاعلاتن مستفعلن ، فاعلاتن

* * *

يجوز فى المجتث من الزحاف : الخبن ، والكف ، والشكل ؛ فالخبن فيه حسَن ، والكف فيه صالح ، والشكل فيه قبيح .

ويدخله التعاقب بين السببين المتقابلين من مستفع لن ، وفاعلاتن ، على حسب مايدخل الخفيف ؛ وذلك لأن وتد مستفع لن فى المجتث مفروق كما هو فى الخفيف مفروق وذلك «تفْع» .

[تمت الدائرة الرابعة]

شطر المتقارب

المتقارب له عروضان وخمسة أضرب .

فالعروض الأول منها تام يجوز فيه الحذف والقصر ، له أربعة ضروب : ضرب تام مثل عروضه ، وضرب مقصور ، وضرب محذوف معتمد ، وضرب أبتر .

والعروض الثانى مجزوء محذوف معتمد ، له ضرب مثله معتمد .

العروض التام الجائز فيه الحذف والقصر

الضرب التام

لحالٍ عن العهدِ لمَّا أحالا * وزال الأحِبَّةُ عنه فزالا
محل تَحِلُّ عُرَاها السَّحابُ * وتَحكى الجنوبُ عليْه الشَّمالا
فياصاحِ هذا مُقامُ المُحِبِّ * وربْعُ الحبيبِ فَحُطَّ الرِّحالا
سلِ الرَّبْعَ عن ساكِنِيه فإنِّى * خَرِسْتُ فما أستطيعُ السُّؤالا
«ولا تَعْجَلَنِّى هداك المليكُ * فإنَّ لكلِّ مَقامٍ مَقالا»

تقطيعه :

فعولن ، فعولن ، فعولن ، فعولن فعولُ ، فعول ، فعولن ، فعولن

الضرب المقصور

فؤادى رَمَيْتَ وعقلى سَبَيْتْ * ودَمعى مَرَيْتَ ونومى نَفَيْتْ
يَصُدُّ آصْطِبارى إذا ما صدَدْتَ * ويَنْأى عَزائى إذا ما نأَيْت
عزَمْتُ عليكَ بمجرى الوِشاحِ * وما تحت ذلك مما كَنَيْتْ
وتُفاحِ خدٍّ ورمَّانِ صدرٍ * وَجَناهما خيْرُ شىءٍ جَنَيْتْ
تُجدِدُ وصلًا عفا رسْمُه * فمِثْلَكَ لمَّا بَدا لى بَنَيْت
«على رسمِ دار قِفار وقَفْت * ومن ذِكْرِ عهدِ الحبيب بكَيْت»

تقطيعه :

فعولن ، فعولن ، فعولن ، فعولْ فعولن ، فعولن ، فعولُ ، فعولْ

الضرب المحذوف المعتمد

أياويح نفسى وويلُ آمِّها * لِما لقِيَتْ من جوَى همِّها
فديْتُ التى قتلَتْ مُهْجَتى * ولم تتّق اللهَ فى دمها

أَغُضُّ الجُفونَ إذا ما بَدتْ * وأَبْكِي إذا قيل لي سَمِّها
أُداري العيونَ وأخشى الرَّقيبَ * وأَرْصُدُ غَفْــلةَ قَيِّمِها
«سَبَتْنِي بجيدٍ وخدٍّ ونحرٍ * غَداةَ رمَتْني بأَسْهُمِها»

تقطيعه:

فعولن، فعولن، فعولن، فعولن فعولُ، فعولن، فعولُ، فعلْ ٥

الضرب الأبتر

لا تبْكِ ليلَى ولا مَيَّهْ * ولا تندُبَنْ راكبا نيهْ
وأبْكِ الصِّبا إذ طوى ثوبَهُ * فلا أحـدٌ ناشِرٌ طَيَّهْ
ولا القلبُ ناسٍ لما قد مضى * ولا تاركٌ أبداً غَيَّهْ
ودعْ عنك يأساً على أرسُمٍ * فليس الرُّسوم بمَبْكيَّه ١٠
«خليليَّ عُوجا على رسم دارٍ * خلتْ من سُلَيْمَى ومن مَيَّه»

تقطيعه:

فعولن، فعولن، فعولن، فعولن فعولن، فعولن، فعولن، فَعْ

العروض المجزوء المحذوف المعتمد

ضربه مثله ١٥

أَأُحرَمُ منكَ الرِّضا * وتذْكرُ ما قد مضَى
وتُعرِضُ عن هائِمٍ * أبَى عنكَ أن يُعرِضا
قضى اللهُ بالحبِّ لى * فصَبراً على ما قضى
رَمَيْتِ فؤادى فما * تركْتِ به مَنْهَضا
فقوسُكَ شُرْيانه * ونبلُكَ جمرُ الغَضا ٢٠

تقطيعه :

فعولُ ، فعولن ، فعَلْ فعولُ ، فعولن ، فعلْ

* * *

يجوز فى المتقارب من الزحاف ، القبض ، وهو فيه حسن ؛ ويدخله الخرم
٥ فى الابتداء على حسب ما يدخل الطويل .

[تمت الدوائر]

وقد[1] أكملنا فى هذا الجزء مختصر المثال فى ثلاث وستين مقطعة ، وهى عدد ضروب العروض ، والتزمنا فيها ذكر الزحف والعلل التى يقوم ذكرها فى الجزء الأول الذى اختصرنا فيه فرش العروض : ليكون هذا الكتاب مكتفيا بنفسه
١٠ لمن قد تأدى إليه معرفة الأسباب والأوتاد ومواضعها من الأجزاء الثمانية التى ذكرناها فى مختصر الفرش .

واحتجنا بعد هذا إلى اختلاف الأبيات التى استشهد بها الخليل فى كتابه ، لتكون حجة لمن نظر فى كتابنا هذا ؛ فاجتلبنا جملة الأبيات السالمة والمعتلة ، وما لكل شطر منها :

١٥ أبيات الطويل

العروض المقبوض . الضرب السالم

أبا منذر أفنيتَ فاستبق بعضَنا ۞ حنانيك بعضُ الشّر أهون من بعضِ

ضرب مقبوض

ستبدى لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ۞ ويأتيك بالأخبار من لم تزوّدِ

٢٠ أثلم مكفوف

شاقتك أحداجُ سُليمى بعاقل ۞ فعيناك للبين يجودان بالدمع

(١) هذا الجزء إلى آخره لم نقف عليه إلا فى أصل واحد مما بين أيدينا من أصول العقد ، وفيه تحريف كثير لم نوفق لتحقيقه كاملا .

أثرم

هاجك ربعٌ دارس باللِّوى * لأسماء عفَّى المُزْن والقَطْرُ

محذوف معتمد

وما كلُّ ذى لبٍّ بمؤتيك نُصحَهُ * وما كلُّ مؤتٍ نصحه بلبيبِ

* * *

أقيموا بنى النعمان عنا صدوركم * وإلا تقيموا صاغرين الرءوسا

أبيات المديد

عروض مجزوء : ضرب مجزوء

يالَبكرٍ آنشروا لى كُليباً * يالَبكر أين أين الفرار

ضرب مجزوء : مخبون صدر

ومتى مايَعِ منك كلاماً * يتكلَّمْ فيُجِبْك بعقـــلِ

مكفوف عجز

لن يزالَ قومُنا مُخصِبين * صالحين مااتَّقَوْا واستقاموا

مشكول عجز

لمن الدِّيارُ غـــيَّرهُنَّ * كلُّ جونِ المُزْنِ دانى الرِّباب

مشكول طرفاه

ليت شعرى هل لنا ذات يوم * بجنونٍ فارعٍ من تلاق

العروض المحذوف اللازم الثانى

الضرب المقصور ، اللازم الثانى

لايضرنَّ آمرءا عيشُه * كلُّ عيش صائرٌ للزوال

الضرب المحذوف ، اللازم الثانى

اعلموا أنى لكم حافظ * شاهداً ما كنتُ أو غائبا

الضرب الأبتر ، اللازم الثانى

إنما الذلفاء ياقوتةٌ * أُخرجتْ من كيس دهْقان

العروض المحذوف المخبون

الضرب المحذوف المخبون

٥ للفتى عقــلٌ يعيش بِهِ * حيث تهدى ساقَه قدمُهْ

الضرب الأبتر

رُبَّ نارٍ بِتُّ أرمُقُهـا * تقضم الهِنـدىَّ والغارا

أبيات البسيط

العروض المخبون . الضرب المخبون

١٠ يا حارِ لا أُرْمَيَنْ منكم بداهيةٍ * لم يلقَها سوقةٌ قبلى ولا ملِك

مخبون

لقد خلَتْ ... صروفها عجبٌ * فأحدثت عبرا وأعقبت دُولا

مطــوى

ارتحلوا غدوة وانطلقوا بُكَراً * فى زُمَرٍ منهم تتْبَعُهـا زُمَرُ

١٥ الضرب المقطوع

اللازم الثانى

قد أشهد الغارةَ الشَّعواء تحملنى * جرداء معروقة الَّلحيين سُرحوب

* * *

والخير والشر مقرونان فى قَرَن * فالخير مُتَّبعٌ والشر محذور

٢٠ العروض المجزوء

الضرب المذال

إنّا زممنـا على ما خيَّلَتْ * سعد بن زيد وعمرا من تميم

مخبون

قد جاءكم أنكم يوما إذا * فارقتم الموتَ سوف تبعثون

مطــــوى

يا صاح قد أخلفت أسماء ما * كانت تُمَنّيك من حُسن الوصال

الضرب المجزوء ٥

ماذا وقوفى على ربْعٍ خلَا * مُخْلولق دارسٍ مُستعجِمِ

مخبون

إنى لمُثْنٍ عليها استمعوا * فيها خصالٌ تعدْ أربعُ

مطــــوى

تلقّ الهوى عن بنى صادق * نفسى فداه وأمى وأبى ١٠

الضرب المقطوع الممنوع من الطىّ

سيروا معا إنما ميعادكم * يومَ الثلاثاء بَطْنُ الوادى

* * *

قلت استجيبى فلما لم تجب * سالت دموعى على ردائى

العروض المقطوع الممنوع من الطى ١٥

ما هيج الشوقَ من أطلالى * أضحتْ قفارا كوَحْى الواحى

أبيات الوافر

العروض المقطوف ، الضرب المقطوف

لنا غنمٌ نُسَوِّقُها غِزارٌ * كأنّ قُرونَ جِلّتها العِصِىُّ

* * *

إذا لم تستطع شيئا فدعه * وجاوزْه إلى ما تستطيعُ ٢٠

معقـــول

منازلٌ لفرتنى قفارٌ * كأنما رسومُها سُطور

أعصب

إذا نزل الشتاء بدار قوم * تجنَّبَ جارَ بيتهمُ الشتاء

٥ أقصم

ما قالوا لنا سيدا ولكن * تفاحَشَ قولهم فأتوا بهُجر

أجمّ

وإنك خير من ركب المطايا * وأكرمهم أباً وأخا ونفسا

العروض المجزوء الممنوع من العقل : ضربه مثله

١٠ لقد علمت ربيعة أنّ * حبلك واهنٌ خَلَق

* * *

أهاجك منزلٌ أقوى * وغيَّرَ آيَهُ الغِيَر

الضرب المعصوب

عجبتُ لمعشرٍ عدَلوا * بمعتمرٍ أبا عمرو

١٥ أبيات الكامل

العروض التام : الضرب التام

وإذا صحوتُ فما أقصِّر عن ندًى * وكما علمتِ شمائلى وتكرُّمى

المضمر

إنى آمرؤ من خير عبس منصبي * شطرى وأحمى سائرى بالمنصل

٢٠ موقوص

يذبُّ عن حريمه بنبله * وسيفه ورُمحه ويحتمي

مخـــزول

منزلة صم صداها وعَفَا * رسمها إن سُئلت لم تجب

الضرب المقطوع ، ممنوع إلا من الإضمار

وإذا دعَونك عمهن فإنه * نسبٌ يزيدك عندهن خبالا

٥ * * *

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد * ذخرا يكون كصالح الأعمـال

الضرب الأحذّ المضمر

لمن الديار برامتَيْن فعاقلٍ * درستْ وغيَّر آيَها القَطْرُ

العروض الأحذّ السالم : الضرب الأحذّ المضمر

١٠ لمن الديار عفَا معالمها * هطلٌ أجشّ وبارحٌ تَربُ

الضرب الأحذ المضمر

ولأنت أشجعُ من أسامة إذْ * دُعيتْ نَزَالِ ولَجّ فى الذعرِ

العروض المجزوء : الضرب المرفَّل

ولقـــد سبقتهمُ إلـــىّ فلِمْ نزعْتَ وأنت آخِر

١٥ المضـــمر

وغررتنى وزعمت أنـــك لابنٌ فى الصيف تامر

موقوص

ذهبوا إلى أجلٍ وكـــل مؤجّلٍ حىٍ كذاهبْ

الضرب المذال

٢٠ جَدَثٌ يكون مقامه * أبدا بمختلف الرياح

مضــــمر

وإذا اغتبطت أو ابتأســــت حمدت ربّ العالمين

موقوص

كتب الشقاء عليهما * فهما له متيسران

مخزول

جاوبت إذ دعاك * مُعالِناً غير مُخاف

الضرب المجزوء

وإذا افتقرت فلا تكن * متخشّعاً وتجمّلِ

مضمر

وإذا الهوى كره الهدى * وأبى التقَى فاعْصِ الهوى

موقوص

١٠ ولو أنها وزنت شمام * بحلمه شالت له

مخزول

خلطت مرارتها * بحلاوة كالعسل

الضرب المقطوع الممنوع إلا من إضمار

وإذا همُ ذكروا الإسا * ءة أكثروا الحسنات

١٥ مضمر

وأبو الحُليس وربِّ مكّـةَ فارغ مشغولُ

أبيات الهزج

العروض المجزوء الممنوع من القبض : ضربه مثله

إلى هند صبا قلبي * وهندٌ مثلها يُصبِي

٢٠ مكفوف

فهذان يذودان * وذا من كَثَبٍ يَرمِي

مقبوض

فقالت لا تخف شيئاً * فما عندك مِنْ باس

أثرم

أعادوا ما استعاروه * كذاك العيش عاريه

أحزب ٥

ولو كان أبو بشر * أميراً ما رضيناه

أبتر

وفى الذين ماتوا * وفيما جمعوا عِبره

الضرب المحذوف

وماظهرى لباغى الضيـ * ـم بالظهـر الذلول ١٠

مثله

قتلنا سيّد الخزر * ج سعد بن عباده

أبيات الرجز

العروض التام : الضرب التام

دار لسلمى إذ سُليمى جارة * قفرٌ ترى آياتها مثلَ الزُّبر ١٥

مخبون

وطالما وطالما سَقَى * بكفُّ خالد وأطعما

مطوى

فأرسل المهر على آثارهم * وهيأ الرمح لطعنٍ فطَعَن

مخبول ٢٠

ما ولدت والدة من ولد * أكرم من عبد مناف حسبا

الضرب المقطوع الممنوع من الطى

القلب منها مستريح سالم * والقلب منى جاهد مجهود

* * *

لا خير فيمن كفّ عنا شرّهُ * إذ كان لا يُرجَى ليوم خيرُهُ

٥ العروض المجزوء : الضرب المجزوء

قد هاج قلبي منزل * من أمّ عمرو مقفر

مخبول

مات الفَعال كله * إذ مات عبدُ ربّهِ

مطوى

١٠ هل يستوى عندك من * تهوى ومن لا تَمقه

مخبول

لامتك بنت مَطَر * ما أنت وابنة مطر

العروض المشطور

الضرب المشطور

١٥ * ما هاج أحزانا وشجواً قد شجا *

* * *

* إنك لا تجنى من الشوك العنب *

مخبون

* قد تعلمون أنى ابن أختكم *

٢٠ مطوى

* ما كان من شيخك إلا عمله *

مخبول

* هلا سألت طللا وحيا *

مطوى العروض المنهوك

ياليتنى فيها جَذَعْ * أخبُّ فيها وأضع

مخبون

* فارقت غير وامق *

مخبول

* يا صاح فيما غضبوا *

أبيات الرمل

العروض المحذوف والجائز فيه الخبن ١٠

الضرب المتمم

مثل سَحْق البُردِ عفّى بعدك الـ * ـقَطرُ مغناه وتأويبُ الشمال

مخبون صدر

وإذا رايةُ مجـدٍ رُفعت * نهض الصّلتُ إليها فَحَواها

مكفوف عجز ١٥

ليس كل من أراد حاجة * ثم جدّ فى طِلَابها قضاها

مشكول عجز

فدعوا أباسعيد عامراً * وعليكم أخاه فاضربوه

مشكول طرفان

إنّ سعداً بطل مُمارِسٌ * صابر محتسب لما أصابه ٢٠

الضرب المقصور

يا بنى الصيداء ردّوا فرسى * إنمـا يُفعل هذا بالذليلْ

* * *

أحدثْ كسرى وأمسى قيصرٌ * مُغلقاً من دونه بابُ الحديد

الضرب المحذوف الجائز فيه الخبن

٥ قالت الخنساء لمـا جئتهـــا * شاب بعدى رأس هذا واشتهبْ

مخبون

كيف ترجون سقوطى بعدما * لفع الرأسَ مشيبٌ وصَـــلَع

الضرب المشبع

يا خليلىّ اربعا فاستـ * ـخبرا رسماً بعسفان

١٠ مخبون

واضحـات فارسيا * ت وأدم عربيـات

الضرب المجزوء

مقفـرات دارسات * مثـل آيات الزبور

الضرب المشبع

١٥ لان حتى لو مشى الذ * رُّ عليه كاد يدميه

الضرب المحذوف الجائز فيه الخبن

ما لمـا قرّت به العيـ * ـنان من هذا ثمَنْ

مخبون

قلبه عند الثريا * بائن من جسده

أبيات السريع

قد يدرك المبطئ من حظّه * والخير قد يسبق جهد الحريص

العروض المكفوف : المطوى اللازم الثانى

الضرب الموقوف اللازم الثانى

أزمان سلمى لايرى مثلها الـ * ـراءون فى شام ولا فى عراق ٥

مخبول

قالهـا وهو بها عارف * ويحك أمثال طريف قليل

مخبون

أرِدْ من الأمور ما ينبغى * وما تُطيقه وما يستقيم

الضرب المكسوف اللازم الثانى ١٠

لا تكسع الشَّولَ بأغبارها * إنك لا تدرى من الناتج

* * *

هاج الهوى رسم بذات الغضى * مُخلولق مستعجم مُحـوِلُ

الضرب الأصلم السالم

قالت ولم تقصد لقيل الخنَا * مهلا فقد أبلغت أسماعى

الضرب المخبون المكسوف ١٥

النشر مسك والوجوه دنا * نير وأطراف الأكف عَنَم

* * *

يأيهـا الزارى على عمرو * قد قلت فيه غير ما تعلم

العروض المشطور الموقوف الممنوع من الطىّ

يا صاح ما هاجك من ربع خال * ينضحن فى حافاته بالأبوال

مخبون

لا بد منه فاحذرَن وإن قَتَنْ

٥ مشطور

يا صاحبىْ رحلى أقِلا عذلى

مخبون

الضربُ المشطور المكسوف الممنوع من الطىّ

يارب إن أخطأت أو نسيت

* * *

١٠ وبلدة بعيدة النياط

أبيات المنسرح

العروض الممنوع من الخبل : الضرب المطوى

إن ابن زيد مازال مستعملا * للخير يهدى فى مصره العُرفا

* * *

منْ لم يَمُت عبطة يمت هَرما * والموتُ كأسٌ والمرء ذائقُها

١٥ مثله

إن سميرا أرى عشيرته * قد حدبوا دونه وقد أنفوا

المطوى

منازل عفاهن بذى الأراك * كل وابل مُسْبِل هطل

مخبون

فى بلد معروفة سِمّته * قطعه عابر على جمل

مخبول

صبراً بنى عبد الدار

العروض المنهوك المكسوف الممنوع من الطى : ضربه مثله ٥

ويل أمّ سعد سعدا

أبيات الخفيف

العروض التام : الضرب التام الجائز فيه التشعيث

حلّ أهلى بطنَ الغُميس فبادوا * لى وحلت عُـلويّة بالسخال

* * *

ليس من مات فاستراح بميْتٍ * إنمـا الميت ميّتُ الأحياء ١٠

مخبون صدر

وفؤادى كعهده بسليمى * بهوى لم يزل ولم يتغير

مكفوف عجز

وأقل ما يظهر من هوا كا * ونحن نستكثر حين يبدو

مشكول عجز ١٥

إن قومى جحاجحة كرام * متقادم مجدهم أخيار

مشكول طرفان

الضرب المحذوف الجائز فيه الخبن

إن قدرنا يوما على عامر * نمتثل منه أو ندعه لكم

مخبون

رب خرق من دونها قذف * مابه غير الجنّ من أحد

العروض المجزوء : الضرب المجزوء

ليت شعرى ماذا ترى * أم عمرو فى أمرنا

٥ مثله

اسلمى أمّ خالد * رُبّ ساعٍ لقاعد

الضرب المقصور المخبون

كل خطب إن لم تكونوا غضبتم يسير

أبيات المضارع

١٠ العروض المجزوء الممنوع من القبض

وإن تَدْنُ منه شبرا * يقربك منه باعا

مقبوض

دعانى إلى سعاد * دواعى هوى سعاد

أخرب

١٥ وقد رأيت مثل الرجال * فما أرى مثل زيد

أشتر

قلنا لهم وقالوا * كل له مقال

أبيات المقتضب

العروض المجزوء المنطوى : الضرب المجزوء المنطوى

٢٠ هل علىّ ويحكما * إن لهوتُ من حَرجِ

مخبون

أعرضت فلاح لها * عارضان كالبرد

أبيات المجتث

العروض المجزوء

البطن منها خميص * والوجه مثل الهلال ٥

الضرب المجزوء

ولو علقت بسلمى * علمت أنْ ستموت

* * *

أولئك خير قومى * إذْ ذكر الخيار

* * *

أنت الذى ولدتك أسماء بنت الحباب

أبيات المتقارب ١٠

العروض التام الجائز فيه الحذف والقصر : الضرب التام

فأما تميم تميم بن مرّ * فألفاهم القوم رَوْبَى نياما

مثله

فلا تعجلَنّى هداك المليك * فإن لكل مقام مقالا

مقبوض ١٥

أفاد فجاد وساد وزاد * وذاد وعاد وقاد وأفْضَل

أثلم

رمينا قصاصا وكان التقاصّ * حقًّا وعدلا على المسلمينا

أثرم

قلت سـداداً لمن جاءنى ٭ فأحسنت قولا وأحسنتُ رأيا

مثل الأول

ولولا خداش أخـذت دواب سـعد ولم أعطه ماعليها

٥ الضرب المقصور

ويأوى إلى نسوة بائسات ٭ وشُعْث مراضيع مثل السَّعالى

مثـله

على رسم دار قفار وقفتُ ٭ ومن ذِكر عهد الحبيب بكيتُ

مثله مقصور

١٠ الضرب المحذوف المعتمد

وأبنى من الشعر شعرا عويصا ٭ يُنَسِّى الرواة الذى قد رَوَوْا

٭ ٭ ٭

سبتنى بخدٍّ وجيد ونحر ٭ غـداة رمتنى بأسهمها

الضرب الأبتر : غير معتمد الاعتماد فى المتقارب

١٥ بإثبات النون فى «فعولن» التى قبل القافية

خليلىّ عُوجا على رسم دار ٭ خلَتْ من سليمى ومن مَيَّه

مثـله

صفية قُومى ولا تعجزى ٭ وبكِّى النساء على حمْزَهْ

الضرب المحذوف

٢٠ أمن دمنـة أقفرت ٭ لسلمى بذات الغضا

المجزوء المعتمد

وروحك فى النادى ٭ وتعلم ما فى غدِ

علل القوافى

القافية حرف الروىّ الذى يُبنى عليه الشعر، ولابد من تكريره فيكون فى كل بيت؛ والحروف التى تلزم حرف الروىّ أربعة: التأسيس، والردف، والوصل، والخروج. ٥

فأما التأسيس فألف يكون بينها وبين حرف الروى حرف متحرك بأى الحركات كان، وبعض العرب يسميه الدخيل، وذلك نحو قول الشاعر:

٭ كِليني لِهَمٍّ يا أُميمَةُ ناصِبِ ٭

فالألف من «ناصب» تأسيس، والصاد دخيل، والباء روىّ، والياء المتولدة من كسرة التاء وصل.

وأما الردف فإنه أحد حروف المدّ واللين، وهى: الياء، والواو، والألف؛ يدخل قبل حرف الروىّ؛ وحركة ما قبل الردف بالفتح إذا كان الردف ألفا، وبالضم إذا كان واواً، وبالكسر إذا كان ياءً مكسوراً ما قبلها؛ وقد تجتمع الياء والواو فى شعر واحد. لأن الضمة والكسرة أختان، كما قال الشاعر: ١٥

أجارَةَ بيتَيْنا أبوكِ غيورُ ٭ وميْسورُ ما يُرْجى لديْكِ عسيرُ

فجاء بغيور مع عسير، ولا يجوز مع الألف غيرها، كما قال الشاعر:

٭ بانَ الخليطُ ولو طوّعت ما بانا ٭

وجنس ثالث من الردف، وهو أن يكون الحرف قبله مفتوحاً ويكون الردف ياء أو واواً، نحو قول الشاعر: ٢٠

كنتُ إذا ماجِئْتهُ من غيْبِ ٭ يشمُّ رأسى ويشُمُّ ثوبى

وأما الوصل فهو إعراب القافية وإطلاقها؛ ولا تكون القافية مطلقة

إلا بأربعة أحرف : ألف ساكنة مفتوح ما قبلها من الروى ، وياء ساكنة مكسور ما قبلها من الروىّ ، وهاء متحركة أو ساكنة مكنية ولا يكون شيء من حروف المعجم وصلا غير هذه الأربعة الأحرف : الألف ، والواو ، والياء ، والهاء المكنية ، وإنما جاز لهذه أن تكون وصلا ولم يجز لغيرها من حروف المعجم ، لأن الألف والياء والواو حروف إعراب ليست أصليات وإنما تتولد مع الإعراب وتشبّهت الهاء بهن لأنها زائدة مثلهن ، ووجودها يكون خلفا منهن فى قولهم : أَرَقْتُ الماء ، وهرَقت الماء ؛ وأيا زيد ، وهيا زيد ؛ ونحو قول الشاعر :

قد جُمِعت من أمْكِنٍ وأمكِنَهْ ٭ من هاهُنا وهاهُنا ومن هُنَهْ

وهو يريد : هنا ؛ فجعل الهاء خلفا من الألف .

وأما الخروج ، فإن هاء الوصل إذا كانت متحركة بالفتح تبعتها ألف ساكنة وإذا كانت متحركة بالكسر تبعتها ياء ساكنة ، وإذا كانت متحركة بالضم تبعتها واو ساكنة ، فهذه الألف والياء والواو يقال لها الخروج ، وإذا كانت هاء الوصل ساكنة لم يكن لها خروج ، نحو قول الشاعر :

٭ ثارَ عَجاجٌ مُستطِيرٌ قَسْطَلُهْ ٭

وأما الحركات اللوازم للقوافى نخمس ، وهى : الرس ، والحذو ، والتوجيه ، والمجرى ، والنفاذ .

فأما الرس ففتحة الحرف الذى قبل التأسيس .

وأما الحذو ففتحة الحرف الذى قبل الردف أو ضمته أو كسرته .

وأما التوجيه فهو ماوجه الشاعر عليه قافيته من الفتح والضم والكسر ؛ يكون مع الروى المطلق أو المقيد إذا لم يكن فى القافية ردف ولا تأسيس .

وأما المجرى ففتح حرف الروى المطلق أو ضمه أو كسره .

وأما النفاذ فإنه فتحة هاء الوصل أو كسرتها أو ضمتها ؛ ولا تجوز الفتحة مع الكسرة ، ولا الكسرة مع الضمة ؛ ولكن تنفرد كل حركة منها على حالها .

وقد يجتمع في القافية الواحدة : الرس ، والتأسيس ، والدخيل ، والروى ، والمجرى والوصل ، والنفاذ ، والخروج ؛ كما قال الشاعر :

يوشِكُ مَنْ فرّ من مَنيّتِه * في بعضِ غِرّاته يُوافِقُها

فحركة الواو الرس ، والألف تأسيس ، والفاء دخيل ، والقاف رويّ ، وحركته المجرى ، والهاء هاء الوصل ، وحركتها النفاذ ، والألف الخروج . ٥

ونحو قول الشاعر :

* عفتِ الدّيار محلّها فمقامُها *

فحركة القاف الحذو ، والألف الردف ، والميم الرويّ : وحركتها المجرى ، والهاء وصل ، وحركتها النفاذ ، والألف الخروج .

وكل هذه الحروف والحركات لازمة للقافية . ١٠

باب مايجوز أن يكون تأسيسا

ومالا يجوز

إذا كان حرف الألف ، ألِف التأسيس ، في كلمة ، وكان حرف الروى في كلمة أخرى منفصلة عنها ؛ فليس بحرف تأسيس ؛ لانفِصاله من حرف الرويّ وتباعده منه ، لأن بين حرف الروى والتأسيس حرفاً متحركا ، وليس كذلك ١٥ الردف ؛ لأن الردف قريب من الروى ليس بينهما شيء ؛ فهو يجوز أن يكون في كلمة ويكون الروى في كلمة أخرى منفصلة منها ، نحو قول الشاعر :

أَتتْهُ الخِلافةُ مُنقادةً * إليه تُجَرِّرُ أذيالَها

فلم تكُ تصلُحُ إلّا له * ولم يكُ يصلُحُ إلّا لها

فألف « إلا » ردف واللام حرف الروى ، وهي في كلمة منفصلة من الردف ٢٠ فجاز ذلك ، لقرب ما بين الردف والروى ، ولم يجز في التأسيس لتباعده من الروى ، نحو قول الشاعر :

فهُنّ يعكُفْنَ به إذا حَجــا * عكفَ النّبيطِ يلعبونَ الفَنزَجا

فلم يجعلها تأسيساً لتباعدها عن الروى وانفصالها منه ؛ ومثله :

وطالمَا وطالمَا وطالمَا * غَلَبْت عاداً وغَلَبْت الأعجما

فلم يجعل الألف تأسيساً .

وقد يجوز أن تكون تأسيساً إذا كان حرف الرويّ مضمراً ، كما قال زهير :

٥ ألا ليْت شِعْرى هل يرى الناسُ ما أرى * من الأمر أو يَبدو لهم ما بَدَا ليا

فجعل ألف بدا ليا تأسيساً وهى [فى] كلمة منفصلة من القافية لما كانت القافية فى مضمر ؛ وكذلك قول الشاعر :

وقد يَنْبُت المَرْعى على دِمَنِ الثَّرى * وتبقى حَزازاتُ النُّفوس كما هيَا

وأما «غلامك» و «سلامك» فى قافية فلا تكون الألف إلا تأسيساً ؛ لأن

١٠ الكاف التى هى حرف ، لا تنفصل من «غُلام» .

باب ما يجوز أن يكون حرف رويّ

وما لا يجوز أن يكونه

اعلم أن حروف الوصل كلها لا يجوز أن تكون رويا ، لأنها دخلت على القوافى بعد تمامها ، فهى زوائد عليها ، ولأنها تسقط فى بعض الكلام ؛ فإذا كان

١٥ ما قبل حرف الوصل ساكنا فهو حرف الرويّ ، لأنها لا تكون [وصلا] وقبلها حرف الروى ساكنا ؛ نحو قول الشاعر :

أصبحَتِ الدنيا لأرْبابِها * مَلْهى وأصبحْتُ لها مَلْهَى

كأنى أُحْرَم منها على * قدْرِ الذى نالَ أبى منها

وإذا حُرِّكت ياء الوصل أو واو الوصل ، جاز لها أن تكون رويا ، كما

٢٠ قال زهير :

ألا ليت شِعرى هل يرى الناسُ ما أرى * من الأمر أو يَبْدو لهم ما بدا ليا

وقال عبد الله بن قيس الرّقيّات :

إنّ الحوادثَ بالمدينةِ قد * شيَّبْنَنى وقَرَعْن مَرْوتِيَهْ

كذلك الهاء من طلحة وحمزة وما أشبههما ، [يجوز أن تكون وصلا و] أن تكون رويا ؛ [لجواز] أن تُطلق فتعود تاء ؛ فإذا كان ذلك فأنت فيها بالخيار : إن شئت جعلتها رويا ، أو وصلا لما قبلها ؛ وجعلها أبو النجم رويا فقال :

أقولُ إذ جِئْنَ مُرَبَّجاتِ * ما أقرب الموت من الحياةِ

كذلك التاء [من] نحو اقشعرت واستهلّت ، والكاف [من] نحو مالكا وفعالكا ، فقد يجوز أن تكون رويا ، وقد يجوز أن تكون وصلا ؛ وإنما جاز أن تكون رويا ، لأنها أقوى من حرف الوصل ؛ وجاز أن تكون وصلا ، لأنها دخلت على القوافى بعد تمامها ؛ وقد جعلت الخنساء التاء وصلا ولزمت ما قبلها ، فقالت :

أعَيْنَىَّ هلاَّ تبكيان أخاكما * إذا الخيلُ من طُولِ الوجيفِ اقشعَرَّتِ

فلزمت الراء فى الشعر كله وجعلت التاء صلة . وقال آخر فجعل التاء رويا :

الحمدُ لله الذى اسْتَقَلَّتِ * بإذنِهِ السَّماءُ واطمأنّتِ

وقال حسان فجعل الكاف رويا :

دَعوْا فلجاتِ الشامِ قد حِيل بينها * بطعْنٍ كأفواهِ المخاضِ الأوارِكِ

بأيدى رجالٍ هاجروا نحو ربِّهم * بأسيافِهم حقًّا وأيدى الملائك

وقال :

إذا سَلكْتُ بالرَّملِ من بطنِ عالجٍ * فقولا لها ليس الطريق هُنالِكِ

وهنالك كافها زائدة ، تقول للرجل هنالكَ ، وللمرأة هنالكِ .

وقال غيره :

أيا خالِدا يا خير أهلِ زمانِكا * لقد شغل الأفواهَ حُسْنُ فعالِكا

فجعل الكاف رويًّا ، وقد يجوز أن تكون وصلا ويُلْزَم ما قبلها ؛ وكذلك فعالكم وسلامكم : الميم الآخرة حرف الروى ، كما قال الشاعر :

بنو أُميّةَ قومٌ من عجيبهم * أنّ المَنُونَ عليهم والمنونُ هُمُ

الميم حرف الرويّ ؛ وقد جعلها بعض الشعراء وصلا مع الهاء والكاف التى قبلها ، لأنهما حرفا إضمار ، كالهاء والكاف ، ولحقت الاسم بعد تمامه كما لحقت الهاء والكاف فى نحو قوله :

زُرْ والديْكَ وقفْ على قبريْهما * فكأنّى بكَ قد نُقلْت إليهما

٥ ومثله لأمية بن أبى الصلت :

لبّيْكُما لبّيْكُما * هاأناذا لديْكُما

وأما النسبة ، مثل ياء قرشى وثقفى وما أشبه ذلك ، إذا كانت خفيفة فأنت فيها بالخيار : إن شئت جعلتها رويا ، وإن شئت وصلا ، نحو قول الشاعر :

١٠ إنى لِمَنْ أنكَرَنى ابن اليثْرِبِى * قتلْتُ عِلْباء وهندَ الجملى

فجعل الياء الخفيفة رويا ؛ وإذا كانت النسبة مثقلة ، مثل قرشى وثقفىّ ، لم تكن إلا رويا .

وإذا قال شعرا على « حصاها » و « رماها » ، لم تكن الهاء إلا حرف الروى ، ومن بنى شعرا على « اهتدى » فجعل الدال رويا ، جاز له أن يجعل مع ذلك « أحمدا » ؛

١٥ وإن جعل الياء من « اهتدى » حرف الروى ، لم يجز معها « أحمدا » وجاز له معها « بشرى ، وحبلى ، وعصا ، وأفعى » ؛ ومن ذلك قول الشاعر :

دايَنتُ أرْوَى والدُّيونُ تُقْضَى * فمطَلَتْ بعضاً وأدّت بعضا

فلزم الضاد من « تقضى » وجعل الياء وصلا ، فشبهها بحرف المد الذى فى القافية . ومثله :

٢٠ ولأنتَ تَفرِى ما خلَقْتَ وبعـــضُ القوْمِ يخلُقُ ثم لا يَفرِى

ومثله :

هجَرَتْك بعد تَواصُل دَعْدُ * وبدا لِدَعْدٍ بعضُ ما يبْدو

و « يرمى » مع « يقضى » جائز إذا كان الياء حرف الروى ، لأنها من أصل الكلمة ،

ومما لا يجوز أن يكون رويا، الحروف المضمرة كلها؛ لدخولها على القوافى بعد تمامها، مثل: اضربا، واضربوا، واضربى، لأن ألف «اضربا» لحقت اضرب وواو «اضربوا» لحقت اضرب، وياء «اضربى» لحقت اضرب — بعد تمامها، فلذلك كانت وصلا؛ ولأنها زائدة مع هذا فى نحو قول الشاعر.

لا يُبعِدُ اللهُ جيرانًا تركتُهُم * لم أدرِ بعدَ غَداةِ البَيْنِ ما صَنعُ ٥

يريد: ما صنعوا. ومثله:

يا دارَ عَبْلةَ بالجِواءِ تكلَّمى * وعَمِى صباحا دارَ عَبْلةَ وآسلمِ

يريد: واسلمى، فجعل الياء وصلا؛ وبعضهم جعلها رويا على قبح.

وأما ياء «غلامى» فهى أضعف من ياء «اسلمى»؛ لأنها قد تحذف فى بعض المواضع تقول: هذا غلام، تريد غلامى، وقالوا: يا غلام أقبل، فى النداء، ١٠ وواغلاماه، فحذفوا الياء؛ وبعضهم يجعلها رويا على ضعفها، كما قال:

إنى آمرؤٌ أحمِى ذِمارَ إخوتى * إذا رأَوْا كريهةً يَرمون بى

ومثله:

إذا تغدَّيْتُ وطابت نفْسى * فليس فى الحىِّ غلامٌ مِثْلى

قال الأخفش: وقد كان الخليل يجيز «إخوانى» مع «أصحابى»، ويأبى عليه ١٥ العلماء؛ ويحتج بقول الشاعر:

بازِلُ عامَيْن حديثٌ سِنِّى * لمثل هـــذا ولدَتنى أُمِّى

وحرف الإضمار إذا كان ساكنا كان ضعيفا، فإذا تحرك قوى وجاز أن يكون رويا؛ كقول الشاعر:

ألا ليْت شِعْرى هل يَرى الناسُ ما أرى * منَ الأمر أو يَبْــدو لهم ما بَدا ليا ٢٠

وإنما جاز للكاف أن يكون رويا ولم يجز ذلك للهاء وكلاهما حرف إضمار، لأن الكاف أقوى عندهم من الهاء وأثبت فى الكلام، وإذا خاطبت المذكر والمؤنث لا تُبدل صورتها كما تبدل الهاء فى غلامه وغلامها، وإذا

قلت : مررت بغلامك ، ورأيت غلامك ؛ فالكاف فى حال واحدة ، والهاء مضطربة فى قولك : رأيت غلامه ، ومررت بغلامه ؛ وإنما جاز فيها أن تكون وصلا أيضاً كما تكون الهاء ، لأنها تشبهت بالهاء ؛ إذ كانت حرف إضمار كالهاء ، ودخلت على الاسم كدخول الهاء ، وكانت آسماً للحرف كما تكون الهاء ؛ وإنما خالفتها بالشيء اليسير ؛ وأما قولك : آرمِهِ ، وآغزُهُ ، فلا تكون الهاء ههنا رويا ؛ لأنها لحقت الاسم بعد تمامه ، ولأنها زوائد فيه وأنها دخلت لتبين حركة [الزاى] من آغزه والميم من آرمه ؛ وقد تكون تدخل للوقف أيضا .

وإذا كانت الهاء أصلية لم تكن إلا رويا ، مثل قول الشاعر :

قالت أبِنًّا لى وإلا أسفَهِ * ما السُّوء إلا غفلةُ المدلَّهِ

ومن بنى شعرا على «حىّ» جاز له فيه «طىّ» و«رمى» ؛ لأنّ الياء الأولى من حىّ ، ليست ردف ، لأنها من حرف مثقل قد ذهب مدُّه ولينه ، قال سيبويه : وإذا قال الشاعر : تعالَىْ ، أو تعالَوا ، لم تكن الياء والواو إلا رويا ؛ لأنّ ما قبلهما انفتح ، فلما صارت الحركة التى قبلهما غير حركتهما ذهبت قوتهما فى المدّ وأكثريتهما ؛ وكذلك : اخشَى واخشَوا ، وكل ياء أو واو انفتح ما قبلها ؛ وكذلك هذه الياء والواو إذا تحرّكتا لم تكونا إلا حرف روى ، لذهاب اللين والمدّ وكذلك قوله : رأيت قاضيا ، وراميا ، وأريد أن يغزو ، وتدعو ، فى قافيتين من قصيدة ..

وأمّا الميم من غلامهم وسلامهم ، فقد تكون رويا ، وقد تكون وصلا ويُلزم ما قبلها ؛ كما قال الشاعر :

يا قاتَلَ اللهُ عُصْبةً شَهِدوا * خِيف مِنًى لى ما كان أسرَعهمْ

إن نَزَلوا لم يكن لهم لبثٌ * أو رحَلوا أعجَلوا مودِّعَهم

لا غفـرَ الله للحَجيج إذا * كان حبيبى إذا نأوْا معهم !

فالعين هنا حرف الروىّ ، والهاء والميم صلة ، كحروف الإضمار كلها التى

تقدّم ذكرها ، ولا يحسن أن يكون رويا إلا ما كان منها محرّكا ؛ لأنّ المتحرك أقوى من الساكن ، وذلك مثل ياء الإضافة التى ذكرنا ، أو ما كان منها حرفا قويا : مثل الكاف والميم والنون ؛ فإنها تكون رويا ساكنة كانت أو متحركة ؛ وذلك مثل قول الشاعر :

قِفِى لا يكن هذا تَعِلّةَ وصلنا * لِبَيْنٍ ، ولا ذا حظّنا من نَوالِكِ

ثم قال :

أَبَرّ وأوفى ذمّـــةً بعهودهِ * إذا وازنتْ شُمّ الذُّرَى بالحَوارِكِ

وقال آخر :

قل لمن يَملِك الملو * كَ وإن كان قد ملكْ

قد شرَيْنـاكَ مرة * وبعَثنا إليــك بِكْ

وقال آخر فى الهاء :

رموْنى وقالوا ياخُوَيلد لا تُرَعْ * فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ همُ همُ

ولآخر :

نَمتْ فى الكرام بنى عامر * فُروعى وأصلى قريشُ العَجَمْ

فهُم لى فخْــر إذا عددوا * كما أنا فى الناس فخْــر لهم

وقال آخر فى النون :

طرَحتم من التّرحال أمراً فعمّنا * فلو قد رحَلتم صبّح الموتُ بعضَنا

وقال آخر :

فهل يَمنعُنى آرتيادى البلا * دَ من حذَر الموت أن يأتينْ

أليس أخو الموت مُستوثِقاً * علىّ فإن قلت قد أنسأن

وأمّا الهاء فقد أجمعوا أن لا تكون رويا لضعفها ، إلا أن يكون ما قبلها ساكنا كما قد ذكرنا .

ومن بنى شعراً على «آخشَوْا» جاز له معها «طغَوا ، وبغَوا ، وعصَوا» ،

فتكون الواو رويا لانفتاح ما قبلها وظهورها ، مع القبح ، لأنها مع الضمة صلة ، ولا تكون هذه إلا رويا .

باب عيوب القوافى

السناد، والإيطاء، والإقواء، والإكفاء، والإجازة، والتضمين، والإصراف .

٥ السناد على ثلاثة أوجه : الأول منها اختلاف الحرف الذى قبل الردف بالفتح والكسر نحو قول الشاعر :

أَلم تَرَ أنَّ تغلِبَ أهلُ عزّ * جبالُ مَعاقِلٍ ما يُرتقَينا

شربنا من دماءِ بنى تميمٍ * بأطرافِ القَنا حتى رَوِينا

والوجه الثانى اختلاف التوجيه فى الروى المقيد ، وهو اجتماع الفتحة التى

١٠ قبل الروى مع الكسرة والضمة كهيئتها فى الحذو ، وذلك كقوله :

وقاتِمِ الأَعْماقِ خاوِى المُخْتَرَقْ * أَلَّفَ شتَّى ليس بالراعى الحمِقْ

ومثله :

تميمُ بن مُرٍّ وأشـياعُه * وكِنْدَةُ حولى جميعاً صُبُرْ

إذا رَكِبوا الخيلَ واستَلأَموا * تحرّقتِ الأرضُ واليومُ قَرّ

١٥ والوجه الثالث من السناد أن يُدخل حرف الردف ثم يدعه ، نحو قول الشاعر :

وبالطَّوْفِ بالأخيار ما اصطحبا به * وما المرء إلا بالتقلُّب والطَّوْفِ

فِراق حبيبٍ وانتهاءٌ عن الهوى * فلا تَعذلينى قد بَدا لك ما أُخفى

وأمّا القافية المطلقة فليس اختلاف التوجه فيها سنادا .

٢٠ وأمّا الإقواء والإكفاء فهما عند بعض العلماء شىء واحد ، وبعضهم يجعل الإقواء فى العروض خاصة دون الضرب ، ويجعلون الإكفاء والإيطاء

فى الضروب دون العروض ؛ فالإقواء عندهم أن ينتقص قوّة العروض فيكون «مفعولن» فى الكامل ، ويكون فى الضرب «متفاعلن» فيزيد العجز على الصدر زيادة قبيحة ، فيقال : أقوَى فى العروض ، أى أذهَب قوّته ، نحو قول الشاعر :

لمّا رأتْ ماء السّلَى مَشْروباً * والفَرْثَ يُعصَر فى الإناء أرَنّتِ ٥

ومثله :

أفَبعد مقتل مالك بن زهيْر * ترجو النساءُ عَواقبَ الأطهار

والخليل يسمى هذا المقعر ، وزعم يونس أنّ الإكفاء عند العراب هو الإقواء ، وبعضهم يجعله تبديل القوافى ، مثل أن يأتى بالعين مع الغين ، لشبههما فى الهجاء ، وبالدال مع الطاء ، لتقارب مخرجيهما ، ويحتج بقول الشاعر ١٠

جاريةٌ من ضَبّة بن أُدّ * كأنها فى دِرْعها المُنْعَطّ ...

والخليل يسمى هذا : الإجازة ، وأبو عمرو يقول : الإقواء : اختلاف إعراب القوافى بالكسر والضم والفتح ؛ وكذلك هو عند يونس وسيبويه ؛ والإجازة عند بعضهم : اجتماع الفتح مع الضم أو الكسر فى القافية ، ولا تجوز الإجازة إلا فيما كان فيه الوصل هاء ساكنة ؛ نحو قول الشاعر : ١٥

الحمـــدُ لله الذى * يَعفو ويشتدّ انتقامُهْ

وربُّنـــا ربُّهـــمُ * لا يستطيعون اهتِضامَهْ

ومثله :

فديْتُ من أنْصفَنى فى الهوى * حتى إذا أحكمَه مَلّهُ

أينَ ما كنت ومَن ذا الذى * قبلى صَفَا العيشُ له كُلُّهُ ٢٠

والإكفاء : اختلاف القوافى بالكسر والضم عند جميع العلماء بالشعر ، إلا ما ذكر يونس .

وأمّا المضمّن ، فهو أن لا تكون القافية مستغنية عن البيت الذى يليها

نحو قول الشاعر :

وهُم وردُوا الجِفارَ على تميمٍ * وهم أصحابُ يومِ عِكاظ أنى

شهِدْتُ لهم مواطِنَ صالحاتٍ * تُنَبِّئهم بِوُدِّ الصَّدْرِ منّى

وهذا قُبيح ؛ لأن البيت الأول متعلق بالبيت الثانى لا يستغنى عنه ، وهو

٥ كثير فى الشعر .

وأما الإيطاء وهو أحسن ما يعاب به الشعر ، فهو تكرير القوافى ؛ وكلما تباعد الإيطاء كان أحسن ، وليست المعرفة مع النكرة إيطاء ؛ وكان الخليل يزعم أن كل ما اتفق لفظه من الأسماء والأفعال ، وإن اختلف معناه ، فهو إيطاء ؛ لأن الإيطاء عنده إنما هو ترديد اللفظتين المتفقتين من الجنس الواحد ، إذا قلت

١٠ للرجل تخاطبه : أنت تضرب ، وفى الحكاية عن المرأة : هى تضرب ، فهو إيطاء وكذلك فى قافية : أمرٌ جلَل ، وأنت تريد تعظيمه ، وهو فى قافية أخرى : جلَل ، وأنت تريد تهوينه ـ فهو إيطاء .

... حتى إذا كان اسم مع فعل ، وإن اتفقا فى الظاهر ، فليس بإيطاء ، مثل اسم يزيد ، وهو اسم ويزيد وهو فعل .

١٥ باب ما يجوز فى القافية من حروف اللين

اعلم أن القوافى التى يدخلها حروف المد ، وهى حروف اللين ، فهى كل قافية حُذف منها حرفٌ ساكن وحركة ، فتقوم المدة مقام ما حُذف ، وهو من الطويل « فعولن » المحذوف .

ومن المديد « فاعلانْ » المقصور ، و « فعْلن » الأبتر .

٢٠ ومن البسيط « فعْلن » المقطوع « مفعولن » المقطوع ، فأما « مستفعلان » المذال فاختلف فيه ، فأجازه قوم بغير حرف مدّ ؛ لأنه قد تم وزِيدَ عليه حرف بعد تمامه ، وألزمه قول المدّ ، لالتقاء الساكنين ، وقالوا : المدة بين الساكنين تقوم مقام الحركة ، وإجازته بغير حرف مدّ أحسن ، لتمامه .

وأما الوافر فلا يلزم شيء منه حرف مدّ .

وأما الكامل فيدخل منه حرف اللين فى « فعلاتن » المقطوع ، وفى « متفاعلان » المذال .

وأما الهزج فلا يلزمه حرف مدّ .

وأما الرجز فيلزم « مفعولن » منه المقطوع حرفُ المدّ . ٥

وأما الرمل فيلزم « فاعلان » وحدها ، لالتقاء الساكنين .

وأما السريع فيلزم « فاعلان » الموقوف ، لالتقاء الساكنين ، وكذلك « مفعولات » .

وأما المنسرح فيلزم « مفعولات » كما يلزم السريع .

وأما الخفيف فإنه يلزم « فعولن » المقصور وإن كان قد نقص منه حرفان ١٠ وليس فى المد خلفٌ من حرفين ، ولكن لما نقص من أول الجزء حرف ، وهو سين « مستفعلن » قام ما أخلف بالمدة مقام ما نقص من آخر الجزء ، لأنه بعد المدة .

وأما المضارع والمقتضب والمجتث فليس فيها حرف مدٍ ؛ لتمام أواخرها

وأما المتقارب فألزموا « فعول » المقصور حرف المد : لالتقاء الساكنين . قال سيبويه :

وكل هذه القوافى قد يجوز أن تكون بغير حرف المد لأنّ رويها تام صحيح على ١٥ مثل حاله بحرف المد ، وقد جاء مثل ذلك فى أشعارهم ، ولكنه شاذ قليل ، وأن تكون بحرف المد أحسن ، لكثرته ولزوم الشعراء إياه .

ومما قيل بغير حرف مدّ :

ولقد رَحَلتُ العيسَ ثم زجرْتُها * قدماً وقلتُ عليكِ خيرَ مَعَدّ

وقال آخر : ٢٠

* إن تَمْنَعِ النومَ النّسا يُمنعْن *

مقطعات على حروف الهجاء وضروب العروض

ومن قولنا مقطعات على تأليف حروف الهجاء وضروب العروض :

الأول من الطويل : سالم

وأزهرَ كالعُيُوقِ يَسعَى بزهراء * لنا منهُما داءٌ وبُرءٌ من الداء
ألا بأبِي صُدغٌ حكى العيْنَ عَطفُهُ * وشاربُ مِسْكٍ قد حكى عطفةَ الراء ٥
فما السِّحرُ ما يُعزَى إلى أرضِ بابلٍ * ولكنْ فتُورُ اللَّحظِ من طرْفِ حوراء
وكفّ أدارتْ مُذهَبَ اللونِ أصفَراً * بِمذهبةٍ فى راحةِ الكفِّ صَفْرا

الضرب الثانى من الطويل : مقبوض

مُعـــذِّبتى رفقاً بقلبٍ مُعذبٍ * وإن كان يُرضيكِ العذابُ فعذّبِى
لعمْرى لقد باعدْت غــير مُباعِدٍ * كما أننى قرّبتُ غـــيرَ مقرَّبِ ١٠
بنفسِيَ بدرٌ أخمَــدَ البدْرَ نورُهُ * وشمسٌ متى تبدُو إلى الشمسِ تغْرُبِ
لو آنَّ آمرَأ القيسِ بنَ حُجرٍ بدتْ لهُ * لما قال « مُرَّا بى على أمِّ جُنْدُبِ »

الضرب الثالث من الطويل

المحذوف المعتمد

مُحِبٌّ طَوى كشحاً على الزَّفراتِ * وإنسانُ عينٍ خاضَ فى غَمرات ١٥
فيامن بِعينَيه سقامِى وصحّتى * ومَن فى يديْهِ ميتّتى وحياتى
بحبِّكَ عاشَرت الهُمومَ صبابةً * كأنّى لهـــا تِربٌ وهُنّ لداتى
فخدِّىَ أرضٌ للدموعِ ومُقلتِى * سماءٌ لهـــا تنهلُّ بالعَبرات

الضرب الأول من المديد

وهو السالم

طلّقَ اللّهوَ فؤادى ثلاثًا * لا ارتجاعٌ لى بعدَ الثلاثِ
وبياضٌ فى سوادِ عِذارى * بدَّلَ التشبيبَ لى بالمراثِى
غيرَ أنّى لا أطيقُ اصطبارا * وأرانى صابراً لاِنتكاثى ٥
بإناث فى صِفاتِ ذُكورٍ * وذُكورٍ فى صفاتِ إناثِ

الضرب الثانى من المديد

وهو المقصور اللازم اللين

صدَعتْ قلبىَ صدْعَ الزُّجاجْ * مالهُ من حِيلة أو علاجْ
مَزَجتْ روحىَ ألحاظُها * بالهوى فهْو لروحى مِزاج ١٠
يا قضيباً فوقَ دعصِ نَقا * وكثيباً تحتَ تِمثالِ عاج
أنتَ نورى فى ظلامِ الدُّجى * وسراجى عندَ فقدِ السِّراج

الضرب الثالث من المديد

وهو المحذوف اللازم اللين

مُستهامٌ دمعُــه سائحُ * بينَ جنبيْه هوًى قادحُ ١٥
كلما أمّ سبيلَ الهُدى * عاقهُ السانِحُ والبارِح
حلّ فيما بينَ أعدائِه * وهو عن أحبابِه نازِح
أيّها القادِح نارَ الهوى * أضلَها يا أيّها القادحُ

الضرب الرابع من المديد

وهو المحذوف المقطوع ٢٠

عافَ منها كلَّ مطبوخٍ * غيرَ داذِيّ ومفضُوخٍ

واعْتقِدْ من أهلِ وُدِّ الحِمى * كلَّ وُدٍّ غيرِ مَشْدُوخ
وانْتَشِقْ رِيّاكَ مِنْ مُلْتَقَى * شاربٍ بالمِسْكِ ملطوخ
إنَّ فى العِـــلمِ وآثارِه * ناسخاً من بعدِ منسوخ

الضرب الخامس من المديد

٥ وهو المحذوف المخبون

ياجمالَ الرُّوحِ فى جسَدى * والذى يَفْتَرُّ عن بَرَدِ
وفريدَ الحُسنِ واحدَه * مُنْتَهاه مُنتهى العـــدَد
خُذْ بِكَفِّى إننى غرِقٌ * فى بِحارِ جَمَّــةِ المدد
ورِياحُ الهجرِ قد هَدَمتْ * ما أقام الوصلُ من أودى

الضرب السادس من المديد

١٠ وهو الأبتر

أذكَرَتْنى طـــيْرَ تاناذِ * قُرَى الكَرْخِ ببَغداذِ
قهوة ليست ببـارِقةٍ * لا ولا بِتعٍ ولا داذى
مُرَّةٌ يَهذِى الحليمُ بها * يأبى ذلك من هاذى
١٥ فهى أُستاذ الشرابِ بنا * والمَعانى دَأْبُ أُستاذ

الضرب الأول من البسيط

وهو المخبون

نورٌ تولَّدَ من شمسٍ ومن قمرٍ * فى طرْفه قدَرٌ أمضى من القدر
أصلَى فؤادى بلاذنبٍ جَوَى حرَقٍ * لم يبْقِ من مُهجَتى شيئاً ولم يذَرِ
٢٠ لا والرَّحيقِ المُصفَّى من مَراشِفِه * وما بخديه من وردٍ ومن طُرَر
ما أنصفَ الحُبُّ قلبى فى حُكومتِه * ولا عفا الشوق عنى عفو مُقتدر

الضرب الثانى من البسيط

وهو المقطوع

خرجْت أجتازُ قفرا غيْرَ مُجتازِ * فصادنى أشهلُ العينين كالبازِى

صقرٌ على كفِّه صقرٌ يؤلِّفهُ * ذا فوْق بغل وذاك فوق قفّاز

كم موعدٍ لىَ من ألحاظ مُقْلَتِه * لو أنه موعدٌ يُقْضَى بإنجاز ٥

أبكى ويَضحكُ منّى طرْفُه هُزُواً * نفسى الفِداءُ لِذاكَ الضاحكِ الهازِى

الضرب الثالث من البسيط

وهو المجزوء المذال

يا غصُناً مائِساً بين الرِّياطْ * مالى بعدَك بالعيش اغْتباط

يا مَن إذا ما بَدا لى ماشياً * وددْتُ أنّ له خدّى بساط ١٠

تتركُ عيناه مَن أبصره * مُختلِطاً عقلُه كلَّ اختلاط

قلتُ متى نلتقى يا سيِّدى * قال غدا نلتقى عند الصراط

الضرب الرابع من البسيط

وهو المجزوء السالم

ياساحرا طرْفُه إذ يَلحَظُ * وفاتِناً لفظُه إذ يلفِظُ ١٥

يا غُصُنا ينثنى من لِينِه * وجهُكَ من كلِّ عين يُحفَظُ

أيقظَ طرْفى إذا ما قد بَدا * من طرفِه ناعسٌ مُستيقِظُ

ظَبْىٌ له وجنةٌ من رِقّة * تجرَحُها مُقلَتى إذ تلحظُ

الضرب الخامس من البسيط

وهو المقطوع ٢٠

يا مَن دمى دونَه مَسفوكْ * وكل حُرّ له مملوك

كأنه فِضّــــة مَسبوكة * أو ذهبٌ خالصٌ مسبوك
ما أطيبَ العيشَ إلّا أنه * عن عاجـلٍ كُلّهُ متروك
والخيرُ مسدودة أبوابُه * ولا طـريقٌ له مسلوك

العروض المقطوع: المجزوء

ضربه مثـله

إليـكِ ياغُـرّةَ الهِلالِ * وبِدعةَ الحسنِ والجـالِ
مدَدتُ كفًّا بها انقِباضٌ * فأين كفّي من الهـلال
شكوْتُ ما بى إليْكِ وجْداً * فــلم تَرِقّى ولم تُبـالى
أعاضكِ اللهُ عن قريبٍ * حالًا منَ السُّقمِ مثلَ حالى

العروض الأول من الوافر: المقطوف

ضربه مثـله

بنفسى مَن مراشفه مُـدامُ * ومَن لحظاتُ مُقلتِه سِهـام
ومن هو إن بَدا والبدرُ تِمٌّ * خفى من حُسنِه البدرُ التّمام
أقولُ له وقد أبدى صُدوداً * فلا لفظٌ إلىّ ولا ابتسام
تكلمْ ليس يُوجِعُكَ الكلام * ولا يمحو مَحاسنَك السلام

العروض الثانى من الوافر مجزوء سالم

ضربه مثـله

سلبت الرُوحَ من بدنِى * ورُعْتَ القلبَ بالحَـزَنِ
فلِى بدنٌ بِلا رُوحٍ * ولى روح بِلا بدنِ
قرَنْتَ مع الرَدى نفسى * فنفسى وهو فى قرَنِ
فليت السحرَ من عينيـ * ـك لم أره ولم يَرنى

العروض الثالث من الوافر: المجزوء المعصوب

غزال من بنى العاصِ * أحسَّ بصوتِ قنّاصِ
فأتلع جِيــدَهُ ذُعرا * وأشخَصَ أىّ إشخاصِ
أيا مَن أخلَصت نفسى * هــواهُ كلّ إخلاصِ
أطاعكَ من صميمِ القلـ * ـبِ عفوًا كلُّ مُعتاص

العروض الأول من الكامل: التام

ضربه مثـــله

فى الكِلّة الصفراء ريمٌ أبيضُ * يشفى القلوبَ بمقلتيه ويُمرِضُ
لمّا غدا بين الحمـــولِ مُقوّضاً * كادَ الفؤادُ عن الحياة يُقوّض
صَد الكَرى عن جَفنِ عينكَ مُعْرِضاً * لمّا رآهُ يصُـــدُّ عنك ويُعْرِض
أديتُ من حُبى إليك فريضة * إن كان حُبُّ الخلقِ مِمّا يُفرَضُ

الضرب الثانى: المقطوع

أومَتْ إليك جُفونُها بوَداعِ * خَودٍ بدتْ لك من وراءِ قناعِ
بيضاء أنماها النعيمُ بصُفْرةٍ * فكأنها شمسٌ بغيرِ شعاعِ
أما الشبابُ فودّعَتْ أيامُهُ * ووَداعُهن مُوكَّل بوداع
لله أيامُ الصّـــبا لو أنّها * كرّت علىّ بلذّةٍ وسماع

الضرب الثالث: الأحذ المضمر

أصغَى إليك بكأسهِ مُصْغِ * صلتُ الجبينِ مُعقربُ الصُّدْغِ
كأس تُؤلّفُ بالمحبّةِ بيننا * طوْراً وتنزغ أيّما نزغ

فى روضةٍ درجتْ بزهرتِها الصبا * والشمسُ درجٌ من الفرَغ
فاشرب بكف أغنّ عقربُ صُدْ * غِهِ للقلبِ منك منيّةُ اللّدغ

الضرب الرابع: الأحذ الممنوع من الإضمار

العروض الثانى

٥ يا دُمْيةً نُصِبَتْ لِمُعتكِفٍ * بل ظبيةً أوفتْ على شرفِ
بل دُرّة زهراء ما سَكَنَتْ * بحراً ولا اكتنفتْ وراصدفِ
أسرفتِ فى قتـــلى بِلا تِرَةٍ * وسمعتِ قول الله فى السَّرَف
إنى أتوبُ إليـك مُعترفاً * إن كنت تقبلُ توبَ مُعترف

الضرب الخامس: الأحذ المضمر

١٠ يا فتنة بُعِثَتْ على الخلْقِ * ما بينها والموتِ من فرْقِ
شمسٌ بدت لك من مغاربِها * يفترُّ مبسمُها عن البرْقِ
ما كنتُ أحسبُ قبل رؤيتها * للشمسِ مطلعاً سوى الشّرْقِ
يا من يَضِنّ بفضلِ نائلِهِ * لو فى يديه مفاتح الرِّزْقِ

العروض الثالث، له أربعة ضروب [1]

١٥

الضرب السادس: المجزوء المرفل

طلعتْ له والليلُ دامِسْ * شمسٌ تجلّت فى حنادِسْ
تختـــالُ فى لينِ الجِا * سدِ بين حارسة وحارس
يا مَن لَبَهْجَـــةِ وجهِهِ * يستأسِرُ البطلُ المُمارس

---

(١) كان حق الترتيب الحجاوى أن يكون موضع هذه القطعة والتى تليها، قبل ذلك؛ على أن هنا موضعها من حيث التقسيم العروضى وانظر التعليق ص (٣٢٧) من هذا الجزء.

٢٠

لم يبقَ من قِبلِي سِوى * رسْم تغيّر فهْو دارِسْ

الضرب السابع : المجزوء المذال

دع قولَ واشيةٍ وواشْ * وآجعلْهُما كلَبى هِراشْ
وآشرب مُعتّقةً تسلْســلُ فى العظام وفى المُشاش

الضرب الثامن : المجزوء الصحيح

ألحاظُ عينى تلتَّهى * فى روْض وردٍ يزدَهى
رتَعتْ بها وتنزّهتْ * فيهــا ألذّ تنزُّهِ
ياأيُّها الخِنثُ الجفو * نِ بنخوةٍ وتكرُّهِ
والمُكْتَسِى غنجاً أما * ترْثى لأشعَث أمْرَهِ

١٠

الضرب التاسع : المجزوء المقطوع بسلامة الثانى

أطفَتْ شرارةَ لهْوِى * ولوَتْ بشدّةِ عذْوِى
شُعَلٌ علَوْنَ مفارِقى * ومضتْ ببهجةِ سرْوِى
لمّا سلكْتُ عَروضها * ذهبَ الزِّحافُ بجُزوى
ياأيها الشّادى صهٍ * ليست بساعةِ شدْوِ

١٥

الهزج له عروض واحد وضربان

(الضرب المجزوء الممنوع من القبض)

ألَا يادينَ قلبى للشّ * بابِ الغضِّ إذ ولّى
جعلْتُ الغىَّ سِربالى * وكان الرُّشدُ بى أوْلى
بنفسى جائر فى الحُـ * ـكم يُلْفى جورُه عدلَا
وليس الشهْدُ فى فيهِ * بأحلى عنده مِن « لا »

٢٠

الضرب الثاني: المحذوف

هنا تَفْنى قوافى الشِّــعرِ فى هـذا الرَّوِى[١]

قوافٍ أُلبسَت حلياً * من الُحسنِ البديّ

تعالتْ عن جريرٍ بل * زُهَـيْرٍ بل عــديّ

تم الجزء السادس

ويليه — إن شاء الله — الجزء السابع

وأوله كتاب الياقوتة الثانية ، فى علم الألحان واختلاف الناس فيه

---

(١) قلت : وأغفل باقى بحور الشعر ، إذ انتهت قافيته عنـد الياء ، وليس بعد الياء هجاء . . .

صفحة

صحيفة

